

إمبراطورية الإسلام في حوض النيل

قصة أول حرب جهادية
في العصر الحديث
1869 - 1899

دومينيك غرين

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

في بلد عربي كبير تسقط حكومة استبدادية علمانية بفعل تدخل غربي لكن تحركاً ارتدادياً إسلامياً يجعل القوى المحررة قوات احتلال.

رئيس وزراء يقع بين مطرقة قوات التدخل في بلاده وسندان الحركة الإسلامية خارج بلاده فيتعثر ويسقط. خانه وزراؤه وانهارت تحالفاته. وجنرال هارب يصنع السياسة في ميدان المعركة. وبينما يوجه الإعلام اتهاماته إلى الجنود الغربيين بارتكاب أعمال بربرية ووحشية وبينما تنزلق المنطقة كلها في فوضى عارمة يقوم جند الله بهجومهم على ضفاف نهر عرف منذ القدم وتنشأ إمبراطورية عابرة.

ليس هذا هو الشرق الأوسط في القرن الواحد والعشرين.

إنما هي أفريقيا في القرن التاسع عشر حين كان النيل مسرحاً لأول صدام كبير بين الغرب والإسلام في العصر الحديث. لقد كان من شأن هذه المسرحية الإنسانية والدينية أن طبعت عالمنا بطابعها وكانت النذير لأزمات تحدث في أيامنا هذه.

ففي خضم صراع استثنائي بين الأوروبيين والعرب والأفارقة ظهرت ثلاث إمبراطوريات في غضون ثلاثين عاماً.

كانت الإمبراطورية الأولى تلك الألعوبة الصغرى بيد حاكم مصري مستبد وقد سقطت فريسة بين التدخل الأوروبي والقومية العربية. أما الثانية فكانت نزوة إسلامية لرؤيا معينة قادها مخلّص مسلم وقد سقطت أمام التوسع الأوروبي في أفريقيا. وأما الثالثة فهي الإمبراطورية البريطانية التي جاءت على متن اهتمامات إنسانية لكنها بقيت واستمرت بفعل وحشية قوتها.

(تابع على الطية الخلفية للغلاف)

إمْبَرَاطوريَّة الإسْلام في حَوْض النِيل

1869 ـ 1899

قصة أول حرب جهادية في العصر الحديث

دومينيك غرين

ترجمة

وليد شحادة

دار الكتاب العربي

بيروت ـ لبنان

إمبراطورية الإسلام في حوض النيل

ISBN: 978-9953-27-904-6

Authorized Translation from the English Language Edition:

Armies of God

Dar Al Kitab Al Arabi دار الكتاب العربي

P.O.Box 11-5769 ص. ب.
Beirut 1107 2200 Lebanon بيروت، 2200 1107 لبنان
Tel (+961 1) 800811-862905-861178 هاتف
Fax (+961 1) 805478 فاكس
E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني

www.dar-alkitab-alarabi.com

المحتويات

مقدمة المترجم

بين يدي القارئ الكريم ترجمة لكتاب يحكي قصة أول صدام بين الإسلام والغرب في العصر الحديث، أو كما يقول بعض المعلّقين من الممكن أن تكون قصة لما يجري في عصرنا الراهن. إنها قصة نشوء إمبراطورية إسلامية على ضفاف النيل إلى الجنوب من مصر. وتغطي فترة لا تتجاوز ثلاثين عاماً امتدت من عام 1869 حين أقام الخديوي إسماعيل احتفالاً رسمياً بافتتاح قناة السويس أمام الملاحة البحرية لتصل بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، ولتختصر الطريق إلى المستعمرات البريطانية في الهند آنذاك، وانتهت مع انتهاء القرن التاسع عشر.

شهدت هذه الفترة كما يقول المؤلف نشوء وسقوط ثلاث إمبراطوريات. فكانت القارة الإفريقية ونهر النيل على وجه الخصوص مسرحاً لأول صدام دموي بين الإسلام والغرب، حين نشأت إمبراطورية المهدي الإسلامية. وحاول الخديوي إسماعيل، الذي يُعَدّ المؤسس الثاني للدولة المصرية بعد جده الأكبر محمد علي أن يجعل مصر دولة حديثة تأخذ بكل ما من شأنه أن ينهض بمصر ويحاول الانفصال عن الدولة العثمانية. فجاء بالمهندسين والخبراء الأوروبيين ليضعوا أسس الدولة العصرية، لكنه أرهق الاقتصاد المصري بتحميله الكثير من الديون، ما أدى إلى فرض السيطرة البريطانية على مصر. لست بمعرض الدخول في تفاصيل القصة فالقارئ الكريم سيجد تلك التفاصيل على صفحات هذا الكتاب. لكنني لا بد لي من القول إن هذا الكتاب، فضلاً عن كونه يؤرخ لفترة معينة من الزمن، فهو رائعة أدبية خطتها ريشة فنان، يتحرك بخفة ورشاقة على مسرح العالم القديم، ينقل المشاهد دون أن يدري من مصر إلى السودان وإلى

بريطانيا والدولة العثمانية، ولا ينسى أن يتوقف في أوروبا ليحكي قصة التهافت الأوروبي على القارة السمراء. يصور الشخصيات بقلمه لنراها تنبض بالحياة وهي تتحرك أمامنا. وبريشته أيضاً يرسم لوحات بانورامية لمعارك وقعت بين مقاتلين كانوا في بادئ الأمر ينأون بأنفسهم عن استعمال الأسلحة الحديثة ويفضلون السيف والرمح، ثم يرون أنه لا مفر من استخدام البندقية، يخوضون حرباً شعواء ضد جنود بريطانيين اختبروا الحرب وحققوا الانتصار.

ولكن أمام هذه المشاهد كلها التي تشد القارئ شداً لمتابعة القراءة، وعلى الرغم من وفرة المصادر التي استعان بها المؤلف لا يسع المرء إلا أن يتذكر ما يقوله نقاد التاريخ، إذ يؤكد هؤلاء وبإجماع الآراء تقريباً أن الرواية التاريخية جزء لا يتجزأ من نظرة المؤرخ لها. إن وجد فيها ما يوافق هواه مَجَّدَه وأطنب في توصيفه. وإن لم يجد فيها ما يحبه قدمه بصورة مغايرة، لا تخلو من صور قد ينفر القارئ منها.

وبرغم ذلك فهو كتاب جدير بالقراءة والدراسة. وهو إلى جانب أسلوبه الأدبي البديع المشوق يتضمن معلومات غنية حول تلك الحقبة من الزمن وما شهدته من أحداث في بقعة من القارة الإفريقية أخذت تستأثر باهتمام الكثيرين حالياً من عرب وأجانب. وإنني ومن خلال حرصي على احترام الأمانة العلمية في الترجمة نقلت المعلومات كما هي. قد لا أتفق مع ما يقوله المؤلف في مواطن كثيرة وبذلك أشدد على تحفظي وبخاصة حين يرجع أسباب التخلف والفقر والجهل والرق في تلك القارة إلى أسباب كانت إلى حد ما بعضاً من دوافع الاستعماريين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

أرجو أن يجد القارئ المتعة والفائدة في هذا الكتاب من خلال هذه الترجمة التي أضعها بين يديه بكل تواضع وأن لا يغيب عن باله بأنه على الرغم مما قد لا يتفق مع ما يجده في الكتاب، وهذا شأني أنا أيضاً، فإنه كتاب قيم يضاف إلى المكتبة العربية. والله من وراء القصد.

شخصيات الكتاب

عباس الثاني: المعروف بعباس حلمي، حاكم مصر المراهق الألعوبة في عهد اللورد كرومر

عباس باشا: ابن طوسون بن محمد علي، عُرف عنه رُهابه من الأجانب

محمد عبده: رجل دين مصري راديكالي

عبد العزيز: السلطان العثماني في تركيا 1861 ـ 1876

عبد الحميد الثاني: السلطان العثماني، وريث عبد العزيز

جمال الدين الأفغاني: مؤسس الحركة الإسلامية

محمود سامي البارودي: سياسي مصري، تولى عرابي برعايته

جمعية مناهضة الرّق: جماعة ضغط في لندن ولها تأثيرها ونفوذها

سير صمويل بيكر: صياد ومستكشف وخبير ثقة بشؤون حوض النيل

فالنتاين بيكر: أدين بتهمة الاعتداء الجنسي وفيما بعد عين قائداً للشرطة المصرية

سير إيفلين بيرنغ (اللورد كرومر): الحاكم الإداري البريطاني لمصر

ولفريد بلانت: شاعر راديكالي محب للإسلام

جوزيف تشامبرلين: سياسي راديكالي واستعماري عن قناعة أكيدة

سير أوكلاند كولفيل: المفوض البريطاني لشؤون الديون المصرية

تيوفيل ديلكاسيه: سياسي فرنسي واستعماري

سير تشارلز ديلكه: عضو راديكالي في حكومة غلادستون

وليم غلادستون: رئيس وزراء بريطانيا من الأحرار وهو في شيخوخته

أوغستا غوردون: شقيقة غوردون "الصيني" وهي من البروتستانت الإنجيليين

تشارلز جورج غوردون "الصيني": رجل عسكري ومستكشف ومرتزقة ومتصوف باطني

هنري غوردون: ضابط، وهو شقيق غوردون "الصيني"

وليم غوردون (القرد): ابن هنري غوردون، وابن شقيق غوردون "الصيني"

لورد "بوسي" غرانفيل: وزير الخارجية في حكومة غلادستون، وهو أرستقراطي من حزب الأحرار

غابرييل هانوتو: رئيس وزراء فرنسا

اللورد "هارتي تارتي" هارتنغتون: وزير الدولة للشؤون الحربية في حكومة غلادستون

الكولونيل وليم هيكس باشا: عسكري متقاعد لكنه كثير الطموح

الخديوي إسماعيل: رائد التجديد وصاحب رؤية لكنه مضارب متهور

إسماعيل أيوب باشا: الحاكم الكردي للخرطوم، اشتهر بفساده

إسماعيل صديق باشا: وزير مالية مصري، قتله الخديوي

عبد الله التعايشي: جنرال مع المهدي وهو من قبيلة البقارة وخليفة المهدي.

الجنرال سير هربرت كتشنر: من المعجبين بغوردون وهو مؤسس الجيش المصري

الملك ليوبولد الثاني: مؤسس الإمبراطورية النرويجية في إفريقيا

فرديناند دو ليسبس: مهندس فرنسي، وضع ونفذ مشروع قناة السويس

الميجر جنرال هكتور ماكدونالد: جنرال اسكتلندي عنيد الطباع

محمود أحمد: أحد جنرالات المهدي، وهو ابن شقيق عبد الله خليفة

جان باتيست مارشان: عسكري فرنسي استعماري

محمد علي: قائد عسكري من ألبانيا ومؤسس الأسرة العلوية في مصر وإمبراطوريتها في السودان

محمد سعيد باشا: الوريث العاجز لعباس باشا

منليك الحبشي: شيخ قبيلة وحليف فرنسا

محمد أحمد: أحد متصوفي دنقلة، وقد أعلن نفسه المهدي

نوبار باشا: سياسي مصري عرف بفساده وهو من أصل أرمني مسيحي

عثمان دِقْنَة: من حلفاء المهدي وتاجر رقيق من قبيلة هدندوة

فرانك باور: مراسل صحيفة تايمز اللندنية في الخرطوم

رياض باشا: "يهودي جبلي" في الحكومة المصرية، من أنصار النظام الشمولي

اللورد روزبري: استعماري من حزب الأحرار كثير الطموح

اللورد سالزبوري: من حزب المحافظين، تولى رئاسة الحكومة ثلاث مرات

شريف باشا: عضو في الحكومة المصرية من أصل تركي، نادى بالإصلاح

الجنرال سير هربرت ستيوارت: جنرال لدى ولسلي، قائد رتل الصحراء

الكولونيل جون دونالد ستيوارت: ضابط استخبارات مرافق غوردون

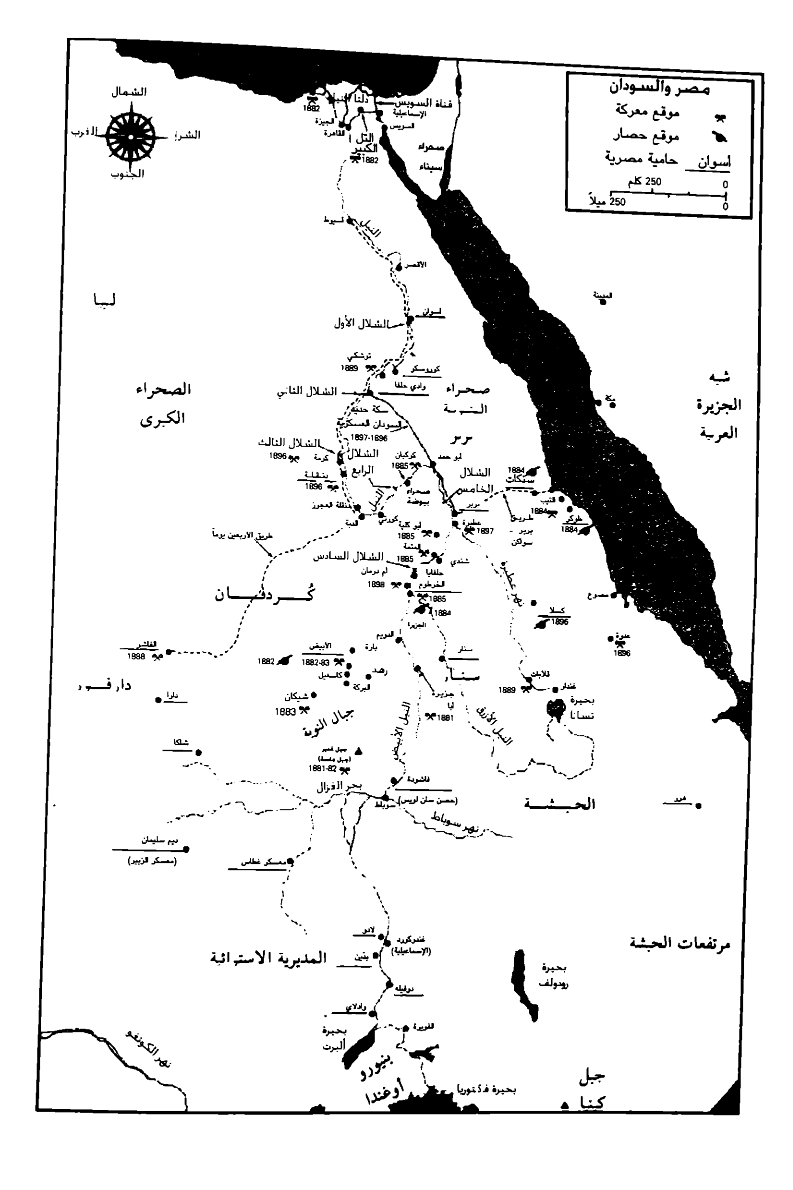
الخديوي توفيق: ابن إسماعيل، وهو ألعوبة وشخصية ضعيفة جداً ومنحرف

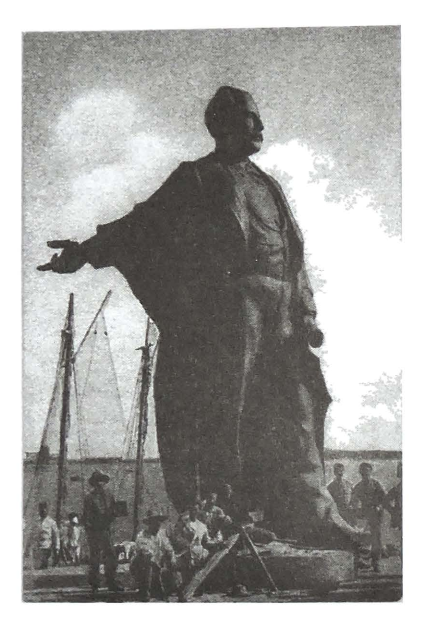
الكولونيل أحمد عرابي: ضابط مصري، قاد ثورة قومية في العام 1881

السير تشارلز ولسون: رئيس استخبارات ولسلي

الجنرال سير غارنت ولسلي: قائد عسكري طموح وذكي جداً

زبير رحمت: باشا مصري وتاجر رقيق


مصر والسودان
موقع معركة
موقع حصار
أسوان حامية مصرية
0 250 كلم
0 250 ميلاً
الشمال
الجنوب
دلتا النيل
1882
الجيزة
القاهرة
قناة السويس
الإسماعيلية
السويس
التل الكبير
1882
صحراء سيناء
أسيوط
النيل
الأقصر
ليبيا
أسوان
الشلال الأول
الصحراء الكبرى
شبه الجزيرة العربية
توشكي
1889
كوروسكو
وادي حلفا
الشلال الثاني
صحراء النوبة
سكة حديد السودان العسكرية
1896-1897
الشلال الثالث
كرمة
1896
دنقلة
1896
الشلال الرابع
كركبان
1885
أبو حمد
بربر
الشلال الخامس
سنكات
1884
طوكر
1884
عطبرة
1897
طريق بربر - سواكن
صحراء بيوضة
كورتي
الدبة
أبو كلية
1885
المتمة
شندي
الشلال السادس
أم درمان
حلفايا
الخرطوم
1898
1885
1884
كردفان
طريق الأربعين يوماً
الفاشر
1888
كسلا
1896
مصوع
عدوة
1896
الأبيض
1882-83
1882
الدويم
الجزيرة
سنار
دارفور
شيكان
1883
جبال النوبة
القلابات
1889
بحيرة تسانا
النيل الأزرق
النيل الأبيض
1881
جبل قدير
1881-82
فاشودة
بحر الغزال
سوباط
نهر سوباط
الحبشة
مرتفعات الحبشة
ديم سليمان
(معسكر الزبير)
دارا
شكا
لادو
غندكورو
(الإسماعيلية)
المديرية الاستوائية
بحيرة رودولف
دوفيله
وادلاي
بحيرة ألبرت
الفويرة
بنيورو
أوغندا
بحيرة فكتوريا
جبل كينيا
نهر الكونغو



تمثال فرديناند دو ليسبس بارتفاعه البالغ 40 قدماً يشرف على الملاحة في قناة السويس من رصيف في بور سعيد

كلمة تمهيدية

بور سعيد

1869

في صباح السابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام تسعة وستين وثمانمئة وألف أفاقت القارة الإفريقية لتجد نفسها وقد استحالت إلى جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب. فقد عمل هذا الممر المائي الحديث على شق ذلك البرزخ الفاصل بين إفريقيا وآسيا فامتزجت مياه المتوسط بمياه البحر الأحمر. ومنذ ذلك اليوم صارت الخرائط تبين أن ثمة 250 قدماً تفصل بين هاتين القارتين، وباتت برامج الشحن البحري تعلن للملأ جميعاً أن بريطانيا قد ازدادت قرباً من الهند مختصرة مسافة 4000 ميل. كان ذلك يوماً دُشِّن فيه افتتاح قناة السويس باحتفالات عمّتها الأفراح والألعاب النارية وصدحت فيها الموسيقى وسط بذخٍ بأموال مقترضة وضحايا من المصريين.

في ميناء بور سعيد على البحر المتوسط التجأ ما يقرب من ستين باخرة من ما يزيد عن عشر دول في أكبر ميناء صناعي تم بناؤه حتى الآن تنتظر إشارة لدخول القناة. ومع أنغام النصر التي تعزفها الموسيقى العسكرية يتخذ المدعوون أماكنهم في المنصات التي نصبت لهذه الغاية، أما صاحب الدعوة فهو الخديوي إسماعيل الذي جاء إلى المنصة تصحبه إمبراطورة النمسا والمجر وأمير بروسيا وكاهن الاعتراف المرافق للإمبراطورة وكذلك شيخ الجامع الأزهر الذي كان في ذلك الحين أول جامعة في العالم الإسلامي، وقد أحاط بهؤلاء الضيوف جميعاً القناصلة الأوروبيون والوزراء المصريون.

عند أسفل المنصة تجمعت جموع هائلة من الشباب الأصغر سناً، فكان المنظر في تلك المساحة المحاذية لرصيف الميناء خليطاً عجيباً من الأفراد

بملابس متنوعة، اختلط الطربوش التركي مع الخوذة البروسية، وامتزج الرداء الرجالي الحديث مع الجلابية وترافق الحجاب مع الشمسية. أما الممولون الفرنسيون فقد جاؤوا يشقون طريقهم إلى جانب ما تبقى من رجال الأعمال العثمانيين - يونان، وأرمن ويهود قدموا جميعاً من الإسكندرية، يصحبهم كبار تجار القطن الأتراك وضباط الجيش الأقباط - وإلى جانب هؤلاء جميعاً التقت صفوة من المجتمع المصري مع المزارعين من الفلاحين العرب والعبيد الأفارقة الذين اغتنموا هذه الفوضى وظهروا في المشهد.

أما المهندس الفرنسي فرديناند دو ليسبس فقد وقف ينتظر مرتدياً بزة رجال الأعمال الداكنة وسط ذلك التنوع المدهش من الألبسة العسكرية والثياب المزركشة وغيرها. فقد كانت هذه المناسبة تتويجاً لعمل دؤوب وكفاح امتد على مدى خمسة عشر عاماً قاوم فيه الرمال والسياسيين وأصحاب المصارف. لم تكن ثمة عقبة على الصعيد الدبلوماسي أو الجيولوجي مهما كبرت ولم يستطع هذا المهندس أن يذللها بهدوئه وهوسه. عمل في حفر الأرض أو تفجير الصخور. ومثلما فعل في رمال رطبة أو صخور صلبة أزاح عن كاهله معارضة السلطان العثماني ورئيس الوزراء البريطاني، واستمال الدعم الدبلوماسي والتمويل من فرنسا. أقنع الإمبراطور نابليون الثالث بحكايته عن سراب إمبراطورية كبرى وأغرى الشعب الفرنسي بحصص في الاقتصاد العالمي تولّد ربحاً لأصغر المستثمرين. وقد أشرف شخصياً على أدق التفاصيل، وخطط لصفقات مالية كثيرة التفاصيل ربطت كلاً من الحكومة المصرية وفرنسا بشركته المعروفة باسم شركة قناة السويس. صمم الحفارات الميكانيكية عندما رأى عدم جدوى أدوات الحفر اليدوية التي استخدمها العمال المصريون في التعامل مع تربة كثيرة المياه، حتى إنه أعد شخصياً قائمة المدعوين لحضور الاحتفال وعروض الألعاب النارية لحفل التدشين.

وقد وقف الآن متململاً ينتظر. فالقناة بعمق 72 قدماً وعرض 26 قدماً، وأول سفينة ينبغي أن تعبر القناة بحسب قواعد البروتوكول يجب أن تكون اليخت الخاص بالإمبراطورة يوجيني، وهو يخت عريض يفتقد إلى الرشاقة، إذ

يبلغ عرضه عند جسره 60 قدماً وطوله 300 قدم. في الحفل التجريبي الجاري في اليوم السابق جنحت إلى اليابسة سفينة أكثر رشاقة وخفة تابعة للبحرية المصرية. وقد أمر دو ليسبس بتفجيرها ليفسح المجال لغيرها قبل أن يصل المدعوون، لكن حادثة كهذه تحدث اليوم قد تكون كارثة اقتصادية ودبلوماسية، سيما وأن عيون العالم أجمع متجهة إلى قناة السويس.

كان المقصود من قناة السويس في موقعها هذا الذي يصل بين أوروبا وآسيا وإفريقيا أن تكون موحِّدة الحضارات وقناة تنتقل عبرها الاهتمامات الحديثة بالتجارة والنقل. ففي الربع الثالث من القرن التاسع عشر شهد الاقتصاد العالمي ازدهاراً متنامياً. فالآلات الجديدة التي انتشرت في أوروبا وأمريكا وكذلك وسائل الإنتاج الكمي الهائل أطلقت ثورة اقتصادية لا يمكن إيقافها أو السيطرة عليها وجعلت الفلاحين في الريف عمال مصانع في المدن. وسرعان ما انتشر نبض الآلة في العالم بأسره وطوّق البحار ببواخر مصنوعة من الحديد وتعمل بقوة دفع من الفحم. وعبر القارات والحدود نُفِّذَت مشاريع السكك الحديدية وأحيطت المساحات الشاسعة من اليابسة والبحار بكوابل البرق الكهربائية. فنشأت حضارة عالمية قائمة على تكنولوجيا الغرب وتنطق بالإنكليزية أو الفرنسية. وفي كلمة جامعة ألقتها الملكة فكتوريا لدى زيارتها إلى القصر البلّوري في المعرض الكبير عام 1851 قالت: "نحن الآن قادرون على فعل كل شيء"[1].

تلك كانت روح العصر: القوة الصناعية الهائلة والتفاؤل السريع التقلب. ففي فرنسا أطلقت جماعة سان سيمون الطوباوية والتي كان فرديناند دو ليسبس من أتباعها تنبؤاتها بأن هذا اللقاء بين التكنولوجيا والتجارة والاتصالات لا بد وأن يتوّج بانتصار حضارة تجارية متحررة. وكما تنبأ ريتشارد كوبدن Richard Cobden العقائدي البريطاني بأن التجارة الحرة هي "دبلوماسية إلهية"، والاعتماد المشترك والمتبادل فيها هو أفضل ضمانة ضد الحروب[2]. والذي حدث فعلاً أن هذه الرؤية قد صارت واقعاً ملموساً في الفترة الفاصلة بين المعرض الكبير عام 1851 وافتتاح قناة السويس. فالابتكارات الحاصلة في مجال

النقل والمواصلات أوجدت مصادر جديدة للمواد الأولية وأسواقاً جديدة لبضائع المعامل. تشير الإحصاءات إلى أن الدول الكبرى في العالم سجلت تبادلاً تجارياً سنوياً في عام 1840 بلغ نحو 20 مليون طن من سلع منقولة عبر البحار وقد تضاعف هذا الرقم أربع مرات عام 1896 ليصل إلى 88 مليون طن. وارتفع حجم الفحم المشحون بالبواخر من 1.4 مليون طن إلى 31 مليون طن، كما ارتفع الحديد من مليون طن إلى 6 ملايين طن، والحبوب من مليونين إلى 11 مليون طن، بالإضافة إلى 1.4 مليون طن من سلعة جديدة لم تكن معروفة سابقاً في التجارة الدولية هي البترول.

وشهدت بريطانيا، الدولة الأكثر صناعية في العالم، تزايداً هائلاً في حجم مبادلاتها التجارية مع باقي دول العالم. فقد ارتفع دخلها من صادراتها إلى الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية من 3.5 ملايين جنيه عام 1848 إلى 15 مليون جنيه عام 1869. وبسبب اندماج الهند في الاقتصاد العالمي نتيجة بنائها لمنظومة من السكك الحديدية الداخلية أتاحت لها تصدير المحاصيل الزراعية وتوزيع البضائع المستوردة ارتفعت الصادرات البريطانية إلى أعلى مستوى ربحي لها من 5 ملايين جنيه عام 1848 إلى ما يزيد عن 20 مليون جنيه[3].

ومع تسارع الاتصالات والأسفار صغر العالم. في عام 1869 بلغ حجم الرسائل المنقولة عبر منظومة البرق بين بريطانيا والهند إلى نصف مليون رسالة[4]. وفي مرحلة سابقة من ذلك العام أنهى المهندسون الأميركيون ربط السواحل الأميركية بعضها ببعض بعد إنجاز تمديد خط سكة الحديد عبر القارات Transcontinental Railroad. وبذلك صار الطريق إلى الشرق مفتوحاً. وهكذا ازداد التفاؤل وارتفعت أسعار الأسهم وانتشرت الآمال الكبار مسرى النار في الهشيم انطلاقاً من السويس. فالاقتصادات الأوروبية يجب أن تصل إلى الخارج إلى الجنوب وإلى الشرق لتواصل نموها. وهذه القناة سوف تتيح تدفق المواد الأولية بسرعة وبأثمان زهيدة من الشرق إلى المعامل في أوروبا التي ستعيد تصدير البضائع المصنعة بحركة مد كبير جالبة معها الحضارة والأرباح. وكما

كان نهر النيل يغذي مصر منذ أقدم العصور ستكون هذه القناة بما تقدمه من إيرادات النقل الشريان التجاري لمصر المعاصرة. فالتقدم الذي ينظر إليه على أنه معبود هذا العصر سوف يأتي على متن تلك السفن العابرة لقناة السويس مختصرة الطريق.

والآن، وعلى ضفاف الميناء في بورسعيد كانت الفرق الموسيقية العسكرية تصدح بنغمات دينية من ثلاثة أجزاء. بدأ الاحتفال بكلمة إمام مسلم وصف القناة بأنها من أجل مصر جديدة ومعاصرة، أعقبه مطران القدس الذي مثل الكنيسة الأرثوذكسية وبارك التطلعات التجارية لهذه القناة، واختتم هذا الاحتفال الديني الأب ماري برنار باور كاهن الاعتراف الكاثوليكي للإمبراطورة يوجيني متمنياً الوئام والتوافق بين المسيحية والإسلام واصفاً هاتين الديانتين بأن لهما جذوراً مشتركة وتاريخاً اتسم بعنف المنافسة آملاً أن توحّد بينهما هذه القناة كما فعلت في توحيدها بين المشرق وما فيه من فخامة وبهاء والمغرب وما فيه من روعة وجمال.

فقد قال: "اليوم يتوحّد عالمان. اليوم نشهد احتفالاً مهيباً للإنسانية جمعاء. ليبارك الله هذا الطريق الجديد. وليجعل هذه القناة ليس فقط ممراً لازدهار عالمي وإنما طريقاً سهلاً للسلام والعدالة، للنور والحقيقة الخالدة"[5].

في تلك الأثناء أطلقت السفن الدولية الراسية وراء الحاجز المائي بضع طلقات من مدفعيتها هدرت مثل الرعد واصطفت في رتل منظم وراء يخت الإمبراطورة يوجيني "(النسر) Eagle" ويخت الخديوي إسماعيل "المحروسة". وتقدمت ببطء إلى داخل القناة دون أية حادثة وتابعت مسيرها بموكب مهيب. كانت القناة ضيقة وضحلة العمق لكنها نفذت بدرجة عالية من الإتقان تتجه جنوباً من مدينة بورسعيد الجديدة وحتى الصحراء فالبحيرات المرة ثم إلى مدينة جديدة أخرى هي الإسماعيلية وأخيراً ميناء السويس على البحر الأحمر.

توقف هذا الأسطول الصغير في منتصف الطريق عند الإسماعيلية حيث أقيم كرنفال مثير للحماس. واشتد التنافس بين لاعبي الألعاب البهلوانية وملتهمي النيران من جهة وبين الدراويش الصوفيين المولوية الراقصين والرماة من على ظهور الخيل من آلاف البدو الذين نصبوا خيامهم خارج المدينة. في تلك الليلة كانت الفوانيس الصينية تضيء الطريق الرملي المؤدي إلى قصر الخديوي الجديد حيث تزاحم المدعوون وغير المدعوين ليجدوا أماكن لهم على موائد الطعام، وشاهدوا بإعجاب شديد عرضاً للألعاب النارية عند منتصف الليل وشاهدوا الخديوي والإمبراطورة يرقصان الفالس على أنغام لحن "المغادرة إلى سورية" تلك المعزوفة الرومانسية المأخوذة من عصر نابليون.

وفي اليوم التالي تابع ذلك الأسطول رحلته إلى السويس، حيث قوبل بهتافات النصر عند وصوله وبطلقات مدفعية وبألعاب مسرحية ونارية. لكن عودة المحتفين إلى الشمال استغرقت بضعة أيام، والذين لم يستطيعوا أن يجدوا مكاناً لهم في القطار المتجه إلى القاهرة تقطعت بهم السُّبُل وظلوا عند البحر الأحمر ولم يشاهدوا تلك الرقصة الأخيرة في القاهرة ولم يشهدوا سباق الخيل قرب الأهرام. وتحمّل الخديوي إسماعيل نفقات كل شيء. الباعة الذين كانوا يوزعون القهوة التركية على المحتفين، وأصحاب المقاهي الذين قدموا التبغ المعسل والنارجيلة عندما شاء هؤلاء أن يجلسوا، وأصحاب الفنادق الذين استضافوا من أقام عندهم من هؤلاء، أرسلوا جميعاً فواتيرهم إلى المحاسبين الأقباط عند الخديوي في القاهرة.

وهكذا فُتحت القناة أمام التجارة. أما دو ليسبس فقد تزوج من فتاة تبلغ من العمر ثلث عمره وبدأ يخطط لفكرته الجديدة بشق قناة بنما. عاد المدعوون إلى قصورهم في أوروبا وهم على يقين أنه طالما تغيرت الجغرافيا فيجب أن تتبعها السياسة. لقد كانت القناة الشريان الجديد للاقتصاد العالمي، ولكن هل ستجلب معها السلام والازدهار؟ هل سيتلاشى ذلك التناغم الديني والتفاؤل الدولي اللذين طبعا مراسم الافتتاح بطابعهما مثلما تلاشت الأفراح والليالي الملاح؟ ماذا سيحدث عندما يلتقي العصر الجديد للابتكار التكنولوجي وللدول

المستقلة ذات السيادة مع النظام القديم الذي ساد فيه الدين وحكم الفرد؟

من قصره المطل على البوسفور كان السلطان العثماني عبد العزيز يبسط سلطانه على مساحة تزيد عن مليون ميل مربع تمتد ما بين إفريقيا وأوروبا وآسيا: من القاهرة في الغرب وحتى بغداد في الشرق، من سفوح جبال البلقان في الشمال وحتى السواحل الصخرية في جنوب الجزيرة العربية. هو الثالث والثلاثون من السلالة العثمانية التي أنجبت حكاماً حكموا بسلطة فردية وكان منهم المحاربون الأشداء والمهووسون بالسلطة على امتداد ستة قرون، وهو السادس والعشرون في ترتيب خلافته للمسلمين. ففي تلك السلطة التي تجمع الدين والدنيا معاً يكون السلطان أميراً للمؤمنين والزعيم الروحي لمسلمي العالم والحارس الأمين للأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة.

وهو إلى جانب ذلك أكبر مالك غير مقيم في العالم. لكن إمبراطوريته التي أصابها التعفن بسبب الفساد وغلو المحافظين والخوف من الأجانب كانت تتداعى مثل قصر صيفي أهمله صاحبه. كانت الصادرات الأوروبية تحاصر مرافئه والأسلحة الأوروبية تدك جيوشه والديون الأوروبية ارتهنت مستقبله، وكان الفيروس الأوروبي المعروف باسم القومية ينخر نخراً بطيئاً عند بوابته. في عام 1683 حاصر الجيش التركي مدينة فيينا لكن تحالفاً أوروبياً استخدم الأسلحة الحديثة رده على أعقابه. والآن وبعد مضي قرنين من الزمان أو أقل تَشَكَّل تحالف أوروبي جديد فتح بوابة له نحو الشرق عبر مركز جغرافي للإمبراطورية العثمانية وبدعوة من الخديوي الثائر في مصر العثمانية.

لم يكن السلطان العثماني يملك القوة للمقاومة. فهذا الإمبراطور الذي اتخذ شعاراً له كلمة "المظفر"، والذي كان أجداده مصدر رعب لنصف أوروبا، بات على درجة متدنية جداً بين أولئك الأعضاء الذين عرفوا بـ "الدول الكبرى"، كما صار الأوروبيون يدعون أنفسهم. ومع ذلك ظلوا يخاطبونه بـ "الباب العالي" - نسبة إلى البناء الذي كان يضم وزارة الخارجية ـ لكن هذا الخطاب لم يكن سوى خدعة دخيلة. فهم كانوا يطلقون على تركيا فيما بينهم لقب "رجل أوروبا

المريض"، ووصفوا علاجه "بالمسألة الشرقية": فهل كان ذلك لغرض إبقائه على قيد الحياة بقصد الربح أم لإنهائه بغية الحصول على إرثه؟

كان الروس أول من شخّصوا حالته، وأرادوا قتله بغية الوصول إلى المياه الدافئة والحصول على مرفأ على البحر الأسود، وبالتالي الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط. وأراد النمساويون والطليان الحفاظ عليه، وذلك لسبب رئيسي عندهم ألا وهو الوقوف بوجه الروس. أما الفرنسيون الذين تعجّلوا مرضه الأخير فقد حاولوا الإبقاء عليه ليكونوا المستفيد الأوحد من وصيته. والبريطانيون الذين كان طريقهم البري إلى إمبراطوريتهم الهندية يمر بأراض تركية فقد أوكلوا لأنفسهم مهمة حارس سرير المريض. لكن قناة السويس كانت بنظر عبد العزيز رأس جسر للغرب في قلب إمبراطوريته، إنما في الوقت نفسه كانت فرصة ثمينة له لو أراد أن يخلق نزاعاً بين الأوروبيين لعله يستعيد مصر.

وكان من المقدر أن تكون مصر مسرح الصدام بين الغرب الصاعد والشرق المتراجع وما سيفرزه هذا الصراع من نتائج مذهلة. في عام 1798 كسر نابليون القبضة العثمانية على مصر، لكن القوات البريطانية والتركية معاً سرعان ما أخرجته منها، إنما بقي الأثر الثقافي. فاحتفظت مصر بتلك النسخة النابليونية للدولة الحديثة والمتمثلة بجيش حديث وبيروقراطية وآلة طباعة كان نابليون قد سرقها من الفاتيكان. واستغل محمد علي تلك الفوضى. فهو تاجر تبغ ألباني عمل جندياً مرتزقة في الجيش التركي وأجبر السلطان العثماني على تعيينه باشا على مصر. فأسس محمد علي بدعم فرنسي حكماً استبدادياً له فاعليته. قتل المماليك وأبادهم وجاء بالخبراء الفنيين الفرنسيين إلى مصر وأرسل البعثات المصرية إلى باريس للتزود بالعلم والتدريب.

كان محمد علي بحاجة إلى المال والرجال في صراعه ضد السلطنة العثمانية فتوجه إلى الجنوب، إلى بلاد السودان، أو أرض السود كما يحلو للبعض أن يسميها. لقد كان أولئك السود الروحانيون الذين يؤمنون بأن لكل شيء في الطبيعة روحاً بما في ذلك الظواهر الطبيعية الخزان البشري الذي يمد

مصر على الدوام بالمواد البشرية، وكانوا بنظر المصريين مورداً ينبغي استثماره كما يُستثمر الذهب أو العاج أو ريش النعام. وكان محمد علي من خلال ثنائية نمطه الوراثي يجمع بين النموذج العثماني للرق العسكري والنموذج الأوروبي للرق الصناعي. وهكذا عمل العبيد السودانيون في مزارع القطن لديه وساروا في حملات جيوشه العسكرية يعانون أشد المعاناة في أسواق النخاسة الضخمة في القاهرة.

عندما وصلت جيوش محمد علي إلى حدود تركيا ردتها القوى العظمى على أعقابها. لكن عزاءه في ذلك كان حكماً وراثياً في مصر. فكانت له السلالة الحاكمة التي أرادها ولم تكن له الإمبراطورية الكبرى التي حلم بها. لكنه مع الزمن صار يعاني على نحو متزايد من أمراض الشيخوخة ومن الخرف المصاحب لتقدم العمر وكانت تنتابه في لحظات صحوه مشاعر رؤية أشباح ضحاياه. وكما تلاشت أحلامه بإمبراطورية واسعة أخذ جسمه النحيل يتلاشى. وعندما يزوره السياح الأوروبيون في قلعة القاهرة كانوا يجدونه وحيداً جالساً في ضوء الشموع مثل أسد هصور أصابه الضعف والوهن تظل "إحدى عينيه تقلب النظر على الدوام"[6].

حاول ورثة محمد علي جاهدين الخروج من قفص التوافق الدولي وأولهم عباس باشا. كان عباس هذا رجلاً بديناً، يعاني من جنون العظمة والشك بكل من يراه، وكان يخشى الأجنبي. يختبئ في قصره خارج القاهرة تحيط به مجموعة من الكلاب والخيول وطيور الطاووس مع حراسه الشخصيين يسلي نفسه بطغيان مجنون. تروي الإشاعات أنه رأى إحدى جواريه تدخن فأمر بأن تخاط شفتاها، وأنه كان يدفن الرجال أحياء في أقبية قصره وأنه كان مدمناً على الانغماس في الملذات والفسق[7]. عندما جاء غوستاف فلوبير Gustave Flaubert لزيارته في قصره عام 1850 وجد القهوة "رديئة للغاية"، ورأى حرسه الشخصي يرتدون لباس "خدم جاء بهم متعهد خاص"، ورأى أن عباساً شخص شديد الغباء أو لنقل "في حالة ذهنية معينة". وفي المشفى العسكري الذي كان يديره أطباء فرنسيون وجد جناحاً كاملاً يغص بحراس شخصيين أصابهم مرض الزهري. "والكثيرون منهم مصابون به في الاِست"[8].

في عام 1854 قام اثنان من طواشييه بخنقه حين كان نائماً. فخلفه في الحكم عمه محمد سعيد الذي تعلم وتثقف في أوروبا فجعل الفرنسية لغة البلاط واستبدل القفطان باللباس الأوروبي، وكانت مآدب العشاء تنتهي دوماً بشرب البراندي وتدخين السيجار. كان ودوداً بل وديعاً جداً أمام المصالح الأوروبية حتى إنه كان يرتجف خوفاً أمام القنصل الفرنسي[9]. وإرضاءً لأولئك البريطانيين الذاهبين إلى الهند أمر بتمديد سكة حديد بين الإسكندرية والسويس، وإرضاءً للفرنسيين أعطى موافقته على مشروع قناة السويس وفق العرض الذي قدمه فرديناند دو ليسبس وما فيه من شروط مجحفة، حيث تقدم مصر العمالة ولا تحصل إلا على 15 بالمئة من الأرباح وتتنازل عن الأرض الواقعة على ضفتي القناة حيث ستصبح تلك الكثبان الرملية التي ستروبها القناة عما قريب أفضل أرض زراعية في العالم. وإرضاءً لبريطانيا وفرنسا معاً استدان محمد سعيد القروض الضخمة من المصارف الأجنبية. وفي عام 1863 خَلَّف لابن أخيه إسماعيل حصة تعادل 40 بالمئة من أسهم قناة السويس التي لم تنته بعد وإيراداً بلغ 3.5 ملايين جنيه وديوناً بلغت 9 ملايين جنيه.

غير أن قناة السويس التي رأى الفرنسيون فيها فرصة لاستعادة نفوذهم الضائع في مصر كانت بنظر البريطانيين خطراً يتهددهم. كانت سياستهم الخارجية تركز على الدفاع عن الهند فجاءت هذه القناة لتعقد المسألة. قبل شق هذه القناة كان لبريطانيا "طريق الهند" حول السواحل الإفريقية. وكان لديها أيضاً طريق بري يمر عبر تركيا وبلاد فارس. فلماذا تستبدل ذلك بخط ملاحي عبر قناة ضيقة تسهل محاصرتها؟

وهكذا سخر رئيس وزراء بريطانيا المحافظ اللورد بالمرستون بهذا المهندس الفرنسي دو ليسبس ووصفه بالفنان المخادع الذي يغش "صغار الناس" ويخدعهم لشراء "أسهم صغيرة"[10]. وكان يقول كل ما تريده بريطانيا من مصر هو "لحم الضأن" و"خيول بريد" على طول الطريق إلى الهند[11]. كان بالمرستون وطنياً يحب بلاده مثلما يحب الذؤابتين في منتهى شاربيه

الممتدين حتى الوجنتين، وكان يؤمن بحرية التجارة وبالدبلوماسية المدعومة بالأساطيل ولكن دون غزو الأراضي. رأى في قناة السويس مؤامرة فرنسية "قائمة على نوايا معادية للآراء البريطانية" وخطوة باتجاه "فصل مصر عن تركيا مستقبلاً" (12).

أما الإمبراطور الفرنسي لويس نابليون وكما لو أنه يريد أن يؤكد شكوك بالمرستون فقد تدخل في الأمر معلناً نفسه النصير والحامي لقناة السويس. وعندما بدأت المعاول عملها في عام 1859 أدركت بريطانيا أن أقوى منافسيها سيكون عما قريب مسيطراً على أسرع طريق إلى الشرق وهذا ما استدعى مراجعة وتعديلاً مفاجئاً في الاستراتيجية: وهذا يعني أنه إكراماً للهند البريطانية ولمصلحة التوازن التجاري ينبغي عدم السماح لمصر وقناة السويس بأن تقعا تحت نفوذ معاد، عربياً كان أم أوروبياً. لكن هذه الاستراتيجية بدورها أفرزت تغيراً استراتيجياً ثانياً. كان استقرار مصر على مر التاريخ يعتمد على فيضان النيل السنوي. من أجل ذلك يعد نهر النيل جزءاً لا يتجزأ من أمن القناة، وهكذا أيضاً موارده، علماً أنه ليس واضحاً حتى الآن أين هي تلك الموارد في أواسط إفريقيا.

فمصر إضافة إلى كونها تطل على البحر الأبيض المتوسط هي دولة أفريقية. وفي عام 1869 لم يكن لدى بريطانيا أي سياسة إفريقية. كانت لديها خيوط ضعيفة من المصالح - الاستراتيجية والمعنوية والاقتصادية ـ وما هو أكثر أهمية من ذلك كله كان لديها جهل مطبق بهذه القارة. كان لبريطانيا بعض المرافئ على السواحل الإفريقية، لكنها جميعاً ذات توجه نحو الخارج، أو لنقل كانت محطات على طريق الهند أو قواعد تعمل منها لتحريم تجارة الرقيق. أما الأشياء الفاخرة من أواسط القارة فكانت تصل إلى الأوروبيين عبر وسطاء عرب. وقد وجد الأوروبيون ولقرون طويلة هذا الترتيب مناسباً لهم، كما وجدوا المناخ في تلك القارة مزعجاً لهم فلم يبدوا اهتماماً بأواسط القارة.

لكن ثلاثة عوامل تدخلت لتغير هذا الترتيب. كان أولها العامل الاستراتيجي المتمثل بالقناة ومصر والطريق إلى الهند. أما العامل الثاني فهو عامل أخلاقي

حيث تحولت بريطانيا من أكبر تاجر للرقيق في المحيط الأطلسي إلى واحد من أشد المناهضين لهذه التجارة. وقد أحرز الأسطول الملكي نجاحاً عظيماً في محاصرته لهذه التجارة عبر الأطلسي حتى إن المحكمة التي أنشأها في مدينة الكاب في جنوب إفريقيا لمحاكمة قباطنة السفن الناقلة للرقيق اضطرت إلى أن تغلق أبوابها في عام 1868 لعدم وجود من تحاكمهم. وهكذا انتصرت بريطانيا على تجارة الرقيق من غرب إفريقيا التي كانت بيد المسيحيين والتفتت إلى تجارة أخرى للرقيق من شرق وشمال إفريقيا والتي كانت بيد المسلمين.

كان هؤلاء المنادون بتحريم تجارة الرقيق من أتباع الكنيسة الإنجيلية في غالبيتهم. وكانوا يرجعون أسباب الفقر والجهل والعبودية في إفريقيا إلى الحالة المتردية لسكان هذه القارة وإلى الوثنية. فكان جوابهم على ذلك ثلاث كلمات هي "الإيمان والتجارة والحضارة". وقد أوضح لنا التاريخ البريطاني أن الاحتكام إلى المصلحة الذاتية قد يكون الخلاص لاقتصاد قائم على الرق والعبودية. لهذا فإنه بمجرد ارتداء الأفارقة للملابس اللائقة واندماجهم بالاقتصاد العالمي لبريطانيا فسوف تنتهي العبودية وستحل محلها "التجارة المشروعة".

هذا وقد امتزج هذا العامل للتفاؤل الاقتصادي مع مظهر آخر من مظاهر العصر وهو الذهنية الفيكتورية. فقد كانت إفريقيا لغزاً وهذا العصر، عصر داروين وشيرلوك هولمز وأحجيات الكلمات المتقاطعة، هو عصر حل المشكلات. فالأفارقة لم يكونوا يعلمون عدد البحيرات العظمى الموجودة في قارتهم، وما هو أعلى جبل وما هو أطول نهر. وهذا الجهل بالبدهيات يشكل إهانة للعلم، سيما وأن هذا العصر، إلى جانب كونه عصر الديانات الشعبية كان عصر العلوم المبسطة أيضاً.

وفي هذا العصر أيضاً ذهب المستكشفون الأتقياء الجديرون بالثناء إلى داخل الغابات الكثيفة وغابوا فيها لسنين طوال ولمّا خرجوا منها كانوا حطاماً لهياكل عظمية ويحملون ألواحاً لمسرحية وطنية: حكايا عن شهور ضاعوا فيها في أحلام جراء حمى أصابتهم وعن حمالين من السكان الأصليين اعتنقوا المسيحية داخل الغابات وعن عجائب طبيعية لم يرها رجل أبيض من قبل.

وتحدثوا أيضاً عن مآسي العبودية؛ رووا قصص أطفال يُربطون بالسلاسل ويُساقون في أرتال كالحيوانات إلى السواحل، وتحدثوا عن طرق سلكوها كانت تنتثر فيها بقايا عظام بشرية لأناس ضعاف فارقوا الحياة وهم في الطريق، وكل تقرير يُروى كان يثير مشاعر جديدة من السخط والاهتمام. لم يكن جمهور العامة من الناس في عصر من العصور متعلماً بهذه الدرجة، يشهد طوفاناً من النشرات الإخبارية، وعلى هذا القدر من التواصل مع العالم الخارجي. ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب أمام تلك القوة العسكرية والاقتصادية لبريطانيا التي وصلت إلى أصقاع الدنيا كافة. وها هم مواطنوها الآن يشاركون في مسيرة الحضارة وهم جالسون في بيوتهم. لقد أمسى المغامرون والمبشرون الإنجيليون من الأسماء المفضلة لديهم، أسماؤهم ترددت على الأسماع مثل فصول مزدوجة في قاعات الموسيقى: بيرتون وسبيك اللذان كانا يجادلان حول من اكتشف ماذا، وسام وفلورنس بيكر اللذان لم يجادلا قط هنري ستانلي المندوب الإعلاني الذاتي الأميركي وديفيد ليفنغستون صاحبه الاسكتلندي الشريف.

وكلما عاد بطل جديد يجد بانتظاره موجة جديدة من أناس جاؤوا للاحتفاء بمجده: تغص قاعة المحاضرات في الجمعية الجغرافية الملكية بجمهور جاء للاستماع. وتتحدث افتتاحيات الصحف عن المزيد من الأموال والمزيد من الاكتشافات ويحظى باستقبال الملكة فكتوريا له لتعرب عن إعجابها بما قدم، ثم جاء ذلك التمجيد الذي لا مثيل له والذي يشبه احتفالات نصب المسلة عند القدماء، ألا وهو الكتاب. ألواح كبيرة من آجر الذكريات مغلفة بقطعة من الجلد الأحمر، وتخلط بين النبات والحيوان والحديث عن الله والجغرافيا. كل قارئ استطاع أن يكون لديه صورة أول منظر للبحيرة الكبرى الجديدة. وما أن تفتح الخارطة المرسومة على ورق كتاني رقيق حتى يستطيع كل امرئ أن يتتبع الدروب التي عبرها ينتقل العبيد، وموقع الكوخ الذي وقعت فيه أول إصابة بحمى الملاريا والقرية التي تُقَدَّم فيها الفتيات الإفريقيات شبه العاريات عرائس. ففي عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر كان الكتاب الأفضل مبيعاً يحقق مبيعات تصل إلى 10,000 نسخة، وفي عام 1853 بيعت 35,000 نسخة من كتاب "البيت

الكئيب" *Bleak House* لتشارلز ديكنز في السنة الأولى. وفي عام 1857 وحده حقق كتاب ليفنغستون بعنوان "أسفار واستكشافات" *Missionary Travels and Explorations* مبيع 70,000 نسخة(13).

كان ثمة إجماع في الرأي لدى البعثات التبشيرية والمستكشفين على حد سواء بأن جرعة قوية من تلك الكلمات الثلاث كافية لشفاء إفريقيا من أمراضها. كانت القيم بحد ذاتها عامة لم يختلف عليها أحد. لكن الجدال اقتصر على تقرير كم ستكون شدة الضوء الذي يجب أن يسلط على تلك القارة المعتمة. لكن أحداً لم يقم باستشارة الأفارقة أنفسهم.

إذن، هذه هي اهتمامات بريطانيا في إفريقيا: إلغاء الرق ووضع الخرائط وإرسال البعثات التبشيرية، والاستراتيجية والمرافئ على السواحل والطريق إلى الهند والعاج الذي كانت بريطانيا بحاجة إليه لتصنع مفاتيح البيانو في الصالات وقاعات البلياردو في الأندية والرق الذي كانت تبغضه. ولم يكن أي منها يحظى بصفة الاستعجال فيما عدا تلك الأرواح المفقودة من المبشرين، ولم يكن أي منها على قدر من الأهمية حتى جاءت قناة السويس فصار تأمينها وتأمين مصر ومعها النيل أمراً بالغ الأهمية. بعد عام 1869 بدأت هذه الخيوط الإفريقية تتشابك وتتعقد حتى باتت سبباً لإرسال الجيوش وموت بطل وصعود مسيح وسقوط حكومة وانتشار اللون الوردي على خارطة العالم وسباق تسلح بات يهدد السلم في أوروبا والتدافع من أجل إفريقيا وإخضاع ملايين المسلمين في إفريقيا للإمبراطورية المسيحية.

لكن الطريق طويل جداً من بور سعيد إلى بحيرة فكتوريا.



إسماعيل، خديوي مصر

الفصل الأول

حلم إسماعيل

1869 ـ 1873

في غضون ذلك ليس بالأمر العادي أن يعرف المرء كم من الوقت يظل العفن متماسكاً شريطة الا يكون التعامل به خشناً وقاسياً ... فاحذروا أيها المتهورون المتحمسون للتغيير! هل فكرتم جيداً بما تفعله العادة في حياتنا؟

توماس كارلايل، من كتاب *"تاريخ الثورة الفرنسية" 1837*[1]

كانت حجرة الاستقبال عند الخديوي أشبه بمكتب أمين للسر منها لمكتب أمير. الستائر القطنية وردية اللون تحجب أشعة الشمس وتخفي صوت الجنود وهم يتدربون في ساحة العرض خارجاً. وكان اللون نفسه لقماش الأريكة الموضوعة على سجاد فارسي تحيط بها مجموعة من الكراسي من الطراز نفسه. أما الجدران فكانت عارية إلا من بضعة مصابيح كريستالية أو بعض القطع التذكارية لرحلات صيد في متاجر باريس. في تلك الأجواء الضبابية الوردية جلس الخديوي إسماعيل الخبير في الأطعمة وصاحب الرؤية خلف منضدة صغيرة مذهبة مثل دب غلبه النعاس[2].

كان إسماعيل قصير القامة بديناً عريض المنكبين، يرتدي بزة هجينة الطراز كالتي يرتديها الأتراك التقدميون، هي معطف إسطنبولي الهيئة ليس طويلاً، وطربوشاً. حاجباه غليظان استقر تحتهما أنف وفم صغير في وجه ناعم البشرة لما فيه من شحوم، وقد صنع الحلاق له لحية قصيرة الشعر تذكر بفك تحت وجنتيه. كان يتكلم الفرنسية بلكنة أنيقة خفيضة الصوت له رنة. وحين يوزع عبارات المجاملة يضع على فمه المستدير ابتسامة تخفي وراءها التملق والمداهنة

وينسدل جفناه. وفي بعض الأحيان يغمض عينه اليسرى فلا يرى بها شيئاً بينما تظل عينه اليمنى العسلية تقوم بواجبها وحدها. وبين لحظة وأخرى يفتح عينيه الاثنتين ويركزهما على من يخاطبه مطلقاً منهما نظرة حادة تشبه نظرة ثعبان يتأمل فأراً. وكان المعجبون به يلقبونه بأبي الهول[3].

كانت أيامه أيام عمل مرهق تكثر فيها الأعمال الورقية واللقاءات والخمر المعتق. يستيقظ باكراً، وعند الثامنة يستقبل أبناءه الذين يعرفهم العامة بأنهم وزراء الأشغال والمالية والحرب. ثم يمضي جل فترة الصباح وهو جالس خلف منضدته المذهبة يستقبل القناصل العامين والباحثين عن الامتيازات وأصدقاءه الخاصين المحليين والأجانب. وعندما يعلن صوت المدفع من قلعة القاهرة وقت الظهيرة، يتوقف عن العمل ليتناول وجبة غداء خفيفة ثم يعود إلى مكتبه حيث يبقى حتى الساعات الأولى من المساء. لكنه في بعض الأوقات كان يترك مصر تهتم بأمورها بنفسها في فترة العصر حيث اعتاد أن يذهب في نزهته اليومية بعربة متواضعة يجرها جوادان ولا يعرفه أحد بأنه عاهل مصر إلا عندما يرون بعض المشاة من الأوروبيين يرفعون القبعات تحية له وتلك الحركة الملكية من يده التي يرد بها على تلك التحية وبعض الخيالة بزيهم العسكري البني المرافقين له. أما العشاء فموعده عند الساعة السابعة، وهو مزيج من عشاء عائلي ومأدبة رسمية حيث يتناول المدعوون طعاماً فرنسياً من أطباق فضية، وكان النبيذ المفضل من نوع Veuve Cliquot أو Chateau Yquem يشربونه من كؤوس كريستالية مذهبة الحواف نقش عليها الحرف "إ" بماء الذهب. يقول القنصل الأميركي: "كان النبيذ متوفراً بكثرة وهو من نوع عالي الجودة". وبعد الوليمة يجلس الخديوي في شرفة قصره يدخن السيجار ويرشف البراندي ثم يعود إلى مكتبه للعمل حتى منتصف الليل.

وفي الصباح يعود ليجلس خلف منضدته المذهبة. هكذا هو يعمل ثلاث عشرة ساعة في اليوم ولثلاثمئة يوم في العام، يجمع النقيضين في شخصه؛ نزوات الأمير الفاسد ودأب الموظف المثابر. ولا شيء يخفى عليه. لا يحدث شيء في البلاد دون إذنه، ابتداءً من التفاوض على قرض أجنبي وحتى تحديد

سعر الحنطة أو التخطيط لقناة ري في مكان ما. كان حاكماً فرداً ورث عادات نابليون وأسلوب محمد علي، وبيروقراطياً يدوس بقدمه دولاباً مذهباً، فهو أول الحكام الأفارقة المهووسون بالسرقة في العصر الحديث. لقد كان إسماعيل رجلاً يتملكه هذا الهوس[4].

كان لدى الخديوي إسماعيل حلم خاص بمصر. فهي بلد عظيم أصابه البوار ولا بد أن يستعيد هذه العظمة. وكما كان النيل في العصور القديمة العمود الفقري لإمبراطورية مصر في إفريقيا، يجب أن يعود كذلك، وأن يكون هو فرعون مصر هذه الممتدة من البحر الأبيض المتوسط وحتى جبال القمر. تلقى إسماعيل علومه في باريس وفيينا، فأعجبته أناقة وديناميية المدن الصناعية الأوروبية ومتنزهاتها المشذبة وشوارعها الفخمة ومعاملها التي يتصاعد الدخان منها. رأى آلات الحضارة تدور وشاهد كيف كانت الثروة الناتجة عن دورانها تعطي السلطة والقوة لمالكيها. سحرته قوة عصر الآلة فقرر أن يُدخل إلى مصر ذاك النموذج الأوروبي الغريب لمدينة صناعية في قلب دولة ذات سيادة. فمصر إن كانت قوية وتعمل وفق النموذج الغربي تستطيع أن تتخلص من السلطان العثماني وتتخذ لنفسها مكاناً بين القوى العظمى.

شهد إسماعيل أيضاً فشل الثورات التحررية لعام 1848 وخشي من تقلّبات المجتمع الصناعي الحديث. أراد الآلة وما تحمله من وعود بحيوية اقتصادية لكنه رفض تلك الأشياء الأخرى التي قد تسببها؛ ويعني بذلك الطبقة الوسطى التي تؤمن بحكم من هم أهل للحكم والتي قد تحوّل ثروتها إلى قوة سياسية فقرر أن يستورد الحضارة الغنية بصورة انتقائية: أي التجارة الحرة من دون حرية. ولكن إن تركنا الحداثة جانباً لا يسعنا إلا أن نقول إن إسماعيل لا يزال حفيد محمد علي.

لم يكن إسماعيل يحلم أنه سيصبح في يوم من الأيام خديوي مصر، فهو الابن الثاني لأبيه وكان حتى صار عمره ثمانية وعشرين عاماً يحيا حياة البذخ والثراء والقصور في الريف. ومثل أقرانه من أفراد الأسرة الحاكمة لم يكن

مصرياً. فهو تركي ينطق بالفرنسية ومن أصل ألباني، قضى معظم حياته في الفنادق الأوروبية وعاد إلى مصر وعمره تسعة عشر عاماً ولديه ميول فرنسية. هو مسلم ظاهراً، لكنه قلما يصلي، وكان يأكل لحم الخنزير ولديه مخزون كبير من الخمور. ابتعد عن السياسة في فترة حكم عمه سعيد باشا وكان همه أن يصبح ثرياً. ورث الكثير من الأطيان وبإيراداتها كان يشتري المزيد من الأراضي حتى صار أكبر إقطاعي في مصر. وحيث إنه ينتمي للأسرة الحاكمة أمر بتحويل قنوات الري نحو أراضيه وسخّر العمال لحفر هذه القنوات واستخدم العبيد السودانيين للعمل في مزارعه. فضمنت له هذه الأساليب الزراعية الحديثة مضافاً إليها خوفه من منافسيه أن تكون أسعار منتجاته من الحنطة والقطن وقصب السكر أعلى الأسعار في السوق. ولم يكن تحرير الاحتكارات الحكومية يحمل أية فوائد للفلاح المصري العادي.

لكن هذا كله تغير مع إشراقة صباح الخامس عشر من شهر أيار/مايو عام 1858، الذي صادف واحدة من المناسبات النادرة التي عُرف عن إسماعيل بأنه يتغيب عن حفلة ما. بمناسبة انتهاء شهر رمضان أقام سعيد باشا احتفالاً صاخباً في قصر رأس التين بالإسكندرية وحضر هذا الاحتفال شقيقا إسماعيل الأكبر والأصغر الأمير أحمد والأمير حليم (حلمي) ولم يحضر إسماعيل بسبب وعكة صحية ألمت به، ويبدو أن والدته نصحته بالبقاء في السرير. وبعد الاحتفال استقل الأميران قطاراً خاصاً ليعودا مع حاشيتهما إلى القاهرة. كانت سكة الحديد تتقاطع مع نهر النيل عند كفر الزيات في منتصف الطريق تقريباً، وكان ثمة جسر قيد البناء، ولكيلا تعطل حركة القطار كانت تستخدم بعض القوارب ليحمل كل واحد منها عربة قطار ثم تقوم زوارق خاصة بقطر هذه القوارب إلى الجانب الآخر. وقد تجمع عدد من الرعايا المخلصين ليقدموا العون اللازم. في تلك الليلة نسي ناظر المحطة بسبب إهماله أن يغلق البوابة المؤدية إلى القوارب فانزلقت ثلاث عربات في قارب واحد انقلب بها رأساً على عقب وأغرق عربات القطار بمن فيها من الركاب في نهر النيل. غرق الأمير أحمد "البدين والأخرق" مع مساعديه ولم ينج إلا الأمير حلمي المعروف بخفته

وحيويته حيث قفز خارجاً من القطار حين بدأ بالغرق وسبح بضع مئات من الأمتار قبل أن يخرج من التيار ويصل إلى الشاطئ[5].

وهكذا أصبح إسماعيل الذي ظل بعيداً عن الساحة لا يقدره أحد حق قدره الباشا الجديد لمصر. وبعد أن انتهت فترة الحزن والحداد أنعم على ناظر المحطة بترقية جعلته وزيراً في الحكومة.

ورث إسماعيل مملكة من المفارقات. فمصر لم تكن ولاية عثمانية ولا هي دولة مستقلة، بل هي بين الاثنتين. وقد حافظ ورثة محمد علي على ولائهم الشكلي للسلطان، يرسلون له في إسطنبول 320,000 جنيه كل عام برهاناً على ذلك، لكنهم كانوا يسعون بكل ما يملكون من طاقة للتخلص من تلك الرابطة. أما على الصعيد الاجتماعي فقد كانت مصر تعاني من ذلك الإرث العثماني للانقسام الحاد بين الحاكم والمحكوم. فالحكام ينتمون إلى تلك النخبة الدولية من العسكر والإداريين الذين يتحكمون بشؤون الإمبراطورية العثمانية، وهم مزيج من الأتراك والشراكسة والألبان يعرفون جميعاً بـ "الأتراك". وفي مقرات حكمهم في القاهرة كانوا يتكلمون اللغة التركية والفرنسية والإنكليزية، وكانوا يتقاسمون الامتيازات الحكومية مع شركائهم من رجال الأعمال والمستثمرين الأوروبيين. وكان أقرب المقربين من مستشاري إسماعيل ثلاثة من الأتراك. أولهم نوبار باشا المسيحي الأرمني ذو العيون الحزينة والشاربين الكثيفين، وكان دبلوماسياً طموحاً إنما ماليّ فاسد. والثاني مصطفى رياض باشا ربيبه في وزارة العدل والمنادي بمبدأ إخضاع الفرد للدولة. وكان "يهودياً جبلياً" قادماً من القفقاس. وكان الثالث محمد شريف باشا، المنافس القوي لنوبار باشا، وهو الخريج المتميز والأنيق من أكاديمية محمد علي العسكرية، يتبنى أسلوب الكولونيل الفرنسي المتقاعد ويقضي معظم وقته على طاولة البلياردو والقليل المتبقي من الوقت في مكتبه.

غير أن العنصر الأكثر إنتاجية في المجتمع المصري لم يكن يدفع أية ضريبة للدولة. هذا العنصر هو الطبقة الوسطى في المدينة والتي جعلت من الإسكندرية مركز الثقل الاقتصادي لمصر وكانت في معظمها تتألف من

المسيحيين اليونان والطليان والمالطيين. كان العثمانيون يمنون أنفسهم بالخلاص من النفوذ الأوروبي حتى بعد أن روّض السلاطين أنفسهم على القبول بذلك الشر الذي لا بد منه في المتاجرة مع أوروبا. فقد سمح العثمانيون للأجانب بموجب عدد من المعاهدات التي وقعوها مع الدول الأوروبية عرفت بمعاهدات "الامتيازات الأجنبية" بالعيش والتجارة في أراضي الدولة العثمانية بصفة أجانب مقيمين يخضعون لقوانين بلدانهم الأصلية. وكان هذا الإجراء ملائماً أيضاً للتجار. فبالإضافة إلى منحهم الإعفاء الضريبي كان هذا الإجراء يتيح لهم التهرب من القانون الاجتماعي الإسلامي الذي بموجبه يعتبر هؤلاء ذميين، يجب أن يدفعوا ضرائب إضافية. لكن هؤلاء الأوروبيين أقاموا في مصر في مجتمع مساو ومواز للمجتمع المحلي، يتعايشون ويربحون مع النخبة من الأتراك وفي الوقت نفسه لا يقدمون إلا القليل.

أما الغالبية العظمى من السكان فيعيشون خارج المدن. الفلاحون هم المصريون الحقيقيون، ينطقون بالعربية ويعملون بالزراعة التقليدية وبأساليب لم تتغير منذ أيام الفراعنة ـ مثال ذلك ناعورة الماء التي تحركها البقرة أو الحمار، والري الذي يعتمد على فيضان النيل السنوي. والقلائل جداً من الأبناء الواعدين لهؤلاء الفلاحين استفادوا من الابتكارات التربوية والعسكرية التي أدخلها محمد علي، لكنهم جميعاً دون استثناء يجب أن يتحملوا العبء الضريبي لمصر وأن يعملوا في السخرة، أو لنقل هم ذلك الجيش الكبير من العمال بالإكراه الذين بنوا مشاريع الدولة ومنها قناة السويس.

لكن الطبقة الأدنى في المجتمع المصري كانت أقلية لا بأس بعددها؛ كانت تقوم بالقسم الأكبر من الأعمال، وهي طبقة العبيد السود القادمين من السودان. بيوت المواطنين المصريين، حتى الأكثر تواضعاً منها، كان يوجد فيها جارية سوداء. تشير التقديرات إلى أن ما يقرب من ثلث عدد سكان القاهرة هم ذلك الجيش غير الظاهر من العبيد الذين يعملون في مختلف المجالات مثل العتالة ونواطير العمارات والطهاة في المنازل وأعمال التنظيف، وكان منهم أيضاً الطواشيّة والسراري.

عندما اعتلى إسماعيل سدة الحكم في عام 1863 لم يكن لديه أية ديون أو رهون عقارية، وكان لديه دخل يقدر بـ 160,000 جنيه، ولديه خبرة الهاوي في إدارة مزارعه، ولم تكن لديه أية تجربة بأنظمة الحكم والأنظمة المالية التي تحرك عجلة الاقتصاد الحديث[6]. في اليوم الثاني لتوليه الحكم، أي في 18 كانون الثاني/يناير 1863، دعا القناصل ورجال الأعمال الأجانب في مصر إلى حفل استقبال في قلعة القاهرة.

خاطب المدعوين قائلاً: "أيها السادة، إنني عازم عزماً أكيداً على أن أكرس كل ما لدي من طاقة ودأب لخدمة ازدهار هذا البلد الذي قدر لي أن أحكمه. إن النظام والاقتصاد في الأموال هما أساس الحكم الجيد".

وعدد لهم إصلاحاته. يجب أن يكون لمصر دستور وبرلمان أو مجلس نواب. وبدلاً من أن يمد يده إلى الخزينة ويأخذ ما يشاء سيكون له راتب شهري مثل أي موظف آخر. العقود الحكومية يجب أن تكون مفتوحة أمام عامة الناس. والفلاحون يجب أن يتعلموا مجاناً، ويجب أن يكون في البلاد محاكم عادلة تنظر في الشكاوي. يجب أن تلغى السخرة. فمصر الحديثة والمنتجة تحمل الوعد بـ "تسهيلات أكثر في علاقاتها مع القوى الغربية"[7].

لقد جاء برنامجه هذا في الوقت المناسب. فقد شهد الاقتصاد المصري عام 1863 بداية نهضة عظيمة، بسبب الحصار المفروض على المرافئ الأميركية إبان الحرب الأهلية، تضاعف سعر القطن أربعة أضعاف إذ ارتفع من 65 جنيهاً للطن عام 1862 إلى 270 جنيهاً للطن الواحد عام 1864[8]. وازدادت صادرات مصر من القطن إلى أكثر من ثلاثة أضعاف أي من 25,000 طن إلى 78,500 طن. وغدت مصر المصدر الرئيسي للقطن الخام لبريطانيا. فحقق القطن وحده دخلاً لمصر عام 1864 بلغ 23,625,000 جنيه، أي ما يعادل عشرة أضعاف إجمالي الواردات عام 1862. دخلت إلى مصر أموال كثيرة جداً حتى إن بعضها قد تسرب من بين أصابع النخبة ووصل إلى الفلاحين الذين صار بمقدورهم شراء ما يريدون من عبيد[9].

مع هذا الازدهار الاقتصادي وتلك الوعود التي أطلقها إسماعيل بالتحرير الاقتصادي والسياسي دخلت الأموال الأجنبية إلى مصر مثل فيضان النيل. استخدم إسماعيل هذه الأموال ليعيد تكوين مصر وفق الصورة الفرنسية. أصبحت القاهرة مدينة حديثة بين عشية وضحاها. استقدم إسماعيل جان بيير باريبه ديشامب Jean Pierre Barillet Deschamp، مهندس الحدائق الرسمي عند البارون هاوسمان Baron Haussmann بباريس ليصمم له حدائق الأزبكية التي تبلغ مساحتها نحو ثمانين ألف متر مربع بحيث تكون صورة طبق الأصل لحدائق مونسو Monceau بباريس بكل ما فيها من كهوف وبحيرات مصطنعة ومقاه ومنصة للفرقة الموسيقية. وبنيت الفنادق الفخمة والعمارات ذات الطراز الفرنسي على جانبي الطريق الممتد من حدائق الأزبكية إلى مقر الخديوي إسماعيل في قصر عابدين الرابض فوق مساحة واسعة من الأرض تصلح لأن تكون ميدان عرض صممت على نمط Champ de Mars بباريس. وكانت بعض مقاسم الأراضي التي قد تبلغ قيمة المقسم الواحد منها 2000 جنيه تقدم للمواطنين مجاناً ليبنوا عليها ضاحية جديدة وارفة الظلال - تدعى الإسماعيلية بالطبع - وتكون عماراتها قصوراً حديثة فخمة يقطنها الوزراء الأتراك والمصرفيون المشرقيون ويكونون على مقربة من الفرنجة من أمثال "السيد رمنغتون صانع السلاح الشهير الذي زود جيش الخديوي بأحدث الأسلحة"، والدوق سانرلاند Duke of Sutherland الذي أنشأ بنياناً شهيراً صار فيما بعد النادي الإنكليزي. فكانت الأحياء التي يقطنها الأوروبيون في القاهرة والإسكندرية أفضل كثيراً من معظم العواصم الأوروبية من حيث إضاءة الشوارع وفي مراعاة النواحي الصحية(10).

ونشأت في البلاد بنية تحتية جديدة: محطات للقطارات، وسكك للحديد، وخطوط البرق والطرق والمرافئ والمنارات والجسور ودوائر البريد والمتاحف والمكتبات العامة والمشافي ودور الأوبرا والقصور. وشهدت المناطق الريفية في دلتا النيل تطوراً لافتاً حيث شُقّت قنوات الري وأُنشئت مزارع القطن ومعامل السكر. وأخذت السفن البخارية تجوب مياه النيل حاملة مظاهر الترف والبذخ عند

إسماعيل. معدلات الإنتاجية والعمر المتوقع للبشر ارتفعت ووضعت الدولة خططها لتعليم الأطفال كافة والفتيات على وجه الخصوص. واستقدمت الحكومة المهندسين ورجال الأعمال الأوروبيين وأمّنت لهم السكن بالضواحي الجديدة وسُرعان ما شكل "الفرنجة" ربع عدد سكان الإسكندرية. لقد أمست مصر موقع إعمار ضخم ودولة حديثة في طور التكوين وفردوساً للمستثمرين.

عندما انعقد مجلس النواب نشرت صحيفة ليفانت هيرالد *Levant Herald* على صدر صفحتها العنوان "تحت ظلال الفراعنة". ثم قالت في افتتاحيتها: "كل من يعيش في هذه المناطق الممتدة من الخرطوم إلى دمياط سيتمتع بالحقوق الدستورية، فقد انعقد مجلس برلمان مكون من سبعين عضواً في ظل الهرم الأكبر وسوف يضمن للأقباط والفلاحين والبدو حرية بحدود وضمانات لم يحلم بها أحد من قبل في هذا الشرق"[11].

وعند أول اجتماع للمجلس تحدث رئيسه موضحاً للإقطاعيين والأرستقراطيين الأتراك الجالسين على مقاعدهم أن الممارسة الأوروبية تقتضي منهم أن يتوزعوا في فئتين، فئة مؤيدة لحكومة إسماعيل وفئة معارضة، فتجمع المجلس بكامل أعضائه على المقاعد المؤيدة للحكومة. واجتمعوا بعد ذلك مرتين قبل أن يُظهر إسماعيل تبرمه من محاولات إثبات أن رغباته ونزواته الخاصة تتطابق مع الإرادة الوطنية. فقد حقق هذا البرلمان غرضه بأنه وسيلة إعلان من أجل التقدم. لكن الخديوي أطلق عليه اسماً فيه المزيد من القوة حيث صار يعرف باسم مجلس الأعيان، وحافظ على هذا الاسم.

كانت هذه الثورة فكرة إسماعيل نفسه وقد أراد أن يوجهها كيف يشاء، ولم يكن سهلاً إعادة بناء مصر وتكوينها بصورة حديثة عصرية. فالتحول نحو الصناعة جاء بالعمالة من الريف إلى المدينة. كما أن تنامي الحكم المحلي وتلك الشبكة الواسعة من جباة الضرائب أنقص من تلك الهيبة والمكانة التقليدية لعمدة القرية وشيخ القبيلة. وتلك الأموال والثقافة الأجنبية أذكت عداء رجال الدين الإسلامي لها وأثارت حفيظة الفلاحين الذين هم أصلاً يعادون أسيادهم الأتراك.

فكان بمقدور إسماعيل أن يستغني عن تعقيدات "نظام الحكم الدستوري". فعمل على بناء الجيش وتأسيس الأعمال المكتبية مركّزاً في ذلك على الرقابة والسيطرة. ومثلما فعل هاوسمان Haussmann عند تخطيطه لتلك الشوارع الجميلة فجعلها أروقة رماية بمواجهة الرعاع من الناس، ركّز إسماعيل على تحصين الدولة ضد رعاياها.

انتهت الحرب الأهلية الأميركية عام 1865 وتباطأ ذلك الازدهار والنجاح الذي حققته مصر بفضل القطن. تلك الفقاعة جاء من يثقبها، فاقترض إسماعيل الأموال من المصارف الفرنسية والبريطانية والألمانية ليحول دون الإفراغ الكامل لتلك الفقاعة. وفي الوقت عينه أغرى المظهر الخارجي العصري لمصر المستثمرين الأوروبيين فسارعوا لشراء أسهم لهم من تلك القروض، فإذا كانت حركة البناء الواسعة قد سببت النمو السريع فلا بد أن ينجم عن ذلك أرباح دسمة. هذا وقد حرص إسماعيل ووزراؤه على عدم وصول معلومات دقيقة عن مصر إلى الأوروبيين. وحرص نوبار باشا على تأمين أفضلية حصول القناصل والصحفيين الأوروبيين على معلومات حول مشاريع الأعمال التي تنفذها الحكومة وبالتالي كانوا يتقاضون رواتب معينة. وقد أوضحت وكالة رويترز للأخبار ذلك بمساعدة سرية سنوية كانت تتلقاها بمقدار 1,000 جنيه. وكان أيضاً من المصادر الهامة للمستثمرين مراسل صحيفة التايمز اللندنية الذي كان مقرباً جداً من إسماعيل ووزرائه وكان يكسب من استثماراته هذه أكثر مما يكسب من عمله الصحفي. كان يروّج لإسماعيل واصفاً إياه بأنه "إقطاعي مقتصد يدخر الأموال ويهتم بكل قرش" (12).

ولم تكن الأموال الأجنبية تنفق جميعها على شق قنوات الري وبناء الجسور. فالفساد واسع الانتشار ومنظّم، وذلك الفصل بين خزينة الدولة وجيب إسماعيل لم يكن إلا فصلاً افتراضياً. وقد خطط إسماعيل بالتعاون مع وزيره نوبار باشا على تحويل ملايين الجنيهات إلى حملته التي أطلقها في سبيل الاستقلال عن السلطان العثماني ومن أجل شركة قناة السويس. أطلقت الحكومة حملات متتالية كان معظمها بتمويل من المصارف الأوروبية بالإضافة إلى جزء

من أموال إسماعيل الخاصة بما يكفي لإدخال مصلحته الشخصية في نجاحها ووظّفها للقيام بخدمات جديرة للاقتصاد. وعندما كانت الشركات تصدر طلباتها للحصول على مواد من أوروبا كان مدراء الشركات الأوروبية يتلقون عمولات خاصة. ولكن مقابل احتكاراتها وعمولاتها كانت المصارف الأوروبية تتيح المجال لإسماعيل ليقترض بائتمان مفتوح. وكان إسماعيل يضمن تسديد القروض من مكاسبه التي يحققها جراء كونه واحداً من المساهمين فيها، ومن إيرادات الخزينة المصرية، وكلاهما يعنيان الشيء نفسه. لكنه من خلال اقتراضه هذا بائتمان مفتوح كان يجتنب الالتزام بجدول ثابت للتسديد ودفع الفوائد، وحيث إنه كان يقوم بذلك بصفة خاصة لم يكن بحاجة لإذن من السلطان العثماني، وبما أنه كان يعطي التراخيص للشركات ويحمل أسهماً لا بأس بها بصفته مستثمراً خاصاً فقد كان يُحكم سيطرته على هذه الشركات ويمنعها من أن تصبح أدوات بيد شركائه الفرنسيين والبريطانيين. وحين تُخفق الشركات في أعمالها كان إسماعيل هو الذي يصفي أعمالها ويبيع أصولها مقابل نقد ثم يحول ديونها الميتة إلى دافعي الضرائب المصريين.

وابتدأ ذلك بشركة السودان Sudan Company التي عرضت تقديم السفن البخارية النهرية وتمديد الخطوط الحديدية لتصل إلى مصر العليا والسودان. فقدم اثنان من كبار المصرفيين في الإسكندرية هما هنري أوبنهايم Henry Oppenheim وإدوار ديرفيو Edouard Dervieu القسم الأعظم من رأسمال هذه الشركة البالغ مليوني جنيه، فصار الاثنان عضوين في مجلس إدارة الشركة التي تبدل اسمها على نحو مفاجئ لتصبح الشركة المصرية للتجارة والمقايضة Egyptian Trading and Commercial Company، فتقرض الأموال بفوائد عالية إلى المزارعين العاملين في الدلتا مقابل قيمة محاصيلهم.

ثم نشأت شركة الجمعية الزراعية التي كانت تستورد المضخات الخاصة بالري وتؤجرها إلى المزارعين وعملت على هذا النحو إلى أن استولى عليها إسماعيل وأوبنهايم وديرفيو الذين جعلوها شركة مضاربة تعمل في المجال العقاري داخل المدن. وكان أعضاء مجلس إدارة الجمعية الزراعية يحصلون على

عقود وتعهدات للتطوير العقاري كان يسهلها لهم نوبار باشا ثم يبيعون تلك المشاريع ذاتها بأسعار مرتفعة ويحققون بذلك أرباحاً مذهلة.

فيما بعد أُغرم إسماعيل بأعالي البحار. بعد أن آلت إليه مجموعة من السفن البخارية المتوقفة عن العمل جراء أحد مشروعاته التجارية الفاشلة، أسس شركة باسم شركة الملاحة المصرية Egyptian Steam Navigation Company وعين أولاده أعضاء في مجلس إدارتها وباعها تلك السفن. انطلقت الشركة بأعمالها بأموال من مستثمرين أغرتهم صورة بواخر مصرية تنقل البضائع ورجال الأعمال عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط، مثلما أغراهم إسماعيل بوعوده بنسبة ربح تبلغ 6 بالمئة لكل سهم. وعندما أفلست الشركة اشترت الحكومة الأسهم ودفعت أرباحها(13).

وهكذا، ومع تزايد تدفقات الأموال بعث إسماعيل نوبار باشا إلى باريس وإسطنبول بهدف شراء استقلاله أو هكذا ظن.

في لقاء جمعه مع القنصل الفرنسي بالقاهرة في شهر كانون الثاني/يناير 1863 قال الخديوي "إنني من أنصار القناة أكثر مما هو السيد دو ليسبس، وأعتقد أنه لا يوجد عمل أكثر عظمة وأكثر فائدة لمصر من هذه القناة. ولكن أسس هذه القناة غير مؤكدة في هذه اللحظة ولم تتوضح بعد. وسوف أؤكدها عندئذ وبشكل يفوق من سبقني إليها، سأعمل جاهداً على دفع العمل بها حتى انتهائها" (14).

كان لفرنسا في ذلك الحين نفوذ في مصر يفوق ما لدى بريطانيا برغم أنها قد باتت السوق التصديرية الرئيسية لمصر ومصدر استثماراتها. وكان من شأن صفقة سعيد باشا في شركة القناة أن جعلت من مصر الشريك الأصغر في مشروع يديره الفرنسيون. وازداد وضوح خطأ سعيد كلما امتدت القناة جنوباً، لقد ألزم مصر بالحفاظ على قوة عمل قوامها 20,000 عامل يتناوبون في عمل مكرهون على القيام به، والقسم الأعظم من هؤلاء جاؤوا من فلاحي دلتا

النيل التي تراجعت فيها الزراعة جراء غيابهم. ومع ذلك، وبرغم أن العمال المصريين هم الذين حفروا القناة وأقنية الري المتفرعة عنها إلا أن شركة القناة كانت تملك ما يزيد عن ثمانية آلاف هكتار من الأراضي الخصبة التي استصلحها الري من القناة. وغنم المستثمرون الفرنسيون الأرباح كلها. إزاء هذا الوضع قرر إسماعيل أن يقلص النفوذ الفرنسي وينتقل إلى الرعاية البريطانية وفي الوقت نفسه يوغر صدر كل واحدة منهما ضد الأخرى.

اختار إسماعيل مسألة السخرة لتكون محور سياسته الأوروبية، وأوفد نوبار باشا للاجتماع بالشخص الأكثر نفوذاً في إسطنبول وهو السفير البريطاني السير هنري بولوير Sir Henry Bulwer. سأله نوبار باشا كيف سيكون رد فعل حكومة بالمرستون Palmerstone إذا أقدم إسماعيل التقدمي على إلغاء السخرة في وقت يبذل فيه الفرنسيون محاولات أكيدة لإجباره على الإبقاء على السخرة ليتمكن من إنهاء حفر القناة.

الجدير بالذكر أن أعمال السخرة هذه كانت دوماً موضع استياء إنساني في بريطانيا، وها هي ذي فرنسا تجبر مصر على استعباد شعبها، أضف إلى ذلك أن مشروع القناة عينه يهدد بحدوث شبكة من الاتكال المالي من شأنها أن تجعل مصر مستعمرة فرنسية وتقسم الإمبراطورية العثمانية. وهكذا وضع أمام بالمرستون سيناريو وجد فيه فرصة ثمينة - تمثل بوجود أجانب منحرفين يشكلون خطراً على الطريق إلى الهند - فمارس ضغطاً على السلطان العثماني عبد العزيز الذي أوعز إلى وزير خارجيته ليبعث برسالة إلى إسماعيل يحتج فيها على أعمال السخرة هذه.

بعد لقائه مع السفير البريطاني توجه نوبار باشا إلى باريس وهناك أعلن إنهاء عقد شركة القناة غير القابل للتنفيذ. انهارت أسعار أسهم هذه الشركة. وأقام مدراء الشركة الدعاوى ضد نوبار متهمينه بالابتزاز، ورفع نوبار دعاوى مضادة. وهكذا بدأت عملية طلاق مصر من شركة القناة. فقد حكمت محكمة فرنسية بأنه يتعين على إسماعيل أن يدفع مبلغ 3.5 ملايين جنيه ثمناً لخروج مصر من العقد بما في ذلك 1.5 مليون جنيه بسبب تراجعها عن تقديم أعمال السخرة ومبلغ

1.2 مليون جنيه لاستعادة ما مساحته 6,000 هكتار من الأراضي المروية. فكان الرقم الإجمالي قريباً جداً من قيمة أسهم إسماعيل في الشركة، فاقترح دو ليسبس بعد أن قدمت إليه الفاتورة أن يعرض على إسماعيل فقدانه لأسهم ورقية بدلاً من أن يدفع الأموال الصعبة. لكن إسماعيل آثر أن يشتري حريته[15].

وعاد نوبار باشا إلى القسطنطينية التي كان السلطان الخليفة فيها أكبر عقبة في وجه حلم إسماعيل بأن تكون مصر نقطة الوصل بين الشرق والغرب. أدرك السلطان عبد العزيز هذه النوايا التمردية عند إسماعيل لكنه وحيث إنه كان غارقاً في ديون للمصارف الأوروبية فقد كان على استعداد لأن يبيعه عناصر السيادة المصرية وفي نفسه شيء ينبئه بأن السياسة البريطانية الهادفة إلى الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية وبقائها متماسكة سوف تمنع مصر من الحصول على الاستقلال الكامل.

تكررت زيارات نوبار باشا إلى القسطنطينية وانتظمت أوقات هذه الزيارات حيث كان يأتي ليوزع الأموال على عبد العزيز ووزرائه. في عام 1863 دفع رشوة بلغت 50,000 جنيه لكي ينال حق إسماعيل باختيار وريثه على عرش مصر، وبذلك يثبّت أركان أسرته في الحكم. وفي عام 1866 ضاعف قيمة الضريبة السنوية حتى صارت 670,000 جنيه، وبذلك حصل على حق ضم أراض سودانية جنوب وادي حلفا ومرافئ البحر الأحمر التي كانت ضرورية لتجارة السودان. كما مكنته الرشاوي الأخرى في عام 1867 من إبرام معاهدات اقتصادية مع الحكومات الأجنبية ومنحته اللقب الملكي الذي كان يسعى إليه. لم يكن إسماعيل راضياً بأن يكون مجرد باشا، وهو لقب شرف يُمنح لأي موظف كبير من موظفي الدولة العثمانية، لكن عبد العزيز كان يرفض رفضاً قاطعاً أن يمنحه لقب سلطان أو ملك. وهكذا نقّب الخبراء في التاريخ الفارسي واستخرجوا لقباً وافق عليه الطرفان فأصبح إسماعيل الخديوي لمصر عام 1867.

بعد أن فاز إسماعيل بلقبه الجديد هذا قام بجولة أوروبية لتلميع صورة الخديوي فوجد كل الترحيب من مضيفيه الذين وصفوه بالأفضل من بين السلاطين والأمراء والمهراجات وحكام الأقاليم الذين أبرموا الصفقات مع أوروبا

وفتحوا اقتصاداتهم أمام صادراتها. "إسماعيل العظيم" كما وصفته الصحف الفرنسية كان موضع الثناء من الجميع، فقد أشادوا به بأنه النصير الليبرالي للحكم الدستوري ورجل الصناعة العصري والمحسن البار صاحب الرؤية. وحيث إن الأموال السهلة كانت تنتظر المستثمر الجريء والشجاع فقد رأى الكثيرون أن التقدم والتطور كفيلان بالتخلص من تلك الغرابة في النواحي المالية المصرية التي قيل عنها بأنها أَلَمٌ تتزايد شدته. وهكذا اكتسبت صورة مصر في نظر الأوروبيين بريق نشرات الدعاية التي يتلقفها المستثمرون من سماسرة البورصات.

غير أن إسماعيل كان بحاجة لقوة عمل من أجل مصانعه ومزارعه، وكان بحاجة لعمال ليحقق أحلامه ويفي بديونه، وبحاجة للنفوذ ليشد أزر مصر في مواجهة السلطان العثماني والقوى العظمى. وهكذا دفعه طموحه الاستعماري والضرورة المالية نحو الجنوب، حيث توجد لمصر مطالب غير قابلة للطعن في موارد السودان مثل العاج والمطاط والخشب، وأهم من ذلك كله العبيد.

كانت بقايا حكم مصر لا تزال ماثلة في بلاد السود. في عام 1820 أرسل محمد علي إلى الجنوب فصيلاً عسكرياً وعدداً من علماء المعادن الفرنسيين والإنكليز للتنقيب عن الذهب في بلاد النوبة ولجلب المجندين لجيشه. ولم يجدوا الذهب لكنهم وجدوا الكثير من العاج والعبيد. وفي عام 1838 أسس عاصمة لمستعمرته مؤلفة من عدد صغير من أكواخ الصيادين التي نشأت على امتداد من الأرض عند التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض، وقد اشتق اسمها من وصفها بأنها تشبه خرطوم الفيل وأطلق عليها اسم "الخرطوم". فصارت هذه المستوطنة المبنية من أكواخ الطين وتغمرها مياه النيل عند فيضانه مركز استغلال مصر للسودان(16).

لم يكن الرق في السودان بالحدث الجديد، فهو قديم قدم التاريخ ومتجذر في البلاد وتؤيده العادات المحلية والشريعة الإسلامية. وقد وجد الأوروبيون الأوائل الذين تقدموا نحو أعالي النهر مجتمعاً يتألف من الأسياد المسلمين

والعبيد من المسيحيين والوثنيين، واقتصاداً شوهته العمالة الرخيصة وتجارة الترانزيت، ولم تكن الحياة الاقتصادية لسلطنة دارفور المستقلة تتضمن أي شيء آخر عدا ذلك. كان سلطان هذا الإقليم يجيز القيام بـ 70 غارة في العام لجلب الرقيق، حيث قسم أراضيه بين الفرق المغيرة، وكان يجمع غنائمها في معسكر مركزي ويتقاضى العمولات جراء مبيعاتهم. أما جيرانه، من قبيلة البقارة التي تعمل في تجارة المواشي، فقد كانوا يزدرون العمل اليدوي الذي وصفوه بأنه من اختصاص أفراد مستقرين من ذوي المنزلة الوضيعة فكانوا أكثر عدداً منهم بما لديهم من عبيد. وكما لو أن ذلك كان مبشراً ببدء أعمال العبيد في المزارع كانت قبيلة البقارة تسترق قبائل بأكملها، وتخصص لكل مزرعة ما بين 20 ـ 200 من العمال الزراعيين الذكور بالإضافة إلى المجموعات الضخمة من الرقيق الإناث في المنازل[17]. ويمكن القول إن ما يقرب من ربع عدد سكان مناطق الاستقرار الزراعي في وادي النيل كانوا من العبيد. وكان سكان المدن الواقعة على طرق القوافل يستفيدون من هذه التجارة التي ضمنت لهم العيش الكريم. في عام 1813 قام مستكشف سويسري اسمه جان لويس بيركهارد Jean-Louis Burckhardt، متخفياً بزي شيخ قبيلة سوري بزيارة هذه المراكز التجارية ووصف ما رآه بقوله: "قلما يوجد منزل في مدينة بربر Berber أو مدينة شندي Shendi إلا وفيه عبد واحد أو اثنان، وغالباً ما كنا نشاهد خمسة عبيد أو ستة لدى العائلة الواحدة، أما الأغنياء والرؤساء فيها فيقتنون العبيد بالعشرات"[18].

كانت هذه التجارة بيد المسلمين وكانت تخضع للشريعة الإسلامية. وكانت السودان البلد الواقع على الحدود بين "دار الإسلام" و"دار الحرب". وبحسب الشريعة الإسلامية لا يجوز للمسلم أن يستعبد أخاه المسلم لكنه يجوز له أن يستعبد الكافر الذي يقع في الأسر أثناء الجهاد في سبيل توسيع دار الإسلام. لذلك ركز تجار الرقيق عملياتهم على المناطق التي يقطنها الوثنيون في الجنوب الغربي وفي بلاد النوبة في الجنوب الشرقي وعلى المسيحيين في الحبشة الذين تباع نساؤهم بأثمان عالية بسبب بشرتهن الفاتحة وما يقال عن شبقهن الجنسي. وكان تجار الرقيق يسوّغون أعمال السلب التي يقومون بها بقولهم إنهم

يجبرون عبيدهم على اعتناق الإسلام، وكانوا يُخفون أطماعهم هذه باستخدام لفظة إسلامية هي كلمة "غزوة" في وصف الغارات التي يقومون بها.

وكانت نتائج الغارات التي يشنونها الأسر والاغتصاب وبتر الأعضاء والقتل بأعداد ضخمة. وكان تجار الرقيق يشكلون ميليشيات خاصة فيهاجمون القرى ويقتلون من يقتلون ويأسرون الباقين، فمنهم من يُكَبَّل بالقيود ويُجْلَد ويُحْرَم من الطعام والماء، ومن يبقى على قيد الحياة يساقون إلى أسواق النخاسة. أما كبار السن فكانوا يُتركون ليموتوا على الطريق، وأما الأطفال الصغار غير القادرين على السير فيلقون على قارعة الطريق. وكان تجار الرقيق يجبرون النساء من أسراهم العبيد على الدعارة في المدن التي يمرون بها، كما كانوا يشوهون الأعضاء الجنسية للفتيات قبل سن البلوغ لأن ذلك يرفع من أسعارهن في السوق. وفي كل عام كان يوجد مقابل كل واحد من العبيد المباعين عند الساحل والبالغ عددهم 30,000 تسعة آخرون قُتلوا أو تُركوا على قارعة الطريق ليلقوا حتفهم عند كل غارة. وعندما وصل البريطانيان ديكسون دنهام Dixon Denham وهيو كلابرتون Hugh Clapperton في رحلتهما الاستكشافية في أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر إلى غرب السودان وجدا طرق القوافل "وعلى جانبيها بقايا بشرية" والأرض المحيطة بالآبار "مغطاة بعظام مُبْيَضّة" وجثث أطفال متحللة. "وهم جميعاً من السود" كما أوضح لهما أدلاؤهما العرب[19].

وكما الهطل المطري انقسم توزع العبيد بين مركزي تجمع مياه الأمطار للنيل الأبيض والنيل الأزرق. وكان ثمة طريقان للقوافل في خدمة تجارة التصدير، حيث تتجمع تجارة النيل الأبيض في مدينة الفاشر El-Fasher بدارفور، ومن هذه المدينة تنطلق رحلة "طريق الأربعين يوماً" أو رحلة الألف ميل عبر الصحراء، وعلى الضفة الغربية للنيل شمالاً إلى مصر، فتنتهي بمدينة أسيوط حيث يُرسل التجار ما لديهم من سفن تنقلهم عبر النيل إلى القاهرة. وفي أسيوط أيضاً كان ثمة راهبان قبطيان "يقال إنهما يتفوقان بمهارتهما على أسلافهما" بتحضير الطواشية الذين يدفع الأمراء المسلمون أثماناً باهظة لهم

ليكون هؤلاء الطواشية حماة لحريمهم. أما الطواشية القفقاسيون فتترك لهم بعض الأعضاء الجنسية الجزئية أو التي تنشط بين فترة وأخرى، وأما الأفارقة الذين يعتقد أن لديهم شهوة جنسية عالية فالاستئصال الكامل عندهم أمر ضروري. كان هذان الراهبان يستأصلان الجهاز التناسلي بأكمله من البطن ويكويان الجرح بالزبدة المغلية. في عام 1815 أرسل محمد علي إلى السلطان التركي هدية مكونة من 150 من الطواشية السودانيين[20].

كانت تجارة النيل الأزرق تتجمع في سنار Sennar ثم تنتقل عبر النهر إلى شندي وبربر مارة بالخرطوم ثم تسير القوافل نحو 300 ميل إلى مرفأ سواكن Suakin أو مرفأ مصوع Massowa على البحر الأحمر، حيث يجري نقل العبيد بحراً إلى سوق النخاسة العربي الضخم في جدة. لقد كان العبيد السودانيون بضاعة رائجة في جميع أنحاء العالم الإسلامي انطلاقاً من القاهرة وجدة. لكن العبيد الأغلى ثمناً هم الطواشية البيض من القفقاس والفتيات اللاتي لم يتجاوزن العقد الثاني من أعمارهن.

والطلب على العبيد دائم لا ينقطع. وخلافاً لما هو حال المجتمعات الصناعية التي تعتمد على التجارة عبر الأطلسي كان العالم الإسلامي ما قبل الصناعي يعتمد على العبيد المحليين، فمنهم الطهاة والجواري والطواشية وعمال النظافة. ففي مصر وحدها كان نحو 80 بالمئة من العبيد من الإناث. وكان المعدل الوسطي لعمر الجارية 10 إلى 12 سنة، حيث تقضي الواحدة منهن وهي في أواسط العشرينيات من عمرها، وهذا معدل وفيات يعزو مالك العبد أسبابه إلى المناخ الرطب في دلتا النيل، وليس لبؤس وشقاء العبودية[21]. وحيث إن الجارية كانت تجبر على اعتناق الإسلام فقد كانت تجبر على البقاء بعيداً عن العبيد الذكور الأقل عدداً، وإن حملت طفلاً غير مرغوب فيه يهملها سيدها، وإن حملت منه فالطفل يولد مسلماً حراً.

لم يكن محمد علي مثل غيره من المستعمرين الأوروبيين، فقد آثر هو وورثته ألا يجعلوا من السودان شريكاً ثابتاً لهم في "تجارة مشروعة" من خلال تشجيع

الزراعة لكي يبيعوا السلع الجاهزة. ولم يكن لدى مصر شيء تقدمه لإمبراطوريتها غير الحاميات العسكرية والحكام، وكانت بحاجة للمواد الأولية لتدعم ميزانها التجاري. فلم تأتِ إلى السودان إلا لاستغلاله من خلال مصادرة بضائعه وشعبه. فإذا كانت الصفوة التركية تعدّ المصريين ذوي البشرة الداكنة أقل منهم شأناً وقيمة فإنهم رأوا أن الوثنيين السود في السودان مصدر يمكن استهلاكه يشبه خشب السَّنْط Sant القاسي الذي يستخدمه المصريون في صنع أعقاب بنادق الجنود. فقد أصبحت الحكومة المورّد الرئيسي والزبون في آن معاً لتجارة العبيد التي لا يمكن التمييز بينها وبين الفوضى التي أرادت أن تجعلها في محلها.

كان السودانيون يطلقون على النظام المصري اسم "التركية Turkiyya" أي حكم الأتراك. وكان الإداريون المحليون الذين يجبون الضرائب الباهظة من السودانيين يحكمون بالكرباج المصنوع من جلد فرس النهر فيضربون به أخماص أقدامهم. وكانت الحكومة المحلية وضباط الجيش يشاركون تجار العبيد ويقاسمونهم أرباحهم. وعندما يعجز أفراد القبائل عن دفع ما يفرض عليهم من ضرائب باهظة كان الضباط المحليون يجبرونهم على إعطاء أبنائهم لتجار الرقيق، وكانوا يتقاضون العمولات من جراء ذلك. كان الضباط من مختلف الرتب يستخدمون العبيد عملة متداولة أو لاتخاذ الإناث منهم سراري. ففي دلتا النيل عمل الآلاف منهم في مزارع قصب السكر والقطن التي تملكها الصفوة التركية، وكان المجندون السودانيون علفاً لمدافع مصر. في مدرسة المشاة في أسوان كانوا يتلقون قميصاً من قماش الكاليكو (الخام) والتلقيح ضد الأمراض وتعاليم إسلامية أساسية. ولكن لا بد من القول إن ثلاثة آلاف جندي فقط ظلوا على قيد الحياة من أصل 30,000 مجند كانوا أول دفعة أسرها محمد علي[22].

كانت هذه التجارة موضع هجوم اقتصادي مرة وهجوم أخلاقي مرة أخرى من جانب التجار الأوروبيين والبعثات التبشيرية. ففي عام 1838 أجبرت الحكومة البريطانية السلطان العثماني على إلغاء الاحتكارات الحكومية كافة وعلى فتح

أسواق الإمبراطورية كلها أمام حرية التجارة. لكن السودان كان بعيداً بما يكفي ليجعل باشوات مصر يتجاهلون هذا الهجوم على تجارتهم. غير أن رغبة الأوروبيين الشديدة بالحصول على العاج الإفريقي أفرزت الطلب على حرية الوصول إلى السودان عند أواخر عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر. وهكذا انضمت قافلة صغيرة من المغامرين الأوروبيين إلى التجار العرب والأتراك القادمين إلى مستوطنة الخرطوم الصغيرة. كان منهم أندريه ديبونو Andrea Debono التاجر المالطي الذي تتبع بضاعته حتى مصدرها، وألكسندر فودي Alexandre Vaudy الموظف الفرنسي في الحكومة المصرية، وبرونو روليت Bruno Rollet الذي بدأ نشاطه التجاري مع تاجر عبيد فرنسي ثم انشق عنه ليعمل لحسابه الخاص، وجون باتريك John Patherick المهندس الذي جاء من ويلز Wales يبحث عن الذهب فبقي في السودان يتاجر بالصمغ العربي. لكنهم بسبب عدم انسجامهم مع أخلاقيات غامضة وغير محددة جاؤوا إلى آخر الدنيا بحثاً عن الثروة وعن النسيان، فخلعوا ملابسهم وعاداتهم الأوروبية وارتدوا زي التجار العرب واتخذوا الخليلات الحبشيات[23].

عمل هؤلاء التجار بدأب على كسر الاحتكار المصري على النيل الأبيض ولفتح النهر أمام حرية الملاحة، وقد أعانتهم حكوماتهم في ذلك ومنهم عينت القناصل المحليين. ففي السودان كانت الراية تتبع التجارة. وشهدت التجارة ازدهاراً ملحوظاً في الفترة بين عامي 1840 و1870، حيث تضاعف حجم العاج المصدر إلى لندن وحيث إن الطلب كان شديداً تضاعفت أسعاره أيضاً. في عام 1851 أرسل تجار الخرطوم اثني عشر قارباً عبر النهر تحمل عشرين طناً من العاج، وفي عام 1863 أرسلوا 240 قارباً تحمل 100 طن[24]. وكل طن من العاج يعني موت ما لا يقل عن 10 أفيال من الذكور الناضجة و 50 فيلاً من الإناث أو ربما أكثر من هذا العدد من الفيلة الذكور والإناث غير الناضجة، هذا عدا الكثير من الفِيَلَة التي قَضَت أثناء الذبح.

عندما تقلصت قطعان الفيلة قلّد هؤلاء التجار شركاءهم العرب ولجؤوا إلى تجارة العبيد ليدعموا أعمالهم التجارية. استوردوا البنادق المتطورة وأشعلوا

النزاعات القبلية وشكلوا ميليشيات خاصة بهم من المتعاونين المحليين معهم، وشنوا الاعتداءات الوحشية على قرى السكان الأصليين، واستعبدوا من ظل منهم على قيد الحياة. وكانوا يدفعون أجر من يعاونهم من السكان المحليين عبيداً و"بضاعة من مانشستر" غير جيدة، مثل القطن الخشن والدمى الرخيصة للأطفال والأواني الزجاجية. قدموا الرشاوى للسلطات المصرية وشنوا غزوات مشتركة ضد "القبائل المعادية"(25).

غير أن فتح النيل أمام التجارة الأوروبية والاستكشافات جعل هذا النهر مفتوحاً أيضاً أمام البعثات التبشيرية والإنسانية. فالجمعية المناهضة للرق مارست ضغطاً على الحكومة البريطانية التي بدورها ضغطت على باشوات مصر وبذلك مهدت الطريق أمام تحركات دبلوماسية قام فيها الباشوات بمحاولات لاسترضاء المنادين بإلغاء الرق وفي الوقت نفسه يكثرون من اعتمادهم على هذه التجارة. في عام 1857 حاولت بريطانيا إجبار السلطان العثماني عبد المجيد الذي خلفه السلطان عبد العزيز لمنع هذا النوع من التجارة بالعبيد الأفارقة في كافة أرجاء الإمبراطورية العثمانية. لكن ولايتين اثنتين أعفيتا من هذا الحظر. ففي مكة أثارت هذه الإساءة المهينة لمصالح الأعمال وللمحافظين المتدينين حركة احتجاجية ضد السلطات العثمانية التي أعلنت تراجعها عن هذه الخطوة وسمحت بتجارة الرقيق في الحجاز. وفي السودان كانت مواقع هذه التجارة بعيدة جداً، وتدر أرباحاً جيدة مما جعل من العسير ضبطها والسيطرة عليها، ناهيك عن أن عباس باشا قد تجاهل هذا الحظر وتابع عمله في جلب العبيد الذكور للخدمة في الجيش المصري. لكن وريثه، سعيد باشا، وبضغط من البريطانيين أمر الولاة والحكام باعتراض قوافل العبيد. وقد أقنعت هذه الخطوة القنصل البريطاني بأن "رغبته في منع تجارة الرقيق كانت رغبة صادقة"(26). لكن سعيد باشا ما لبث أن اتخذ لنفسه ثلة من الحراس الشخصيين قوامها 500 عبد سوداني(27).

إن هذا الضغط الأوروبي مضافاً إليه قرارات ومراسيم مصرية وتراجع في موجودات العاج دفعت بتجارة العبيد نحو الجنوب. والخرطوم التي ظلت طوال

هذه الحقبة مدينة متخلفة شهدت نهضة وتقدماً وصار عدد سكانها نحو 30,000 نسمة حيث أصبحت قاعدة مالية ولوجستية تقدم للتجار الزوارق والمرتزقة والمؤن والبنادق والمال إن لزم بفائدة قد تبلغ 100 بالمائة. وانتقلت الغزوات إلى منطقة بحر الغزال حيث لا يطالها القانون سيما وأن هذه المنطقة تكسوها الغابات وتكثر فيها الأنهار الصغيرة التي ترفد نهر النيل الأبيض وكان قد فتحها اثنان من القناصلة المقيمين في الخرطوم هما القنصل البريطاني جون باتريك وقنصل سردينيا برونو روليت[28]. ثم سيطر عليها فيما بعد جماعة من الغزاة مؤلفة من جنود وتجار عبيد عرب وأوربيين. ارتكب هؤلاء المجازر واعتقلوا الكثيرين وخلفوا وراءهم جثث القتلى وقرى محروقة. تركوا الأطفال الصغار جداً والشيوخ المسنين ليموتوا جوعاً، وضموا الشباب الأقوياء إلى ميليشياتهم واستعبدوا الباقين. كان هؤلاء التجار يدفعون لجنود ميليشياتهم عبداً واحداً مقابل خدمة ثلاثة أشهر وسمحوا لهم بأن يأخذوا ما يشاؤون من الجواري والسراري. استخدموا الأطفال عبيداً لحمل الأثقال أو جنوداً. وقسموا المنطقة فيما بينهم كما كان يفعل أمراء الحرب في العصور الوسيطة. وكل مملكة منها كان لها جماعتها الخاصة من الجنود المصريين وميليشيا العبيد، وكانت عاصمتها في "الزريبة Zariba" المركزية، أي المعسكر الحصين حيث يتم تجميع العبيد والعاج قبل الشحن. وهكذا صارت منطقة بحر الغزال معملاً ضخماً للموت.

وكانت حكومة أوروبية ما تجري الاستفسارات بين الفينة والأخرى رداً على بعض الشائعات التي كانت تقول إن قنصل تلك الحكومة في الخرطوم قد أغار على منطقة بحر الغزال، وكان القناصل يتهمون بعضهم بعضاً بأنهم تجار عبيد أشرار، ولكن أياً من تلك الحكومات لم تقم بتحقيقات فعلية. في عام 1859 أصدرت وزارة الخارجية البريطانية أمراً بتعيين جون باتريك قنصلاً كامل الصلاحية. ولما وجد باتريك أنه قد اكتسب هذه الصلاحية حاول أن يؤسس جيشاً خاصاً به، زاعماً أنه يعيش في وسط "قبائل تثير الشغب والحروب"[29]، فطلب من وزارة الخارجية أن تأذن له باستيراد 500 بندقية و80 بندقية أخرى مخصصة للفيلة وطنين من معدن الرصاص الخاص بصنع قذائف البنادق. وفي

الوقت ذاته تلقى القنصل البريطاني في الخرطوم تقريراً من ممثل الحكومة النمساوية في الخرطوم يقول إن شخصاً بريطانياً مقيماً في الخرطوم يعمل في تجارة العبيد[30]. ولم يكن أي مشتبه به آخر غير السيدة باتريك Mrs Patherick. لكن وزير الخارجية اللورد راسل شعر بشيء من السرور ولم يصدمه الخبر.

وقال "إن للسيد باتريك نوعاً من السلوك العربي المتهور يصلح لتلك المناطق أكثر مما يصلح لبلاط القديس جيمس"، ووافق على جزء من قائمة الشراء التي قدمها باتريك قائلاً "ربع هذه الكمية يكفي"[31].

وحقيقة الأمر أن هذا التواطؤ بين المصريين والأوروبيين في المجزرة التي ارتكبت في منطقة بحر الغزال لم يظهر للعلن إلا من خلال سلسلة من الحملات الاستكشافية التي مولتها الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا بهدف رسم خارطة لمنظومة البحيرات العظمى في إفريقيا التي تعد مفتاحاً لمعرفة منابع النيل. في شهر شباط/فبراير عام 1858، وبعد أن اكتشف بحيرة تنجانيقا بمشاركة المستشرق ريتشارد بيرتون Richard Burton تابع جون هاننغ سبيك John Hanning Speke رحلته إلى أن وصل إلى "مسطح جميل جداً من المياه"[32]. عندها أدرك أن هذا المسطح المائي هو بحيرة نياسا Nyasa الأسطورية منبع نهر النيل الأبيض، فأطلق عليها اسماً جديداً هو بحيرة فكتوريا. عاد سبيك إلى تلك المنطقة ثانية في عام 1862 وكان معه جيمس غرانت James Grant ليرسما خارطة هذه البحيرة. عندما جاءت بعض التقارير التي تفيد باختفائهما انطلق القنصل باتريك وزوجته بحثاً عنهما. فاختفى القنصل وزوجته أيضاً، فكلفت الجمعية الجغرافية صمويل بيكر Samuel Baker الصياد الشهير، الذي انطلق من الخرطوم جنوباً في شباط/فبراير 1863 وعثر على سبيك وغرانت. كان هذان الأخيران قد أدركا موقع الشلالات شمال البحيرة التي ينطلق منها نهر النيل الأبيض في رحلة تمتد لثلاثة شهور يقطع فيها مسافة 4,000 ميل ليصل إلى البحر الأبيض المتوسط. وبعد أن حسبا حجم المياه استنتجا أن للنيل الأبيض منبعاً آخر يقع في مكان ما إلى الشمال الغربي، وقد

وجده بيكر في آذار/مارس 1864 ووصفه بـ "بحر من الزئبق"، ودعاه بحيرة ألبرت Lake Albert تيمناً بالأمير ألبرت زوج الملكة فكتوريا المتوفى حديثاً[33].

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب الذي وضعه بيكر بعنوان Albert Nyanza, Great Basin of the Nile يروي بالتفصيل أوصاف المنطقة والقبائل التي تقطنها وتجارة العبيد التي لا تعرف حدوداً أو قيوداً في تلك المناطق الممتدة من الخرطوم وحتى البحيرات العظمى. أُنعم على بيكر بلقب فارس ومُنح الوسام الذهبي للجمعية الجغرافية الملكية. أما جون باتريك فقد فُصل من عمله وأُلغيت القنصلية. وأما الغضب الأخلاقي البريطاني فقد انصب على تجارة العبيد في السودان التي تشكل إهانة للإنسانية شبيهة بتلك التجارة في شرق إفريقيا وعلى الخديوي إسماعيل الذي كان متحالفاً مع هذه التجارة، وضد الشر.

غير أن إسماعيل كان أشد قلقاً على المال منه على الأخلاق. إبان مرحلة ازدهار تجارة القطن اقترض مبالغ ضخمة من الأموال من المصارف الأوروبية ليدعم طموحاته الجمة ويسدد الدين الذي ورثه عن سعيد باشا والبالغ 9 ملايين جنيه. وفي عام 1864 اقترض 5.7 ملايين جنيه من بنك فروهلنج وغوشن Fruhling and Goschen بلندن ليسدد تعويضات شركة قناة السويس، واقترض أيضاً مبلغ 3.3 ملايين جنيه عام 1865 من البنك المصري البريطاني. ومع تباطؤ الاقتصاد وبسبب انهيار شركاته الوهمية تزايد الاقتراض. في عام 1866 اقترض 3 ملايين جنيه أخرى من بنك فروهلنج وغوشن لتغطية إفلاس الشركة المصرية للتجارة والمقايضة، ومليوني جنيه في عام 1867 من البنك العثماني Imperial Ottoman Bank، وفي عام 1868 حين وصلت الإيرادات إلى رقم 7,277,785 جنيهاً اقترض مبلغ 11 مليون جنيه من صديقه هنري أوبنهام. لقد أصدرت هذه القروض بمعدل فائدة يبلغ 7 ـ 9 بالمئة لقرض عام 1867. وبعد العمولات المشروعة وغير المشروعة لا يصل ليد إسماعيل إلا ما يقرب من نصف هذه الأموال، وجزء أصغر مماثل يذهب للدولة. قد يشير بعض الصحفيين الموالين إلى نوبة مؤقتة من الأشغال العامة مثل مصابيح الغاز في الشوارع وأنابيب

الصرف الصحي تحت الشوارع على أنها دلالة على الاستقرار في مصر، لكن مملكة إسماعيل في عام 1869 بدأت تعيش على الديون، ولم يكن مبلغ المليوني جنيه المخصص للاحتفال بافتتاح قناة السويس إلا جزءاً يسيراً من هذا الدين. ففي الأسابيع التي كان خلالها فرديناند دو ليسبس يعد قائمة المدعوين للاحتفال أُعلن إفلاس شركة "الجمعية الزراعية" التي يملكها إسماعيل وكذلك شركة السفن البخارية، تاركتين للحكومة المصرية أن تشتري أسهماً بقيمة 3.3 ملايين جنيه[(34)].

عندما وصلت جماعة من المنادين بمبادئ الفضيلة الفكتوريين إلى إمبراطورية إسماعيل أحس الخديوي أنه في مأزق تصعب النجاة منه سيما وأن منع تجارة العبيد يعني في نظره فقدان واحد من القطاعات الأكثر إنتاجية في مصر. وعلى النقيض من النظرية الإنسانية لم تزدد شهوة مصر للعبيد إلا مع تنامي "التجارة المشروعة"، فالاقتصاد النامي أوجد ثروة جديدة كما أوجد زبائن جدداً. والسجل الذي لدى القنصلية البريطانية في القاهرة والذي تقيد فيه أسماء العبيد الهاربين والمطالبين بحريتهم تضمن أيضاً لائحة موازية تندرج فيها أسماء مالكيهم السابقين. وكانت هذه اللائحة تضم أسماء من مختلف قطاعات المجتمع المصري: الحكام والقضاة والمصرفيين والتجار وموظفي الحكومة ورجال الشرطة والجزارين وحتى الفلاحين الذين أبرموا عقوداً مع حكومتهم لتقديم السخرة وأرسلوا عبيدهم إلى العمل في قناة السويس كعمال بديلين. وكانت الحكومة تستخدم العبيد أيضاً في مشاريع الأشغال العامة التي تنفذها. وكان لدى إسماعيل شخصياً ما يقرب من 3,000 من العبيد الزراعيين وآلاف أخرى من العبيد يعملون في قصره حراساً شخصيين أو خدماً أو طواشية أو خليلات[(35)].

كانت تجارة العبيد في مصر الدعامة غير المعترف بها لاقتصاد الصادرات والاقتصاد المحلي للبلاد. وذلك المرسوم الذي أصدره السلطان العثماني عام 1857 القاضي بحظر الاتجار بالرقيق لم يصنع شيئاً. عندما اشترى القنصل البريطاني حرية أولئك العبيد الهاربين حوّلهم إلى الشرطة المصرية التي بدورها نقلتهم إلى الجيش، وهذا بدوره أعادهم إلى السودان بلباس عسكري، عبيداً في

كل ما له صلة بالعبودية عدا الرتبة. وبعد انقضاء عقد من السنين على المرسوم الصادر عام 1857 عثر القنصل البريطاني على ما يزيد عن 3,000 عبد يباعون في أسواق النخاسة السرية بالقاهرة، وألفين آخرين يباعون علناً في مدينة طنطا الزراعية في الدلتا. وحتى بعد أن أصيبت تجارة القطن بالانهيار عام 1866 بقيت هذه المسألة "مسألة سوء سمعة عامة" أن مصر تصدر ما لا يقل عن 30,000 من العبيد في العام من السودان. وهذا عمل وحشي يعادل في حجمه وبؤسه تلك التجارة السيئة السمعة في شرق إفريقيا[36].

ولم يكن إسماعيل ليتراجع عن تلك الإشارات والتعهدات التي قدمها أسلافه، فينفض يديه عن تجارة في القاهرة في وقت كانت تأتيه الأرباح منها بهدوء من أعالي النهر. وحيث إنه كان تابعاً للسلطان العثماني، ويريد الحفاظ على صورته كرجل ينادي بالتحديث ويعمل له فيجب أن يظهر بمظهر من يريد تنفيذ مرسوم الحظر الصادر عام 1857. ولا يستطيع في الوقت نفسه بموجب الأمر من الباب العالي التركي عام 1838 القاضي بمنع الاحتكار أن يمنع التجار والبعثات التبشيرية الأوروبية من الوصول إلى السودان. فهذان الامتيازان التركيان الممنوحان مقابل الضغط من بريطانيا كانا بمثابة فكي كماشة اقتصادية سوف تطحنه. لذلك لا بد له من أن يجعلهما مصدر فائدة له. فإذا كان نمو إمبراطوريته في إفريقيا يعتمد على موافقة بريطانيا، فهكذا يجب أن تكون. سوف يركب الموجة البريطانية والهواجس البريطانية ويفتح الأسواق ويتبنى إلغاء الرق في جميع المناطق وحتى خط الاستواء.

في ربيع عام 1869 عندما تفقد الأمير إدوارد أمير ويلز الأعمال الجارية في قناة السويس اصطحب معه السير صمويل بيكر ليكون مترجماً له من اللغة العربية ويعلمه فن صيد التماسيح. وفي حفلة تنكرية أقامها في قصره الجديد بالإسماعيلية سأل الخديوي الأمير إذا كان ممكناً للحكومة البريطانية أن تعيره السير صمويل من أجل القيام بحملة لقمع تجارة الرقيق في مناطق النيل الأبيض وليكون نهر النيل مفتوحاً أمام حرية التجارة ابتداءً من البحر وحتى البحيرات العظمى. وحين ذهب الأمير إلى القسطنطينية ليحل ضيفاً على السلطان عبد

العزيز شد بيكر رحاله إلى لندن ليأخذ بنادقه وصندوق أدويته. فقد أراد أن يقوم بهذا العمل بموافقة الحكومة البريطانية ولكن من منطلق كونه موظفاً في الحكومة المصرية. لم يكن صمويل بيكر آخر المرتزقة البريطانيين العاملين في إفريقيا لكنه كان أول من يرتدي الزي العسكري التركي منهم.

عند عودته إلى مصر خصص له الخديوي إسماعيل راتباً قدره 10,000 جنيه ومنحه رتبة الباشا العثماني ورتبة لواء في الجيش المصري وأعطاه البزة التركية التي جعلته يبدو بصورة الدب الروسي التي رسمها فنان الكاريكاتير، كما أصدر فرماناً منحه بموجبه "الصلاحية المطلقة والعليا حتى صلاحية الحكم بالإعدام" في منطقة تمتد على الخارطة من أطراف السيطرة المصرية عند غندوكورو Gondokoro درجة 5 شمال خط الاستواء وحتى البحيرات العظمى، أو ما مقداره على الأرض 90,000 ميل مربع، تعرف حالياً باسم المديرية الاستوائية. وبالنظر لـ "الأحوال المتوحشة للقبائل التي تقطن حوض النيل" والتي ليس فيها "حكومة ولا قوانين ولا أمن" وأن "الشعور الإنساني يقتضي قمع صيادي العبيد" وأن "إقامة تجارة مشروعة في تلك البلاد تشكل خطوة كبرى نحو حضارة مستقبلية" فإنه يتعين على بيكر أن "يُخضع" هذه المنطقة ويُدخل إليها "التجارة المنتظمة" ويفتح البحيرات العظمى أمام الملاحة، ويؤسس "لسلسلة من المحطات العسكرية والمستودعات التجارية" بين غندوكورو وبحيرة فكتوريا[37].

كان بيكر مارداً غاضباً سبق له أن أنقذ زوجته فلورنس من الوقوع في حريم السلطان، وكان صياداً، ولم يكن دبلوماسياً، فخطط لحملة عسكرية. أعد لنفسه مخزوناً جيداً من حبات الخرز والقطن والبذور الزراعية ليغري سكان المديرية الاستوائية بالتجارة المشروعة، كما جهز لنفسه ترسانة من البنادق الجبلية ومنصات الصواريخ في حال أظهر هؤلاء السكان أية مقاومة. وأمر بتهيئة ست سفن ذات جسم حديدي وبحيث تبنى من ستة أقسام ليمكن نقلها عند شلالات النيل وإعادة تجميعها عند البحيرات. بعد ذلك انطلق إلى الحرب تصحبه زوجته فلورنس العنيدة التي لا تقهر ومعهما 1,000 جندي مصري وألف من

الحمالين من السكان الأصليين.

كان في مواجهة بيكر عدوان اثنان هما النيل وتجار العبيد فتوزعت مهمته في معركتين، المعركة الأولى استكشافية: أي يشق طريقه عبر نباتات السَّدّ Sudd المعوّقة للملاحة وبخاصة جنوب الخرطوم، ويدون أيضاً ملاحظاته عن أصول الجنس البشري، وثم الصيد من أجل الطعام. اكتسب بيكر سمعة أسطورية في صيده للحيوانات التي تعيش في غابات الهند وإفريقيا، وكان يفتنه التفكير بأي الحيوانات سوف يصيد في اللحظة القادمة، وهذا ما أكسبه رباطة الجأش وصحة العقل حين أوشكت حملته على الانهيار بعد أن قضى عاماً كاملاً في تلك المتاهة المستنقعية من نبات السَّدّ المعوق للملاحة. لقي الكثيرون من رجاله حتفهم وهم يغوصون في المياه حتى الأعماق فأصابتهم ضربة الشمس أو أصابهم المرض وهم يقطعون الأعشاب من حول قواربهم، وحتى طبيب الحملة أرسل إلى الخرطوم للتداوي. لكن بيكر وزوجته لم ييأسا وتابعا سيرهما؛ يدون في دفتر ملاحظاته مشاهداته وأسباب تقدمهم البطيء، ويصنع نوعاً من ذخيرة الدمدم dum-dum للبنادق التي تطيح برأس فرس النهر عن بعد 30 ياردة، أما فلورنس فكانت تشرف على غَسْل الملابس وتكتشف طرقاً جديدة لطهي لحم فرس النهر.

في شهر نيسان/أبريل 1871 تمكن الناجون من العوم والخروج من متاهة النباتات النهرية والسَّدّ من الوصول إلى غندوكورو، تلك الأرض العراء الخالية من الأشجار على ضفة النهر التي لوحظت فيها بقايا بعثة نمساوية مهدمة. بنوا بعض الأكواخ وزرعوا الذرة وسموها الإسماعيلية، محاكاة ساخرة لتلك الضاحية العصرية الحديثة في القاهرة وللقصر الجميل الذي بناه إسماعيل على قناة السويس. وفي 26 أيار/مايو 1871 أقام بيكر عرضاً عسكرياً لجيشه بلباسهم الموحد ورفع العلم التركي على صارية ارتفاعها 80 قدماً وخاطب الجمهور المؤلف من رجال قبيلة الباري Bari أنصاف العراة أنهم أصبحوا الآن ملحقين بمصر. ثم أمر بمأدبة احتفالية يقدم فيها لحم البقر المشوي وفطائر عيد الميلاد والروم.

حين رأى رجال قبيلة الباري هؤلاء القادمين الجدد يرفعون علم حليف

تجار العبيد، شنوا غارات ليلية على المعسكر. فكانت تلك الطقوس التي تحدث وسط مكان ناءٍ إشارة البدء لمعركة بيكر الثانية، ألا وهي التهدئة. وكانت في الوقت عينه إشارة تدل على محدودية موارده واستراتيجيته.

لقد شن بيكر حرباً على مجتمع بأكمله واقتصاده. فقد كان يعمل في تجارة العبيد في السودان نحو 15,000 تاجر عربي وبانسجام تام مع الحكومة المصرية. كان أحد كبار تجار العبيد في بحر الغزال رجلاً قبطياً يدعى غطاس وكان والد زوجة إسماعيل باشا أيوب الحاكم الكردي للخرطوم يتقاضى ضريبة غير رسمية قدرها جنيهان عن كل عبد في القوافل التي يعترضها رجاله. وكانت الجيوش الخاصة لتجار العبيد تفوق في عديدها ما لدى بيكر من قوات مصرية. وعندما كان بيكر يرتدي البزة التركية ويسير مع جنوده المصريين ـ الذين أسماهم "الأربعين حرامي" بسبب طريقتهم التي تشبه طريقة المشردين في التعامل مع ما يملكه السودانيون ـ رأت فيه القبائل التي جاء ليحررها موظفاً مصرياً عازماً على القتل والصيد والاستعباد. رد بيكر على تلك السهام المسمومة التي أطلقها رجال قبيلة باري، بنحو 50,000 رشقة من الذخيرة واستخدم بنادق من نوع Snider لقتل رجال القبيلة، فما كان من أفراد هذه القبيلة إلا أن اندفعوا للتحالف مع تجار العبيد العرب، مما اضطره لشن الغارات على الأرياف المجاورة ليغنم ما يشاء من المواشي، كما كان يفعل تجار العبيد. وهكذا تحولت البعثة التي مهمتها التحرير إلى حرب استنزاف ضد شعب أبى أن يتحرر.

حين تابع بيكر حملته نحو الجنوب ليؤسس سلسلة من القواعد العسكرية كان الخراب الذي خلفته تجارة العبيد والشواهد الدالة على التواطؤ المصري يحيطان به. قاعدة فاتيكو Fatiko ذلك الموقع المتقدم الذي تأسس عام 1864 اتسعت وكبر حجمها وامتدت لتصبح مركزاً لتجارة العبيد مساحته 12 هكتاراً ويأتي إليه الأفراد ليبيعوا أبناءهم، حيث يكون ثمن الفتاة ناب فيل أو قميصاً جديداً أو 13 إبرة خياطة إنكليزية. وفي الجنوب من ذلك المركز، وفي شهر أيار/مايو من عام 1872 أعلن ضم مملكة بنيورو Bunyoro دون أن يعلم ملكها كاباريغا Kabarega الغاضب آكل لحوم البشر. فنشبت بين الجانبين مواجهة

سخيفة ولكن وحشية مجّدها بيكر نفسه حين أسماها معركة بنيورو. لم يكن لدى رجال الملك كاباريغا أية فرصة برغم أنهم أفادوا من عنصر المباغتة وأفقدوا العديد من "الاربعين حرامي" القدرة على القتال باستخدامهم عصائر الفاكهة المسمومة. عندما انقض رجال القبيلة على المعسكر منطلقين من تحت الأعشاب هاجمهم بيكر وجنوده بما لديهم من البنادق والمدافع والصواريخ فأبادوهم وأغار رجاله على عاصمة الملك كاباريغا وأحرقوها عن بكرة أبيها وقتلوا كل من وجدوه أمامهم. انتشرت جثث القتلى في كل مكان في تلك البقعة الفسيحة حتى كان من العسير إحصاء عددهم. ولم يخسر بيكر سوى أربعة رجال.

لكن كاباريغا لم يستسلم. كان يدرك انعدام التوازن في القوى فاجتنب المواجهة، لكنه وأفراد قبيلته كانوا يشنون الغارات الواحدة تلو الأخرى منطلقين من مخابئ لهم تحت الأعشاب الطويلة، وقطعوا عنهم الغذاء والماء، وأجبروهم على التراجع إلى المستنقعات وإلى الوقوع في شراك الكمائن. وبدلاً من أن تصبح تلك القواعد والحصون التي أنشأها بيكر مستودعات تتلقى منها المديرية الاستوائية تجارة مشروعة صارت حصوناً دفاعية يحتمي بها بيكر من السكان الغاضبين في تلك المنطقة. وعندما انتهى عقده مع الخديوي إسماعيل في شهر نيسان/أبريل 1873 أحس بالارتياح.

عاد بيكر وزوجته إلى القاهرة حيث أمضيا ستة أسابيع استمتعا فيها بشرب الجعة المثلجة وارتداء القمصان النظيفة ومآدب العشاء الاحتفالية. وفي الخريف عاد بحراً إلى إنكلترا حيث أقامت له الجمعية الجغرافية الملكية احتفالاً رسمياً وحيث تلقى التهاني الحارة الشخصية من أمير ويلز. وحين كثرت المزاعم حوله بأنه قتل من السكان الأصليين أعداداً أكبر كثيراً من أولئك الذين حررهم بدأ يكتب يومياته لتشكل قنبلة أخرى تتحدث عن الوحشية عند الأغراب والعزيمة الإنكليزية، وكان عنوان هذه اليوميات "الإسماعيلية، قصة حملة انطلقت إلى أواسط إفريقيا لقمع تجارة الرقيق" *Ismailia: A Narrative of the Expedition to Central Africa for the Suppression of the Slave Trade.* ثم أضاف إلى هذا العنوان عبارة "بتكليف من إسماعيل خديوي مصر" (*Organized by*

(Ismail, Khedive of Egypt)، وذلك تحسباً فيما لو تبين للقارئ أن القمح لم يكن كلياً كما يدعي.

هذا وقد أشار بقوله: "وفي نهاية المطاف تغلبنا على كل معارضة واجهناها وخضع الحقد والعصيان للنظام والقانون. فرضت حكومة أبوية الرعاية حمايتها على أراض كانت ميداناً للفوضى ومرتعاً لتجارة العبيد .... وادي النيل الأبيض وعلى مسافة تمتد 1600 ميل من الخرطوم وحتى إفريقيا الوسطى تطهر من أحقاد عمليات نقل كانت حتى تلك اللحظة تلطخ مياهه. انقشعت كل سحابة، انتهت مهمتي بإشراقة سلام. لكنني وبكل تواضع وجدت في هذه النتيجة التي توصلت إليها بركات من الله"[38].

وبعد أن تحدث بيكر عن ذلك النصر الذي حققه في كل شيء أقر بفشله الذريع وإخفاقه في إقامة سلسلة من الحصون في تلك الأراضي القفر. فقد قال معترفاً بأنه "يشعر بالسخط وبألم يعتصر قلبه" جراء عجزه عن مواجهة حقيقة واضحة وضوح الشمس هي أن تجار العبيد أولئك كانوا يعتمدون على "سلطة عليا تعمل في الخفاء". كانت سفنهم تشق عباب النيل الأبيض "بخيلاء نصر وتحد أمام الريح رافعة الأعلام ذات الهلال والنجمة وتحت الأعلام شحنة رهيبة من بشر أصابهم الطاعون، كلهم ازدراء لما لدي من سلطة"[39]. كان تجار العبيد يبتعدون عن درب شقه بيكر وسار عليه ثم ليحيطوا به من وراء ظهورهم مثل سبخة من تلك الأعشاب النهرية التي تنصب شباكها. وحيث إن مياه النيل الأبيض قد خضعت للرقابة فقد غيرت قوافل العبيد مساراتها وتحولت إلى مسالك برية ليس فيها ماء. وهكذا واصل المهربون المصريون من القاهرة والإسكندرية ومصوع وسواكن تجارتهم بالرقيق السوداني عبر العالم الإسلامي كله. لقد وجد إسماعيل في بيكر صفقة رابحة، ذلك أنه بمبلغ لم يتجاوز ثلاثين ألف جنيه من أموال مقترضة اشترى لنفسه إقليماً جديداً.

أما بيكر فقد اشترى لنفسه بتلك الأموال التي قبضها من إسماعيل مقراً ريفياً في إحدى النواحي الإدارية بإنكلترا وزين صالته وحجرة البلياردو بمجموعة من الحيوانات المحنطة تمثل أشياء تذكارية حملها معه من إفريقيا. وفي حديقة

ذلك المقر صممت زوجته فلورنس طريقاً تحيط به أشجار السرو وينتهي بكوخ إفريقي "مخصص للحوار" يطل على مناظر جميلة لحقول شاسعة في مقاطعة ديفونشاير Devonshire وذلك تحسباً لحال قد يصبح فيها لدى صمويل ولع بالنقاش والتفاوض. من هذا المنتجع الذي اختاره لنفسه كان بيكر ينشر مقالات دورية لاذعة يطلقها كما لو أنه يستخدم بندقية صيد الفيلة لتنشر في صفحة القراء بصحيفة التايمز. وكان يقول فيها: لا يمكن الوثوق بالمصريين، والأفارقة كسالى تسيطر عليهم الخرافات ولا سبيل إلى إصلاحهم، وأما الدعاء والورع الإنساني للتجارة فلن يمنعا تجارة العبيد. لقد كانت بذور صراع الحضارات تتشكل على ضفاف النيل بين العادات الإسلامية وطموح الغرب، وكانت دولة الخديوي إسماعيل غير المستقلة جزءاً من المشكلة.

"إن أول شيء ينبغي عمله في سبيل دمج بلد متوحش بالحضارة هو ضمها إلى بلد متحضر"[40]. كما قال بيكر معرباً عن شديد غضبه.



غوردون باشا، الحاكم العام للسودان

الفصل الثاني

المهندس

1873 - 1879

سوف أستعين بعونِ إلهي يأتيني من كل من هو قادر على تقديمه.
الكولونيل تشارلز غوردون، 1881[1]

في حفل في إحدى السفارات في القسطنطينية التقى نوبار باشا برجل تبين أنه كولونيل بسلاح الهندسة الملكي. وكانت المهام الموكلة إليه - رفع التقارير حول حرية مرور السفن عبر نهر الدانوب وتفقد المقابر الحربية في شبه جزيرة القرم - تدل على وجود مهمة أخرى لديه لها صلة بالمسألة الشرقية. وسأله نوبار باشا إذا كان لدى فرقته إمكانية تقديم بديل عن صمويل بيكر. وشرح له المواصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المرشح، إذ يتعين عليه أن يعمل على تنظيم أرض قفر شاسعة مترامية الأطراف تعمها الفوضى، ويقضي على وحشية تجار العبيد ويُدخل الحضارة إلى تلك البقاع المنسية من إفريقيا. وفجأة، وكما لو أن ذلك التحفظ البادي على وجه الكولونيل وتلك النظرة الثاقبة في عينيه قد أثارا دهشته، سأله إذا كان هو نفسه مهتماً بهذا العمل؟

كان الكولونيل تشارلز جورج غوردون Charles George Gordon أزرق العينين في زرقتهما الصافية توهج الياقوت الذي أسبغ عليهما تلك الرؤية الحالمة. "ما أجمل هاتين العينين!" قالها موظف يعمل تحت إمرته اسمه آرثر ستانارد Arthur Stannard يصفهما بقوله: "عينان صافيتان، حادتا النظر مفعمتان بجمال قدسي وتشعان ببريق ليس من هذه الطبيعة تحملان تعبيراً ينم عن نشاط هادئ، تشبهان بلونهما الرمادي المائل إلى الزُّرقة سماء صبح شديد

البرودة في شهر آذار/مارس"[2]. ومع ذلك لم تكن هاتان العينان كما تبدوان، فقد كان غوردون مصاباً بعمى الألوان، يعيش عالم اللون الواحد، لا يعرف قيمة طابع البريد إلا حين يدقق النظر بالأرقام الظاهرة عليه.

ولد غوردون في وولويتش Woolwich، الحامية العسكرية على إحدى ضفتي نهر التيمز وقضى طفولته مثل أي طفل آخر يولد لأب يعمل في الجيش. كان والده هنري ضابطاً في سلاح المدفعية الملكي، وكانت عائلته تتبعه أينما انتقل بحكم الوظيفة ـ وولويتش، دبلن Dublin، ليث Leith، كورفو Corfu ـ وكانت تلك التنقلات تترافق عادة مع ترقيات بالرتبة وولادة جديدة، وعندما وصل هنري إلى رتبة ميجر جنرال كانت زوجته قد أنجبت خمسة صبية وست بنات. وفي مكان ما وسط هذا العدد كان "تشارلي" الأصغر بين الصبية في أسرة نشأت وتربت على قيم الجيش والكنيسة: الإيمان، والواجب، والاجتهاد بالعمل. عندما بلغ العاشرة غادر كورفو ليلتحق بمدرسة داخلية إنكليزية عرفت بصرامتها، وفي سن الثالثة عشرة نقل إلى جحيم آخر للمراهقين تمثل بالأكاديمية العسكرية الملكية في وولويتش.

في تلك الأيام بدا هذا الطالب المكتنز الجسم الذي يدرس في الأكاديمية العسكرية الواقعة في إحدى الثكنات المادة المثالية لضابط في الجيش. كان لغوردون الذي لا يعرف الخوف ذهن متوقد حاضر البديهة وعملي، ولم يرهقه الفكر، ويد فنان تتقن رسم الخرائط. ومع ذلك لم يكن ليمتثل للسلطة متجاوزاً حدود ثقافة طلبة الكلية من حيث المزاح والشجار وما يشبه حالة التمرد، فتشاجر مع أحد زملائه وضربه ضربة في بطنه جعلته ينهار ويهوي متقلباً على درجات السلم. وفي يوم من الأيام أطلق مجموعة من الفئران داخل منزل رئيس الأكاديمية. وذات يوم وبسبب تأنيب عنيف تلقاه جراء مخالفة بسيطة مزق هذا الطالب الضابط غوردون كتفية بزته العسكرية وألقى بها على الأرض. وفي مرحلة أخرى ضرب طفلاً صغيراً على رأسه بفرشاة شعر. وبسبب سلوكه هذا خسر الطالب غوردون أقدمية ستة أشهر كما أضاع فرصة اللحاق بأخوته وأبيه في سلاح المدفعية الملكي. ولهذا السبب عوقب بالحرمان وعين برتبة ملازم في سلاح الهندسة.

ومع أنه لم ينس هذه الإهانة إلا أنه وجد في هذا المنصب ما يرتاح له. فقد كان سلاح الهندسة يعتمد على الجدارة والاستحقاق ولم يكن تقليدياً. كان ضباط الجيش النظامي يشترون تعييناتهم بالأموال أما الضابط في سلاح الهندسة فقد كان يكسب هذا التعيين من خلال إتقانه لعلوم الحروب الحديثة. وحيث إنه الحرفي في الإمبراطورية فالجندي في سلاح الهندسة يعمل على بناء الجسور والثكنات والحصون ويضع المتفجرات ويكون مسؤولاً عن الجنود غير النظاميين من السكان الأصليين. وهكذا تجاوز غوردون الأدعياء والمتسلقين في المجتمع وصار لديه الآن فرصة جيدة للارتقاء السريع في سلم الرتب.

ولسوء الطالع كانت الإمبراطورية بحاجة لغوردون أولاً في التحصينات البحرية عند بمبروك Pembroke على السواحل الرطبة لمقاطعة ويلز. ذهب إلى حيث أريد له الذهاب، وكان وحيداً بائساً فوجد عزاء وحدته في التجوال بالريف. وفي تلك الغربة تعرف على عائلة محلية هي عائلة الكابتن والسيدة درو Drew اللذين وجدا فيه ضابطاً شاباً مشاغباً وعنيفاً وبحاجة للخلاص. ومن تلك اللحظة، وبتوجيه من إرشادهما الديني الإنجيلي بدأ غوردون يكوّن في نفسه عادة لازمته مدى الحياة، وتميزت بالتنقيب بحثاً عن تعليم ذاتي في خفايا العقيدة الدينية في العصر الفكتوري. فنأى بنفسه عن الذهاب للكنيسة وحضور الصلوات فيها معتبراً ذلك بعيداً عن الصحة والامتثال، فأخذ يقرأ الإنجيل وحده يومياً مستعيناً بتقويم وضعه Robert M'Cheyne، الذي يعد نبي دندي Prophet of Dundee ومتخذاً له دليلاً في دراسته كتاب *Commentaries* تأليف توماس سكوت Thomas Scott الذي يكشف أسرار المعاني الخفية لكل آية في الإنجيل. وتعلم من دراسته الذاتية هذه أن الله موجود في كل مكان، وهو اليد الخفية في التاريخ. وقال "لا يوجد شيء اسمه الحظ، وكل عاطفة يحس بها المرء هي من أجل ذلك الشيء العظيم، مجد الله"[3].

كان غوردون قصير القامة، ممتلئ الجسم، أجعد الشعر، له شاربان كثان يمتدان حتى الوجنتين كأبناء عصره، يتكلم بلكنة سريعة لا تخلو من تمتمة قلما يلحظها السامع. وكانت الحروف تنساب من فيه بسهولة لم تخضع للتدريب،

وكان يخفي تلك التمتمة بقوله DV (Deo Volente)، إن شاء الله - حين يتحدث عن شيء مستقبلي. في عام 1854 جاء تعيينه في الجبهة. بعد أن أهمل الإنكليز والفرنسيون إحكام سيطرتهم على ميناء سيباستوبول في القرم حين أتيح لهم ذلك شددوا الآن حصارهم على الجنود الروس المدافعين عنه وكان بينهم الشاب ليو تولستوي Leo Tolstoy.

وبرغم ذلك الحصار لم تهتم وزارة الحرب بالتخطيط للشتاء الروسي وصقيعه. وبقي الجنود يعانون من البرد. لم يكن لديهم معاطف أو خيام تقيهم ذلك الصقيع. الأرض التي يفترشونها دون غطاء كانت بدرجة التجمد، ولم يكن لديهم من طعام سوى لحم الخنزير المملّح. وأما خيول سلاح الفرسان فبدأت تقضم ذيول بعضها بعضاً لعدم وجود علف تأكله، وجعلت تعدو جامحة في المعسكر. وما أن حل شهر كانون الثاني/يناير عام 1855 حتى كان عدد الجنود البريطانيين الأصحاء 11,000 في حين كان الجنود المرضى يعدون 23,000 يعانون من الزحار والكوليرا والجوع وعضّات الصقيع (الشَّرَف) والغنغرينا (موات الأنسجة) وجراح أصيبوا بها. في مستشفى سكوتاري Scutari قرب إسطنبول كانت الجرذان تسرح وتمرح في الأجنحة والمرضى المصابون بالزحار يظلون وسط قذارتهم. وفي الوقت الذي كان فيه الرأي العام الروسي يقرأ ما كتبه تولستوي عن دفاع بطولي شرس في كتابه *Sebastopol Sketches* كان لدى الرأي العام البريطاني وليم راسل مراسل صحيفة التايمز الذي كان تقريره بمثابة صرخة عالية أثمرت نتيجتها إرسال معونة شتائية تضمنت عدداً من الممرضات كانت فلورنس نايتنغيل Florence Nightingale واحدة منهن.

كانت شخوص تولستوي في روايته تلك تنتقل من مثالية متقدة يشوبها خوف وهلع إلى قدرية متأثرة بصدمة القذائف. لكن غوردون كان يجد المتعة والسرور في الحرب. عمل سلاح المهندسين على تدمير الخنادق ومرابض المدفعية من مواقعهم الحصينة التي احتلوها على أرض صخرية وزرعوا الألغام والمتفجرات وأعدوا رسوماً لخطوط العدو. كان غوردون نفسه يتمدد على الطين المتجمد أمام الخنادق البريطانية وعن قصد يستثير الروس ليطلقوا نيران

مدافعهم ليحدد على دفتره مواقع النيران. ذات يوم بعث برسالة لوالدته قال فيها: "لا أظن أنني كنت في يوم من الأيام أفضل صحة مما أنا اليوم، أستمتع بعملي كثيراً". وكان غوردون في رسائله يصف التقارير التي بعث بها راسل مراسل التايمز بأنها "أكاذيب بغيضة". وكان يركز في حديثه على جمال فصل الربيع في شبه جزيرة القرم. ويقول: "لدى جرحانا كل ما يحتاجون، وكل وسائل الراحة. وقد حصلت مؤخراً على بعض الملابس الرائعة وصدرية من جلد الشاموا وسروالاً"[4]. ولم تكن لديه أية رغبة بالرحيل بعد أن وضعت الحرب أوزارها وانسحب الجيش الروسي. مُنح وسام الشرف *Legion d' honneur* من الفرنسيين حلفاء بريطانيا تقديراً لشجاعته وبقي هناك لثلاث سنين عضواً في الهيئة المكلفة بترسيم الحدود الروسية التركية الجديدة. وعاد إلى بريطانيا في أواخر عام 1858 لكنه سرعان ما غادرها إلى الصين حالما تمكن من ذلك، بعد أن ضاق ذرعاً من مآدب الطعام ومن البزة العسكرية الرسمية في أوقات السلم وبالعروض العسكرية.

كانت بريطانيا في تلك الأيام تريد مقايضة الأفيون من الهند بالفضة الصينية، لكن الأباطرة الصينيين من أسرة مانشو Manchu لم يرغبوا بدخول وباء الإدمان إلى بلادهم. وكان رئيس الوزراء اللورد بالمرستون قد استعان بدبلوماسية الأساطيل الحربية ليجبر أولئك الأباطرة على منح الأوروبيين حق الإقامة والتجارة وإقامة حاميات عسكرية في 17 مرفأ عرفت باسم "مرافئ المعاهدة" وعلى التنازل عن جزيرة هونغ كونغ لتكون قاعدة بحرية بريطانية. ولكن عندما رفض أباطرة المانشو أن يفتحوا الصين أمام حرية التجارة عام 1860 دخلت قوة بريطانية بقيادة اللورد إيلغن Lord Elgin وتقدمت عبر النهر حتى وصلت إلى بيجين. وكان غوردون واحداً من جنود القوة التي نهبت وأحرقت القصر الصيفي، فأرسل الهدايا التذكارية إلى عائلته وإلى رفاق المائدة في فرقته.

غير أن دخول التجارة الأوروبية والبعثات التبشيرية المسيحية قلبت أوضاع النظام الإقطاعي في الصين وأدت إلى ظهور حركة تمرد عرفت باسم تمرد تايبينغ Taiping Rebellion، أو بتعبير آخر هي حرب أهلية أشعلها

الفلاحون الذين اعتنقوا المسيحية ضد الفساد في المدن. كان زعيم حركة التمرد هذه رجل اسمه هنغ سين توين Hang-Sen Tuen ادعى أنه الملك القادم من السماء والأخ الشقيق ليسوع. وأعلن إقامة أسرة حاكمة في البلاد أطلق عليها اسم "أسرة السلام الدائم" Dynasty of Perpetual Peace، وسرعان ما انتقلت حركة التمرد هذه إلى حالة من التجويع والقتل والصلب وانتقلت الثروة إلى القادة وحدهم. مع حلول شهر آب/أغسطس من عام 1860 وصلت حركة التمرد هذه إلى أبواب شنغهاي، أكبر مركز تجاري في غرب البلاد، فما كان من تجار شنغهاي إلا أن شكلوا قوة ميليشيا من أولئك العناصر الذين فروا من حركة تايبينغ وعينوا على هؤلاء ضباطاً من المرتزقة الأميركيين الشديدي الولع بشرب المسكرات، وأطلقوا على هذه القوة اسم "الجيش المظفر دوماً". وعندما تولت الحكومتان البريطانية والفرنسية أمر الدفاع لحماية مصالحهما التجارية صار غوردون القائد الجديد لهذا "الجيش المظفر دوماً".

غير أنه بتعيينه هذا يكون غوردون قد ورث تركة تتمثل في خليط من الرعاع الغوغاء متغايرة القوة، منهم من يرتدي بزة رسمية، ومنهم من اختار ألا يلبسها، فالزي العسكري اختياري وكذلك المؤن لم تكن منتظمة. لكنه بفضل انضباط شديد الصرامة وبشجاعة نادرة يتحلى بها ولا تعرف المهادنة إلى جانب تواضع مدروس ومحسوب استطاع أن يجعل من هذا الخليط كتيبة من الطراز الأول. كان يزدري أي مال يأتيه فوق ما يتقاضاه من الجيش البريطاني، فكان يقتات في كثير من الأحيان البيض النيء يرشفه من قشوره والشاي الذي كان يشربه من إبريق يتأبطه دوماً. كان يذهب للمعركة مرتدياً البزة غير الرسمية لسلاح الهندسة الملكي لا يحمل معه سوى سيجار يدخنه وعصاً من الخيزران كان يصفها بأنها عصا النصر. كان رقيق القلب يبكي لرؤية جنوده الجرحى لكنه صلب قاس لا يتوانى عن قتل المتمردين رمياً بالرصاص أو عن أسر الضباط من أعدائه. كان يملك موهبة إتقان الحروب القصيرة غير النظامية، ما جعله يتفوق كثيراً على أعدائه من التايبينغ Taiping حين كان يأمر القوارب العسكرية بالنزول إلى الماء والإبحار عبر منظومة القنوات المحيطة بشنغهاي. في شهر

واحد خاض ست عشرة معركة يخوضها الآخرون في شهور عديدة حيث استولى على نانكنغ في شهر حزيران/يونيو عام 1864. انتحر ذلك "الملك القادم من السماء" فانتهت بذلك حركة تمرد تايبينغ. سُرّ الإمبراطور مانشو Manchu وأمر بتعيين غوردون برتبة مشير (فيلد مارشال) وكبير موظفي الإمبراطورية، وقدمت له الإمبراطورة وساماً من الذهب الخالص وأنعمت عليه الملكة فكتوريا بلقب Companion of the Bath واستقبل استقبال الأبطال ولقي تمجيد الأبطال في بلاده.

لكن غوردون الذي كان يشعر بالضيق إزاء شدة الاهتمام به برغم أنه كان يسعى إليه طلب إلى والدته أن تبقي نبأ عودته إلى البلاد طي الكتمان. ابتاع لنفسه قبعة مستديرة سوداء وبذلة مستعملة جعلها تبدو متسخة وانسل خلسة من بين رفاقه دون أن يودع أحداً منهم. لكن هذه المحاولات فشلت جميعاً، حيث إن جنوده احتفوا بمغادرته وأقاموا الزينات ورفعوا رايات "الجيش المظفر دوماً" لدى صعوده الزورق الذي حمله إلى الباخرة التي كانت تنتظره بعيداً، وأطلقوا الصواريخ النارية وقذائف المدفعية وصدحت الأبواق تمجيداً لذلك "الجنرال العظيم كو Ko".

وكان الأمر أسوأ من ذلك حين وصل إلى ساوثمبتون، فقد حيته الجماهير وهي تهتف غوردون "الصيني" رمز الصحافة الوطنية. كان يعاف الاحتفالات والشهرة فاعتذر عن الدعوات لمآدب العشاء، وأزال كل إشارة إلى شجاعته وبطولاته وردت في تقارير تحكي عن المعارك التي خاضها ومحا اسمه من ذلك الوسام الذهبي الذي منحته إياه إمبراطورة الصين قبل أن يتبرع به على أنه من شخص مجهول الاسم إلى جمعية خيرية تعنى بعمال القطن الجياع. وقبل خمسة عشر شهراً من موعد انتهاء إجازته طلب من وزارة الحرب إعادته إلى عمله ليستأنف واجباته. وحيث إن هذه الوزارة لا تثق بالرجال المشهورين والغريبي الأطوار، فقد أرسلت واحداً من أكثر ضباط الجيش نكاءً والمعية للإشراف على قوة عسكرية مؤلفة من خليط من عمال البناء والحفريات كانت تعمل على تحصين موقع Gravesend على أحد روافد نهر التيمز.

غير أن غوردون، بعد أن أمضى قرابة عشرة أعوام قام فيها بمغامرات عنيفة اقترب فيها كثيراً من حتفه، أحس بانقباض وكآبة وهو على ضفاف التيمز الكئيب. وما زاد في كآبته هذه موت والده. حين وقف إلى جانب جثمان والده يندبه قال "هل هذا هو كل ما وصلنا إليه؟"[5]. أثناء فترة الحداد، وحيث إنه لم يكن لديه ما يفعله، كان يقاوم ذلك "الحزن والكآبة" بحمام مياه باردة وبمزيد من البراندي الذي يخلطه بالماء وبالعودة إلى التأمل الديني. ومن خلال سعيه الدؤوب والجاد لاكتساب معرفة لاهوتية شخصية تكون أقرب ما يمكن للتصوف والقرب من الله بدأ مراسلاته المكثفة مع شقيقته أوغستا Augusta، العانس التي تكبره باثني عشر عاماً والتي كان يتحدث إليها عن رغبته الشديدة بـ "التعرف أكثر على الله"[6]. كان يقضي الأمسيات جالساً إلى طاولة المطبخ يقرأ وأمامه فنجان شاي وكسرة من خبز بائت، وفي أحيان كثيرة كان يمضي تلك الأمسيات مع الثنائي أوغست وأوكتافيا فريز August and Octavia Freeze، اللذين كانا يشاطرانه رغبته بالتعمق في الدين وفي تبادل النكات النظيفة. وانقضت شهور عدة قبل أن تدرك هذه الأسرة الصغيرة أن هذا الكولونيل الحزين الذي لوحته الشمس بسمرة ظاهرة والجالس أمامها هو غوردون "الصيني".

يقول غوردون: "شيء ما فطر قلبي دون أن أدري، بعدما قرأت بعض آيات الإنجيل، كان شعوراً أحسست به ولم أدر كنهه، وعرفت أن الله يسكن في قلبي"[7]. لقد وجد غوردون "ذلك السر العظيم لحياة جديدة" و"مفتاح السعادة والقداسة": "أن الله ثبت في قلبه"[8]. أحس بأنه ولد من جديد وبأنه قفز فجأة من حالة بؤس إلى حالة من النشوة والبهجة الغامرة. وكرّس نفسه للحديث عن هذه الرؤيا. وحيث إنه كان حذراً متحفظاً ينفر من جعل الغرباء يقفون ليستمعوا إليه فقد وضع رؤيته هذه في نشرة مطبوعة أخذ يوزعها على من يلتقيهم في الطريق أو ينثرها من نوافذ القطار أو في الحقول حين يذهب للتجوال في الريف. كان يتحدث عن ذلك السر العظيم للفقراء وكبار السن والمرضى الذين يلتقيهم في مشافي الإصلاحيات، وكرّس أوقات ما بعد الظهر لتعليم أولاد الفقراء في المدارس التي تعرضت للإهمال، أو لقضاء بعض الوقت قرب مريض يحتضر

يصلي له. لكنه كان يولي جهده الأكبر للأولاد الصغار والفقراء الذين كان يصفهم بأنهم "فقراء معدمون" أو "ملوك".

جعل بيته مدرسة آوى إليه صبية يقطنون في الأكواخ والأحياء الفقيرة في غريفسند Gravesend أو في الزوارق وقوارب الصيد الراسية في النهر، وأدخلهم في الأحواض المخصصة للخيول ليستحموا ويزيلوا ما عليهم من أوساخ. ثم كان يأتي بهم إلى المرآة لينظروا إلى أنفسهم ثم يقول للواحد منهم "أنت الآن ترى صبياً جديداً أليس كذلك؟ وكما أصبحت الآن جديداً من الخارج أريدك أن تكون جديداً من الداخل"[9]. وأخذ يلقنهم دروساً عن المسيح ويدرّسهم قواعد لعبة الكريكيت ويقدم لهم شطائر الجبن ويجد لهم عملاً في الجيش ويرسم مراحل مسيرتهم على خارطة ضخمة معلقة على الجدار حيث خطوط الدبابيس تشير إلى أسفار جاك أو ويلي أو ألكس وعشرات غيرهم. الخجل وحده هو الذي كان يعوقه. في يوم من الأيام أسرّ لأوكتافيا فريز قائلاً بعد أن قام بجولة في الشوارع الخلفية "كان ثمة صبية يقدرون بالملايين ولم تكن لدي الشجاعة لأتحدث إليهم"[10]. كان ذلك حين تجرأ على الاقتراب من طفل آثم لم يبلغ الحلم بعد، وما أن حدثه ناصحاً ومبشراً حتى وجد نتيجة حديثه هذا مذهلة. فقال لأوكتافيا "نعمة كبرى من الله وجدتها في شارع بيري Perry. جئت بثلاثة صبية عُرفوا بفظاظة سلوكهم ووجدت أنهم ملوك! صبي من الريف من الأطفال، ولد عبري في الرابعة عشرة من العمر لجأ إلي وأتمنى أن أجد له عملاً في دائرة المساحة"[11].

"كان هذا المخلوق مستعبداً ينتظر خلاص الجسد"[12]. وحيث إن غوردون لا يصغي إلا إلى القيثارة السماوية فهو لا يستمع إلى ذاك الرنين الذي تحدثه نغمات الشهوة الجنسية حين يقوم بالأعمال التبشيرية. حين كان يستعمل الماء والصابون في تنظيف أولئك الأطفال كان سيغموند فرويد Sigmund Freud لا يزال تلميذاً يتلقى علومه في إحدى مدارس فيينا. وكان الجميع من أبناء عصر الملكة فكتوريا يقدسون براءة الأطفال ويعدون فكرة الجنس مع الأطفال مثيرة للاشمئزاز. وكان اللواط رذيلة تركية لا يجوز الحديث عنها أو كما وجدت دراسة

معاصرة بعنوان "مشكلة في أخلاق اليونان"[13]. وكانت العلوم التقدمية ترى "عشق الذكر" - إذ لم تكن كلمة "اشتهاء المماثل homosexuality"[14] موجودة في اللغة في ذلك الحين - انحرافاً عن الوضع السوي سببه تشوه في المخ حدث في المرحلة الجنينية"[15].

لكن غوردون كان يجتنب النساء، وطبعاً فيما عدا تلك الصداقة الروحية مع شقيقته أوغستا أو أوكتافيا فريز. فكان ينسحب ويتراجع حين يشعر بأقل بادرة لتطور صداقة معهن. وكان يفر هارباً من شهوة الجسد مستخدماً دوماً الألفاظ الروحانية الشائعة، حيث كان يسمي الجسد "الغمد الغدار للروح". وذات مرة كتب في رسالة وجهها لصديقه الأنجليكاني "الأب ر. بارنز The Reverend R.H. Barnes" معترفاً "تمنيت لو كنت مخصياً وأنا في الرابعة عشرة"[16]. وفي رسالة أخرى أشار إلى أن سبب تلك الأمنية يعود إلى "نقض لعهد" لم يحدده حدث له في المدرسة الداخلية. حيث قال "لم أشعر بمثل هذا الندم طوال حياتي"[17]. كان العالم المادي في نظره فاسداً عصياً على الخلاص. فكان يقول: "يضم العالم مملكتين من الناس، معترفاً بوجود ملكين مستقلين ونظامين للحكم منفصلين. إحداهما مملكة أبدية غير دنسة وغير فاسدة، والأخرى مملكة فانية، دنسة وفاسدة وشيطانية"[18]. أما شهوته الجنسية التي قتلها الصراع مع الجسدانية الشيطانية فقد بقيت ساكنة متوقفة عن التطور مثلما كانت تختلس التعبير عن ذاتها. فقد كان يقول "تعوقنا طبيعتنا الدنيوية حتى إنه ليصعب على المرء أن يتكلم كما ينبغي له"[19].

بعد قضاء سبع سنين في نفي طوعي لدراسة الإنجيل قرب النهر في غريفسند أتيح لغوردون موقع جديد آخر في مكان شبه منعزل، هو موقع غالاتز Galatz في تركيا. ودع والدته وما كانت تُسمعه من طلبات تثير غضبه تحضه على الزواج والتحق بالهيئة الدولية المكلفة بتنظيم حرية الملاحة في نهر الدانوب. لم يكن ذلك العمل ما يبعث في نفسه الحماسة والسرور. فقد كان ذلك الميناء النهري موحلاً فأصيب عمله بنكسة. جاءته رسائل تحدثت عن وفاة والدته وموت بعض المقربين إليه من الشباب في مغامرة استعمارية، فنزلت عليه "الكآبة" مرة

أخرى. حين التقى غوردون مع نوبار باشا في السفارة البريطانية بالقسطنطينية في شهر أيلول/سبتمبر عام 1873 كان في أحسن حال للقيام بمهمة جديدة واعدة بكفاح من أجل الفضيلة وظروف قاسية ومجد خالد. كان شديد الحماس لكنه كان ساذجاً فلم يخطر له أن نوبار قد تتبع أثره عامداً متعمداً ليقدم له عرضاً بدا في حينه عفوياً.

وعاد غوردون إلى غريفسند ليحزم أشياءه، وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني/يناير عام 1874 غادر إنكلترا بينما كانت الصحف الصباحية تحمل أنباء مفجعة عن وفاة ديفيد ليفنغستون في إفريقيا الوسطى. وكانت الكلمات الأخيرة التي قالها هذا المبشر الذي كان ينادي بإلغاء الرق والاسترقاق تناشد الضمير المستنير، حيث قال: "لتحل بركات السماء على كل شخص أميركي أو بريطاني أو تركي يعمل على شفاء هذا الجرح النازف في العالم"[20]. لقد كانت تلك القضية الكبرى عند المبشرين الإنجيليين، قضية خلاص إفريقيا، بحاجة لشخصية قيادية جديدة. وقبل أن يغادر غوردون موطنه رسم بطاقة بريدية أخيرة وبعث بها إلى عائلة فريز، حيث صور شخصاً تظلله شجرة نخيل وحيدة ويمشي في طريق فارغ باتجاه شمس آخذة بالأفول". لكن الرسم لم يبين ما إذا كان ذلك الشخص يمشي نحو شمس تغيب أم شمس تطلع.

لم يملك غوردون أن يقاوم إغراءات إسماعيل، فهذا الخديوي الذي يمكن وصفه بأمير في عالم الشهوات والسلطة التي كان غوردون يزهد بها ومع ذلك يسعى لها، كان منغمساً مثل فرس النهر في المسرات الدنيوية، ومع ذلك كان ينادي من الأعماق طالباً خلاص مملكته السودانية من تجار الرقيق.

قال الخديوي: "يجب أن يفهم الجميع، حتى من هم في تلك الأماكن النائية أن اختلاف اللون لا يجعل الناس سلعة تباع وتشرى وأن الحياة والحرية شيئان مقدسان"[21].

كان إسماعيل يعلم أن نواياه الطيبة تجلب له دعم بريطانيا لإمبراطوريته.

لكنه في الوقت نفسه كان يجني الأرباح الطائلة من مصالحه الذاتية. ولم يكن غوردون ذلك القاضي الذي يحكم على الأشخاص فصدّقه وطرح نفسه بأنه المخلص الذي أراده إسماعيل. أنحى باللائمة على نوبار باشا وعلى المضاربين "اليونان أو العبرانيين"[22] الذين وصفهم بأنهم السبب في "الفساد المتفشي بمصر"[23]. وصوّر إسماعيل بأنه الضحية، حيث وصفه بقوله "بريء جداً (أو نحو ذلك)"[24] من أولئك المشرقيين المجردين من الأخلاق. وفي رسالة بعث بها إلى شقيقته أوغستا قال: "ليست لديك أدنى فكرة عن المكائد المنتشرة هنا، فهي بؤرة نظامية ولا يمكن أن يستمر الحال على هذا النحو"[25].

وليثبت أنه المخلّص المطلوب رفض غوردون عرض إسماعيل بأن يتقاضى راتباً ضخماً كما كان يتقاضى بيكر، وقبل براتب قدره 2,000 جنيه فقط يغطي مصاريفه. وفي ذلك قال: "هدفي أن أبرهن للخديوي وشعبه أن الذهب والفضة ليسا معبودين يعبدهما العالم أجمع. هما قويان جداً لكنهما ليسا بقوة الله الذي نعبده"[26].

وقبل إسماعيل عن طيب نفس تلك البضاعة الزهيدة الثمن التي لا تساوي شيئاً أمام راحة النفس والضمير، وهو الخديوي الذي اعتاد على مكر الدبلوماسيين ونظرات المصرفيين المتقلبة. وكان كثيراً ما يقول كلمات في إطراء هذا الموظف الزاهد لديه يصفه بأنه مثله الأعلى، "عندما يدخل هذا الرجل غرفتي أشعر أنني مع رئيسي"[27].

ومن جانبه أشاد غوردون بالخديوي واصفاً إياه بأنه "رجل صادق وأمين وأنا أحبه كثيراً" حين قبل لقب "حاكم المديرية الاستوائية"[28]. وبعد جولة سريعة في القاهرة استغرقت أسبوعين قام هذا الحاكم الجديد بتكوين مجموعته الخاصة من المساعدين، جاء بهم من الأوروبيين والأميركيين المحبين للمغامرة ومبتعداً قدر المستطاع عن وزراء إسماعيل، وطلب إليهم ألا يخاطبوه بلقب "صاحب المعالي". ثم قام بزيارة إلى طبيب الأسنان واستقل باخرة حملته إلى مرفأ سواكن. ومن هناك سار باتجاه خط الاستواء حيث قال "كنت أرتدي ثياب مهندس وعلى رأسي طربوش، فهذا له وقع جيد"[29].

بعد ذلك عاد إسماعيل إلى عمله الأكثر أهمية. لم تكن المديرية الاستوائية مشروعه الاستعماري الوحيد، ولم يكن غوردون الساذج الحسن المعشر حليفه الوحيد. وفي الوقت الذي كان فيه إسماعيل يحاول تهدئة هاجس بريطانيا بشأن الرق متحدثاً بحرارة عن قدسية الحياة والحرية كان أكبر تاجر للعبيد في السودان يرتدي الطربوش المصري ويتقاضى راتب حاكم.

ولعل التاج كان أكثر ملاءمة له. فقد كان زبير رحمت Zubair Rahmat الملك غير المتوج لمقاطعة بحر الغزال الواقعة إلى الشمال الغربي من المديرية الاستوائية. ولد الزبير في قرية عربية قرب الخرطوم، وسلك مسار تجارة الرقيق التي كانت تشهد توسعاً حتى وصل إلى بحر الغزال، استغل معارفه من أفراد القبائل العربية وأنشأ شبكة للتصدير تمتد حتى طرابلس (الغرب) وجدة. جمع ثروة هائلة من تجارته هذه استطاع من خلالها أن يجند جيشاً خاصاً ويكسب رداءة الاسم والسمعة لدى المنادين بإلغاء الرق والاسترقاق من البريطانيين. في عام 1869 بعث الخديوي إسماعيل بقوة قوامها 1,200 جندي مصري من الخرطوم إلى بحر الغزال لكسر شوكة ميليشيا الزبير ويضم هذه المقاطعة ـ بما فيها من تجارة رابحة بالعبيد ـ إلى أقاليمه السودانية. لكن جنود الزبير أبادوا الجنود المصريين عن بكرة أبيهم. فجرب إسماعيل مقاربة أكثر هدوءاً، وبدلاً من محاولة التخلص من الزبير عينه حاكم مقاطعة بحر الغزال وقبل منه بالمقابل إتاوة قدرها 15,000 جنيه. وهكذا كانت الرشوة التي قدمها الزبير تسدد المعاش الذي كان يتقاضاه بيكر، أو بعبارة أخرى يمكن القول إن تجارة العبيد في أحد الأقاليم كانت توفر الأموال لقمع هذه التجارة في إقليم مجاور.

عرف الزبير بالرجل الذي لا يقهر فسيطر على التجارة في بحر الغزال. اتخذ لنفسه مقراً للحكم قصراً لأحد رؤساء القبائل الإفريقية، حيث كان ضيوفه ينتظرونه في دواوين مفروشة بالسجاد ويحيط بهم أسود مقيدة بالسلاسل. وكانت شبكته المكونة من 30 زريبة البنية التحتية لمعمل ينتج الرقيق بترخيص من الحكومة. وكبرت تجارته وازداد غنى حتى إنه إن سمع أن تاجر عبيد منافساً له اشترى لنفسه تميمة تحصنه من الرصاص أذاب 25,000 دولار من الفضة

وسلّح رجاله برصاص بنادق من الفضة[30].

في عام 1873 تعمّق التعاون بين إسماعيل والزبير وكان ذلك عند غزو دارفور. غير أن الضغط البريطاني المتواصل على مصر في سبيل جعلها تحترم قرار السلطنة العثمانية المناهض للرق الصادر عام 1857 وكذلك تثبيت دعائم السيطرة المصرية على وادي النيل شمال الخرطوم قد أدى على نحو تدريجي إلى إغلاق المراكز الأدنى على النيل السوداني أمام شحنات الرقيق، فاضطر التجار للابتعاد عن النهر والذهاب إلى طريق الأربعين يوماً، وهو الطريق البري القديم المتجه شمالاً عبر الصحراء من مدينة الفاشر في دارفور. غير أن الإيرادات الحاصلة بسبب العبور على هذا الطريق زادت في ثروة أكبر منافسي الزبير في هذه التجارة ألا وهو سلطان دارفور الذي تصادف في الوقت نفسه أن يكون القوة الإفريقية الوحيدة غرب النيل القادرة على الوقوف في وجه التوسع الاستعماري المصري. وهكذا اتفق إسماعيل والزبير على اقتسام دارفور. غزاها الزبير من جهة الجنوب وتقدم إسماعيل أيوب باشا حاكم الخرطوم من جهة الشرق. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1874 تمكنت قوات الزبير من قتل سلطان دارفور واستولت على مدينة الفاشر. وهكذا غنم الخديوي إقليماً جديداً وفرض الزبير سيطرته على طرق القوافل.

ثم شن الخديوي حرباً جديدة ضد منافسه في شرق النيل، ألا وهو مملكة الحبشة المسيحية المستقلة. فهذه المملكة بالإضافة إلى كون منابع النيل الأزرق في أراضيها كانت مرتفعاتها تشرف أيضاً على طريق آخر للتجارة من السودان، ألا وهو الطريق من مدينة بربر Berber على النيل جنوب الخرطوم إلى مرفأ سواكن على البحر الأحمر. وقد استأجر إسماعيل مرتزقة فرنسيين ودانمركيين لقيادة قواته. وأذكى نيران حرب أهلية داخل الحبشة من خلال إرسال بنادق صنع رمنغتون Remington إلى قبائل حدودية متمردة، ثم شن سلسلة من الهجمات على الحدود بهدف الاستيلاء على سفوح مرتفعات الحبشة التي إضافة لكونها ذات قيمة استراتيجية، كانت مصدراً هاماً للجواري. غير أن ضعف أداء المجندين لدى إسماعيل وشراسة المقاومة التي أبداها الملك جون عاهل الحبشة

قد أوصلا تلك المناوشات إلى طريق مسدود، وبقيت القوات الحبشية مسيطرة على المرتفعات المطلة على مدينة مصوع. في عام 1875 وبتكلفة بلغت مليون جنيه أرسل إسماعيل جيشاً قوامه 30,000 جندي إلى الحبشة بهدف "استعادة الكرامة المصرية" وضمان الهدوء في الأقاليم الحدودية مستقبلاً"[31]، وذلك بغية احتفاظ مصر بـ "إمبراطوريتها الإفريقية"[32]. وهكذا بينما كان إسماعيل يهتم بما يقوم به غوردون وما كان ينادي به من مبادئ لإلغاء الاسترقاق في المديرية الاستوائية كان حكامه وقادته العسكريون يستعبدون المسيحيين في الحبشة.

وما أن جاءت السنون الأولى من عقد سبعينيات القرن التاسع عشر حتى أفلس إسماعيل، فقد أرهقت كتلة القرض المصري القسم الأكبر من رأس المال في أسواق البورصة الأوروبية حتى إن منافسه في طلب التسليف السلطان العثماني عبد العزيز أصدر أمراً في عام 1869 منع إسماعيل بموجبه من أخذ قروض أجنبية لمدة خمسة أعوام. وقد تطلب ذلك رشوة بلغت أكثر من مليون جنيه وارتفاعاً في الإتاوة المصرية السنوية وصلت إلى 700,000 جنيه لكي يستعيد إسماعيل حقه في الاقتراض من الخارج. لكن أصدقاءه الأوروبيين في تلك الأثناء قد أسسوا مصارف في مصر يستطيع إسماعيل أن يقترض منها محلياً حيث يقدم ضمانات لقروضه من أملاكه وأطيانه الخاصة. فاقترض في العام 1870 مبلغ 7 ملايين جنيه من البنك المصري الفرنسي[33]. وفي عام 1872 اقترض 4 ملايين جنيه من بنك أوبنهايم في الإسكندرية، و3 ملايين جنيه من فرع هذا المصرف في القسطنطينية، ثم مبلغاً آخر بقيمة مليوني جنيه من فرع الإسكندرية. وفي عام 1873 وحين وصلت إيراداته إلى 7.3 ملايين جنيه استهلك منها مبلغ 6.3 ملايين جنيه فوائد عن قروضه الحالية، اقترض قرضاً ضخماً آخر من هنري أوبنهايم محولاً بذلك الدين الوطني البالغ 27 مليون جنيه إلى قرض طويل الأجل يبلغ 32 مليون جنيه[34]. وبهذه الطريقة حرر الأموال النقدية لكنه أفضى إلى ارتفاع لولبي في الفوائد المركبة ومدفوعات القسائم ما أدى سريعاً إلى اختناق في الاقتصاد، حتى القروض لم تكن تجدي. فالعمولات

والرشاوي والسرقات وتدهور القيمة كانت تنتقص كثيراً من قيمتها وهي تنتقل من المصرف إلى خزينة الدولة. فقد تقلصت القيمة الورقية للقرض المسحوب من أوبنهايم بمبلغ 32 مليون جنيه لتصبح 17.8 مليون جنيه لدى وصوله إلى مصر. أما الفرق فلا يمكن تعويضه إلا بقروض أخرى وبشروط يتزايد إجحافها. مع حلول عام 1874 كان إسماعيل قد قبض ما يزيد عن 37 مليون جنيه باسم مصر وقروضاً شخصية وصلت إلى ما يقرب من 10 ملايين جنيه. وكان المبلغ الواجب تسديده على فترات تمتد ما بين عشرة أعوام وثلاثين عاماً يبلغ 139,767,000 جنيه نقداً وسندات، و 27,760,000 جنيه لديونه الشخصية. أما الإيرادات لذاك العام فقد كانت 10 ملايين جنيه[35].

لكن إسماعيل وجد المال اللازم لبناء مجمع خاص لقصره في ظلال أهرامات الجيزة. حوّل مسار أقنية الري لكي ينشىء حدائق وبساتين في الصحراء، حيث جداول الماء الصناعية تنثر رذاذ مياهها تحت جسور من نسج الخيال، وحيث تملأ الأجواء أنغام شدو العصافير الإفريقية في أقفاصها. ومثل مدين مهذّب رقيق المشاعر كرس الخديوي دخله كله للحفاظ على المظاهر. عندما حاول نوبار باشا أن يبطيء ذاك الاندفاع الشديد نحو الهاوية أمر الخديوي بفصله من الخدمة وعين بديلاً عنه إسماعيل صديق باشا الذي أبدع خطة صادر بها ما تبقى من مستقبل مصر وكسب بها سرور إسماعيل.

كان الخديوي يملك ما يقارب من خُمْس مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في مصر لكنه لم يكن يدفع الضرائب. والتجار الأوروبيون كانوا يكسبون المبالغ الضخمة من الأموال وهم أيضاً لا يدفعون الضرائب. وكان مُلاّك الأراضي الأتراك الذين يأتون في المرتبة الثانية بعد الأوروبيين في كسب أعلى نسبة من الأموال يخفّضون ما يتوجب عليهم دفعه من ضرائب الدخل من خلال تقديم الرشاوي لمفتشي الضرائب لكنهم لا يزالون خاضعين للتكليف الضريبي السنوي على ممتلكاتهم. هذا وقد قدّم إسماعيل صديق باشا إلى هؤلاء الملاك عرضاً يقضي بتخفيض الضريبة على أملاكهم بمقدار خمسين بالمئة وإلى الأبد إن هم دفعوا في عام واحد الضرائب المستحقة عليهم عن ست سنوات. وقد دعا هذه

الصفقة بـ "المقابلة" أو "التعويض"[36]. ولكن ليس واضحاً مَنْ يُعَوِّض على مَنْ: مُلاّك الأراضي ينتجون 8 ملايين جنيه نقداً فيقدمون العون للخديوي في مصاعبه لبضعة أشهر بينما يخسر الخديوي الملايين من إيرادات مستقبلية. بعد ذلك لم يتبق أمامه سوى مصدر واحد فقط للإيرادات الضريبية ألا وهو الفلاحون.

لكن واقع الحال أن ذاك التباطؤ الذي أصاب الازدهار الذي حققه القطن في السنوات الأخيرة قد حرم الفلاحين من تلك البهجة الضئيلة في امتلاك العبيد وتفادي أعمال السخرة. وهنا لا بد من الاستشهاد بما قالته سيدة أرستقراطية اسكتلندية اسمها لوسي داف غوردون Lucie Du Gordon لجأت إلى مصر تصف واقع الفلاحين حيث ذكرت: "كان الكرباج يجلد ظهور وأقدام جيراني طوال الصباح. فذلك النظام القائم على السلب والنهب واغتصاب الحقوق قد وصل إلى درجة سيكون من الصعب تجاوزها إلى ما ورائها". لقد كانت تسجل مشاهداتها في سنة 1865 التي كانت سنة ذهبية للاقتصاد المصري. وتابعت وصفها قائلة: "كان أولئك الفلاحون الفقراء مجبرين على انتزاع كسرة الخبز من أفواه أسرهم الجائعة ليقتاتوا بها وهم يَشْقَوْن في العمل كي يربح الأموال رجل واحد. إن مصر مجرد مزرعة شاسعة واسعة يملكها سيد إقطاعي يشغّل عبيده دون أن يطعمهم"[37]. وهكذا بدت مصر في سبعينيات ذلك القرن خارجة عن السيطرة. وكانت مهيأة للثورة.

أما الخرطوم فكانت في ذلك الحين مدينة الازدهار الدائم في الجنوب المقفر. كانت الحياة فيها مقبولة بعد عشرات السنين من النفوذ المصري. عرفت البلاد خطوط البرق وكان ثمة حديث عن دخول سكة الحديد. والتجار اليونان الذين كانوا يجلبون البنادق وأوتاد الخيام صاروا يقدّمون النبيذ الفرنسي والعطور الفرنسية والفواكه المعلبة، وأكثر من ذلك البيرة التي كانت بمثابة إكسير الحياة عند البريطانيين. وعلى النهر كانت زوارق الشرطة المصرية تتصيد مهربي العبيد إنما دون حماس.

حين وصل غوردون استقبله حاكم الخرطوم إسماعيل أيوب بحفاوة كبيرة وأقام له مأدبة عامرة أتبعها بحفلات رقص لفتيات نوبيات تميز رقصهن بالدوران دوماً وكن يرتدين الأساور والخلاخيل والسيور الجلدية. أثارت هذه الحركات غرائز قنصل النمسا مارتن هانسل Martin Hansal الذي أثمله الشراب فقام يرقص. أما غوردون الذي اشمئز من ذلك فقد انسحب بهدوء لم يلحظه أحد. ولكي يرد كرم وفادة الحاكم أقام غوردون حفلة في القنصلية البريطانية، من أجلها استخرج من مستودع القنصلية ما تبقى مما كان لدى صمويل بيكر، مثل أطباق سيفر Sevre الخزفية الفاخرة والكؤوس الفاخرة المصنوعة من كريستال بوهيميا ونبيذ البورغوندي والشمبانيا. واشترى نحو 40 سلطانية لحلوى البودنغ، وجاء بحوض كبير خصصه لحلوى التابيوكا لتكون طبقاً أخيراً بسيطاً. ثم أبحر عبر النهر إلى المديرية الاستوائية على متن القارب البخاري "الخديوي" حيث كان المرجل ينفث دخانه دون توقف.

أراد إسماعيل أيوب باشا لغوردون أن يرحل عن الخرطوم قبل أن يكتشف تلك الصلة الحميمة بين حكومة الخرطوم وتجارة الرقيق، فشق غوردون طريقاً عبر بوابات تلك الأعشاب النهرية المعوقة للملاحة والمعروفة بـ"السَّدّ". وما أن وصل إلى الجنوب من حزمة القصب تلك حتى غاب في أدغال الداخل البدائية المكتظة بعراة ينادون بروحانية المادة ومستنقعات عصية على أي خارطة، وفي هذا المكان ليس ثمة أي معنى لذاك العالم الذي يصل بين القاهرة والساحل. أما الرعايا فهم قوم حديثو العهد يعرفون كلمات تعني الشرق والغرب ذلك أنهم ينتقلون بين ضفتي النهر ولا يعرفون كلمات بمعنى الشمال والجنوب. في مقابل ذلك كانت الحدود الشمالية للمديرية الاستوائية تبعد نحو 600 ميل إلى الجنوب من الخرطوم، وعند هذه الحدود يلتقي نهر السوباط Sobat وبحر الغزال بنهر النيل الأبيض، وأما الحدود الجنوبية فهي قريبة جداً من بحيرة فكتوريا، لكن الحدود الشرقية والغربية فقد تمتد لتصل إلى المحيط الهندي أو المحيط الأطلسي، عاصمتها مدينة غُندوكورو Gondokoro ـ تسمية الإسماعيلية التي أطلقها صمويل بيكر لم تدم طويلاً ـ وكانت مجموعة من الأكواخ البسيطة تبعد

نحو 1000 ميل عن الخرطوم. وكانت الرسالة التي ترسل بالبرق من بومباي في الهند إلى لندن في عام 1874 تستغرق خمس ساعات، بينما يمكن لسفينة بخارية أن تقطع تلك المسافة في 30 يوماً. غير أن غوردون في تلك الأيام احتاج إلى 26 يوماً ليصل إلى غُندوكورو من الخرطوم عبر النهر، ولولا مساعدة إسماعيل أيوب باشا لاحتاجت هذه الرحلة إلى ما يزيد عن عام.

رأى غوردون بصفته مهندساً أن مهمته مسألة عمل لوجستي. فهو لا يستطيع أن يحكم دون أن تكون لديه وسائل الاتصالات، لذا لا بد أن يبدأ بإقامة عمود فقري لنظام لوجستي للمديرية الاستوائية يتمثل في سلسلة من الحصون الممتدة جنوباً حتى البحيرات الكبرى وبحيث تفصل بين الحصن والآخر "مسافة رحلة يوم واحد"(38) تبدأ في غُندوكورو وتنتهي في فويرا Foweira وفاتيكو Fatiko، الموقعين المتقدمين الباقيين من أعمال صمويل بيكر. بعد ذلك سيرسم خارطة لذاك الجزء المعروف من النيل والواقع بين فاتيكو وبحيرة فكتوريا وبذلك يتمم ما عمله سبيك Speke وغرانت Grant وبيكر Baker بينما يقوم جنوده بجلب الزوارق البخارية بأجزائها كما كانت عند بيكر. ومن خلال إنزال هذه الزوارق في بحيرتي فكتوريا وألبرت يفتح الطريق أمام "تجارة مشروعة".

لكنه ارتكب الأخطاء نفسها التي ارتكبها بيكر. فالطربوش التركي الذي كان يرتديه والجنود المصريون الذين كان يقودهم جعلاه يبدو في نظر الآخرين متعاوناً في أعمال الفساد المتفشي في تركيا. أعلن غوردون أن شعار المديرية الاستوائية هو "حريت" (اللفظة التركية لكلمة الحرية)، وبرغم ذلك فرض القانون العرفي وأعاد احتكار الحكومة على تجارة العاج، فكان هذا الاحتكار ضربة اقتصادية أفضت إلى تحالف بين قبائل السكان الأصليين وتجار العبيد. وكما فعل بيكر قبله أثار غوردون بعمله هذا غضباً عارماً في أوساط الجمعية المناهضة للرق والاسترقاق عندما جاء بموظف جديد اسمه أبو سعود Abu Suud ـ الوكيل الرئيسي لتجارة العبيد في بحر الغزال وأحد مديري شركة راتاز آغات Rataz Agat أكبر شركة تتعامل بتجارة العبيد والعاج في الخرطوم. كانت خطته في ذلك أن يطلق لصاً ليقبض على اللصوص لكن استراتيجيته الخرقاء

هذه انهارت جراء خيانات متكررة. غير أنه في أعماله هذه كلها كان يعتمد على ميزانية ضئيلة جداً وعلى جنود لا يثق بهم.

لقد جاء غوردون أصلاً لينقذ نظاماً ممعناً في الفساد لا سبيل إلى إصلاحه. ولا أحد في هذا النظام يرغب في القدوم إلى هذا المكان. حكومة القاهرة رأت في المديرية الاستوائية مكاناً تلقي فيه كل من لا تريده من المتمردين أو المجرمين أو المجندين من العبيد. ففي رسالة بعث بها إلى شقيقته قال غوردون "لم أر في حياتي مخلوقات تعيسة جداً كُرِّموا باسم الجنود"[39]. وكان ضباطه يتواطؤون سراً من وراء ظهره مع تجار العبيد وكانوا يبيعون جنودهم لهم. كل ما يعرفونه عن فرض النظام أنه يجيز الغزوات في أراضيهم. ولكي يحصّلوا الضرائب كانوا يقيدون الرجال والنساء ويجعلونهم في تسلسل خطي وأرجلهم للأعلى ويجلدون أقدامهم بالسياط. وما كانوا يحصّلونه من أموال لم يذهب منه إلا النزر اليسير إلى الخرطوم. وسيطرت على جنودهم نزعة القتل والإجرام فانحصرت أنشطتهم الرئيسية بالسرقة والجريمة والاغتصاب والاسترقاق، ووجدوا الوسيلة التي تعينهم في ذلك ببنادق رمنغتون التي كانت تأتيهم من تاجر بريطاني في القاهرة. وحيث إنهم كانوا في حالة حرب مستمرة مع القبائل فقد كانوا أسرى في قلاعهم لا يخرجون إلا لصيد العبيد والمواشي ويقومون بتوزيع البريد والمؤن مصحوبين بجيش من المرافقين "وحقيقة الأمر أن أولئك الذين يريدون ضم هذا الإقليم بحاجة لأن تكون لديهم حضارة مثل أولئك الذين يحاولون تمدينهم"[40].

أبحر غوردون نحو الجنوب لينشيء حصونه، وكان زورقه يسير بسرعة 4 عقد في مواجهة تيار سرعته عقدتان. كان يزحف زحفاً في أراض منبسطة "مليئة بالأوبئة وطينية تغطيها الألوان الخضراء والبنية الداكنة"[41]، هي بحر "من أعشاب الأدغال العفنة" التي تنشق بين لحظة وأخرى لتطفو على السطح شجرة أقاسيا acacia غريبة الأطوار أو ليبرز سطح مخروطي الشكل من الأعشاب لكوخ حقير لبعض سكان تلك المناطق[42]. أما أفراد قبائل الشيلوك Shilluk المحلية الذين أرهقهم عذاب تجار الرقيق فينظرون صامتين إليه حين

يمر من أمامهم لكنهم سرعان ما يفرون إن حاول أن يدنو منهم. لم يستطع التحدث إليهم مباشرة فهو لا يعرف العربية والمترجم الفرنسي الذي كان معه توفي جراء إصابته بالحمى التي لازمته لمدة عشرة أيام. ولم يبق في تلك البلاد الاستوائية من الأوروبيين سوى تسعة أفراد وسرعان ما نشب شجار بينه وبين الثمانية الآخرين، فكان الإنجيل رفيقه الوحيد لأميال عدة وكانت رسالة لشقيقته أوغستا عزاءه الوحيد.

"لم يأتِ زورق حتى الآن: إن هذا مرهق كثيراً للجسد"[43]. ومضت أسابيع عدة وهو في الكوخ ينتظر المؤن. الطقس "المزعج"[44] المتبدل بين حر شديد حارق وأمطار غزيرة تسبب السيول أصاب ما لديه من مؤونة بالعفن وما لديه من أدوات بالصدأ. عششت الصراصير في مخزونه من الأرز والسكر وسكنت العقارب في ثنايا ناموسيته وخرج فرس النهر من النيل لينقض على زوارقه ودمرت الفيلة حديقته التي زرع فيها الخضار ولدغته أسراب البعوض التي اصطفت في أرتال تحت كرسيه المصنوع من الخوص المجدول لترشف الدم من عروقه في أسفل ظهره. وأما طعامه فكان سبباً في ضجره ولا يحمل قيمة غذائية، مجرد بسكويت جاف ومعكرونة مسلوقة - "وعلى نحو معتاد، كي أطمئنك" ـ مضافاً إليه الموز المتوفر دوماً ولقيمات قليلة من اللحم المشوي[45]. ولم تمض سوى ثلاثة شهور حتى توفي أو نقل بسبب المرض إلى الخرطوم سبعة من موظفيه العشرة، وواحد من ضباطه برتبة نقيب أصابه انهيار عصبي فانتحر، لم يكن ثمة اتصال بينه وبين مواقع جنده، وأما حاملو الرسائل المصريون فلا يوزعون رسالة واحدة دون أن يقوموا بأعمال نهب أية قرية يصادفونها في طريقهم وإن تجرأ أي من رجاله وابتعد عن المعسكر كان مصيره القتل برماح من أيدي القبائل المحلية الذين كانوا يعلقون رؤوسهم على الأعمدة.

وضع غوردون لنفسه خطة غذائية. فقد كان يغلي الماء جيداً ويضيف إليه قليلاً من البراندي ليحصن كبده. واخترع إضافات تكميلية تفيده في الهضم، دعاها "حبة دواء يومية ممتازة جداً" مكونة من الزنجبيل والراوند وعشبة عرق الذهب ipecacuanha يبتلعها مع جرعة من شراب Warburg's Tincture مضاد

للملاريا ومكون من الكينا والكحول وعشبة كبش القرنفل والزنجبيل، وكانت الجرعة المقترحة منه مقدار ملعقة شاي واحدة عند الإصابة بالحمى. واعتاد أن يأوي إلى كيس نومه عند المغيب ليجتنب لسع البعوض ويستيقظ عند الفجر لقراءة "الأسرار المخيفة" في الإنجيل في تلك الغابة لما قبل التاريخ[46]. وكان يقود فرقته عبر النهر وهو يخشى "الكآبة" أكثر من خشيته من المرض أو الموت. وما انتهت سنة 1875 حتى أتم بناء سلسلة الحصون بين غُندوكورو والفويرا. لقد نقل السفينة البخارية Nyanza التي تزن 50 طناً بثلاثة أجزاء وقام بتجميعها في قرية دوفيليه Dufilé عند منتصف المسافة في خط المواقع. وكان جاهزاً للانطلاقة الأخيرة إلى البحيرات. في تلك اللحظة وعلى بعد أميال قليلة إلى الجنوب من دوفيليه وفي مكان يدعى فولا Fola حظي بشرف اكتشاف السر الأخير لنهر النيل الأبيض.

ففي رسالة بعث بها من قرية دوفيليه في تشرين الأول/أكتوبر عام 1875 وصف هذا الاكتشاف العظيم بقوله: "انتهى الأمر، انطلقت من دوفيليه هذا الصباح وسرت على المنسوب الأعلى لأجتنب الحواف الرطبة للنهر واكتشفته على بعد خمسة أميال من هذا المكان. خُيِّل إليّ لبعض الوقت أنني سمعت صوتاً يشبه الرعد، وازداد الصوت شدة كلما اقتربنا من النهر، وأخيراً وجدنا أنفسنا واقفين فوقه، على ضفة صخرية تغطيها النباتات التي كانت تتدلى بصورة مفاجئة نحو النهر، وهنالك كانت، يفزع المرء لمجرد النظر إليها فكيف بنا إن فكرنا بالحصول على شيء نحو الأعلى أو نحو الأسفل إلا إذا كان ذلك مجرد أشلاء أو شظايا"[47].

ونظر غوردون إلى ذاك الامتداد لمنحدر مائي متدفق لمسافة ميلين، وهو الامتداد الوحيد الذي لا يمكن عبوره بين بحيرة ألبرت والبحر الأبيض المتوسط. لا يمكن أن يوجد في هذا المكان خدمة نقل بزورق بخاري بين الخرطوم والبحيرات. وتبين الآن أن ذاك المشروع الحضاري العظيم المتمثل في "فتح" إفريقيا الوسطى عبر نهر النيل الأبيض ليس أكثر من مجرد وهم. لكن غوردون الذي كان يسعى لإنقاذ هذا النصر الصغير الذي حققه على تلك البقاع القفر

تابع رحلته جنوباً مخترقاً جدر "البعوض والمستنقعات والغابات والبؤس" في محاولة منه لإنهاء عمله الجغرافي هذا[48]. وكما هو معتاد من أولئك المكتشفين فقد منح شرف إتمام الرحلة حتى بحيرة ألبرت إلى مساعده الإيطالي رومولو جيسي Romolo Gessi. وبعد شهور قليلة التقوا بالملك موتيسا Mutesa ملك أوغندا المستبد الذي حيا ضيوفه الأوروبيين تحية دموية حيث قطع رؤوس مجموعة من رعاياه التافهين أمامهم وهدد الجنود المصريين بمصير مماثل إن دخلوا أراضيه. كانت القوة العسكرية لدى غوردون صغيرة العدد أخذ منها التعب كل مأخذ فلا تستطيع أن تجازف بمعركة مع موتيسا وهكذا توقفت الحدود المصرية على بعد ستين ميلاً من بحيرة فكتوريا.

حين وصلت مهمة غوردون إلى نهايتها حاصره شيطان "الكآبة" ثانية. فقد اكتشف، كما فعل صمويل بيكر قبله، أن تلك الوصفات السهلة من أولئك العاملين بالحقول الإنسانية، وتلك الوعود التي أطلقها الخديوي، لا تعني شيئاً أمام الواقع الإفريقي. وتسيير الدوريات الشرطية في النيل الأبيض شمال الخرطوم لم ينجز شيئاً في سبيل مكافحة تجارة الرقيق التي انتقلت أماكن صيدها إلى بحر الغزال حين صارت طرق القوافل براً، ولم تكن تلك الطرق تحت سيطرة غوردون، فقد كان يتحكم بها تجار الرقيق وكبار الإداريين المصريين. وسوف تستمر هذه التجارة على حالها وتواصل نموها طالما وجد حاكم عام مصري فاسد يحيك هذه المؤامرات ويديرها من الخرطوم. وفي ذلك قال غوردون في رسالة مؤرخة في 15 تموز/يوليو عام 1875: "ما الحق الذي لدي ويجعلني أقنع السكان الأصليين بأن يهدؤوا، إذا كانوا سيقعون ضحية باشا طماع وجشع بعد مغادرتي؟"[49]

لقد كان انهيار هذا المشروع العظيم بالنسبة له فشلاً معنوياً وبرهاناً على غروره الخفي وعلى شهوته لوضع دنيوي. وهكذا ذابت افتراضاته بفعل حرارة الطقس وما أصابه من إرهاق معنوي كان للملاريا فيه نصيب. واستنتج من ذلك كله أن المصريين لن يكونوا في يوم من الأيام عناصر للتقدم، حيث قال في رسالة أخرى كتبها أيضاً عام 1875 "آه! لقد سئمت من هؤلاء الناس. إنهم هم من

يحتاج للحضارة وليس أولئك السود. لا فرق بين رجل أبيض ورجل أسود وهذا ما أشعر نحوه بالمزيد والمزيد من الاطمئنان"[50]. لكنه وقع فريسة أوهام وصفها بـ "الخنثى" للسفر في عربات سكة الحديد بالدرجة الأولى، ونكهة المحار الطازج والاستلقاء في سرير حقيقي طوال الصباح، ومتعة رفض دعوات للعشاء. "مسكين ذلك الغمد، لقد أصابه الكثير من البلى!"[51] وهكذا بعد أن استبد به عقم ذاك المسعى، وبدا مستعداً للاستقالة من عمله شرع في رحلته الطويلة نحو القاهرة.

ذات يوم وقف يؤنب نفسه قائلاً: "أنت عالة على هذا العالم وأحكامه"[52]. لكن غوردون إن أراد برهاناً يؤكد صغر حجمه فهذا البرهان تمثل في الأحداث التي وقعت في القاهرة إبان غيابه. ففي الوقت الذي كان فيه ينقل المؤن عبر منحدرات الأنهار الجارية كانت مصر الخديوي إسماعيل تنفق بإسراف شديد يستنفد شلالات القروض.

وبدأ الانهيار في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر عام 1875 عندما أعلن السلطان العثماني عبد العزيز أنه لا يستطيع دفع الفوائد على ديون تركيا البالغة 100 مليون جنيه. انهارت قيمة الأوراق المالية التركية وتبعتها الأوراق المالية المصرية. وذلك الحبل السري الذي يربط مصر بالسلطنة العثمانية والذي صرف الخديوي الكثير من الأموال وبذل الجهود الدبلوماسية الهائلة في سبيل قطعه اشتد التفافه حول رقبته. إن لم يجد إسماعيل مصدراً جديداً للإيرادات فلن تكون مصر قادرة على التسديد عند استحقاق أول قسط قادم وهذا ما يشكل احتيالاً ونهباً للمستثمرين في لندن وباريس وأمستردام وبروكسل وأنتويرب وجينيف والقسطنطينية. لقد فرض الكثير من الضرائب هو ووزراؤه على الرجال والزبدة والحيوانات والملح، وباعوا الإعفاءات الضريبية، وابتدعوا خدع الغش والتدليس في المواشي ورهنوا سندات تمليك أفضل الأراضي الزراعية في مصر وحولوا الديون إلى قروض قصيرة الأجل وديون مدمجة طويلة الأجل، ولم يبق أمامه الآن سوى ثروة وحيدة فقط هي أسهمه الخاصة في شركة قناة السويس.

وانتشر الهمس وذاع في القاهرة بأن حصة إسماعيل البالغة 44 بالمئة من أسهم القناة معروضة للبيع. وقد ذكر ذلك صديق إسماعيل هنري أوبنهايمر Henry Oppenheimer على مأدبة عشاء ضمت إلى جانبه فريدريك غرينوود Fredrick Greenwood رئيس تحرير صحيفة بول مول غازيت *Pall Mall Gazette* الذي أخبر جورج سميث George Smith مالك الصحيفة، والذي بدوره نقل الخبر إلى وزير الخارجية اللورد ديربي Lord Derby. لكن هذا الأخير اتبع الخط التقليدي للمحافظين قائلاً: "كل ما نريده هو التجارة، والأرض ليست ضرورية للتجارة، فنحن قادرون على الاستمرار جيداً بالتجارة على أراضٍ يملكها الغير"(53). وطالما أن مصر تقدم لحم الضأن وخيول البريد فلا حاجة لبريطانيا لأن تتدخل تدخلاً مباشراً في اقتصادها وسياستها. لكن رئيسه، رئيس الوزراء بنجامين دزرائيلي Benjamin Disraeli كان يدرك أن عولمة سريعة امتدت على مدى عشرين عاماً قد أحدثت تغييراً هاماً في التوازن الدولي للقوى.

ففي عام 1815 تمكن تحالف من الممالك الأوروبية ضم بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا من إلحاق الهزيمة بنابليون في معركة واترلو. وشكل المنتصرون نظاماً أمنياً حمل اسم "الوفاق الأوروبي" Concert of Europe يهدف إلى نزع فتيل أي توتر يحصل على الساحة الدولية من خلال عقد مؤتمرات قمة على فترات منتظمة، والهدف من ذلك هو الحؤول دون حصول أي حركات ثورية مستقبلاً. فكانت النتيجة فترة سلام اتصفت بالازدهار الاقتصادي والمتحفظ اجتماعياً امتدت لأربعة عقود من الزمن. لقد كان هذا الوفاق الأوروبي نظاماً متعدد الأطراف يعتمد على سلطة أحادية القطب لبريطانيا التي كانت تتميز بالعديد من المزايا والفوائد الصناعية والاقتصادية والعسكرية الهائلة. لكن هذا السلام أخذ يتلاشى مؤخراً من خلال تزايد ضعف رجل أوروبا المريض وبروز المسألة الشرقية. ونشأ نزاع بين العضوين البريطاني والروسي في هذا الوفاق بسبب السيطرة على القسم الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وأذكى أُوار هذا النزاع الشريك الفرنسي الذي كان يسعى لاستعادة أهميته على الصعيد الدولي

فاندلعت حرب القرم القصيرة برغم أهميتها بين 1853 ـ 1856 فكانت صدمة كبيرة لم يسترد عافيته منها لا الرجل المريض ولا حلف الوفاق الأوروبي.

غير أن انهيار الوفاق تصادف مع نضوج إرث آخر ورثته أوروبا من القرن الثامن عشر وهو: فكرة حركة التنوير الخاصة بالهوية القومية، ومطالبات الثورة الفرنسية في الحرية والتحرر والآلات البخارية التي أفرزتها الثورة الصناعية، فغدت أوروبا التي عرفت على مر التاريخ بأنها استعمارية وإقطاعية وزراعية قارة تعتبر مهد القوميات الناشئة والانقسام السياسي الحاد، والتحول السريع نحو التصنيع. ونهضت أمم جديدة في ألمانيا وإيطاليا. وفي عام 1870 أدى الغرور في بلاد الغال والطموح البروسي إلى نشوب الحروب البروسية الفرنسية التي انتهت بانهيار الإمبراطورية الثالثة التي أعلنها نابليون الثالث ونشوء الإمبراطورية الألمانية الموحدة. ومع أن رجال السياسة الأوروبيين ما زالوا يتصرفون بوحي من حلف الوفاق الأوروبي إلا أن العلاقات فيما بينهم قد تحولت إلى صراع متعدد الأقطاب بين "القوى العظمى".

وهكذا وجهت الدول الأوروبية الحديثة القوة أنظارها للخارج من أجل المواد الأولية والأسواق. واستعانت الحكومات بالشركات الخاصة كقوة في تنافسها الاستراتيجي لتنقل صراعاتها الداخلية إلى الساحة الدولية. واستعيض عن حرية التجارة بالحماية والتجار من القطاع الخاص بمستعمرات تديرها الحكومات. وبدلاً من ظهور مدينة فاضلة تنعم بالليبرالية الاقتصادية والتوافق الدولي أدى افتتاح قناة السويس إلى بدء عهد جديد من الشوفينية والتعرفة التجارية. وما كان يعرف بالنفوذ غير الرسمي الذي كسبته الحكومات من خلال المستثمرين من القطاع الخاص ودبلوماسية الزوارق الحربية اشتد وتصلّب عوده ليصبح إمبراطوريات رسمية واستراتيجيات عالمية. فصار شرف الأمة وازدهارها يعتمدان على ما بات يعرف بـ "الاستعمار". ولم تمض خمسة أعوام على انطلاق الألعاب النارية في بور سعيد احتفاءً بافتتاح قناة السويس حتى بات بعض الأوروبيين يخشون بأن تفضي هذه الحركة الاستعمارية إلى إشعال فتيل حرب أوروبية عامة.

غير أن بريطانيا هي الخاسر الأكبر. فالفوائد والمزايا التي جعلتها تبز قريناتها الأوروبيات أخذت تتلاشى بعد أن فقدت براءات اختراع التكنولوجيا الصناعية. والحملة التي قادتها على المستوى الدولي من أجل حرية التجارة أخفقت وانهارت أمام مبدأ الحماية. وحليفها الكبير السلطان العثماني تخلى عنها لصالح ألمانيا الصاعدة وبريق بسمارك. وأدرك رئيس الوزراء بنجامين دزرائيلي أن على بريطانيا أن تدخل ميدان المنافسة وإلا فسوف تنهار. وكان لديه أيضاً ولع رومانسي بالشرق وإحساس رجل الاستعراض بالجمهور حوله. وعرض على الناخبين أن يختاروا بين "إنكلترا تشعر بالراحة والدعة" وبين "أن تكون بلادهم عظيمة، بلداً استعمارياً، بلداً يرتقي أبناؤه إلى المواقع العليا حين يرتقون يحوزون على احترام العالم أجمع وليس فقط احترام وإجلال بني وطنهم"[54]. فاستجاب له ولرؤيته المفعمة بالحيوية مليون شخص من الناخبين من أفراد الطبقة العاملة وهي الطبقة التي أوجدها دزرائيلي نفسه عام 1867 عندما أصدر قانون الإصلاح Reform Bill. ودزرائيلي الذي عُمِّد في طفولته على أنه يهودي كان يصف نفسه مازحاً بقوله: "أنا تلك الصفحة البيضاء الفارغة الفاصلة بين العهد القديم والعهد الجديد"، أصبح الآن محور التطور الاستعماري لبريطانيا[55].

ولم يكن لدى الحكومة البريطانية عندما حدث الانهيار في مصر سياسة غير تلك السياسة التقليدية للحرية الاقتصادية والتي تعفّ عن التدخل في المضاربات الخارجية لرعاياها. ولكن بينما كان السياسيون البريطانيون، ومنهم دزرائيلي نفسه ينأون بأنفسهم عن رقص إسماعيل الجامح بالديون، كان الساسة الفرنسيون يقدمون الدعم والعون لرجال الأعمال والمصرفيين الفرنسيين في مصر متخذين ذلك وسيلة لاستعادة نفوذهم ونفوذ نابليون في تلك البلاد. ولكن عندما علم دزرائيلي بأن أسهم إسماعيل في قناة السويس معروضة للبيع كان اثنان من المصارف الفرنسية قد قدما عروضهما، وكان أحد هذين العرضين من قبل فرديناند دو ليسبس، وكلا العرضين تدعمهما الحكومة الفرنسية. في تلك الأثناء كانت بريطانيا تملك القسم الأكبر من ديون مصر، وترد إليها ما نسبته

80 بالمئة من الصادرات المصرية وتصدر لمصر نحو 44 بالمئة من مستورداتها، وكان القطن المصري جزءاً لا يتجزأ من اقتصاد بريطانيا مثلما أصبحت قناة السويس جزءاً لا يتجزأ من استراتيجيتها.

لقد باتت الأعمال والتجارة من الأهمية بمكان حتى إنها لا يمكن أن تترك بيد رجال الأعمال. وتجاوز دزرائيلي ما قاله وزير خارجيته اللورد ديربي وأخذ إذن الملكة فكتوريا للدخول في مفاوضات سرية مع إسماعيل ووزير ماليته نوبار باشا وأمّن مبلغ 4 ملايين جنيه من مصرف يملكه إدموند روتشيلد Edmund de Rothschild واشترى أسهم إسماعيل البالغة 177,646 سهماً. وعلى الرغم من أن شركة القناة قد بقيت شركة فرنسية يديرها مهندسون فرنسيون إلا أن الحصة الأكبر من أسهمها استقرت الآن في خزائن بنك أوف أنكلند Bank of England. وهكذا اجتمعت سياسات دزرائيلي "المستقبلية" والتوكيدية مع القوة الخارقة للبحرية الملكية لتجعل من بريطانيا المالك الفعلي لقناة السويس. وانطلاقاً من اعتقاده بأنه أمّن لبلاده طريق الهند توّج دزرائيلي ذلك بقيمة رمزية للإمبراطورية البريطانية الرسمية وأطلق على الملكة فكتوريا لقب إمبراطورة الهند.

كان إسماعيل يفضل أن تقع حكومته في أيد بريطانية، لذلك أسس مبيع أسهمه إلى دزرائيلي توازناً مقبولاً للمصالح الأجنبية. فقد أصبح لبريطانيا وفرنسا الآن مصالح سياسية عميقة تتناسب واستثماراتها الخاصة العظيمة الأهمية في مصر. فكان باستطاعة إسماعيل عن طريق استغلال التوتر بينهما أن يجعل إحداهما ضد الأخرى. لكنه، أولاً، يجب أن يستعيد الثقة بعد ذلك الإرباك الذي كان سببه عجز السلطان العثماني عبد العزيز عن تسديد الديون التركية، وذلك ليقنع الدائنين الأجانب بالعودة إلى ذاك الجناح الوردي في قصر عابدين. في شهر كانون الثاني/يناير عام 1876 دعا إسماعيل أصدقاءه البريطانيين الجدد لأن يرسلوا له "موظفاً حكومياً بمؤهلات عليا" لمساعدة إسماعيل صديق باشا في "إصلاح الفوضى" في وزارة المالية المصرية، وذلك بغية إعادة تشكيل هذه الوزارة وفقاً للأسلوب البريطاني[(56)].

صحيح أن حكومة دزرائيلي كانت عدوانية وهجومية في أسلوبها إلا أنها لم تكن حكومة غبية. استجابت بحذر لطلب الخديوي وبعثت بآمر الصرف العام لديها عضو البرلمان ستيفن كيف Stephen Cave وطلبت إليه أن يعد تقريراً سرياً حول المالية المصرية. عانى كيف Cave بعض الشيء في تحليل رموز حسابات إسماعيل سيما وأن وزارة المالية كانت بيد بعض العائلات القبطية التي دونت هذه الحسابات برموز عربية لحمايتها من المتطفلين. وعلى الرغم من رفض هؤلاء الأقباط تقديم أي مساعدة لكيف Cave إلا أنه استطاع أن يضع تقريراً مفصلاً قدمه للبرلمان. واستنتج في تقريره هذا أن حجم ديون مصر يبلغ 76.5 مليون جنيه لكن هذا البلد قد يبقى عائماً رغم ذلك لو أن إسماعيل توقف عن الإنفاق. وقد جاء في تقريره: "إن مصر قادرة على تحمل عبء ديونها الحالية بكاملها بسعر فائدة معقول، لكنها لا تستطيع تجديد ديونها العائمة بسعر 25% وتأخذ قروضاً جديدة بسعر فائدة 12 أو 13%"[(57)].

كانت ردة فعل إسماعيل أن أسس" هيئة الدين العام" وذلك بهدف تطبيق توصيات كيف Cave الهادفة إلى استعادة العافية. وبغية تأمين الدعم الفرنسي والبريطاني اقترح تشكيل هيئة استشارية من الأوروبيين تشرف على هذه الهيئة. كانت هذه الهيئة مجرد ستار دخاني يحجب الرؤية. وكان إسماعيل على ثقة بأن التنافس بين الفرنسيين والبريطانيين الأعضاء في هذه الهيئة سوف يمنع الهيئة عن تقديم نصح حقيقي. وحيث إن هذه الهيئة قد أخذت على نفسها عبء ديون إسماعيل فقد رأى نفسه متحرراً من ضرورة تسديد الدائنين. وهكذا حذا حذو السلطان عبد العزيز بتاريخ الثامن من نيسان/أبريل عام 1976 وأعلن إفلاسه وعلّق تسديد مستحقات السندات والديون كافة.

غير أن استراتيجية إسماعيل أنتجت ذلك الانقسام الذي كان يرغب به. فقد أرسلت الحكومة الفرنسية مرشحها للجنة الإشراف على الهيئة ورفضت الحكومة البريطانية تسمية مندوبها. وعندما رفض دزرائيلي نشر تقرير كيف Cave من منطلق أنه لا يريد تخويف الأسواق توحّد حاملو السندات الفرنسيون والبريطانيون في قلقهم على أموالهم وأطلقوا جهودهم الخاصة للتحقيق في

الأمر. وقفت الحكومة الفرنسية إلى جانب حملة السندات الفرنسيين ورشحت مصرفياً باريسياً اسمه جوبير Joubert ليقوم بالتحقيق بالنيابة عنها، لكن اللورد ديربي نأى بنفسه عن دعم حملة السندات البريطانيين، حيث قال إذا ساءت أعمال شركة من الشركات فهذا ليس مسؤولية حكومة صاحبة الجلالة. ورغم ذلك أرسل حملة السندات البريطانيون المصرفي البريطاني جورج غوشن George Goschen.

وبدأ غوشن وجوبير أعمال التنقيب في أنقاض وزارة مالية الخديوي إسماعيل. وقرر الاثنان أن تقرير كيف Cave قد بالغ في حجم ديون مصر، فتوصلا إلى الرقم 59 مليون جنيه ووضعا خطة تقشف جديدة للاقتصاد المصري. لم يتوقع غوشن من إسماعيل أن يطبق هذه الخطة، فأرسل تحذيره إلى وزارة الخارجية قائلاً إن "الخديوي سيرفض الاعتراف ويمتنع عن دفع الديون إن أتيحت له الفرصة" وأن ثمة "سبباً يدعو للاعتقاد بأنه يحتفظ ببعض الأموال بين يديه"[(58)].

وما يجدر ذكره في هذا الصدد أن عودة غوردون من المديرية الاستوائية تصادفت مع الفصل الأخير من التحقيق الذي قام به غوشن وجوبير. فقد اكتشف الاثنان من خلال عملهما دلائل تثبت أعمال غش وتدليس منظمة: فواتير غير حقيقية وإيصالات مزورة وسندات مزدوجة. وعندما سألا إسماعيل عن ذلك أجاب بأنهما قد وجدا دلائل تثبت وجود أخطاء بريئة من بعض الموظفين. وعندما أصرّا على جواب صحيح ذكّرهما بأن جميع التعقيدات المالية في دولة حديثة مثل مصر تكون في نطاق اختصاص وزير المالية إسماعيل صديق باشا.

وعندما أبحر غوردون من الخرطوم كان إسماعيل صديق باشا يبحر في الاتجاه المعاكس. كان مقيداً بالسلاسل وتحت حراسة مسلحة وكانت نوافذ السفينة التي أقلته مغلقة، فقد نقل إلى ثكنة عسكرية في مدينة دنقلة بالسودان. وكانت التهمة "حاول صديق باشا أن يحيك مؤامرة ضد سمو الخديوي من خلال إثارة المشاعر الدينية لدى السكان الأصليين ضد مخطط اقترحه السادة غوشن وجوبير، كما أنه اتهم الخديوي أيضاً ببيع مصر إلى المسيحيين"[(59)].

هذا ما ذكرته صحيفة إيجبشيان مونيتور *Egyptian Monitor* المملوكة من الحكومة.

في رسالة بعث بها غوردون إلى شقيقته أوغستا قال "يا لهذه المشكلة! الجميع يتحدثون عنها بصوت خافت"[60].

وفي أوائل شهر كانون الأول/ديسمبر عام 1876 تلقى القناصلة الأجانب بلاغاً يقول إن إسماعيل صديق باشا توفي وفاة طبيعية في دنقلة بسبب "الإرهاق والحزن والإفراط في الشراب"، لكنه لم يذكر أن هذا الإرهاق والحزن قد تسببا في قضم إبهام يد القاتل[61].



الشيخ جمال الدين الأفغاني، "حكيم الشرق"

الفصل الثالث

دبلوماسية إلهية

1881–1879

"الدِّين هو عماد الأمم وهو مصدر صلاحها. فيه سعادتها وحوله مرتكزها. أما المادية فهي أصل الفساد ومصدر كل سلوك غير قويم. منها ينبع خراب البلاد وهلاك الإنسان".

جمال الدين الأفغاني، من كتاب "حقيقة الطائفة النيتشرية، 1881[1]

في الزاوية الجنوبية الشرقية من حدائق الأزبكية وعلى قطعة أرض تفصل بين دار الأوبرا ومقر مكاتب عزبة الخديوي إسماعيل حيث كان موقع سيرك القاهرة سابقاً وضع مجموعة من عمال البناء القادمين من سورية لمساتهم الأخيرة على عمارة ماتاتياس Mattatias، التي يحدها من الجهة المقابلة ميدان العتبة والأكشاك ومتنزهات الأزبكية ويجاورها من جهة الخلف أزقة المدينة القديمة، حيث كانت هذه العمارة واحدة من الآثار المتبقية من عصر إسماعيل الذهبي. القناطر ذات الطراز الكلاسيكي الجديد تخفي تحتها مجموعة من المتاجر تطل عليها طبقتان تزينهما نوافذ مقنطرة تبدو ذات طراز قوطي إيطالي بعيد عن الطراز العثماني. مبدع هذا التصميم وصاحب اسم هذا المبنى المتعدد الأساليب المعمارية رجل أعمال يهودي يوناني اسمه ماتاتياس نعمان Mattatias Nehman وقد استعان بمهندس عمارة فرنسي اسمه أمبرواز برودي Ambroise Braudy. أنفق على هذا البناء مبلغ 600,000 فرنك فرنسي بعد توقف لفترة من الزمن ليجتنب الإفلاس على أثر أزمة الديون عام 1875.

كان في ذلك الرواق المقنطر للمتاجر مقهى يفتح طوال الليل ويقدم وجبات الطعام في ركن صغير بداخله يشبه الكهف. أما رواد المقهى الدائمون فكانوا خليطاً متنوعاً من الصحفيين وكتّاب المسرحيات والماسونيين، ولأن هذا المقهى كان قريباً من جامعة الأزهر كان يرتاده بعض رجال الدين من المجددين غير المتمسكين بالتقاليد. وفي هذا المقهى توجد طاولة خُصِّصت لحكيم الشرق الذي كان قد رفض مؤخراً منصباً في جامعة الأزهر فاعتاد على ارتياد مقهى ماتاتياس وأقام في منزل صغير استأجره في الحي اليهودي حيث يعيش على الشاي والقهوة والتبغ والعصير[2].

كان السيد جمال الدين الأفغاني ملتحياً مهذاراً محباً للحديث، له عينان سوداوان صغيرتان، حاله كحال مُصلح غير مطاع في كثير من البلدان، ودوماً يتخفى بهوية مستعارة. ففي أفغانستان والهند تظاهر أنه تركي اسمه السيد الإسطنبولي، وفي أراضي الإمبراطورية العثمانية دعا نفسه بالأفغاني. لكنه تحت أي من الاسمين كان يدافع عن الشريعة الإسلامية. ويقال أنه جاء من شمال غرب بلاد فارس وليس من أفغانستان. وكان يؤمن أن الحضارة الإسلامية تعرضت لهجوم عسكري وثقافي متعمد من العالم المسيحي، والحل الوحيد يكمن في إلحاق الهزيمة بهم من خلال لعبتهم التي يلعبونها، فالتكنولوجيا والأفكار الغربية يجب أن يكونا سلاح المجتمع الإسلامي الحديث بعد إصلاحه[3].

ويقال: ولد الأفغاني ونشأ وترعرع في بلاد فارس حيث الشاه هو الحامي الرئيسي للأقلية الشيعية. ورغم أن فكرة الإمام المهدي المنتظر أمر ثانوي عند المسلمين السنة إلا أنها جزء لا يتجزأ من عقيدة الشيعة. درس الأفغاني في طفولته بطهران أن الإمام الثاني عشر من جماعة الأئمة المعصومين الذين تولوا قيادة الشيعة قد اختفى قبل ما يزيد عن ألف عام ولكنه سيعود على أنه المهدي، أو المخلّص المنتظر، الذي سيكون ظهوره فاتحة لألفية جديدة. وقد تضمن تعليم الأفغاني في المدارس الشيعية بالنجف الأشرف الفلسفة العقلانية المأخوذة عن اليونان لإسلام العصور الوسيطة ـ والتي كانت

غير مرغوبة في العالمين التركي والعربي ـ وتعلم أيضاً الصوفية. وقد أنتج هذا المزيج من التيارات الفكرية في شباب الأفغاني طائفة عرفت بالطائفة الشيخية Shaikhi Sect التي تمثل خليطاً عناصره الفلسفة العقلانية والصوفية وعقيدة لقيادة قوية خفية.

ركز الأفغاني في أحاديثه على الحدود الفكرية للإسلام في وقت كانت فيه الصادرات والجيوش الأوروبية تخترق الحدود الفاصلة بين العالمين الإسلامي والمسيحي. وكانت النتائج واحدة سواء من خلال الاقتصاد أو الحرب، ألا وهي انحسار قوة المسلمين. فكان شاه بلاد فارس يحيك المؤامرات عن ضعف بين البريطانيين والروس سيما وأن حدود الإمبراطوريتين تلتقيان في آسيا الوسطى. وكان أباطرة الهند المغول يتعرضون لهزيمة إثر أخرى من الفرنسيين أولاً ثم من البريطانيين، وخرج السلطان العثماني عن تقاليد الخلافة الإسلامية حين دخل في تحالفات عسكرية مع دول مسيحية كان السلاطنة السابقون قد خاضوا صراعاً مريراً ضدها لفتح تلك البلدان وجعلها دولاً إسلامية.

غير أن نهضة الغرب المسيحي شكلت تحدياً للعقيدة الإسلامية المؤمنة بأنها هي الدين القويم والصحيح وخاتمة الأديان وذلك من خلال نشر الشريعة الإلهية. فقد كان الإسلام وعلى نحو يفوق اليهودية والمسيحية نظاماً شمولياً لا يعترف بفصل الدين عن الدولة ومداه يستوعب الحياة كلها بما فيها السياسة. وقد أثبتت قوة الإمبراطوريات الإسلامية السابقة أن الإسلام هو الدين الحق. ومع ذلك تمكن المسيحيون من السيطرة على العالم؟

ولعل السبب الوحيد لذلك هو أن الحكام المسلمين ورعاياهم قد انحرفوا عن الإسلام الحق، فجاء البعض ليبشر بالعودة إلى الماضي المثالي للصفاء الشمولي والقبلية التي نشأت في الصحراء. ففي الجزيرة العربية ظهرت الوهابية التي رفضت ادعاء السلطان الفاسد بالخلافة وهاجمت المحتلّ العثماني لمكة. وفي ليبيا ابتعدت الحركة السنوسية المتأثرة بالوهابية عن السواحل وما فيها من عناصر عالمية متنوعة واستوطنت الصحراء لتعيد إنشاء المجتمع الإسلامي المثالي. لكن الآخرين، وبخاصة أولئك الذين يعيشون في المناطق الحدودية لدولة

الإسلام، اقتبسوا العادات والمبادئ الغربية. ففي تركيا ظهرت حركة كان لها أثرها المدوي نادت بالإصلاح السياسي وغلفت طموحاتها بالخوف على استقلال السلطان الخليفة. وفي بلاد فارس شهد الأفغاني في صباه نشوء طائفة نادت بالتحديث وآمنت بمجيء المهدي المنتظر وأطلقت على نفسها اسم "طائفة البابيين" نسبة إلى زعيم الطائفة الذي وصف نفسه بـ "الباب"، ويقصد بذلك الباب الذي منه سيأتي الإمام الثاني عشر. وكان هؤلاء جميعاً يؤمنون بأن المستقبل الأفضل يجب أن يشبه الماضي البعيد سواء تمثل ذلك الماضي في التقشف الجهادي لحروب النبي أم في عودة المهدي المنتظر المتمثل في الإمام الثاني عشر.

تميزت حياة الأفغاني الأولى بكثرة التجوال في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وفي كل محطة في هذه الجولات كان يضيف إلى دعوته شيئاً من الراديكالية السياسية. فقد امتدت أعراض الأزمة من جبال الهمالايا حتى البحر الأبيض المتوسط. في بلاد فارس أخفقت الطائفة البابية في قتل الشاه فطردت من البلاد. وفي الهند شهد الأفغاني حركة جهادية ضد السيطرة المسيحية دعاها البريطانيون "التمرد الهندي" وانتهت بالهزيمة وترسيخ القوة المسيحية. وفي أفغانستان رأى كيف أدى التنافس الاستعماري إلى اندلاع حرب أهلية.

لكنه من منطلق إيمانه بوحدة الحضارة الإسلامية وحتمية رسالتها العالمية استنتج وجود وحدة مماثلة للهدف المسيحي. فرأى أن الإمبراطوريات المسيحية عوضاً عن أن تواصل نموها من خلال التجارة لديها برنامج توسعي يهدف إلى تدمير الإسلام. ووجد أن بريطانيا التي دمرت إمبراطوريات المغول بالهند والإمبراطورية الفارسية والتركية هي القوة الرئيسية التي تقود الحرب على الإسلام.

غير أن الهند التي كانت تحت الحكم البريطاني أظهرت للأفغاني في الوقت نفسه قيمة الأسلحة والأفكار الحديثة. فلم يرتكب الأخطاء التي ارتكبها السلاطنة العثمانيون الذين جعلوا الآلات الحديثة مثل مخترعيها سواء بسواء فمنعوا استيراد التكنولوجيا من البلدان المسيحية. فرأى أن التقدم الاقتصادي والعلمي

هو أيضاً سلاح دفاعي. ولم تكن أقل فائدة من ذلك الأفكار الأوروبية التي تدور حول السياسة الثورية. فهذه الأفكار عززت شكوكه بأن القوة السياسية في العالم الجديد لها أهمية كبرى. فكانت النتيجة مشكلة جذب وطرد، جذب نحو قوة الغرب الصناعي وتشكك ونفور من التبشير المسيحي. ولذلك أخذ يدعو إلى الاستفادة من العلوم الحديثة لاستعادة قوة المسلمين في الدفاع عن أوطانهم.

عرف الأفغاني من أسفاره أن الدين هو القوة العظمى القادرة على توحيد العالم الإسلامي وأن مجرد الدعوات للعودة إلى التقاليد قد يحرك الثورات ضد الإمبراطوريات المسيحية. لكن أعداءه استلهموا أيضاً أفكاراً جديدة تتخطى الحدود القومية لكي يسوغوا مخططاتهم التوسعية. فاستخدم الروس فكرة القومية السلافية العامة في محاولة منهم لإخراج الأتراك من البلقان، ورأى البريطانيون المستوطنات التي أنشأها المهاجرون عناصر قوة لحضارة أنغلوسكسونية عالمية. ومثلما فعل معاصره الأوروبي كارل ماركس مزج الأفغاني الفلسفة والصوفية والإيمان ليخرج بعقيدة إيديولوجية تهدف إلى مقاومة الهجمة التجارية الاستعمارية. وبينما كان ماركس يرى في البؤس المشترك السائد في المدينة الصناعية بالغرب وقوداً للثورة كان الأفغاني يعمل على تأسيس عالمه الخاص.

أدرك الأفغاني أن الفلسفة لن تحقق الثورة لدى المسلمين التقليديين، وأن عليه أن يخاطب الشعور الوطني الدولي للإسلام والأشياء القويمة البسيطة للتقاليد الشعبية. ولذلك انتسب أبو السياسة الإسلامية الحديثة إلى الأفغان ليتغلب على عقبة الطائفية في المجتمعات الإسلامية.

لم يكن مثل ماركس، فلم يضع أفكاره في كتاب، ذلك أن وضع تفاصيل برنامجه سوف يميط اللثام عن عمق حداثته، فاستعاض عن ذلك بحملات كان يقوم بها دون كلل، فكانت طموحاته وراء قناع من القضايا المحلية، ولم تكن مناقشاته جواباً لسؤال جديد بقدر ما هي قيم جديدة للسؤال. وقال إنه يتحدث باسم الإسلام كله. واستعان بتكنولوجيا الدعاية ليعطي انطباعاً بالتأثير، معتمداً أدوات الناشطين الأوروبيين كالصحف والمناشير والجمعيات السرية التي أدخلها

إلى العالم الإسلامي. وبدأ بتكوين عقيدة سياسية عصرية من الإسلام التقليدي، مستفيداً من أسلحة الغرب ليصنع سلاحاً يواجه به الغرب ألا وهو: الإسلام عموماً هو موقف بقدر ما هو جدول أعمال.

وحيثما ذهب كان الأفغاني ينتهز الفرص المحلية ويضعها في خدمة حربه الجهادية. ففي أفغانستان تحالف مع الأمير محمد أعظم خان عدو الإنكليز، وفي تركيا انضم إلى الإصلاحيين الليبراليين، وفي مصر أضاف هذا الشيخ القادم من بلاد فارس شيئاً جديداً إلى مخزونه الثقافي تمثل باتخاذه الأسلوب الباريسي الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر، من حيث شرب القهوة، والجلوس الدائم في المقهى، والتفكير الحر أو الفيلسوف كما كان يُعرف المفكرون الأحرار الذين ارتبط اسمهم بعصر التنوير الفرنسي في ذلك العصر. كان يقضي نهاره نائماً ومستيقظاً طوال الليل، وانتخب رئيساً للمحفل الماسوني وحاز على لقب "نجمة الشرق"، وقد قال رشيد رضا أحد أتباعه الأوائل، والذي صار فيما بعد صلة الوصل الفكري بين الأفغاني وحسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين: "بسبب انشغاله بأشياء كبيرة فقد الرغبة والقدرة على الزواج"(4). وعندما قدّم له السلطان التركي واحدة من جواريه رفض الأفغاني هذه الهدية، مدعياً أنه عنين، وقال: إذا أصر السلطان على هديته فسوف "يقطع عضو الإنجاب عنده"(5).

كان مريدوه الذين يجلسون إلى طاولة هذا العازب المتدين رواداً غير محتملين للثورة الإسلامية. فكان معظمهم من المثقفين الذين سبق لهم أن عملوا في خدمة الدولة لكنهم تركوا هذه الخدمة احتجاجاً على وجود من تجاوزهم في سلم الترقيات. منهم يعقوب صنّوع Yacub Senna اليهودي الإيطالي الذي ترك التعليم في إحدى الكليات التابعة للحكومة ليصبح كاتب مسرحيات في بلاط الخديوي إسماعيل، وعندما وجد الخديوي أن مسرحياته هذه لم تعد تضحكه أصبح صنّوع داعية سياسياً يثير الشعور العام وصحفياً اتسم بسخريته اللاذعة ومسؤولاً في المحفل الماسوني. ومنهم أديب اسحاق Adib Ishaq المسيحي الكاثوليكي القادم من سورية والذي تخلى عن المسرح ورعاية الخديوي

للصحافة. وعبد الله نديم الذي عمل موظفاً في مكتب للبرق في إحدى المحافظات ليعيش حياة شاعر جوال وبائع مناديل.

ولم يكن من هؤلاء المريدين سوى شخص واحد من المقدر له أن يكون المفكر العقائدي النافع، وهو الشيخ محمد عبده، الذي كان من العلماء الألمعيين الذين تخرجوا من الأزهر وكان "نصيراً متحمساً" في حلقة المقهى، رفض التزمت التقليدي ونادى بدراسة "علوم الفرنجة"(6). درّسه الأفغاني وأعده ليكون حامل مشعل الثورة واستجاب له محمد عبده بإعجاب شديد وعيناه تدمعان قائلاً، "لقد صنعتنا بيديك وطوقت مادتنا بشكلها التام الكامل وصنعتنا بصورة مثالية، فمنك عرفنا الكون كله"(7).

إذن، أحاط الأفغاني نفسه بمجموعة من الأفراد ذوي مهن مختلفة، فيهم الممثل الهزلي اليهودي، وفيهم الكاتب المسرحي المسيحي وبائع الخردوات ومنهم الشيخ المفتون به، لكن هذه المجموعة لا يتوقع لها أن تكون طاقماً من الأفراد القادرين على قيادة عملية التجديد في العالم الإسلامي. ولكن من وجهة نظر ثوري صادق وخادم أمين لدين الله، كانت الغاية تبرر جميع الوسائل.

حاول الخديوي إسماعيل جاهداً أن يحول دون نمو مجتمع مدني، لكن هذا المجتمع نشأ وكبر ونما على أية حال. فتح الخديوي الأبواب أمام تدفقات رأس المال الخاص والاتصالات الدولية وحملات محو الأمية والهجرة لكنه لم يستطع أن يوجهها الوجهة الصحيحة. جاءت دعائم ومشاهد الدولة العصرية وانتشرت على نحو بارع لمصلحة المستثمرين والشبان الأوروبيين لكنها اتخذت حيوية أثارت الأضغان. فمجيء سكة الحديد والبرق والنظام البريدي الحديث ترافق مع دخول معلومات وأفكار أجنبية. واللغتان الفرنسية والإنكليزية اللتان كُتبت بهما الكتيبات الفنية اللازمة للمهندسين والجنود، كانتا في الوقت نفسه لغة الأفكار والقصة والفلسفة. والجيش الذي روّع السلطان العثماني واستعبد السودانيين تكونت فيه نواة من الضباط المصريين الذين توقعوا أن ينالوا مكافأة تعادل ما

بذلوه من تضحيات. والمحافل الماسونية التي أسسها رجال الأعمال صارت حواضن للحركات السياسية الراديكالية. والتعليم العام الذي كان أساساً للخدمة المدنية أوجد شعباً يحب القراءة. ورخص الأعمال الطباعية أتاح إصدار الصحف المستقلة. وبذلك انقضت وولت إلى غير رجعة تلك الأيام التي كان فيها الحاكم الفرد يرتب المجتمع المصري حول عرشه.

حين تولى إسماعيل مقاليد الحكم لم تكن في مصر صحيفة واحدة ناطقة بالعربية. ومن خلال برنامجه القاضي بتزويد مصر بمقومات الدولة العصرية الغربية أعاد إحياء جريدة "الغازيت" *Gazette* الحكومية لتكون أداة فاعلة تساعد في السيطرة والدعاية. وفي أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن التاسع عشر تأسست مجموعة من الصحف المحلية الخاصة لتخدم القراء المصريين الذين أخذوا يتزايدون عدداً واهتماماً. في باديء الأمر حاول إسماعيل ووزراؤه احتواء هذه الصحف عن طريق الرشوة، وهكذا كانت "الهبات" السرية وراء المواقف التي تعبر عنها افتتاحيات الصحف، وكانت الحكومة تجزل العطاء على سبيل المكافأة للمساعدة التي تقدمها وذلك بشراء مساحات واسعة لإعلاناتها. وقد نجحت هذه الطريقة مبدئياً، ومثل ذلك مجلة "وادي النيل" أول أسبوعية عربية كانت تعيش على أموال الخديوي إسماعيل وبالتالي كانت تكيل الثناء على السياسات التي دفعت مصر للإفلاس. في عام 1873 خصصت الحكومة مبلغ 9,000 جنيه "لمكاتب استخبارات الصحف"، وهو مبلغ يعادل خُمْس المبلغ المخصص لميزانية التعليم، وأكبر كثيراً من المبلغ المخصص لمتحف الآثار[8]. لكن أزمة الدَّين لعام 1876 حولت هذه الأموال كلها إلى أغراض أكثر إلحاحاً. غير أن تنامي جمهور القراء وتوسعه أوجد الحاجة لنشوء مزيد من الصحف. ومع تدني تكاليف الطباعة، ومع ابتداء رؤساء تحرير الصحف ببيع مساحات إعلانية للمعلنين من القطاع الخاص صار مجدياً بقاء الصحف مستقلة تعمل بميزانية متواضعة. ومع حلول عام 1877 استطاع أديب إسحاق، ربيب الأفغاني، أن يطبع العدد الأول من صحيفة "مصر" بتكلفة لم تتجاوز الجنيه الواحد، قدمه من جيبه الخاص.

وللمرة الأولى صارت مصر في عهد إسماعيل وشخصية الخديوي نفسه موضع الفحص والتدقيق المستقل. فقد كانت الصحافة، مثل غيرها من البدع التي أدخلها إسماعيل، سيفاً ذا حدين. وبينما كانت صحيفة "المحروسة" تتيح للمستثمرين معرفة الأسعار اليومية للسلع السودانية، وفي وقت كانت فيه أسبوعية "وادي النيل" توزع بكل إخلاص وولاء الدعايات الحكومية، كان صحفيو "الأهرام" يكشفون الغطاء عن المجاعة السائدة وعن عمالة الأطفال وعن أعمال الضرب والتعذيب والفساد المنتشرة في قرى دلتا النيل. وكان الأكثر شعبية ورواجاً من هذه الصحف جميعاً بعض المجلات الساخرة التي كانت تسخر من الفساد وعدم كفاءة موظفي حكومة الخديوي وجمودهم. ومن هذه الصحف صحيفة "التنكيت والتبكيت" التي كانت تباع حتى آخر نسخة منها في غضون دقائق من نزولها إلى السوق، كما كانت صحيفة "أبو نظارة" تسخر من الحكومة ببراعة فائقة جعلت الخديوي يأمر بنفي صاحبها يعقوب صنوع، شريك الأفغاني.

يقول المؤرخ ميخائيل شاروبيم Mikhail Sharubim: "كنت أراهم في شوارع القاهرة والمدينة القديمة جماعات يتجمعون حول رجل أو صبي من أولئك الذين يتعلمون في الكتاتيب (مدارس لتعليم القرآن) وهو يقرأ لهم ترجمة قطعة نشرت في صحيفة "التايمز" اللندنية أو غيرها من الصحف الأجنبية. ويقولون طوال الوقت 'لا حول ولا قوة إلا بالله'"[(9)].

إذن كانت في مصر آنذاك صحافة مستقلة تكوّن الأفكار السياسية، وكان فيها بنية تحتية للاتصالات تعمل على توزيع هذه الصحف، وكان فيها جمهور من القراء يضمن بأن تصل رسالتها إلى مستويات المجتمع كافة. وكانت أسماء الصحف دلالة واضحة على أن المصالح المحلية تشكل هوية قومية، أو في أذهان المثقفين بحده الأدنى مثل الأسماء "وادي النيل" أو "الأهرام" أو "الوطن" أو "مصر". وكان أصحاب هذه الصحف يطالبون إسماعيل بأن يقدم ما ادعى أنه قدمه مثل الدستور، والمساواة في الحقوق القانونية للجميع والقضاء المستقل وحكومة تمثل الشعب. لكن الصحفيين السياسيين، مثلهم مثل إسماعيل،

أطّروا برنامجهم بإطار "العثمانية"، وهذا يعني أنه من الممكن تحقيق الإصلاح في مصر دون أن تتنازل عن علاقتها التبعية لتركيا. ولكن بينما استخدم إسماعيل إطار "العثمانية" وسيلة يغطي بها تحركه نحو الاستقلال استخدم الصحفيون السياسيون هذا الإطار وسيلة لاستيراد الثورة.

ففي تركيا أطلق السلطان عبد العزيز برنامجاً معتدلاً للإصلاح يكون مفتاحاً للنجاة من ديونه، لكن هذا البرنامج توقف في وجه معارضة دينية وأرستقراطية. في شهر أيار/مايو 1876 انطلق طلاب تأثروا بحركة "إيطاليا الفتاة" الثورية التي قادها مازيني Mazzini في شوارع إسطنبول وهم يهتفون "تركيا للأتراك". وقد تمكن أنصار "تركيا الفتاة" من خلال تحالفهم مع نبلاء تقدميين ورجال الدين المستائين وجماهير أرهقتها ديون تركيا الخارجية من التحرك وإزاحة عبد العزيز عن عرشه. فانتقلت الخلافة إلى ابنه مراد الخامس المدمن على المسكرات والمرتجف اليدين، حيث أجبره الثائرون على إصدار الدستور دون أن يطلع عليه والموافقة على المقترحات المقدمة إليه من أجل ليبرالية سياسية كاملة. لكن هذه الجرعة الإجبارية لحركة دستورية علمانية دفعت السلطان السابق عبد العزيز للانتحار والأرستقراطية الرجعية لعزل مراد الخامس وتولية شقيقه عبد الحميد الثاني.

لكن عبد الحميد الثاني المعادي كلياً للإصلاح وللأجانب جر تركيا إلى مواجهة كارثية مع روسيا. فشن الحرب على الانفصاليين المسيحيين في الصرب والجبل الأسود وارتكب المجازر ضد المسيحيين في بلغاريا. وعندما تدخلت روسيا لحماية المسيحيين الأرثوذكس في كل مكان أعلن "شيخ الإسلام" في تركيا الجهاد ضد المسيحيين. وهكذا تحول برنامج الإصلاح السياسي الذي كان أصلاً يفتقر إلى الإتقان إلى حرب بين الإسلام والمسيحية. ويبدو أن الحظ كان إلى جانب الروس الذين وصلوا إلى أبواب القسطنطينية. هرع حلف "الوفاق الأوروبي" Concert of Europe لمنع سقوط الإمبراطورية العثمانية فدعا الأطراف الموقعة عليه إلى مؤتمر للسلام يعقد في برلين. لكن روسيا وتركيا لم يكسبا فائدة تذكر من المعاهدة التي توصل إليها مؤتمر برلين. إلا أن بريطانيا

ومن خلال عمل بطولي فذ من السحر والشعوذة قام به دزرائيلي ووزير خارجيته اللورد سالزبوري أصبحت المستفيد الأكبر من حرب لم تخضها. ومقابل وعد متجدد بالحماية البريطانية تنازلت تركيا عن جزيرة قبرص لبريطانيا، فأصبحت الجزيرة حصناً تقوم البحرية الملكية منه بالإشراف على ممرات البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأسود وقناة السويس وبذلك تعززت هيمنتها البحرية. وهكذا، بوجود قبرص المطلة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط وعدن عند أطراف البحر الأحمر وبامتلاك أسهم إسماعيل في خزائن بنك إنكلترا Bank of England لن يكون ثمة شيء يهدد الطريق إلى الهند سوى انهيار مصر.

والواقع أن إسماعيل قد وقع بين فكي القوى ذاتها التي علق بها السلاطنة العثمانيون ونقصد بذلك الإصلاحيين الذين يحركون الشارع في الأسفل والأوروبيين الذين يفرضون أوامرهم من الأعلى. وبرغم أن إسماعيل كان يحب كل شيء حديث من حيث المبدأ فإنه إن جازف وجاء إلى مصر بأفكار جمعية "تركيا الفتاة" فقد يعرض نفسه لخطر الإزاحة عن العرش وليكون له مصير "عبد العزيز أمير المؤمنين" السابق. في تلك الأثناء شكلت "الهيئة الأنغلوفرنسية المشرفة على الديون" هيئة "تحقيق" في الحسابات المصرية. وتوصل هذا التحقيق إلى استنتاج معقول بأنه لا يجوز أن يكون إسماعيل مؤتمناً على أموال مصر، وأوصى بمزيد من التقشف. وعلى نحو مبتعد قليلاً عن الحكمة رفضت هذه الهيئة إعادة جدولة ديون مصر وأصرت على أن يتلقى حملة السندات أنصبة أرباحهم في حينها. غير أن الفرنسيين والبريطانيين بدافع من خوفهم على مصارفهم أكثر من خوفهم على الفلاحين تحت حكم إسماعيل أجبروا هذا الأخير على إرسال جابي ضرائب "له قبضة من حديد" إلى الدلتا ليدفع أنصبة أرباح السندات المستحقة كل نصف سنة إلى أصحابها الأوروبيين. وبعد أن أخذوا آخر قرش من جيوب الفلاحين تجمّع لدى هؤلاء الجباة "تنوع واسع من العملات" معظمها عملات قديمة أو قطع نقدية صغيرة كان الفلاحون قد صنعوا منها سلاسل يتزين النساء بها[10]. وعندما لم يفلح هؤلاء بجمع

المال من خلال الضرب قام المرابون بإقراض الفلاحين النقود ليدفعوا ضرائبهم بضمانة المحصول القادم. وهكذا وزعت أرباح السندات المستحقة في الأول من أيار/مايو 1878 قبل ساعات من موعدها.

في صيف تلك السنة فاض النيل واجتاح الضفاف جارفاً أكثر من ثلاثين قرية مشرداً أهاليها ومدمراً محصولاً يقدر ثمنه بـ 500,000 جنيه. والفلاحون الذين أفلستهم الضرائب عضهم الجوع بنابه، ولم يبق لإسماعيل مصدر دخل. إذ ذاك قدم له مفوضو الهيئة عرضاً لن يرفضه، عرضوا عليه قرضاً يمكّن مصر من الوفاء بالتزاماتها عندما يحين القسط التالي مقابل أن يتخلى عن أساليب حكمه الفردي. يجب أن يكون ثمة مجلس وزراء ووزارة مالية مستقلة تكون تحت إشراف أوروبي. ويجب أن يتقاضى إسماعيل راتباً ثابتاً وعليه أن يتنازل لصالح الدولة عن أرض ممتازة وغنية تبلغ مساحتها نحو مليون فدان كان قد خصصها لنفسه. فقد كانت خطتهم أن يجعلوا إسماعيل بصورة طفل صغير له لحية لا يضر ولا ينفع تزين جدران أحد البنوك الأوروبية.

وافق إسماعيل بدافع من اليأس على هذه السيطرة المعادية. وجاء الفرنسيون والبريطانيون بنوبار باشا من منفاه في باريس وعينوه رئيساً للوزراء وجاؤوا بأحد موظفي الخزينة البريطانية اسمه السير ريفرز ولسون Sir Rivers Wilson ليتولى وزارة المالية. لم يكن ريفرز ولسون يعرف شيئاً عن مصر لكنه يتحدث الفرنسية بطلاقة، فهو بحاجة لهذه اللغة ليتحدث مع نظيره الفرنسي بلينيير M. de Blignieres الذي عين مؤخراً ممثلاً مقيماً في وزارة الأشغال العامة. وعمل هذان الاثنان فيما بينهما على طرد العشرات من المصريين من وظائفهم وعينوا مكانهم أوروبيين. ذهب ريفرز ولسون إلى باريس واقترض 8.5 ملايين جنيه من بنك روتشيلد ليتمكن إسماعيل من دفع القسط المستحق من الدين في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر.

يقول اللورد سالزبوري وزير الخارجية في حكومة دزرائيلي في معرض حديثه عما يجري في مصر آنذاك: "لدي انطباع قوي بأن هذه المفوضية تفتقر كلياً إلى حس الإدراك السليم. فإذا كانوا يريدون خلع الخديوي فإن سياستهم

هذه قد تؤدي النتيجة المطلوبة. لكنهم لا يريدون ذلك. فما الفائدة إذن من دفعه إلى اليأس؟"[11].

فقد إسماعيل كل قدرة على التحرك أمام هذا الضغط المتزايد الذي حاصره من المتمردين في الداخل والبحرية الملكية وهيئة المفوضين المسؤولة عن الدين العام. إن مس شيئاً صغيراً من ذاك الجص الهش الذي يجمّل الدولة المصرية فسوف ينهار الصرح بكامله ويسحقه. لقد تعهد بالرعاية والتشجيع طبقة برجوازية لتكون زخرفاً بشرياً لشوارع جميلة أنشأها على النمط الأوروبي، لكنها تغيرت وتبدلت حتى بات لا يعرفها أحد. وأولئك الأطفال الصغار من الطبقة الوسطى صاروا الآن يطالبون بمزيد من المقاعد في دار الأوبرا وفي الحفلات الموسيقية التي تقام في حدائق الأزبكية. وشكلوا الجمعيات السرية التي حملت أسماء من مثل "مصر الفتاة" وجسدت الأفكار الثورية التي ظهرت في إيطاليا وتركيا. وفي محفل نجمة الشرق الماسوني تشرّب الماسونيون الناشئون الجدد أفكار الأفغاني القائلة إن جميع الأديان دين واحد وأن الهرطقة المبتذلة تقود إلى انهيار الإمبراطوريات الأوروبية. وفي حلقات دراسية نظمها وقادها صديق الأفغاني الحميم يعقوب صنوع قام هؤلاء بالتنقيب في روايات القرن الثامن عشر وفي الفلسفة القديمة عن الأفكار الثورية يخفون فتنتهم هذه وراء أسماء في ظاهرها البراءة مثل "حلقة التقدم" و "جمعية محبي المعرفة". وإذا أصابهم شيء من النفور، كما يفعل الكثيرون من المسلمين الشباب المحترمين، جراء مرح ديني لدى الماسونيين أو بسبب تزايد أهمية اليهود والمسيحيين في جمعية مصر الفتاة أو حلقات المطالعة يكون الشاعر بائع المناديل عبد الله نديم جاهزاً وعلى أتم استعداد ليحثهم على الانضمام إلى "الجمعية الخيرية الإسلامية" التي تبدو في ظاهرها محافظة على التقاليد أو إلى "رابطة الشباب". وقد انضم إلى هذه الجمعيات الكثيرون، وحتى النبلاء الأتراك التقدميون، يرسمون الخطط والمقترحات غير ذات الصلة حول طريقة قيام إسماعيل بتحسين أسلوبه.

لكن إسماعيل كان يدري ما الذي تخططه هذه الجماعات، فجواسيسه قد تسللوا إليها جميعاً، سيما وأن وجودها شكل مشكلة كبرى. إن هو قمع العناصر

الأكثر إنتاجية بين رعاياه يفقد مساهمتها في استرداد الاقتصاد لعافيته، وهذا هو سبيله الوحيد للخروج من الدين. وإن هو استمر بأسلوبه في السماح بحرية التعبير والحكم الدستوري فسوف يقلص من سلطته. لكن من حسن طالعه أن هؤلاء المتمردين في مصر كانوا بعيدين عن الشعب بُعْد الأرستقراطية التركية التي كانوا يريدون التخلص منها.

واندس أعداء إسماعيل في السياسة العثمانية التقليدية التي كانوا يأملون تعطيلها. وانتظموا في فئات من المتنافسين تتحالف كل فئة مع أحد الأرستقراطيين ضد آخر. وكما قال محمد عبده كان الفلاحون والفقراء من سكان المدن غارقين في "جهل سياسي" يمنعهم من المشاركة في أي حكم جمهوري[12]. من جهة أخرى واجه كارل ماركس المشكلة نفسها حين أقر بأن قادة الثورة قد يخرجون من صفوف أبناء المثقفين وليس من البروليتاريا. وعلى هذا النحو أراد الأفغاني ومحمد عبده أن يؤسسا لتحالف من العقول المستنيرة يقود هذا الصراع. وهكذا انكفأ الثوار إلى صالوناتهم الخاصة ليلعبوا لعبة الصالونات للتنافس الفئوي وأوهام النظريات. وبدلاً من أن يقود الأفغاني أتباعه إلى الحرية قادهم إلى مستنقعات المؤامرات العثمانية. فأصبح هو وأتباعه من أنصار حلمي عم الخديوي إسماعيل في المنفى، والذي كان يحيك المؤامرات من إسطنبول لخلع ابن أخيه وكان يتلقى الدعم في ذلك من السلطان العثماني الرجعي عبد الحميد الثاني. وهكذا نجد أن الأفغاني قد صار في خدمة حاكم مستبد كبير يعمل لخلع حاكم مستبد أصغر بل هو حاكم تقدمي برغم استبداده. وهذا أمر لا يعقل في الأمور السياسية. لكنه لا بأس به فقد أعطى نتائج جيدة.

غير أن هؤلاء المثقفين قد تجاهلوا وصرفوا أنظارهم عن أولئك المصريين الذين عانوا أشد المعاناة، وهم الفقراء. وبينما كانت المشروبات والأحاديث تتدفق بلا انقطاع في مقهى ماتاتياس، كان المصريون الأقل علماً وثقافة يتحركون دون توجيه من النظريات. فالفلاح في حقله بدلتا النيل كان يتحمل أشد الوزر الناجم عن سياسات إسماعيل الخرقاء. فهو الذي يدفع أكثر الضرائب ويتبلّغ بالطعام القليل، وهو الذي يكدح في أعمال السخرة، وهو الذي يعاني من الضرب

العشوائي والابتزاز على أيدي الموظفين الفاسدين. وليس له من ملجأ إلا رحمة الخديوي التي لا تتاح إلا لعدد محدود جداً والإسلام الذي كان العمود الفقري للمجتمع المصري قبل أن يحطمه إسماعيل. أما تلك الأفكار المجردة التي تتحدث عن القومية فهي لا تعني شيئاً لهؤلاء الفلاحين الذين كان عزاؤهم الوحيد هو في التمسّك بالدين التقليدي. كانت غالبية المسلمين المصريين يرون أن أزمة بلدهم ليست نتيجة لأخطاء إسماعيل أو شهوة الأسواق الأوروبية، بل هي عقاب إلهي. وكما فعل الصليبيون في الماضي، سيطر الفرنجة (الأوروبيون) على الاقتصاد وفرضوا حكومة مسيحية لا شرعية. وعوضاً عن الحديث عن الدستور والبرلمان اتخذت حركة التمرد الشعبي أشكالاً أكثر بساطة من ذلك تمثلت في الخوف من الأجنبي وإعادة إحياء الدين. وكان الفلاحون يرون أن الدبلوماسية الإلهية ليست حرية التجارة، إنما هي الدين كما كانت على الدوام.

غير أن إسماعيل لم يهتم بالدين الإسلامي بل إن اهتمامه بالخلافات والانشقاق الديني كان أقل من ذلك. أيد رجال الدين الإسلامي سياساته، وإن لم يفعلوا كان يعزلهم ويعين غيرهم. ولكن عندما انهار الاقتصاد واختل توازن المجتمع فقد السيطرة على رعاياه. ولم تعد الشرطة المصرية والامتيازات الأجنبية تكفي لحماية الأوروبيين الحائزين على الامتياز في مصر من غضب الشارع الجائع. وشعر القناصلة الأجانب ببوادر حركة استياء شعبي وظهور تعبير عفوي ومتقطع لغضب ديني يتزايد يوماً بعد يوم.

في شهر رمضان عام 1876 قام بعض المسلمين الغاضبين بضرب رجل إيطالي كان يدخن في شوارع القاهرة في وضح النهار. وتحدث القنصل البريطاني في تقاريره عن شائعات تقول إن الأسلحة تتكدس في مساجد المدينة وأن بعض مثيري الشغب غير المعروفين يقومون "بمحاولات ذكية" لتوجيه الغضب الشعبي نحو الأوروبيين[13]. وقام أحد الصوفيين القادمين من مكة مع والده، وهو أحد قدامى المحاربين الأتراك، بالتطواف في شوارع الإسكندرية حاملاً راية النبي الخضراء ويدعو للانتفاضة ولقتل الكفار في مصر. لكن الشرطة المصرية سرعان ما اعتقلتهما وأعادتهما إلى الجزيرة العربية[14]. وفي

صباح أحد الأيام استيقظ القاطنون في الحي العربي بالقاهرة ليجدوا الحي بكامله وقد ألصقت على جدرانه قرارات صادرة عن شخص اسمه الشيخ أحمد كان يزعم أنه "خادم ضريح النبي في المدينة"، وقد استخدم هذا الشيخ نظام البرق عند الكفار ليحض مسلمي مصر على ترك الشراب والابتعاد عن الزنا والفساد الأخلاقي ويذهبوا للصلاة، وكان يحذرهم بأن اليوم الآخر قريب حيث تطلع الشمس من المغرب[15].

في واحدة من الرسائل التي بعث بها تشارلز غوردون إلى شقيقته أوغستا في أيلول/سبتمبر عام 1877 أسرّ إليها قائلاً: "طالما تمنيت أن تصلح الأمور على الأرض"[16]. فهو لم يستطع مقاومة إغراءات السودان، حيث إن عظمة مغامرته في المديرية الاستوائية واليأس الذي اكتنفها، وملحمة الفساد والخلاص الكامنة في الحرب على الرق، وسلطان منصبه، وحجم المهمة الموكلة إليه كانت جميعاً الملحمة الكونية التي كان يتوق إليها. بعد ثلاثة أشهر من تاريخ استقالته بسبب استيائه واشمئزازه عاد غوردون إلى جناح الخديوي في قصر عابدين مبتهجاً إثر برقية وصلت من "إسماعيل المحب" راجياً إياه العودة لـ "إتمام العمل الذي بدأناه معاً"[17].

وفي هذه المرة لن يقبل غوردون بمنصب حاكم لأحد الأقاليم ولا بأن يحبط عمله رئيس فاسد في الخرطوم. فطلب: "إما أن تعطيني السودان أو لا أذهب"[18].

وأعطاه إسماعيل ما طلب: سلطة مطلقة على 17 إقليماً ومليون ميل مربع من الأراضي ورتبة مارشال وزياً مزداناً بأشرطة من الذهب يقدر ثمنها بـ 150 جنيه، وأوامر بـ "قمع تجارة الرقيق وتحسين وسائل المواصلات"[19].

لم يكن غوردون رجلاً يهتم بالسياسة ومع ذلك فقد فاجأه استسلام إسماعيل الظاهر. فالخديوي كان لديه موظفون بريطانيون يدققون في حساباته وتجار بريطانيون يعبرون قناة السويس. وكان بحاجة ليبرهن على أنه خير من

يكون عميلاً لبريطانيا. وكانت أرخص الطرق ثمناً لذلك أن يطلق العنان لجماعة الضغط التي تنادي بالإصلاح الاجتماعي في بريطانيا. وبعد ستة أشهر دفعه ضعفه وتشككه ليوافق على الميثاق الانغلومصري الذي جاء ثمرة عشرين عاماً من الضغط لغايات إنسانية. أكد هذا الميثاق على التزام إسماعيل بالعمل الفوري لقمع كافة أشكال صيد الرقيق والاتجار بهم. وأعطى مصر سبعة أعوام لتلغي ملكية العبيد واثني عشر عاماً لإنهاء إمبراطوريتها في السودان. كما أعطى البحرية الملكية البريطانية حق توقيف وتفتيش السفن في البحر الأحمر.

حتى غوردون نفسه رأى التناقض الذي أوجده هذا الميثاق في السياسة البريطانية، حيث قال في إحدى رسائله: "من المضحك نوعاً ما أن يظن المرء بأن أولئك القاطنين في القاهرة غافلون عن حقيقة أن إيراداتهم في عام 1884 سوف تنخفض إلى النصف وأن البلاد سوف تحتاج للمزيد والمزيد من الجنود للمحافظة على الهدوء. إن سبعة أثمان سكان السودان من العبيد والخسارة في الدخل في عام 1889 ستكون أكثر من الثلثين". ولن يعود النظام والأمن إلى السودان إذا عمل هذا الميثاق على تفكيك اقتصاد مصر الإمبراطوري. "في هذا البلد الاسترقاق يطال الجميع، فكيف تتعاطى معه لكي تجتنب حرباً في سبيل الاسترقاق أو انتفاضة الشعب؟" وإذا فرض البريطانيون تشريعاً دون أن يقدموا بديلاً لتجارة مشروعة وإن أصر المصريون على ضرائبهم فلن تكون ثمة إلا نتيجة واحدة: "إذا تحقق تحرير العبيد في عام 1884 واستمر النظام الحالي للحكم فلن يستطيع المرء تجنب ثورة في البلاد بكاملها"[20].

لم يكن غوردون واثقاً مما إذا كان العالم المادي يستحق الخلاص أم الهلاك فافتعل الأزمة. ورأى العواقب المحتملة للسياسة البريطانية وفعل ما بوسعه ليجعلها أمراً حتمياً لا يمكن اجتنابه. عاد إلى السودان فوجده على حافة الانهيار. يعاني من جوع شديد للمال والجنود من مصر، فكانت مملكته هذه تعاني خسارة تقدر بـ 97,000 جنيه في العام. معظم أراضيها خارجة عن سيطرة الحكومة. ففي الشرق أدت الحرب التي خاضها إسماعيل ضد الحبشة إلى نشوء إقطاعيات بأيدي الميليشيات في المناطق الحدودية. وفي الجنوب

والغرب كل ما كان يفعله تجار الرقيق أنهم كانوا يراوغون ليتفادوا زوارق الدوريات التي تجوب النيل ثم لينشروا الدمار أكثر من السابق. حتى في الشمال كانت سلطة الحكومة ضعيفة جداً لدرجة أن أحد المحتالين من أصل يوناني ارتدى "زياً رسمياً وزينه بالعديد من الأوسمة" وتمكن من أخذ الرشاوي من السكان المحليين مدعياً أنه أحد الباشوات[21]. فاحتفظت حكومة الخرطوم بسلطتها على السكان الذين يخالفون القانون بالجلد العشوائي، وكانت تصدر أحكامها وقراراتها بحسب حجم الرشوة التي يقدمها صاحب الشكوى. عندما استلم غوردون قصر الحاكم وجد أن شقيقة الحاكم السابق قد حطمت نوافذ القصر جميعاً والبالغ عددها 130 نافذة و"مزقت الأرائك"[22]. لقد كانت إمبراطورية إسماعيل في السودان تنهار شيئاً فشيئاً.

وفي رسالة بعث بها إلى شقيقته يصف حالة السودان قال غوردون: "بعون من الله سوف أجعل الميزان يستوي"[23]. وكما فعل هو وفعل سلفه بيكر سابقاً في المديرية الاستوائية قسم خطته إلى مرحلتين. في المرحلة الأولى سوف يقيم النظام في الحكومة. ثم سيفيد من ذلك لينطلق في حربه على تجار الرقيق. ألغى الضرب والجلد، وأصلح النوافذ ووضع صندوقاً خاصاً لشكاوى رعاياه وحول الرشاوي التي تأتيه إلى صندوق الخزينة الفارغ. ثم غادر مقره ليقوم برحلة طويلة على ظهور الجمال في أرجاء مملكته ترافقه مجموعة صغيرة من الحرس الشخصيين. وفي رسالة أخرى إلى شقيقته كتب يقول: "الناس يريدون العدل"[24].

كان في رحلته هذه يقطع ثلاثين ميلاً في اليوم عبر "القفار الموحشة الحارة" وتحت الشمس الحارقة ويعاني من آلام الجلوس الطويل على سرج الجمل ومن آلام في الصدر، وكان يحس بأن مشية الجمل تثير ارتجاجاً في كبده ورئتيه حتى لتكاد هذه الأعضاء تخرج من أماكنها، فربط وشاحاً حول خصره وتحت إبطيه لتظل في أماكنها[25]. كان غوردون يعتقد أن الظهور المفاجيء في ثكنة عسكرية في الريف "لرجل وحيد متسخ أحمر الوجه ممتطياً جملاً ويحوم حوله الذباب" سيكون له أثره الإيجابي لدى المتمردين العرب والجنود المصريين

ورجال القبائل الإفريقية على حد سواء[26]. ومع ذلك وبعد أن صحح المفاسد المحلية التي كان يراها يوم وصوله عند كل زيارة - مثل حارس نائم أو ضابط يتاجر بالرقيق أو مسجد تُختزن فيه بنادق الميليشيات ـ دخل غوردون أجمة واختفى بداخلها من أجل نفحة من نقيع "ووربرغ" المضاد للملاريا. وبعد ذلك عادت الحاميات إلى نومها وفسادها.

لم يكن غوردون يملك الوسيلة لفرض النظام بين وقت وآخر. كان لديه ميثاق عام 1877 الذي وصف أعمال صيد الرقيق بأنها "سرقة مصحوبة بجريمة قتل". وكان لديه مرسوم من الخديوي إسماعيل يقضي بأن عقوبة الاتجار بالرقيق خمس سنوات في السجن. وكان لديه الإذن بتنفيذ حكم الإعدام بصيادي وتجار الرقيق المذنبين. ولكن كان لديه أيضاً رسالة من نوبار باشا تذكره بأنه على الرغم من أن الميثاق يحظر أخذ العبيد إلا أن بيع العبيد وامتلاكهم في مصر سيظل أمراً مشروعاً لغاية العام 1884. إذن كان نصف القانون إلى جانب غوردون والقليل جداً من توازن اقتصادي ولا أحد من المرؤوسين المصريين يخضع له. فكان الجميع بالمرصاد له عند كل محاولة يقوم بها، فما كان له من سبيل إلا طرد الموظفين من أعمالهم بالجملة. في شهر أيار/مايو 1878 وحده طرد حاكم إحدى المقاطعات وثلاثة جنرالات وعميداً في الجيش وأربعة ضباط برتبة مقدم. وبعد وقت قصير طرد 14 حاكم مقاطعة من أصل 17، وعين بدلاً عنهم ضباطاً سودانيين أو مصريين تنقصهم الخبرة وبعض المرتزقة الأوروبيين العابرين[27].

أحس غوردون بالبعد عن إدارته فلجأ إلى الجاذبية الشخصية والتوكيد القسري للقوة والبراغماتية الدنيئة. وأمام "سباق الجرذان للسرقة" الذي يقوم به اللصوص الأحباش[28] وتجار الرقيق المدججين بالسلاح في دارفور انهار سعي غوردون لتحقيق "العدالة" وسط تكتيكات إسماعيل الهادفة إلى إضفاء الشرعية بخاتم حكومي على الطغاة المحليين. ففي دارفور أجاز العمل لتجار الرقيق من أفراد قبيلة البقارة Baggara وقيامهم باعتراض منافسيهم في هذه التجارة من تجار قبيلة جلابة Jallaba الجوالين. ولدى عودته إلى الخرطوم أعدم رمياً

بالرصاص ودون محاكمة مجرماً مشتبهاً به وتاجر عبيد وذلك لقيامه "بتشويه ولد صغير وبتر أعضائه". وحيث إنه ادعى بتوجيه "ضربات مميتة إلى تجارة الرقيق" فقد وصف أساليبه الشرسة هذه بـ "حكومة الرعب"(29)، فكان هذا الوصف أكثر دقة مما كان يتصور.

لكن غوردون بطربوشه التركي الذي يرتديه والجنود المصريين الذين يحيطون به كان في عيون السودانيين مجرد أحدث مستوردات الطغاة من مصر. ورغم أنه كان يحلم بالعدل فقد كان الجنود المصريون السائرون خلف جمله يخطفون الأطفال على قارعة الطريق كما لو كانوا يسرقون الدجاج. وفي المناطق التي منع فيها تجارة الرقيق، كان السوط الذي يجلد به جباة الضرائب لا يزال يجلد القبائل السودانية. غير أن زيه الرسمي البريطاني وعقيدته المسيحية كانا بمثابة إعلان عن قدوم غير مرغوب فيه لإمبراطورية الكفر وتحالفها مع طغيان إسماعيل. كان غوردون يشكك دوماً في كون ذلك الثالوث التبشيري المتمثل بـ "الإيمان والتجارة والحضارة" الدواء الشافي لكل العلل ولم يستطع إلا أن يتعاطف مع مشاعر رعاياه وأعدائه. وقد تحدث عن ذلك بإسهاب في رسالة إلى شقيقته، حيث قال: "فكري بنتائج الإجراءات القاسية على السكان المسلمين أصلاً ويقوم بها بكل فظاظة رجل نصراني، وهي إجراءات تمس جيب كل مواطن"(30).

كان المسلمون يتمسكون بتجارة الرقيق معتبرين ذلك حقاً شرعياً وتاريخياً لهم وبدا الوثنيون المؤمنون بروحانية المادة منغلقين على أنفسهم لا يتأثرون بالتبشير المسيحي. وعندما رأى غوردون هذا التناقض القاتل في السودان انكفأ وعاد إلى ذلك التفسير الذي كان سائداً في عصره، وهذا ما أوضحه في رسالته لشقيقته حيث قال: "أنظر إلى هذه الأعراق الزنجية كما أنظر إلى أطفال في الثالثة أو الرابعة من أعمارهم، فأراهم غير قادرين على فهم تلك الحقائق"(31). ولكن خلافاً لتلك الرؤية التبشيرية لم يكن السودان معركة دائرة بين أنصار الخير العام والإصلاح الاجتماعي من جهة وتجار الرقيق من جهة أخرى. أو بين المسيحية والإسلام. ولم تحاول هاتان

الإيديولوجيتان المتناقضتان إجراء أي اتصال مباشر بينهما، إلا أن مصر في عهد إسماعيل كانت نقطة الوسط بينهما تصبو نحو الأولى وتستفيد من الثانية. يقول غوردون في رسالة أخرى: "لم يعاقب سموه الرجال الذين أرسلهم إليه. بل كانوا يظهرون في الحفلات الراقصة التي يقيمها وهم في غاية الهدوء"[32]. كان غوردون يأمل في هذه المحنة التي يمر بها السودان أن تكون مهمته فيها بدافع إلهي، فهو لم يستطع أن يتجاهل ذاك الدليل الذي يشير إليه على أنه الأداة الطوعية لنظام فاسد. وما هو أشد سوءاً أن تلك "الإدارة الخنثى"[33] التي فرضها المصرفيون الأوروبيون على إسماعيل لم تبد أي اهتمام في السودان وفي الاسترقاق والخلاص. وإذا خيرت بين "الله والشيطان"[34] اختارت الشيطان والموعد التالي لتسديد الدين.

يقول غوردون "الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله مع تجار العبيد هؤلاء هو أن أجلدهم بالسياط وأجردهم من ثيابهم وأرسلهم إلى الصحراء"[35]. ولم يمض ثمانية عشر شهراً حتى عمت ثورات تجار الرقيق أرجاء القسم الأعظم من جنوب وغرب السودان. ورد عليهم غوردون بالمثل. حيث أرسل ما يزيد عن 2000 جندي إلى منطقة بحر الغزال. وعلى الطريق المار من جنوب دارفور اتضح حجم هذه التجارة. كانت القوافل الصغيرة تتدفق كالسيل الجارف شمالاً نحو مدينة الأبيّض وطريق الأربعين يوماً. ولدى كل تاجر حتى لو كان صغيراً حفنة لبضاعة أرهقها التعب وتكاد تحتضر. "لا شيء يمكن أن يفوق بؤس هؤلاء التعساء المساكين. بعضهم أطفال لم يتجاوزوا الثالثة من العمر، وقد جاؤوا إلى هذه المنطقة الحارة من شاكا Shaka، وهي رحلة أنفر منها ولو كانت على ظهر جمل". وقد عمد غوردون إلى جلد هؤلاء التجار وإطلاق سراح ما لديهم من بضاعة. في صباح أحد الأيام استيقظ ليجد إحدى النساء من العبيد وقد زحفت ليلاً إلى خيمته لتفر من إحدى القوافل. وحين يأتيه الموفدون من هؤلاء التجار يريدون عقد هدنة معه كان يعدمهم شنقاً. وقد انتهت هذه الحملة بتنفيذ الإعدام بزعمائهم رمياً بالرصاص.

في رسالة بعث بها إلى شقيقته أوغستا في ساوثمبتون البعيدة يبث فيها

شجونه قال: "أتمنى لو أن سر الشر العظيم قد كشف لك"[36]. لكن حملته هذه لم تحدث الأثر المطلوب في تجارة الرقيق، فهو يقول إنه اعترض سبيل أكثر قليلاً من 2,000 رقيق في عام 1878 من أصل ما يقدر بثلاثين ألفاً تم تصديرهم في تلك السنة. وهكذا بقيت في مكانها جميع العناصر التي جعلت السودان فردوساً لتجار الرقيق ألا وهي الطلب الهائل من العالم الإسلامي، وغياب البدائل المحلية، وحكومة مصرية فاسدة واستغلالية. غير أن تكتيكات غوردون القوية والناشطة أنكت أوار عداء المسلمين لتركيا وحولت ذاك التساهل الكبير من مصر مع تجار الرقيق إلى حرب مفتوحة. وكان غوردون إزاء ذلك يقظاً يحترس من تقلبات الوضع لكنه لم يكن شخصياً ولوجستياً مزوداً بما يكفي من أدوات الحل فكانت النتيجة أن جعل مأزقاً صغيراً أزمة كبرى. وبدلاً من أن يقيم العدل جعل السودان ينزلق سريعاً نحو الفوضى.

وفي غضون عامين اثنين أعاد تكرار ما حدث له في المديرية الاستوائية، حيث يقول "يخيفني هذا العذاب الطويل الناجم عن الإقامة في هذه البلدان البغيضة. لا أعتقد أنني أستطيع مواجهة محنة العيش هنا لأسباب مادية"[37]. تجرحت ساقاه من ألم مسير ما يزيد عن 8,000 ميل وهو على ظهر الجمل. لم يتناول شيئاً من الطعام أكثر من بضع تمرات. وآلمه كبده من كثرة تناول البراندي. عانى من الحمى ومن وخز الحَصَف ومن النوبات المتكررة لهجمة الملاريا، وفي إحدى تلك النوبات هرع متعثراً في ممرات قصره الفارغ في الليل تلاحقه توسلات المتوسلين وهذيانهم. كان يكثر من التدخين لدرجة أنه تعرض لمشكلات قلبية: ألم في صدره، وخدر في ذراعيه، ونوبات من الهلع الدواري. وقد قال في ذلك: "تحدث اندفاعة من الدم إلى الرأس فيظن المرء أن أمره قد انتهى. وقد يقول إنني مت فجأة أكثر من مئة مرة"، ثم يخلص إلى القول إن مهمته انتهت أو أن مهمته ستضع حداً لحياته[38].

مرة أخرى دفع غوردون بنفسه نحو الانهيار والانهزام ورؤية أشباح تظهر له. وفي ذلك قال معترفاً "لقد سببت هذا كله لنفسي، سيما وأني دعوت الله أن يجعلني متواضعاً كالتراب، وليصب كل آثام مصر والسودان على رأسي". وهكذا

انقشعت غمامة مجد الأثرة وتفضيل الآخر. "هذا إن لم أقل خذ حياتي لأجلهم ذلك أنني أشعر برغبة قوية بموت سريع. لقد تعبت من هذا الصراع الذي لا ينتهي مع نفسي الشريرة"(39).

"لا يوجد خلاص إلا في القتل، ولا يوجد أمان إلا في القتل"، هذا ما قاله الأفغاني وهو في ثورة غضب(40).

لقد خطط الأفغاني ومحمد عبده لقتل الخديوي الفرعون الشرير الذي سيشعل موته ثورة في البلاد. في عصر كل يوم يقوم إسماعيل بجولته الخاصة للتريض. وسيكون الشخص الموكل باغتياله في انتظاره وبيده قنبلة يقذفها عندما تبطيء عربته في سيرها عند المنعطف المؤدي إلى جسر قصر النيل. فهذا الموقع الحديدي الذي يشكل رمزاً لادعاء إسماعيل بحق ملكيته لنهر النيل سيكون مكان الجريمة السياسية. كان مشهداً مقتبساً من مسرحية روسية، يحاكي أعمال العدميين والفوضويين الذين حاولوا مراراً اغتيال القيصر الإسكندر الثاني ثم نجحوا في محاولتهم الأخيرة عام 1881.

يقول محمد عبده مستذكراً تلك الواقعة: "وافقت بقوة لكن ذلك كان مجرد حديث فيما بيننا، ولم يكن لدينا الشخص القادر على تولي زمام القيادة في هذه المسألة"(41).

غير أن ما ينبغي تذكره هو أن الأفغاني ومحمد عبده كانا من العلماء ولم يكن أي منهما جندياً، وعلى الرغم من اهتماماتهما الثورية في الجماهير كانا من النخبة في الفكر والعمل. وبينما كانت المساجد تجيش بمشاعر الغضب والسخط والفلاحون يزدادون خروجاً عن القانون بسبب الجوع والفقر كان هذان العالمان يعملان على تجييش الجماعات المتطرفة ذات الأسمال البالية الرثة. لم تكن لديهما قاعدة قوة شعبية أو قوة عسكرية، وكل ما لديهما كانت الطقوس الماسونية وحلقات المطالعة والقراءة والرعاة المشجعين من ذوي المنزلة الرفيعة، وهذه جميعاً قد تدعم محاولة انقلاب في القصر وليس ثورة شعبية. أما انتقال

الأفغاني من الدين إلى السياسة فقد اتسم بالتقلب من حلم في اليقظة إلى حلم آخر لكنها جميعاً أفعال تفتقر إلى الفعل. أحس بأنه قد بدأ يضعف وأن قيمته في تراجع بسبب فقدانه للسلوى. وهذا ما يتضح من خلال اعترافه بقوله: "إذا ارتدى الفيلسوف ثياباً رثة وحمل سبحة طويلة وقضى معظم وقته في المسجد فهو صوفي، وإن اتخذ مكاناً له في مقهى ماتاتياس ودخن النارجيلة يظل فيلسوفاً ليس غير"[42].

لقد كانت قوة الثورة التي كان الأفغاني ومحمد عبده يبحثان عنها موجودة بالرغم من أنهما لم يدركا ذلك، ألا وهي الجيش. كانت صفوف الجيش منقسمة على نفسها انعكاساً لذاك الانقسام في المجتمع المصري. كبار الضباط من الأتراك وكان ضباط الصف والجنود من الفلاحين والعبيد السودانيين، أما ضباط الدرجة الثانية فهم من الخريجين المصريين لنظام التعليم الجديد والمعاهد العسكرية. وكان الجنرالات الأتراك يمارسون التمييز ضد هؤلاء الضباط الذين ينتمون لطبقة الفلاحين. ومع أن احتمالات إرسال هؤلاء الضباط إلى مواقع متقدمة داخل السودان أو إلى أرض المعركة في الحبشة إلا أن أحداً منهم لم يرتق في سلم الرتب إلى أعلى من رتبة عقيد. في عام 1876 قام حفنة من هؤلاء الضباط المصريين بتشكيل جمعية سرية دعوها "جمعية مصر القوية"، واتجه أعضاؤها من خلال الجماعات الماسونية وحلقات المطالعة نحو إيديولوجيات الأفغاني، وتزايدت سرعة تحركهم المتطرف عندما عجزت الحكومة عن دفع رواتبهم. وحين قام المفوضون الأجانب بتسريح 2500 ضابط ووضعوا من تبقى من الضباط في زمرة من يتقاضون نصف الراتب. عندئذ قام الضباط المصريون المستاؤون بالتمرد وبرزت مجموعة قيادية لهم من الضباط العقداء وكان زعيم هؤلاء أحمد عرابي.

يقول عرابي مستذكراً ذلك: "إن أول كتاب قرأته وأتاح لي الاطلاع على الآراء في الأمور السياسية هو الترجمة العربية لكتاب "حياة بونابرت *Life of Bonaparte*". كان عرابي من فلاحي الدلتا، طويل القامة مع شيء من الهزال

ولكن ثقيل الحركة تعوزه الرشاقة، وكان متروياً في إيماءاته وضخم الأطراف. ومع أنه كان يبدو في مظهره فلاحاً وليس عسكرياً إلا أن حياته رمز يختصر إصلاحات وإخفاقات إسماعيل. كان أحمد عرابي ابن أحد مشايخ الريف وقد أحيل إلى التقاعد بسبب تلك البيروقراطية الجديدة، درس في مدرسة القرية وسنتين من التربية الدينية في الأزهر بالقاهرة ثم انضم إلى الجيش في الرابعة عشرة من عمره. تدرج في سلم الرتب سريعاً حتى وصل إلى السقف الزجاجي عند رتبة عقيد في فرقة النقل، وعندما عاد هذا الشاب الطموح من حملة الحبشة "الكارثية" وجد منطقة الدلتا الغارقة في الجوع في حالة "مفزعة من الاضطهاد". رجع إلى الأزهر والتقى بحلقة الأفغاني وكان يتلقى تعاليمه من محمد عبده وكيل الأفغاني ثم انضم إلى جمعية "محبي المعرفة" التي نظمها يعقوب صنوع. وفي هذا يقول: "بعدئذ أخذت أفكر كثيراً بالسياسة "[(43)].

كان من شأن تفسير إسماعيل الاستبدادي لإرثه الفرنسي أن أعاد خلق الظروف التي أفضت إلى الثورة الفرنسية. نظام قمعي من الأرستقراطيين المتحالفين مع رجال الدين والإقطاعيين الفاسدين يعملون معاً على قمع وممارسة الطغيان على الفلاحين الجياع. أما المثقفون من أبناء المدينة فقد ألهمتهم مثل عصر التنوير وتظاهروا في الشوارع يطالبون بحكومة تمثل الشعب وتخضع للمساءلة، والعنصر الوحيد الذي لم يكن موجوداً هو الرجل العسكري القوي الذي يقود هذا التحرك. واعتقد الثوار الذين خرجوا من المقهى أنهم وجدوا في أحمد عرابي ذلك القائد الشبيه بنابليون. ولكن عندما دخل ضباط الجيش في السياسة لم يتحالفوا أصلاً مع المعارضة الراديكالية بل تحالفوا مع إسماعيل. وحين بدأت تظهر بوادر الغليان في جميع مستويات المجتمع المصري المفكك وحين لم يكن ثمة أي خيار آخر انتقل إسماعيل إلى مأوى الأوغاد وتظاهر بأنه الرجل الوطني.

يقول غوردون فيما كتبه عن تلك الفترة: "يعجبني الخديوي كثيراً، فهو الصنف المثالي لشعبه منسجم تماماً مع مبادئهم ـ فهو نمر رائع! انظر كم من

الأقفاص خرج منها وتابع سيره حين كان يبدو أنه يستحيل عليه ذلك"[44].

أبعد المفوضون إسماعيل عن الاجتماع بوزرائه وجعلوه مجرد ضيف زائر في حكومته، بيد أن إسماعيل أراد تخليص الوزارات من الأوروبيين ويستعيد السيطرة على مصر فحاول أن يجعل القومية المصرية إلى جانبه ولمصلحته. وحيث إن الأفغاني ومحمد عبده والصحافيين الراديكاليين قد اختاروا أن يؤيدوا حلمي عم إسماعيل فقد وفر الخديوي على نفسه مذلة تلبية مطالبهم، واختار أن يعمل على إقناع حلفائه التقليديين وأدواته - أي الأرستقراطية التركية والجيش - بالعودة إلى معسكره. نفض الغبار عن مجلس الأعيان وأعاد إحياءه ووعد شريف باشا بإحدى الوزارات وهو زعيم الفئة المعتدلة من الأرستقراطيين ووعد أحمد عرابي وزمرته من العقداء في الجيش سراً بإلغاء التخفيضات الجارية في صفوفهم وبدفع رواتبهم كاملة. بعد ذلك نظم حركة شغب في القاهرة.

وعلى مدى ثلاثة أيام في شهر شباط/فبراير 1879 توافد إلى القاهرة المئات من الضباط المصريين المسرحين من الجيش والذين أضناهم الجوع يطالبون برواتبهم المستحقة. ولم يكن لدى حكومة نوبار باشا المال لتلبية مطالبهم، فقد دفع المبلغ الذي اقترضه من روتشيلد البالغ 8.5 ملايين جنيه إلى الأوروبيين. وفي الثامن عشر من شباط/فبراير قام 400 من الضباط بمظاهرة بدت عفوية في ظاهرها أمام وزارة المالية يطالبون برواتبهم ويلوحون بالسيوف والمسدسات في أيديهم. في هذه المعمعة التقت عربة نوبار باشا وريفرز ولسون وهما في طريقهما إلى اجتماع في الوزارة. عندما رأى ولسون أولئك الضباط المسلمين يمسكون بزمام عربة نوبار باشا فر من عربته وهرع لمساعدة نوبار وهمّ بضرب المتظاهرين بعصاه. لكن الضباط أشبعوه ضرباً وركلاً وشدوه من لحيته. وألقوا بنوبار إلى الأرض، مزّقوا ربطة عنقه وأفسدوا طربوشه ثم جروا حكام مصر هؤلاء إلى الطابق الثاني من مكتب نوبار وهم يهتفون قائلين: "الموت للمسيحيين الكلاب!"[45]

وفي الوقت الذي كان فيه الضباط يجبرون نوبار وولسون على الاستماع

إلى مطالبهم بخصوص جوع أطفالهم، كان القنصل البريطاني قد وصل إلى قصر عابدين ليقول للخديوي إن الثورة قد بدأت. لم يبد على الخديوي أي انزعاج ومع أن قصر عابدين يبعد نحو خمس دقائق عن وزارة المالية إلا أن ساعتين قد انقضتا قبل أن يصل الخديوي لنجدة وزيره. وحيث إنه كان واثقاً من ولاء الضباط فقد ذهب وحيداً إلى الوزارة وما أن ترجل من عربته ودخل حتى أدى له الضباط التحية وهتفوا باسمه. ثم وقف على شرفة الطابق الأول من الوزارة وخاطب الضباط باللغة التركية قائلاً: "إن كنتم ضباطي فأنتم ملزمون بقسمكم بأن تطيعوني. إن رفضتم فسوف آمر بالقضاء عليكم"[(46)].

وهكذا تفرق المتظاهرون. واستقال نوبار باشا. وانقلب ريفرز ولسون ودو بلينيير على من سببت سياساته ذلك الشغب. أما القنصل البريطاني الذي أعجب بمسرحية إسماعيل السياسية فقد بعث تقريره إلى لندن الذي ذكر فيه "الخديوي وحده هو القادر على حفظ النظام"[(47)].

طرد إسماعيل المفوضين

استدعى إسماعيل القناصل الأجانب إلى قصره معيداً بذلك تمثيل المشهد الذي ابتدأ به حكمه. وأعلن أمامهم عن عزمه القيام بعملية شاملة لإعادة تشكيل الدولة، وأبرز لهم ثلاثة كتب. كان الأول منها كتاباً صادراً عن مجلس الأعيان يعربون فيه عن شكرهم العميق للدعوة إلى انعقاد المجلس بعد غياب ثلاثة أعوام، وقد شجبوا فيه السيطرة الأنغلو فرنسية على أموال مصر. وكان الثاني كتاباً يحمل تواقيع عدد كبير من الأعيان ومن رجال الدين الراديكاليين يطالبون فيه بحكومة دستورية. أما الكتاب الثالث فيتضمن اقتراحاً بخطة مالية. كانت هذه الخطة تبالغ بتقدير دخل مصر وتقلل من التزامات الديون المصرية وتحذف أي ذكر لوجود قيود على مصاريف إسماعيل الشخصية.

وخاطب إسماعيل هؤلاء القناصل بأسلوب جاد وبلهجة ملؤها الثقة بالنفس قائلاً: "لقد تخلت عائلتي عن قسم كبير من أملاكها العقارية لتساعد الدولة.

ونحن ما زلنا على استعداد للمزيد من التضحيات. إن مجوهرات سيدات عائلة الخديوي بتصرف دائني مصر. إن كل شبر من أرض نملكها وكل جوهرة نقتنيها رهن إشارة وطلب حملة السندات، ونرفض أن نعترف بأن مصر مفلسة "[48].

لقد قام إسماعيل بانقلاب ضد نفسه. وثب النمر المهيب من قفصه وثبة خفيفة قذف بها الأوروبيين خارجاً. اختار من بين ما في خزانته من ثياب ذلك الزي الذي يرتديه في نزهاته الرياضية فارتداه وهو الأقل ملاءمة للمناسبة. لكنه تصرف ضمن حقوقه الدستورية، إن لم يكن ذلك ضمن حدود إمكاناته المالية. فقد دلت هذه السابقة على أنه طالما أن مصر تفي بديونها فهو القادر على استغلال التنافس بين القوى العظمى ويجتنب الفعل المشترك الجاد منهما.

لكن الشيء الذي لم يقدره إسماعيل حق قدره هو احتمال قيام أحد الدائنين بعمل أحادي الجانب. ففي نظر حكومة دزرائيلي لم يعد اقتصاد مصر الداخلي وسياستها محط الاهتمام الوحيد لتجار القطن وحيتان القروض. فهذان الأمران جزء من مفهوم الأمن العالمي الذي يحدد استناداً إلى الهند البريطانية بأن استقرار الإمبراطورية العثمانية وقناة السويس هما من المصالح البريطانية الهامة. إذن وضعت بريطانيا إسماعيل في موضع المسؤولية. ومن خلال نظرة سريعة على الميزانية العمومية لمصر تبين لها أن إسماعيل سوف يعجز سريعاً عن الوفاء بديونه إن لم يكن ثمة مزيد من القروض أو دون العودة لإجراءات التقشف. واتضح لها أن طرده للوزراء الأجانب وانتقاله إلى الحكم الدستوري لم يكن إلا ستاراً من الدخان يخفي هروبه من الديون الخارجية. ولن تسمح بريطانيا بذلك.

إزاء هذا الوضع وجه اللورد سالزبوري من وزارة الخارجية إنذاراً إلى إسماعيل قائلاً: "إن ذلك مخالفة خطيرة ويبدو أنها مقصودة للاحترام الدولي للقوى الصديقة". إن تجاهل إسماعيل ديونه واستبعاد بريطانيا وفرنسا من الإشراف المباشر على الاقتصاد المصري سوف يدفع هاتين القوتين لاستخدام "حريتهما الكاملة في التقدير والتصرف" لإجبار مصر على الالتزام[49].

وفي الوقت ذاته قام ريفرز ولسون بقطع الخط الأخير للائتمان الممنوح لإسماعيل. فقد ذهب سريعاً إلى برلين ليلتقي روتشيلد ويوجه اتهاماته لإسماعيل. وعندما تحدث روتشيلد عن مخاوفه مع الممول الألماني بلايشرودر Bleich roeder تدخل أوتو فون بسمارك Otto von Bismarck بالنيابة عن المستثمرين الألمان. لقد عمل ولسون عن غير قصد على تدويل هذه الأزمة. عرض السلطان عبد الحميد الثاني وبدعم من بسمارك أن يكون حلمي، عم إسماعيل، الخديوي البديل. ورفضت بريطانيا وفرنسا دعوة تركيا وألمانيا إلى مصر ورفضتا حلمي. وعوضاً عنه اتفقتا على أن يكون الخديوي البديل توفيق ابن إسماعيل الجبان ضيق الأفق. وأرسل اللورد سالزبوري إلى إسماعيل إشعاراً ينذره فيه "بالتنحي رسمياً عن العرش ومغادرة مصر"[(50)].

وهكذا توافد القناصلة الأجانب واحداً إثر آخر إلى تلك القاعة الوردية المخصصة للاستقبال. توافد ممثلو بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر وإيطاليا وأميركا. وجميعهم توسلوا إليه ينصحونه بتفادي المذلة العامة والتي قد تهدد استقلال مصر إلى الأبد. وعرض قنصلا بريطانيا وفرنسا تعويضاً له لا بأس به وأكدا له أن ديونه سوف تنتقل إلى ابنه توفيق مع انتقال منصب الخديوي له.

ظن إسماعيل أن ذلك كله هو أزمة مالية جديدة. وكالعادة أرسل رشوة إلى القسطنطينية وانتظر نتائجها. وفي الوقت نفسه حاول إدخال السرور إلى قلب مناصريه بإعلانه عن توسيع الجيش ليصبح عديده 150,000 رجل، وإطلاق مشروع زراعي ينم عن جنون عظمة يهدف إلى إغراق الريف حول الإسكندرية بمياه الفيضان. وكان يعتقد أن ديونه البالغة 93 مليون جنيه وفي تصاعد مستمر تجعله شخصاً لا يمكن للدائنين الاستغناء عنه. لكنه لم يفهم تلك الطبيعة الخاصة بالشركات والتي تطبع بطابعها الدولة العصرية. ومع أنه هو الذي وقع على تلك القروض إلا أنها قد أصدرت بضمانة مصر. ومثلما يفعل حملة الأسهم الذين يضحون برئيسهم في سبيل مصلحة سعر السهم أرادت بريطانيا وفرنسا التخلص منه. وحفاظاً على اللياقة القانونية أجبرتا شريكه من الباطن على القيام

بهذا العمل. وفي السادس والعشرين من حزيران/يونيو عام 1879 تلقى إسماعيل رائد الحداثة العظيم والمسرف الكبير برقية من القسطنطينية كان محتواها واضحاً من عنوانها: "إسماعيل باشا، خديوي مصر السابق".

وكان نص البرقية: "لقد ثبت لدينا أن بقاءك في منصبك لن ينجم عنه إلا تفاقم المصاعب الحالية وتزايدها. إن صاحب الجلالة السلطان المعظَّم قد قرر عملاً بقرار مجلس الوزراء تعيين محمد توفيق باشا الخديوي على مصر"(51).

وفي الوقت عينه فتح توفيق مغلفاً وجد فيه أنه قد ارتقى إلى منصب رفيع. تلقى إسماعيل هذه الأخبار بلباقته المعهودة. واحتوى غضبه واستدعى ولده توفيق الذي غدر به واعترف بأنه الخديوي الجديد. وعند السادسة والنصف من مساء ذلك اليوم أطلقت المدفعية تحية له من قلعة القاهرة ومعلنة دعوة الهيئة الدبلوماسية المحلية لحضور حفل تنصيب الخديوي توفيق.

لم يحضر إسماعيل ذلك الحفل. وبقي في جناحه الخاص بقصر عابدين يلملم أغراضه للرحيل إلى المنفى. وبرغم أنه كان قد عرض "مجوهرات سيدات عائلة الخديوي" في سبيل الحرية إلا أنه الآن استرجع كل الجواهر التي وهبها لحريمه مجرداً الحجارة الكريمة من أقفاصها ليجعلها أسهل حملاً. وطوى السجاد المصنوع من الأوبيسون وعبأ في 22 صندوقاً كل الأدوات الفضية لموائد العشاء ونزع الفضيات المعلقة على الجدران واختار المفضلات من سراريه. وبينما قامت السراري اللواتي تخلى عنهن بتحطيم المرايا والأثاث في أقفاصهن المذهبة كان خدم الخديوي ينقلون غنائمه إلى القطار بمحطة القاهرة. استغرقت عملية التحميل أربعة أيام فقد كان هناك الكثير من الغنائم والأمتعة حتى إنهم بحثوا عن قطار ثان من أجل إسماعيل وحاشيته.

وغادر إسماعيل المحطة بعربة على سكة الحديد التي كان قد دشنها ماراً بأقنية الري في الدلتا التي كان قد أمر بإنشائها وعلى جسور كان قد أمر بتشييدها. وعلى ضفاف الإسكندرية المحاذية للبحر وقف إسماعيل يصافح ويتبادل عبارات المجاملة كما لو أنه على وشك الانطلاق برحلة أوروبية قصيرة

للمتعة أو لجمع الأموال في لندن، أو التسوق في باريس، أو لعب القمار في كان. وربما قد يساعده في ذلك مليونان من الجنيهات المقدمة له نقداً من بريطانيا وفرنسا. فقبل عشر سنين خلت كان يخت المحروسة قد تبع باخرة "النسر *The Eagle* " عبر قناة السويس. أما الآن فقد انطلق يخت إسماعيل عبر الحاجز المائي يشق عباب البحر الأبيض المتوسط في جولة أخرى من ترحيب يكون الأكثر صمتاً. فقد اتجه إلى نابولي في رحلة لا رجوع منها.



محمد أحمد، المهدي

الفصل الرابع

المخلّص

1882 - 1881

"لقد سُمح لنا بأن نعيد إحياء الدين بين المسلمين. فقد انتشرت البدع عبر البلاد وأخذ يتبعها رجال الدين والعامة من المسلمين. ولم يبق من الإسلام شيء سوى اسمه، ولا شيء من القرآن سوى لغته العربية".

محمد أحمد، تشرين أول/أكتوبر 1880

كان ثمة دوماً شيء مختلف عند محمد أحمد. تدرب مع أشقائه الثلاثة على أعمال والده في بناء الزوارق لكن قلبه كان معلقاً بجانب آخر من تقاليد الأسرة. فأسرته تنتمي إلى الأشراف؛ أي أولئك الذين يرجعون بنسبهم إلى آل النبي. ومن حوض بناء الزوارق في جزيرة وسط النيل إلى الجنوب من مدينة دنقلة حاول الطفل أن يتتبع تاريخ أسرته عبر ثلاثين جيلاً ليصل إلى انتسابه إلى الإمام علي ابن عم النبي وصهره. وكانت أضرحة أجداد الطفل محمد تمتد عبر الصحراء ما وراء دنقلة، وهي سلالة من المشايخ والعلماء البارعين في الفرق الصوفية التي حملت الإسلام إلى وادي النيل. والجدير ذكره أن قصة طفولته لا تخلو من الأساطير، التي تقول إن الطفل محمد تكلم وهو لم يتعد الأسبوع الثاني من ولادته. وأن فتاة عذراء حملته إلى بيته أفرزت حليباً من صدرها تلقائياً. وذات مرة حين داس بقدمه على شوكة جاء طير من السماء واقتلعها[1].

غير أن علامات الفساد كانت تحيط به. جباة الضرائب المصريون أفرغوا الريف من سكانه. أقنية الري جفت والآبار سُدَّت، حتى أشجار النخيل وهنت وضعفت. وكانت قبة مسجد دنقلة ذات الشكل المخروطي تبدو بيضاء تلمع فوق رمال الصحراء. أما المركز الإقليمي لشمال السودان فقد غدا محطة عسكرية

مصرية. كان حاكم الإقليم، حافظ ابراهيم أفندي شخصاً أحدب الظهر من الأتراك ويتحدث اليونانية، ويقوم على خدمته بعض العبيد يحملون له الشراب والقهوة والنارجيلة ويحكم الإقليم وهو جالس في أريكته، ويعمل على الإثراء بالغش والخداع والتعذيب والمضاربة بالحبوب. وحيث إنه من المجددين فقد ألغى العقاب التقليدي ـ المتمثل بقطع اليدين والأذنين ـ واستبدله بعقاب الفلقة والضرب بالعصا والجلد على أخمص القدمين. وكان رعاياه يسكنون في أكواخ حقيرة من الطين المكسو بمادة دبقة متداعية وآيلة للسقوط[2]. كانت مدينة دنقلة المحطة قبل الأخيرة على طريق الأربعين يوماً الذي يشكل آخر محطة قبل وادي حلفا والحدود المصرية. وكان العرب البربر من أمثال محمد أحمد يجمعون قوت يومهم من التراب الجاف ومن قوافل العبيد التي تمر بأراضيهم. أما في الشمال من المعسكر المصري فقد كان ثمة أطلال مدينة مسيحية من بقايا العصور الوسيطة تهزأ بهذا الحاضر التعيس.

وحين كان الناس جميعاً يعانون أشد المعاناة كان والد محمد أحمد يجني الأرباح من الاحتلال، سيما وأن الأتراك بسبب تحركهم جنوباً من أجل الحصول على العبيد وعلى العاج يتزايد طلبهم على القوارب وصانعي القوارب. حين بلغ محمد الخامسة من عمره كان والده قد وقع عقداً مع حكومة الخرطوم. فحزمت العائلة أغراضها وأمتعتها وأدواتها وأبحرت عبر النيل إلى كرري Kariri القرية الصغيرة المحاذية للنهر إلى الشمال قليلاً من الخرطوم وتحيط بها أشجار الأكاسيا على الرغم من كون والدة محمد في الشهر الأخير من حملها. توفي والده على الطريق قبل وصولهم إلى القرية. فتولى أشقاؤه العمل بعد والدهم، وحين أنجبت الأم أسمت وليدها باسم أبيه.

لكن محمد أحمد اختار أن يخلو بنفسه غارقاً في حزنه العميق، يصلي على الدوام، فكانت الصلاة عزاءه الوحيد، مثل سحابة تظلله من الشمس الحارقة[3].

لاحظ أشقاؤه ذهنه المتقد وعاداته الروحية. فالعلم والانصراف إليه شرف له أكبر من العمل في التجارة. واستخدموا بعض المال الذي يجنونه من الأتراك

ليمولوا تعليمه وإقامته في المدرسة الداخلية بالخرطوم. كان يستيقظ قبل طلوع الفجر ويتلو من الذاكرة الجزء الذي حفظه من القرآن الكريم في اليوم السابق ويحفظ الجزء الذي بعده. وكانت دروسه تتواصل بلا انقطاع طوال النهار. وأما باقي الأطفال في المدرسة فكانوا يتوقفون عن الدروس من أجل الصلاة فقط ويصلون خمس مرات في اليوم، يركعون ويسجدون إلى جانب الألواح المخصصة للكتابة. إن أخطؤوا فعقابهم الضرب. وفي المساء كانوا يتسولون في أزقة الخرطوم يستجدون طعاماً أو يجمعون الحطب من الحقول أو بساتين الحمضيات. عندما بلغ محمد الحادية عشرة كان واحداً من حفظة القرآن كله عن ظهر قلب. ولما بلغ السابعة عشرة أتقن العلوم الإسلامية كلها: أصول الدين وتفسير القرآن والشريعة الإسلامية والحديث النبوي.

غادر هذا العالم الشاب مدرسته ليجد الخرطوم معيناً لا ينضب من الفساد الديني والإدمان على شرب الخمور والإباحية الجنسية. كان في الخرطوم في ذلك الحين مبنيان اثنان فقط لهما نوافذ زجاجية هما قصر الحاكم وقصر حريمه. وأما تجارة العبيد والعاج فقد كانت تجذب المجرمين والمبشرين المسيحيين والطبقة الدنيا الكادحة من البربر الجياع. وأما الإسلام الرسمي فقد كان متعاوناً مع الأتراك يؤيد كل نزوة من نزوات الحاكم. حتى الإخوان الصوفيون كانوا يتلقون الرواتب من الأتراك. وكما استولى الأتراك على تجارة العبيد فقد اجتاحوا أيضاً الإسلام في السودان يدنسون حرماته ويجعلونه سلعة بأيديهم.

لكن محمد أحمد نأى بنفسه عن هذا الفساد الأخلاقي. ترك أشقاءه وشأنهم ينجزون أعمال عقودهم مع المتعاونين مع الحكومة. والتجأ إلى ذلك التقليد المحلي الأصيل الذي حل محله الفساد التركي ألا وهو الطوائف الصوفية. نشأت فكرة الصوفية في القرن الثالث عشر على أيدي الأقلية الشيعية لتكون ملاذاً لهم من التقييد المفرط والتسييس اللذين اتسمت بهما الغالبية من السنّة. فكان التصوف جزءاً مكملاً في عملية نشر الإسلام في إفريقيا والهند. والإسلام في السودان رغم كونه من السنّة فقد اشتمل على آثار للصوفية مثل: بأنه إيمان بتوجيه من رجال أتقياء أطهار ورجال متنسكين يصنعون المعجزات واعتقاد

باطني بوجود تدخل مباشر من الله. غير أن قسماً كبيراً من هذه الباطنية في تلك العقيدة مستمد من الاتصال مع الأديان الأخرى، فإذا كان المبشرون الذين جاؤوا بدياناتهم عبر نهر النيل في القرن الخامس عشر يشبهون الرهبان المسيحيين الذين عاشوا على الصدقات في العصور الوسيطة فإن تأكيد هؤلاء المتصوفين على الباطنية وعلى الفقر وعلى التنسك يحمل في طياته شيئاً من أثر أولئك الرهبان. كان الإخوان الصوفية ينظمون أنفسهم وفق المراتب الرهبانية. فالمبتدئ يتتلمذ عند شيخ والشيخ يستمد سلطته من المعلّم الذي علمه وهكذا رجوعاً إلى مؤسس الطائفة. وعلى هذا النحو يخلطون الإسلام التقليدي بتعاليم ووصايا مؤسس الطائفة الطاهر الورع. وقد جمعت كل طائفة أدعيتها والآيات التي تستشهد بها في مجموعة فريدة تدعى "الراتب" (Ratib).

ذهب محمد أحمد جنوباً يبحر عبر النيل نحو ذاك الفراغ السياسي ما وراء الخرطوم. وعلى بعد نحو مئة ميل تقع قاعدة على نهر النيل تعرف بأنها قاعدة طائفة السمانية Sammaniya، وهي طائفة متنسكة متقشفة حتى بمعايير الحياة السودانية. وارتدى محمد "الجبة" بعد أن أقسم يمين الولاء لشيخ هذه الطائفة محمد نور الدائم، معلناً انعزاله عن العالم. والجبة رداء من الصوف الخشن كثير الرقع. وعاش سبع سنين يعاني الجوع طوعاً ويحاول إثبات تواضعه من خلال العمل في طحن الحبوب وجمع الحطب.

وتأسياً بالنبي محمد كان يقوم الليل ويقرأ القرآن وحيداً. تعلم الذكر الذي تردده طائفة السمانية، وهو ترديد له إيقاع لبعض الآيات القرآنية وأسماء الله التسعة والتسعين. ومثل دراويش المولوية الذين يدورون بحركة دوامية والذين عملوا على نشر الصوفية في العالم أجمع أجهد نفسه في ممارسة نشوة الوجد الصوفي فكان يجرب ضبط التنفس والحركات البدنية وترديد الذكر. أعجب به الشيخ محمد نور الدائم، معرباً عن شدة إعجابه بقوله: "ما أكثر ما يصوم! وما أكثر ما يصلي! وما أكثر ما يردد من ذكر كلام الله والدموع تسيل على وجهه! ما أطول صلاته في الليل وحتى وقت الضحى!"[4].

كانت ردود فعل المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي كافة إزاء دخول

الأفكار والتكنولوجيا الغربية تتمثل في الدعوة لإحياء الروح الدينية في النفوس من خلال التطهر والعودة إلى الدين. ففي السودان كانت تلتقي ثلاث طرق قديمة للتجارة، وكان كل واحد منها يحمل رسالة إحيائية إلى مجتمع زعزعت الحداثة استقراره. الفكر الوهابي جاء من جدة عبر موانئ البحر الأحمر. والفكر السنوسي الذي يدعو للعودة للصحراء جاء من ليبيا عبر الصحاري الشمالية. والحركات النضالية لفكر سوكوتو Sokoto المستوحى من الدولة التي تطبق الشريعة الإسلامية في غرب إفريقيا جاء عبر الحزام من الأراضي القاحلة جنوب الصحراء الكبرى. امتزجت هذه التيارات ببعضها في السودان لتنتج اضطراباً ثورياً. ثم اتسعت دوائر هذا الاضطراب بمساعدة البنية التحتية الاستعمارية من مصر لتمتد عبر المسافات الهائلة مجتازة الخطوط القبلية. ولم يمض وقت طويل حتى أعلن محمد أحمد رفضه تناول طعام السمانية إذا كان بتمويل من معونة الخديوي.

لما بلغ محمد أحمد الثامنة والعشرين تخرج من جماعة الشيخ نور الدائم حاملاً إجازة تتيح له تعليم خبرته ومهارته. وهو لا يستطيع فعل أي شيء آخر، سيما وأنه لا خبرة له بالعمل. وكان شديد الحماس حتى إنه لم يجد وسيلة لكسب عيشه. لم يفلح في عمله تاجر قمح لأنه لا يريد أن يكسب ربحاً من جوع الآخرين. وفشل في عمله بائع فحم عندما اكتشف أن زبائنه يستخدمون هذا الفحم في صنع البيرة من عصائر الذرة السكرية. وأبى أن يأخذ معاشاً من الحكومة كان غيره من الصوفيين الأذكياء الأقل تشككاً يأخذونها. ورفض الدراسة في جامعة الأزهر حيث يذهب الكثيرون من علماء السودان ذلك أن الأزهر يتعاون مع الحكومة المصرية. شعر أنه مدفوع نحو حافة التطرف. في عام 1869، أي في تلك السنة التي احتفى فيها إسماعيل بتدشين قناة السويس فأقام العروض والحفلات، تحرك محمد أحمد مرة أخرى عكس التيار. وتأسياً بالنبي محمد (ﷺ) الذي اعتاد الذهاب إلى كهف قرب مكة، توجه محمد أحمد نحو كهف قريب من حافة النهر في جزيرة تقع إلى الجنوب من الخرطوم، حيث كان يصوم ويصلي ويتأمّل.

"هذه هي ساعة الحاجة التي خلقت أنت من أجلها"[5]. كانت البقعة التي

اختارها لتأملاته تقع في عمق أراضي طائفة السمانية وفي مركز الوسط من الفوضى الناجمة عن القمع المصري لتجارة الرقيق. تبعد جزيرة أبا Aba نحو 100 ميل إلى الجنوب من الخرطوم على الحدود الفاصلة بين كُردفان وسنّار، الإقليمين اللذين تتركز الأعمال الرئيسية فيهما على تجارة الرقيق. وقد فرض عسكر التركية سياستين فيهما لم تكن أي منهما مقبولة من العامة وهما نهب أرباح التجارة أو قمع هذه التجارة بعنف شديد. وفي أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر كان من شأن الميثاق الأنغلو مصري وحرب غوردون على هذه التجارة أن أشارا إلى مستقبل واعد. كانت الحكومة تخالف الشرع الإسلامي وتعترض زوارق تجار الرقيق على النيل وتنفذ أحكام الإعدام بالتجار وتطلق سراح العبيد. وكان المجتمع التقليدي ينهار أمام ناظري محمد أحمد.

كانت جزيرة أبا كثيرة الغابات ولذلك فهي الموقع الممتاز لتجارة الرقيق. في تلك الأثناء نقل أشقاء محمد ساحة صنع الزوارق إلى هذه الجزيرة ليكونوا قريبين منه وسرعان ما تبعهم منفيون آخرون من دنقلة. ونشأت مستوطنة على هذه الجزيرة بتمويل من صنع القوارب، إنما كانت الأبنية تحيط بالكهف الذي أوى إليه الرجل التقي الورع القادر على اجتراح المعجزات. فقد بات محمد أحمد واسع الشهرة بما يقدمه من تعويذات تقي من الشرور ولورعه وحضوره الروحاني. كان أبناء المنطقة يدعونه "الزاهد". وكان يقدم لزواره الحليب الحلو والابتسامات الجميلة والسعادة والدموع على عالم متهدم منحل الأخلاق. وفي عام 1878 اتجه للعمل السياسي. وقد كان من شأن خبرته في الطوائف الصوفية أن أتاحت له التدرب على الأمور السياسية للتشرذم القبلي بالسودان. وهكذا تبين أنه سياسي بطبعه وتطبعه يعرف كيف يختار التحالفات، مفضلاً الحوار والتفاوض مع منافسيه بديلاً عن الخوض في الصراعات. وتزوج زواجاً استراتيجياً. ففي جزيرة أبا اتخذ لنفسه زوجتين واحدة من قبائل الدينكا Dinka المحلية والثانية من إحدى القبائل الدنقلاوية المنفية في معسكره. وبعد أن وجد نفسه آمناً مطمئناً في جزيرة أبا التفت إلى قاعدة قوته في طائفة إخوان السمانية وحاول الإطاحة بمعلمه الأول الشيخ نور الدائم.

عند حضوره مراسم طهور ابن الشيخ وقف محمد أحمد يستنكر ويشجب الموسيقى والرقص وإتخام البطون بالطعام والشراب. لكن موقفه هذا ارتد عليه. فقد أصدر الشيخ بحقه قرار حرمان وأبعده عن قاعدته المحتملة في الطائفة. ونتيجة ذلك حمل محمد أحمد نير العبيد ونثر الرماد على رأسه ونظم القصائد الدينية الدفاعية. لكن نور الدائم الذي شعر بخطر شهرة ربيبه المتصاعدة لم يمنحه العفو.

وعندما جثا التلميذ أمام معلمه الشيخ صرخ المعلم قائلاً: "إياك عني أيها الدنقلاوي التعيس الذي لا يخاف الله ويعارض معلمه وأستاذه. أنت تأكيد لصحة القول القائل 'إن الدنقلاوي شيطان في جلد إنسان'. وبكلماتك تحاول بث الفرقة والخلاف بين الناس" [6].

أزاح محمد أحمد النير عن عنقه وتوقف عن كتابة الأشعار الدفاعية. وحول ولاءه إلى جهة أكبر خصوم نور الدائم وهو الشيخ القرشي زعيم الطائفة السمانية في النيل الأزرق. وتزوج ابنة الشيخ البالغ من العمر ستة وثمانين عاماً، وحين توفي هذا الشيخ في صيف عام 1878 ورث محمد أحمد سلطانه ونفوذه. فكانت منزلته الرفيعة هذه في الطائفة السمانية حجر الأساس لتحالف القبائل.

خرج محمد أحمد من كهفه وبدأ حملته لكسب الأنصار. ومرة أخرى ابتعد قليلاً عن التقاليد. وعوضاً عن الذهاب لأداء فريضة الحج في مكة، قام بحج آخر إلى شعبه، زار فيه القبائل الغاضبة والمهملة للمبادئ. وكان يستخدم زوارق أشقائه ليقطع المسافات الشاسعة في السودان جنوباً إلى سنار وشمالاً إلى دنقلة وغرباً إلى كردفان وبحر الغزال وفي كثير من الأحيان يكون مصطحباً العبيد الذين يجري تهريبهم. ومثل أي مسافر عادي كان ينام في بيوت ومساجد أفراد طائفة السمانية الصوفية، يعظ الناس وينصحهم بالتقى والورع وبالمقاومة والخلاص، فكانت مواعظه تصل إلى آذان المحرومين والبائسين والمتصوفين. وشكّل التحالفات مع زعماء القبائل ومع الصوفيين ومع تجار الرقيق.

بدت كردفان المنطقة الأكثر عرضة أمام التبشير المسيحي، وقد شكّلت حملة غوردون ضد تجار العبيد في الجنوب الغربي مصدر خطر على مستقبل جماعتين متنافستين من المسلمين هما جماعة تجار الجعليين Jaalayin الجوالين وبدو البقارة العرب. ففي أوائل عام 1880 وحين كان السودان يتأرجح بلا زعيم عقب استقالة غوردون تحرك محمد أحمد باتجاه العاصمة مدينة الأُبَيِّض التي كانت أهم محطة واقعة بين مصادر تجار الرقيق ببحر الغزال وبداية طريق الأربعين يوماً عند مدينة الفاشر.

يقول يوسف ميخائيل، المهتدي على يدي محمد أحمد، فيما كتبه عن تلك الفترة: "سمعنا بعد منتصف الليل ترديداً لذكر جديد في أطراف المدينة. فهو يبدأ الطواف في المدينة مع تلامذته بعد ما ينتصف الليل حتى يطلع الفجر ويحين وقت صلاة الصبح". لقد كان محمد أحمد شخصية جذابة تتمتع بمحبة كل من يعرفونه. عندما يقف إلى الصلاة سرعان ما تغمره نشوة عارمة يفقد فيها وعيه، أو يشرع في موعظة قوية الكلمات تدعو للتخلص من الخطيئة فيقف المؤمنون مشدوهين أمام كلماته. وكان الناس يأتون إليه زرافات ووحداناً يقسمون يمين الولاء لله وللنبي وله، ويعاهدونه على الابتعاد عن الخطيئة والمسرات المادية والسعي للحياة الأبدية من خلال الإيمان والجهاد. ويتابع يوسف ميخائيل حديثه عن تلك الأيام العظيمة قائلاً: "لقد كان يروي تربة عطشى، إذا صح القول". وما أن حل عام 1880 حتى بلغ عدد أنصار محمد أحمد عشرين ألفاً، فكانوا أكثر عدداً وأكثر التزاماً من الجيش المصري كله المتواجد في السودان[7].

وهكذا أمست جزيرة أبا مركز فرقة دينية جديدة. وانضمت إليه الفئة الثالثة والصغرى من طائفة السمانية، ومنها اتخذ محمد أحمد زوجته الرابعة حيث تزوج ابنة زعيم الطائفة. وتوافدت إليه الوفود من عرب البقارة القادمة من كردفان لتقسم يمين الولاء له ولتضع سلاحها بتصرفه. وبمساعدة خدمة البريد المصري انطلق فيض من الرسائل إلى خارج جزيرة أبا تنشر أقواله وكلماته وتوجه تحالفه. وعندما تتوقف البواخر الحكومية من أجل تحميل الأخشاب كان ربان السفينة وبحارتها وركابها يصعدون إلى سطح السفينة ويدعون متجهين

نحو كهفه. وأما سعداء الحظ فكانوا ممن تتاح لهم فرصة النزول إلى البر ليأخذوا كوباً من الحليب الحلو ولينعموا ببركات من الشيخ المقيم في الكهف. وفي أواخر عام 1880 كان على أهبة الاستعداد. فقد اجتمعت عبارات الصوم والصلاة وقيام الليل والتأمل وكبح الشهوات معاً لتعبئة الناس وحشدهم جميعاً للتعبير عن سخطهم واستيائهم. لقد كان هؤلاء المبتدئون بأسلوبهم الصوفي جاهزين للتخلق وتلقن السر العظيم.

يقول محمد أحمد في جلسة مع تلامذته وأتباعه: "الأنوار والبشائر الحسنة والأسرار والتعليمات النبوية والوحي الإلهي، هذه جميعاً ظهرت لي مرات ومرات. وقد كتبت إليكم سابقاً قبل أن أتلقى الأمر العلوي وهذا ما حدث الآن. سعداء هم من استجابوا سريعاً لنا وانضموا إلينا ومعهم عائلاتهم وأبناؤهم وكل ما يملكون. وأولئك الذين لم يستجيبوا فهم المنبوذون الذين يتولى أمرهم الله والنبي.

إن هذه المسألة سر، وهو سر لا يراد له أن يكشف، ويجب أن يبقى طي الكتمان أمام أعينكم فقط وإلى أن يكشفه الله"[8].

لم يكن الخديوي إسماعيل يحب ابنه البكر. فقد كان توفيق بوجهه الدال على الغرور وشاربه الصغير طفلاً مدللاً. كان صدفة عابرة لزيارة إسماعيل المفاجئة إلى حريمه. لا يتحدث لغة أوروبية واحدة، ولم يتلق إلا القليل جداً من التعليم. وعندما يلتقيان معاً في إحدى حفلات إسماعيل الرسمية يقفان جنباً إلى جنب يلفهما الصمت والارتباك. يبدو أن في نية إسماعيل أن يحكم إلى أبد الآبدين.

لكن كان توفيق مسلماً تقياً، وإدارياً مقتصداً وزوجاً محباً لزوجته ومطيعاً لها. ورث كارثة عندما ولي الحكم في مصر الحديثة، لكنه لم يفعل شيئاً في سبيل تحسين الوضع. فقد كان خوفه من التغيير الصفة الغالبة على حسناته وسيئاته على السواء. وكان يشعر بالعزلة وقلة الحيلة غير واثق بأنه إن ذهب لفراشه ليلاً سوف يستيقظ ليجد أنه لا يزال الخديوي. وفي طريقه للأعلى قدم

الوعود بكل شيء ولكل واحد. ضباط الجيش المحليون كانوا ينتظرون الترقية. شريف باشا والإصلاحيون من النبلاء يريدون الدستور. الأفغاني والثوريون من جمعية مصر الفتاة يريدون ما هو أكثر. لكنْ لم يقدم توفيق شيئاً ولم يفِ بشيء من وعوده. فقد نصّبه "الثنائي المسيطر" البريطاني الفرنسي حاكماً لمصر على غير رضاً من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، فبقي في ظل راعييه الأوروبيين.

كان الثنائي المسيطر يريد الاستقرار وتسديد الديون. ولكي يرضى هذا الثنائي تجاهل توفيق مجلس الأعيان ورفض وضع الدستور والتجأ إلى ذاك الدعم الضئيل والقوي بآن معاً من طبقة الأرستقراطيين الأتراك. ولكي يتولى أمر الشعب تمسك بالتصرف الاستبدادي من مستشار والده إسماعيل، مصطفى رياض باشا الذي قمع أي معارضة وأي نقد للأوروبيين. عاد رياض باشا إلى الأعداد القديمة من الصحف والمجلات وراجعها ونقبها جيداً بحثاً عن عبارات تدين أصحابها، فأغلق مجلة "مصر الفتاة" وسجن محرريها الذين اعترضوا على الإغلاق. ونفى إلى خارج مصر معظم أفراد حلقة الأفغاني. ولم يكن جواز السفر الأجنبي حامياً لحامله. عندما قام الصحفي الفرنسي جول باربيير Jules Barbier بمهاجمة إغلاق "مصر الفتاة" في صحيفة "الإصلاح *Reform*" أغلقت الصحيفة. وحاول الماسونيون اجتناب أعمال التطهير هذه فعمدوا إلى طمأنة توفيق بأن أفكارهم لا تشتمل على السياسة. ولكي يثبتوا إخلاصهم له طردوا الأفغاني من محفل "نجمة الشرق".

لكن الأفغاني غامر بما لديه من أوراق. في إحدى الليالي وبمسجد السلطان حسن في القاهرة ألقى خطاباً رناناً أمام جمهور ضم نحو 400 شخص قال فيه إن الخديوي توفيق ألعوبة بيد المصالح الأجنبية وأن ضم مصر إلى بريطانيا مسألة وقت ليس إلا. وأن الحل الوحيد هو "الثورة من أجل إنقاذ استقلال مصر"[9]. وفي جريدة "مصر" أعلن تحوله نحو الديمقراطية الجمهورية. وهكذا وضع اسمه واسم صديقه الحميم محمد عبده في رأس لائحة المطلوبين لدى رياض باشا. في أواخر شهر آب/أغسطس عام 1879 أغار البوليس السري على

منزل الأفغاني. وأعلن مدير المطبوعات ـ رئيس دائرة الرقابة الحكومية ـ عن اكتشاف وثائق تثبت أن الأفغاني قد أنشأ جمعية سرية من "صغار العملاء" بهدف "تدمير الدين والحكم"[10]. وفي الوقت نفسه زعم حلفاء الأفغاني سابقاً داخل المحافل الماسونية أنه قد أنكر علناً وجود الأعلى. وهكذا تحركت الشرطة سريعاً وعملت على نقل "حكيم الشرق" إلى السويس وهناك وضعوه على متن باخرة حملته إلى جدة.

وهكذا فصل رياض باشا بين المعلم والتلميذ، وحكم على محمد عبده بالنفي الداخلي حيث أرسله إلى القرية التي ولد فيها. حاول محمد عبده الهروب إلى الإسكندرية. لكن أمره اكتشف. وبقي هذا العالم الواعد يتنقل شريداً في أنحاء الدلتا مختبئاً من البوليس السري. وعندما سمح له رياض باشا أخيراً بالعودة إلى القاهرة كان قد أتم تحييد إرث الأفغاني الخطر فعين محمد عبده رئيساً لتحرير جريدة "الوقائع المصرية" الحكومية، وقام هذا الأخير بتوظيف من تبقى من أصدقائه الصحفيين، فالجميع قد أدبهم رياض باشا من خلال إجراءاته الصارمة. وبدا أن الثورة قد ألغيت.

بعد أعمال قمع المثقفين والمفكرين انقسمت المعارضة إلى جماعتين. جماعة الأرستقراطيين الإصلاحيين الأتراك بقيادة شريف باشا وجماعة كبار ضباط الجيش المحليين. وقد خدم الأرستقراطيون في حكومة إسماعيل القومية لكن رياض باشا الآن همشهم لصالح تعاونه الوثيق مع بريطانيا وفرنسا. وقد ردوا على ذلك في تشرين الثاني/نوفمبر 1879 ببرنامج إصلاحي يقضي بـ: استبعاد الأوروبيين من الحكومة، وتأميم أملاك إسماعيل الخاصة - وكانت في ذلك الحين مرهونة لصالح البنوك الأوروبية ـ وتخفيض جدولة تسديد ديون مصر. واجتناباً لغضب رياض باشا ابتعدوا عن القاهرة وأقاموا في قرية ومنتجع حلوان. وبرغم زعمهم بأنهم ينطقون باسم الحزب الوطني إلا أن برنامجهم كان باللغة الفرنسية، وليس العربية، وكانوا جماعة من النخبة تتحدث إلى جماعة أخرى. غير أن مخبأهم هذا وفر لهم اسماً جديداً أكثر ملاءمة لمصالحهم الضيقة فاتخذوا اسم "جمعية حلوان". ولم يهتم رياض باشا بهم. فقد أسكت

الصحفيين وطرد الأفغاني إلى خارج البلاد وأضعف قوة محمد عبده، ولذلك لن يكدر صفو دولته البوليسية القائمة على كبت الحريات حفنة من الأرستقراطيين. لكن حساباته هذه كانت خاطئة. فقد عملت جمعية حلوان من خلال معاون وزير الحرب محمود سامي البارودي على الاتصال بضباط الجيش الوطنيين.

لم يكن أحمد عرابي وأصدقاؤه معتادين على قضاء الوقت الممتع في منتجع ما. فالجيش الذي كان أملهم الوحيد في الارتقاء بالمناصب في مجتمع يحكمه التمييز العرقي آخذ بالتناقص والتراجع أمام أعينهم. في عام 1875 وفي أوج طموحات إسماعيل بالحبشة كان عديده 90,000، ومع اعتلاء توفيق سدة الحكم انخفض إلى النصف حيث بلغ 45,000 فرد. والآن بسبب التحركات الاقتصادية التي يقوم بها رياض باشا تعرض إلى المزيد من التخفيض ليصبح عديده 18,000. إن تسريح جيش بكامله يعني إفساح المجال أمام تشكل الميليشيات. وما هو أسوأ من ذلك أن عثمان رفقي باشا وزير الحرب الجديد الذي عينه توفيق، أقدم على اضطهاد من بقي من الجنود الوطنيين. فاعتبر الفلاحين وقوداً للمدفعية، وأصدر قانوناً جعل بموجبه الخدمة العسكرية تقتصر على أربع سنوات، وبذلك حرمهم فعلياً من أي فرصة للارتقاء بالمناصب. وطرد من الجيش معظم الضباط المصريين، وأعاد فرقة الضباط إلى حظيرة النخبة التركية. وجعل الجنود في الجيش من أبناء الفلاحين يعملون بالسخرة في أطيان توفيق. حتى إن تعييناته في وزارة الحرب كانت تفوح منها رائحة الفساد والمحسوبية. كان رفقي باشا القائد الذي تسبب بإخفاق حلم إسماعيل بالحبشة إخفاقاً تاماً. أما وليم داي William Dye، المرتزق الأميركي الذي خدم تحت إمرته فقد رأى أن انعدام الكفاءة عنده لا تستحق الترقية إطلاقاً، بل هي جديرة بفرقة الإعدام رمياً بالرصاص[11].

خدم أحمد عرابي بالجيش لخمسة عشر عاماً دون أن ينال ترقية واحدة. فتقدم هو وعدد من الضباط المصريين بالتماس إلى الخديوي توفيق يحتجون فيه على التمييز الممارس ضدهم وعلى استخدام جنودهم عمالاً بالسخرة. لكن شكاواهم هذه لم تلق أذناً صاغية. ولم تدفع رواتبهم وتعويضاتهم وعانت أسرهم

من الجوع. وفي مأدبة غداء أقيمت في إحدى الثكنات في أوائل عام 1881 سمع أن رفقي باشا يعتزم التخلص من الضباط العقداء المصريين. ومرة أخرى وبالتعاون مع العقيد علي فهمي في حرس القصر والعقيد عبد العال في الفرقة السودانية رفع عرابي التماساً ثانياً وتوجهوا به إلى رياض باشا.

وأجابهم رياض باشا: "إن التماسكم مسألة تفضي إلى حبل المشنقة. فما الذي تريدونه؟ أن تغيروا الوزارة؟ وما الذي تضعونه مكانها؟" (12).

إذن رأى توفيق ووزراؤه أن هذا الالتماس يشكل تحدياً مباشراً للسلطة التركية. في الأول من شباط/فبراير عام 1881 استدعى عثمان رفقي باشا هؤلاء العقداء إلى وزارة الحرب زاعماً أنه يريد مساعدتهم في التخطيط لعرض عسكري بمناسبة حفل زفاف ابنة توفيق الوشيك.

يقول عرابي في تلك الحادثة: "لكننا كنا على حذر فقد اتخذنا كافة الاستعدادات اللازمة لإنقاذنا" (13).

وبدلاً من التخطيط لحفل زفاف الأميرة جميلة أعد عثمان رفقي باشا محكمة عسكرية. عندما دخل الضباط الثلاثة مبنى الوزارة قام الضباط الشراكسة بتجريدهم من أسلحتهم وأهانوهم واقتادوهم إلى قاعة محكمة مؤقتة. جرد جنرالات رفقي باشا هؤلاء الثلاثة من وظائفهم بتهمة التحريض على العصيان. ومع صدور هذه الأوامر قوطعت مداولات المحكمة بصوت مسير الجنود خارج القصر. فقد قام الضباط المصريون من الرتب الأدنى والمخلصون لعرابي وزملائه بقيادة جنودهم وخرجوا إلى الشوارع. ومن شرفة قصره وقف توفيق يراقب غير مصدق كيف ظهرت كتيبة من الجيش في ميدان العرض العسكري خارج قصر عابدين. وقامت كتيبتان أخريان بمحاصرة وزارة الحربية. اقتحم الجنود مبنى الوزارة وأطلقوا سراح الضباط. في تلك الأثناء هرب عثمان رفقي باشا من النافذة. وحمل الجنود ضباطهم على الأعناق إلى ثكناتهم يهتفون بالنصر وتحت قرع الطبول.

لقد بنيت مصر الحديثة بمساعدة الجيش. نصح مدربو توفيق الفرنسيون

والبريطانيون بأنه إن لم يستطع مقاومة الضباط المصريين فيجب عليه أن يساومهم. أعاد الضباط إلى مناصبهم وطرد عثمان رفقي باشا ووعدهم بإصلاح الجيش فأصبح محمود سامي البارودي أحد أعضاء جمعية حلوان وزير الحربية الجديد. وهكذا استولى الإصلاحيون على الجيش وعلى الوزارة دون أن يطلقوا رصاصة واحدة.

لكن حادثة الشغب التي وقعت في المحكمة العسكرية جعلت عرابي رمزاً قومياً بعد أن كان مجرد ضابط مغمور لا يعرفه أحد. ومع أن شريف باشا والنبلاء الأتراك في جمعية حلوان قد رأوا فيه أداة كليلة يهددون بها توفيق فقد كان فلاحو الدلتا يرون فيه البطل المنقذ. فهو وحده من بين المصريين المضطهدين وقف بوجه الأتراك الطامعين بالضرائب وفاز. فلقبوه بالزعيم الأوحد.

أما محمد أحمد في الجنوب فقد بقي لأسبوع واحد يرفض تناول الطعام والشراب. وكان تلامذته بانتظاره حين خرج من كهفه على ضفة النهر وادعى أنه المهدي المنتظر.

إن فكرة قدوم منقذ ومخلص فكرة محورية في اليهودية وفي المسيحية، وذُكرت في الأحاديث النبوية الإسلامية أيضاً. وفي المجتمعات الدينية حيث يكون الدين ثنائي المهمة مثل السياسة تكون فكرة المنقذ أو المخلص سياسة اليأس. وقد اتفقت الديانات الإبراهيمية جميعاً على أن الله يؤثّر عبر التاريخ كله. والسلطة الدينية تشكل رادعاً إلهياً للانقسامات الاجتماعية وعادات المجتمع. وعندما ينهار المجتمع يصبح تفكك العالم المألوف نذيراً لانتهاء التاريخ نفسه، أي أن كارثة محلية تشير إلى رؤية عامة شاملة. وقد أنتجت كل من اليهودية والمسيحية والإسلام مهدياً أو مخلصاً منتظراً. ونشأت هذه كلها في أوقات الأزمات، حين انهارت العادات والسلطة وباتت عاجزة عن الاستجابة بإبداع للقيم والجيوش المتنافسة، وكانت مهام هؤلاء قصيرة ونارية ملتهبة ولا تنتهي بالخلاص بل برؤية مصغرة.

ولم يكن المخلص المنقذ في الإسلام بأفضل من نظيره في المسيحية واليهودية. فالواحد منهم تلو الآخر ينتهي إلى الفشل كلما ضعفت سلالة حاكمة أو انهار مجتمع ما أو قام جيش معاد بغزو البلاد. وقد كثر الحديث عن المهدي المنتظر في الأحاديث النبوية، حيث سيكون واحداً من أحفاد النبي وسيحمل اسم النبي وسيكون اسم أبيه عبد الله مثل اسم النبي واسم أبيه. سيكون طويل القامة أصلع شعر الرأس وتكون له بشرة عربية سمراء اللون وأنف أقنى مثل منقار النسر مع فروق بين أسنانه الأمامية. سوف يظهر في نهاية القرن حين ينتشر الفساد والضعف في صفوف المسلمين، وسيعيد الإسلام إلى ما كان عليه يوم نشأته على يدي النبي بعد أن يهزم أعداء الله في الحرب. وسيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وسوف يخفض معدل الضرائب إلى 2.5 بالمئة كما أوصى النبي. ولن يكون لديه وقت يكفيه لفتح العالم حيث لن يحكم إلا سبع سنين[14].

كان عام 1881 الميلادي يوافق سنة 1298 في التقويم الإسلامي، أي كان القرن الثالث عشر بحسب التقويم الإسلامي يقترب من نهايته، وحيث كانت الكوارث في كل جهة. كانت المجتمعات الإسلامية من إفريقيا إلى الهند قد عجزت عن التأقلم مع التكنولوجيا والاتصالات الحديثة وبدت في حالة شلل تام أمام العلوم والمصارف العصرية. فبحث المفكرون من أمثال الأفغاني في مصادر قوة الكفار لكن التحالفات بين المحافظين الدينيين والملكيين حرصت على إبقاء ما توصلوا إليه من نتائج في حدود هامشية. لكن الدعوة للإحياء كانت أقوى من هؤلاء، وكذلك كانت دعوتها الحثيثة لقيادة قوية مقبولة للحلم الخاص بفكرة المهدي عند انتهاء القرن والحرب من أجل الخلاص، غير أن الوهابيين في شبه الجزيرة العربية نبذوا فكرة المهدي قائلين بأنها خروج مستهجن عن الدين. أما غيرهم من دعاة إحياء الدين وبخاصة أولئك الذين أثرت فيهم الصوفية فقد كانوا على استعداد لتقبلها. في ليبيا رأى أتباع محمد السنوسي أنه هو المهدي، ورغم أن السنوسي نفسه أنكر ذلك إلا أنه لم يعاقبهم على هرطقتهم. وفي غرب إفريقيا ادعى الجهادي عثمان دان فوديو Usman dan Fodio أنه رأى النبي في

المنام يأمره بإقامة دولة تنفذ الشريعة الإسلامية.

غير أن تأثير التجار القادمين من ليبيا والحجاج القادمين من غرب إفريقيا في مصر والسودان قد أذكى آمال الناس. ولم يكن محمد أحمد أول من ادعى أنه المهدي من رعايا الخديوي. ففي عام 1865 قام شخص يدعى أحمد الصالح Ahmad the Good بتحدي سلطان الخديوي إسماعيل على النيل الأعلى ودعا للثورة على الأتراك وحلفائهم من الأزهر وتوزيع الثروة والأملاك. وعندما قام أتباعه برجم محصلي الضرائب بالحجارة ليخرجوهم من ديارهم تدخلت قوات الخديوي. فدمروا قرى عن بكرة أبيها وقتلوا الرجال والنساء والأطفال والحيوان وأحرقوا المباني. وكما فعل الرومان في يهودا نثروا الملح في الأرض ليجعلوها أرضاً قاحلة لا ينبت فيها نبات.

كان محمد أحمد قد استفسر من معلمه الشيخ نور الدائم، كما استفسر من مشايخ الخرطوم الذين يتلقون أموالهم من الدولة إن كان أي منهم قد يكون المهدي. لكن أحداً منهم لم يأخذ سؤاله هذا على محمل الجد. فأدرك شيئاً فشيئاً أنه هو الذي سيكون مصيره أن يقود العالم الإسلامي نحو الخلاص. وكانت الإشارة الأولى واضحة وعلى مرأى من الجميع، ألا وهي ظهور سلسلة متتالية من المذنبات في السماء ليلاً تبشر بقرن إسلامي جديد. أما الإشارة الثانية فقد جاءت حين صعد السلم وهو يبني قبة ضريح الشيخ القرشي حيث دفن والد زوجته فكان يثني عليه.

في يوم من الأيام خرج من بين العمال رجل عربي طويل القامة ونحيل الجسم. كان اسمه عبد الله التعايشي Abdullahi Al-Taishi وهو من قبيلة البقارة في دارفور، وكان جنود الزبير باشا وإسماعيل قد استولوا على منزل عائلته. لم يكن يحفظ من القرآن إلا آيات قليلة جداً مع أن والده كان رجل دين. وقد حثه والده وهو يحتضر على أن يجد لنفسه معلماً يعلمه الدين وعلى أن يهجر السودان الفاسدة ويذهب إلى مكة. لم يكن عبد الله قد اكتسب شيئاً من العلم في الدين لكنه يتقن المهارات التكتيكية التي عرف بها أفراد قبيلة البقارة. وفي تلك الأثناء أدى تضاؤل النفوذ المصري إلى بقاء السودان لقمة سائغة للفريق

الأقوى، لذا بحث عبد الله عن أقوى رجل في السودان فكان الزبير باشا Zubair Pasha الذي رأى فيه الشخص الوحيد القادر على إخراج الأتراك من بلاده، فسعى إليه ـ وهو أكبر تاجر رقيق في السودان ـ وأخبره بأنه قد رأى في منامه أنه هو المهدي. لكن الزبير أنكر ذلك وأكد له أنه ليس المهدي. طاف عبد الله في السودان يبحث عن معلم تنفيذاً لوصية والده. وبينما كان متجهاً شرقاً على حماره حاملاً قربة ماء وكيس ذرة سمع عن الزاهد المتنسك المقيم في جزيرة أبا وتتبع آثاره حتى وصل إلى ضريح الشيخ القرشي. انتظر لساعات عدة عند أسفل السقالة متردداً لا يتكلم.

يقول عبد الله: "وأخيراً استجمعت شجاعتي وتحدثت إليه وبكلمات مقتضبة رويت له قصتي، وتوسلت إليه إكراماً لله ولنبيه بأن يقبلني واحداً من تلامذته". مد محمد أحمد له يده ليقبّلها، ثم تابع قائلاً، "واقسمت له معاهداً أن أكون خاضعاً له ما حييت"(15).

وقام عبد الله بفعل ما هو أكثر من نقل لبنات البناء إلى أعلى السلم. تعرف قبيلة البقارة بأنها أكثر القبائل السودانية شراسة واستقلالية. وهي القبيلة ذات السلطة الأعلى في كردفان موقع حملة محمد أحمد السياسية. وأي ثورة ضد الأتراك يجب أن تعقد صفقة مع هذه القبيلة أو أن تدخل في صراع معها. ومن هنا يمكن لنا أن نتوقع بأن يصبح عبد الله الجنرال عند محمد أحمد وأن تكون قبيلة البقارة الفرقة الرئيسية الهامة في ائتلاف القبائل الذي شكله.

في شهر آذار/مارس عام 1881 وبعد وقت قصير من وقوف عبد الله عند أسفل السلم تحدث محمد أحمد مع الحلقة المصغرة المحيطة به عن سره العظيم. لقد رأى النبي في منامه. وكان ذلك في غضون شهر واحد بعيد محاكمة عرابي في المحكمة العسكرية. وفي تلك الأثناء أيضاً أبلغ رياض باشا حكومة الخرطوم أنه من أجل توفير الأموال سوف تدمج هذه الحكومة بحكومة القاهرة. إذن، ليس ثمة فرصة أفضل من هذه الفرصة للتدخل الإلهي. يقول محمد أحمد في شهادته على ذاك العصر: "كنت مستيقظاً وبكامل صحتي. لم أكن نائماً أو في حالة غيبوبة ولم أكن ثملاً أو بتأثير من مسّ. كلا، كنت بكامل قواي العقلية

- مستعداً لأن آمر بما يأمر به الله وأنهى عما ينهى عنه الله"[16].

عاد محمد أحمد إلى كردفان، وبدأ بتحريك نشاط شبكته. في التاسع والعشرين من حزيران/يونيو عام 1881 أسقط من اسمه كلمة "أحمد" ذلك أنه وجد أن الكلمة لا تتوافق مع النبوءة. وأطلق على نفسه اسم محمد المهدي وأعلن للملأ أنه رسول من الله جاء ليخلص السودان والعالم وينشر الإسلام. ثم أوى إلى جزيرة أبا حيث جمع أتباعه منتظراً ردة فعل الأتراك.

كان وريث غوردون في القصر الأبيض بالخرطوم رجل يدعى محمد رؤوف باشا. والده من النوبة وأمه حبشية، نشأ في مصر من طبقة وضيعة وتعلم ليصبح فيما بعد أول حاكم مصري للسودان ينطق بالعربية. كان السودان في تلك الحقبة، وكما هو الحال في سائر أنحاء الإمبراطورية البريطانية الزاوية المكروهة من الإمبراطورية المصرية لكنها زاوية مليئة بالفرص. وفي الوقت الذي كان فيه عرابي وأصدقاؤه يحتجون ضد التمييز في مصر كان رؤوف يمارس عمله في منطقة كانت في نظر معظم الضباط مكاناً لا يرسل إليه إلا من يراد معاقبتهم. حين كان ضابطاً صغيراً في الجيش اتخذه صمويل بيكر رئيساً لأركانه في المديرية الاستوائية. وخدم لدى غوردون مرتين وطرد من وظيفته مرتين بسبب الفساد. بعد أن عين حاكماً للسودان كان عمله يقتضي بتهدئة الرعايا الذين كانوا على وشك الثورة ضد غوردون وتنفيذ التخفيضات التي أمر بها رياض باشا من خلال تقليل أعداد الحاميات السودانية. وكان ينفذ واجباته هذه وفق قدراته المعتدلة. وفيما عدا تنفيذ الأوامر والعمل بموجبها لم تكن له أي سلطة. فقد عمل رياض باشا على مركزية الحكم الاستعماري، وأدار السودان الآن عن بعد من القاهرة. وكان محمد رؤوف باشا يفعل ما يؤمر به.

عندما علم رؤوف باشا بظهور المهدي المنتظر في الأراضي الواقعة تحت إمرته بعث له برسالة ودية مفترضاً أن هذا الغبي المتدين يمكن أن يشرى بالمال إن خصص له راتباً شهرياً من الحكومة. لكن المهدي ذهب إلى أقرب مركز برق وأرسل له برقية جوابية، يقول فيها:

"يجب أن أبين لك أن دعوتي لإعادة شرع النبي ولإصلاح الدين من شروره الحالية هي أمر فرضه علي النبي محمد مباشرة. فأنا المهدي المنتظر، وقد بشرت بقدومي علامات سماوية، من يتبعني فهو المنتصر. ومن يرفض فسوف يلقى من الله عقاباً في هذه الدنيا وفي الآخرة. إن المواعظ التي وجهت للمؤمنين واضحة لا لبس فيها، وهي إن من لم يؤمن بي فسوف يجزى بالسيف"(17).

هذه هرطقة وخيانة. واسوأ من ذلك أنها لا تشرى بالمال والرشوة. وقرر رؤوف باشا استدعاء هذا الفقير إلى الخرطوم ليخضع لفحص من علماء الدين لدى الحكومة. وأرسل له صديقاً من أيام الدراسة ليأتي به إلى الخرطوم اسمه أبو السعود، وهو تاجر رقيق أعور كان قد دحر حملة صمويل بيكر في المديرية الاستوائية وأصبح الآن يجمع بين تجارة الرقيق ومنصب في حكومة الخرطوم. فإذا كان لدى هذا الشيخ المشاكس مطامح دنيوية فيمكن لأبي السعود أن يعقد صفقة معه.

استقبل المهدي وحلقته المصغرة أبا السعود وجلسوا على حصيرة خشنة في الكوخ الذي جعله المهدي مدرسته. اوضح أبو السعود أن على المهدي أن يذهب إلى الخرطوم ويقر ويعترف بأن تسلسل السلطة الدنيوية التي هي بيد محمد رؤوف باشا وإلى الخديوي توفيق والسلطان عبد الحميد الثاني والله.

أجابه المهدي قائلاً: "أنت لم تحسن الفهم. من ذا الذي يأتي فوق المهدي المختار شخصياً من النبي؟ أهو رؤوف الذي يلزمه واجبه أن يطيعني".

غضب أبو السعود وقال: "كيف لك أن تأمل بمحاربة الحكومة؟"

رد عليه المهدي بحركة سريعة من يده قائلاً: "إذا لزم الأمر سأحارب الحكومة بهؤلاء الجالسين هنا فقط: وتململ الحاضرون قليلاً بجلستهم معلنين أنهم على استعداد لتقديم أرواحهم في سبيل الله والنبي والمهدي. وهكذا أحس أبو السعود بأنه يجب أن يرحل.

بعد ثلاثة أيام عاد أبو السعود بالباخرة ومعه 200 جندي مصري ومدفع

وسلاح مدفعية دينية من العيار الثقيل هو الشيخ أحمد الأزهري أحد قضاة الحكومة. وصلت هذه الجماعة عند المغيب وأوقفوا الباخرة على بعد ربع ميل من قرية المهدي ونزلوا في أرض ضحلة المياه. وعندما جن الليل انقسموا إلى فصيلين. كان الضباط قد وعدوا بالترقية في مناصبهم إن هم قبضوا على هذا المهدي الكذاب. وعندما أسرعوا تحت جنح الظلام فقدوا الاتصال ببعضهم. وكان رجال المهدي بانتظارهم مختبئين خلف الصخور والأشجار وبدأ المطر الغزير يهطل.

سمع الجنود المصريون صرخة حرب قادمة من خلال الظلام. فأطلق الفصيلان وابلاً من القذاف باتجاه القرية. وحين توقفوا لحشو المدافع ثانية خرج أنصار المهدي من الظلام كالأشباح وهم في جبابهم البيضاء. وانقضوا على الجنود يضربونهم بما لديهم من عصي ورماح وسكاكين. فر الجنود مذعورين يتعثرون بالأوحال والأشجار باتجاه سفينتهم التي كان قد أقلع بها ربانها الذي أصابه الذعر أيضاً، تاركاً هؤلاء الجنود لمصيرهم يتصيدهم أنصار المهدي واحداً واحداً. وما أن طلع الفجر حتى كان الجرحى قد قتلوا حيث كانوا ممددين على الأرض. بعد هذه المجزرة أقام المهدي صلاة الفجر. كان قد أصابه جرح في كتفه جراء الوابل الأول من القوات المصرية، فأخفى عبد الله هذا الجرح كي لا يراه الرجال فيفقدون إيمانهم بخلود المهدي. وفي اليوم التالي دفنوا موتاهم الذين لم يتجاوزوا اثني عشر فرداً في الكهف الذي كان المهدي يأوي إليه.

علم المهدي أن محمد رؤوف باشا سوف يرسل قوة أكبر. وكما فعل النبي حين اختبأ من أعدائه في مكة وهاجر إلى المدينة فكذلك سيفعل وريثه ويهرب من الجنود الأتراك. استخدم قوارب أشقائه للإبحار عبر النهر هو وأتباعه متجهين في رحلة 79 يوماً نحو جبال النوبة في كردفان في الجنوب الغربي، وخاطب جماعته قائلاً إنهم مثل أنصار النبي الأوائل، المهاجرين، الذين ذهبوا إلى الأنصار، أتباع النبي الذين التفوا حوله في المدينة.

عندما التأم جرح المهدي الخفي توقف في رحلته عند جبل يدعى جبل غدير. وتمثلاً بسابقة أخرى بدل اسم هذا الجبل ودعاه جبل ماسة Jebel

Massa تيمناً باسم جبل في شمال غرب إفريقيا عنده ظهر مهدي في القرن العاشر اسمه محمد عبيد الله.

وبنى الهاربون في هذا المكان مسجداً ومستوطنة. وأرسل قائدهم الرسائل إلى سائر أنحاء السودان يعلن فيها هذا الوريث لرسول الله انتهاء عهد الطغيان المصري. ودعا جميع حلفائه وأنصاره من المسلمين كما دعا أعداءه للجهاد. لقد نشأت خلافة جديدة، وابتدأ حكم المهدي.

في ذلك العام كان ولفريد سكاوين بلانت Wilfrid Scawen Blunt يقضي الصيف في مزرعته كربت بارك Crabbet Park في مقاطعة سسكس Sussex بإنكلترا. وقد عمل تحت ظلال الأزهار الصيفية في تلك البلاد على جمع سلسلة من المقالات كان قد كتبها في كتاب بعنوان "مستقبل الإسلام *The Future of Islam* ".

كان بلانت رجلاً يميل إلى المجون، طويل القامة له انحناءة بسيطة ولحية كثة، عمل لفترة وجيزة بالحقل الدبلوماسي قبل أن يرث إرثاً جيداً أتاح له الانصراف لممارسة هواياته الحقيقية، وهي الشعر والخيول الأصيلة والعمل السياسي الراديكالي والالتقاء بالليدي آن كنغ نويل Lady Anne King-Noel حفيدة اللورد بايرون الشاعر الشهير والبطل بنظر بلانت؛ وقد قال ذات يوم: "بدأت حياتي في سن مبكرة نوعاً ما". زار بلانت مع الليدي آن شرق الإمبراطورية العثمانية من تركيا إلى الجزيرة العربية ومصر، وقضيا في هذه الجولة زهاء خمس سنين، واصفين جولتهما الغريبة هذه بأنها رحلة عمل. والمعروف أن أفضل السلالات وأكثرها نجاحاً في ميادين سباق الخيل البريطانية والأميركية هي تلك التي ترجع في أصولها إلى ثلاثة أصول من الجياد العربية الأصيلة هي ـ Byerly Turk و Darley Arabian و Godolphin Arabian. غير أن الفكرة الأساسية التي استبدت بهذا الثنائي فيما يتعلق بأصول الخيل هي ذلك الخيط المشترك الجامع بين اهتماماتهما المتباينة. فكلاهما كان يعود في أصول هذه السلالات إلى أيام الفتح النورماندي. وكلاهما كان يستمد "تعاطفه مع

قضية الحرية في الشرق" بدءاً من جد آن اللورد بايرون Lord Byron، الشاعر الذي ضحى بنفسه في حرب اليونان في سبيل الاستقلال عن تركيا، وكلاهما كان يرى العمل السياسي في الإسلام من خلال هذا الموشور الأرستقراطي[18].

وجد بلانت وزوجته الجياد التي كانا يبحثان عنها لكن رحلتهما هذه في الإمبراطورية العثمانية جعلت ولفريد أكثر راديكالية، حتى إنه ترك أمور مزرعة الجياد لليدي آن وانصرف لهواية أخرى. رأى الحكومة العثمانية "وباءً أخلاقياً" أصيب به العرب "ينشر عدوى الفساد بين الرعايا"، مبدياً تعاطفه مع العرب والبدو على وجه الخصوص الذين رأى فيهم شبهاً بالأرستقراطية الإنكليزية، في تقديسهم للقيم القبلية وقوانين الشرف وتفضيلهم للخيول على النساء. رأى بلانت أنه مع تدهور حالة الرجل المريض ينبغي تشجيع العرب وحثهم على الاستقلال وإقامة دولتهم الحديثة، كما كان حال اليونان أيام اللورد بايرون من قبلهم، "إن الدفاع عن قضية حرية العرب هو جهد جدير بكل عناء كما كانت القضية التي لقي بايرون مصرعه من أجلها"[19].

تعمق افتتان بلانت بالمجتمع العربي بالتزامن مع سخطه من مجتمعه الإنكليزي. فالمال والاستحقاق في بريطانيا آخذان بالحلول محل المنبت والامتياز. وأدت التجارة والصناعة إلى نشوء طبقة متوسطة ليبرالية، ورأى بلانت أنها طبقة سوقية في أصولها وتمتثل للأعراف السياسية وأن ظهورها وحلولها مكان الطبقة العليا يعني انتهاء "فكرة الوطنية". كان يؤمن سابقاً بـ "تلك المهمة الإلهية في الشرق" التي تحملها بريطانيا، أما الآن فهو يرى بريطانيا شريكاً في الطغيان، تدعم العثمانيين لتصون وتحمي الهند البريطانية والتوازن التجاري. ورأى أيضاً أن الانحلال الأخلاقي في السياسة الخارجية البريطانية يعود إلى نشأة "التأثير السامي" في موطنه: أي "الأموال العالمية" لدزرائيلي وأصدقائه في بنك روتشيلد الذي كان "منزل العبرانيين القوي جداً". ولم يكن بلانت وحده في هذه القراءة للمؤامرة في الاقتصاد العالمي. في عام 1879 وبينما كان بلانت وزوجته يبحثان عن جياد صافية العرق في سورية كان الصحفي الألماني العاطل عن العمل ولهلم مار Wilhelm Marr قد نشر كتيباً بعنوان "انتصار اليهودية

على الجرمانية *The Victory of Judaism Over Germanism* " ودعا برنامجه هذا "معاداة السامية"[20].

ومع أن رؤية بلانت للقومية العربية قد وضعته على الحافة القلقة غير المستقرة للعمل السياسي إلا أن تاريخه الشخصي وإرثه قد أتاحا له دخول الدور الخاصة والنوادي المخصصة لتلك الصفوة. عندما خسر دزرائيلي وحكومته انتخابات عام 1880 لصالح حزب الأحرار أصبح إدي هاملتون Eddy Hamilton أقرب المقربين من أصدقاء بلانت سكرتير رئيس الوزراء الجديد وليم غلادستون William Gladstone وأوكل إلى فيليب كاري Philip Currie أحد أقارب بلانت القيام بالواجبات نفسها التي يقوم بها وزير الخارجية اللورد غرانفيل Lord Granville. لذلك عدّل بلانت أفكاره طبقاً لتحسن الظروف، وكان ذلك من خلال الحفلات التي كان يقيمها زملاؤه من "محبي الآسيويين Philo-Asiatics".

ففي غرفة الاستقبال "بمنزل سيدة أنيقة في بلغرافيا Belgravia" تحدث السفير الفارسي مالكوم خان Malkum Khan مع بلانت عن حكومة بابي Babi، قائلاً: "عرفت أنه من غير المفيد القيام بمحاولة لإعادة تشكيل بلاد فارس وفق النماذج الأوروبية. فقررت أن ألبس إصلاحاتي المادية رداءً يمكن لشعبي أن يفهمه، وهو رداء الدين"[21].

فأدرك بلانت بعد أن عقدت الدهشة لسانه أنه قد بدأ من "الطرف الخطأ". فإذا كان يريد مساعدة العرب فيجب عليه أن يفهم أولاً طريقة تفكيرهم. فقرر الاستعانة بمعلم لهذه الغاية وكان جان لويس صابونجي Jean Louis Sabunji وهو كاهن سوري اعتنق الإسلام وبدأ العمل في الصحافة وترأس تحرير صحيفة "النحلة The Bee" وهي جريدة ناطقة بالعربية وليست ذات انتشار واسع تنشر الأفكار المناهضة للأتراك العثمانيين. وقد حدّث بلانت عن "مسألة الخلافة ومظاهرها الحديثة،" مبيناً له أن الخلافة يجب أن تعود إلى أصحابها الشرعيين، وإذا أريد للعرب أن يستردوا استقلالهم الروحي عن تركيا فيجب عليهم أن يؤسسوا لاستقلالهم الروحي السياسي. وقرر بلانت أن يتأكد بأن الإسلام هو مصدر الخلافة، وفي ذلك يقول: "استبدت بي فكرة الذهاب إلى شبه

الجزيرة العربية وترؤس حركة تنادي باستعادة الخلافة العربية. فالناس يدعون بالعظماء حين يفتدون بحياتهم الأشياء الأصغر"[22].

وفي طريقه إلى الجزيرة العربية توقف بلانت في القاهرة ليتعلم اللغة العربية. وفي عصر أحد أيام شهر كانون الثاني/يناير عام 1881 أخذه معلمه إلى "بيت صغير في حي الأزهر" حيث التقى محمد عبده العائد مؤخراً من منفاه داخل البلاد بعد أن عفا عنه رياض باشا.

كان محمد عبده الذي استضاف بلانت يرتدي عمامة بيضاء وقفطاناً داكن اللون كما يرتدي علماء الأزهر. وكان في الخامسة والثلاثين تقريباً، متوسط القامة لا هو بالطويل ولا بالقصير، "يتمتع بذكاء سريع وحضور بديهة كما يبدو من عينيه الثاقبتين" ويتصف "بطريقة صريحة وودية وملهمة في مخاطبة الآخرين". حدّث بلانت عن الأفغاني، ذاك "الرجل العبقري المتقد حماساً"، وعن رؤية الإصلاحيين. وقال محمد عبده يجب على نظام الحكم الإسلامي أن يقف في وجه الإمبراطوريات المعادية "بحركة إصلاح كلي" وليس مجرد الإصلاح. فالسلاطين العثمانيون وعلى مدى مائتي عام لم "يهتموا بالدين"، ويحتفظون بالخلافة "بحق يمليه السيف فقط". فقدوا سلطتهم الروحية. ويجب أن تنهض الخلافة على أسس "أكثر شرعية" و"أكثر روحية"، أي أن تعود للعرب. لكن الشيء الأكثر راديكالية في كل ما قاله محمد عبده قوله إنها يجب أن تفصل عن القانون العلماني. ففي رأي محمد عبده أن النزعة إلى إحياء الماضي هي الوسيلة فقط، لا أكثر، وأن الغاية هي النسخة الإسلامية لفصل الكنيسة عن الدولة[23].

كانت هذه الأفكار الأساس الذي بنى عليه بلانت موضوع كتابه "مستقبل الإسلام" *The Future of Islam* الذي نشر على حلقات متسلسلة في مجلة *Fortnightly Review*، وذلك في الوقت الذي كان فيه عرابي وأصدقاؤه يقومون بحركتهم في القاهرة وكان المهدي في طريقه إلى كردفان. يقول بلانت: كان العالم الإسلامي يشبه أوروبا الكاثوليكية قبل حركة الإصلاح الديني. كان "الخضوع المطلق للتقاليد الصارمة جداً "يعيق تطوره. كان بحاجة إلى "تحرير الفكر" من خلال "الإصلاح الديني". وعلى بريطانيا التي آلت إليها إمبراطورية

المغول في الهند والتي تحمي الإمبراطورية العثمانية تقع مسؤولية خاصة. وعوضاً عن جني الربح والفائدة من تراجع الإسلام وتدهوره، يجب عليها أن تشجع "العناصر الأفضل في الفكر الشرقي" كما هي متجسدة بمحمد عبده في مصر. "وبحق الله، فلتقم هي بالأخذ بيد الإسلام ولتعمل على تشجيع درب الفضيلة". وفي صيف عام 1881 وبينما كان المهدي يعلن ولادة خلافة جديدة، أعطى بلانت إلى الصابونجي بعض المال لإصدار دورية جديدة كان برنامجها السياسي واضحاً من عنوانها وهو "الخلافة"(24).

ما أبعد الشبه بين بلانت ومحمد عبده والمهدي. بلانت رجل أوروبي راديكالي يجهل العالم الإسلامي، وأما محمد عبده فكان عالماً إسلامياً من السنّة يتلقى راتباً من الحكومة المصرية ويشتغل سراً بأفكار ممنوعة مستوردة من الغرب. وأما المهدي فكان صاحب عقيدة صوفية يعمل على إثارة تمرد محلي من خلال الرجوع إلى الدين. لكنهم جميعاً توصلوا إلى استنتاج واحد، ألا وهو أنه لا يمكن إنقاذ الإسلام من الغرب إلا من خلال خلافة متجددة. تركيا العثمانية هي العدو ولا بد من تحرير العرب من حكمها.

وكما كان الحال في السودان فقد أعطى الدين في مصر صفة الشرعية للثورة. وبعد حوادث الشغب الحاصل في شهر شباط/فبراير 1881 قام الضباط المصريون الثائرون والأعضاء من ذوي المرتبة الأدنى في زمرة شريف باشا من الأرستقراطيين الإصلاحيين بتشكيل تحالف كبير مع المتمردين المتدينين بقيادة محمد عبده. كوّن هذا التحالف من خلال اجتماعات سرية كانت تعقد في المنازل شكلاً لمصلحة مشتركة لإجبار الخديوي توفيق على القيام بالإصلاح.

أراد الأرستقراطيون أن يستعيدوا ثمار مناصبهم ويحصلوا على دستور يحرر مصر من تركيا وأوروبا، وأراد ضباط الجيش وضع حد لذاك البؤس الطويل الذي يعانيه الفلاحون على أيدي الأتراك: لا يريدون تمييزاً عرقياً ولا يريدون أعمال سخرة بعد الآن. أما السياسيون من رجال الدين فأرادوا دستوراً

يحمي ثورتهم الثقافية من الحركة الارتدادية التي لا بد منها من بعض رجال الدين. وقبلت كل طائفة من هؤلاء بالأخرى ليس من حيث المبدأ بل بدافع براغماتي: أي اتفقوا جميعاً على أن السياسة الأكثر أهمية هي تلك الداعية إلى التخلص من بريطانيا وفرنسا. وهكذا تعهد الأتراك الأرستقراطيون أمام الضباط بوضع حد للتمييز ضد المصريين، فوضع الضباط ثقل الجيش والفلاحين تأييداً لهؤلاء الأرستقراطيين ودعوتهم لوضع دستور للبلاد. أما الإصلاحيون المتدينون فقد رأوا أن كلا هذين الموقفين يتوافقان مع جمهورية إسلامية ليبرالية. لكن محمد عبده وشريف باشا كانا يؤمنان سراً أن عرابي فلاح جاهل وأن المصريين غير مهيأين الآن للحرية، وأنهما على الأرجح سوف يتوصلان لذلك عن طريق وتيرة الرعاية الأبوية المفضلة لديهما. أما علناً فكان كل فريق في هذا التحالف الهش يتحدث عن نفسه على أنه صوت الحزب الوطني.

في غضون ذلك عمل الخديوي توفيق ورياض باشا معاً على تبديد شمل الضباط برغم أن الخديوي قد تعهد سابقاً بإصلاح الجيش. ففي صيف عام 1881 تحرك جواسيس رياض باشا ضدهم وتسللوا إلى اجتماعاتهم وحاولوا إثارة المشاجرات في الشوارع. لكن الضباط حاولوا تفادي تلك الاستفزازات. في مطلع شهر أيلول/سبتمبر عام 1881 قام الخديوي بالتعاون مع رياض باشا على طرد محمود سامي البارودي حليف الضباط في وزارة الحربية وأمر بإرسال الفرق التي يقودها هؤلاء الضباط إلى الأقاليم.

دعا الضباط إلى اجتماع طارئ، حيث اقترح أحد مؤيدي عرابي بأنهم إن ركبوا القطار للذهاب إلى الأقاليم فسوف ينتهي بهم الأمر في النيل عند كفر الزيات، كما حصل لأشقاء الخديوي إسماعيل سيئي الطالع. وأقر عدد لا بأس به من الضباط حين شعروا بأن ثمة من يتتبعهم بأنهم يخشون القتل على أيدي الشرطة. وتحدث آخرون عن شائعة تدور في المدينة بأن شيخ الأزهر قد أصدر فتوى للخديوي توفيق تصف هؤلاء الضباط بالخيانة وجزاؤهم الموت. أما عرابي فكان يؤيد الهجوم على قصر عابدين، لكن محمد عبده لم يؤيد المواجهة العسكرية وأيده في ذلك الأرستقراطيون الأتراك.

أطلق محمد عبده تحذيره قائلاً: "سوف يحدث احتلال أجنبي وستحل اللعنة إلى الأبد على من يمهّد له"[25].

ولكن تغلب رأي الضباط المعارض للأرستقراطيين ورجال الدين. في صباح اليوم التالي بعث عرابي برسالة إلى الخديوي توفيق تتضمن مطالب الحزب الوطني. وختم رسالته هذه بإنذار يقضي بأنه إن لم يعط الخديوي رده على هذه المطالب عند الظهيرة فسوف يهاجم الضباط قصر عابدين[26].

شعر الخديوي توفيق بالخوف والهلع. كان معظم وزرائه والقناصل الأجانب قد غادروا القاهرة هرباً من حر الصيف الخانق. ولم يبق أحد في القاهرة يمكن الاتصال به سوى أحد كبار مراقبي النفقات السير أوكلاند كولفن Sir Auckland Colvin وكان لا يعرف شيئاً عن مصر، إنما لديه خبرة لا بأس بها في وقاحة السكان الأصليين في الهند. أشار هو ورياض باشا على الخديوي بأن يقابل مطالب عرابي الوقحة بكمين. عندما يهاجم الثوار ويصلون إلى ميدان العرض العسكري أمام قصر عابدين تقوم القوات الموالية للحكومة بإطلاق النار عليهم من نوافذ القصر. وقضى الخديوي ومستشاروه تلك الفترة الصباحية يتنقلون في أنحاء القاهرة محاولين حشد الفرق الموالية للحكومة. وكانت محطتهم الأخيرة في ثكنة عرابي. ووجدوا لدى وصولهم أنهم قد تأخروا فقد غادر عرابي وفرقته متوجهين إلى القصر.

عاد الخديوي أدراجه إلى القصر متسللاً عبر الطرق الجانبية ودخل إلى القصر من باب خلفي. وحين وقف ينظر من النافذة الأمامية إلى ميدان العرض وجد نحو 2500 جندي و 18 مدفع ميدان مصوبة جميعاً إلى القصر. جميع الفرق العسكرية في القاهرة حنثت بيمين الولاء الذي أقسمته ولم يقف جندي واحد إلى جانبه.

أما في ميدان العرض فقد وضع الجنود بنادقهم بترتيب هرمي من كل ثلاث بنادق معاً ووقفوا في وضع الراحة يمضغون الفستق ويلفون السجائر، بينما بقي الضباط على صهوات جيادهم منتظرين جواب الخديوي. كان الوقت

في أوج الموسم السياحي، وتوافد الزوار، الذين يدفعهم فضول التعرف ومشاهدة ما يجري قادمين من حدائق الأزبكية.

خرج توفيق من باب القصر يتبعه السير أوكلاند كولفن وقلة قليلة من المرافقين الشجعان. وطوال الطريق نحو الجنود لم يكف عن إعطاء المشورة له بصوت خافت. يجب على الخديوي أن يأمر عرابي بتسليم مسدسه ثم يقتله به، ويجب على الخديوي أن يأمر عرابي بتسليم سيفه ثم يسير معه من فرقة إلى أخرى يأمرهم بالعودة إلى ثكناتهم.

ولم يكن لدى توفيق أية نية بالعمل كما يشير عليه كولفن، فقد كان فزعاً خائفاً.

تقدم عرابي وهو على صهوة جواده نحوهما تعززه ثلة من جنود المشاة حاملين بنادقهم مثبتين حرابهم عليها. أمره الخديوي بالترجل، فترجل إلى الأرض بكل ثقله وتقدم للأمام وقدم له التحية العسكرية وكان السيف هو الفاصل الوحيد بين وجهه ووجه الخديوي.

في هذه اللحظة همس السير أوكلاند بأذن الخديوي قائلاً: "هذه لحظتك! أعطِ كلمتك!"

تجمد توفيق في أرضه، وقال هامساً: "نحن بين أربع نيران. سوف نقتل".

"تشجع"

وأعاد الخديوي قوله بلهجة من يدافع عن نفسه بعد أن التفت إلى كولفن ومرافقيه: "نحن بين أربع نيران".

وأمر عرابي بأن يغمد سيفه: أحس عرابي بالارتياح حتى إن يده ارتعشت كثيراً فلم يجد الغمد بسهولة، تقدم الخديوي نحوه طالباً التفسير قائلاً بلهجة تحذيرية:

"أنا خديوي هذه البلاد وأفعل ما يحلو لي".

وأجاب عرابي قائلاً: "نحن لسنا عبيداً ولن نكون كذلك من الآن فصاعداً"(27).

لم يصدق كولفن ما سمعه. فقد كان الخديوي يجادل علناً ضابطاً متمرداً. فاقترح عليهما دخول القصر.

وبينما كان توفيق يستعيد هدوءه ورباطة جأشه من تلك الصدمة في حجرة الانتظار كان القنصل البريطاني يهدد ويتوعد عرابي بخطر التدخل العسكري. لكن عرابي أصر على أن جنوده لم يتظاهروا ضد تركيا أو بريطانيا بل هم يريدون الحرية للشعب المصري. وعندما كرر عرابي مطالبة الخديوي أذعن هذا الأخير. وقبل بحل وزارة رياض باشا وإعادة محمود سامي البارودي إلى وزارة الحربية وبحيث يكون عرابي وكيل الوزارة، وسوف يوسع الجيش ليصبح عديده 18,000 رجل، ولن يكون ثمة أي شكل من أشكال التمييز. سوف يدعو مجلس الأعيان للانتخاب وسوف يضع دستور البلاد. ووقف توفيق وعرابي جنباً إلى جنب على شرفة القصر. وهتف الجنود بحياتهما وعزفت الفرق الموسيقية العسكرية. وقبّل عرابي يد الخديوي توفيق.

عاد الجنود إلى ثكناتهم. فقد حققت الثورة أهدافها، وفي الوقت المحدد لها ذهبت الفرقة الموسيقية العسكرية عصر ذلك اليوم إلى مكانها المعتاد لتعزف الموسيقى أمام فندق نيوكونتيننتال. وهكذا سبّب الضباط الخوف للخديوي وخدعوا بريطانيا وفرنسا للمرة الثانية. كسبوا الحرب لكن حليفهم المفترض شريف باشا كانت له خططه الأخرى للسلام.

في صباح اليوم التالي عاد شريف باشا إلى القاهرة على متن قطار خاص. كان يراقب الأحداث من مزرعته بينما كان عرابي يخلي طريق القصر. كان مخلصاً لعاداته التركية ولم يكن لديه أية نية بتقاسم السلطة. عندما اجتمع بعرابي أصر على أن يكون الجيش تحت إمرته. رفض عرابي؛ وكان رفضه هذا ذريعة اتخذها شريف ليبعد الضباط عن أي نفوذ يؤثر على حكومته. وقد هدّأ من غضب عرابي بأن تعهد بتوسيع الجيش واستمال محمد عبده إلى جانبه بالرشوة وبتخفيف الرقابة على الصحافة. دعا إلى الانتخابات وتلاعب بنتائجها وملأ مجلس الأعيان بإقطاعيين أتراك موالين ومطيعين له.

وقال: "المصريون أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال، فأنا الذي أسس الحزب الوطني"[28].

عاد ولفريد بلانت بعد أن انتهى من كتابه "مستقبل الإسلام" *The Future of Islam* حين بدأ انعقاد مجلس الأعيان الجديد. كان بلانت في مرحلة سابقة قد قلل من أهمية العقيد عرابي في كونه قوة من أجل التقدم. وكان محمد عبده قد أقنعه بأن الإصلاح مصدره الإسلام وليس الجيش. وصورت الصحافة البريطانية عرابي بأنه دكتاتور في طور التكوين. وأن الحزب الوطني ستارة لاستيلاء الجيش على السلطة. لكن فيليب كاري Philip Currie قريب بلانت في وزارة الخارجية لم يقبل بهذا الكلام مشيراً: "ربما تجدون في عرابي الرجل الذي تريدون"[29].

التقى بلانت وعرابي في ثكنة خارج القاهرة. وكان أصحاب العرائض والطلبات ينتظرون ليروا "الرجل الوحيد" الذي يخرج من غرفة الانتظار إلى الباب، فقد اتخذ عرابي لنفسه لقب أحمد عرابي المصري، رجل الجميع عند الشعب. أقر عرابي أنه لم يقرأ أشعار اللورد بايرون، لكنه أعرب عن عميق تقديره لعمله من أجل حرية اليونان، ووعد بلانت بأن تدخل الجيش في السياسة سوف ينتهي قريباً، وأكد قائلاً: "لقد كسبنا الحرب من أجل حق الناس في التعبير عن رأيهم داخل مجلس الأعيان، وسوف نحافظ على أسس ذلك لنمنع أي محاولة ترمي إلى خداعهم أو إخافتهم من أجل التخلي عن هذا الحق"[30].

في أعقاب خيانة شريف باشا لحلفائه في الحزب الوطني عمل عرابي ومحمد عبده معاً على إيجاد طريقة لاستعادة زمام المبادرة. فاقترح بلانت على عبده فكرة التوجه ومناشدة بريطانيا مباشرة دون أن يعلم شريف باشا وذلك عبر وضع برنامج للحزب الوطني وإرساله إلى لندن. كان وليم غلادستون رئيس وزراء بريطانيا الجديد من الأحرار يمقت تركيا وينفر منها بسبب أساليبها الوحشية في قمع الأقليات المسيحية في البلقان. وكانت حملته الانتخابية تقوم

على أساس سياسة خارجية أخلاقية، فأحس بلانت إحساساً "أكيداً" أنه سيعترف بالتطلعات المشروعة للحرية عند المصريين"[31].

وافق محمد عبده على ذلك. تقضي خطة بلانت بتجاوز شريف باشا ومجلس الأعيان وتعيد الحزب الوطني إلى مؤسسيه الحقيقيين. وضع بلانت ومحمد عبده معاً برنامج الحزب وعرضاه على عرابي ومحمود سامي البارودي وزير الحربية اللذين وافقا عليه وأرسله بلانت إلى 10 داوننغ ستريت بلندن وصحيفة التايمز.

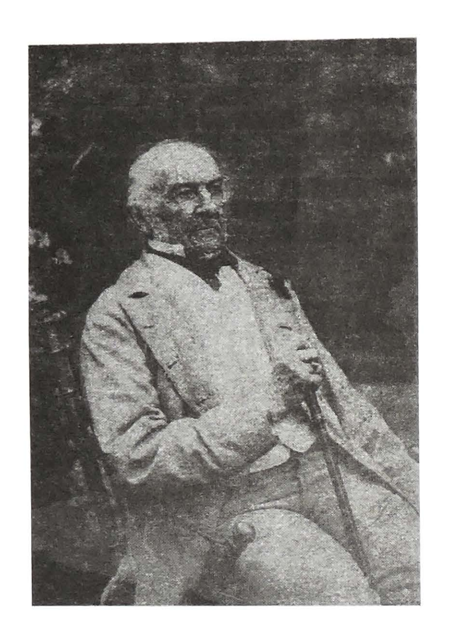
اتخذ الحزب الوطني موقفاً معتدلاً فقبل بالسلطان العثماني خليفة للمسلمين، لكنه من موقف راديكالي تعهد بالنضال من أجل "الحقوق والامتيازات الوطنية". واتخذ الموقف المعتدل أيضاً حين أعرب الحزب عن "ولائه وإخلاصه" للخديوي توفيق، ومن موقف راديكالي ربط هذا الولاء بشرط "قيام توفيق بتنفيذ وعده بدقة بحكومة برلمانية" وحذره من الاستمرار في "سلطته الاستبدادية". ومن موقف معتدل اعترف الحزب بتلك "الرقابة الثنائية" باعتبارها "أمراً ضرورياً لوضعهم المالي" وبالدَّين على أنه "مسألة شرف قومي". ومن موقف راديكالي رفض طريقة هذه الرقابة: في كونها رقابة مباشرة على أموال مصر. ومن منطلقهم المعتدل نبذوا العنف لكنهم راديكالياً حيوا الجيش بأنه "الحامي المسلح لشعب أعزل" وأنه "القوة الوحيدة في البلاد" القادرة على إقامة حكم دستوري. وأصر الحزب الوطني على أنه حركة تعددية وأنه "حزب سياسي وليس حزباً دينياً". وأن أي حكومة يشكلها لن تميز بين المسلمين والمسيحيين واليهود، تؤمن بأن الناس جميعاً أخوة ومتساوون بالحقوق". وكانت هذه الفقرة التي تعد ابتعاداً ثورياً عن قوانين الشريعة الإسلامية ووضع الذميين الذي بها حكم العثمانيون البلاد وعاملوا الأقليات المسيحية قد حظيت بموافقة شيوخ الأزهر الذين أكدوا "إن هذا هو قانون الإسلام الصحيح الذي يمنع الكراهية القائمة على الدين ويمنع فقدان الأهلية الدينية". ولكي يبرهن الحزب الوطني على إيمانه بالتسامح أعلن أيضاً "لا يوجد سبب للنزاع" مع المقيمين الأوروبيين شريطة أن "يلتزموا بالقوانين ويتحملوا حصتهم من أعباء الدولة". أو بعبارة

أخرى، إذا تخلوا عن "امتيازاتهم الخاصة المعطاة للأجانب" وعن المحاكم المختلطة وعن الإعفاءات الضريبية التي يتمتعون بها.

وبعد أن قفز فوق العادات والمعتقدات الإسلامية وفوق الامتيازات المعطاة للأجانب حلّق هذا البرنامج ليتحدث عن المدينة الفاضلة "يوتوبيا Utopia" حيث أكد أن "الغاية الرئيسية العامة للحزب الوطني تتمثل في البعث الفكري والأخلاقي للبلاد من خلال احترام القانون ونشر التعليم وكذلك الحرية السياسية التي رأى الحزب فيها حياة الشعب. وأعرب الحزب عن ثقته في تعاطف تلك الأمم الأوروبية التي تنعم بالحكم الذاتي وتساعد مصر في سعيها لكسب تلك النعمة". ومرة أخرى وجد بلانت إغراءً للمجابهة لم يستطع مقاومته، حيث قال: "لكنهم يعلمون أنه ليس ثمة أمة حققت لنفسها الحرية دون بذل الجهود الحثيثة لها، وهم الآن عازمون على الصمود في موقعهم الذي كسبوه"[32].

ولم يعد ثمة أي حديث عن إصلاحات تدريجية والتمسك الحذر بنظام حكم دستوري. بيد أن بلانت الذي أثارت حماسته صورة عرابي للجيش في كونه الضامن الذي لا يقاوم لحرية العرب، والذي لم يستطع مقاومة فصاحته الشعرية نظم قصيدة كانت تحدياً مباشراً لنفوذ بريطانيا في مصر حتى إنه حرّف كنية عرابي في الترجمة حيث ذكر "عربي" تجسيداً للعرب في كل مكان.

كتب اللورد "باسي" غرنفيل Lord "Pussy" Granville وزير خارجية بريطانيا رسالة صغيرة إلى رئيس الوزراء غلادستون، قائلاً: "من الأفضل أن نتحدث قليلاً عن مصر"[33].



وليم إيوارت غلادستون

الفصل الخامس

مصر للمصريين

1882

"واذكر أن الذي سوّاكم جميعاً بشراً من لحم ودم واحد قد فرض عليكم قانون الحب المتبادل، وأن هذا الحب المتبادل لا تحده سواحل هذه الجزيرة ولا تحده حدود الحضارة المسيحية، بل هو حب يعم سطح الأرض كله، يحتضن الحقير إلى جانب العظيم في مداه الواسع".

وليم غلادستون، نائب في البرلمان، 1879

عاش السيد غلادستون حياته يعمل بوحي ضميره. في البداية قاده ضميره ليكرس حياته لخدمة المسيحية، فأوحى له بالذهاب إلى الكنيسة، وفي مرحلة لاحقة دعاه إلى مجلس العموم. امتثل للدعوة ولباها من خلال انضمامه إلى حزب التوري Tory كما كان المحافظون يعرفون آنذاك، ثم تحول إلى حزب الأحرار. وكان ضميره المرشد الذي قاده في صراعه الأيديولوجي مع بنجامين دزرائيلي Benjamin Disraeli، ثم أشار عليه بألا يحضر جنازة دزرائيلي. وأجبره ضميره على توسيع النظام الانتخابي وأن يقدم العون لعمال المطاحن في لانكشاير الذين يكابدون أشد المعاناة وليدافع عن الحكم الذاتي المحلي للإيرلنديين ولأن يدعم الولايات المنفصلة عن الاتحاد في الحرب الأهلية الأميركية. أمره ضميره بالخروج إلى شوارع لندن ليلاً للقبض على المومسات وحضهن على التوبة والتدين. وحين أطل برأسه حافز روحي أقل إلحاحاً أجبره ضميره على أن يعذب نفسه فيما بعد.

في عام 1881 بلغ هذا "العجوز الجليل" السبعين من عمره. لكنه حافظ على استقامة قوامه. كان معلماً قائداً له عينان تخفيان قوة خارقة وذقن حديدية

تختبئ تحتها ياقة ذات جناحين مرتفعين كانت سمة طراز الملابس لجيل مضى. كان الأحرار يشبّهون وجهه الصخري القسمات بوجه النسر والمحافظون يشبهونه بوجه الصقر. كان أعظم خطباء عصره، يجد الراحة حين يخلو لنفسه ويقرأ علوم اللاهوت أو يقطع الأشجار أو يمشي لأميال عديدة في الريف البريطاني. حتى شعره كان يتحدى الزمان، بحيث يتطاير في خصل مضطربة برغم كثرة الزيت عليه. أمضى أربعة عقود من الزمان في البرلمان فكان ضميره القوة التي طبعت إنكلترا الليبرالية بطابعها مثلما كانت موهبته السياسية القوة التي أسست حزب الأحرار على قواعد ثابتة. لم يكف يوماً عن تفقدهما معاً مفتشاً عن أي دنس لأنانية أو جشع.

كسبت أسرته المال من مزارع قصب السكر في الكاريبي فتمكنت من إرسال وليم الصغير إلى كلية إيتون Eton ثم إلى كلية كرايست تشيرش Christ Church في أكسفورد وبالتالي ليفوز بمقعد عن حزب التوري (المحافظين) في مجلس العموم لدائرة انتخابية "عفنة". كان هذا الشاب من أفراد حزب "التوري الأعلى" يعارض تحرير العبيد ببريطانيا ويشجب الإصلاح الانتخابي. في العقد الثاني من عضويته في البرلمان تولى حقيبة وزارة المالية في حكومة بالمرستون Palmerstone، ووفر له الأموال من أجل حرب القرم. وعندئذ تدخل ضميره وطالب بقطع العلاقات. ترك حزب "التوري" بعد أن اقتنع بالإصلاح الاجتماعي والانتخابي. وعندما فاز الأحرار في انتخابات عام 1868 صار رئيس وزراء بريطانيا.

يصف فوزه في الانتخابات وتشكيله للحكومة بقوله: "لقد كانت تجربة غيرت توجهاتي السياسية". عمل غلادستون طويلاً للتوفيق بين المسيحية والفكر الحديث والمجتمع العصري. وتمثل هذا الكفاح في سبعينيات القرن التاسع عشر بمعركة شخصية مع دزرائيلي. فقد كانا على طرفي نقيض. بينما كان دزرائيلي يزرع النباتات العرائشية في مزرعته كما لو أنه يسعى لتخليد لقبه النبيل الحاصل عليه مؤخراً حين أنعم عليه بلقب "إيرل أوف بيكونزفيلد Earl of Beaconsfield أبى غلادستون لقباً كهذا مفضلاً أن يأخذ فأساً يقطع بها شجرة

غير جديرة. وبينما انصرف دزرائيلي لكتابة الروايات محاولاً تلميع العلاقات بين الكنيسة والدولة في روايته *Coningsby* أو تلك المضامين الدينية للإمبراطورية في روايته *Tancred* كان غلادستون يكثر التأمل بمواضيع كانت أثيرة لديه هي الدين والسياسة والأدب الكلاسيكي، وذلك كله بسرور بالغ وتحت عناوين من مثل "الصخرة المنيعة للكتاب المقدس" *The Impregnable Rock of Holy Scripture* أو كتاب "الدولة وعلاقتها بالكنيسة" *The State and its Relations with the Church*"، أو كتاب "التزامن الهوميروسي *Homeric Synchronism*. كان غلادستون يعتقد أن دزرائيلي "غادر على نحو ميئوس منه" بينما وصف هذا الأخير غلادستون بأنه "خطيب يتكلف البلاغة ومفتون حتى الثمالة بحيوية وحماسة إطنابه الممل"[1].

أما الملكة فكتوريا فكانت تميل إلى أثيرها Dizzy (دزرائيلي) وما لديه من كلام بسيط ساحر وإحساس مرهف نحو وضعها بعد أن أمست أرملة، فتؤثره على غلادستون وأسلوبه الذي يحاكي أسلوب رجل الدين وافتراضاته بأنه يعرف وجدان إمبراطورة. لكن مسألة الإمبراطورية هي التي سببت هذا الانقسام المرير. عمل دزرائيلي على تطوير وتحديث رأي بالمرستون بأن على بريطانيا أن تحافظ على السلام البريطاني Pax Britannica في عالم مليء بالأحقاد والضغائن، أي في مواجهة تنافس آخذ بالانتشار سيما وأن مصالح بريطانيا العالمية بحاجة الآن للحماية من خلال إمبراطورية رسمية. أما غلادستون فكان مثالياً، يؤمن بأن "العمليات التجارية" قد أوجدت "التفاهم والصداقة بين الأمم": والتجارة الحرة قد أوجدت مصلحة عقلانية في السلام. وإن لزم الأمر فإن حلف "الوفاق الأوروبي" يمكن له أن يصحح "الشهوات والرغبات" الميالة للقتال والحروب من خلال العمل المشترك القائم على المبدأ المسيحي[2]. وهكذا يمكن تأمين "الغرض الأخلاقي العظيم لكبح الشغف عند البشر" ليس من خلال الاستبداد والطغيان، بل بنشر التجارة والوفاق و"القانون العام". ولهذا وصفه نقاده بأنه "فرد صغير من إنكلترا" يجهل أمور "ما وراء البحار"[3].

حاول غلادستون عام 1874 بعد أن عزله دزرائيلي من منصبه أن يحيا

حياة رجل اعتزل السياسة وتقاعد عن العمل، لكنه لم يقو على مقاومة إغراءات السياسة بما فيها من مبادئ سامية ومكائد دنسة. فتنته المسألة الشرقية فتصدى لها كما تصدى لأولئك المومسات اللاتي اعترض طريقهن إلى الجحيم: فهي مسألة ذات إغراء شديد وتحض على الإثم وفي الوقت نفسه يمكن خلاصها. كان واجب غلادستون "النبيل" أن يعزز بريطانيا لتكون العضو المسيحي الذي ينأى بنفسه عن التوسع في تلك الأسرة الدولية. فقد كتب في يومياته يقول: "يبدو أن الستارة التي ترتفع في الشرق ستكشف لنا أحداثاً تؤثر بصورة رئيسية على العرق البشري"[4].

وهكذا عاد إلى العمل السياسي بعد أن قضى عامين معتزلاً. وضرب على موطن الضعف في استراتيجية دزرائيلي، ألا وهو الأخلاق. ففي شهر آذار/مارس 1876 قام الجنود الأتراك من خلال قمعهم للقوميين المسيحيين في بلغاريا بارتكاب مجزرة قتل فيها نحو 15,000 من الرجال والنساء والأطفال. ففي كتابه "الفظائع البلغارية والمسألة الشرقية" *Bulgarian Horrors and The Question of the East*، شن غلادستون هجوماً عنيفاً على الحكم العثماني ووصفه بأنه "مثل طوفان من الدماء ينهمر كالمطر من أبواب السماء"، ووصف دزرائيلي بقوله إنه جعل بريطانيا تتحالف مع حكم استبدادي همجي[5]. لكن دزرائيلي تمسك بسياسته ووافق على إقامة "الرقابة الثنائية" في الحكومة المصرية، وزاد في توطيد العلاقات بين بريطانيا وتركيا بموجب معاهدة برلين. أما غلادستون الذي كانت السياسة عنده تلتقي مع مبادئه فقد اختار لنفسه أرضاً لا يألفها في السياسة الخارجية لتكون ميدان المعركة في انتخابات عام 1880. وكما تحدّث عن ذلك مرشح أقل تهذيباً وقال يجب على العامة من الليبراليين أن يتّحدوا ضد "المتطرفين الشوفينيين والمشعوذين واليهود"[6].

في شتاء عام 1879 أطلق الخطيب العظيم أول حملة انتخابية عصرية مستخدماً نماذج جاهزة وضعتها العامة والوسائط الطباعية وأنظمة النقل السريع. وكان يقوم بجولات واسعة في دائرته الانتخابية Midlothian الاسكتلندية تتبعه الجموع الحاشدة من الصحفيين ويخاطب الآلاف من الناخبين عند كل محطة

يتوقف فيها. كان دوماً الخطيب المفوه الذي يقدم أفضل ما لديه وهو ينتصب خطيباً فوق الصندوق، لكن جمهوره الحقيقي كان أولئك العامة من الناس المثقفين حديثاً والمتحررين الذين بمقدورهم قراءة خطاباته وهم يتناولون الفطور في اليوم التالي. وفي ربيع عام 1880 انطلق في جولة ثانية لحملته مستخدماً سكة الحديد متجهاً للدوائر الانتخابية الهامة من لندن وحتى أدنبره.

ومن "أعلى مواقع المبدأ" شن غلادسون هجومه على "ذاك التعصب الخبيث" لمغامرات دزرائيلي الخارجية بالحرب في أفغانستان وأعمال الضم في فيجي وقبرص وإفريقيا، وذلك التحالف المخجل مع "أعمال القمع والسحق" في تركيا العثمانية. وقال إن على الناس أن يقفوا بوجه دزرائيلي ويقاوموا "خداعه" وحركاته المسرحية بإضافة كلمة "إمبراطورة" إلى لقب الملكة فكتوريا، وتعهداته "الخطرة والغامضة غير العملية والمستحيلة والتي لا مسوغ لها". إن أسهم قناة السويس كانت "مجرد تضليل وخداع". وقبرص "عبء لا قيمة له". وتركيا تقمع الأقليات عندها بقسوة "لعلها فريدة من نوعها في تاريخ البشرية". إن استراتيجية دزرائيلي الاستعمارية "ليست سوى وصفة شديدة البشاعة" لحرب استباقية دائمة: "جزيرة صغيرة تقع في ركن صغير من العالم امتلكت لنفسها أراضي شاسعة المساحة في الركن الآخر من العالم يحق لها أن تقول بكل احترام لكل أرض وكل بحر يقع بين سواحلها وأي جزء آخر من ممتلكاتها الواسعة بأن لها حق الأفضلية بامتلاك أو السيطرة على الأراضي الوسيطة لكي تحمي كما يقولون الطريق إلى الهند"(7).

وقال بأسلوبه الخطابي البليغ "لا تجعلوا تلك النداءات التي تحض على العزة القومية تعمي أبصاركم عن إملاءات العدالة. واذكروا حقوق الرجل البدائي كما نحن نسميه"(8).

واستشهد دزرائيلي بروما القديمة التي وصفها بأنها المثل الأعلى "للإمبراطورية والحرية". لكن أيام القياصرة لن تعود في ظل حكومة غلادستون. "لقد جلبت لنا العصور الحديثة حالة مختلفة للأشياء. فقد أقامت العصور الحديثة ما يسمى بأخوية الأمم المتساوية والمستقلة، وكل واحدة منها

قائمة على ذلك الدفاع المشروع الذي يقدمه القانون العام لكل دولة تعيش ضمن حدودها الخاصة وتسعى لإدارة شؤونها الخاصة". إن على بريطانيا أن تناصر حقوق المساواة بين الأمم وعليها أيضاً "أن تعمل بوحي من عشق الحرية"[9].

وهكذا اقترع الناخبون لصالح عودة "الأحرار" إلى السلطة، وعاد غلادستون إلى داوننغ ستريت مقر رئاسة الوزارة، لكن هؤلاء "الأحرار" كانوا ائتلافاً في كل شيء ما عدا الاسم. ففي أحد الجوانب هنالك الأرستقراطيون من حزب "ويغز Whigs" الذين أسسوا هذا الحزب، وعلى الجانب الآخر يوجد الراديكاليون من الطبقة الوسطى الذين كانوا يعرفون كيف يخاطبون الناخبين الجدد. ومحور هذا الائتلاف كان غلادستون الذي جسد ببلاغته ذلك الإرث الليبرالي للتجارة الحرة. لقد كان حقاً بحاجة لكل تلك البلاغة. ففي القضايا الكبرى مثل قضية إيرلندا وقضية الإمبراطورية كان مجلس الوزراء منقسماً على نفسه ليس وفق الانقسام بين "الويغز والراديكاليين" بل انقساماً قائماً على معتقدات شخصية. كانت التحالفات تتشكل، وتنهار، حول قضايا بمفردها. ففي بعض الأحيان كان غلادستون يلتقي بأفكاره مع مارق من حزب "التوري Tory" مثل اللورد رودولف تشرشل بخصوص حكم محلي ومناهض للاستعمار أكثر ما يلتقي مع وزراء في حكومته. وقد أمل غلادستون بعد الانتخابات أن يسقط من برنامجه ذلك التركيز الانتهازي على "ما وراء البحار" ويركز على منح إيرلندا الحكم المحلي. لكن اهتمام بريطانيا المتزايد في المسألة الشرقية سرعان ما شدت سياسته الخارجية الأخلاقية إلى المستنقع المصري.

كان غلادستون يشجب دوماً سياسة التدخل في شؤون مصر. فقد قال عام 1877 محذراً: "إن نظرتنا الأولى إلى مصر، سواء كانت من طريق السرقة أم الشراء تشير إلى أنها ستكون على نحو أكيد تقريباً البيضة المحتملة لإمبراطورية في شمال إفريقيا سوف تكبر وتكبر ... حتى نضم أيدينا في النهاية عبر خط الاستواء لتتشابك مع مدينة الكاب Cape Town وناتال Natal"[10].

ومع أن "الفظائع التي ارتكبت في بلغاريا" كانت كافية لإقناع غلادستون

بأن الحكم العثماني "عاجز أساساً عن إقامة حكومة جيدة أو مقبولة تحكم الأجناس المسيحية والمتحضرة"، إلا أنه كان حذراً ويحترس من التدخل في العالم الإسلامي. وفي هذا يقول "إن الحساسيات التي قد نسيء إليها في مصر هي مشاعر عادلة ومعقولة. فقد عاش فيها مجتمع إسلامي لقرون عدة، وكان هذا المجتمع على الدوام محكوماً بسلطات إسلامية ونفوذ إسلامي". وكان ذلك يبدو لا أخلاقياً. والوجدان يقتضي أن نشجع المصريين، مثلما نشجع أي شعب آخر، على التوصل إلى "غايات مجتمع سياسي كما يفهمونها هم". ودون تدخل أجنبي[11].

غير أن غلادستون في الوقت عينه قد استثمر استثمارات كبرى في الاقتصاد المصري. ففي عام 1875 اشترى سندات القروض المصرية بما يعادل 25,000 جنيه، وفي عام 1878 بما قيمته 5,000 جنيه، وفي عام 1879 أضاف إلى ذلك 15,000 جنيه. وما أن جاء شهر كانون الأول/ديسمبر عام 1881 حتى كان يملك أسهماً مصرية بقيمة ورقية تبلغ 51,000 جنيه. ولكن بمعزل عن تأثيرها في موقع بريطانيا العالمي كان من شأن سياسته المصرية أن تؤثر فيما يملكه، سيما وأن ضعف الأداء جعل قيمة ذلك في السوق لا تزيد عن 40,567 جنيه[12]. وهنا احتفظ ضمير غلادستون بصمته بخصوص تضارب المصالح. وظل تشوهاً مستتراً مثل الإصبع الوسطى في يده اليسرى التي بُترت جراء حادث وقع له في أثناء الصيد، يغطيه دوماً عن أعين الناس بالقفاز أو ربما بالقبعة أو الغطاء الجلدي الواقي للأصابع.

وهنا حذره وزير خارجيته اللورد غرانفيل Lord Granville قائلاً: "سوف نعاني من أزمة سريعاً إن لم تكن لدينا سياسة معينة، أي سياسة. فهل ينبغي لنا أن ندعو إلى جلسة لمجلس الوزراء؟"

كان "باسي" Pussy غرانفيل واحداً من الأعضاء الملتزمين بتقاليد حزب "الويغز Whigs". فهو أرستقراطي النهج، يملك منزلاً فخماً في ضاحية Mayfair، يميل إلى السمنة ويعاني من ضعف في السمع، تحيط بوجهه هالة من ذؤابات بيضاء جعلته يبدو مثل ملاك أغوته الملذات. وقد أثبتت التجربة أن

النجاح يأتي من خلال "إضاعة الوقت في المسائل" وليس من خلال الوثوب إليها. وقد أربكته مصر. فقال لغلادستون معترفاً بذلك: "لست على استعداد لاقتراح أي شيء"[13].

حتى غلادستون نفسه لم يكن يرغب في اقتراح أية سياسة. فقد أحس بأنه لا يملك "معلومات حول فوائد ذلك الصراع"، وكان محقاً في ذلك[14]. فالصحافة البريطانية لم تقدم أكثر من صورة مجتزأة لحقيقة الشؤون المصرية. وتحدثت صحيفة التايمز بقلم مراسلها في القاهرة موبرلي بيل Moberley Bell أن الشأن السياسي المصري ما هو إلا سلسلة من قضايا تتعلق بالأسهم، بينما كان مراسل جريدة بول مول غازيت *Pall Mall Gazette* هو السير أوكلاند كولفن Sir Auckland Colvin الذي كان عضواً في لجنة الرقابة الثنائية. وفي وزارة الخارجية كان اللورد غرانفيل يتلقى آراءً ضيقة مماثلة. وكان القنصل البريطاني في القاهرة سير إدوارد ماليت Sir Edward Malet يرى أن الإصلاحيين لا يشكلون أي تهديد للمصالح البريطانية. حيث كانت تأتي مصادر معلومات هذا القنصل بخصوص أحمد عرابي من خلال ألعاب كرة المضرب التي يمارسها مع ولفريد بلانت Wilfried Blunt على ملعب في حدائق القنصلية، وقد رسم بلانت صورة لعرابي بألوان الليبرالية الأوروبية. وحيث إنه لا توجد أية انطباعات متغايرة اتفق غلادستون ووزير خارجيته غرانفيل على أن المبدأ الأكثر أهمية يتمثل في الحفاظ على علاقات ودية مع فرنسا، العضو الثاني في فريق الرقابة الثنائية، ورئيس وزرائها الجديد ليون غامبيتا Leon Gambetta.

والحق يقال إنه بسبب عدم وجود رد فعل بريطاني لهذه الأزمة في مصر أتيح لفرنسا أن تملي سياسة "الرقابة الثنائية" Dual Control. تولى غامبيتا منصبه رئيساً لوزراء فرنسا في تشرين الثاني/نوفمبر 1881 ليواجه الثورات المشتعلة في تونس والجزائر. وقد كان يرجع أسباب هذه الثورات، ليس للشعور القومي المتصاعد، بل لتحريض إسلامي على القيام بأعمال الشغب يحركه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. والكرامة الفرنسية التي لا تزال تعاني من ذيول الهزيمة التي ألحقتها بها بروسيا عام 1871 كانت تمنعها من تقديم

التنازلات للقوميين المسلمين في شمال إفريقيا، ولا بد من إرسال الزوارق الحربية الفرنسية والبريطانية إلى الإسكندرية على الفور، وأن تتخذ الترتيبات اللازمة لفرض رقابة عسكرية مشتركة يكون من شأنها إدخال "النظام والانضباط" إلى الجيش المصري[15].

وفي هذا الصدد قال غرانفيل محذراً غلادستون: "سوف يقترحون احتلالاً مشتركاً، وهذا أمر خطير جداً"[16]. وقد استطاع غرانفيل أن يقنع غامبيتا بإصدار "مذكرة مشتركة" توجه إلى القوميين المصريين تحذرهم من أن أي تحرك قد يمس وضع الخديوي أو الرقابة الثنائية أو الميزانية سوف يواجه بالقوة. وأحس إحساساً جازماً أن هذه المذكرة تدعو المصريين لتنفيذ تهديداتهم. فإن بقي المصريون لا يحركون ساكناً عندئذ ليس مهماً إن اعتقد غامبيتا بأن تلك "المذكرة المشتركة" هي مقدمة لعملية الضم.

وصلت مسوّدة غامبيتا لهذه المذكرة إلى لندن في اليوم الأول من عام 1882. وفي ذلك الصباح عينه نشرت صحيفة التايمز اللندنية بيان عرابي الرسمي. وهكذا شكل الظهور المفاجئ للقومية الحديثة في مصر المسلمة مفاجأة لغلادستون، حيث قال إن "الأفكار" الخاصة بالمشاعر القومية وظهور حزب وطني "لا تتوافق" مع طبيعة الشعب المصري. "كيف حصل ذلك، لست أدري، فمعظم هذه الأشياء يشكل حالة غريبة إذا كان الجيش المصري الحالي قد رعاها. ولكن يبدو أنها موجودة هناك". كان غلادستون يعتقد أن كل امرئ لديه الحق بأن يكون مثله، ولا يمكن لمن يدافع عن الأقليات المضطهدة أن يفشل في أول امتحان لسياسته الخارجية. فقد قال لوزير خارجيته: "مصر للمصريين، هو الشعار الذي أتمنى أن أعطيه المجال، وإن تحقق فسوف يكون الأفضل باعتقادي فهو الحل الوحيد الجيد للمسألة المصرية"[17].

وبهذه النبرة نفسها تحدث إلى غرانفيل وصادق غلادستون على مسوّدة "المذكرة المشتركة" التي قدمها غامبيتا. وهنا أملى عليه ضميره احترام "القانون العام" للوفاق "الأنغلوفرنسي"[18] دون أن ينسى "مصالح حملة السندات"[19]. وطالما أن الحزب الوطني يعترف بهذه الحدود فلن يكون ثمة

حاجة للزوارق الحربية، ومن باب أولى الضم. واعتقد غلادستون أن هذه المذكرة المشتركة ستبقى كما أراد ذلك وزير خارجيته غرانفيل مجرد خدعة بلاغية.

بعد خمسة أيام وصلت هذه المذكرة المشتركة إلى القنصلية في القاهرة. وأدرك القنصل السير إدوارد ماليت أن المتمردين المصريين لن يفسروا التهديد الوارد بالمذكرة بأنه مجرد كلام.

فقد قال لولفريد بلانت وهو يحدثه: "سيجدونه إعلان حرب"[20]. وطلب إلى ضيفه بلانت أن يذهب إلى صديقه العقيد أحمد عرابي ويقنعه بحسن نوايا بريطانيا. وعندما ذهب إليه في وزارة الحربية وجده جالساً إلى مكتبه واجماً مكفهر الوجه "كسحابة تحمل البرق والرعد" وفي عينيه "لمعان غريب".

استقبله عرابي وقال غاضباً وهو يكاد ينفجر: "إنها لغة تهديد ووعيد، إنها تهديد لحرياتنا. دعهم يأتون. كل رجل وامرأة وطفل في مصر سوف يحاربهم!"[21]

"يا لهذا الخطأ الفاضح!" قالها شريف باشا وهو يقرأ تلك المذكرة[22].

لقد فعل شريف باشا كل ما يستطيع ليسترضي الفرنسيين والبريطانيين. استبعد الضباط ورجال الدين من حكومته. وملأ مجلس الأعيان بأعضاء من الأتراك المعتدلين. ومسوّدة القانون الأساسي للدستور أعطت لتسديد الديون أولوية على الحريات. والآن وحيث إنه قد وقع بين سندان بلانت وعرابي ومناشدة محمد عبده الراديكالية لبريطانيا ومطرقة تهديدات المذكرة المشتركة وجد نفسه قد خسر مركز الوسط. فقد جاءت هذه المذكرة المشتركة لتقنع الجميع بمن فيهم الأعيان المعتدلون الذين جاء بهم شريف باشا إلى المجلس بأن بريطانيا تنوي ضم مصر كما فعلت فرنسا وضمت تونس. فقامت جماعة الأغلبية من الأعيان بقيادة محمود سامي البارودي صديق عرابي والمدافع عنه بالمطالبة بأن القانون الأساسي المقترح يجب أن يستعيد السيطرة الكاملة على أموال مصر. ولم يكن شريف باشا يرغب بأن يكون رئيساً لحكومة تدير ظهرها لالتزامات مصر الدولية، فاستقال.

وقد أوضح ذلك في حديثه مع بلانت حيث قال: "قدمت لهم دستوراً جيداً ولصالحهم، فإن لم يقنعوا به فليقبلوا بعدم وجود دستور"[23].

يشير بلانت إلى ذلك في كتابه *Secret History* وبشيء من الرضا: "بقيت لعدة أيام بعد ذلك ولم أسمع شيئاً من أصدقائي سوى لغة المبادئ الإسلامية العامة"[24].

واختار الأعيان محمود سامي البارودي زعيماً جديداً لهم، ونسبته تعني باللغة العربية "معمل مسحوق البارود". وهو أرستقراطي من الأتراك له طموحات شاعر. وبينما كان أحمد عرابي من أولئك الذين تلقوا علومهم في المدارس الدينية ويقرأ قصة حياة نابليون باللغة العربية، كان البارودي يقرأ باللغة الفرنسية مزيجاً من أعمال مونتسكيو الكاملة *Collected Works* والمعجم السياسي *Dictionary of Politics* إلى جانب كتاب ألف ليلة وليلة في باريس[25]. وكان يأمل من خلال تبنيه لعرابي وللضباط أن يكسب المزيد من مسرات السلطة. رفّع عرابي من رتبة عقيد بالجيش إلى رتبة لواء وعيّنه وزيراً للحربية. ووظف المئات من الضباط المصريين ومنحهم الترقيات، وملأ حكومته الجديدة بالمصريين. لكنه حرص حرصاً شديداً على عدم استقدام السفن الحربية الأوروبية إلى الإسكندرية. وعد باحترام جدولة ديون مصر، ووضع تصوره لدستور لا يختلف عن دستور شريف باشا.

لكن دقائق سياسة البارودي لم تصل إلى لندن وباريس. عرابي لا يتحدث لغة غير العربية والتركية، وإن تفاوض هو والبارودي مع بريطانيا وفرنسا فذلك يكون عبر وسطاء محليين فقط، لذلك كان أعضاء هيئة الرقابة الثنائية والقناصل ومدبر المكائد ولفريد بلانت يحرفون تقاريرهم بما يتلاءم مع أهوائهم. وفي غضون ذلك كانت الحكومة الفرنسية ترى في صعود البارودي وعرابي شكلاً لانقلاب عسكري، ورأت الحكومة البريطانية ذلك في ضوء تحالفها الفرنسي. لهذا كان من شأن هذه الفوضى أن دفعت البارودي وعرابي نحو تركيا العثمانية التي رأيا فيها الحامي الوحيد لهما. وحيث إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يأمل بأن يستعيد مصر إلى فلكه العثماني فقد شجعهما وأنعم على عرابي برتبة فريق في الجيش ولقب باشا.

ولكي تكتمل هذه الفوضى سقطت حكومة غامبيتا الذي كان المحرض على إرسال المذكرة المشتركة بعد أسابيع قليلة من إرسال تلك المذكرة. وخلفه في المنصب شارل دو فريسينيه Charles de Freycinet الذي لقب بـ "الفأر الأبيض" بسبب خوفه وحذره. لم يستطع هذا الخلف أن يتراجع عن التهديد الذي أطلقه سلفه ضد مصر، ولم يكن يرغب في الوقت عينه في استثارة عداء البرلمان الفرنسي من خلال طلب التصويت على حملة عسكرية. فأصر على أن تواصل بريطانيا وفرنسا تأييدهما للمذكرة المشتركة، وهو يعلم في سره أن غلبة المصالح البريطانية في مصر ستجبر بريطانيا على اتخاذ زمام المبادرة في هذا الشأن.

أما في لندن فقد كان غلادستون وغرانفيل يحاولان دون جدوى إيجاد الرد على ذلك. وبينما كانا يدرسان مواد وبنود الدستور المصري تداعى النظام الدولي وانهار.

وفي هذا السياق حذرت صحيفة البول مول غازيت قائلة "نار تحت الرماد في مصر"[26].

وفي باريس قال دو فريسينيه: "من العبث النقاش حول طراز السجاد عندما يكون المنزل الذي سيوضع فيه يحترق".

غير أن السير أوكلاند كولفن أخذ هذا التشبيه وأطنب فيه حين تكلم في القاهرة ناصحاً: "المنزل يتداعى على مسمع منا، والوقت ليس ملائماً للجدال حول ما إذا كان ممكناً إضافة طابق جديد له". فمصر، كما قال، تحت حكم "استبدادي عسكري" والرقابة الثنائية لم تعد قائمة[27].

عندما رأى غلادستون أن هذا الثنائي الأنغلوفرنسي قد أخفق حاول تدويل المشكلة عبر إقامة تحالفات ثلاثية أو رباعية من دول حلف الوفاق الأوروبي. وبعد أن تغلب على نفوره واشمئزازه من تركيا اقترح هذا السياسي الذي ألف كتاب "فظائع بلغاريا" *Bulgarian Horrors* إرسال قوات تركية إلى مصر. لكن السلطان العثماني تصرف غاضباً قبل أن يدرس هذا

الطلب، قائلاً إن على بريطانيا وفرنسا أن تقدما اعتذاراً عن توجيه تلك المذكرة المشتركة دون التشاور معه. وقد اعتذر غرانفيل بكل تواضع، لكن عبد الحميد الثاني، على أية حال، رفض إرسال أي قوات. لم يشأ أن يوقف ذاك الاندفاع المصري نحو تركيا. ولم يشأ أيضاً أن يسمح بحل التدويل رافضاً طلب فرنسا بأن يقوم هو بدعوة دول الوفاق الأوروبي لاجتماع طارئ في القسطنطينية. لكنه وافق، من جهة أخرى، على إرسال قائد عسكري تركي لمحاولة إقناع المتمردين، ويبدو أن ذلك كان بمثابة دعوة لجعل الأحداث لصالحه.

إزاء هذا الوضع كتب غلادستون إلى غرانفيل يقول: "السلطان كاذب ومراوغ ويحاول أن يجعل كل شيء ضدنا"[28].

وفي الوقت الذي امتنع فيه السلطان العثماني عن تلبية طلب غلادستون بإرسال قواته، حاول الفرنسيون منعه من التفاوض مع المتمردين. وفي أوائل شهر أيار/مايو أقفل أمامه باب الاختيار. وهكذا أمست سياسة غلادستون في مصر أسيرة سياسته في إيرلندا، كما لو أن ذلك يعد تبياناً للرابطة بين السياستين الداخلية والخارجية وقوة الإرهاب.

بعث غلادستون بمبعوثين إلى إيرلندا من أجل التفاوض مع القوميين من جماعة Fenian. وبتاريخ السادس من أيار/مايو عام 1882 قام أعضاء جماعة برلمانية منشقة تدعى "The Invincibles" بقتلهما بسكاكين تستخدم في العمليات الجراحية في وضح النهار وعلى أبواب مبنى Phoenix Park مقر السلطة البريطانية. وكان أحد هذين المقتولين توماس بيرك Thomas Burke وكيل وزارة الخارجية للشؤون الإيرلندية، وكان الثاني اللورد فريدريك كافندش Lord Fredrick Cavendish شقيق وزير الحربية اللورد هارتنغتون Lord Hartington وقريب غلادستون من جهة زوجته. فكانت حادثة القتل على أبواب مبنى فينكس بارك سبباً لموقف متصلب اتخذه مجلس الوزراء، حيث أصر هارتنغتون على الامتناع عن مفاوضة الإرهابيين. وكان على غلادستون أن يختار بين التخلي عن سياسته الإيرلندية أو الانقسام داخل حكومته فاختار الإبقاء على

حكومته كما هي. وهكذا كان الوضع أيضاً في السياسة المصرية: أي التوافق وإجماع الرأي داخل الحكومة وسياسة القسوة والشدة.

كان الخيار الوحيد أمامه أن يطيح بالحكومة القومية ويستبدلها بحكومة ألعوبة بين يديه يمكن الاعتماد عليها، وبعدئذ ينسحب. أصر الفرنسيون على إرسال أسطول مشترك، وحاول غلادستون تدويل هذا الأمر أيضاً لكن وزير الخارجية الفرنسي تيسو Tissot منعه من ذلك. وبتاريخ الثالث عشر من أيار/ مايو استسلم غلادستون لهذا الموقف. ومن قاعدة سلاح البحرية الملكي في خليج سودا Suda Bay في جزيرة كريت أبحر أسطول الأميرال الشرس سير بوشامب سيمور Sir Beauchamp Seymour المعروف بلقبه "موج البحر المحيط الهادر"[29].

أبرق بلانت إلى عرابي مبتهجاً يقول "لا تخف من هذه السفن، فلن يكون ثمة تدخل"[30].

فسر بلانت غموض غلادستون بأنه تأييد للثورة المصرية. لكن عرابي الذي تنقصه الخبرة والمعلومات الكافية لم يحسن اللعب بأوراقه. وبينما كان غلادستون يسير نحو الحرب وسيمور يبحر نحو الجنوب قدّم عرابي دون أن يدري ذريعة للتدخل. وقام بعمل يستعرض فيه قوته.

ما أن تسلم عرابي حقيبة وزارة الحربية حتى جعل سياسات التمييز القديمة كلها لصالح المصريين وضد الصفوة التركية. أعاد توظيف الضباط المصريين الذين سُرِّحوا من وظائفهم، وطرد من الوزارة نحو 700 من الأتراك وأرسل العشرات منهم إلى مواقع متقدمة في السودان. واحتجاجاً على هذه السياسة غادر البلاد بعض الضباط الأتراك الذين ظلوا في القاهرة فارين إلى السلطان العثماني. وبعد وقت قصير عقب حركة التطهير هذه اكتشف أنصار عرابي مؤامرة لدس السم في طعام عبد العال، قائد الفرقة السودانية. وتبين لعرابي نفسه وجود مكيدة تركية ضد توليه مسؤولية الجيش، وتبدو ظاهرياً أنها

بتمويل من الخديوي السابق إسماعيل. اعتقل 40 ضابطاً تركياً، وكان من بين هؤلاء المعتقلين خصمه وعدوه القديم عثمان رفقي باشا. وفي أواخر شهر نيسان/أبريل، وعندما بدأت المحاكمات العسكرية، كان عرابي يقضي أيامه ولياليه في ثكنة عابدين محتمياً من أي محاولة لاغتياله، وكانت والدة عبد العال تحتفظ بالمياه التي كان يشربها داخل خزانة مقفلة بالمفتاح. أصدرت المحاكم أحكامها ضد الضباط الأربعين جميعاً فجردتهم من رتبهم العسكرية وحكمت عليهم بالنفي إلى السودان.

رفعت هذه الأحكام إلى الخديوي توفيق للموافقة. فأدرك الخديوي أن حركة تطهير الضباط الأتراك جعلته رمزاً اتخذته لنفسها ثورة داخلية. ومع أن الدولة لا تزال تقوم بوظائفها إلا أن البلاد قد شهدت انقلاباً عسكرياً. فكان التدخل الأجنبي أمله الوحيد. وبتوجيه من السير إدوارد ماليت رفض التوقيع على أحكام المحكمة وأحالها للتصويت في مجلس الأعيان. فأحست الأغلبية التركية في هذا المجلس بأن البارودي وعرابي يعملان على تحويل مصر إلى نظام حكم دكتاتوري فاقترعوا ضد هذه الأحكام. وهكذا كان الخديوي الآن في حالة من الخوف الحقيقي على حياته، وعلى غير وفاق مع جيشه.

فيما بعد وصلت برقية من لندن تنذر بأن السفن الحربية البريطانية والفرنسية في طريقها إلى الإسكندرية، وأن أي فوضى تحصل داخل مصر سوف تؤدي إلى التدخل. تقدم البارودي وعرابي باستقالتيهما لكن الخديوي توفيق رفض قبولها. فلا أحد في الجانبين يريد أن يكون مسؤولاً عما يحصل في مصر حين تصل السفن الحربية. وقرر الوزراء الثوار البقاء في مناصبهم، فإن كان لا بد من الحرب فمن الأفضل أن يقاتلوا من موقع القوة.

في صباح يوم التاسع عشر من شهر أيار/مايو 1882 أشار حرس عرابي الرابضون على أسوار الإسكندرية إلى رسو سفن حربية مدرعة خارج الميناء. وفي صباح اليوم التالي وصلت السفن الفرنسية. وغادر المدينة هرباً رتل طويل

من أهالي الإسكندرية، وتوجه رتل آخر طويل إلى منزل عرابي. وانهار النظام وعمت الفوضى.

أصدر القنصلان البريطاني والفرنسي مذكرة "ثنائية" بمثابة إنذار يطالبان فيها بوجوب استقالة حكومة البارودي وانسحاب القوات كافة إلى خارج المدينة ونفي عرابي. فاستقالت الحكومة بكامل أعضائها، وأرسل الخديوي في طلب شريف باشا لكن هذا الأخير رفض تشكيل الحكومة، قائلاً ليس من الممكن تشكيل حكومة جديدة دون تدخل الجيش. عندئذ تدخل ضباط الجيش وبعثوا ببرقية يرفضون فيها قبول استقالة عرابي. وهكذا بدّل الخديوي موقفه وطلب من عرابي أن يعود.

قبل عرابي هذا الطلب. وطمأن القنصلين بأنه قد تولى المسؤولية وأنه لن يكون ثمة إطلاق نار وأن مصر لا تزال تحترم السلطان وديونها. وفي الوقت عينه عمل على تحصين أسوار الإسكندرية. لكن الخديوي في تلك الأثناء كان يعد العدة لحرب أهلية. فقد توافد على الإسكندرية الآلاف من أنصاره البدو. وقام عمر لطفي باشا قائد شرطة الإسكندرية الموالي لتوفيق بشراء كل ما كان متوفراً من عصي النبوت، تلك العصي الخشبية الغليظة التي يستعملها الحراس الليليون ووزعها على البدو وعلى الفقراء من مواطني الإسكندرية العرب. وتحصن الأوروبيون المقيمون في الإسكندرية داخل بيوتهم بعد أن خزنوا فيها البنادق والمؤن.

بتاريخ الثامن من حزيران/يونيو أطلق السلطان العثماني شرارتين في العلبة المصرية المهيأة للانفجار، فأرسل مبعوثين أحدهما بهدف التهدئة والإقناع والآخر لإكراه الثوار على العودة إلى معسكر العثمانيين. كان الأول الشيخ أحمد أسعد وهو واحد من المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية الذين جمعهم عبد الحميد حوله في القسطنطينية ليقفوا قلعة حصينة في وجه الانفصاليين العرب. تعهد الشيخ أسعد أمام عرابي وعلماء الأزهر بأن السلطان سيحمي ذلك المظهر الإسلامي لقوميتهم. وبالمقابل أكد عرابي للسلطان ولاءه واستعداده لقبول حلمي عم توفيق ليكون الخديوي الجديد لمصر وبأنه "يقاتل في سبيل الوحدة الإسلامية وأنه على استعداد للتضحية بحياته"[31].

أما المبعوث الثاني فكان الجنرال السيّىء السمعة درويش باشا. يُحكى عنه أنه حين كان في ألبانيا ربط اثنين من السجناء المتمردين ظهراً لظهر وأعدم واحداً منهما وترك الثاني مربوطاً بالجثة. وفي هذا يذكر جون مورلي John Morley في صحيفة بول مول غازيت "درويش رجل من الحديد وسيجبن عربي (هكذا) ويرتعد أمام عينيه. كلمة واحدة فيها شيء من الوقاحة وترى رأسه يتدحرج على الأرض"[32].

استقبل الخديوي درويش باشا وحياه بهدية (بقشيش) بمبلغ 50,000 جنيه ومجوهرات بقيمة 25,000 جنيه. أما القوميون فحيوه بهتافات: "نصر الله السلطان! المذكرة؟ ارفضها، ارفضها!"[33]

لكن أياً من هذين الاستقبالين لم يزحزح درويش عن موقفه. فقد جاء لهدف وحيد هو أن يصعّد التوتر لصالح السلطان. ومرة أخرى قدّم له عرابي الذريعة لذلك. فقد أخذ يتباهى أمام درويش باشا بأنه طوال السنوات الأربع الفائتة كان يعمل في "التحضير لحلف إسلامي يمتد من أعماق إفريقيا وحتى أطراف الهند" ليبيا والجزائر وتونس والسودان و"غيرها من البلدان البعيدة" الأعضاء في هذا "الاتحاد الإسلامي" السري هي جميعاً على أهبة الاستعداد للثورة بالتوافق مع المصريين[34]. فكان هذا الادعاء المشبع برؤية جمال الدين الأفغاني الملتهبة بمثابة تهديد لخلافة السلطان بقدر ما هو تهديد للنفوذ الأوروبي. فالفضائل المرنة للدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية شكلت هجوماً سهلاً على الإمبراطورية العثمانية مثلما تؤكد صحتها.

أمر درويش باشا عرابي بالتوجه فوراً إلى القسطنطينية، لكن عرابي رفض ذلك. وبغية التصدي لمحمد عبده وأتباعه قام درويش باشا بجولة على مساجد القاهرة مطلقاً اتهاماته ضد المشايخ الراديكاليين بتهديد مصالح السلطان خليفة المسلمين. لكن حملته هذه ارتدت عليه. فبتحريض من عبد الله نديم ربيب الأفغاني قام الآلاف من طلبة الأزهر بالتظاهر وأعمال الشغب في شوارع القاهرة. وتجمع أنصار عرابي حول قائدهم ووضع محمد عبده صيغة ليمين ولاء بأسلوب ماسوني، يقول: إذا هم تخلوا عن عرابي وذهب للنفي فستقطع

أعناقهم وتقص ألسنتهم وتستأصل قلوبهم. وبتصرف تقليدي أكثر منه راديكالي أصدر الشيخ عُليش، شيخ الجامع الأزهر، فتوى ضد الخديوي توفيق، تقول إن الخديوي قد ارتكب إثماً ضد الإسلام من خلال دعوته لأسطول مسيحي لدخول بلد إسلامي[35].

قال شيخ الأزهر في فتواه: "يجب أن يطرد وينبذ وأن يعين مكانه رجل يشرف على تطبيق القانون ويدافع عنه ويحترم حقوق أمير المؤمنين". واستشهد بالآية القائلة: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم"[36].

وبينما كان أنصار عرابي يدخلون المزيد من المدفعية يحصنون بها استحكاماتهم انسحب درويش باشا واختبأ في أحد قصور الخديوي. وتبين أن مصر آخذة بالانفصال عن القسطنطينية على متن موجة قومية مفعمة بغضب إسلامي. ومن ميناء الإسكندرية أبرق السير بوشامب سيمور إلى لندن قائلاً: "الأميرال يريد المزيد من السفن وذلك بسبب وجود سواتر ترابية أقيمت في مواجهة السفينة *Invincible*"[37].

كان غلادستون قد أعلن أمام مجلس العموم بتاريخ الأول من حزيران/ يونيو أن عرابي قد "أزال القناع عن وجهه"[38]. فقد تبين أن الحركة الوطنية المصرية قد جعلت نفسها جبهة لسيطرة العسكريين. فالضمير والمصلحة القومية يقتضيان استعادة "القانون العام". وانطلقت سفن حربية بريطانية أخرى باتجاه الإسكندرية.

في غضون ذلك كتب بلانت في يومياته "يبدو أن كل شيء يسير سيراً حسناً. وتم الاعتراف بعربي [هكذا] سيداً للموقف في مصر"[39].

من جهة أخرى، ذكرت صحيفة التايمز اللندنية ما يلي: "تشير التقارير الاستخباراتية من السودان أن نزاعاً نشب بين السكان والعسكريين كان سببه مواعظ من 'نبي كذاب'، لكن ارتفاع منسوب مياه النيل يبعث على الرضا"[40].

وبينما كانت أنظار المصريين جميعاً تركز على الدلتا، لم يرد أي ذكر في القاهرة للجوء متعصب ديني وأتباعه إلى أقصى زاوية في كُردفان. فالخطة الاقتصادية التي وضعها رياض باشا وزعت شؤون السودان بين الوزارات المعنية في حكومة القاهرة، وأدت إلى تقليص عديد الجيش في كل من مصر والسودان. لكن ثورة عرابي أوجبت إلغاء التخفيضات في عديد الجيش، إنما بقيت الفرق الجديدة في منطقة الدلتا حيث أراد لها ذلك الخديوي توفيق وشريف باشا وعرابي نفسه لتكون رافعة لهم في ذلك الصراع السياسي. ومع أن وزارة الحربية هي المسؤولة عن قمع ثورة المهدي إلا أن محمود سامي البارودي وعرابي قد تجاهلا أمر السودان لصالح حملتهما ضد الخديوي، وبينما كان الوزراء يصعدون ويسقطون في القاهرة كانت السياسة تتفكك والأموال تجف.

ومع أن الحاكم العام محمد رؤوف باشا كان متعاطفاً مع عرابي إلا أن همه الأول كان المحافظة على موقعه. ومن هذا المنطلق للاسترضاء أدار ظهره للتحذيرات الواردة إليه من زعيم طائفة السمانية الشيخ نور الدائم والقائلة بأن المهدي يحشد أتباعه للقيام بثورة. ولم يقرع ناقوس الخطر بأن المهدي قد حمل السلاح بوجه الحكومة. فكان تقريره المرسل إلى القاهرة يقلل من أهمية تلك المعركة الليلية التي وقعت في جزيرة أبا واصفاً إياها بأنها مجرد نزاع بسيط. لكن المهدي بنظر رؤوف باشا لم يكن نبياً، بل كذاباً. وبغية سحقه أرسل حاكم كردفان نحو ألف من الجنود إلى جزيرة أبا[41].

وفي الوقت الذي كان فيه الجنود يذهبون باتجاه شمال شرق كان المهدي وأتباعه يفرون في الاتجاه المعاكس. وحين وجد الجنود جزيرة أبا خالية من السكان أحرقوا المستوطنة بأكملها - المسجد والقرية والبساتين - ثم تتبعوا رحلة المهدي باتجاه الجنوب الغربي. وكان الجواسيس يراقبون كل تحرك وصوت. كان المهدي يسير خفيفاً دون جلبة، فتمكن من تفادي من يتبعه بسهولة. وعندما هطل المطر الغزير في أيلول/سبتمبر وفاضت بها الطرقات والأنهار تخلى رتل الجنود عن مطاردته وعادوا جميعاً أدراجهم إلى مدينة الأبيَض تاركين للمهدي حرية إقامة قاعدة جديدة له في جبال النوبة.

في هذا الوقت عينه سار العقيد أحمد عرابي بجنوده إلى قصر عابدين وأسقط حكومة رياض باشا. ولمدة تسعة شهور أعقبت ذلك حكم رؤوف باشا في فراغ شاغر، لا تأتيه الأموال ولا الأوامر، وفي تلك الأثناء فر المجندون السودانيون الذين سرحهم من الجيش بناءً لأوامر رياض باشا إلى معسكر المهدي لينضموا إليه. كان معظم ضباط رؤوف باشا من المصريين الذين نفوا إلى السودان بسبب السياسات القائمة على التمييز العنصري. فكانوا ينظرون إلى التغيير الحكومي على أنه دعوة ينقلون من خلالها إلى مواقع في الدلتا يجدون فيها الراحة. هذا ويقول زائر جاء إلى مكتب رؤوف باشا بعيد قيام عرابي بثورته فوجده "بائساً مكتئباً" يجرب وضع الخطط بينما كان جنوده منقسمين إلى معسكرات قائمة على الإثنية، لكنه عاجز عن اتخاذ قرار بشأن أي تلك الفرق سوف ينشرها وهي جميعاً لا يمكن الوثوق بها(42).

لكن التحرك التالي للحكومة أخفق إخفاقاً ذريعاً حتى إن رؤوف باشا أنكر أية معرفة به. كانت أقرب حامية عسكرية لمعسكر المهدي تقع في جبل غدير Jebel Gadir القريب من قرية فاشودة Fashoda التي تبعد نحو 150 ميلاً إلى الجنوب الغربي. لم يرغب الحاكم راشد أيمن بأن يقضي ما تبقى له من مدة ولايته في وضع مغمور جراء الملاريا. وداعبته آمال بأن نصراً يحققه في القتال سوف يجعله ينتقل من فاشودة ويقربه من قصر رؤوف باشا في الخرطوم، فقرر الحرب وسار على رأس قوة قوامها 400 جندي وجماعة من رجال قبيلة شيلوك Shilluk الموالية له. لكن امرأة من قبيلة كنانة Kinana المعادية هرعت إلى معسكر المهدي تحذره من قدوم هذه القوة.

مع شروق شمس الثامن من كانون الأول/ديسمبر عام 1881 نهض الجنود المصريون لصلاة الصبح. لكن جنود المهدي كانوا قد انتهوا من صلاتهم، واصطفوا بانتظارهم على شكل هلال، وفي الوسط وقف شقيق المهدي صانع الزوارق. وهم جميعاً يرتدون الجبب البيضاء، التي زينوها بأشياء متفرقة مثل دروع الزرد التي تعود بطرازها إلى العصور الوسيطة، أو القمصان من الزرد والخوذ الحربية التي جاؤوا بها من الحبشة، والدروع ذات الحشوة من

اللباد من دارفور، وفي أيديهم العصي والرماح والسكاكين والسيوف العريضة الأنصال. أما راشد أيمن الواثق من جنوده وزيهم العسكري الأبيض وما لديهم من بنادق رمنغتون فقد أمر جنوده الذين أضناهم التعب بالهجوم. أطلقوا نيران بنادقهم من مسافة قريبة. صمد "المهاجرون" في مواقعهم ثم شنوا هجومهم على القوات المصرية برماحهم وسكاكينهم. قتلوا راشد أيمن وقطعوا رأسه ليقدموه إلى المهدي، وفر عدد قليل من الجنود مسرعين ناجين بأرواحهم. أما الآخرون فقد صاروا عبيداً عند المهدي.

وظهر المهدي أمام جنوده في وقت لاحق ذلك اليوم، ومع أن أحداً لم يره في المعركة، فقد كانت الجبة التي يرتديها ملطخة بالدماء. لقد كان لديه أيضاً مخزون متزايد من البنادق الحكومية، وقد حظر على أتباعه استخدام بنادق الكفار صنع رمنغتون. وكان أتباعه يقولون: "أخبرنا النبي أن النصر يأتي عند استخدام الرمح والسيف، وبأننا لسنا بحاجة لبندقية". غير أنه لم يتلف ما خبأه من أسلحة حديثة، بل أودعها لدى عبد الله القائد العسكري المعاون له من أفراد قبيلة البقارة، قائلاً: "بعد تجميعها سنرى ما هي إرادة الله"[(43)].

الجدير ذكره أن هزيمة راشد أيمن قد عززت أسطورة المهدي. فقد انطلقت الرسائل من جبل غدير تنشر الخبر أن الرماح والعصي هزمت بنادق الحكومة، وأدعية "المهاجرين" جعلت رصاص بنادق المصريين ماءً، وغضب المهدي أحرق جثث القتلى حيث كانت ممددة على الأرض. وكما فعل النبي في موقعة بدر، حطم المهدي قوة أكبر منه بجنده الذين لم يزد عددهم عن 313 رجلاً. وأما المقاتلون الذين جاؤوا ليقاتلوا في هذا الجهاد فقد بكوا لشدة حزنهم لأنهم تأخروا في الوصول. وانتشرت الشائعات القائلة إن اسم المهدي ظهر مكتوباً على الحجارة وعلى البيض وعلى بذور ثمار البطيخ. وامتلأ معسكره بالماء والغذاء بلا حدود.

وأخذت كُردفان ودارفور تترنم بالتوقعات والآمال، وهي ليست جميعاً عالمة

بعلوم الدين. فقبائل عديدة رفضت وعارضت بقوة دعوة المهدي الدينية، أما الآن فقد استجابت لندائه السياسي. فالإطاحة بحكم الأتراك يعني الخلاص من الضرائب ومن تحكم تجار الرقيق. وأتباع المهدي الأولون كانوا من قبائل تقطن على طول نهر النيل، أما الآن فقد غص معسكره بالبدو من قبيلة البقارة. ومع أن القبائل القاطنة قرب النيل كانت دوماً تسخر من البقارة من حيث كونها قد اعتنقت الإسلام منذ عهد قريب ولا تزال تجهله ولا تزال تعبد الحجارة والشجر إلا أن المهدي قد اتخذ رجالها عماداً لجيشه، مثلما تنبأ من قبل وقال إن "الأنصار" قادمون.

علّم المهدي أنصاره الذين لا يجمعهم أسلوب حياة واحد أو لغة واحدة مبادئ النظام العسكري الهادف إلى إزالة الخلافات بينهم. وهكذا تلقى الجميع، الصوفيون والفارون المصريون من الخدمة العسكرية والمزارعون القادمون من النهر والبدو القادمون من الصحراء، الجبة البيضاء ذات الرقاع الملونة. والجميع تلقى كتاب الراتب ratib للمهدي والمرفق به بعض طقوس السمانية ومجموعة آيات من القرآن الكريم وأدعية هي المفضلة لديه وتقول: "أعوذ بالله، إليه أنيب، فهو الخير كله، ولا حول ولاقوة إلا بالله". وضع الجميع هذا الراتب في عنقه حجاباً يقيه من الشرور ومنه يدعو ويتضرع إلى الله خمس مرات في اليوم، ويرددونها كثيراً ليصلوا بها إلى حالة من الانفعال الشديد الشبيه بالتنويم المغناطيسي. والجميع يردد "يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير" مئة مرة ويرددون "لا حول ولا قوة إلا بالله" مئة مرة[44].

ناشد المهدي أنصاره مستثيراً رباطهم القبلي وإخلاصهم للإسلام وغضبهم ليصنع سيف النبي. ووجه هذا السيف نحو الأتراك. فالهدف الأسمى هو "الجهاد" والاستشهاد في المعركة. والمالك النهائي للملك كله هو المهدي. وكما قال النبي "أولئك الذين يحبونني يحبون اتباع فضيلتي الفقر والجهاد" والخروج عن ذلك ممنوع: فالمهدي في "حالة دائمة من رؤية النبي دون حجاب" وكلمته هي كلمة الله[45].

وهو يقول "في أحاديث النبي أخطاء ويجب تطهيرها. فقد درس المهدي

المدارس الفقهية الأربع التي ظهرت في الإسلام في العصور الوسيطة والتي تأسست حول وحي النبي. ركز السلطة كلها في شخصه وأتلف جميع نصوصها وأبطل أحكامها وحل جميع السنن التي تجعل رؤية النبي قابلة للتنفيذ والتطبيق. ألغى جميع الأحكام الفقهية السابقة فيما عدا تلك المتعلقة بالأصناف المالية الأربعة، وهي الغش والدَّين وحقوق الأيتام في التملك وعتق العبيد. ألغى ألف سنة من الثقافة الإسلامية ليحاول بناء مجتمع النبي في صورة لمجتمع متعصب على سفوح جبال النوبة بمثل ما كانت عليه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، متراجعاً في ذلك إلى وَهْمٍ من الإلهام النبوي عندما كانت علة وجود المجتمع المثالي هي الجهاد في سبيل الله.

كان القانون الوحيد المطبق هو الشريعة الإسلامية بشكلها البدائي الخام. ومن يدعو أخاه المسلم بأسماء مثل "كلب أو خنزير أو يهودي أو قواد أو فاسق أو لص أو من يزني أو يغش أو يلعن أو كان كافراً أو مسيحياً أو لوطياً" يجلد ثمانين جلدة ويحكم بالسجن لمدة أسبوع واحد، وكذلك يجلد ثمانين جلدة كل من يوجد الخمر في حوزته. وأما التبغ والعادات التركية فقد محيت عن وجه الأرض، وكل من يدخن أو يمضغ أو يستنشق السعوط يجلد ثمانين جلدة. ومن يرتدي الجبة ولا يصلي يجلد ثمانين جلدة ويسجن لأسبوع واحد وتصادر جميع أمواله، وإن ظل حياً بعد ذلك يعدم، فالثورة التي ثار رجالها ضد الكرباج التركي فرضت قوانينها من خلال الجلد والرجم وبتر اليد بحسب الشرع والإعدام أمام الناس[46].

وكان المهدي يكافئ رجاله بتلك المهمة المقدسة وهي الجهاد والذهاب الأكيد إلى الجنة. وكان يعاقب النساء لأسلوب حياتهن. والبنت حين تصبح في سن الخامسة يجب أن تضع الحجاب الكامل. ولا يجوز لها أن تخرج من البيت "إلا للضرورة القصوى". ولا يجوز أن تتكلم أمام الملأ. ولا يجوز لها أن تتحدث مع رجل إلا من وراء حجاب. وإن تكلمت فهمساً. ولا يجوز لها أن "تبكي وتندب" في الجنازة. وإن حسرت عن رأسها وحتى ولو "لطرفة عين" فيجب أن تجلد 27 جلدة. وإن تكلمت بصوت عال وبدون تواضع تجلد 27

جلدة. وإن قالت "فحشاً" تجلد 80 جلدة. فواجبها أن تضع رحمها في خدمة الجهاد. وإن رفضت مجامعة زوجها تصادر أملاكها. وإن عصته "تحبس في دار مظلمة أو كوخ"، وإن لم تتب تترك حتى تموت. وأما أمر المهدي إلى المرأة التي تجاوزت سن الإنجاب فهو "فلتجاهد بيديها وقدميها"[47].

الرجال والنساء متساوون في الشريعة في حكمين اثنين فقط هما: الزاني والزانية يجلد كل واحد منهما ويرجم حتى الموت، والجميع يجب أن ينقل أخباراً عن جاره. وبرغم ادعائه بالدفاع عن المجتمع التقليدي، فقد دمر المهدي الأسرة بأن جعل أفرادها مخبرين. ثم أعاد إصلاح القطع المكسرة في الخطوط العسكرية. جعل أخاه النجار محمداً قائداً للجيوش. وفي محاولة لتقليد النبي محمد (ﷺ) عين أربعة خلفاء له، وأطلق على كل واحد منهم اسم سلفه من عهد النبي، وبحيث يكون كل واحد منهم قائداً على جناح من أجنحة جماعة المهدي. فالبقارة الغربية تتبع الراية السوداء لعبد الله الذي كوفئ لإخلاصه وولائه على المدى الطويل. والبقارة الشرقية تتبع الراية الخضراء لعلي واد حلو Ali Wad Helu وهو أحد خريجي الأزهر قصير القامة كثيف الشعر. وأما القبائل النهرية وأقارب المهدي الأشراف فقد كانوا بإمرة محمد الشريف صهر الدنقلاوي.

لكن الخليفة الرابع رفض هذا الشرف. وحيث إن المهدي كان يأمل بتصدير ثورته فقد أرسل عرضاً عبر الصحراء إلى سميه السنوسي، محمد المهدي. وحيث إنه لم يتلق جواباً على عرضه فقد كتب إليه ثانية، ولم يسمع منه شيئاً. فقد رفضه المهدي الليبي رفضاً تاماً. بعد أن تلقى هذا الأخير الرسالة الأولى أرسل مبعوثية إلى السودان ليتعرفوا على ادعاءات المهدي السوداني. وبدلاً من أن يجدوا فردوساً إسلامياً على الأرض وجدوا حمام دم مستوحى من "حكايا تافهة وخرافات وأكاذيب" و"بلداً يحترق ويحتضر وتفوح منه رائحة الموت"[48].

* * *

أرسل رؤوف باشا كتاباً إلى الخديوي توفيق طالباً التعزيزات بعد أن أنباه بمقتل راشد أيمن. لكن الخديوي في شهر كانون الأول/ديسمبر عام 1881 كان بحاجة إلى كل جندي من الموالين له ويستطيع أن يضمه إليه. بعد ثلاثة أيام من طلب رؤوف باشا أطلق عرابي ومحمد عبده وبلانت البرنامج السياسي للحزب الوطني. غير أن الخديوي كان أشد قلقاً وأكثر خوفاً من الراديكاليين الإسلاميين المحيطين بأبواب قصره من خوفه من الراديكاليين الإسلاميين في السودان. وعندما تحدث رئيس تحرير جريدة *Egypte* الناطقة بالفرنسية واصفاً المهدي محمداً بأنه "نبي كاذب" تلقى تهديدات بالموت فغادر البلاد. وفي جامعة الأزهر أطاح أنصار محمد عبده برئيس الجامعة الذي كان من أنصار الخديوي. وهكذا لم يتلق رؤوف باشا أية تعزيزات لقواته[49].

وعندما سقطت وزارة شريف باشا في شباط/فبراير 1882 سقط معها رؤوف باشا السيىء الحظ. وحيث إن الخديوي لم يكن يثق بوزير حربيته الجديد أحمد عرابي فقد نقل مسؤولية السودان إلى وزارة خاصة في الحكومة. وإذا عمل عرابي على تحريض الحاميات السودانية للثورة فسوف يخسر الخديوي إمبراطوريته وعرشه. فأوكل مهمة الحاميات هناك إلى عبد القادر باشا التركي الأصل والموالي له. غادر رؤوف باشا الخرطوم في أوائل آذار/مارس ولم يصل عبد القادر باشا إلى موقعه الجديد إلا بعد أن انقضى أحد عشر أسبوعاً على رحيل رؤوف باشا. وانتقل منصب الحاكم العام إلى واحد من أصدقاء غوردون هو كارل جيقلر Carl Giegler مهندس البرق النحيل الطويل القامة والأحمر اللحية.

كانت مصر في حالة من الفوضى والاضطراب. وكان العرش في السودان شاغراً. وأحس المهدي بلحظته. حين وصل عبد القادر باشا إلى الخرطوم كان نحو 1,000 من أنصار المهدي قد تحركوا شمالاً وحاصروا مدينة الأبيض عاصمة كردفان ومفتاح غرب السودان.

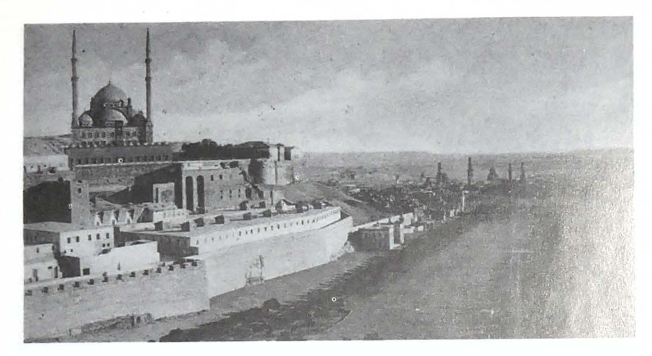
لقد نجح جيقلر الهاوي حيث أخفق رؤوف باشا. ففي منطقة الجزيرة جنوب الخرطوم سحق جيقلر القبائل الموالية للمهدي وعلق رأس زعيمهم على

عامود في وسط مدينة الخرطوم. ولكن عندما وصل عبد القادر باشا أزاح جيقلر عن منصبه لصالح العميد يوسف الشلالي المعين سياسياً، وهو شخص سوداني كان قد قاتل إلى جانب غوردون في منطقة بحر الغزال. وفي أوائل شهر أيار/ مايو عام 1881 كان الشلالي قد حشد 3,000 جندي من المشاة و500 من الفرسان وأربعة من مدافع الميدان واثنتين من منصات إطلاق الصواريخ وقافلة تموين مكونة من 600 جمل وعدد لا بأس به من الحمالين. انطلقت هذه القوة نحو سفوح جبال النوبة ذات الغابات الكثيفة وكان جواسيس المهدي يراقبون تحركاتها حتى إنهم تسللوا إلى صفوفها وسرقوا خيولها. لذلك وبهدف الحفاظ على جميع جنوده الخائفين قطع الشلالي أيدي وأرجل أربعة من الجواسيس الأسرى.

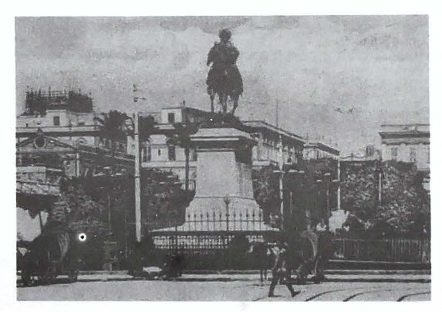
في ليل التاسع والعشرين من شهر أيار/مايو عام 1882، أي بعد عشرة أيام من وصول الأميرال سيمور إلى ميناء الإسكندرية كان العميد الشلالي قد أقام معسكره في إحدى غابات جبل غدير. قطع رجاله أغصان شجر الأكاسيا acacia وكدسوها داخل زريبة، وكان شديد الثقة بنفسه حتى إنه لم يهتم بتعيين حراس للموقع. وحين خلد الجنود للنوم زحف أنصار المهدي إلى المعسكر.

ومع الفجر كان الآلاف من المحاربين "أنصاف العراة" قد نزلوا إلى الزريبة قبل أن يستيقظ الجنود[(50)]. وهكذا صارت الأسوار المصنوعة من الشوك فخاً وقع فيه حماتها الذين تلقوا الطعن والضرب بالعصي قبل أن يصلوا إلى بنادقهم. أما العميد الشلالي الذي لا يزال في ملابسه الداخلية فقد ضرب ضرباً مبرحاً حتى لقي مصرعه على باب خيمته. لكن بعض الجنود تمكنوا من أن يعيدوا تشكيلهم ويقاتلوا حتى خرجوا من الزريبة ولكن ليختفوا تحت موجة عارمة من الجند. هزمت هذه الحملة وقتل جميع جنودها وغنم العدو أسلحتهم وعبيدهم وحيواناتهم ومؤنهم.

أخذ المهدي لنفسه خُمْس الغنائم وأسس بيت المال أو خزينة دولته القائمة على الشريعة الإسلامية. لقد أمسى الآن يسيطر على كامل المنطقة جنوب كردفان. أما حامية مدينة الأبيّض فقد بقيت نهباً للجرذان، ومصر كانت في حالة







مشاهد من مصر في عهد الخديوي إسماعيل: قلعة القاهرة وقبور المماليك، حركة المرور عند الظهيرة في الشوارع خارج محطة سكة الحديد الجديدة في القاهرة، ميدان محمد علي في الإسكندرية، ومكان اصطفاف العربات، وتمثال الفارس، ومبنى سوق الأوراق المالية.



مشاهد من السودان في عهد الخديوي إسماعيل: المشايخ المحليون في الخرطوم، والرعايا الذين شكلوا بضاعة تجارة الرقيق.





السلطان عبد العزيز (في الأعلى) منافس إسماعيل في الاستدانة من الخارج، و(إلى اليمين) نوبار باشا مهندس أموال الخديوي.





(في الأعلى) السير صمويل بيكر الذي مهد لحكم إسماعيل في المديرية الاستوائية، و(إلى اليمين) الخديوي توفيق وريث إمبراطورية إسماعيل وديونه.



المسألة الشرقية:
السلطان عبد الحميد الثاني العالق بين الخبراء الاستراتيجيين الأوروبيين والإصلاحيين في الداخل، والملكة فكتوريا صاحبة الإمبراطورية والمفعمة بالحماسة لها، وبنجامين دزرائيلي رئيس الوزراء الذي اشترى أسهم إسماعيل في قناة السويس واضاف كلمة إمبراطورة الهند إلى لقب الملكة فكتوريا.













"مصر للمصريين" : العقيد أحمد عرابي (في يسار الأعلى)، وحامي عرابي وراعيه محمود سامي البارودي (في يمين الأعلى) وأنصارهما ولفريد والليدي آن بلانت.

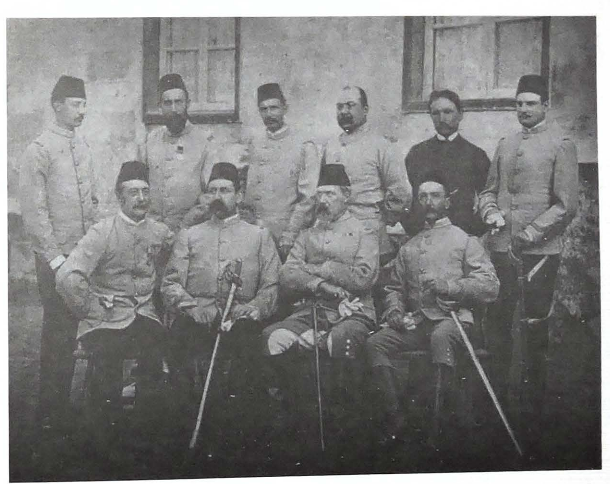


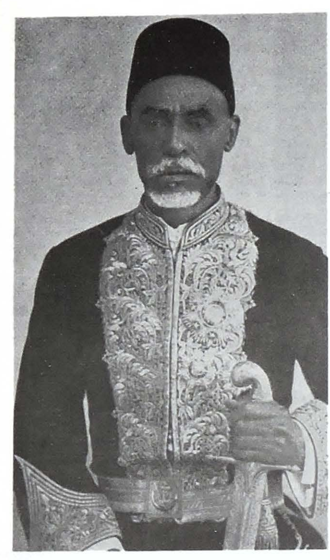


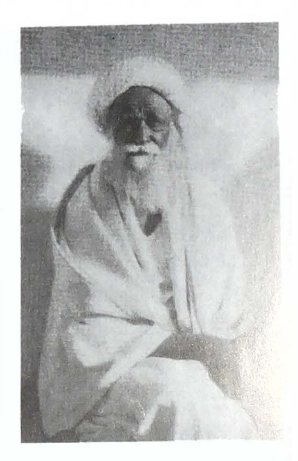
"هاجم مرابض مدفعية العدو": الأميرال سير بوشامب سيمور (في الأعلى)، و"موج البحر المحيط"، شارع رشيد Rue Rosetta في الإسكندرية بعد القصف وأعمال الشغب.



الجهاد في السودان: محاربو المهدي بردائهم المعروف بالجبة المزركشة، و(في الأسفل) ضباط حملة هكس Hicks وهو الجالس ثانياً من اليمين والكولونيل جون كولبورن مراسل صحيفة ديلي نيوز في أقصى اليسار والكولونيل فاركهار الواقف ثانياً من اليسار.



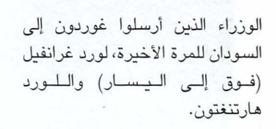






(فوق) الزبير رحمت أكبر تاجر للرقيق في زي الباشوات.(فوق إلى اليمين) عثمان دِقْنَه حليف المهدي الانتهازي في الجبال المطلة على البحر الأحمر. (يمين) أحد محاربي قبيلة الهدندوة أو كما يسمون أنفسهم "فزي وزي".



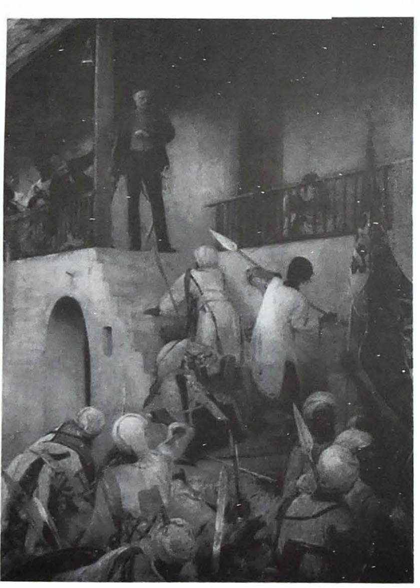


الوزراء الذين أرسلوا غوردون إلى السودان للمرة الأخيرة، لورد غرانفيل (فوق إلى اليسار) واللورد هارتنغتون.

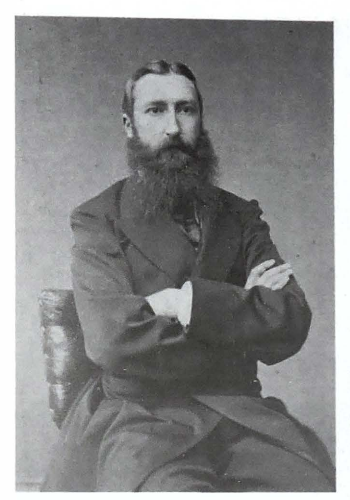




"فات الأوان!" الفتاة الرمز لبريطانيا بريتانيا الحزينة على غلاف مجلة بانش Punch

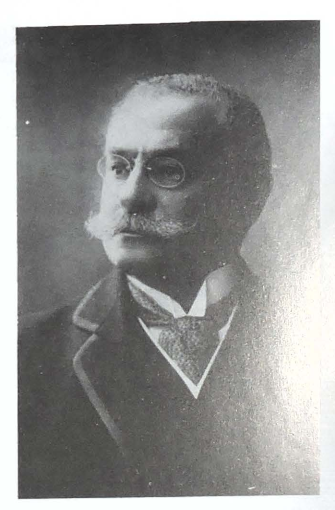


صنع الأسطورة: لوحة بريشة الفنان وليم جوي بعنوان "الوقفة الأخيرة للجنرال غوردون".



المتنافسون على إفريقيا: ليوبولد الثاني، ملك بلجيكا و (في الأسفل) اللورد روزبري الرياضي في رسم ساخر بمجلة بانش Punch بعنوان "الصامد المتردد" .

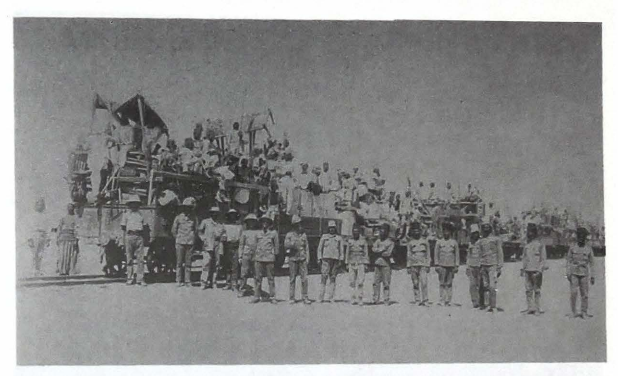






من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر":

(فوق) وزير الخارجية الفرنسي تيوفيل دو كلاسيه، و (في اليسار) الكابتن جان باتيست مارشان الحالم بـ فاشودة.



المسافر العصري: ضباط بريطانيون وجنود مصريون وعمال سودانيون أثناء الاستراحة من العمل في تمديد سكة الحديد العسكرية في السودان 1897.

"جمعة عظيمة جداً": العقيد ريغينالد ونغيت ضابط استخبارات كتشنر يدخن الشيروت (نوع من السيجار) وهو يستجوب الأمير محمد أحمد الجريح أحد قادة المهدي بعد معركة عطبرة، تاريخ 8 نيسان/أبريل 1897.

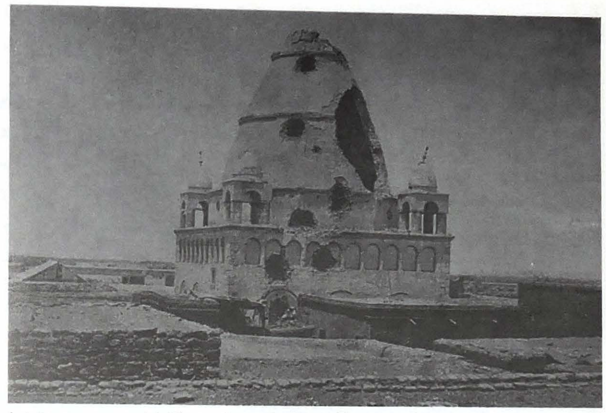




"بالطبع سيكون هنالك هجوم": الملازم الثاني ونستون سبنسر تشرشل بزيه العسكري لفرقة الهوصار Hussars الرابعة.



"ماك العجوز": العميد سير هيكتور ماكدونالد قائد القوة المؤلفة من مصريين وسودانيين التي حطمت هجوم الخليفة على أم درمان وأنقذت سمعة كتشنر.



القبة فوق ضريح المهدي بعد أن قصفتها إحدى القذائف بتاريخ 3 أيلول/سبتمبر 1898 قبل أن ينسفها غوردون "القرد".

"ومهما يحدث فلدينا مدفع Maxim، وهم ليس لديهم هذا المدفع": جثث القتلى من جنود الخليفة عبد الله (في الوسط يساراً) وقادته في معركة أم دبيكرات في كردفان تاريخ 24 تشرين الثاني/نوفمبر 1899.



ثورة، ولا شيء الآن يمنع تقدمه. فقد قال "مسيرتي إلى مكة هي بإرشاد من النبي وفي الزمن الذي يقدّره الله"[51].

في صيف ذاك العام ظهرت في السماء ليلاً سلسلة متتابعة من المذنبات. وعلى بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من أسيوط كان ثمة حملة بريطانية يقودها البروفسور آرثر شوستر Professor Arthur Schuster التي التقطت أول صورة لمذنب في حال خسوف. وأطلقت عليه اسم "توفيق" تيمناً باسم الخديوي. قال شوستر إن هذا المذنب والمذنب الذي ظهر في صيف العام السابق ينتميان لسلسلة مذنبات تعرف باسم Kreutz Sungrazers، وهي شظايا هائلة الحجم لمذنب أكبر كثيراً تحطم منذ قرون عديدة سابقة وتتداخل أفلاكها مع الشمس[52].

في الإسكندرية طلع صبح العاشر من حزيران/يونيو عام 1882 ساطعاً ومشرقاً وحاراً. عند سور الميناء عاد جنود عرابي إلى تحصيناتهم واستحكاماتهم، وعلى ظهر باخرة صاحبة الجلالة "سوبرب *Superb*" عاد الأميرال سيمور إلى منظاره التلسكوب وأعطى حاجبه ستراكيت Strackett إجازة ليوم واحد يقضيها على الساحل يستمتع خلالها بمباهج الشرق. وفي داخل المدينة قرر المبشر البريطاني هـ. ب. ريبتون H.P. Ribton أن يصحب ابنته البالغة من العمر خمس سنوات في نزهة بحرية.

وفي أحد أحياء المدينة القريب من الميناء يعرف باسم "الحي الأبيض White Quarter - أو كركول اللبن Carcacol Laban - قرر تاجر مالطي أن يقضي نهاره متنقلاً بين الحانات. ولكي يتيح لنفسه مزيداً من الوقت الثمين الذي خصصه للإسراف في الشراب استأجر صبياً مصرياً لديه عربة يجرها حمار ليخدمه في تنقلاته داخل المدينة. وعندما وصلت شمس الظهيرة إلى أوج السماء اندلع شجار بين الصبي والتاجر المالطي خارج مقهى Café et Gazaz. وتجمع المواطنون المصريون حين رأوا التاجر

المالطي يمسك سكيناً ويطعن به الصبي صاحب الحمار في بطنه. سقط الصبي ميتاً على أرض المقهى ووقع شجار بين المصريين والأجانب الذين أجبرهم الغوغاء على دخول منازلهم، فأخرجوا من مخابئها البنادق التي اختزنوها تحسباً لحدوث أعمال شغب وأطلقوا النار عشوائياً على الحشود. لقد ابتدأت حوادث شغب الإسكندرية[53].

كانت شرطة المدينة أو كما كان يطلق عليها "المستفزين" على أهبة الاستعداد، فقائدها عمر لطفي باشا من الموالين لتوفيق. عندما سمعت الشرطة أصوات إطلاق النار استخرجوا عصيهم الخشبية الغليظة المعروفة بالنبوت من خزائنها ووزعوها من نوافذ أقسام الشرطة على الغوغاء من البدو الغاضبين. وحين وصل هؤلاء إلى مكان أحداث الشغب انضموا إلى المشاغبين وهاجموا الأوروبيين من المارة بالسكاكين وحراب البنادق. وظهر على مسرح الأحداث القنصل البريطاني تشارلز كوكسون Charles Cookson الذي أغراه طلب جاءه من عمر لطفي باشا. لكن المشاغبين ضربوه وأوقعوه أرضاً لكنه تمكن من الفرار والنجاة بنفسه فالتجأ إلى أحد أقسام الشرطة. وحينئذ ظهر على الساحة عمر لطفي باشا ولكن بعد أن استبدل ثيابه العسكرية بملابس مدنية. وغادر دون أن يعطي أي أمر. ولم يكن المشاغبون بحاجة إلى أي توجيه. فقد تصاعدت صرخة واحدة تهتف "اقتلوا المسيحيين!".

في تلك الأثناء ضرب المشاغبون صبياً في الخامسة من عمره ضرباً مبرحاً حتى الموت أمام مكتب البريد النمساوي، كما ضربوا أيضاً رجلاً حسن الهندام كان يتعثر في مشيته في شارع الراهبات Rue des Soeurs وكانت الدماء تغطي ملابسه. وفي الشارع نفسه أطلقوا النار على رجل أوروبي أصابته الرصاصة في رأسه، وطعنوا بالسكين رجلاً آخر في صدره وحطموا جمجمة ثالث ونزعوا عنه حذاءه وجواربه حين وقع على الأرض ميتاً. نهبوا المحال التجارية والمقاهي وانطلقوا من شارع الراهبات Rue des Soeurs إلى ميدان محمد علي حيث تجمعوا حول تمثال مؤسس مصر الحديثة ممتطياً جواده بينما كانت تسمع في الأجواء أصوات إطلاق نار وتحطم زجاج. وتحت عيني هذا

التمثال لمحمد علي شوهد رجل شرطة يحمل ثريا نهبت من أحد المنازل وآخر يحمل لعبة على شكل حصان وثالث يحمل مجموعة من البناطيل.

ثم انتقل المشاغبون إلى شارع Frank Street والمارينا يضربون بعصيهم ويطعنون بسكاكينهم كل رجل أوروبي يشاهدونه في طريقهم. يسرقون وينهبون ويبترون الأعضاء من جثث الموتى ثم يلقونها في البحر ويقاتلون الشرطة المستفزين ليأخذوا منهم الأشياء الثمينة التي غنموها. ولدى عودته من المارينا وجد المبشر ريبتون وابنته واثنان من أصدقائه أنفسهم تدفعهم رجال الشرطة نحو الغوغائيين الذين أوسعوا الرجال الثلاثة ضرباً حتى الموت وهم يحاولون منعهم من خطف الطفلة الصغيرة. فحملها شرطي على كتفه لكن شيخاً صديقاً سمع صراخ هذه الطفلة فأنقذها وخبأها في منزله. وبينما كان الأوروبيون يصادرون العربات ويهرعون للميناء كان الغوغائيون يهرعون إليهم وينزلونهم بقوة ويهاجمونهم. قتلوا قبطاناً بحرياً يونانياً طعناً بالسكين وأطلقوا النار على فرنسي. وضربوا بعصيهم الغليظة خمسة من الملاحين في باخرة صاحبة الجلالة "سوبرب *Superb*" وطعنوا واحداً بالسكين حتى توفي، وهاجموا بعض البحارة من الباخرة تانجور *Tanjore*. وعندما أسعف جندي أحدهم وأوصلوه إلى قسم الشرطة امتشق الشرطي الواقف عند البوابة سيفه وشق جمجمة البحار إلى نصفين بضربة واحدة وقطع رأسه بالضربة الثانية.

ومضت ثلاث ساعات قبل أن يطلب عثمان لطفي باشا مساعدة عسكرية. لكنه حين طلبها رفض قادة القوة العسكرية المؤلفة من سبعة آلاف مقاتل في الثكنة أن يتحركوا دون أمر من الوزير أحمد عرابي، فقد أراد أن يثبت للجميع أن الجيش وحده هو القادر على إنقاذ مصر من الانهيار. ومضت ثلاث ساعات أخرى. وعند الساعة السادسة مساءً خرج الجنود من ثكناتهم واتخذوا مواقعهم خارج مقار القنصليات الأوروبية. تراجع الغوغاء وابتعدوا عن الشوارع مخلفين فيها جثث القتلى والدمار. معظم الجثث التي بلغ عددها 49 ونقلت إلى المشفى كانت مصابة بجروح سببها حراب المستفزين.

أما الأميرال سيمور الذي أمضى ما لا يقل عن أربعين عاماً في البحار

فقد كان يستشيط غضباً غير قادر على فعل شيء وهو يرى بمنظاره الدخان يتصاعد والقوارب تنقل الناجين إلى السفن الحربية ورأى حاجبه ستراكيت Strackett وقد قتله المشاغبون[54].

"قُتلوا وارتكبت بحقهم المجازر أمام مدفعية الأسطول الذي لم يحرك ساكناً لإنقاذهم!"[55] هذا ما قاله اللورد سالزبوري الذي تولى الآن قيادة المعارضة في مجلس العموم وهو يحمّل غلادستون المسؤولية عن اندلاع أعمال الشغب. أما الصحافة البريطانية فقد استنكرت هذه المجزرة وعدتها إهانة للكرامة القومية، قائلة بصوت واحد إن الرعاع العرب قتلوا الأوروبيين الأبرياء وضربوا القنصل بالشوارع. لكن رد الفعل العنيف جاء من داخل حكومة غلادستون، حيث أعلن أعضاء حزب الأحرار (الويغز Whigs) التمرد على رئيس الوزراء بقيادة اللورد هارتنغتون وزير الحربية، فقد قرر هذا الوزير المعروف بلقبه الشائع هارتي تارتي Harty-Tarty" الاستقالة من منصبه فتنهار الحكومة جراء استقالته.

قال اللورد هارتنغتون: "أخشى أننا سوف نستسلم ونتعرض لهزيمة شاملة. ولا أعتقد أنني أستطيع القبول بهذا!"[56].

وانشق الراديكاليون على أنفسهم. جون برايت John Bright من طائفة الكويكرز Quakers ومن أنصار التهدئة وحرية التجارة عارض استخدام القوة لأنه يؤمن بمبدأ اللاعنف. لكن الراديكاليين الشباب انضموا إلى خصومهم من أعضاء حزب الأحرار (Whigs) في ثورتهم. أما جوزيف تشامبرلين Joseph Chamberlain، رئيس هيئة التجارة، فقد أطلق تحذيره القائل إن وجود "مغامر عسكري" مثل عرابي يعني "الإفلاس والفوضى" في مصر. غير أن وكيل وزارة الحربية السير تشارلز ديلك Sir Charles Dilke فقد أثار مخاوف استراتيجية لدى الجميع حين أعرب عن خشيته من قيام القوميين الإسلاميين بإغلاق قناة السويس[57].

وهنا واجه غلادستون قراراً يدور حول جوهر السياسة البريطانية في

مصر وذلك الشيء الذي يجسد كل شيء يمقته بخصوص الاستعمار، ألا وهو قناة السويس. ومع أنه كان يهزأ بهذه القناة ويتحدث عنها بسخرية أمام ناخبيه في مقاطعة مدلوثيان Midlothian إلا أنه في قرارة نفسه كان يدرك أهميتها لبريطانيا، سيما وأن البواخر البريطانية كانت تنقل نحو 70 بالمئة من إجمالي حركة النقل عبر قناة السويس. وكانت حمولاتها تزيد عن مئة مليون طن وتقدم للاقتصاد البريطاني أكثر من 65 مليون جنيه[58]. وهكذا كان أمام غلادستون ثلاثة خيارات هي إما أن يسلم القناة للمصريين أو أن يحمي حياد هذه القناة من خلال إلحاقها بحلف الوفاق الأوروبي أو القيام بحمايتها من جانب واحد بالسلاح البريطاني. وبعد أن تغلب على قناعته الأولى بأن التمرد المصري كان حركة وطنية حقيقية، رفض الخيار الأول بضمير نظيف ومرتاح.

وظل يقلب في ذهنه الخيار الثاني لثلاثة أسابيع. رفض السلطان العثماني تقديم أي عون. وبرغم أن عبد الحميد الثاني قد وافق على استضافة مؤتمر قمة لحلف الوفاق الأوروبي في القسطنطينية إلا أنه حاول تجميد أي نتيجة إيجابية لهذه القمة. وبدلاً من أن يدين عرابي ويعتبره ثائراً متمرداً فقد كرمه بأن منحه أعلى وسام شرف في تركيا هو الوشاح الأكبر للأسرة المجيدية The Grand Cordon of Madjidieh، وقدم له بواسطة درويش باشا تعويضاً شهرياً قدره 250 جنيهاً[59]. وانقلب الفرنسيون عليه أيضاً، سيما وأن دو فريسينيه De Freycinet لم يرغب باندلاع شرارة تحرك ردود فعل السكان العرب في المستعمرات الفرنسية. فرفض المشاركة في أي عمل عقابي في الإسكندرية أو إرسال قواته في حملة برية لا بد منها. بل إنه حاول سراً استمالة عرابي لفرنسا بأن عرض عليه ضعف ما قدم السلطان له، أي مبلغ 500 جنيه شهرياً[60].

لكن عرابي لا يملك أن يتراجع. فقد أدار الخديوي وعمر لطفي باشا حوادث الشغب هذه بطريقة جعلته يبدو شخصاً أخرق يكره الأجنبي. فوجد نفسه بين احتضان تركي غدار بيدي درويش باشا من جانب وعلى الجانب الآخر الزوارق الحربية الأوروبية تباغته في الإسكندرية. ولم يبق أمامه إلا طريق واحد

يقوده للأمام، وفيه دروب القومية والإسلام الآخذة بالتضيق. حطم أبواب المستودعات التي فيها ادخر الخديوي إسماعيل البنادق من أجل يوم استقلاله عن تركيا. سرّع عمليات تحصين الإسكندرية ووضع الخطط لتخريب قناة السويس. وكتب إلى غلادستون يقول مهدداً بأنه إن أطلقت السفن البريطانية نيران مدفعيتها على الإسكندرية فسوف يصادر ممتلكات الأوروبيين كافة وسيلغي الرقابة الثنائية ولن يعترف بالدين وسيدمر القناة ويقطع وسائل البرق التي تصل بين بريطانيا والهند، وسوف يشعل العالم الإسلامي كله ضد الإمبراطوريتين البريطانية والعثمانية.

وكان مما جاء في كتاب عرابي إلى غلادستون قوله: "سوف نستغل الحماس الديني عند المسلمين، وسندعو إلى حرب مقدسة في سورية والجزيرة العربية وفي الهند. فمصر بيد المسلمين وهي المفتاح لمكة والمدينة، والجميع ملتزمون بالشرع الديني بأن يدافعوا عن الأماكن المقدسة وجميع الطرق المؤدية لها.

"وأعيد القول ثانية وثالثة بأن الضربة الأولى التي ستضرب مصر من جانب إنكلترا وحلفائها في مصر ستكون سبباً لإراقة الدماء في سائر أنحاء آسيا وإفريقيا.

"فلتطمئن إنكلترا بأننا مصممون على القتال وعلى الاستشهاد دفاعاً عن بلادنا كما أمرنا نبينا أو أن نهزم أعداءنا ونحيا مستقلين"[61].

ولم يكن أمام غلادستون أي خيار سوى خياره الثالث. ذكر الأميرال سيمور في تقاريره وجود عشرة آلاف جندي مصري في التحصينات المقامة في الإسكندرية، وهم يقوون دفاعاتهم ويستقدمون المدفعية الثقيلة. وبينما كان أسطول القنال الإنكليزي Channel Squadron يبحر جنوباً ليلتحق بالأميرال سيمور كان الأوروبيون في مصر يركبون البواخر والقطارات بأعدادهم الغفيرة مدفوعين برغبتهم الجامحة لمغادرة مصر[62]. وتم إجلاء موظفي القنصلية البريطانية عن مصر على متن الباخرة P&O يقودهم القنصل سير إدوارد ماليت المصاب والذي يشتبه بأن أنصار عرابي قد دسوا السم له. وأغلقت مكاتب البريد

في مصر وسحبت شركة برق الشرق Eastern Telegraph Co. موظفيها وأدواتها ونقلتهم جميعاً إلى البواخر البريطانية، فانقطع الاتصال مع الهند. وفي لندن انهارت أسعار الأسهم في البورصة.

أصر غلادستون على أنه لن يكون "طرفاً" في أي عملية ضم أحادية الجانب. فهذا "عمل كثير الأخطار على مستقبل السلام في العالم"[63]. لكن وزارة الحربية والأدميرالية واصلا ضغطهما: فإما أن يقوم عرابي بضم القناة أو يقوم الفرنسيون بشرائه وشراء مصر معه.

حول هذا الوضع كتب غلادستون في يوميته يقول: "ذهني متعب جداً"[64]. في فجر يوم العاشر من تموز/يوليو أعطى الأميرال سيمور إلى عرابي مهلة 24 ساعة ليستسلم أو يواجه القصف المدفعي. لكن غلادستون كان يأمل بأن القليل من دبلوماسية الأساطيل البحرية قد تقنع عرابي بالتراجع عن موقفه. وكان في قرارة نفسه واثقاً بأن هؤلاء المتمردين لن يجرؤوا على خرق حياد القناة، فذلك سيجعل "العالم بأسره" عدواً لهم. لذلك "ليس أمراً محتملاً أن يفكروا بذلك أو أن يرغبوا بفعل ذلك، إلا إذا كان ذلك بدافع من أقصى درجات اليأس"[65]. وهذا هو المكان الذي وضع عرابي فيه.

كان صباح الحادي عشر من تموز/يوليو مشرقاً وصافياً، والبحر هادئاً صفحته كصفحة زجاج لا تتحرك. عند الفجر هبت ريح لطيفة من الشمال الغربي داعبت أوراق الشجر المتبقي في ميدان محمد علي. كان عبيد المنازل السودانيون يجلسون القرفصاء على أبواب بيوت مالكيهم، وموظفو البلدية يرشون الشوارع بالمياه، والنساء البدويات القادمات من الريف يبعن الحليب الطازج إلى الجنود الذين قضوا ليلتهم على أبواب المنازل أو على المقاعد المنتشرة في هذا الميدان. وأعلنت ساعة كنيسة القديسة كاترينا السابعة صباحاً.

ما أن انتهت دقات الساعة واختفى صوتها حتى سُمع صوت انفجار وحيد صادر من الميناء تبعه صوت زعيق حاد ثم انفجار ثان هز المدينة. تصاعد

الدخان من ثكنة قصر رأس التين المحترقة. لقد نفد صبر الأميرال سيمور.

وكان الأمر الذي أصدره بسيطاً: "هاجموا مرابض مدفعية العدو".

على بعد ميل واحد من الساحل كان الأسطول يروح ويجيء مطلقاً نيرانه على نحو متواصل على مرابض المدفعية في يوم صاح مثالي لأعمال الرمي. أما رجال المدفعية المصريون، وأكثرهم في مواقع مكشوفة في استحكاماتهم فقد ردوا على هذه النيران بالمثل إنما بصورة غير منتظمة. وامتلأ الميناء بدخان المدافع والجو بأزيز القذائف. ومع كل ضربة تصيب الدفاعات كانت تنطلق في الجو اندفاعة من الأنقاض بارتفاع منارة الفراعنة. كانت الحصون مبنية من الحجر الكلسي والمتاريس الرملية مطلية بالإسمنت. وقد صممها المهندسون الفرنسيون بحيث تقاوم قذائف المدفعية وليس متفجرات عالية التفجير بقوة 80 رطلاً في كل قذيفة تطلقها المدافع الأربعة من سفينة *Inflexible*.

ومع ذلك، وفي كل مرة ينقشع فيها الغبار كان رماة المدفعية المصريون يعودون لأماكنهم ويعيدون حشو المدافع. لم تكن جميع طلقاتهم عشوائية. فقد تمكنوا من إحداث ثغرة بطول عشرة أقدام وعرض أربعة أقدام فوق خط المياه مباشرة لسفينة *Superb*، كما أحدثوا ثغرة في الصاري الرئيسي ومدخنة السفينة *Sultan*. وعندما اقتربت سفينة *Alexandra* من الشاطئ أصابوها بـ 24 ضربة مباشرة محدثين انبعاجاً بعمق 4 إنشات في الجانب المدرع من السفينة. وانفجرت إحدى القذائف في حظيرة الخراف في السفينة. وبضربة أخرى فجرت قمرة ربان السفينة، وثالثة سقطت بأزيزها عند قدمي الرامي إسرائيل هاردنغ Israel Harding الذي كان في تلك اللحظة واقفاً عند أبواب المخزن وما فيه من مسحوق البارود الذي يزن 24 طناً. لكن هاردنغ التقط هذه القذيفة - التي وصفها بقوله كانت ثقيلة وساخنة جداً ومتسخة جداً بالسواد" - وأسقطها في دلو ماء وفاز بوسام Victoria Cross.(66)

كان القصف من الأسطول شديد القسوة لا يلين. وكانت القذائف البريطانية التي لا تصيب أهدافها تنفجر في أجواء المدينة، فأصابت شظاياها جناح النساء

في قصر رأس التين، والقنصلية الألمانية ومقر قيادة الشرطة وعدداً لا بأس به من المدارس وأحد الأديرة وكنيساً يهودياً والعديد من منازل المواطنين. عند الساعة الرابعة عشرة وحيث رماة المدفعية على الأسوار منهم من قتل بإصابة مباشرة أو فر من موقعه أرسل سيمور فرقة إنزال لتعطيل عمل المدفعية في الحصن الغربي. وفي تلك اللحظة أدرك المواطنون أن هدف البريطانيين الوحيد كان قصف حصون الميناء وليس المدينة التي وراء هذه الحصون.

ومرة أخرى ارتفعت الهتافات "الموت للمسيحيين!" وانطلق الأطفال في شارع شريف باشا يقرعون صفائح النفط الفارغة ويرفعون العلم الأخضر ويهتفون باسم الله والنبي. واتجه الجنود الغاضبون وكل من يريد أن يغنم شيئاً أو يشعل حريقاً إلى الحي الأوروبي. هاجموا واجهات المحلات التجارية وحطموا النوافذ والأبواب بالمطارق. ألقوا داخل المنازل قطع القماش المبللة بالنفط أو كدسوا الفرش عند المداخل وأشعلوا فيها النيران، أحرقوا السكان أحياءً وقتلوا من حاول الهرب. وعند الساعة السادسة عشرة كانت القنصلية البريطانية تحترق. وعند الساعة السابعة عشرة والربع عندما أعلن الأميرال سيمور وقف إطلاق النار كانت الأحياء الأوروبية والشوارع التي صممها وبناها الخديوي إسماعيل تحترق والنيران تشتعل فيها ويتصاعد الدخان منها[67].

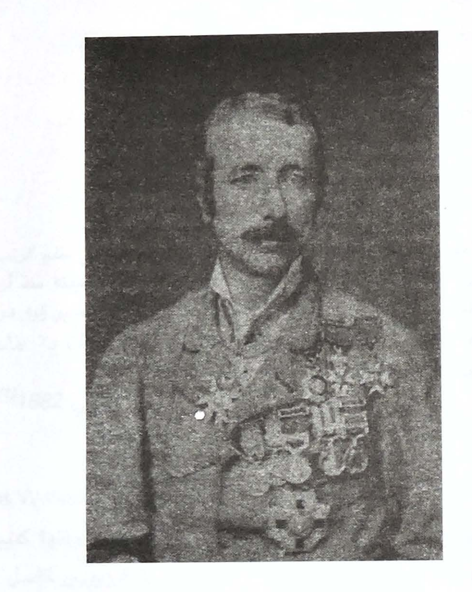
وأصدر عمر لطفي باشا أوامره للسكان بإخلاء المدينة. وتدافعت جموع السكان كالموج الهادر لمغادرة المدينة عبر بوابتي محرم بيك ورشيد، بعضهم في عربات نهبوها، وآخرون يحملون ضمن متاعهم المرايا والكراسي المذهبة والأرائك. وتجمع البدو خارج بوابات المدينة لينهبوا ما يحمله الهاربون، واستحالت الساحة المكشوفة خارج أسوار المدينة إلى مدينة تجمع فيها كل من غنم غنيمة فيتشاجرون حول الغنائم. وما أن وصل نساء وأطفال الحريم الملكي حتى انقض الجميع عليهم يقطعون الأيدي والآذان ليحصلوا على جواهر الخديوي، وخلفهم كانت الإسكندرية تحترق.

اشتعلت الحرائق ليومين كاملين قبل أن تخمد. وعندما جازف مشاة بحرية الأميرال سيمور بالنزول لليابسة وجدوا الخراب في كل مكان. الجثث المتفسخة

في كل مكان ... في الميناء ... وفي الشوارع. والدمار يقدر بالملايين. دمر الحي الأوروبي بكامله وخمس قنصليات لم يبق منها إلا الأطلال. وفي ميدان محمد علي، حيث لم ينج من الحريق إلا تمثاله ممتطياً جواداً، أخذ الباحثون عن غنيمة ينقبون في الأنقاض. عين سيمور اللورد تشارلز بيريسفورد Lord Charles Beresford ربان سفينة *Condor* قائداً مؤقتاً لشرطة الإسكندرية. وتولى أمر المدينة بحارة الأسطول المسلحون ببنادق Gatling. وهؤلاء حين وجدوا عبداً سودانياً يبحث عن غنيمة في الأنقاض بميدان محمد علي ربطوه إلى شجرة وأعدموه رمياً بالرصاص. وعاد النظام إلى المدينة[68].

أقر غلادستون بفظاعة ما حصل قائلاً: "الحريق كارثة محزنة!" وحاول إقناع السلطان بأن القصف قد "مهد الطريق" أمام الجنود الأتراك، لكن لم يرسل السلطان العثماني أية قوات[69]. والفرنسيون أيضاً لم يقدموا العون. ولكن يمكن القول في الحد الأدنى إن مجلس الوزراء ظل متماسكاً. جون برايت وحده هو الذي عمل بوحي من ضميره "الكويكر Quaker" فاستقال. ومع ذلك، وبرغم أن هذا القصف قد أزال التوترات داخل رئاسة الحكومة في داوننغ ستريت إلا أنه كان سبباً في تردي الأوضاع في مصر. رفض الثوار أن يستسلموا، فانتقلت مغامرة غلادستون الاستعمارية إلى مرحلتها الثانية. لقد عملت بريطانيا وحيدة دون مساعدة من أحد وعليها أن تنهي مهمتها وحدها. فقد آن الأوان لإرسال القوات.

وهكذا كانت: "التعليمات إلى ولسلي Wolseley: اقض على عربي [هكذا] ووطِّد سلطة الخديوي"[70].



الجنرال سير غارنت ولسلي

الفصل السادس

الريح والإعصار

1883

"كنت يوماً ضابطاً طموحاً، وكنت أظن أنني كلما صعدت في سلم الرتب العسكرية سوف أخدم على نحو أفضل ذلك المعبود الذي عبدته منذ أن أصبحت قادراً على فهم ما يعنيه حب الوطن. أسمى ما كنت أصبو إليه هو أن أرى إنكلترا عظيمة، وأن أسهم في صنع تلك العظمة كان ولا يزال طموحي الحقيقي الوحيد".

الجنرال سير غارنت ولسلي، 1882[1]

في جو شديد البرودة، جلس السير غارنت ولسلي Sir Garnet Wolseley يستريح في قمرته بالباخرة كالابريا *Calabria* التي كانت حمولتها كتيبة حراسة؛ فقد أصيب ببرد عندما ذهب لوداع الملكة في قصرها أوزبورن كاسل Osborne Castle بجزيرة وايت Isle of Wight. وفي طريق عودته إلى لندن تطور هذا البرد إلى ارتفاع بدرجة الحرارة. ولبضعة أيام بقي هذا المحارب المفضل في بريطانيا طريح الفراش يستبد به القلق بأن يعمل خصومه في الأميرالية على تولي أمر الحملة المصرية. ترك فراشه حين أحس بتراجع الحمى واعتزم أن يتخذ الطريق الأسرع عبر أوروبا بالقطار ليدرك الباخرة الراسية في مرسيليا. لكن الأطباء نصحوه بأن يتخذ طريقاً أكثر راحة وإن كان باعثاً للضجر هو طريق البحر لكامل المسافة إلى مصر.

كان مندوب هؤلاء الأطباء على متن الباخرة كالابريا رجلاً ممتلئ الجسم أحمر الوجه يدخن الغليون ويرتدي زياً عسكرياً ضيقاً. كان يتفحص حركة أمعاء ولسلي فحكم عليه بوجبات طعام خفيف والراحة التامة. عند الغداء كان السير

غارنت يتناول العنب الذي زودته به الليدي لويزا قبل مغادرته لندن. لكنه كان يحاول ألا يفكر بحبيبته هذه التي يدعوها لو Dearest Loo ـ إذ يقول "تمتلئ عيناي بالحزن حين أفكر بها" ـ ولكن بما أن الطبيب قد حدد عمله الذهني بـ "الأدب الخفيف" لم يكن لديه شيء يفعله سوى التفكير والتأمل حين كانت كالابريا تهدر وهي تشق طريقها جنوباً. ولكن برغم أن ذهن ولسلي يملك قدرات متقدمة في الأدب الرومانسي والعواطف والأوبريت القصيرة الحقيقية إلا أنه كان يستمتع كثيراً بميكانيكا الاستراتيجية العسكرية وعظمة التنفيذ البديع لهذه الاستراتيجيا[2].

كان غارنت ولسلي نحيل الجسم، مفعماً بالحيوية والنشاط، وبعين واحدة بعد أن فقد عينه الأخرى في حرب القرم، وهو ذو مزاج سريع الانفعال مثل قنبلة عنقودية. وكان رجلاً أسطورة صنع نفسه بنفسه. حين كان صبياً درس "كل كتاب يتناول نظريات الحرب وممارساتها استطاع أن يقترضه أو يشتريه"[3]. وحين كان ضابطاً حديث السن أصيب بجروح في بورما وكادت تودي به القذائف في سيباستوبول. قاتل في قمع التمرد في الهند وضد متمردي التايبينغ في الصين. وفي كندا نظم حملة ضد المتمردين الفرنسيين على ضفاف النهر الأحمر، وفتح "المسيسبي الشمالي" مع الرحالة الكنديين وهزم المتمردين بدأب وثبات لوجستي. في حملة أشانتي Ashanti لعام 1874 وفي حرب الزولو Zulu War عام 1879 وجد المجد في إفريقيا، بعدما أزال كل ما يعترض سياسة "التقدم للأمام"، مخلفاً الكثير من الأفارقة القتلى.

كان العامة من الناس يعبدون ذلك الشخص الحاد الطبع الذي يغالي في حبه للوطن إلى حد الشوفينية والذي قال عنه دزرائيلي بأنه "الجنرال الوحيد لدينا". فكان "الرجل الذي لا يقف في طريقه شيء"[4]، وكان إطفائي الإمبراطورية الذي يطفئ الحرائق على الحدود بأعمال حربية غير نظامية. فأصبح كتابه *Soldier's Hand Book in War* الرفيق الذي لا غنى عنه لكل ضابط طموح يرغب في تأديب السكان الأصليين بقليل من الأموال. وكان جنوده يقولون دوماً كل شيء "على أكمل وجه سيدي غارنت All Sir Garnet" وهم في نظام

صارم. أما جيلبرت وسليفان Gilbert and Sullivan فقد سخرا من أسلوب ولسلي الوارد في كتابه *The Pirates of Penzance* حيث قال:

"أنا النموذج الحقيقي لضابط عصري برتبة لواء،
لدي المعلومات عن النبات والحيوان والمعادن،
أعرف ملوك إنكلترا والمعارك عبر التاريخ،
من معركة ماراتون وحتى ووترلو ووفق ترتيبها الزمني(5).

كانت حياة ولسلي هجوم كماشة في قمم المجد يدنو كثيراً من الدروب الضيقة للوطنية والارتقاء بينما كان الغدر والخيانة يتراكمان وراء ظهره. فهو يدرك جيداً أن أعداء بريطانيا موجودون في كل مكان: البوير والسود في إفريقيا، ورجال الدين والروس في أفغانستان، وحركة Fenians في إيرلندا، واليهود في المصارف، والمتطرفون الراديكاليون في الشوارع، دون أن ينسى الفرنسيين. وينبغي على الجيش أن يكون على أهبة الاستعداد دفاعاً عن الإمبراطورية، لكن ائتلافاً من الأدعياء المتسلقين من ذوي الرتب العالية والمتطرفين الراديكاليين الذين يحبون التقتير على أنفسهم اخترقوا صفوف هذا الجيش وقلصوا ميزانيته، وبهدف إنقاذ الجيش كان ولسلي مستعداً إلى أن يداهن ويتملق الرجل الذي يمقته ويسميه كبير الراديكاليين، وهو وليم غلادستون.

اتخذت وزارة غلادستون الأولى عام 1868 حرب القرم ذريعة لإصلاح الجيش. وبغية تكوين جيش محترف فاعل عمل اللورد كاردويل Lord Cardwell وزير الحربية على تطهيره من الأعشاب الضارة المتمثلة بالبيروقراطيين ومنع بيع وشراء التعيينات. لكن كاردويل ترك الأغصان العالية دون تقليم. فقد أصرت الملكة فكتوريا على إبقاء قريبها البدين دوق كامبردج Duke of Cambridge قائداً عاماً للجيش ورفضت طلب كاردويل إحداث هيئة أركان عامة تعتمد على الاستحقاق والجدارة.

وبرغم ازدراء ولسلي لغلادستون إلا أنه أعجب بإصلاح الجيش الذي كان

بمثابة وسيلة لتقوية وتدعيم الإمبراطورية، وقاد حملة دون توقف بهدف التخلص من دوق كامبردج الذي دعاه بـ "النقانق الألمانية الضخمة"[(6)]. ودبر مكيدة داخل وزارة الحربية وتحدث همساً إلى الصحافة. وعن حكمةٍ وبُعْد نظرٍ حدّد كلية الأركان الجديدة في ساندهرست بأنها "المفتاح الرئيسي" للارتقاء في سلم الرتب[(7)]. وكوّن حلقة من الضباط الشباب الطموحين دعاها "حلقة ولسلي"، فكانت حزباً داخل الجيش.

لكن هذه الاستراتيجية أعطت ما هو عكس النتائج المرجوة. فقد اعترضت الملكة فكتوريا على ذاك العمل الانتقامي الذي يقوم به جنرال مغرور ضد قريبها. أما السياسيون الليبراليون فقد نأوا بأنفسهم عن ادعاءاته بصوت عال معطياً إجابات عسكرية لمسائل سياسية. وهكذا حرم اللورد كامبردج ولسلي وأصدقاءه من أكبر الجوائز ومن الرتب العليا في القيادة الهندية. ومع حلول عام 1882 بدأ نجم ولسلي بالأفول. وفي لحظة نادرة من لحظات التوافق والانسجام بين الملكة وغلادستون أعرب الاثنان عن عدم ثقتهما به. بيد أن هزيمة لحقت بالجيش على أيدي الأفغان والبوير وقبائل الزولو أربكت الجيش بعد إصلاحه ولطخت بريق سمعة حلقة ولسلي. فكانت الحملة المصرية أفضل وآخر فرصة لولسلي لإنقاذ الإمبراطورية البريطانية وإنقاذ مستقبله المهني والعسكري.

بينما كان غلادستون يقاوم هجوماً من الحرس الخلفي على حكومته كان ولسلي منهمكاً في وضع تفاصيل حملته. لم يجازف، وأصر على التزود بأحدث صنوف المدفعية، و24,000 جندي من بريطانيا و7,000 جندي من الهند. كان أقصر طريق إلى القاهرة - من الإسكندرية ـ محصناً بدفاعات قوية فارتأى أن يتخذ الطريق الأطول والأسلم. كانت المسافة من الإسماعيلية على قناة السويس إلى القاهرة نحو 100 ميل ويمر الطريق عبر رمال الصحراء الشرقية. ورأى أن يستخدم سكة الحديد التي أنجزها الخديوي إسماعيل لإمداد قواته بالمؤن، وقناة المياه العذبة لإرواء خيوله. وفي طريقه إلى القاهرة سيدمر الجيش المصري ويسكت خصومه المحليين. وقد أسرّ إلى الليدي لويزا قائلاً: "أتوق لتحقيق نجاح

حقيقي لأجعل العالم كله يشعر أن إنكلترا تملك الكثير، وأن قوة وشجاعة جنودها لا تتأثر إطلاقاً بنفوذ الراديكالية"[8].

كان هذا الجنرال وهو على متن الباخرة كالابريا *Calabria* يتناول عشاء وصفه الطبيب لمريضه وهو السمك المقلي والجيلي. وكان يفكر بابنته الصغيرة فرانسيس Frances والهدايا التي وعدها بها عندما يعود منتصراً إلى أرض الوطن، فقد وعدها بمهر صغير وبقطعة يجدعها من أنف عرابي بالموسى التي يحملها في جيبه.

بينما كانت الحرائق لا تزال تشتعل في الإسكندرية أرسل عرابي نحو 400 جندي حاصروا الخديوي توفيق في قصر الرمل القريب من بوابات المدينة. لكن الخديوي تمكن من الخروج من قصره بعد أن دفع الرشاوي للجند والتجأ إلى سفينة حربية بريطانية مصطحباً معه درويش باشا. وكان الأعيان كلهم تقريباً يؤيدون الخديوي وقد تجمع بعضهم في الإسكندرية محتمين بمدفعية الأميرال سيمور، بينما فر آخرون إلى إسطنبول. انهارت الحكومة. ففي منطقة الدلتا هاجم سكان الإسكندرية المشردون الذين لا مأوى لهم اليهود والمسيحيين، ومزق الفلاحون عقودهم التي وقعوها مع المرابين اليونانيين التابعين للحكومة.

في الحادي عشر من تموز/يوليو أعلن عرابي فرض القانون والأحكام العرفية وأمر وزراءه وضباط جيشه بتجاهل رؤسائهم وعدم إطاعة أوامر الخديوي حيث أصبحوا تابعين له مباشرة. وشكل مجلساً أعلى مؤلفاً من 14 عسكرياً وإدارياً لإدارة البلاد من خلال اجتماعه الليلي في وزارة الحربية. وليضمن ولاء الشعب له ألغى جميع ديون الفلاحين للحكومة. ثم بعث بأوامره إلى الريف لمصادرة البغال والخيول ولتجنيد نحو 25,000 مجند جدد. وقد أعلنت صحيفة غازيت *Gazette* التابعة للحكومة الجهاد ضد الإنكليز مستشهدة بالآية الكريمة "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله"[9]. وأطلق عبد الله نديم ربيب الأفغاني الذي صار الآن مساعداً لعرابي حملة دعائية حيث نشر مقالة في صحيفة "الطائف" يتهم فيها

البريطانيين بالتآمر للاستيلاء على مكة. وأرسل الوعاظ الموالين لعرابي إلى الريف لإثارة الفلاحين، قائلين: الإسلام في خطر وحزب عرابي هو حزب الله. وأذيع هذا النداء في المساجد أثناء خطبة وصلاة الجمعة. وبدا للجميع أن الأحداث الهامة جداً ذات صلة بعصر ألفي سعيد كما بشرت بذلك المذنبات التي ظهرت في السماء واعدة ببدء قرن إسلامي جديد قد بدأت تتحقق.

كانت خطوة عرابي التالية حل مجلس الأعيان. فقد جمع إليه زهاء 70 شخصاً من أكثر الشخصيات نفوذاً في مصر من طبقة النبلاء والتجار والزعماء الدينيين وكبار الموظفين حيث عقدوا اجتماعاً طارئاً في مبنى وزارة الداخلية. ولم يحضر الاجتماع الذي عقد قبيل ساعات معدودة من بدء شهر رمضان سوى قلة قليلة من الأعيان. كان الجدال ساخناً وقصيراً. وسرعان ما التف الثوار حول البقية الباقية من أنصار الخديوي طالبين حكم الدين الأسمى. غير أن الشيخ عُليش، شيخ الأزهر، قد أعلن الجهاد ضد الكفار المعتدين من قبل افتتاح هذا الاجتماع، وكان حليفه الشيخ العِدْوي قد طالب بعزل الخديوي توفيق وتنحيته.

فكان السؤال المطروح لاستصدار الفتوى كما يلي: "ما قولكم في حاكم عينه أمير المؤمنين ليحكم بالعدل وليعمل بما أمر به الله فخان العهد وبذر بذور الشقاق بين المسلمين وانتهك وحدتهم؟"[10]

وعندما أمر الشيخ محمد عبده بإعادة النظام للاجتماع وقف اثنان من الأعيان الأتراك ليتكلما دفاعاً عن الخديوي، ومن أجل اتخاذ الحيطة والحذر تصدى لهما ضباط الجيش وأسكتوهما. وتحدث الشيخ عُليش ثانية معلناً الجهاد، وهنا وقف محمد عبده وطالب بخلع الخديوي باسم الإسلام وباسم مصر. ثم طلب طرح هذا الطلب على التصويت.

مع أن الضباط ورجال الدين كانوا يريدون الحرب إلا أن النبلاء والتجار وكبار موظفي الدولة لم يكونوا في عجلة من أمرهم لمحاربة بريطانيا والسلطان العثماني ونائبه الخديوي الذي عينه على مصر. فقد أدلوا بأصواتهم لصالح حل وسط: يقضي بمواصلة الاستعدادات العسكرية، ولكن بما أن موقف الخديوي كان

حتى تلك اللحظة غير واضح، فلا يمكن اتخاذ قرار بخصوص مستقبله قبل أن يستشار. وفوض الاجتماع لجنة منه للذهاب إلى الإسكندرية[11].

لم يكن الخديوي توفيق بحاجة لأن يفاوض أحداً بخصوص بقائه على عرش مصر طالما أن الأميرال سيمور كان إلى جانبه، فرفض لقاء هذه اللجنة واصفاً إياها بأنها غير شرعية. وبتاريخ 20 تموز/يوليو أصدر أمره بعزل عرابي من منصبه كوزير للحربية وذلك رداً على سلوكه هذا. وسانده السلطان العثماني في ذلك، قائلاً يجب على عرابي أن يكف عن تحديه للنظام العثماني وعليه أن يصلح الضرر الذي تسبب به نتيجة تمرده. وقد ربح السلطان والخديوي معاً فائدة كبرى من تمرد عرابي.، وهكذا بقي عرابي الآن وحيداً.

أخفى عرابي كتاب السلطان العثماني عن أعين الجميع ما عدا المجلس العمومي. وأراد عبد الله نديم أن ينشر نص هذا الكتاب في صحيفة "الطائف" ليظهر للجميع أن السلطان كما الخديوي قد خان الإسلام بجبنه وخوفه. لكن لم يسمح عرابي له بذلك. ومع أن عرابي قد ظهر أمام الجميع بأنه بطل قومي، إلا أنه كان يعلم جيداً أن القومية المصرية هي في أوج قوتها لدى الصفوة الجديدة من الشعب المصري: المفكرين وضباط الجيش والأثرياء من الأتراك. أما الفلاحون فقد خرجوا دفاعاً عن الإسلام وليس دفاعاً عن مصر. وإن اكتشف هؤلاء أن ثورتهم لم تعد باسم الإسلام وخليفة المسلمين فقد يتخلون عنه. لذلك بينما كان يواصل زعمه بأن السلطان يؤيده، وبينما كان يواصل تأييده "للحكم العثماني" كان يعمل نحو غاية أخرى، ألا وهي إقامة حكومة ثورية.

وهكذا طلب إلى حكام الأقاليم وضباط الجيش القدوم إلى القاهرة، حيث عقد في مبنى وزارة الداخلية اجتماعاً ثانياً موسعاً. تحدث علي الروبي Ali Al-Rubi، مؤسس جماعة سرية باسم "مصر القوية" كانت وراء ثورة الضباط، غاضباً مغتاظاً وبحماس شديد ضد البريطانيين وضد الخديوي قائلاً إن دعم عرابي يعني دعم المقاومة ودعم الشعور الوطني والدفاع عن الإسلام ومصر. ومن يستطيع الوقوف ضد أمر أراده الله؟

ولم يجرؤ أحد على ذلك، وصوّت الجميع لصالح تجاهل وإهمال أوامر الخديوي ونقل السلطات جميعاً إلى عرابي ومجلسه العمومي. وحرص الجنود الواقفون على أبواب الوزارة على التأكد بأن الجميع قد وقعوا بإمضائهم على هذا الإعلان الذي أرسل إلى القسطنطينية باسم "الشعب المصري" وباسم "مصر الإسلامية العثمانية"[12].

أصبح عرابي الآن حاكماً ديكتاتوراً عسكرياً، واستعد للحرب. وكما فعل ولسلي رأى عرابي أن ثمة طريقين معروفين للقاهرة: أحدهما من الإسكندرية والثاني من قناة السويس. سحب قواته من الإسكندرية، وسد ترعة المحمودية، التي تعد المصدر الوحيد لمياه الشرب لهذه المدينة، وقطع جميع خطوط البرق والبريد مع القاهرة. وبينما كانت مقراته في كفر الدوار تعترض طريق الإسكندرية ـ القاهرة بقي الجانب الشرقي للعاصمة مكشوفاً. أحس عرابي في قرارة نفسه بأن البريطانيين لن يحترموا حياد القناة، سيما وأن بواخرهم الحربية قد شوهدت قرب القناة، حيث وضعت لتسد المخرج الجنوبي للقناة. وحدد هو وكبار ضباطه أربع نقاط يمكن فيها سد القناة أمام حركة المرور فيها سواء لأغراض تجارية أو عسكرية. بتاريخ السادس عشر من آب/أغسطس أخبره كبار ضباطه أن ولسلي قد وصل إلى الإسكندرية وأشاروا عليه بإغلاق القناة تحسباً لكل طارئ. لكنه لم يعمل بمشورتهم، سيما وأن فرديناند دو ليسبس قد أكد له أن بريطانيا ستحترم حياد قناة السويس.

حين علم دو لسبس أن إنجازه العظيم هذا مهدد بخطر داهم أسرع إلى مصر ليقوم بحملة دبلوماسية قوامها رجل واحد. وأكد لعرابي أن فرنسا ستمنع بريطانيا من استخدام القناة لأغراض عسكرية، وصدقه عرابي الذي أخذ غروره يتزايد كلما ازدادت سلطته.

لم يكن عرابي مثل ولسلي، إذ ليس لديه خبرة ولسلي في خوض المعارك، ولم يكن لديه أي دراية في شؤون الحروب الحديثة. وبدلاً من أن يغلق قناة السويس أمام الملاحة ويجبر البريطانيين على سلوك الطريق الصعب الذي يسهل الدفاع عنه من الإسكندرية إلى القاهرة، أبرق إلى دو ليسبس قائلاً إنه لن يكون أول من ينتهك حياد القناة.

بدلاً من ذلك كله عمل على تحصين نقطة خانقة على طريق الإسماعيلية القاهرة عند التل الكبير، حيث استقر مخيم عسكري على مرتفع من الأرض بعرض ميل واحد تحده من الجنوب قناة مياه عذبة ومن الشمال الكثبان الرملية. ووسع دفاعاته، حيث حفر الخنادق ومرابض المدفعية. فقد كانت خطته تقضي بتعويق تقدم البريطانيين لحين تدخل حلف الوفاق الأوروبي وتأتيه نجدة من القوات التركية التي يتوقع لها أن تتعاطف مع المسلمين زملائهم أكثر من تعاطفها مع البريطانيين. وفي انتظاره هذا كان يقضي وقتاً في استشارة العلماء والفقهاء المسلمين في أماكن قصية في الجزائر وتونس أكثر مما يقضيه في التشاور مع جنرالاته. وكان مما قرأه في تلك الأثناء كتاب المهدي الذي يشرح ضرورة الجهاد ضد من هم ليسوا مسلمين، وغزوا ديار الإسلام[13]. وقد أقر الكثيرون حتى بلانت المتحمس له بقوله: "كان يبدّد الكثير من وقته في الذكر والتلاوة بدلاً من أن يكرسه لواجب دنيوي في تنظيم دفاعاته"[14]. لكنه وجد الوقت الكافي لمضاعفة ما يملكه من الأراضي ثلاثة أضعاف[15].

لكن ولسلي لم يبلع الطعم في الإسكندرية. فقد وضع خططه بحيث يتجاوز المدينة كلها. إلا أن قصف الأميرال سيمور "المجرم"[16] أجبره على النزول إلى اليابسة وتوزيع قواته تحسباً لقيام عرابي بتحرك نحو المدينة من كفر الدوار. فأبحر ولسلي بما تبقى من جنوده بتاريخ 18 آب/أغسطس، واتجه مسرعاً نحو القناة تحت جنح الظلام.

حين علم دو ليسبس بأن البريطانيين قادمون أبرق إلى عرابي على جناح السرعة قائلاً: "لا تتخذ أي إجراء لإغلاق قناة السويس. فأنا هناك". وأردف قائلاً وليس لديه سبب للادعاء بذلك: "لن ينزل إلى البر جندي بريطاني واحد دون أن يكون معه جندي فرنسي. وأنا المسؤول مسؤولية كاملة"[17].

أراد عرابي أن يصدقه، لكن ضباطه في المجلس الحربي المنعقد في كفر الدوار عارضوه.

فقد أجابوا على برقية دو ليسبس بقولهم: "الشكر الجزيل لك. والتأكيدات

هذه مطمئنة. لكنها غير كافية في ظل الظروف الراهنة. إن الدفاع عن مصر يقتضي تدميراً مؤقتاً لقناة السويس"[18].

وفي تلك الليلة أرسل عرابي أمراً إلى الإسماعيلية بتفجير السفن الراسية في القناة. ولكن بسبب الثورة وانقطاع البرق استغرقت رسالته هذه 15 ساعة لتصل من كفر الدوار إلى القاهرة ثم الإسماعيلية. وفي تلك الأثناء عبرت السفن الحربية البريطانية القناة متجهة من السويس فالأطراف الجنوبية للقناة. وعند المدخل الشمالي للقناة استفاق سكان بور سعيد في الساعات الأولى من الصباح على صوت نيران البنادق وهدير المدفعية في الشوارع، ومع الفجر وجد سكان الإسماعيلية أن مدينتهم قد وقعت في قبضة جنود ولسلي.

وفي الخرطوم تلقى الحاكم العام الجديد عبد القادر حلمي باشا أمراً من الخديوي توفيق يقضي بأن عليه أن يتجاهل جميع المراسلات القادمة إليه من وزير الحربية عرابي. وما هي إلا سويعات قليلة حتى تلقى أمراً من عرابي يلزمه بتجاهل أوامر الخديوي. لكن أياً منهما لم يقدم له التعزيزات التي طلبها[19].

استخدم كل من الخديوي توفيق وعرابي ثورة المهدي ضد الآخر. أراد توفيق أن يرسل إلى حلمي باشا التعزيزات التي طلبها وأراد أن يسحب قوات عرابي بعيداً عن الدلتا. ورفض عرابي إرسال القوات. فهو لا يريد أن يفعل شيئاً قد يساعد الخديوي، وكان بحاجة لقواته كلها للقتال ضد البريطانيين و"لحفظ الأمن الداخلي"[20]. وفي الوقت عينه لم يقدّر عرابي خطر المهدي حق قدره. ولم يكن مثل توفيق، إذ ينبغي له أن يكون أكثر دراية. وكان محمد رؤوف باشا، الحاكم العام السابق للسودان، قد علا شأنه وأصبح عضواً في حكومة عرابي الثورية، وفي المجلس العمومي.

ولكي يكسب حلمي باشا إلى جانبه، أرسل له عرابي برقيات يتحدث فيها عن انتصاراته الوهمية على البريطانيين. ولم يكن حلمي باشا يعرف ما إذا كان في خدمة السلطان العثماني أم هو يخدم جمهورية قومية. ولكن حين قرأ مزاعم عرابي بأن

مدفعية الإسكندرية قد أغرقت الأسطول البريطاني برمته، انفجر ضاحكاً[21]. وأعلن ولاءه للخديوي توفيق وللأتراك واضعاً الاستراتيجية الوحيدة الممكنة. فقد حاول أن يشن الحرب على المهدي دون أن يجازف بحملة عسكرية واحدة.

تخلى حلمي باشا عن الريف في كردفان لصالح الثوار، وحصن المدن التي تقيم فيها حامياته العسكرية. دعّم أسوار الخرطوم وحفر خندقاً حول حدودها الجنوبية، وسير دوريات الجنود في شوارعها. ومنح إعفاءً من الضرائب لمدة عام واحد للقبائل التي تعلن ولاءها للحكومة، وقدم دية مالية لمن يقتل: جنيهين للشخص الواحد من الأفراد و18 جنيهاً لشيخ القبيلة[22]. واستأجر القتلة المأجورين ليحاولوا قتل المهدي برصاص البنادق والتمور المسمومة، وطلب إلى الخديوي توفيق أن يعمل على إرسال طرد بريدي ملغوم ينفجر حالما يفتحه المهدي بيديه[23].

ومع أن حلمي باشا لم يستطع نقل الحرب إلى كردفان إلا أنه نقلها إلى المناطق التابعة للمهدي. وكانت الدعاية المروجة للمهدي والمكتوبة بخط اليد تتسرب دون انقطاع من جنوب كردفان. فعمل حلمي باشا على نشر دعاية مضادة لها من خلال حشد رجال الدين في الخرطوم. تحدث المشايخ من أنصار الحكومة عن رسالة المهدي وعن المهدي الكذاب. وأعطوا نصائح عامة لشعب السودان عن الاختلاف مع الحكام وعن عصيان أمير المؤمنين[24]. وأكد هؤلاء المشايخ على حقوق السلطان بالخلافة وحقوق الخديوي توفيق بلقب الخديوية. وقالوا إن المهدي دجال وأفاك، وأن غضب حلمي باشا مخيف. هم لم يرفضوا فكرة المهدي ولكن رفضوا فقط أن يكون المهدي هو ذاك الناسك الذي ظهر في جزيرة أبا.

وقالوا: "إن ملجأنا، ملجأ الجميع، موجود، ألا وهو صاحب السمو الخديوي، وصاحب المعالي الحاكم العام"[25].

لكن أقوالهم هذه لم يكن لها أي أثر في مواجهة تلك الثورة العارمة التي قادها المهدي. فكانت مدن الحاميات في كردفان تنهار الواحدة تلو الأخرى في صيف عام 1882، أمام أمواج متتالية من رجال القبائل المغيرين على التجريدات العسكرية في الأماكن المنعزلة محطمين معنويات الجنود المصريين. وامتدت الثورة إلى دارفور ومنطقة بحر الغزال. وتهافت اللاجئون إلى مدينة الأبيّض

يروون قصصاً عن رجال بدائيين انتحاريين مسلحين بالعصي والرماح يتسلقون فوق جثث موتاهم ليلقوا بأنفسهم على البنادق وعلى راجمات الصواريخ ليبيدوا النساء والأطفال.

وكبر معسكر المهدي حتى صار اكبر مستوطنة في السودان. وما أن جاء شهر آب/أغسطس حتى تجمع حول المهدي ما يزيد عن 100,000 محارب مع عائلاتهم. وسمع المهدي من المتعاطفين معه من مصر أن الخديوي قد خُلِع عن عرشه وأن الجيش البريطاني قد نزل في الإسماعيلية. وأدرك أن المصريين غير قادرين على تجريد حملة كبرى في السودان. وأن ليس لدى البريطانيين سبب يدعوهم لإرسال حملة إليه. إذن هذه هي اللحظة السانحة لإعلان إمبراطوريته الإسلامية. فقرر التحرك نحو مدينة الأُبيّض.

كانت الحامية العسكرية في الأُبيّض تعرف جيداً ما هو المتوقع. بتوجيه من قائد الحامية الجنرال محمد سعيد، قام الجنود بحفر خندقين دائريين، أحدهما حول أطراف المدينة والثاني حول مركزها، حيث الثكنة والآبار ومخزن الغذاء وترسانة الأسلحة. وبنوا زرائب أمامها ورفعوا السواتر الترابية وراءهما جاعلين فيها بعض الثغرات لإطلاق النار.

عند فجر يوم الثامن من أيلول/سبتمبر وبينما كان غارنت ولسلي يقترب من موقع التل الكبير، كان جنود الحامية العسكرية في مدينة الأُبيّض ينظرون بعيون ناعسة إلى الشمس المشرقة، وإذا بهم يرون لمعان آلاف الرماح تتجه نحو الجهة الشرقية للمدينة. انتظر الجنرال سعيد حتى وصلت طلائع هؤلاء الأنصار إلى الأطراف المحاذية للزريبة قبل أن يعطي أوامره. وانطلقت نيران كثيفة من البنادق والمدفعية وراجمات الصواريخ فأوقفت الموجة الأولى من هؤلاء الأنصار. جاء في المصادر "قتلنا منهم المئات والآلاف ومع ذلك ظلوا يتساقطون علينا دون خوف أو وجل". تراكمت الجثث فوق بعضها بجانب الزريبة، وتتابعت الموجات تهبط إلى الخندق. سخنت أسطوانات البنادق لدى المدافعين وكان لزاماً لفها بمناديل مبللة. في إحدى النقاط تقدمت موجة من الغزاة بقيادة محمد شقيق المهدي واخترقت الخندق الخارجي ودخلت المدينة، لكن نيراناً كثيفة من مدى

قريب أطلقت من أسطح المنازل أوقفتها. وعندما تراجع هذا المد من الأمواج البشرية لم يكن ثمة شيء "سوى أكوام من جثث الموتى في كل مكان"[26].

لقد أراد المهدي أن يحتفي ببدء القرن الإسلامي الجديد بنصر مؤزر، وإذا به يخسر 10,000 مقاتل من أتباعه والعديد من أفراد عائلته. نكسة أصابت الثورة. كان المهدي يريد أن يكون الرجل الذي لا يقهر، لكن أسلحة الكفار والأتراك الخونة أوقفت تقدم الأنصار. وأشار عليه خليفته عبد الله بالتراجع إلى الجبال، ولم يكن لدى المهدي أي خيار آخر. فادعاؤه ادعاء إلهي، وأي تعديل فيه يعني التخلي عنه. فعمل على إجراء مراجعة وتعديل في تكتيكاته، فرأى أن النبي (ﷺ) قد اتبع خطة الحصار. فأرسل بعض الفرق لملء الآبار على الطريق ما بين الأُبيّض والخرطوم. وسمع صوت النبي يتحدث إليه وينصحه بأن يعيد النظر في موقفه السابق من البنادق الحديثة.

في إحدى الليالي أضاء السماء مذنب قبيل الفجر، كان حزمة ضيقة تلمع بضوء يميل إلى الحمرة، وتنتهي بنواة ملتهبة كبيرة تبرق، حجمها يعادل حجم كوكب الزهرة. لم يكن الأنصار يعلمون شيئاً عن البروفسور شوستر Professor Schuster وحديثه عن مذنباته Kreutz Sungrazers. ولم يعرفوا أن علماء الفلك في أوكلاند وبنما ومدينة الكاب قد تتبعوا طوال الأسبوعين السابقين مسار المذنب في السماء. فكان هذا المذنب برأيهم غير ذلك المذنب العظيم Great Comet الذي ظهر في عام 1882. فهذه إشارة من السماء بأن زعيمهم هذا هو المهدي الحقيقي.

في رسالة بعث بها إلى زوجته العزيزة "Dearest Loo" قال ولسلي: "لقد قررت أن أقاتل عرابي يوم الثلاثاء أو الأربعاء القادمين"[27].

انطلق من الإسماعيلية وتقدم مسافة 40 ميلاً نحو القاهرة، واشتبك بمناوشات صغيرة مع سلاح فرسان عرابي إلى أن وصل إلى الدفاعات في موقع التل الكبير. كانت القاهرة تبعد 60 ميلاً، لكنه يريد أولاً أن يخترق شبكة خنادق عرابي. لم يكن أمامه من سبيل للالتفاف حولها. إن حاول ذلك في مسار طويل

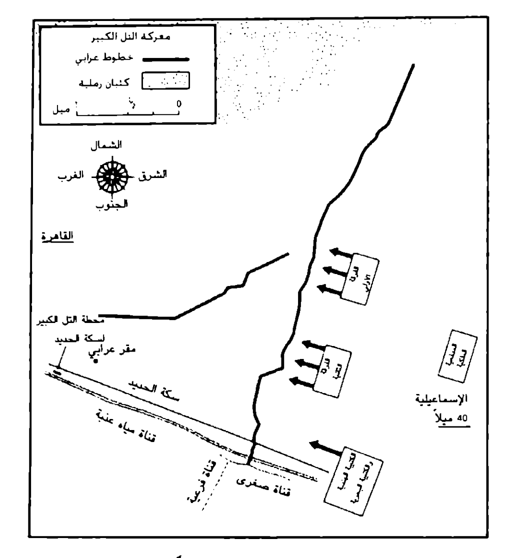
يدور حول الكثبان الرملية فقد يتمكن عرابي من سحب جيشه سليماً دون أن يصاب بأذى إلى الريف الذي تقطعه طولاً وعرضاً قنوات الري. وإن أقدم ولسلي على مهاجمة الخطوط فسوف تجبره قناة المياه العذبة والكثبان الرملية على التقدم للأمام مباشرة عبر المنحدرات الخفيفة الكثيرة الحصى. وسيكون جنوده على مرأى من المصريين من بعد خمسة أميال قبل وصولهم إلى الخنادق وعندئذ ستشتت المدفعية المصرية شملهم. فالخيار الوحيد أمامه شيء جديد لم يجربه من قبل وهو التقدم ليلاً والهجوم عند الفجر[28].

في الساعات الأولى من الصباح خرج ولسلي وبعض جنرالاته في جولة على ظهور الخيل في الصحراء. وعند طلوع أول خيط للضوء رأوا جنود الاستطلاع المصريين يخرجون من بين الصفوف. كانت الساعة الخامسة وخمساً وأربعين دقيقة.

قال ولسلي لصحبه: "انتبهوا للتوقيت. هجومنا يجب أن يبدأ قبل هذه الساعة"[29].

واختار الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي. في تلك الليلة أمر الضباط جنودهم بإزالة خيامهم وإبقاء النار مشتعلة. وملأ الجنود جعبهم بمئة طلقة ذخيرة، وقوارير المياه بالشاي البارد، وكدسوا خيامهم وبطانياتهم على مقربة من خط سكة الحديد. وساروا على هدي من النجوم، وعند الساعة الثالثة والعشرين توقفوا قليلاً خلف هضبة صغيرة كانت آخر غطاء لهم قبل صفوف المصريين. وقد اشتمل أمر الهجوم لهم بعض الأخطار الواجب اجتنابها: لا إشعال للنار، لا أبواق، لا تدخين، لا كلام، وعلى كل جندي أن يرسم خطاً أبيض باتجاه قطري على زيه العسكري من جهة الظهر.

كانت الخطة تنم عن جرأة واستبسال ولا تخلو من المخاطر. سوف يتقدم الجند إلى الأمام مباشرة، الفرقة الأولى لجهة الميمنة والفرقة الثانية لجهة الميسرة وكتيبة المدفعية في القلب. أما جنود الاحتياط من الكتيبة الهندية وكتيبة البحرية فسوف يتحركون عبر الوادي الذي يشتمل أيضاً على القناة وخط سكة الحديد، إنما تظل متأخرة في تقدمها عن خط الهجوم الرئيسي تحسباً لأي



حركة قد تستثير الكلاب أو من لا ينامون ليلاً في القرى الواقعة على الوادي، بينما يظل الجنود المسلمون من البنغال في كتيبة الفرسان في أقصى الميمنة. وإن نجحت خطة ولسلي هذه فسوف يواصلون تقدمهم إلى القاهرة خلال هذا النهار الطويل. وإن لم تنجح فسوف يبقى الجنود محاصرين في هذه الأرض المكشوفة.

عند الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل أصدر ولسلي أمره همساً، سرعان ما انتشر في موجات من الهمس إلى جميع صفوف القوات. جندي واحد فقط كان ثملاً من الشراب وبدافع الخوف أخذ يصيح في تلك العتمة. ولكن قبل أن يشعر به المصريون، كان رفاقة قد سيطروا عليه وأوثقوه وخدروه بالكلوروفورم.

وابتدأ تقدم القوات؛ كتيبة Highlands قادت الفرقة الثانية من جهة الميسرة، وفي مركز الوسط في هذه الكتيبة كان اللواء سير أرشيبولد أليسون Sir Archibald Alison يتوقف بين لحظة وأخرى ليتفقد موقعه. وعند كل أمر

ينتقل إلى أطراف الكتيبة، كان جناحا هذه الكتيبة يبتعدان عن الموقع، فتحول خط الهجوم إلى ما يشبه شكل الهلال، ذلك أن الفصائل كانت تسير باتجاه بعضها دون أن تحدث صوتاً في تلك العتمة. فأوقف اللواء أليسون هذا التقدم في اللحظة المناسبة. أرسل ولسلي العقيد وليم بتلر Col. William Butler ليحدد مواقع الفصائل التي ضلت طريقها. واحتاج لمدة نصف ساعة ليعيد ترتيب نسق خط الهجوم. تقدم الجند ميلاً آخر، وعند الساعة الثالثة توقفوا بانتظار بزوغ الفجر وقوات الاحتياط في الوادي. انتظروا لما يزيد عن الساعة وهم في ظلمة الليل وصمت مطبق. في الفرقة الأولى تقدم اللواء غراهام Maj. Gen. Graham وقوات الطليعة حتى وصلوا إلى مسافة نصف ميل فقط من الخنادق المصرية.

وعلى نحو مفاجئ ظهر في السماء عند الأفق الشرقي خلف الخنادق خيط لضوء متوهج، كما لو أن الفجر قد بزغ قبل أوانه. لقد كان ذلك الخط المذنب الكبير Great Comet. طلقة واحدة انطلقت من أحد الحراس المصريين، وفي تلك اللحظة تفجر خط الهجوم المصري بأسره وأخذت النيران تنطلق منه. كان الجنود في خنادقهم يترقبون قدومهم. فقد رأت فرقة الاستطلاع المصرية البريطانيين وهم يحزمون خيامهم. ولا سبيل الآن إلى التراجع.

أصدر اللواء غراهام أمره إلى الفرقة الأولى بالهجوم. وأطلقوا وابلاً من القذائف عن بعد 300 ياردة، وتقدموا ثم أطلقوا وابلاً ثانياً عن بعد 150 ياردة، ثم وثبوا مندفعين خلف خندق دفاعي ثم نحو متاريس الخنادق المصرية والحراب مثبتة ببنادقهم. أمام هذا الهجوم فر الجنود المصريون هاربين وبزاتهم البيضاء تكاد تخفي حركتهم في تلك الصحراء الرمادية. وخلفهم فتحت المدفعية الملكية نيران أسلحتها مطلقة قذائفها العنقودية في عمق الاستحكامات الدفاعية المصرية.

وإلى يمين اللواء غراهام وفرقته كان اللواء أليسون يقود هجوم كتيبة Highland، بينما كانت الطبول تقرع إيقاعاً عسكرياً، وأصوات موسيقى مزامير القرب تختلط بأصوات القذائف المصرية المتساقطة. من بعد 150 ياردة ثبّت الجنود الحراب في بنادقهم، وانطلق صوت البوق معلناً الهجوم بينما كان العقيد

ليث Col. Leith على جواده في المقدمة يعدو ويصرخ "هيا يا فرقة 79"، وعدا خلفه فرسان Cameron Highlanders يهتفون وهم ينقضون على الخنادق. هرب الجنود المصريون كلهم ولم يصمد وراء تلك الاستحكامات إلا المجندون السودانيون. أول جندي ظهر خلف المتراس سقط لدى ظهوره بعد أن أصابته قذيفة في رأسه. بينما تسلق جنود كاميرون Cameron حتى وصلوا خط نار المشاة يتدافعون من فوق أكتاف بعضهم بعضاً ليشتبكوا في قتال بالأيدي داخل تلك الخنادق الضيقة. واحتلوا الخندق بحرابهم بينما كانت موسيقى مزامير القرب تعزف لحناً بعنوان "The March of the Cameron Men".

وطلعت الشمس لتميط اللثام عن آلاف مؤلفة من جنود مصريين هاربين بخيولهم وإبلهم. وأطلقت المدفعية الملكية نيران قذائفها في تلك الصحراء المنبسطة التي اجتاحتها بعد ذلك كتيبة الفرسان مشهرة السيوف في وجوه رجال رافعين أيديهم مستسلمين. وأعقبت ذلك موجات من جنود المشاة تقتل الحيوانات التي تحمل الأثقال والجنود الجرحى. وامتلأ السهل الفسيح بجثث القتلى. وقد أقر العقيد بتلر قائلاً: "يقتلون أي شيء يبدو مناسباً لتصويب البندقية عليه"[30]. عند الساعة السادسة وعشرين دقيقة أمر ولسلي فرسان البنغال Bengal Cavalry بالإسراع نحو القاهرة.

كان أحمد عرابي نائماً في خيمته عندما ابتدأ القتال. وقد فر من معركة التل الكبير على جواده دون أن يرتدي حذاءه. ووصل إلى القاهرة قبل نحو نصف ساعة من وصول فرسان ولسلي. وكان المجلس الثوري قد أعد مرسوماً من المفترض أن يقرأ عند صلاة الفجر، ويقضي بإحراق المدينة، لكن عرابي عرف أنه قد هزم، فنقض هذا الأمر. وصل فرسان البنغال إلى أسوار القاهرة عند مغيب الشمس فرأوا العلم الأبيض. وفي قلعة القاهرة أعلن 4,000 جندي من قوات عرابي استسلامهم لفصيلين من سلاح الفرسان. وفي اليوم التالي استسلمت الحاميات المصرية المنتشرة في أرجاء الدلتا. وفي الإسكندرية أوقف الأوروبيون أعمالهم التجارية وانطلقوا في مسيرات بالشوارع يهتفون "تحيا إنكلترا!"، بينما كانت جوقات الموسيقى العسكرية تعزف نشيد الخديوي والنشيد

الملكي البريطاني "God Save the Queen". وكما كانت خطة ولسلي فقد قضي على الثورة في معركة واحدة.

وصل المنتصر إلى القاهرة على متن قطار خاص، واتخذ لنفسه جناحاً في قصر عابدين، بينما نصب جنوده الـ Highlanders خيامهم في ميدان العرض خارج القصر. وقال في نفسه معجباً بنصره: "ما أروع هذا التغيير في غضون ثمان وأربعين ساعة!! نقلة جيدة سريعة من أوساخ وبؤس الصحراء، بكل ما فيها من نباب إلى نعيم هذا القصر الرحب الفسيح. أمس كنت بين الأوساخ واليوم أتناول الشمبانيا الباردة!"[31]

لكن ولسلي لم يتمكن من جدع أنف عرابي ليقدمه إلى طفلته فرانسيس - فالأنف وصاحبه صار الآن حبيساً في القلعة ـ فأرسل لها بالبريد إحدى بطاقات عرابي الشخصية. وتلقت زوجته الليدي لويزا "كتاباً صغيراً جميلاً بخط اليد" هو كتاب "قانون المهدي وشريعته" الذي كان عرابي يقرؤه وهو في الخيمة قبل المعركة[32].

وبعد عشرة أيام فقط قام جنود بريطانيون بمرافقة الخديوي إلى القاهرة. وخرجت المدينة عن بكرة أبيها لتحتفي بعودته بينما كانت الموسيقى تعزف وتتصاعد الهتافات والرايات: وهو يختال بعربته وإلى جانبه أصدقاؤه الجدد و"الدموع في عينيه"[33]. اتفق شريف باشا ورياض باشا على تسوية خلافاتهما وشكلا الحكومة. ولولا تلك القبور الجماعية في التل الكبير والدمار في الإسكندرية ليكاد المرء يقول إن شيئاً لم يحصل.

اقتضت أصول البروتوكول أن يتنازل ولسلي عن مقعد الشرف المجاور للخديوي إلى دوق كونوت Duke of Connaught برغم كونه عقيداً في الجيش، إلا أنه نجل الملكة فكتوريا. وهكذا تراجع مهندس النصر إلى الصفوف الخلفية إلى جوار القنصل السير إدوارد ماليت Sir Edward Malet. غير أن ولسلي الذي بدا "عصبي المزاج" قبل معركة التل الكبير[34] سرعان ما عاد إلى فظاظته المعتادة وتجهم وجهه حين تسلم السياسيون أمور البلاد. وصار يبدي تذمره

ويقول إن تلك المكافأة التركية ـ وسام العثمانية Osmaniyeh من الدرجة الأولى ـ قد منح منذ مدة وجيزة إلى أفضل صانع أحذية عند السلطان. ولم تُرضه حتى مكافأة غلادستون الذي منحه لقب البارون. وأحس بأنه يجب أن ينال لقب الفايكونت Viscount. ثم تصرف غلادستون ثانية في الإقلال من هذا التكريم بأن منح اللقب نفسه إلى "موج البحر المحيط الهادر" لدوره في هذه الحرب.

وقال ولسلي معرباً عن عدم رضاه: "سيمور دمر الإسكندرية، أما أنا فقد أنقذت القاهرة"[35].

في لندن أعرب غلادستون عن سروره وسعادته لهذا النبأ قائلاً: "طوفان آخر من الأخبار السارة. ولسلي في القاهرة وعربي [هكذا] في السجن. الحمد والشكر لله"[36].

لقد كان من شأن هذا النصر السريع الذي حققه ولسلي أن أسكت كل شكوى أطلقها حملة السندات، وأسكت كل نقد وجهه نواب المقاعد الخلفية في مجلس العموم، وأعطى غلادستون فرصة يثبت فيها للجميع أن "الأحرار" وطنيون أيضاً. فأمر هذا المتنبئ الذي أشار إلى "بيضة إمبراطورية الشمال الإفريقي" بأن تقرع أجراس الكنائس، وأن تطلق المدفعية في حدائق لندن ومتنزهاتها احتفاءً بتحقيق هذا النصر. وفي اليوم التالي تحدثت مجلة الإيكونوميست *The Economist* عن "ارتفاع جديد" في أسهم الديون التركية والمصرية[37]. وأدلى النواب في البرلمان بأصواتهم بالموافقة على منح لقب البارون لسيمور ولولسلي ومنحهما مكافأة تبلغ 20,000 جنيه لكل منهما. لكن النغمة النشاز الوحيدة جاءت من صديق بلانت السير ولفريد لوسون Sir Wilfred Lawson الذي اقترح إجراء "التصويت على توجيه الشكر للجيش المصري لأنه هرب من القتال"[38].

عندما عاد ولسلي إلى لندن استقبلته الجماهير مرحبة به وهي تهتف له في محطة شارنغ كروس Charing Cross حيث كان غلادستون وغرانفيل في

استقباله عند رصيف المحطة، وحيث هبطت على ولسلي "زوبعة من البشر" أخذت معها "الرجل العجوز الكبير" ووزراءه. وبهذه المناسبة قالت الليدي لويزا مازحة في رسالة بعثت بها إلى إحدى صديقاتها: "إذا كانت حملة غارنت قد جعلت السيد غلادستون يقف على قدميه سياسياً، فإن عودة هذا البطل كادت عملياً تبعده عن موقعه كلياً، سيما وأن هذا السيد المسكين قد تعرض للضرب أثناء تدافع الجموع بما يحزن القلب"[39]. وذهب غارنت للقاء الملكة في قصرها بالمورال Balmoral القلعة الاسكتلندية. وفي هذه المرة كان اللقاء جيداً وأفضل كثيراً من السابق. وتبين أن كليهما لا يطيق السيد غلادستون وشركاءه الراديكاليين.

بعد أن أنجز غلادستون حرباً بنجاح واجه الآن مشكلة السلام. أراد أن يعيد الخديوي إلى عرشه المحطم ويدافع عن حقوق حملة السندات وأن يسحب قواته، لكن هذا الغزو قد دمر البنية التحتية السياسية لمصر. كان جيش مصر محطماً والحاكم غير محبوب من الشعب والمجتمع المدني مدمراً وفي السودان تمرد. وحيث إن غلادستون رجل ليبرالي ومن أنصار التعاون بين الأمم لم يستطع أن يقنع نفسه بضم مصر إلى الإمبراطورية البريطانية، فهذا الأمر سوف يخرب علاقات بلاده مع السلطان العثماني وحلف الوفاق الأوروبي ومجلس الوزراء. وفي الوقت نفسه لا يستطيع الانسحاب ويترك فراغاً قد يعرض قناة السويس للأخطار.

في لحظة استبد به التفكير والتأمل قال اللورد غرانفيل: "الصعوبة التي أشعر بها في هذه اللحظة ليست مشكلة إقناع المصريين بأن يفعلوا كما نرغب نحن، بل بالتوصل إلى خطة نحن نريدها"[40].

كانت الإمبراطورية غير المعلنة قد أفادت من ديكتاتورية الخديوي التي انهارت أمام ثقل الدّيْن والثورة. وانهار أيضاً أنموذج الرقابة الثنائية إذ "لم يعمل الفريقان معاً على إنقاذه"[41]. والبديل المحلي الوحيد، ألا وهو الحركة الدستورية، قد تحطم كما تحطمت حكومة عرابي العسكرية. تركيا وفرنسا، شريكا بريطانيا، خانتاها في وقت أزمتها. وكما قال ولسلي بأسلوبه العسكري الفظ

سلطة الخديوي توفيق لم تأت إلا على أسنة الحراب البريطانية[42]. وهكذا بقي غلادستون يحمل مسؤولية إعادة بناء الدولة المصرية التي دمرها باسم الأمن.

والجواب الوحيد لهذه المشكلة هو سلطة مؤقتة تستطيع بريطانيا من خلالها "أن تزرع مؤسسات غربية وخيرية في أرض مجتمع مسلم"[43]. وهذا ما يستوجب قيام الجنود والإداريين البريطانيين بتدريب المؤسسات المصرية وبعدئذ ينسحبون بعد أن ينجزوا ويسلموا دولة قائمة بمؤسسات تعمل. سوف يتحمل دافعو الضرائب ببريطانيا مبلغ 2.3 مليون جنيه من تكاليف حملة ولسلي بينما تدفع مصر رواتب وأجور الجنود البريطانيين الذين يبقون في مصر وعددهم 12,000 جندي. وسيتم إعفاء تركيا ويبقى السلطان محتفظاً بالضريبة التي يأخذها. لكنه سيخسر كل شيء فيما عدا ذلك وستتم معاقبة فرنسا. وغلادستون هذا الذي قال إن الاحتلال البريطاني "سيقول وداعاً لا لقاء بعده لكل ود ووئام في العلاقات السياسية بين إنكلترا وفرنسا". حيث سيتم استبعاد فرنسا عن أي دور في مصر[44].

وهكذا فرض غلادستون الواثق من نفسه ثقة كبرى لرجل جالس بين مقعدين نموذجه الخاص لاستعمار ليبرالي، فهو الحريص بما يكفي على تهدئة حلف الوفاق الأوروبي وإرضاء ضميره ووجدانه، والقوي بما يكفي لإعطاء بريطانيا سيطرة كاملة على مصر. فجاء اللورد دوفرين Lord Dufferin، القنصل في القسطنطينية ليضع الدستور. وبقي في مصر أيضاً اللواء سير إيفلين وود Sir Evelyn Wood، أحد أركان حلقة ولسلي في الجيش، ليكون السردار Sirdar أو القائد العام للجيش المصري. وجاء أيضاً شقيق السير صمويل بيكر الأصغر فالنتاين Valentine الذي طرد من الجيش بسبب تحرشه بسيدة كانت تسافر في عربة الدرجة الأولى بقطار السكة الحديد المتجه إلى واترلو لتدريب الشرطة المصرية. أما الرائد إيفلين بيرنغ Evelyn Baring العضو السابق في لجنة الرقابة الثنائية فقد عاد إلى مصر أيضاً ليرث الفيلا وملعب التنس اللذين كان يملكهما سير إدوارد ماليت. ومع أن بيرنغ هذا هو في مرتبة القنصل إلا أن ترتيبات غلادستون في مصر جعلته نائب الملك الافتراضي، أو حلقة الوصل العليا بين

حكومة لندن وقصر عابدين والسردار قائد الجيش. وفي تلك الأثناء رجع الأرستقراطيون الأتراك إلى وزاراتهم: شريف باشا ورياض باشا وعمر لطفي باشا الذي منح مقعد عرابي في وزارة الحربية مكافأة له على إذكائه لهياج الشغب في الإسكندرية.

ولكي يهدئ مخاوف دول الوفاق الأوروبي بعث اللورد غرانفيل برسالة إلى السفراء الأوروبيين كانت الأولى من بين 66 رسالة واحتجاج،[45] جاء فيها:

"برغم أن قوة بريطانية قد بقيت في مصر لحفظ الأمن والهدوء حالياً، إلا أن حكومة صاحبة الجلالة راغبة رغبة أكيدة في سحب هذه القوة حالما تسمح بذلك حال البلد ويتم تنظيم الوسائل الملائمة للحفاظ على سلطة الخديوي"[46].

بعد أن استعرض الخراب الحاصل تكونت لدى اللورد دوفرين قناعة أكيدة حول ضخامة المهمة الماثلة أمام بريطانيا، قائلاً في ذلك: "سيكون العون الأوروبي لبعض الوقت ضرورياً جداً في مختلف أقسام الإدارة المصرية"[47].

وعندما تحدث عن "الوسائل الملائمة" رأى اللورد دوفرين أن الدستور كان نسخة رائعة لحكم استبدادي مستنير. فالعدل يجب أن يكون أكثر إنصافاً - الشرطة يجب أن يعاد تدريبها والمحاكم يعاد تنظيمها، والجيش يجب أن يظل بعيداً عن السياسة - أما السلطة فلا يجوز اقتسامها. قلص عدد أعضاء مجلس الأعيان ليصبح 46 عضواً، وبحيث تكون سلطته استشارية بحتة كما خطط لذلك الخديوي إسماعيل. وهذا المجلس ينقل الإرادة القومية إلى مجلس تشريعي وهذا بدوره ينقلها إلى مجلس الوزراء الذي يخبر الخديوي بها وهو الذي يستشير إيفلين بيرنغ إذا كانت مصر تستطيع تقديمها. فالرأي يجب أن ينتقل نحو الأعلى، أما السلطة فتظل كلها في القمة.

أشار اللورد دوفرين على الخديوي بأن يصدر عفواً عاماً عن جميع الضباط الصغار وغيرهم من أصحاب الرتب الذين شاركوا في الثورة، كما أشار عليه بتشكيل لجنة تحقيق واستجواب. ولم يكن لدى توفيق أي خيار سوى القبول بدور الدمية هذا، لكنه هو ورياض باشا أرادا الانتقام. كانا يريدان تنفيذ

حكم الإعدام بعرابي وتدمير الدستوريين إلى الأبد.

وقال رياض باشا: "المصريون كالأفاعي والوسيلة الوحيدة لمنع الأفعى من التمدد والتكاثر هي سحقها تحت الأقدام"[48].

ولم تمض سوى أسابيع قليلة حتى قام ضباطه بإلقاء القبض على 1200 من المشتبه بهم، كان أكثرهم أبرياء لكنهم ضحايا وشاية من جيرانهم. أما التهم فكانت "إثارة الرأي العام" أو "مساعدة الثوار" أو "إلباس الكلاب بملابس تقلد السير غارنت ولسلي ثم إطلاق النار عليها"[49]. وانتزع الحراس شهادات ضد عرابي من خلال التعذيب والجلد بالكرباج. وضاقت السجون بمن فيها، وانتشر الزحار. وأُرسل طواشي الخديوي لزيارة السجون وللبصق في وجوه الشيخ محمد عبده وآخرين من زعماء الحلقة[50]. أما الأوروبيون المقيمون في مصر فقد طالبوا بإعدام هؤلاء المشتبه بهم.

أما غلادستون نفسه فقد كان يريد أن يتخلص المصريون من عرابي سريعاً، لكن ولفريد بلانت كان يسعى جاهداً لكيلا يعدم بطله سراً. وبالتعاون مع أ.م. برودلي A.M.Broadley المحامي في المحاكم القنصلية بتونس والمراسل الصحفي لجريدة التايمز اللندنية شكل بلانت صندوقاً للدفاع عن عرابي، واستقدم لهذا الغرض المحامي اللندني المؤيد له مارك نابيير Mark Napier. وتكفل هذا الصندوق بدفع تكاليف المحامي نابيير، ولم يكن جميع المانحين من الراديكاليين. كان من بينهم اللورد راندولف تشرشل Lord Randolph Charchill، وغوردون "الصيني" وغيرهم كثر من الذين اشتموا رائحة محاكمة صورية وشيكة. لقد استغل كل من الخديوي توفيق والسلطان عبد الحميد عرابي ضد البريطانيين لمآربهما الشخصية. وها هما الآن يتعاونان لتنفيذ جريمة عبر القضاء. وكانت الدلائل تشير إلى أن المحاكمة لن تكون عادلة. عندما وصل برودلي ونابيير إلى القاهرة رفضت الحكومة المصرية السماح لهما بالاجتماع مع عرابي، ورجعا بخفي حنين دون أن يفتحا الرسائل التي جاءتهما. أما الصحافة الليبرالية في أوروبا فقد بدأت تتحدث عن عرابي، وتصفه بأنه "غاريبالدي الإفريقي"[51].

وابتدأت المحاكمة في اليوم الأخير من شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1882 في محكمة على مقربة من مبنى ماتاتياس Mattatias، وسرعان ما تحولت إلى مسرحية هزلية، ذلك أن الحكومة والمحامي الفرنسي بوريللي بيه Borelli Bey اتهما عرابي بإحراق الإسكندرية عقب قصف بريطاني وتحريض الناس على الحرب الأهلية وخيانة السلطان والخديوي. وبالنيابة عن عرابي أوضح المحامي مارك نابيير سريعاً أن موكله ليس له أي دور في حريق الإسكندرية، وأبرز أوراقاً كانت تخبئها زوجة عرابي عن أعين شرطة رياض باشا تبيّن بوضوح التشجيع الخفي من السلطان العثماني لثورة عرابي. ثم أعلن نابيير عن اعتزامه تقديم 400 شاهد للدفاع عن موكله.

لم يكن الخديوي يرغب بأن يبرز دوره في أحداث الشغب بالإسكندرية أمام عامة الناس. ولم يكن غلادستون راغباً بإطالة أمد هذا السيرك. ولم يكن بمقدور صندوق الدفاع عن عرابي تحمل إطالة أعمال هذه المحاكمة. فاتفق الدفاع والادعاء على صفقة خارج إطار المحكمة. سوف تتم محاكمة محمود سامي البارودي وأحمد عرابي والحلقة المصغرة حولهما من ضباط الجيش. وسوف يخفض هذا الحكم إلى النفي. وعمل اللورد دوفرين على إقناع الخديوي بقبول هذا الحل الوسط. وتساءل غلادستون عما إذا كانت هونغ كونغ بعيدة عن مصر بما فيه الكفاية ومع ذلك قبل بأن تكون جزيرة سيلان المنفى المطلوب.

عند الساعة التاسعة من صباح الرابع من كانون الأول/ديسمبر عام 1882 اقتاد حراس مسلحون عرابي من قلعة القاهرة إلى المحكمة. كان هزيلاً نحيلاً شاحب الوجه يرتدي معطفاً طويلاً داكن اللون وله لحية وخطها الشيب، ويبدو أنه قد شاخ في زنزانته. تليت لائحة الاتهامات وقال المحامون إنه مذنب ثم صدر الحكم ونطق علناً. وهنا اندفعت نحوه السيدة نابيير تحمل بيدها طاقة من الورد الأبيض أمام صيحات استهجان عالية من الأوروبيين والأتراك الجالسين في صفوف المشاهدين. امتدت جلسة المحاكمة لست دقائق فقط. ولم يتح الوقت الكافي للرسام الموفد من صحيفة *Graphic* ليكمل رسمه.

وفي وقت متأخر من ليل السادس والعشرين من كانون الأول/ديسمبر

انطلق من القاهرة قطار سكة الحديد مغلق النوافذ والأبواب وبداخله عرابي والبارودي وأربعة ضباط برتبة عقيد إلى السويس. وقد رافق هؤلاء المسافرين حين صعدوا الباخرة *Mareotis* ستون امرأة وطفلاً وخادماً وثلاثون جندياً من كتيبة المشاة الستين. ومع مغادرتهم الأراضي المصرية إلى جزيرة سيلان صدرت مراسيم أخرى تأمر بنفي معظم من شاركوا في هذه الثورة إلى مصوع وسواكن وغيرهما من الحاميات السودانية البعيدة والمعروفة بقسوتها وصرامة تعاملها[52].

لقد قضي على الثورة. واشتدت سيطرة الخديوي والبريطانيين اشتداداً لم تعرفه البلاد من قبل. بعد ثلاثة أيام فقط جلس غلادستون ليعد حساباته السنوية. "المصريون" لديه، وأسهم القروض ضعيفة الأداء والتي تشكل نحو 40 بالمئة من محفظته، قد حققت ارتفاعاً قياسياً[53].

وفي مدينة الأبيّض بالجنوب استحال الخندق الدفاعي الذي حُفر حول المدينة إلى قبر جماعي مفتوح امتلأ بالجثث المتعفنة. فقد عمل المدافعون عن المدينة لثلاثة شهور متواصلة للبقاء على قيد الحياة في سلسلة الغذاء التي تشكل الإبل والمواشي والحمير والفئران والجراد والصراصير مكوناتها. ومع انتهاء العام أخذوا يحفرون التراب بحثاً عن أعشاش النمل. سلقوا نعال الأحذية ونقبوا في روث الحيوانات. انتشرت أمراض الزحار والإسقربوط. وامتلأت الشوارع بجثث الموتى من اللاجئين. ولقي الجنود الجالسون في كوات الرمي حتفهم من الإجهاد والمرض. روائح التفسخ والتعفن ملأت الأجواء واسودت السماء بمئات الطيور. وحطت طيور الحدأة التي تتغذى على الجيف تلتهم بنهم ما تراه حتى تورمت وانتفخت ولم تعد تقوى على الطيران. وكان الجنود يصيدونها ويأكلون لحمها وما في معدتها[54].

ومن وراء الخندق وقف الدراويش يهزؤون بالجنود ويسخرون منهم ومما يأكلون من لحم الكلاب ويجربون بنادقهم الجديدة. وعندما قبض المهدي على

المهربين الذين ينقلون الطعام إلى مدينة الأُبيّض قطع أيديهم اليمنى وربطها إلى أعناقهم وطاف بهم في أنحاء المعسكر(55). فقد كان لدى الأنصار الكثير من الأطعمة، وكانوا قد قتلوا وذبحوا رجال بعثة إغاثة قدموا من الخرطوم. ولم يكن باستطاعة مدينة الأُبيّض المقاومة طويلاً.

أراد الجنرال محمد سعيد أن يفجر ترسانة الأسلحة والقسم الأعظم من المدينة والمدافعين عنها معها، لكن ضباطه آثروا أن يجربوا حظهم مع أولئك الذين يرتدون "الجبة". بتاريخ التاسع عشر من كانون الثاني/يناير عام 1883 استسلم هو وجنوده. ومن خرج من بين الصفوف معه أقل من نصف حاميته. وقفوا تحت شمس حارقة بينما عمل الأنصار على تجريدهم من أشيائهم الثمينة، ثم وقفوا يشاهدون أولئك الدراويش وهم يتسلقون فوق جثث الموتى في الخندق ليدخلوا المدينة ولينهبوا ما يجدونه فيها. فقد كانت مدينة الأُبيّض، عاصمة كُردفان، المكان الذي فيه تختزن أرباح تجارة العاج والرقيق، نهبه المهدي وغنم ما فيها ووضع الحرس على كل منزل كبير ليمنع سكانها من الخروج منها. وليعرفوا أماكن الأشياء الثمينة جلدوا بالسياط الأطفال والخدم والعبيد. وأمعنوا لمدة أسبوعين كاملين في تعذيب السكان الذين يخرجون حاملين الذهب والفضة والمجوهرات.

اشتملت الغنائم آلاف العبيد وستة آلاف بندقية رمنغتون وخمس قطع مدفعية. ففي منزل الجنرال محمد سعيد وحده وجدوا ذهباً بقيمة 6,000 جنيه. وزين جنرالات المهدي جبابهم القذرة بالحرير ومقابض سيوفهم بالفضة واستبدلوا حياة الفقر بالحريم والدواوين (الأرائك). وبعد أن نهبوا كل شيء قتلوا بفؤوسهم محمد سعيد باشا، ثم قتلوا نائبه علي شريف بيك أمام زوجته وأطفاله. حاول قاتله أن يقطع رأسه بالسيف فأخفق فأخذه الرعاع وألقوا به في البئر وتجمعوا حول الفوهة ليشاهدوه وهو يغرق. عندما رأى المجندون المصريون هذه المشاهد من القتل استسلموا وأعلنوا ولاءهم للمهدي، واستبدلوا زيهم العسكري بالجبة(56).

بعد أن غير المهدي موقفه الكاره لتكنولوجيا الكفار أصدر أمره بجعل هذه

البنادق الستة آلاف بتصرف خليفته عبد الله وقبيلته البقارة. وقام أحد ضباط المدفعية المصريين من الذين استسلموا له بتدريب رجال المهدي على استعمال قطع المدفعية التي غنموها. وكما كان يفعل الأتراك أجبر المهدي العبيد السود على الانضمام إلى جيشه، فشكلوا جناحاً جديداً لجيشه باسم "الجهادية" أو المحاربين باسم الدين. فهو يريدهم جميعاً كما يريد الأسلحة الجديدة للمرحلة التالية من الجهاد. وقال إن المهدي رأى النبي بعد سقوط مدينة الأُبيِّض مباشرة وأمره بأن يضحي بثلاث بقرات احتفاءً بفتح كردفان. ثم رآه ثانية بعد بضع ليال يعطيه استراتيجية لفتح الإمبراطورية العثمانية بأسرها.

وخاطب أنصاره قائلاً: "مثلما صلّيتم في مسجد مدينة الأُبيِّض، سوف تصلّون أيضاً في الخرطوم ثم في مسجد مدينة بربر" ـ المدينة الواقعة عند التقاء النيل الأبيض بالطريق البري إلى مرافئ البحر الأحمر ـ "ثم سوف تصلون في الكعبة بمكة وبالمدينة، وبعدئذ في القاهرة، ثم في القدس، ومن ثم في مسجد العراق" ـ أي في مركز الشيعة داخل سامراء ـ "وأخيراً تصلون في الكوفة" ـ حيث أضرحة الشيعة في النجف[57].

كانت استراتيجية هذا النبي تشبه كثيراً مخططات الأعداء السابقين للإمبراطورية العثمانية، سيما وأن محمد علي ونابليون والقياصرة قد خططوا جميعاً لفصل الأقاليم عن الإمبراطورية إقليماً بعد إقليم، تاركين الجذع التركي دون أطرافه في القسطنطينية. وسوف يبدأ المهدي خطته هذه من النقاط الأكثر ضعفاً، أي السودان البعيد جداً عن القسطنطينية، والجزيرة العربية التي يسود فيها التشدد الديني. وبعدئذ مع امتداد النيل إلى القاهرة، فيطرد الأتراك والأوروبيين من شمال إفريقيا، ثم يتقدم نحو الأقاليم الشرقية للإمبراطورية. في سامراء والنجف سوف يعمل على رأب الصدع بين السنة والشيعة، فيفرض خلافته على كامل أراضي العالم الإسلامي.

لكن المهدي لم يخرج قط من السودان، ولم يؤد فريضة الحج في مكة، ولا يعرف شيئاً عن ذلك العالم الضبابي خارج حدود العالم الإسلامي. لكن التفويض الديني الذي لديه ألزمه باتباع هذا الأسلوب الخطابي المليء بالشعارات

في الحديث عن الهيمنة على العالم. وبينما كان يعمل على توطيد نجاحه المحلي بتركيزه على كردفان تاركاً الخرطوم لمرحلة لاحقة، كان يخطط على المستوى العالمي. وصار الآن يلتقي وفوداً قدمت من أماكن بعيدة، من طرابلس ومن مكة ومن الهند. وتبادل الرسائل مع متعاطفين معه في الجبال المطلة على البحر الأحمر وفي دمشق والقاهرة، وبعث بدعوته للجهاد إلى ما وراء دارفور، حتى وصلت إلى سوكوتو Sokoto على السواحل الغربية لإفريقيا. وكما كان يؤمن دوماً، إن لرؤيته القوة على خلق الواقع.

وقد جاء في رسالة بعث بها إلى من يحبهم ويؤمنون به: "لقد مكنني الله من الاستيلاء على كردفان والمناطق المحيطة بها. وسيفتح الله أيضاً بلادكم لي لتقبلوا بي أنا المهدي الحق. فالويل لأولئك الذين لا يؤمنون بي لأنهم سوف يقضى عليهم. لماذا لم تهبوا لنصرة الجهاد حالما سمعتم بي؟ هل تخشون الأتراك وقوتهم؟ ألا تعلمون أن جيوشهم جميعاً سوف تسقط في يدي؟ ألا تعلمون أن الكفار جميعاً سيلقون مصيرهم على أيدينا؟ ألا تؤمنون أنني أنا المهدي المنتظر؟"[58]

من جهة أخرى، جاء في منكرات غلادستون تأكيده: "ليس من واجبنا أن نعيد النظام إلى السودان. فهي سياسياً مرتبطة بمصر نتيجة لاحتلالها لهذا البلد مؤخراً، ولم تكن جزءاً من عملياتنا. ونحن لسنا مجبرين على القبول دون مسوغ بأن ذلك يقع في نطاق مسؤوليتنا"[59].

كان الشبح الوحيد الذي يخيف غلادستون أكثر من احتلاله الدائم لمصر أن يبحر إلى السودان. فقد كان يريد أن ينسحب من مصر، لا أن يدافع عن إمبراطورية مصر. ومن موقع إخلاصه للرواية الضرورية عن استقلال مصر أصر على أن المستشارين البريطانيين ذهبوا إلى مصر بناءً على طلب الخديوي توفيق. ولم يقبل قط تلك الرواية القائلة بأن بريطانيا بعد أن صارت بيدها الحكومة المصرية تقع عليها الآن مسؤولية السودان. وكما وزير خارجيته اللورد

غرانفيل آثر أن يركز على الجوانب الأكثر قبولاً في المشكلة المصرية. ألا وهي إعادة بناء الإجماع الدولي والمناداة بالتعويض؛ أي بأنه يتوجب على مصر أن تدفع أثمان الممتلكات المفقودة في الإسكندرية.

وما هي إلا أسابيع قليلة من استيلاء بريطانيا على مصر حتى بدأت التقارير تأتي إلى لندن تتحدث عن كارثة مخبأة في السودان. وكانت التقارير الواردة من مراسلي اللورد غرانفيل تنصح بالعمل الفوري. غير أن السير تشارلز ولسون الملحق العسكري في السفارة بالقاهرة أوصى بالتخلي عن دارفور وكردفان لصالح المهدي، وقد سانده في ذلك شريف باشا وعمر لطفي باشا اللذين طلبا أيضاً أن يقوم الضباط البريطانيون بالإشراف على ما تبقى من السودان المصري[60]. وفي الطرف الآخر اقترح اللورد دوفرين أن تجبر مصر على رسم خط في الرمال عند وادي حلفا يكون علامة على تخلي مصر عن إمبراطورية لم يُكتب لها النجاح وكانت "على الدوام تستنزف الموارد المصرية"[61]. وعلى الصعيد الدبلوماسي اتخذ القنصل البريطاني في القاهرة السير إدوارد ماليت المنتهية ولايته موقفاً وسطاً في تقريره الذي أعاد فيه صوغ موقف وزارة الخارجية حيث قال لوزير الخارجية: يجب حث المصريين على اتخاذ جميع الإجراءات الممكنة لقمع حركة التمرد إنما "دون مساعدة أو مشورة من حكومة صاحبة الجلالة"[62]. فكان هذا القول أكثر تعقلاً مما يبدو، سيما وأن مصر لا تملك جيشاً تحارب المهدي به.

ومع ذلك أيده اللورد غرانفيل، الذي لم يكن لديه أي خيار آخر. لكن الخديوي توفيق رفض التخلي عن السودان. فمنذ قليل فقد كرامته أمام عرابي وتخلى عن مملكته لصالح بريطانيا. والآن لن يسلّم إمبراطوريته للمهدي. ورفض أيضاً نصيحة وزرائه الذين أشاروا عليه بأن ينقذ وسط السودان ويتخلى عن دارفور وكردفان للمهدي. ثم أمر عمر لطفي باشا بتجنيد جيش جديد وطلب إلى الضباط البريطانيين تولي إمرة حملة مصرية إلى كردفان.

وقد وجد القنصل السير إدوارد ماليت الحل الوسط الذي يعطي الخديوي ضباطاً بريطانيين دون المساس بسياسة بريطانيا القاضية بعدم التدخل. فقد

اتصل بالقنصل عدد من الضباط المتقاعدين عارضين خدماتهم لصالح الجيش المصري الجديد والشرطة المصرية. فلماذا لا نختار عدداً من هؤلاء المتقاعدين والمحبين للمغامرة ونقترحهم على المصريين؟ ومرة أخرى أرادت بريطانيا أن تحقق أهداف سياستها من خلال استئجار المرتزقة لصالح الحكومة المصرية. وفي اجتماع عقد في شرفة فندق شبرد Shepheard في القاهرة سحب فالنتاين بيكر باشا Valentine Baker Pasha بطريقة القرعة ورقة من مجموعة أوراق كانت داخل قبعة كتب عليها اسم العقيد وليم هيكس من سلاح الهندسة الملكي Col William Hicks[63].

كان هيكس رجلاً طويل القامة، وسيماً، مهذباً، له عينان تشبهان عيني نمر مفترس، ولحية صغيرة مشذبة. وقد نال أوسمة عديدة تقديراً لكفاءته ودوره في قمع التمرد بالهند. لكن ليست لديه أية خبرة في السودان، فشعر بشيء من القلق بخصوص قدراته وأحس بحجم المسؤولية. لكنه لم يقاوم إغراءات الأمل بالحصول على "وسام رائع آخر" أو مكافأة "بقشيشاً من الخديوي بمبلغ 10,000 جنيه". وجمع حوله ثمانية ضباط التقاهم في حانات القاهرة ومجموعة من السترات باللون الكاكي المزدانة بالخيط الذهبي وجنرالاً مصرياً بلغ سن الشيخوخة اسمه سليمان نيازي باشا، ثم تناول هيكس القهوة التي لا بد من تناولها في حضرة الخديوي توفيق قبل أن يبحر إلى مرفأ سواكن[64].

وأبحر معه جيش مؤلف من 4,000 مجند كان عمر لطفي باشا قد جمعهم من جنود هُزموا في معركة التل الكبير. ولا أحد منهم يرغب بالذهاب إلى موت مؤكد في السودان، لكن معظمهم كانوا قد تمردوا على الخديوي الذي هم في خدمته الآن. وأغلبهم يبدي تعاطفه مع المهدي. لم تكن ثقة الضباط بهم كبيرة فأرسلوهم إلى الخرطوم دون أسلحتهم وذخيرتها. وعندما أخضعهم هيكس للتدريب اكتشف أن غالبيتهم لا يعرفون كيف يلقمون بنادقهم.

فقال غاضباً مزمجراً "لم أر في حياتي شيئاً مشيناً بهذا الشكل". وأمرهم بالتدرب يومياً، ولم يتوقع أن يلحظ أي تحسن في أدائهم. وقال: "أمامي الآن وتحت إمرتي 4,000 جندي كانوا أعداء ولسلي، وقد حظي بمجد

عظيم لانتصاره عليهم، وشد ما يقلقني أن يولّوا الأدبار عندما أضعهم بمواجهة المتمردين"[65].

في إحدى جلسات التدريب وبعد أن أضناه التعب وقف هيكس وأمر عدداً من هؤلاء المجندين أن يصوبوا بنادقهم الفارغة من الذخيرة نحو رأسه ثم يضغطوا على الزناد ليرى إن كانوا يستطيعون الحفاظ على ثبات بنادقهم أثناء إطلاق النار. ودهش كثيراً حين رأى أن أحداً منهم لم يرد إطلاق النار عليه. "من كان يظن قبل وقت قصير وعندما كان هؤلاء الجنود وراء متاريسهم في التل الكبير أن ضابطاً بريطانياً سيطلب إليهم أن يطلقوا النار على رأسه من مسافة لا تزيد عن قدمين - ودون أن يدسوا في البندقية قذيفة واحدة؟"[66]

ولم يكن ضباطه البريطانيون بأفضل من هؤلاء. "من المحزن جداً أن يحاول المرء فعل أي شيء مع هؤلاء". فالمصريون كانوا "بلهاء وأغبياء" والبريطانيون "كانوا ضعفاء لا حيلة لهم كالأطفال". وكان معظمهم من المدمنين على الخمور. "ومن يكثر المشي منهم، تكثر قذارته - فهو يتقيأ بعد أن يأكل". وكان أحدهم، العقيد جون كولبورن Col. John Colborne معروفاً بإسرافه في الشراب، وكان يكسب عيشه من عمله كمراسل صحفي لصحيفة *Daily News*. كما أن هذه الصحيفة قد أرسلت مراسلها الحربي النظامي إدموند أودونوفان Edmund O'Donovan الذي قضى الأيام الأربعة الأولى بعد وصوله إلى الخرطوم ثملاً من الشراب، و"يستخدم لغة بذيئة مع السكان المحليين في الأسواق" قبل أن يفقد وعيه في أحد الشوارع. وعندما استيقظ بعد يومين استأنف أعماله الصاخبة هذه بصحبة فرانك فيزتلّي Frank Vizetelley الفنان الجوال العامل لدى مجلة لندن نيوز المصورة *Illustrated London News*. وما أفزع هيكس أن هذين الاثنين أخذا يدوران في الشوارع مترنحين يهددان السكان بمسدسيهما[67].

ثم تبين أن سليمان نيازي باشا عبء إضافي. يتآمر على هيكس مع الحاكم العام علاء الدين صدّيق باشا. فقد قال في رسالة بعث بها إلى

زوجته: "لا أستطيع أن أصف لك كم أنا مشمئز من كل شيء في هذا المكان، حيث تحيط بي المكائد والغش والكذابون. والحالة نفسها تثير الاشمئزاز"[68].

حين شاهد تلك التعزيزات التي طال انتظارها قال كارل جيقلر باشا Carl Giegler Pasha في نفسه: "سيكون أمراً بالغ الصعوبة إن حاول المرء أن يجمع ثانية مثل هذه المجموعة من الأفراد غير المؤهلين"[69].

بعد ستة أشهر من التدريب الذي أثبت عقمه انطلق هيكس من الخرطوم ومعه 7,000 رجل. فكر بأن يسلك أقصر الطرق، بحيث يسير جنوباً مئة ميل على الضفة الغربية للنيل حتى يصل إلى الدويم Dueim ثم يتجه نحو الجنوب الغربي لمسافة 130 ميلاً إلى مدينة الأُبيّض. كانت مسيرة هذا الجيش عبر سهل بلا ماء ولا شجر، ودرجة الحرارة تزيد عن 120 درجة فهرنهايت. وسرعان ما نقل العقيد كولبورن إلى الخرطوم بسبب مرض ألم به. حتى الجمال بدأت تضعف وتنهار. وخرج الحاكم صدّيق باشا ومعه وفد من تجار الخرطوم كان يخطط لفرضهم على كردفان حالما ينجح هيكس بالقضاء على المهدي وقتله. لكن صدّيق باشا وسليمان نيازي باشا أجبرا هيكس على تغيير خطته. فقد أرادا أن يتحول المسير جنوباً نحو ما يقال عن وجود مياه عذبة ثم القيام بحركة دوران تفضي إلى مهاجمة مدينة الأُبيّض من الجنوب. ووافق هيكس على هذه الخطة. وهكذا تولى الأدلاء قيادة الحملة نحو أرضٍ تكثر فيها غابات أشجار الميموزا والأكاسيا وأعشاب يصعب اختراقها. ارتاب هيكس في ذلك وخامرته شكوك بأنه يسير نحو كمين ما، فأمر بتشديد الحراسة المسلحة على هؤلاء الأدلاء أثناء النهار وأوثقهم معاً من الأعناق أثناء الليل[70].

وشاهد المهدي هؤلاء الكفار يقعون في الفخ بعد أن قامت فرقة الاستطلاع بسد الآبار في طريق هيكس، وقامت قوة صغيرة من الأنصار قوامها 3,000 عنصر بالتحرك خلفه قاطعة عليه خط الإمداد وتمطر الأفراد الشاردين عن الجمع من جيشه برصاص من بنادقهم الجديدة. لقد أراد المهدي أن يهزم هيكس ويتغلب عليه مستخدماً سلاح الجغرافيا. فهذا الجيش الحليف للأتراك

سوف يدمر نفسه بنفسه وهو يبحث عن الماء. وحين ينهار كما ينهار فيل منهك يقوم الجسم الرئيسي لجيش الأنصار بالهجوم.

شاهد هيكس جيشه يتفكك ولا يستطيع أن يفعل شيئاً. فهذا التشكيل الذي اتخذ شكل المربع المتماسك استحال رتلاً طويلاً من الجند. وحين ابتعد عن الرتل الجنود العطاش جماعات من أربعة أو خمسة أفراد تجاهل ضباط هيكس أوامره لاسترجاع اصطفاف الجنود. لقد قاده الأدلاء إلى داخل غابة كثيفة الأشواك حيث كانت تتدلى حبال تصل بين الأشجار وقد علقت بها نشرات دعائية للمهدي. في النهار كانت نيران البنادق التي لا تتوقف تتصيد رجاله، وفي الليل كان رجال المهدي يتفحصون الزرائب. دخلت رصاصة طائشة إلى خيمة هيكس واخترقت الكرسي الصغير حيث كان جالساً. في تلك الأثناء استفسر العقيد فاركوهار Col. Farquhar من صديقه أودونوفان O'Donovan مراسل صحيفة ديلي نيوز متسائلاً أين سيكونون جميعاً بعد أسبوع.

فأجابه هذا الأخير قائلاً: "في العالم الآخر"(71).

كانت الشبكة تضيق حولهم. في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ذهب بعض الرجال لجلب الماء فاختفوا في الغابة. وفي الليل كانت النيران المنطلقة من بنادق رمنغتون كثيفة جداً حتى إن الرجال لم يستطيعوا النوم، وظلوا يحضنون الأرض بقوة بينما كان رصاص البنادق يقتلع لحاء الشجر. في صباح اليوم التالي أمر هيكس جنوده بالاصطفاف بتشكيل مربع ضخم. وبحيث تكون كتيبة واحدة في كل جانب والفرسان في الأجنحة والبنادق والذخائر في الوسط. وما أن بدأوا يتقدمون للأمام حتى ظهر الأنصار على حين غرة.

وقد قيل في وصف هذه المعركة: "رأينا العرب بأعداد لا تحصى حولنا. العالم كله أحاط بنا، وكانت الرايات تخفق والحراب تلمع تحت أشعة الشمس"(72).

وفتح هيكس النار. ومع أن رجال الأنصار يملكون بنادق رمنغتون الآن، إلا أن هيكس كان بحوزته بنادق رشاشة أميركية الصنع ماركة غاردنر Gardner

التي تطلق 300 قذيفة في الدقيقة، على الرغم من احتمال تعرضها للعطب في ظروف الصحراء، لكن هذه البنادق الرشاشة، وعلى نحو غير معتاد، عملت بالشكل الأمثل إذ كانت طلقاتها تتفجر بين الأشجار ليلاً ونهاراً. وعندما استأنف هيكس مسيره في صباح اليوم التالي كان يمر فوق أكوام من جثث الأنصار، كل كومة تتألف من ست جثث فوق بعضها. أدرك بعض الجنود المصريين أن هذه الأكوام من الجثث ما هي إلا جزءاً يسيراً من جيش المهدي، فتمددوا على الأرض مختبئين بين الأعشاب الطويلة. وعندما أرسل هيكس ضباطه يأمرونهم بمواصلة المسير قتل الجنود بعضاً منهم.

يقول أحد ضباط هيكس في معرض حديثه عن تلك اللحظات: "إنها أوقات عصيبة. فنحن وسط غابة والجميع مكتئبون"[73].

لم يتبق لدى أيٍّ من الرجال شيء من الماء. وأمر هيكس الفرقة الموسيقية لديه أن تبدأ العزف، لكن النيران المنطلقة من رجال الأنصار في مخابئهم كانت كثيفة جداً لم يستطيعوا معها متابعة أي نغمة يعزفونها. ولشدة العطش مات الرجال ونفقت الجمال والبغال. وبينما كانت هذه الأجساد ممددة على الأرض تتلوى بحركات تشنجية انهالت عليهم جماعات الأنصار، كل جماعة تضم عشرين عُنصراً أو أكثر، تطعنها بالسكاكين حتى الموت. وقاد الأدلاء هيكس الآن في غابة كثيفة الأشواك بارتفاع 3 إنشات، ومرة أخرى تعثر المسير والتهبت المعركة طوال الليل. وعند الفجر تابعوا المسير باتجاه ما قيل عن وجود مياه عذبة، وكان رجال الأنصار يطلقون النار عليهم من بين الأشجار ومن كل جانب. كانت الغابات كثيفة جداً حتى إن استخدام هيكس لمدفعيته ورشاشاته كان غير ممكن. وحين أمر جنوده للمسير بتشكيل مثلث الشكل وحاول التقدم سريعاً نحو الأرض العراء وجد الطريق أمامه وقد سده الجسم الرئيسي لجيش المهدي.

وصرخ المهدي "الله أكبر" ثلاثاً[74].

كانت شمس الظهيرة في أوج حركتها الظاهرية، وكانت المياه العذبة على

مرأى منهم جيداً. سمع جنود هيكس صوت صخب كان "مخيفاً ومباغتاً يشبه صوت سيل هادر ينحدر من الجبال"[75]. وسمعوا هدير الأنصار الصاخب قبل أن يروا رماحهم. آلاف مؤلفة من رجال القبائل هبطوا عليهم يصرخون من بين الأشجار، وانشقت الأرض من تحت أقدام الجنود المصريين، فالمقاتلون من الأنصار كانوا مختبئين في حُفر أخفوها بأخشاب الشجيرات، وما أن مرت الوحدات الأولى من قوة هيكس فوق رؤوسهم حتى قفزوا خارجين من تلك الحفر وانقضوا عليهم برماحهم من الخلف.

اختفت كتيبة هيكس الطليعية مثل قشة جرفتها الرياح. حين انهمر الجنود الأنصار كالمطر على وسط قواته تحولت الكتيبتان على الجانبين نحو الداخل كما لو أنها تريد الاحتماء وأخذت تطلق نيرانها بعصبية وجنون في جميع الاتجاهات تقتل المصريين والأنصار على السواء. استحث هيكس وأركانه من الضباط خيولهم ليخرجوا مسرعين من هذه المذبحة، ثم تجمع الناجون من الموت على مقربة منهم وأفرغوا ما في مسدساتهم من طلقات في الأنصار. وعندما نفدت ذخيرتهم أمر هيكس ضباطه بإشهار سيوفهم والرجال بوضع الحراب في البنادق. وبحركة أخيرة من التحدي انطلق بجواده نحو وسط رجال الأنصار مباشرة ملوحاً بسيفه نحو شيخ يرتدي درعاً وسيفه يرتطم بالقميص الزرد قاطعاً رأس وذراع ذلك الشيخ. وفي تلك اللحظة ضربه رجل بهراوة على مؤخرة رأسه، ورمح قطع ذراعه القابضة على السيف عند الرسغ واخترق رمح آخر جسده. سقط عن جواده على كومة من الجثث والدم ينهال على بزته العسكرية التي جاء بها من أرض الوطن.

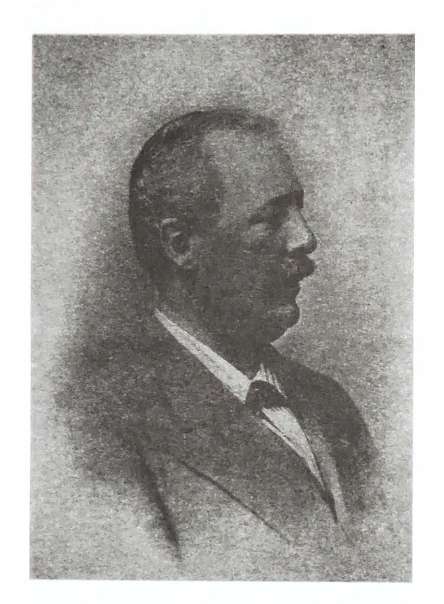
قطع الأنصار رأسه وأخذوه إلى المهدي، الذي قام شيوخه بالتمثيل بالجثة التي ضاع الرأس منها، كل واحد منهم يطعن برمحه ليدعي بأن له نصيباً في قتله.

لم يشارك المهدي في هذه المعركة. وعند العصر جاء ليتفقد أرض المعركة. كان الخراب شاملاً. والغابات ملأى بجثث القتلى من الرجال وجيف الحيوانات وقد نظمت في ثلاثة أكوام على هيئة مثلث. وكان ثمة آثار لأجساد

ممددة في جميع الاتجاهات تشير إلى الدروب التي سار عليها الهاربون. ولم ينج من الموت إلا القليل جداً من الأتباع الذين التحقوا بالمعسكر. علق المهدي رأس هيكس ورؤوس ضباطه على أسوار مدينة الأُبيّض. ولم يبق أمامه الآن سوى الخرطوم التي تفصله عن مصر.

بعد أربعة أيام اجتمعت الصفوة السياسية والمالية البريطانية في قاعة دار البلدية Guildhall بمدينة لندن لحضور المائدة السنوية التي يقيمها عمدة لندن. وفي خطابه أمام الجمهور أعاد رئيس الوزراء غلادستون حديثه عن سياسته نحو مصر. وخلافاً لكل انطباع كان سائداً في ذلك الحين قال إنه ليس لبريطانيا الآن ولن يكون لها مستقبلاً إمبراطورية في مصر.

مؤكداً: "نحن على وشك الانسحاب. أعطيت الأمر بذلك. وهذا الانسحاب يتضمن الجلاء عن القاهرة"(76).



سير إيفلين بيرينغ

الفصل السابع

نشر الصحف

1884

"سياسة إضاعة الوقت، أو بتعبير آخر، سياسة عدم وجود سياسة، هي في معظم الأحيان دبلوماسية جيدة، وبخاصة حين ينفذها رجل له صفات اللورد غرانفيل في لباقته الفريدة وسرعة تحركه وخبرته الدبلوماسية. فهذا النوع من العمل المتضمن إرجاء أي قرار هام حتى اللحظة الأخيرة وعدم النظر إلى المستقبل متوافق إلى حد كبير مع العادات الإنكليزية وطباع تفكيرهم. وقد مارسه الكثيرون عموماً من الدبلوماسيين ورجال السياسة من جيل اللورد غرانفيل".

سير إيفلين بيرنغ[1]

لازم الحظ الحسن إيفلين بيرنغ مثل الخادم الأمين. فقد ولد لعائلة عُرف عنها العمل المصرفي الناجح وتدرج في سلم الوظائف بسهولة وعظمة حتى إن الناس لقبوه بـ"إيفلين بيرنغ السريع الحركة Evelyn Over-Baring". بعد أن اشترى له والده منصباً جيداً في سلاح المدفعية الملكية أمنت له اتصالاته الجيدة ومعارفه الجدد موقع السكرتير الخاص لنائب الملك في الهند. وعندما بدأت أزمة الديون المصرية احتاجت بريطانيا لمندوب لها لديه المهارة الدبلوماسية والصلات المالية. فأصبح بيرنغ الذي كان برتبة رائد في ذلك الحين المفوض البريطاني في مشكلة الديون. غادر مصر إلى الهند في حزيران/يونيو عام 1880 حين بدأ نظام الخديوي توفيق يتفكك، وعاد إليها في أيلول/سبتمبر 1883 في توقيت مناسب جداً بعد هزيمة عرابي. وعندما حمّلت وزارة الخارجية البريطانية القنصل ماليت Malet مسؤولية عدم رؤية ما هو واضح، جاء تعيين إيفلين بيرنغ ليحل مكانه.

كان طويل القامة، قوي البنية، له شاربان يدلان على الوقار، ووجه ممتلئ

يوحي بأن صاحبه معتاد على الطعام الجيد. وقد صار الآن محور الاتصال لمصر الجديدة، يربط في شخصه وزارة الخارجية بلندن والخديوي توفيق وجيش الاحتلال البريطاني. احتفظ برتبته المتواضعة وقصره الصغير، لكن سلطاته تشبه سلطات نائب الملك. كان يفسر برقيات اللورد غرانفيل التي تفتقر إلى الوضوح بقدرة إدراك حاد يرى ما هو غير مرئي. وفي اجتماعاته اليومية مع وزراء توفيق كان يوجههم نحو الحلول الوسط. وكان يشرح مصالح مصر أمام الخديوي دونما حاجة لإثارة أي تهديد عسكري. كان هادئ الطبع وذا مؤهلات عالية، فبنى نظاماً داخل نظام. فهو ليبرالي في توجهه السياسي واستعماري في رؤيته وبراغماتي في تحركاته السياسية، وكان يرى في مصر بذور هند ثانية.

لم ير في السودان إمكانات قدرات محتملة. فكان يقول "الأموال هي أصل ومنشأ المسألة المصرية"، أي ليس استراتيجياً. ومع أنه لم ينس قناة السويس والطريق إلى الهند إلا أنه رفض استعماراً له "إحساس عسكري أو شوفيني متطرف يحمل في طياته رغبة بالضم". فالإمبراطورية تخدم غرضاً مدروساً ألا وهو استقرار اقتصاد بريطانيا. والسودان لم يكن بذي أهمية اقتصادية لبريطانيا. ولا يمكن تحويله إلى مصدر ربح. فالقرار المالي كان قراراً نهائياً ولا يمكن لأعمال "خيرية سطحية" يقدمها المحسنون، ولا "عمليات الاحتيال" التي يقوم بها "المروجون والماليون" ولا حتى تلك "الحركة السحرية من عصا الساحر" أن تجعل السودان "ذلك النعيم الاستوائي"[2].

ولم يكن موقع بيرنغ في القاهرة آمناً يدعو للاطمئنان. فالخزينة المصرية كانت خاوية واقتصادها في وضع غير سليم نتيجة للثورة. أعداء الخديوي توفيق كانوا يتآمرون عليه من الخارج. محمد عبده في بيروت والأفغاني في باريس وحلمي في القسطنطينية والخديوي إسماعيل من جناحه في أحد فنادق الريفييرا الفرنسية. وكان الغضب القومي يرغي ويزبد تحت السطح إثر عودة نظام الخديوي. في صيف عام 1883 قامت جماعة سرية تدعو نفسها عصبة الوطنيين المصريين بتهديد الخديوي توفيق بأن تقوم بهجمات إرهابية إذا لم ينسحب

البريطانيون فوراً. كانت تلك الرسائل تحمل توقيع "المنتقم". حاولت الشرطة اقتفاء أثر هذا التوقيع فقادتها تحرياتها إلى خلية لأنصار عرابي. وعندما فككت هذه الخلية تبين أن هذا "المنتقم" هو الدكتور محمد سعيد الحكيم، فرنسي المولد ابن لمهاجر جزائري[3].

لكن الأمر الذي اكتسب صفة الاستعجال، هو تلك الشرارة التي أطلقها المهدي من أقصى غرب السودان، فانتشرت إلى شرقه في غضون أيام قليلة بعد مقتل هيكس وتدمير القوة التي قادها. فقد هب دفاعاً عن المهدي وعن تجارة الرقيق رجال قبيلة الهدندوة Hadendowa في التلال المطلة على مرافئ البحر الأحمر بقيادة عثمان دِقْنَه Osman Digna تاجر الرقيق المعروف وصانع مشروب الجن Gin. حاصروا الحاميات المصرية في مرافئ سنكات Sinkat وطوكر Tokar، وهددوا مرفأ سواكن الأكبر، وقطعوا طريق سواكن ـ بربر. فهذه المرافئ تشكل نقاط حراسة على الطرف الجنوبي لقناة السويس، وكانت حلقة الوصل بين السودان وجدة ومكة. وهكذا كان ظل المهدي يلوح على الطريق إلى الهند والأقاليم العربية في الإمبراطورية العثمانية.

وهنا أقدم بيرنغ على تغيير رأيه سريعاً، فقد أدرك ما كان غلادستون واللورد غرانفيل يرفضان الاعتراف به. ومع أنه لا توجد للسودان قيمة اقتصادية إلا أن بريطانيا لا تملك أن "تفصل المسألة المصرية عن المسألة السودانية"[4]؛ سيما وأن بريطانيا حين سيطرت على مصر ورثت الإمبراطورية المصرية. في خريف عام 1883 وبينما كان هيكس باشا يتخبط في مسيره حول كردفان، اكتشف بيرنغ تلك التداعيات المفزعة. لقد كانت مصر في مواجهة "حركة دينية خطيرة" في السودان، وليست لديها الوسيلة للدفاع عن نفسها[5]. إذا سيطر المهدي على الخرطوم يكون وادي النيل مفتوحاً أمامه دون أية مقاومة حتى يصل إلى البحر الأبيض المتوسط. وإن استولى على مرافئ البحر الأحمر فقد يصل جيشه إلى الجزيرة العربية. وسوف تنهار أمامه أقاليم الإمبراطورية العثمانية مثل أحجار الدومينو، وسيسبب سقوطها إغلاقاً للطريق إلى الهند.

وحيث إنه لا يوجد جيش من السكان المحليين لم ير بيرنغ أمامه أي

خيار سوى استراتيجية الاحتواء. ولكي يبقى المهدي خارج اللعبة ينبغي على مصر أن تنسحب من السودان كله أو أجزاء منه، وأن تحصن مرافئ البحر الأحمر. وهذا الأمر يقتضي أن يقوم الضباط البريطانيون بتنظيم حدود يمكن الدفاع عنها وتدريب جنود جدد. إذن، يتعين على بريطانيا أن تؤخر انسحابها من مصر حتى تستقر الأمور في السودان، وعليها أن تقدم الضباط والإداريين. وقد وافق على ذلك جميع شركاء بيرنغ في مصر: الخديوي توفيق وشريف باشا والقائد العام للجيش سير إيفلين وود وقائد الحامية البريطانية الجنرال سير فريدريك ستيفنسون.

كان غلادستون قد سوّغ احتلاله الأحادي الجانب لمصر بأن تعهد بالانسحاب السريع. وإن غيّر سياسته هذه فقد يعرض نفسه لهجوم محلي من أنصاره الليبراليين وللسخرية من معارضيه. لكنه في قرارة نفسه اعترف بوجوب بقاء القوات البريطانية في مصر "حتى تتكشف مضامين ذلك الخطر"، لكنه علناً أعلن أمام الملأ رفضه أن يغير سياسته في مصر، ولن يغير إلا الوقت اللازم لتنفيذها. إن "انشغالنا في الحرب بهدف استعادة السودان مسألة أخرى، وبخاصة الآن حيث يبدو من الواضح أن مصر لا تملك القوة الكافية للحفاظ عليه"[6].

غير أن المصريين أصروا على البقاء في السودان، أو على الأقل في مناطقه الأساسية المركزية. والطبقة الحاكمة في مصر من مُلاّك الأراضي الأتراك والضباط والتجار ربطوا الكرامة الوطنية بإمبراطورية إسماعيل. غير أن سلطتهم قد اهتزت بسبب ثورة عرابي والاحتلال البريطاني وسوء الموسم الزراعي وانتشار الكوليرا، والتخلي عن هذه الإمبراطورية سوف يكون عاملاً مشجعاً لأولئك المستائين والمتمردين ابتداءً من وادي حلفا وحتى الإسكندرية، وسوف يزيد في لهيب التوقعات الإسلامية التي أشعلها عرابي لدى الفلاحين. ولكي ينقذ ما يمكن إنقاذه أعد شريف باشا العدة للتخلي عن الأقاليم الغربية والجنوبية من السودان مقابل أن يحتفظ بالعمود الفقري للإمبراطورية المصرية، ألا وهو ذلك الخط المتعرج الطويل الممتد من الخرطوم وحتى أسوان. وطلب

جنوداً من بريطانيا والهند وحتى من الأتراك[7].

علّق اللورد غرانفيل: "أمر مقلق للغاية!"[8]

وفي هذا الإطار نفسه نبه الجنرالات البريطانيون في القاهرة قائلين "سوف تجد الحكومة المصرية أن الاحتفاظ بالسودان أمر مستحيل بما لديها من قوات تحت تصرفها"[9].

وقال غارنت ولسلي من وزارة الحربية: "الخرطوم مركز لتجارة بالغة الأهمية وتنتمي لمصر جغرافياً وتجارياً مثل انتماء القاهرة لها"[10].

أما اللورد غرانفيل فقال: "نحن على حد السكين"، لكنه لم يتخذ أي إجراء[11].

على درجات السلم المؤدي إلى فندق شبرد بالقاهرة دس المراسل في يد العقيد كولبورن المرتعشة برقية تقول:

"جيش هيكس أبيد عن آخره"[12].

بعد أن ضاع أثر هيكس في جبال كردفان انتشرت الشائعات لتملأ فراغ الصمت. منها ما قال إن هيكس قد حقق نصراً كبيراً وأنه حاصر مدينة الأُبيّض، ومنها ما قال إن المجندين المصريين قتلوا هيكس وضباطه، ومنها ما قال إن المهدي قد أسر هيكس وقطع يديه، ولم ينج من تلك المجزرة إلا السيد فيزتلّي Mr Vizetelly مراسل مجلة لندن نيوز المصورة *Illustrated London News* الذي جلس على صخرة عالية يرسم تلك المجزرة. لكن حكومة الخرطوم التي ليس لديها أي توضيح لهذه المسألة أرسلت بعض من يستطلع النبأ. وجاءت الأنباء بأن جنود المهدي ألقوا القبض على أحدهم وجعلوه طعاماً للنمل الأبيض بأن أدخلوه بقوة في كثيب صنعه هذا النمل[13].

في أواسط شهر كانون الأول/ديسمبر عام 1883 تمكن أحد الناجين من الوصول أخيراً إلى الخرطوم وتحدث عن إبادة جيش هيكس. انتشر الذعر في

المدينة. حامية قوامها 2,000 جندي تدافع عن السكان البالغ عددهم 60,000 نسمة، معظمهم ممن يتطلع إلى المهدي لإعادة تجارة الرقيق. والسودان كله ابتداءً من وادي حلفا وحتى المديرية الاستوائية واقع تحت حماية 24,000 من الجنود المصريين المعزولين عن العالم في جزرهم الحصينة أمام حركة تمرد متصاعدة. وفي الشرق كان عثمان دِقْنَه قد حاصر مرافئ البحر الأحمر التي كانت شريان الحياة للخرطوم. وفي الغرب والجنوب استسلمت الحاميات في دارفور ومنطقة بحر الغزال والمديرية الاستوائية. وفي الشمال تحركت القبائل القاطنة على ضفاف النهر في مدينتي بربر ودنقلة لتنضم إلى الثورة. فبلغ عديد قوات المهدي زهاء 100,000 محارب لديهم بنادق مماثلة لبنادق الجيش المصري، ولديهم دافع أقوى كثيراً مما لدى المصريين. وبدأ الأوروبيون يرحلون عن الخرطوم سيما وأن الطريق شمالاً لا يزال مفتوحاً.

وانقضى شهران ولم يأت جواب واضح من لندن، فشعر كل من الخديوي توفيق وشريف باشا بالمزيد من اليأس. إن لم يفعلا شيئاً في السودان فسوف يخسران كل شيء. وتحرك شريف باشا لإنقاذ الخرطوم ووادي النيل. أصدر أوامره إلى جميع الحاميات الجنوبية بالانسحاب إلى الخرطوم، وأرسل قوة من الشرطة الجديدة التي شكلها فالنتاين بيكر باشا لتأمين الطريق بين سواكن ومدينة بربر. ثم توسل إلى بيرنغ من أجل الحصول على قوات بريطانية.

طلب بيرنغ وعلى نحو متكرر وبمزيد من الاستعجال "تعليمات أكثر تحديداً". فالحكومة المصرية في "يد حكومة صاحبة الجلالة بكل تأكيد" وهي تندفع "دون أن يكون لديها خطة عمل محددة وعملية". وأرسل المراسلون في الخرطوم تحذيراتهم بأن المدينة قد تسقط بين لحظة وأخرى سيما وأن مخازنها لا تحتوي إلا على مؤن تكفي لشهرين فقط، والسكان لا يمكن الوثوق بهم، وقد تثور القبائل في الشمال وتغلق الطريق البري، وعما قريب سيسقط النيل ولن يكون صالحاً لمرور السفن. وقد ترتد تبعات ذلك كله لتطال بريطانيا ومصر وبيرنغ نفسه رجل بريطانيا في مصر[14].

فكان التحذير الذي أطلقه بيرنغ: "إذا كان علينا أن نتخلى عن وادي النيل

بكامله حتى وادي حلفا فسوف يصبح الوضع السياسي والعسكري هنا وضعاً في غاية الصعوبة"[15].

ومع ذلك، كان هذا هو مسار العمل الذي استقر عليه أخيراً غلادستون واللورد غرانفيل. بعد خمسة وأربعين يوماً من أول طلب للتوجيه رفعه بيرنغ إلى لندن أصدر غرانفيل أوامره إلى مصر بالتخلي عن إمبراطوريتها في السودان. وأعطى "الفيتو" البريطاني على أموال مصر: ذلك أن بريطانيا لا يمكن أن تقبل "أي زيادة في الأعباء على إيرادات مصر" من خلال القيام بعمليات عسكرية "ليست فوائدها مضمونة لمصر". ستحافظ بريطانيا على النظام في مصر وستؤمن مرافئ البحر الأحمر. ولكن يتعين على مصر أن تسحب جميع حامياتها من السودان، وأن "تتخلى عن جميع الأراضي الواقعة إلى الجنوب من أسوان أو على الأقل جنوب وادي حلفا". بعد أن تنصل غلادستون من أية مسؤولية عن السودان تولى الآن مسؤولية سياسة مصر في السودان[16].

وحذر بيرنغ اللورد غرانفيل قائلاً: "لا شيء سوى اللغة القوية جداً والتغيير المحتمل في الوزارة سيجعل مصر تقبل بهذه الإهانة. إن فرض الانسحاب يعني تسليم السودان إلى تجارة الرقيق و"ازدياداً، وليس انتقاصاً من حجم التدخل" في مصر"[17]. لكن غلادستون أصر على موقفه. وهكذا اتضح بأنه لكي تحافظ بريطانيا على سياستها التي لا يمكن الدفاع عنها لعدم التدخل في مصر، ها هي الآن تتدخل في السودان.

رفض شريف باشا هذا الأمر، مؤكداً أن السودان جزء من الإمبراطورية العثمانية ولا يمكن لمصر أو لبريطانيا أن تتخلى عنه. "لدينا الآلاف من الرجال في السودان ولا شيء على الإطلاق يجعلني أتخلى عنهم لكي يعانوا البؤس والحرمان تحت حكم المهدي. إنني على ثقة أكيدة بصحة موقفي. وسيكون الزمان والأجيال القادمة الحكم بيني وبين غلادستون في هذه المسألة"[18].

لكن السيد غلادستون بقي مصراً على موقفه. وقدم شريف باشا استقالته احتجاجاً وغضباً. وللمرة الثانية فيما يزيد عن عام واحد يطيح رئيس وزراء

بريطانيا المناهض للاستعمار بحكومة مصرية. لكن الخديوي توفيق في هذه المرة لم يسبب له أية متاعب. فقد جاء فيما كتبه بيرنغ في تقريره: "لقد كان في مزاج حسن وكان سلوكه حسناً أيضاً. وسوف يفعل أي شيء يؤمر به"[19].

عندما رفض رياض باشا، خصم شريف باشا اللدود تلك الكأس المسمومة استدعى بيرنغ نوبار باشا وقطع عليه اعتزاله. وبتاريخ الثامن عشر من كانون الثاني/يناير عام 1884 أمر نوبار باشا جميع المقيمين غير العسكريين في الخرطوم بأن يتوجهوا شمالاً حاملين معهم مؤونتهم[20]. وضع وزير الحربية عمر لطفي باشا خطة لإجلاء الحاميات السودانية، ولكن عندما اطلع عليها الحاكم العام عبد القادر حلمي باشا، رفض تنفيذها. فبينما كان السياسيون في لندن والقاهرة يناقشون ضرورة الجلاء عن السودان أو ما إذا كان هذا الجلاء أمراً مرغوباً به لم يناقش أحد منهم جدوى ذلك. لم يكن يوجد في السودان خطوط سكك حديدية وكانت الطرق مغلقة. وانتشرت الشائعات بأن المهدي قد انطلق نحو الخرطوم وهو في طريقه إليها. إن ترحيل 15,000 من الموظفين المدنيين والجنود وعائلاتهم بالقوارب يستغرق شهوراً عدة. وحالما يُعلن حلمي باشا هذا الجلاء عن السودان فسوف يتجه السودان بأسره إلى المهدي لاجتناب المجازر، وسوف تقطع جميع الطرق المؤدية إلى بر النجاة.

ناشد نوبار باشا وزير حربيته لكن عمر لطفي باشا رفض الموت المؤكد في الخرطوم. فقد كان لدى بيرنغ سياسته ولكن ليس لديه أحد ينفذها.

وبعث بيرنغ ببرقية إلى غرانفيل يقول فيها: "ستشعر الحكومة المصرية بالامتنان لو أرسلت حكومة صاحبة الجلالة على الفور ضابطاً عسكرياً عالي التأهيل إلى الخرطوم لديه الصلاحية الكاملة العسكرية والمدنية للإشراف على هذا الانسحاب"[21].

وحيث إن السير صمويل بيكر كان في عزلة عن الجميع يعاني من داء المفاصل، لم يبق سوى مرشح "مؤهل" واحد، كثر الحديث عنه في الأسابيع الأخيرة وارتبط اسمه بالمسألة السودانية، وذلك على غير رغبة من بيرنغ. ففي

مناشدات تلقائية إلى اللورد غرانفيل اقترح العسكريون والبرلمانيون والاستعماريون وأنصار إلغاء تجارة الرق اسم "غوردون 'الصيني'".

وقد قال فيه السير هاري فيرني أحد أعضاء مجلس العموم Sir Harry Verney MP "كان له دوماً نفوذ واسع يدعو للإعجاب على تلك الشعوب غير المتحضرة والتي تصعب السيطرة عليها"[22].

وقال العقيد بيفن إدواردز Col. Bevan Edwards "اسمه وحده يفعل الأعاجيب"[23].

وقال السير أندرو كلارك Sir Andrew Clarke من سلاح المهندسين الملكي "إذا كان المهدي نبياً فإن غوردون في السودان أعظم منه"[24].

وبعد أن ضمت الملكة فكتوريا صوتها للائحة المعجبين بغوردون أقر اللورد غرانفيل بأن هذا الرجل هو العلاج السريع المطلوب في حال عدم وجود سياسة.

في جلسة جمعتهما معاً قال غرانفيل لغلادستون وهو يفكر ملياً: "هل لديك أي اعتراض على استخدام غوردون بطريقة ما؟ إن له اسماً كبيراً في مصر - وهو محبوب في هذه البلاد - وهو خصم قوي وعاقل لتجارة الرقيق - ولديه هاجس يستحوذ على تفكيره كله"[25].

فأجابه غلادستون: "أدرك جيداً أنه قد تكون ثمة فائدة ما. ولكن من أجل ماذا؟ ومن جانب من؟"[26]

في تلك الأثناء كان تشارلز غوردون يتحدث مع شقيقته أوغستا معترفاً لها بقوله: "من الغريب أنني الآن بصحة جيدة، وأنا الذي كنت أتوق وتحدوني رغبة عارمة للموت"[27].

هذا الرجل الذي جاء وصفه في رواية *Vanity Fair* بأنه "أعظم رجل إنكليزي باق على قيد الحياة الآن"[28]، قد طاف في أرجاء الإمبراطورية

البريطانية لأربع سنوات. وشعر بسرور بالغ لانعتاقه من أسلوب الحياة الإنكليزية، حيث يقول: "أكاد أنفجر من تلك القيود المفروضة على المرء"[29]. لكن لا شيء يرضيه أو يقنعه. كانت هواجسه تلاحقه أينما ذهب من الهند إلى هونغ كونغ وإيرلندا وموريشيوس وجنوب إفريقيا تطارده دوماً ولا تبتعد عنه مثل طائر القطرس البحري. فالحياة عنده لا تعني شيئاً إذا لم يقترب من الموت، وفي هذا يقول: "لا أحب الحفلات التي تقام في الحدائق، ولا أحب الرماية أو لعب كرة المضرب على أرض عشبية"[30].

فكل ما له أهمية هو لحظة الإلهام، أو كما قال لحظة "نشر الصحف"[31]. وتابع بحثه عنها في مواقع لا يتوقعها أحد. في جزر سيشل رأى الشبه بين *Coco de mer*، ثمرة النخيل المحلية، وفرج المرأة فاقتنع أن جزيرة Praslin هي جنة عدن[32]. وبدأ مراسلاته حول علوم النبات مع السيد سكوت Mr Scott المسؤول عن الحدائق النباتية الملكية في موريشيوس، يرسل له الصور الضوئية والرسوم عله يوضح له ما إذا كانت ثمرة خبز الراعي ذكرية أم أنثوية أم هي نبتة خنثى؟ وفي هذا الإطار هل يستطيع السيد سكوت أن يدله على طبيب في ليفربول كان قد فحص رجلاً حاملاً؟

وحيث إنه كان عاطلاً عن العمل ليس لديه ما يفعله فقد ذهب في زيارة للأراضي المقدسة. وحين اقتصر في تقليده للمسيح على الجغرافيا فقد جال في في مدينة القدس والإنجيل في يده يحدد الأماكن القريبة للمواقع التي مرت بحياة يسوع.

واستنتج من جولته تلك أن "جميع الأحداث في هذه الحالة تخضع للموت الإرادي أو اللاإرادي للجسد. فالحياة هي حياة صلبٍ مستمرٍ، سواء نظرنا إليها بأنها كذلك أم لا"[33].

لقد ولّد لديه انهيار الإمبراطورية المصرية شعوراً ممزوجاً بالحزن والرضى حيث قال: "لقد تنبأت بالمشكلة المصرية والسودانية ولكن لم يصغ أحد إليّ. سررت لأنني أهنت، لكن الأشياء في هذا العالم سرعان ما تنقضي"[34]. أحس

غوردون بالتعاطف مع المصريين والسودانيين، ولكن دون الباشوات الفاسدين أو السياسات القذرة لوزارة الخارجية بلندن. رأى يداً إلهية في ثورة المهدي. وقال: "أشفق على هؤلاء الثوار وأعتز بقوتهم. وسيحدث الرب خيراً لهم مما هم فيه"[35]. وتنبأ بالرغم من كل الشواهد الدالة على عكس ذلك، أن ثورة المهدي ستنتهي إلى قمع تجارة الرقيق والاحتفاظ بالعبيد"[36]. وفي لندن رفض دعوة للعشاء من ولي العهد أمير ويلز، قائلاً "قولوا له إنني دوماً أذهب للنوم عند التاسعة والنصف"[37]. لكنه تناول طعام الفطور مع ولفريد بلانت وقدم تبرعاً لصندوق الدفاع عن عرابي.

ومدفوعاً باشمئزازه من تبني غلادستون لأسلوب دزرائيلي الاستعماري قبل غوردون في أواخر عام 1883 عرضاً من الملك ليوبولد الثاني عاهل بلجيكا لتطوير الإمبراطورية البلجيكية الآخذة بالاتساع. فقد وصلت الأراضي التي كانت تابعة للملك البلجيكي إلى نحو 250 ميلاً عن بحر الغزال. وحيث إن السودان قد بات منغلقاً بسبب ثورة المهدي فقد اعتقد غوردون أن الكونغو البلجيكية تشكل سبيلاً بديلاً لقطع الطريق على تجارة العبيد "من منبعها"[38]. يبدو أنه كان عازماً على تكرار عمله المنتهي في السودان وتكرار مدة بقائه هناك حتى الرمق الأخير. وافق على شروط الملك ليوبولد الثاني، واستقلّ الباخرة من ساوثمبتون حيث وصل في اليوم الذي استقال فيه شريف باشا. بعد أن اختبأ في منزل شقيقته أوغستا لبعض الوقت حيث لا يستطيع التدخين إلا في المطبخ، وفي هذا المنزل قطع آخر رابطة تربطه بإنكلترا، فقد رفع إلى وزارة الحربية في الثامن من كانون الثاني/يناير عام 1884 كتاب استقالته من سلاح المهندسين الملكي.

وفي اليوم التالي مباشرة جاءت وزارة الحربية إليه. فقد وقف على باب منزله وفد شخصي مؤلف من أحد أصدقائه في هذه الوزارة هو النقيب هنري بروكلهرست Captain Henry Brocklehurst و و. ت. ستيد W.T.Stead رئيس تحرير صحيفة بول مول غازيت *Pall Mall Gazette* نصير الاستعمار. لقد عاد غوردون إلى لندن بعد يومين فقط من بروز مشكلة الحكومة في السودان واحتلالها الصفحات الأولى من الصحف. وقد نشرت صحيفة الغازيت هذه

الأخبار قبل صدور إعلان عن سياسة الجلاء عن السودان، ويبدو أن المصدر الأكيد لهذه الأنباء هو وزارة الحربية ذاتها، وتحديداً ريغي بريت Reggie Brett MP السكرتير الخاص للورد هارتنغتون الذي كان منذ مدة موظفاً في هذه الجريدة وله مصلحة مالية فيها. وكان في الوقت عينه من المعجبين بغوردون.

كان في ذهن وزارة الحربية خطة مختلفة بشأن السودان، فاللورد هارتنغتون وغارنت ولسلي أرادا سياسة "هجومية"، سيما وأن مرافئ البحر الأحمر المحاصرة لن تستطيع الصمود طويلاً. وفي مرفأ سنكات كان المدافعون عنه يأكلون الكلاب والقطط. ولم تستطع الحكومة المصرية أن تقدم إلى فالنتاين بيكر باشا إلا قوة شرطة غير مدربة تدريباً كافياً، ولم يرغب غلادستون وغرانفيل بإرسال أي قوات بريطانية. وحيث إن ثورة المهدي قد اتسعت ووصلت حتى حدود مصر وطريق الهند، لم تملك وزارة الحربية أن تخسر ذلك الخبير العسكري في شؤون السودان.

في رسالة بعث بها ولسلي إلى غوردون كتب قائلاً: "لا تعجبني فكرة ذهابك إلى الكونغو. لقد عانيت ما يكفي من المناخات التي تشوي الكبد، ولا يبدو أن هذا العالم يحده أفق واضح يضمن ألا يدفن أفضل رجل لدينا نفسه بين الزنوج عند خط الاستواء"[39].

أعجب غوردون بدعوة ستيد Stead لمهاجمة سياسة الحكومة الحمقاء. وعن طيب خاطر منه أوضح له غباء خطة غلادستون واللاأخلاقية الكامنة في التخلي عن الحاميات المصرية. حيث قال:

"لديكم ستة آلاف رجل في الخرطوم. ماذا ستفعلون بهم؟ لديكم حاميات عسكرية في دارفور وبحر الغزال وغندوكورو. هل ستضحون بها؟ غلطتهم الوحيدة أنهم كانوا مخلصين لمليكهم. وبسبب إخلاصهم سوف تتركونهم ليلقوا مصيرهم.

"أنتم تقولون إنكم ستتراجعون حتى وادي حلفا. فكيف ستنقلون رجالكم البالغ عددهم 6,000 من الخرطوم ـ هذا إن لم نتكلم شيئاً عن الأماكن الأخرى

ـ وجميع الأوروبيين في تلك المدينة عبر الصحراء إلى وادي حلفا؟ من أين ستأتون بالجمال التي ستحملهم؟ هل سيقدمها لكم المهدي؟ فإذا نجوا بأرواحهم لن يسمح لتلك الحاميات العسكرية بالمغادرة ومعاطفهم على أكتافهم. سوف يُسلبون كل شيء، حتى أرواحهم لن تسلم من الأذى.

"ومهما كان قراركم بخصوص الجلاء، فلا تستطيعون ذلك لأن جيشكم لا يمكن نقله. فإما أن تستسلموا للمهدي أو أن تدافعوا عن الخرطوم مهما كانت الأخطار"[40].

ثم تحدث غوردون عن جهله التام لما حصل في السودان منذ عام 1880، وقال إن حركة المهدي لم تكن "حركة دينية حقاً، بل هي اندفاعة يأس". ولن يهدئ هؤلاء المتمردين إلا عفو عام وحكومة عادلة، مؤكداً أنه "إذا حصل ذلك وأوكل الحكم لرجل كلمته الحق فكل شيء سيعود كما كان". وقبل أن يغادر ستيد أعطاه غوردون نسخة من كتاب *The Imitation of Christ*.

وظهرت صحيفة غازيت *Gazette* تحمل عنواناً بارزاً يقول: "غوردون الصيني إلى السودان".

وفي هذا السياق أقر ستيد قائلاً: "لا نستطيع أن نرسل فرقة إلى الخرطوم، لكننا نستطيع أن نرسل رجلاً أثبت في مناسبات عديدة أنه أكبر أهمية في ظروف مماثلة من جيش بكامله. فلماذا لا نرسل غوردون الصيني بصلاحيات كاملة إلى الخرطوم لينقذ الحاميات وليفعل ما يستطيع فعله لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذاك الدمار الذي لحق بالسودان؟"[41].

في اليوم التالي أعادت صحيفة التايمز نشر هذه المقابلة. ومن عرينه تحرك السير صمويل بيكر وحش السياسة في النيل وأعرب عن تأييده للتحليل الذي قدمه غوردون. وبعثت الملكة فكتوريا بكتاب إلى غرانفيل تؤكد موافقتها على ما قاله غوردون. وبعث اللورد هارتنغتون بكتاب مماثل له. حتى صحيفة مورننغ أدفيرتايزر *Morning Advertiser* التابعة لحزب الأحرار أعربت عن موافقتها حيث جاء في افتتاحيتها: "ليس ثمة جهد يمكن أن تقوم به حكومة

صاحبة الجلالة ويعد جهداً عظيماً سوى تأمين سلامة المدافعين عن الخرطوم وما تبقى من السكان الأوروبيين الذين هم في حمايتها. فإن حصلت كارثة، وربما المجازر، لأرتال اللاجئين الفارين من الخرطوم فسوف يكون ثمة غضب وسخط كبيران في العالم المتحضر"[42].

وفي اليوم التالي أضافت صحيفة أدفيرتايزر إلى ذلك قولها: "ليس من المبالغة القول إن كل ما تبحث عنه إنكلترا حالياً هو استخدام الجنرال غوردون في الأزمة الحالية بمصر".

في هذا الإطار حذرت صحيفة بول مول غازيت قائلة: "توجد عاصفة آخذة بالتشكل حالياً بخصوص مسألة الخرطوم. وسيحسن الوزراء صنعاً لو أنهم اهتموا بها".

واجه غلادستون الآن إخفاق سياسته المصرية. فقد احتل مصر وحل حكومتها عندما رفضت أن تتعاون معه. أعاد رسم خارطة الإمبراطورية المصرية بما يتلاءم مع المصالح البريطانية، ووضع سياسة رآها الحاكم العام للسودان غير قابلة للتنفيذ، واعتبرها وزير الحربية المصري سياسة انتحارية، وهو لا يستطيع الاعتماد على تركيا، حيث قال: "يبدو أن الطبيعة السياسية للسلطان منغمسة حتى الأعماق بالرذيلة حتى بات عاجزاً عن معالجة أي موضوع بأسلوب صريح ومباشر". ولم يستطع أن يؤثر في حلف الوفاق الأوروبي لينشىء درعاً متعدد الأطراف يحمي احتلال مصر. ومع أنه أقر سراً بأن على بريطانيا أن تحتل مصر "لبضع سنين" لكي تعطي "الثقة للطبقة التجارية"، إلا أنه لم يكن يرغب بإضفاء الصفة الرسمية لهذه السيطرة البريطانية. فهذه السيطرة التي تعد "أذى بالغ الخطورة" هي أيضاً إحراج لليبرالية وبخاصة حين "يروي الفلاحون الذين يُضربون بالعصا على أخمص الأقدام حالاتهم للبرلمان بمعدل مئة حالة في الأسبوع". وحين انزلقت بريطانيا نحو "الدمار الذي حل بالسودان" نسي غلادستون تعاطفه الإنساني قائلاً: "إنني مهتم بالبقاء خارج السودان أكثر من

اهتمامي بمن يدخل إليه". غير أنه لم يستطع أن ينسى الصحافة ومجلس الوزراء[43].

في الرابع عشر من كانون الثاني/يناير أطلق كل من غوردون وبيكر هجوماً منسقاً حيث بعثا برسائل إلى صحيفة التايمز *The Times*. وفي اليوم التالي اجتمع غوردون مع ولسلي في وزارة الحربية، حيث أعطى موافقته على الذهاب إلى مرفأ سواكن وعلى أن "يستفسر عن أحوال السودان"[44]. وكان غرانفيل الذي تبنى رأي حزب الأحرار ووزارة الحربية قد أعاد تذكير غلادستون بأنه على الرغم من غياب أي منفعة لبريطانيا في السودان فإن خسارة هذا البلد ستسبب ضرراً للحكومة، حيث أكد: "إن تدمير هؤلاء المساكين سيكون كارثة كبرى وسيخلق بالطبع أحاسيس كبيرة هنا وفي الخارج".

كان من شأن أساليب المراوغة والمواربة التي تبنتها الحكومة بخصوص إيرلندا أن أضعفت تأييد الراديكاليين والليبراليين لمواقفها. فهي لا تطيق أن يصمها أحد باللاوطنية إن تجاهلت بيكر وأضاعت غوردون لصالح بلجيكا وإن هي تخلت عن الحاميات السودانية. ورأى غرانفيل أن غوردون قد يكون الجواب الطلسم الواعد بدفع الأذى، قائلاً: "إذا كان غوردون يعتقد، كما يقول، بأنه بنفوذه الشخصي يستطيع إقناع القبائل بمرافقة حامية الخرطوم وسكانها حتى سواكن فإن قليلاً من الضغط على بيرنغ أمر لا بأس به"[45].

وأبرق غرانفيل إلى القاهرة مقترحاً اسم غوردون للمرة الثالثة. وكان بيرنغ قد ناشده في اليوم السابق وللمرة الثانية إرسال ضابط بريطاني يتمتع بصلاحيات كاملة. قبل بيرنغ بهذه التوصية بالرغم من تحفظاته بشأن غوردون بعد أن اقتنع بأن الحكومة لن تعطيه البديل عنه.

فقال في رده على البرقية: "سيكون غوردون الرجل الأفضل إن تعهد بتنفيذ سياسة الانسحاب من السودان بالسرعة اللازمة وفي الوقت نفسه إنقاذ الأرواح". ومع ذلك لم يكن بيرنغ يثق بغوردون، إذ قال: "ويجب عليه أن يفهم جيداً بأن التعليمات تأتيه من ممثل بريطانيا في مصر وبأنه تحت إمرته".

وافق غلادستون وأضاف شرطاً آخر: "وبرغم الأهمية الكبرى لرأيه بخصوص السودان ألا يتعين علينا أن نكون حريصين جداً في أي تعليمات نعطيها وبأنه لن يقوم بتغيير مركز الجاذبية بخصوص المسؤولية السياسية والعسكرية لذلك البلد؟ واختصاراً في القول، إذا رفع تقريره بخصوص ما ينبغي فعله فهو لن يكون القاضي والحكم بخصوص من الذي ينبغي أن يفعل ذلك ولا يجوز له أن يلزمنا في تلك النقطة برأي يعطيه بصفة رسمية"(46).

أخذت الحكومة سبعة أسابيع لكي تحسم أمرها. وفي تلك الأثناء كان غوردون في بروكسل، حين أعلنت صحيفة التايمز أنه سوف يصبح مرتزقاً بلجيكياً.

أبرق له ولسلي قائلاً: "احضر إلى لندن!"

وعند فجر اليوم التالي كان غوردون قد وصل على متن قارب النقل عبر القنال الإنكليزي. ذهب من فوره إلى ثكنة نايتسبردج Knightsbridge حيث رقد لبعض الوقت ثم توجه إلى وزارة الحربية. وطلب إليه ولسلي أن يعود عصراً ليلتقي بوزراء الحكومة. وحيث إنه كان يوم جمعة فقد غادر غلادستون ومعظم وزارئه مدينة لندن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج المدينة. غير أن غرانفيل وهارتنغتون كانا حاضرين وإلى جانبهما بعض الوزراء الآخرين، منهم اللورد نورثبروك أحد أقارب بيرنغ وعضو البرلمان سير تشارلز ديلكه الراديكالي Sir Charles Dilke رئيس مجلس الحكم المحلي وسابقاً وكيل وزارة الخارجية. ولم يمكن العثور على أي سكرتير يساعد في توضيح السياسة. وبسبب عدم وجود أمين عام مجلس الوزراء، ولأن الوزراء ممنوعون من تسجيل وتدوين الملاحظات الخاصة بهم لم يكن ثمة محضر اجتماع للجلسة. وعندما اقترح هارتنغتون الانتظار لحين انعقاد جلسة مجلس الوزراء التالية والمقررة للثلاثاء القادم اعترض غرانفيل، الذي أراد أن يجتنب حصول انقسام بمجلس الوزراء ناهيك عن رغبته بالإفادة من خدمات غوردون قبل أن يفوز بها البلجيكيون.

في تلك الأثناء كان غوردون جالساً في غرفة الانتظار، فشاهد كاتباً جالساً

إلى مكتبة في زاوية منعزلة، فسأله: "هل سبق لك أن كذبت؟"[47]. وقبل أن يشرح له بأنه إنما يريد الإشارة إلى خبرته السابقة حين كان مساعداً، أو يتحدث عن استراتيجيته بخصوص الاجتماع الوشيك جاءه ولسلي، الذي بعث به الوزراء المجتمعون للحصول على موافقة غوردون على مبدأ قالوا إن مجلس الوزراء بكامل أعضائه يوافق عليه.

قال: "ترغب حكومة صاحبة الجلالة منك أن تدرك أن هذه الحكومة عازمة عزماً أكيداً على الجلاء عن السودان، ذلك أنها لن تضمن حكومة مستقبلية. فهل تذهب وتفعل ذلك؟"

"أجل".

"إذن، ادخل".

وبحسب رواية غوردون كان الاجتماع قصيراً. بدأ الحديث أحد الوزراء، لعله اللورد هارتنغتون قائلاً: "هل أخبرك ولسلي بأفكارنا؟"

"أجل! قال إنكم لا تضمنون حكومة مستقبلية للسودان، وأنكم تريدونني أن أذهب بهدف الجلاء عنه؟"

"نعم!"[48].

تشير روايات الوزراء إلى أن الاجتماع كان أطول من ذلك وأن المجلس أرسل غوردون دون أن يتخلى عن غموضه البنّاء بخصوص أهداف هذه المهمة.

في اليوم التالي بعث اللورد نورثبروك ببرقية إلى بيرنغ أوجز فيها تقييمه لغوردون قائلاً: "هو لا يؤمن بالقوة الخارقة للمهدي. ولا يعتقد أن القبائل ستذهب كثيراً إلى ما وراء حدودها، ولا يرى سبباً لعدم خروج الحاميات. ولم يبد عليه كثير من القلق إزاء الاحتفاظ بالسودان. ووافق بكل جوارحه على القبول بسياسة الانسحاب".

وتابع نورثبروك قائلاً في برقيته إلى بيرنغ: "غير أن النقطة الهامة في هذا الاجتماع أنه سيغادر الليلة إلى سواكن ليبعث لنا بتقريره حول أفضل طريقة

لانسحاب الحاميات وتحقيق الاستقرار في البلد والقيام ببعض الواجبات الأخرى التي يمكن أن توكلها له حكومة الخديوي من خلالكم". لكن نورثبروك لم يوضح ماهية "تلك الواجبات الأخرى"[49].

وكانت برقية غرانفيل إلى بيرنغ شبيهة ببرقية نورثبروك، ابتدأت بالانطباع نفسه وانتهت بغموض مماثل، إذ جاء فيها أن غوردون قد أسند إليه دور استشاري، وربما يقوم بأعمال تنفيذية غير محددة، وبصفته مستشاراً "يرفع التقارير حول الوضع العسكري" و"يقدم رأيه حول أفضل طريقة للجلاء عن داخل السودان وتأمين سلامته وحسن إدارة الحكومة المصرية للمرافئ على البحر الأحمر"، ورفع التوصيات بخصوص التصدي "للحافز المحتمل لتجارة الرقيق الذي قد تقدمه لها الثورة الحاصلة". ومثلما فعل نورثبروك تابع غرانفيل الحديث المبطن حول الدور التنفيذي لغوردون والذي طلبه بيرنغ ووزارة الحرب، قائلاً: "إن غوردون سيكون تحت أوامر وزير صاحبة الجلالة في القاهرة ومن خلاله يكون تابعاً لحكومة صاحبة الجلالة ويقوم بالواجبات الأخرى التي سيكلف بها من قبل الحكومة المصرية وعبر السير إيفلين بيرنغ"[50].

كانت مهمة غوردون في نظر غرانفيل لصالح الحكومة البريطانية وعلى هذا القدر نفسه من أجل الحكومة المصرية، حيث يكون السير إيفلين بيرنغ حلقة الوصل بينهما. وقد عكس تقسيم واجبات غوردون سياسة غلادستون لعدم التدخل في السودان وفي الوقت نفسه استرضاء أنصار التدخل في وزارة الحربية وذلك الخليط من الاستعماريين وأنصار العمل الإنساني والإصلاح الاجتماعي في الصحافة. ولم ير غرانفيل أي احتمال لوجود تضارب في مهام غوردون المتزامنة من حيث كونه مستشاراً بريطانياً وتنفيذياً مصرياً سيما وأن إيفلين بيرنغ قد بيّن بوضوح كيف يمكن أن تنجح هكذا ترتيبات.

أما اللورد هارتنغتون، بصفته وزيراً للحربية، فقد نقل هذا القرار إلى غلادستون ولم يذكر العناصر الهامة للأوامر المعطاة إلى غوردون لجهة تهدئة الثورة وانسحاب الحاميات، ولم يذكر بالتالي أن غوردون سيكون بإمرة بريطانيا ومصر معاً ممثلتين بشخص إيفلين بيرنغ. وأخبر غلادستون فقط أن غوردون

قد أُرسل ليرفع تقاريره وتوصياته. فإما أن يكون هارتنغتون قد عجز عن متابعة الحديث حتى نهايته أو أنه قد اختار ألا يذكر ذلك. وقد سانده غرانفيل في ذلك، حيث قال لغلادستون: "لقد تحملنا نورثبروك وهارتنغتون وديلكه وأنا قدراً كبيراً من المسؤولية على عواتقنا، وأعتقد أننا تصرفنا ضمن حدود آرائكم". وأضاف، "لقد كان غوردون شخصاً مرضياً جداً وطفولياً"[51].

لقد استخدم الوزراء شخصاً شديد الحماس والعصبية، لكنهم غلّفوا عملهم هذا بشيء من الغموض والإنكار. أما هارتنغتون فقد طمأن غلادستون بأنهم جميعاً قد اتبعوا سياسته. لكن رئيس الوزراء، ودون أن يدري بأن وزراءه قد ضللوه، قضى عطلة نهاية أسبوع سعيدة في قلعة هاواردن Hawarden Castle، حيث حضر قداس يوم الأحد في الكنيسة مرتين، وقرأ كتاب *Confessions of an Almsgiver* تأليف Wright في مكتبة هذه الكنيسة التي يصفها بأنها هيكل السلام والهدوء Temple of Peace.

غير أن ولفريد بلانت قد يقول إنه يشم رائحة مؤامرة في هذه القضية، حيث عملت وزارة الحربية على استغلال الصحافة، وأن عصبة من الوزراء قد أفسدوا السياسة الرسمية بغية إقحام تدخل عميق في العالم الإسلامي. وكان ولسلي وكبار الضباط في مصر على قناعة أكيدة بأنه لا يمكن سحب الحاميات من السودان دون غطاء عسكري. إضافة لذلك فالوزراء الأربعة الذين أرسلوا غوردون كانوا قد ضغطوا على غلادستون بهدف قصف مدينة الإسكندرية. غير أن هارتنغتون كان يحاول إرجاء القرار لحين انعقاد جلسة رسمية للحكومة، وهذا ما لا يمكن اعتباره تصرفاً من متآمر يهدف إلى إلحاق الأذى بحكومته. لم تكن ثمة مؤامرة، بل كان ثمة وزراء تحسس كل واحد منهم ذلك "الضجيج" والمنافسة. فالأوامر المشوشة التي أعطيت لغوردون عكست تلك الانقسامات والانزعاجات داخل حكومة كان وزراؤها، مثل غلادستون، يدركون ضرورة اتخاذ إجراء ما ولكن لا يريدون تحمل مسؤولية إصدار ذلك الأمر[52].

قبل أن يتمكن غلادستون من قراءة تقارير وزرائه كان هؤلاء قد سارعوا لإخراج غوردون من البلاد. وكما لو أنهم يريدون التأكيد على مقولة أنهم لم

يتوقعوا منه مجرد التقارير والتوصيات ألحقوا به التأثير المهدئ للمقدم جون هاميل ستيوارت John Hammill Stewart الضابط في الاستخبارات ولديه خبرة جيدة في السودان. حين خرج غوردون من مبنى وزارة الحربية اتجه إلى منزل صديقه وزميله في سلاح المهندسين الملكي ريجينالد تيلني Reginald Tilney في مدينة تشيلزي Chilsea. وعندما جاءته سيارة الأجرة لتنقله إلى محطة تشارنغ كروس Charing Cross وجد تيلني صديقه غوردون في حجرة الأطفال مرتدياً معطفه وحول عنقه وشاح وبين ذراعيه طفل تيلني الرضيع.

كان الوزراء بانتظاره في محطة تشارنغ كروس. واشترى اللورد غرانفيل له بطاقة سفره. وحمل السير غارنت ولسلي حقيبته وأسرع دوق كامبردج يفتح له باب عربة القطار. وعندما أدرك هذا الرجل الإنكليزي العظيم الباقي على قيد الحياة أنه نسي محفظة نقوده فتش ولسلي في جيوبه فعثر على القليل من النقود وأعطى غوردون ساعته وسلسلته الذهبيتين. وعند الساعة الثامنة من مساء شتائي تحرك القطار متجهاً إلى دوفر.

"لم يكن الأمر مجرد العثور عليّ، بل هو وحي من الله"، هذا ما قاله غوردون في نفسه وهو يتأمل فيما آلت إليه الأمور. لقد حاول جاهداً أن يهرب من مصيره هذا، لكن الرب قد دعاه للذهاب إلى السودان في تلك الليلة. وبينما كان القطار يطوي الأرض عبر أوروبا نحو مارسيليا، كان ذهنه منشغلاً بوضع الخطط والبرامج. وفي صباح اليوم التالي، حين نهض اللورد غرانفيل لتناول الفطور في قصره الفخم Mayfair وجد بانتظاره ثماني برقيات من غوردون، اثنتان منها تدعو القبائل في شرق السودان للاجتماع به في مدينة بربر لمناقشة الانسحاب. واثنتان تعلنان أنه الحاكم العام ولديه الصلاحية بالجلاء عن السودان. وواحدة تعيد سلطنة دارفور إلى وضعها كمنطقة فاصلة بين مصر البريطانية والسودان الذي سيتم الجلاء عنه، وبرقية أخرى تقضي بتجنيد القوات السودانية في الجيش المصري. لقد كان غوردون يضع سياسته ميدانياً حتى قبل أن يصل إلى

القاهرة[53]. فإن لم يكن الوزراء قد استوعبوا مضامين أوامرهم إلى غوردون فقد استوعبها و.ت. ستيد W.T.Stead من صحيفة بول مول غازيت.

جاء في افتتاحية هذه الصحيفة قولها: "وأخيراً! أحدثت ثورة في المسألة المصرية بساعة واحدة. ففي الاجتماع غير الرسمي المنعقد البارحة في مبنى وزارة الحربية اتخذت واحدة من الخطوات الأكثر حسماً والتي تصنع أو تخرب الإمبراطوريات. فمن الآن وصاعداً صار لدينا مسؤولية كاملة وغير منقسمة نحو الشؤون السودانية". وهذا يعني مصر أيضا. "وسواءً أدرك الرأي العام ذلك أم لم يدركه ينبغي أن تترتب على مسألة إرسال الجنرال غوردون إلى السودان حيث يمارس عملياً صلاحيات غير محدودة، ليس فقط في كونه الحاكم العام للخديوي بل لأنه المندوب المعتمد للحكومة البريطانية، نتيجة قد تكون النتيجة الطبيعية والحتمية للاضطلاع عاجلاً أم آجلاً بمسؤولية مماثلة وتكون مسؤولية مباشرة وغير محدودة للشؤون المصرية"[54].

أحس غرانفيل بالذعر وسأل هارتنغتون: "لقد كنا فخورين جداً بأنفسنا يوم أمس. فهل أنت متأكد بأننا لم نرتكب غلطة كبرى؟"[55]. فإذا كانت الحاميات مسؤولية بريطانية فالطريقة الوحيدة لإنقاذها تكون بإرسال الجنود إلى مدينة بربر وليس إرسال غوردون إلى الخرطوم. وإن لم تكن الحاميات مسؤولية بريطانية، وكان الهدف التفاوض مع المهدي فعندئذ سيكون المبعوث الأفضل رجلاً مسلماً من تركيا أو مصر وليس رجلاً مسيحياً قادماً من بريطانيا تحمل تصرفاته رائحة الضم. وإن اقتضى الأمر القيام بعمل استطلاعي عندئذ يكون ستيوارت Stewart الموثوق به والذي جال مؤخراً في شمال السودان هو الخيار الأفضل.

كان غوردون شخصية تحمل رمز العقيدة الدينية، وكان اسمه دواءً شافياً لجميع مشكلات الحكومة. في الاجتماع التالي لمجلس الوزراء صادق الوزراء بالإجماع على إرسال غوردون في تلك المهمة، حيث أشار غلادستون في مذكراته "مهمة غوردون - مهمة ينبغي الحديث عنها"[56].

والآن، ومن على متن الباخرة *SS. Tanjore* في المتوسط أرسل مذكرة أخرى. سوف يعيد للسودان استقلاله عن طريق تقسيم البلاد فيما بين "السلاطين المحليين"، الذين يقررون بأنفسهم التحالف مع المهدي أم الحفاظ على استقلالهم. ولكي يجعل قاعدة التقسيم هذه ناجحة ينبغي إبقاء تاجر الرقيق الماكر الزبير رحمت خارج السودان، والأفضل إبعاده إلى قبرص أو "لعله يلتهم سريعاً جميع السلاطين الصغار ويثبت أركان دولة واسعة مترامية الأطراف"[57]. كان غوردون يعيد تسخين أفكار قديمة: فقد سبق للعقيد ستيوارت وعبد القادر باشا أن اقترحا إعادة إحياء سلطنة دارفور لتكون ثقلاً موازياً لثقل المهدي. بينما رأى عرابي وشريف باشا التخلي عن غرب السودان للمهدي ثمناً للاحتفاظ بوادي النيل. ولكن على الرغم من أن الزمان قد تغير إلا أن غوردون لم يتغير. فهو للآن لا يستطيع أن يتصور أن المهدي أكبر من مجرد زعيم صوري"، وأن موقفه الدال على النبوة ما هو إلا موقف انتهازي أو أن الدافع والحماس في ثورته سوف تتيح له أن يشكل ائتلافاً والتقدم نحو 'ما وراء حدود القبائل التي كانت خاضعة له' إلى الخرطوم"[58].

بينما كان غوردون يجازف بحياته كان إيفلين بيرنغ يجازف بسمعته المهنية. فقد طلب معاوناً ثابتاً له فتلقى بدلاً منه غوردون. غير أن بيرنغ الذي رأى في مصر قدره لم يجادل اللورد غرانفيل. قبل بغوردون وحاول احتواء عناده وتصلبه. وحين حاول غوردون أن يتجاوز القاهرة؛ فذهب إلى الخرطوم مباشرة عبر قناة السويس ومرفأ سواكن، أمره بيرنغ بالعودة إلى القاهرة. وأجبره على احترام المبادئ الأساسية عند اجتماعه بقائده الاسمي الخديوي توفيق. وقال له قولاً غليظاً بأن عليه ألا يحاول الاحتفاظ بالخرطوم كما قال في مقابلته مع صحيفة غازيت. فهو يرى أن غوردون قد أرسل إلى الخرطوم لكي يتخلى عنها وواجبه يقضي بأن يؤسس لحدود مصرية يمكن الدفاع عنها وليس إثارة "المتاعب"[59].

وامتثل غوردون لهذه التعليمات بكل خنوع. ذهب إلى القاهرة وقدم اعتذاره للخديوي توفيق عن سلوكه السابق. وعقب هذا اللقاء مباشرة ذهب إلى لقاء

بيرنغ بصحبة ستيوارت ولينضم إلى هذا الاجتماع في قصر بيرنغ كل من وود Wood ونوبار باشا. تلقى غوردون ميزانية بلغت مليون جنيه وفرمانين، أولهما ويذاع فوراً يقضي بتسميته الحاكم العام للسودان، والثاني ليبقى سراً إلى أن تحين اللحظة المناسبة لإذاعته ويقضي بالجلاء عن الخرطوم.

أثناء لقائه مع غرانفيل أبدى بيرنغ دهشته قائلاً: "يا لهذا المخلوق الغريب! هو بالتأكيد نصف مجنون ولكن يستحيل على المرء ألا يعجب بنزاهته وبساطة طبعه"[60].

وافق غوردون على كل شيء قاله بيرنغ وأكد موافقته على سياسة الانسحاب. لكن بيرنغ نفسه لا يزال يشعر بالقلق بأن غوردون "متقلب الرأي" وأنه قادر على تغيير آرائه على نحو يثير القلق والفزع. من أجل ذلك وضع مجموعة من الأوامر جعلها توسيعاً للفقرة الختامية لأوامر غوردون الواردة من لندن، يوضح فيها واجباته تجاه الحكومة المصرية. قبل بيرنغ في أوامره تلك برأي غوردون القائل إن الانسحاب قد يستغرق "بضعة شهور"، وأن هذه الأراضي يجب أن تسلم إلى "اتحاد كونفدرالي" لسلاطين صغار ومتعددين وجدوا في زمن فتح محمد علي لهذه البلاد". وأن الحكومة المصرية قد وافقت على التخلي عن إمبراطوريتها. وبغية إنجاز هذه الأهداف منحت الحكومة المصرية لغوردون "سلطات استنسابية كاملة" في الحفاظ على الحاميات المصرية إنما بهدف إنجاز الانسحاب بأدنى "قدر ممكن من الخطر على الأرواح والممتلكات"، وليس بما يعزز قوة الاتحاد الكونفدرالي للسلاطين[61]. وهكذا بدت واضحة للعلن تلك الثغرة الخفية الموجودة بين السلطات الاستشارية والسلطات التنفيذية عند غوردون. فهو مستشار عند لندن ولكنه محكوم من القاهرة.

وكان من شأن أول عمل تنفيذي قام به غوردون أن وسّع تلك الثغرة، فقد قال "أتمنى لو أن الزبير يأتي معي إلى السودان".

قبل يوم واحد فقط وصف غوردون الزبير بأنه أكبر خطر يتهدد مهمته. وها هو ذا الآن لديه "إحساس باطني" بأن الزبير هو شريكه المثالي. وهو

الأمل الوحيد لديه في حال عدم وجود قوات بريطانية. فقد كان سياسياً محنكاً وعنيفاً. كان من الأحفاد المباشرين للنبي، وكان زعيم قبائل الجعليين التي التحقت بالمهدي، قائلاً في نفسه "الزعماء الحاليون عند المهدي هم الزعماء السابقون عند الزبير. وباعتقادي أن جميع أتباع المهدي سوف يتركون المهدي حين يلتقي بهم الزبير"[62].

لكن الزبير كان في الوقت نفسه محكوماً بالإعدام بسبب تعاطيه تجارة الرقيق وبسبب الخيانة، وسبق له أن أقسم على أن يقتل غوردون انتقاماً منه لقتله ولده سليمان تاجر الرقيق في منطقة بحر الغزال. لكن بيرنغ استبعد تلك "المشاعر الباطنية" من حساباته، ورأى أن للزبير جاذبية براغماتية، وهو مع عثمان دِقْنة يهددان مرافئ البحر الأحمر. وينبغي له أن يفعل شيئاً ما في هذا الصدد. فرتب لقاءً تصالحياً لم يخل من العواطف عاد الزبير فيه إلى عاداته الحرفية وأعلن لغوردون أنه "عبده مدى الحياة"[63]. واستعد غوردون للسفر إلى الخرطوم وبحيث يتبعه الزبير حالما يؤمن له بيرنغ الإذن بذلك من لندن.

يقول فرانك باور Frank Bower مراسل التايمز في الخرطوم: "استقبل تعيين الزبير هنا بدهشة بالغة، فهو سوف يلغي عمل غوردون وبيكر"[64].

هذا البطل في نظر أنصار إلغاء الاسترقاق على وشك أن يسلّم السودان إلى ملك تجار الرقيق. ومع أن غوردون لم يحسن فهم المهدي إلا أنه أدرك جيداً مضامين أوامره القادمة من لندن. فالتخلي عن الحاميات وإجلاؤها يعني الاستسلام لتجار الرقيق. وقد سبق لجمعية مكافحة الاسترقاق أن حذرت اللورد غرانفيل بأن بريطانيا مقبلة على تلطيخ سمعتها وسجلها بأنها المنفذ القوي للأعمال الإنسانية. غير أن غرانفيل رد على ذلك مختبئاً خلف الادعاء بأن مصر لا تزال تحكم السودان قائلاً إن الحكومة لا ترى أنه من "المرغوب فيه التدخل بإجراءات هي من صميم اختصاص الحكومة المصرية ذات الحرية الكاملة بتبنيها"[65]. إن حكومة غلادستون بحاجة للاستقرار في مصر أكثر من حاجتها للحرية داخل السودان. وكما قال صديق بيرنغ موبرلي بيل Moberley Bell مراسل التايمز، إن الزبير على الأقل سيكون عميلاً بريطانياً، وعندما تمر هذه

الأزمة سيكون "أكثر إذعاناً للتأثيرات الإنسانية". لكن هذا القول لم يهدئ ثورة "جمعية مكافحة الاسترقاق" ومناصريها في المقاعد النيابية لحزب الأحرار. وبينما كان غوردون يحزم زيه العسكري في القاهرة واثقاً بأن بيرنغ سوف يرتب أمور انضمام الزبير إليه، كانت ثورة إنسانية تهز حكومة الليبراليين (الأحرار) في لندن.

في مساء يوم 28 كانون الثاني/يناير عام 1884 توجه غوردون وبيرنغ عبر شوارع القاهرة إلى محطة سكة الحديد الرائعة التي أنشأها إسماعيل وعلى رصيف المحطة خلفهما كان عبد الشكور، سلطان دارفور الجديد، يدفع إلى القطار 23 من زوجاته وسراريه وستين خادماً وكتلة كبيرة من الأمتعة. وصافح غوردون وبيرنغ كل منهما الآخر وباعتقادهما أن الزبير باشا سيتبعه قريباً، واحتمل غوردون بشجاعة احتضان نوبار باشا له، وركب القطار ومعه الجنرال غراهام والعقيد ستيوارت.

بعث غوردون برسالة إلى شقيقته أوغستا قائلاً: "أغادر إلى السودان هذه الليلة، وأشعر بسعادة تغمرني، ذلك أنني أقول إذا كان الله معي فمن ذا الذي يستطيع أن يضرني؟ تمجد اسمه! وليبارك الله العالم وشعب السودان، عسى أن أكون تراباً تحت قدميه"[(66)].

وعاش غوردون بعد ذلك عاماً واحداً.

في أسيوط استقل الجمع باخرة للجنوب تابعة لتوماس كوك Thomas Cook. وبسبب سروره البالغ بقوة وقرب مفتاح البرق أخذ غوردون يمطر بيرنغ بسيل من الرسائل. وكانت أفكاره تدور حول ثلاثة افتراضات متناقضة. أولها أن المهدي لن يجرؤ على مغادرة كردفان ومهاجمة الخرطوم. والثاني، أنه إن فعل ذلك فسوف تضطر بريطانيا لمحاربته. وقد أسرّ غوردون القول إلى عالم الآثار سايس A.H.Sayce عندما توقفت الباخرة للتزود بالفحم في مدينة الأقصر قائلاً مهما حدث فهو يتوقع "الدعم من القوات"[(67)]. فالانسحاب المصري من

السودان من شأنه أن يعرض للخطر السيطرة البريطانية على مصر، لذلك فالتعزيزات أمر لا مناص منه. كانت تلك رؤية جندي للأمر وقد تحدث بها غوردون مع ولسلي و وود وغراهام. وكذلك هي رؤية سياسيين "ينظرون للمستقبل" من أمثال بيرنغ ونورثبروك وهارتنغتون وديلكه. لكن المحاولات التي لم يجر الحديث عنها بخصوص إنشاء دويلة حاجزة بين دولتين في دارفور أو فصل الخرطوم ووادي النيل عن غرب السودان فقد تمثلت في التوقعات القائلة بأن بريطانيا ستحتفظ بسيطرة غير مباشرة على السودان من خلال الوكالة المصرية. وقد أقر بذلك بيرنغ وهو يطبق سياسة تهدف إلى إعطاء الأثر العكسي حين قال "لقد فكرت دوماً باتخاذ بعض الترتيبات من أجل حكومة مستقبلية في السودان "[68].

لكن حسابات غوردون كانت خاطئة كثيراً. وقد بذل مرافقاه في السفر العقيد ستيوارت والجنرال غراهام جهودهما لجعله يتخلى عن افتراضاته. فالمهدي ليس بحاجة لأن يهاجم الخرطوم، التي لدى سكانها مؤونة تكفيهم لثلاثة شهور وسوف يهلكهم الجوع بعد ذلك. ولم يكن واضحاً بعد بأن الحكومة البريطانية التي تواجه ثورة على جبهتين سترسل أية قوات إلى الخرطوم بدلاً من مرافئ البحر الأحمر. لكن غوردون، الرجل المؤمن، تجاهل نصحهما.

أما افتراضه الثالث فهو أن المهدي مجرد لص وقاطع طريق. فقرر غوردون أن يذهب إليه ويعالجه بجرعة من الكاريزما ورشوة بمبلغ 10,000 جنيه. وبعدئذ يقتسم الرجلان السودان فيما بينهما باعتبارهما حاكمين مصريين بحيث يتولى غوردون حكم وادي النيل من الخرطوم والمهدي يتولى حكم كردفان. وبعد ذلك يتمكن غوردون من بناء جيش من الجنود السودانيين، ويطرد الضباط المصريين الفاسدين ويتلو عليهم فرمان الانسحاب ويضع البلاد تحت سيطرة الزبير باشا.

وقد أعاد الجنرال غراهام قراءة الكلمات التي قالها غوردون نفسه في مقابلته مع صحيفة غازيت غير مصدق ما يسمعه. فهذه الاستراتيجية، وحتى دون معونة الزبير سوف تخلق "الفوضى والطوفان وتجارة الرقيق "[69]. لكن

غوردون تجاهل غراهام وأعلن بأنه حالما ينتهي من مهمته في السودان سوف يذهب إلى الكونغو ليحاول تشكيل حلف بريطاني بلجيكي مناهض لتجارة الرقيق.

وفي هذا الشأن قال بيرنغ إلى غرانفيل: "متهور نوعاً ما"[70].

لكن ستيوارت ذكر في برقيته التي أرسلها بدافع من الغضب والسخط: "وكما تعلمون فإن الجنرال غوردون متسرع قليلاً. ويسرني أننا في الخرطوم الآن ونواجه الوضع على حقيقته"[71].

في اليوم الأخير من شهر كانون الثاني/يناير غادر غوردون بصحبة ستيوارت النهر متوجهين إلى الصحراء. وعند قرية كوروسكو Korosko سوف يتجاوزان الشلال الأول ثم الثاني ثم الثالث وكذلك العروة التي يشكلها النيل ثم يأخذان الطريق الصحراوي لمسافة 260 ميلاً ليصلا إلى قرية أبو حمد. رافقهما الجنرال غراهام حتى خرجا من كوروسكو ثم ودعهما. وتسلق هضبة بركانية سوداء ليراقبهما بمنظاره ومعهما أدلاؤهما من العرب حتى ابتعدا ولاحا مثل نقطتين داكنتين على خلفية رملية. ثم اختفى الجميع.

حين كان غوردون يقطع الصحراء ابتعدت آراؤه قليلاً عن آراء الحكومتين البريطانية والمصرية. ففي الثامن من شباط/فبراير بعث بمذكرة إلى بيرنغ يقول فيها إن على مصر أن تحتفظ بالسودان كله وأن تحكمه بضباط مصريين. ورأى أنه بما أن سلطة الخديوي مستمدة من خليفة المسلمين في القسطنطينية فإن "منزلته" الدينية تشكل دعماً لمصر في مواجهة "الفوضى والعنف التي قد تطول مدتها". والزبير باشا هو "الرجل الوحيد المناسب ليكون حاكماً عاماً للسودان إذا أردنا لهذا البلد أن يكون هادئاً"[72]. وفي اليوم التالي طلب غوردون إلى بيرنغ نشر جميع برقياته إلى القاهرة. فهذا القرار سوف يلهب الرأي العام في بريطانيا بأكثر مما قد يساعد الحكومة البريطانية. سيما وأنه جعل مهمة غوردون نوعاً من مسرحية علنية أمام العامة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسعى فيها لاستغلال المعجبين به في الصحافة للضغط على الحكومة.

وبينما كانت تلك التعليمات في طريقها إلى القاهرة حاول غوردون أن

يجعل من توصياته أمراً واقعاً. فقد عرض على المهدي أن يكون السلطان في كردفان. لكنه مُنع من لقاء المهدي وخشي بيرنغ أن يختطف. لم يبال بذلك فكتب إليه إلى مدينة الأبيض طالباً الاجتماع به، حيث قال "لتعلم يا سيدي المحترم أنني أرغب أن أكون في حضرتكم لإرساء علاقات من المحبة والود الخالصين. إن مقصدي ليس إلا خيراً"(73).

وبمزيد من الاحترام غلف رسالته بالحرير وبعث بها ضمن طرد يحتوي عباءة قرمزية اللون وطربوشاً، وهذه هي من زينة الحاكم التركي. وهنا لا بد من القول إن تقديم غوردون للمهدي ذلك الزي غير المقبول دليل واضح على أن غوردون لا يفهم خصمه. فالسودان أراض شاسعة إنما كان في نظر غوردون كبيراً بما فيه الكفاية ولا يتسع إلا لنبي واحد. ولا بد أن المهدي كان محتالاً. ولم يخرج عرض غوردون بخصوص كردفان عن إطار تلك الحسابات الخاطئة. والحكم المصري كان ينهار في جميع أنحاء السودان فلماذا يقبل المهدي بكردفان ويرضى بها؟

فيما بعد غيّر غوردون استراتيجيته تغييراً كلياً. في مدينة بربر أيقظ ستيوارت عند الخامسة والنصف صباحاً. وقال إنه كان "يفكر الليل بطوله"، وأنبأه أن الوقت قد حان ليفتح صندوق باندورا Pandora Box ويعلن "طلاق السودان عن مصر". وقبل أن يتحدث ستيوارت ليمنعه من ذلك أخرج غوردون الفرمان الثاني والسرّي لديه والموجه إلى السلطة المصرية المحلية، حسين باشا خليفة، الذي اشتبه به ستيوارت بكونه عميلاً للمهدي. وفي اليوم التالي أعلن غوردون استقلال مدينة بربر عن مصر وعين نفسه أول حاكم عام لها. وبالطبع كان السؤال الأول المنطلق من أفواه رعاياه الجدد هو ما إذا كانت القوانين المصرية المحلية المناهضة للاسترقاق لا تزال مطبقة.

فأجاب قائلاً: "لا! إن كل من يملك عبيداً له الحق الكامل بخدماتهم والسيطرة الكاملة عليهم"(74).

كان غوردون خارج نطاق التواصل الفعال مع القاهرة، وقد تجاوز كل

جانب من جوانب أوامره. وحيث إنه كان يعمل على صنع السياسة أثناء مسيره فقد جر الإمبراطورية البريطانية نحو أعالي النيل في أثره.

عند الساعة التاسعة والنصف من صباح الأحد الثامن عشر من شباط/ فبراير عام 1884 رست الباخرة "التوفيقية" في مرساها الأخير عند قصر الحاكم العام بمدينة الخرطوم بعد أن نجت من كمين نصبه لها المهدي عند الشلال السادس للنهر. وبينما وقف كبار المسؤولين المصريين بزيهم الرسمي تجمهر جمع من المواطنين الفزعين للتعبير عن شكرهم وامتنانهم. وحالما ترجل غوردون من السفينة مرتدياً زيه الرسمي المزدان بخيوط الذهب تدافع المئات منهم لتقبيل يديه وقدميه. تلا عليهم الفرمان الخاص بتعيينه حاكماً عاماً للبلاد، وألقى خطاباً موجزاً حيث قال:

"لقد جئتكم وحيداً دون جيش. ويجب علينا أن ندعو الله للاعتناء بالسودان، فلا أحد سواه يستطيع ذلك"[75].

ثم أمر بإشعال نار ضخمة في ساحة السوق أحرق فيها السياط التركية وسجلات الضرائب وأدوات التعذيب. وأشرف ستيوارت على إعداد مأدبة احتفالية قدم فيها لحم طيور الديك الرومي والجعة من المستودعات، لكن غوردون آثر أن يقضي تلك الليلة في مكتبه يخطط لحملته. وبينما كان يحاول تشذيب "مهمة السلام" بين القبائل المحلية فكر بأن يبدأ من الخرطوم حيث يجلي عنها 15,000 من الأوروبيين والمصريين الذين وصفهم ستيوارت بقوله "العناصر البيضاء والسمراء"[76]. وقد وضع حساباته بعد استبعاد أي تدخل من "الأنصار" بأن يتم إخلاء الجميع قبل أن يهبط منسوب نهر النيل في تشرين الأول/أكتوبر. وفي غضون ذلك، أخذ في حسبانه أن ما لا يقل عن ثلث السكان هم من المتعاطفين مع المهدي.

خاطب سكان المدينة قائلاً: "إنني أرقب هذه الأشياء كلها عن كثب، ولا تظنوا أنني أجهل ما يجري حولي. إن قوات الحكومة البريطانية الآن في الطريق وستكون في الخرطوم في غضون أيام قليلة"[77].

لكن هذا القول كان منافياً للحقيقة، وقد ألزم غوردون بإلزام قوي تجاه سكان الخرطوم. وفي رسالة بعث بها إلى بيرنغ قال: "أرجو ألا تحسبني أدافع بطريقة ما عن فكرة الاحتفاظ بالسودان. فأنا لا أقبل بذلك. وعليك أن تدرك بأنك لا تستطيع استدعائي ولا أنا أقبل بذلك، وذلك إلى أن يتم خروج موظفي القاهرة من مواقعهم كافة. فكيف لي أن أواجه العالم إن تخليت عنهم وهربت؟" (78).

ومع ذلك، حتى لو نجح هذا الجلاء عن السودان فلن يكون ذلك مفيداً لمصر، فكان من شأن اعترافه بما هو واضح استراتيجياً أن أجبره على اقتراح عمل لا ترضى به الحكومة البريطانية. فقد بعث ببرقية إلى بيرنغ يقول فيها: حين ينفذ الجلاء سيأتي المهدي إلى هذا المكان، ومن خلال عملائه لن يجعل مصر تنعم بالهدوء. وواجبي، بالطبع، يقضي بتحقيق إجلاء الرعايا وأن أقدم أفضل ما لدي لإقامة حكم هادئ. ولكن إذا أريد لمصر أن تنعم بالهدوء فينبغي تدمير المهدي، فهو رجل لا يحبه أحد ويمكن تحطيمه بتوخي الحذر والزمن كفيل بذلك. وأذكر، حالما تقع الخرطوم في قبضة المهدي ستكون هذه المهمة أكثر صعوبة، ومع ذلك، ومن أجل مصر، سوف تنفذها أنت" (79).

في رسالته إلى غلادستون أبدى اللورد غرانفيل دهشته قائلاً: "الوضع أقرب إلى الخيال وقصص ألف ليلة وليلة مما هو في واقع الحياة" (80). ولم يكن غوردون بعيداً عن ذلك. تلك الأحداث الغريبة في الخرطوم بدت أقل إلحاحاً من حادثة حدثت في التلال المشرفة على الأطراف الجنوبية لقناة السويس ودلت على إخفاق مصري تام. ففي فجر الرابع من شباط/فبراير وبينما كان غوردون يقطع الصحراء رأت قوة من رجال الشرطة قوامها 3500 رجل يقودها فالنتاين بيكر رجال القبائل بقيادة عثمان دِقْنَه قرب آبار قرية التيب El-Teb في أطراف مرفأ سواكن.

كان بيكر قد أمر رجاله باتخاذ تشكيل يشبه شكل المربع تحت ستار من الضباب والمطر الغزير. وكانت نيرانهم كثيفة جداً حتى إن المنطقة بكاملها

اختفت وراء ضباب دخان البنادق ولم يمكن سماع أي أمر بسبب ذاك التنافر في الأصوات. انتظر دِقْنَه حتى انجلى الدخان عن الميدان ثم أطلق جيشه من جميع الجهات فقتلوا ما يزيد عن 2,000 من رجال بيكر ومعظمهم فر عائداً إلى سواكن، وعند سماعهم للنبأ ترك الرجال السبعمئة من الناجين من حامية سنكات Sinkat بنادقهم وحاولوا الوصول إلى سواكن سيراً على الأقدام. لكن رجال قبيلة هدندوة Hadendowa أدركوهم على بعد ميل واحد فقط من أبواب المدينة فقتلوا الرجال جميعاً ومعظم النساء والأطفال.

في تلك الأثناء كان فصيل صغير واحد من مشاة البحرية مسيطراً على سواكن آخر معقل لبريطانيا على ساحل البحر الأحمر. ولكي تزداد مشكلات الحكومة تفاقماً تحدث مجموعة من الصحفيين عن هذا الحصار من على متن سفينة عائدة للبحرية الملكية كانت راسية في ميناء سواكن. وحيث إن طريق الهند قد بات الآن عرضة للأخطار ثار وزراء غلادستون أنصار السياسة "الهجومية"، وطالب اللورد كمبرلي من وزارة شؤون الهند بأن يتخذ النفوذ البريطاني "شكلاً أكثر رسمية"[81]. ومن مبنى وزارة الحربية طالب هارتنغتون وولسلي بقوة إرسال القوات البريطانية إلى سواكن بقيادة الجنرال غراهام. وانضمت الملكة فكتوريا إلى هؤلاء جميعاً.

فقد بعثت برسالة عاجلة إلى غلادستون تقول فيها: "يجب توجيه الضربة وإلا فلن نتمكن من إقناع المسلمين بأنهم لم ينتصروا علينا". وأبدت دعمها ومساندتها لأولئك الأشخاص الوطنيين في وزارة الحربية مؤكدة: "إن هؤلاء عرب متوحشون ولا يمكنهم أن يصمدوا أمام قوات نظامية حسنة التدريب. إن الملكة على ثقة بأن خطة اللورد ولسلي سوف تؤخذ في الاعتبار وأن موقفنا بكامله يجب ألا ينساه أحد. يتعين علينا ألا نترك هذا البلد الجميل والناجح وسكانه المسالمين يقع فريسة للإجرام والنهب والفوضى. فهذا عار يلطخ سمعة بريطانيا والبلاد لن تسمح بذلك"[82].

وفي رسالة بعث بها إلى غرانفيل في الشهر نفسه ومن العام نفسه قال غلادستون معرباً عن أسفه وحسرته: "عنصر آخر يضاف إلى القدر الذي يغلي على

النار"[83]. وبعد أن جوبه بمعارضة في جلسة الحكومة تعرض لمهانة أخرى حين طلب المحافظون إجراء تصويت على اقتراح يقضي بتوجيه اللوم للحكومة في مجلس العموم. وتساءل اللورد راندولف تشرشل قائلاً:

لماذا يعاقب عثمان دِقْنَه على عملية تمرد واحدة بينما يكافأ المهدي على تمرد آخر؟ فإذا كان غوردون قد أرسل للتفاوض بشأن إحلال السلام في غرب السودان فلماذا ينبغي على القوات البريطانية أن تخوض حرباً في شرقه؟

واستمر الجدال قوياً لمدة خمسة أيام. وأخذت الحكومة تبحث عن غطاء، وفقدت مواقفها كل تناغم وانسجام. فقد أصر غلادستون سابقاً على أن غوردون لا يملك صلاحيات تنفيذية، والآن هو يعلن أن غوردون قد أرسل لهدف "غرض ثنائي" هو الإشراف على الجلاء وإنشاء نظام من "سلاطين صغار". أما اللورد هارتنغتون الذي كان له الأثر الأكبر في تأسيس الدور التنفيذي لغوردون فقد أنكر الآن أية مسؤولية لبريطانيا في السودان. فادعى أن مرافئ البحر الأحمر التي تعد من الناحية الفنية جزءاً من السودان هي في حقيقة الأمر كيان جغرافي متميز، لذلك فإن التدخل في سواكن لا يمكن أن يكون قضية سودانية، بل هو كما أوضح غلادستون "مجرد خدمة للإنسانية"[84].

لكن الحكومة فازت بالثقة وتوجهت القوات إلى سواكن. وبعد جولة ثانية من القتال اتسمت بالعنف والوحشية تمكن الجنرال غراهام وعلى نحو سريع من إجبار رجال عثمان دِقْنَه على التقهقر إلى التلال. غير أن الاستخدام الجيد والمحترف للبنادق الصغيرة الحجم من صنع مارتيني هنري Martini Henry ونشر التقارير الحربية التي تصور الجنود البريطانيين يطعنون بحراب بنادقهم المحاربين من قبائل الهدندوة الذين عرفوا بـ "فزي - وزي" قد زادت في إرباك حزب غلادستون.

ثم انفجرت الصحف بأخبار عن خطة غوردون للتعاون مع الزبير رحمت. وتعرضت حكومة شديدة الحساسية للأنباء المثيرة لهجوم من أصحاب المبادئ الأخلاقية من جميع الألوان. جمعية مناهضة الاسترقاق وصفت خطة غوردون

بأنها "عمل فخرٍ لإنكلترا وفضيحة لأوروبا"[85]. أما وليم فورستر William Forster عضو البرلمان الليبرالي ومن "الكويكرز" Quakers الوجدانيين فقد شجب غلادستون أداءه في تقويض حملة بريطانيا التاريخية ضد الاسترقاق في إفريقيا، حيث خاطب مجلس العموم قائلاً: "منذ أجيال عديدة ونحن نناضل لإلغاء الاسترقاق في أنحاء العالم كافة، ومن تقاليدنا التي نعتز بها عبر التاريخ أننا لا نألو جهداً لأعوام عديدة في فعل ما يمكن فعله لمنع هذا الشر"[86]. واعتقد اللورد غرانفيل أن غوردون قد صار "واحداً من المعتوهين الشرقيين"[87]. ولم يدعم غوردون في موقفه هذا سوى بيرنغ.

في هذا الإطار بعث غرانفيل ببرقية إلى بيرنغ يقول فيها: "الرأي العام هنا لا يحتمل سماع اسم الزبير"[88].

أما صحيفة نيو كاستل كرونيكل *New Castle Chronicle* الليبرالية فقد عرضت هذه الأزمة على النحو التالي قائلة: إن ثمة جانباً استراتيجياً واقتصادياً، وعلى الجانب الآخر ثمة الضمير. "فالرجل الإنكليزي يتحمل الكثير من أجل مصلحة الحزب ولكنه يبتعد عن التقاليد والمبادئ إذا علم بتعيين تاجر رقيق طاغية ومجرد من مبادئ الأخلاق قائداً لشعب السودان"[89].

وكما يحدث عادة مع غلادستون في أوقات الأزمات فقد أصيب بوعكة صحية، ولزم الفراش يعاني من "تعرق شديد" وآلام في الصدر وعدوى Sybil التي أصيب بها دزرائيلي قبله. وعندما انعقد مجلس الوزراء ليناقش أمر تعيين الزبير كان غلادستون يتواصل معه عبر رسائل صغيرة يرسلها إلى غرانفيل. وفي إحدى رسائله اقترح بأن الحكومة تستطيع الرد على النقد في الداخل إذا ادعت أن غوردون قد استخدم الزبير من منطلق كونه موظفاً لدى الحكومة المصرية، وبهذه الطريقة يكون الجانب الأخلاقي لهذه الأزمة مشكلة القاهرة. غير أن مجلس الوزراء رفض هذا الحلم المتأثر بالحمى.

وانقضت أربعة أيام، وكان غلادستون وغرانفيل يحاولان كسب الوقت، وشاركهما في هذه المحاولة اللورد هارتنغتون الذي كان يخشى مواجهة مجلس

العموم دون دعم غلادستون. بتاريخ السادس عشر من آذار/مارس انضم المترددون في مجلس الوزراء أخيراً إلى غلادستون. وأبرق المجلس إلى بيرنغ يبلغه قراره: لا ينبغي استخدام الزبير.

لكن بيرنغ في تلك الأثناء لم يستطع الاتصال بغوردون إلا من خلال رسائل تصله عبر المهربين.

وفي 12 آذار/مارس وحين عوفي غلادستون من وعكته والتزامه الفراش كان جنود الأنصار وعددهم 4,000 مقاتل قد ألحقوا هزيمة منكرة بالموقع الشمالي لحامية الخرطوم الواقعة في حلفايا Halfaya، وقطعوا طريق السفن المتجهة إلى مدينة بربر وفصلوا خطوط البرق التي تصل غوردون بالعالم الخارجي. عندما علم غوردون بهذا النبأ كتب إلى شقيقته أوغستا يقول:

"ربما تكون هذه آخر رسالة أبعث بها إليك، فالقبائل ثائرة بين هذا الموقع ومدينة بربر وسيحاولون قطع الطريق علينا. هم لن يحاربونا مباشرة بل سوف يحاربوننا بالجوع. وما ينبغي لي فعله هو أن أخضع لمشيئة الله مهما اشتدت قسوة الأحداث التي تحصل لي"(90).

لقد ابتدأ حصار الخرطوم. وإن كان المهدي قد اتخذ غوردون رهينة لديه، فإن غلادستون هو رهينة غوردون.



الشيخ محمد عبده

الفصل الثامن

جند الله

1885

آهٍ، الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا، حتى تقف الأرض والسماء أمام عرش الله العظيم يوم الدينونة، ولكن لن يكون ثمة شرق أو غرب، ولن تكون ثمة حدود ولا أنساب ولا نبل المحتد، حين يقف رجلان قويان وجهاً لوجه برغم أنهما جاءا من أقصى أطراف الدنيا!

رديارد كيبلنغ، "أنشودة الشرق والغرب"، 1895[1]

في اليوم الذي انقطعت فيه الخرطوم عن العالم كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في علّيّة صغيرة في باريس لا تزيد مساحتها عن ثمانية أقدام مربعة يقرآن العدد الأول من صحيفتهما الجديدة. فقد اختارا لهذه الصحيفة اسماً ورد ذكره في القرآن الكريم وهو "العروة الوثقى"، وتناشد المسلمين في العالم أجمع ليتحدوا ويتصدوا "للفساد من جذوره ولمصدر الرذيلة"[2] المتمثلة بالمادية الغربية التي أفسدت الإسلام من خلال انحرافات متنوعة الأشكال مثل التحالف البريطاني العثماني والاشتراكية والشيوعية والعدمية وحرية التجارة ونظرية التطور التي طلع بها داروين والأعمال المصرفية الدولية والجنس. كان الأفغاني يكتب "كلمة العدد"، وعبده يكتب معظم المقالات. وكانت الحكومة الفرنسية المصدر الأكثر احتمالاً للتمويل. والغريب في الأمر أن اسم هذه الصحيفة هو نفسه اسم لآخر جمعية شكلاها يفترض أنها جمعية سرية.

اعتزم الأفغاني أن يستخدم تكنولوجيا الاتصالات الغربية ليواجه بها قوة الغرب. وفي تلك العلية كانت تتجمع "أكداس المجلات وقصاصاتها" بانتظار تصديرها إلى "أقصى الزوايا في العالم الإسلامي"، سيما وأن التكاليف الزهيدة

للنقل ورخص أثمان البخار والنقل عبر سكة الحديد، يساعد في نشر "روح التمرد والثورة". في عام 1884، وحين كان المهاتما غاندي لا يزال في ريعان الصبا يتعلم اللغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية لكي يسير على خطى والده ويصبح موظفاً في الحكومة، كان الأفغاني يقول في استشرافه للمستقبل: "تعتقد إنكلترا أنها قد حققت إنجازاً سياسياً عظيماً من خلال فرضها اللغة الإنكليزية على الهندوس والمسلمين والوثنيين. لكنها أخطأت خطأً كبيراً. فهؤلاء الأقوام يفهمون اليوم ما ينشر في صحف المحتلين ويعلمون جيداً حالة الخنوع التي تعرضوا لها"[3].

ومن خلال تخطيطهما للثورة كان الأفغاني ومحمد عبده يحظيان بتأييد من الماديين. وعندما جاء ولفريد بلانت لزيارتهما وجد محمد عبده "وقد صار مثل الأوروبيين"[4]. فهو لم يعد يحلق شعر رأسه وصار يرتدي الطربوش بدلاً من العمامة ويقضي وقته في المقاهي. أما معلمه وأستاذه جمال الدين الأفغاني فقد كان يدخل في نقاشات علنية مع الفيلسوف إرنست رينان Ernest Renan. وفي معرض رده على تقييم رينان القاسي بخصوص تلك الفجوة بين الإسلام والعلوم الحديثة، وحين يخاطب المسيحيين المتشككين باللغة الفرنسية كان الأفغاني يؤيد بقوة تحليل رينان، فكان يقول: "والحق يقال، إن الدين الإسلامي حاول خنق العلوم ومنع تقدمها. وبذلك نجح في وضع حد للحركة الفلسفية والفكرية وفي إبعاد العقل عن البحث الهادف للتوصل إلى الحقيقة العلمية".

ومثلما فعل كتاب *Philosophe* لعصر التنوير أشار الأفغاني إلى اضطهاد الكنيسة لغاليليو، وخلص إلى القول إن "الأديان، باختلاف مسمياتها، تشبه بعضها بعضاً. فالدين يفرض على المرء عقيدته ومعتقده، بينما تعمل الفلسفة على تحريره كلياً أو جزئياً". ولم تكن فكرة الأفغاني عن الحرية الفردوس العلماني للتنوير إنما كانت حرية ترويض الأساليب الغربية لتقوية العالم الإسلامي. كان جهادياً حديثاً بكل معنى الكلمة، ورأى حماسته الحقة في قتل الشيء الذي يحبه ألا وهو الغرب الحديث والعلماني[5].

وكان في باريس يستقبل الكثير من الزوار، فقد جاءه المنفيون من أنصار

عرابي والقوميون الكاثوليك والثوار الإيرلنديون والمهووسون المتدينون، وولفريد بلانت. حين جاء بلانت في يوم من أيام شهر آذار/مارس 1884 وجد "حكيم الشرق" هذا يحاضر أمام "جمع غريب من الغرباء". كانوا بقيادة مدام هيلينا بلافاتسكي Madame Helena Blavatsky اليهودية الروسية التي ابتدعت ما أسمته الثيوصوفي Theosophy، وهو خليط لعناصر متنافرة من الروحانية والعقيدة الشخصية والبحث شبه العلمي عن الأصل المشترك لجميع الأديان. رأت بلافاتسكي في الأفغاني رجلاً صوفياً فارسياً حقيقياً، واحداً من أولئك "الآريين" الذين يبدون ظاهراً ذوي صلة بالبحث الثيوصوفي. وكان أيضاً السيد السابق لمحفل نجمة الشرق في الإسكندرية الذي كان أعضاؤه من المعجبين جداً ببلافاتسكي حين جاءت إلى مصر لتدرس الصوفية.

والتقى الاثنان، بلافاتسكي والأفغاني، ليناقشا موضوع شخص صوفي ثالث، فكلاهما عمل على وضع إيديولوجيا جديدة لجسر الهوة بين الشرق والغرب، وكان كلاهما مقتنعاً بنصره الوشيك على النطاق العالمي. سألت بلافاتسكي: "ما رأي الأفغاني بالمهدي؟" فقد اعتقدت أنه لا بد أن يكون "مصلحاً اجتماعياً" لأنه يناضل ضد الإمبراطوريتين العثمانية والبريطانية، لكن الذي أزعجها هو "ارتباطه بتجارة الرقيق".

فأجابها الأفغاني محاولاً إخفاء تبسمه، شارحاً لها "مدى ما كسبه العبيد بين المسلمين للحصول على حريتهم". ثم غادر الثيوصوفيون إثر ذلك مقتنعين بأن ثورة المهدي جزء من حركتهم العالمية من أجل الوعي الديني"[6].

غير أن الأفغاني ومحمد عبده فيما بينهما وجدا في المهدي فرصة من نوع جديد. قال محمد عبده لبلانت وهو يحاوره: "هو البشير للخليفة الذي سيكون"[7]. وكان الأفغاني قد بدأ فعلاً اتصالاته مع المهدي عبر مؤيديه في القاهرة. ففي مطلع عام 1884 كان أحد الصحفيين الفرنسيين واسمه أوليفييه بين Olivier Pain قد تمكن من الحصول على مهمة من صحيفة لوفيغارو *Le Figaro* للقيام بتغطية ثورة السودان. حين حاول هذا الصحفي الاتصال بالأفغاني طالباً مساعدته أعطاه كتب توصية وتعريف وطلب إلى أصدقائه في القاهرة أن

يجهزوا "قافلة لتجار غير حقيقيين" ترافقه حتى حدود السودان. كما أعطاه أيضاً "رسائل سرية" للمهدي يقترح فيها إقامة تحالف معه.

لقد كان أعداء المهدي هم أنفسهم أعداء الأفغاني، وتحديداً الخليفة العثماني، وخديوي مصر، والإمبراطورية البريطانية. وكان هؤلاء الأعداء أنفسهم أيضاً أعداء أحمد عرابي. لذلك جعل الأفغاني نفسه المحاور بين ذلك المحارب السوداني والجنرال المصري. كان الأفغاني يأمل أن تمتد ثورة المهدي مع امتداد النهر إلى مصر، فتجبر بريطانيا على إعادة عرابي من منفاه. ومن خلال رسائل ومبعوثين يتم تبادلهم سراً عبر المهربين أقام الأفغاني وبلانت اتصالاتهما مع عرابي في جزيرة سيلان. ولكي يضخم المهدي الذي لم يغادر السودان مطلقاً في حياته حيث وصفه بأنه "تلميذي في الأزهر" وبالتعاون مع بلانت وضع استراتيجية للخروج يقدمها هذا الأخير إلى حكومة غلادستون. وفي تلك الأثناء تحدث القنصل البريطاني في القسطنطينية عن مظاهرات تأييد للمهدي اندلعت في بيروت ودمشق[8].

غير أن بلانت كان قد مُنع من دخول مصر بتهمة إثارة الشغب، وقد اتهمه مجلس العموم بأنه قد أخبر عرابي عن خطة ولسلي للهجوم على مصر، ومع ذلك كان لا يزال يملك المفتاح الاجتماعي الذي يمكّنه من الوصول للطبقة السياسية. بعد ثلاثة أيام من تلك المؤامرة الحاصلة في باريس قام بزيارة إلى غرفة في عليّة أخرى، كانت في لندن وتحديداً في ميدان كونوت Connaught Place، حيث كان اللورد راندولف تشرشل المصاب بالأنفلونزا مستلقياً في سريره. حاول بلانت أن يستميل ذلك المنشق عن حزب المحافظين (التوري Tory) واصفاً إياه بأنه "نصير المسلمين". وبتاريخ 23 نيسان/أبريل قدم نفسه إلى غلادستون على أنه "وسيط لإنقاذ غوردون". وعرض "معلومات تلقاها بالوقت المناسب" من مصادر لم يسمها متعهداً بتأمين حرية غوردون و"تهدئة مناطق أعالي النيل"، وذلك كله دون أن يحرّف "المبادئ العامة لسياسة" غلادستون. والحق يقال، إن بلانت اعترف في مذكراته لذلك اليوم أنه كان يعتزم استخدام "وساطته" لإجبار الحكومة البريطانية على القبول بأجندا أكثر راديكالية،

ألا وهي انسحاب غير المسلمين من أراضي السودان، و"معاهدة سلام" بين بريطانيا والمهدي وعودة عرابي إلى مصر[9].

لكن غلادستون رفض هذا العرض، وحملت صحيفة بول مول غازيت تعليقاً لستيد W.T.Stead يوجه فيه لوماً عنيفاً لبلانت، قائلاً: "إذا كان كل شيء سوف يُسَلّم للمهدي وإذا أريد للحاميات أن تضع أرواحها تحت رحمته، فإن الشخص المناسب لذلك في السودان هو السيد ولفريد بلانت وليس الجنرال غوردون. فهذا الجنرال كان على استعداد للذهاب إلى أقصى ما يمكن لتهدئة المهدي. والسيد بلانت أيضاً مستعد للذهاب إلى أقصى ما يمكن ... إذن السيد بلانت هو الرجل الذي ينبغي للحكومة أن تنظر إليه في هذه الساعة، ساعة الحاجة. فهو يمثل سياسة الحكومة في جوانبها اللطيفة ... والسيد بلانت ليس أقل شجاعة من الجنرال غوردون ويمكن التضحية به بأمان في الحد الأدنى"[10].

ولم يكن اقتراح بلانت الاقتراح الوحيد. جميع خيوط المصلحة البريطانية انعقدت حول الخرطوم. وانضمت جوقة من المدافعين عن غوردون إلى ذلك العزف المنفرد الذي قدمه السير إيفلين بيرنغ، يطالبون بإنقاذ غوردون لأسباب شتى، أخلاقية وداخلية وخارجية. أنصار إلغاء الرق ذعروا لفكرة التخلي عن السودان والقديس راعيها. أما أنصار الخلاص الأبدي للبشر الليبراليين فقد قالوا عنه إنه شهيد مسيحي في طور التكوين. ورأى فيه المتشككون المحافظون شهيد مراوغات غلادستون. وحذر الشوفينيون من هزيمة تلحق بالبلاد على أيدي البرابرة المتوحشين. وخبراء الاستراتيجيا حذروا من تداعيات ذلك على مصر وعلى طريق الهند. لكن الغالبية العظمى من البروتستانت الإنجيليين ورجال الأعمال والعسكريين والمتعصبين والبريطانيين العاديين كانوا جميعاً مفتونين بشجاعة وإيمان غوردون.

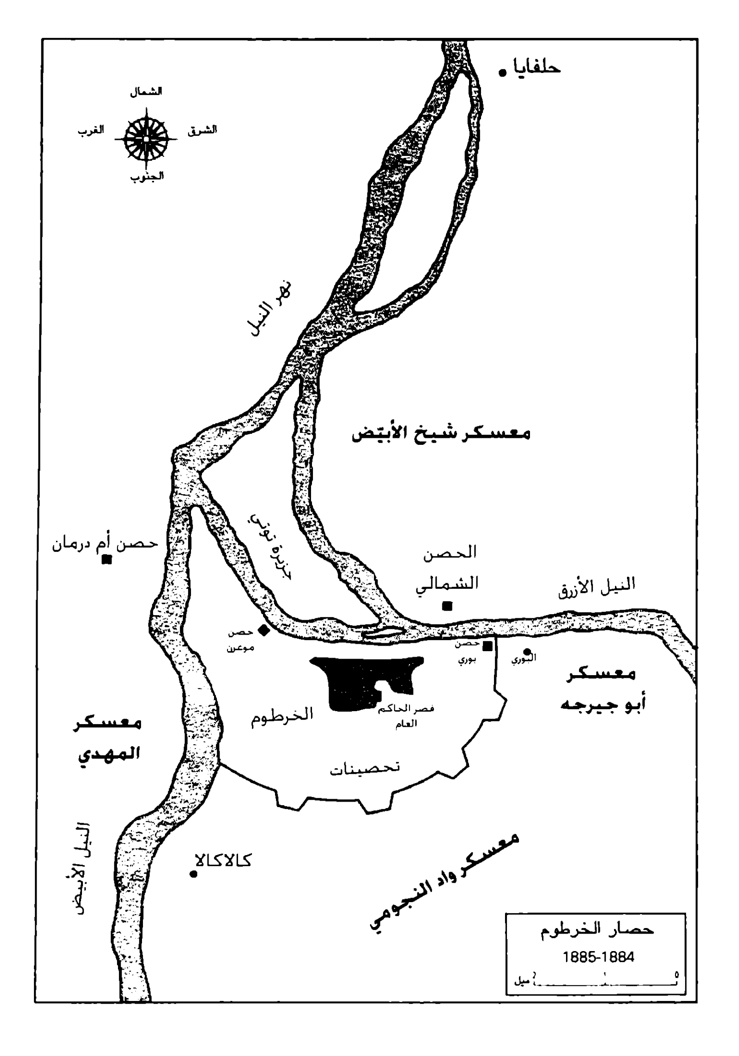
وعقدت اجتماعات جماهيرية ضخمة في لندن ومانشستر، وافتتحت واحدة من المعجبات بغوردون هي السيدة سورتيز ألنات Mrs Surtees-Allnat التبرعات لصندوق خصص لجمع نحو 80,000 جنيه فدية تقدم لإنقاذ غوردون. وبسبب

عدم وجود عنوان حكومي انهال سيل من التبرعات على رئيس تحرير صحيفة التايمز من أجل تمويل قوة إغاثة، لكنه ردها جميعاً وأوكل المهمة للعلي القدير داعياً الجميع لإقامة الصلوات من أجل غوردون. أما المحاربون الجالسون في كراسيهم فقد تساءلوا عما إذا كان الصياد الماهر كيرلي نوكس "Curly" Knox الذي وصفه بلانت بأنه "ذو الدم العفن والحارس الأسود اللعين" يستطيع أن يذهب وحيداً ومتخفياً إلى السودان ويأتي بغوردون إلى بر الأمان. وأما مارك نابيير Mark Napier، محامي عرابي، فقد طاف بالأندية محاولاً تجنيد "آلاف الرياضيين" المستعدين لتفجير منطقة ببنادق صيد الفيلة لتكون ممراً من سواكن إلى بربر[11].

لكن الحكومة قاومت كل ضغط من الرأي العام وكل استجداء وتوسل من جهات خاصة. فالسياسة هي الانسحاب وليس الغزو بقوة عسكرية أو بشخص كيرلي نوكس "Curly" Knox. وإذا حكمنا على الأمور من خلال رسائله يمكن القول إن غوردون لم يرد أن ينقذه أحد.

في منتصف شهر آذار/مارس كتب غوردون إلى شقيقه هنري يقول: "لقد عزز العدو مواقعه على بعد تسعة أميال من هذا المكان ونستطيع أن نسمع قرع طبوله القادم من القصر. لدينا ما يكفي من الطعام والناس هنا معنوياتهم عالية. ونحن نستطيع، بمشيئة الله، الاستمرار لشهور. البواخر تمنحنا فوائد عظيمة ونحن بانتظار ارتفاع منسوب النيل بعد شهرين لنكون في حالة أقوى"[12].

في بادئ الأمر لم تبدُ الخرطوم مدينة محاصرة. أقام أنصار المهدي المحليون ثلاث معسكرات إلى الشمال وإلى الجنوب الشرقي والجنوب الغربي، لكنهم لم يبد عليهم أنهم يحاصرون المدينة. فقد خامرت المهدي شكوك بأن غوردون وجماعته مجرد طلائع لقوة كبرى، فبقي مع أنصاره داخل مدينة الأُبيّض. وبقيت بوابات مدينة الخرطوم مفتوحة. وكانت تخرج فرق الاستطلاع لتجمع الحطب أو تناوش المتمردين، وظل المزارعون يأتون ليبيعوا الحبوب. وظلت البواخر الحكومية تنتقل ذهاباً وإياباً على النيل الأبيض والنيل الأزرق تشتري



حلفايا
الشمال
الغرب
الشرق
الجنوب
نهر النيل
معسكر شيخ الأبيّض
حصن أم درمان
جزيرة توتي
الحصن
الشمالي
النيل الأزرق
حصن
موغن
حصن
بوري
البوري
معسكر
أبو جيرجه
معسكر
المهدي
الخرطوم
قصر الحاكم
العام
تحصينات
كالاكالا
النيل الأبيض
معسكر واد النجومي
حصار الخرطوم
1885-1884
ميل

المؤن وتتبادل الطلقات مع المتمردين على ضفتي النهر. لكن المواد الغذائية كانت مقننة وتتضمن اللحوم الطازجة والحليب للمرضى.

بقي غوردون محتفظاً برباطة جأشه ولم يفقد حماسه. فالموقف ملائم له، كان مسرحية لها صلة بالموت وتخلو من سياسيين وضيعين. فالإيمان وحده وحب الناس ومواهب المهندسين في سلاح الهندسة الملكي مهيأة لحروب تحت الحصار سوف تقف في وجه مخلِّص كاذب ووزارة خارجية ضعيفة. فإذا كان القدر قد جاء به إلى الخرطوم فالعقل والشرف يقتضيان بأن يبقى هناك. بعد أن تمكن من إجلاء 2140 من الموظفين المصريين مع عائلاتهم اختار غوردون بتاريخ 11 آذار/مارس أن يوقف عملية الإجلاء قليلاً معتقداً بأنه عما قريب سوف يحتاج لجميع من هو قادر على حمل السلاح. ومع أن طريق النجاة شمالاً لا يزال مفتوحاً، ولم يتمكن المتمردون من إحكام سيطرتهم على منطقة النيل الأبيض والطرق الصحراوية إلا أنه لم يبذل أي مجهود للرحيل أو لقيادة من تبقى من السكان نحو الجنوب باتجاه خط الاستواء أو شمالاً نحو مدينة بربر، حيث كان واثقاً بأن بيرنغ سوف يؤمن له الزبير أو مزيداً من القوات البريطانية. وكان لديه إحساس عميق بأن الخروج من المدينة سيكون أشد خطراً من حصار قصير الأمد.

في الثاني والعشرين من آذار/مارس تلقى غوردون أول إشارة دالة على سوء تقديره للأمور. فقد وصل إليه ثلاثة رسل مسلحين من الدراويش حاملين له رسالة وطرداً بريدياً. لقد رفض المهدي عرضه ليكون سلطان كردفان. ورفض هؤلاء الرسل نزع أسلحتهم منتظرين أن يفتح غوردون الرسالة، التي جاء فيها:

"أنا لست محتالاً، ولا أطمع بعرش أو مال أو منصب. أنا عبد لله. أحب التواضع وأمقت الكبر كما أمقت غرور السلاطين وانحرافهم عن طريق الحق ... فالله يقول: 'يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون الله، هم أولياء بعض' ... لهذا عليك أن تتخلى عن كفرك وتلجأ إلى الله ورسوله طمعاً بالحياة الأخرى وعندئذ تراني صديقك وأخاك.

"ولتعلم أن حزب الله قادر على الوصول وعلى إزالة السلطة غير الحق التي بها تدعي سلطانك على عباد الله وأرض الله ... واعلم أنني أنا المهدي المنتظر وخليفة نبي الله. لا حاجة بي لأية سلطنة ولمملكة كردفان ولا لثروة هذه الدنيا ومتاعها ... إن استسلمت واتبعت الدين الحق فسوف تكسب علو المنزلة في هذه الدنيا وفي الآخرة وسوف تنجو بنفسك وبمن معك ... وعندئذ، حين أرى تحسناً وورعاً لديك فسوف تنال عندي مرتبة عليا"[(13)].

بعد أن قرأ غوردون هذه الرسالة ألح عليه الرسل أن يفتح الطرد البريدي. حين رأى ما فيه غضب غضباً شديداً وألقى به في الغرفة. وبعد أن غادروا فتحه حاجبه ووجد بداخله جبة "معطفاً قذراً كثير الرقع لأحد الدراويش"[(14)]. وهكذا رد المهدي هديته. وقطع غوردون جميع اتصالاته به رداً على هذا التصرف - قائلاً "لن يكون لي بعد الآن أي اتصال معك" ـ وأعلن الحرب، حيث أرسل فرقاً عبر اليابسة والنهر[(15)]. لقد قطع الآن صلاته مع المهدي بعد أن قطع أي اتصال بينه وبين القاهرة.

في اليوم الأخير من شهر آذار/مارس كتب إلى بيرنغ يقول: "المدينة بخير وقد اعتادت على أصوات الطلقات النارية. فكن مطمئناً الآن وللشهرين القادمين. فنحن هنا في أمان كما لو كنا بالقاهرة"[(16)].

غير أن انقطاع الاتصال بين الخرطوم والقاهرة أتاح لغوردون أن يتمادى في خطئه وللندن أن تقلل من شأن الأخطار. فالاتصال مع القاهرة الذي كان فورياً سابقاً بات يستغرق الآن نحو أربعة أسابيع وربما أكثر. وعوضاً عن تبادل البرقيات المنتظمة والتي يكثر فيها الإطناب في القول صار غوردون يتصل مع بيرنغ عبر المراسلين الذين كانوا يربطون الرسائل بشعورهم. لكن مصاعب الاتصال هذه عقدت الموقف الذي اختاره لنفسه. رفض غوردون مغادرة الخرطوم لأنه لم يرغب بمغادرتها. وحيث إنه كان رجلاً عسكرياً لم ير سبباً يدعوه للتراجع أمام ثورة "تافهة كاذبة"[(17)]. وحيث إنه كان رجلاً شهماً ونبيلاً لم يشأ أن يتخلى عن سكان الخرطوم الذين لبوا نداءه للوقوف بوجه المهدي، فسقوط المدينة يعني مجزرة ترتكب بحقها. كان صوفياً وشعر بمسؤولية اتباع

نداء الضمير وهمس المجد بصرف النظر عن السياسيين جميعاً.

بتاريخ التاسع من نيسان/أبريل تلقى غوردون كتاب بيرنغ يعلمه فيه أن لندن رفضت إرسال الزبير له. وكانت الخرطوم آنذاك تتعرض لنيران القناصة من نحو "500 من رجال أقوياء العزيمة ونحو 2,000 من العرب ذوي الملابس الرثة[18]".

قتل أحد موظفي قصر غوردن وهو في مكتبه. ولكن الجزء الأكبر من النهر الممتد من النيل الأبيض في حلفايا وحتى مدينة بربر كان مفتوحاً أمام بواخره كما كانت قبائل الشايقية Shaygia على ضفاف النهر لا تزال على عدائها للمهدي، ناهيك عن ارتفاع المنسوب الموسمي للنهر الذي جعل حركة السفن سهلة. وكان غوردون لا يزال قادراً على تنظيم عملية الانسحاب. لكنه بدلاً من ذلك أجاب على كتاب بيرنغ بعصيان صريح وواضح يهاجمه بقوة فهو الحليف الذي تحالف معه لأجل معلوم وكان دوماً يزدريه.

فرد عليه قائلاً: "أجد نفسي مطلق الحرية لأتصرف وفق الظروف. وسأحافظ على مواقفي هنا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، إن استطعت قمع التمرد فسأفعل ذلك. وإن لم أتمكن فسوف أنسحب إلى خط الاستواء تاركاً لك عاراً سيلحق بك إلى الأبد، عار التخلي عن الحاميات في سنار Sennar وكسلا Kassala وبربر Berber ودنقلة Dongola مصحوباً بحتمية أنك لا بد وأن تجبر على تحطيم المهدي وسط مصاعب لا حدود لها إن شئت أن تحتفظ بالسلام في مصر".

لقد كان غوردون يسعى لهذه الحال، ورأى في عودته إلى الخرطوم يداً إلهية. فعلى الجبهة بين المسيحية والإسلام أو بين الإمبراطورية والقفار أعدّ الفصل الأخير من مسرحيته الكونية. سيكون قتالاً حتى الموت، حيث قال: "أنا لا أرى قوة تبقيني قسراً في هذا المكان، أو أن أسير في الشوارع لسنوات قادمة مثل درويش منتعلاً خفاً رثاً، ليس كذلك بمشيئة الله، ولا أن أقع أسيراً وأنا حي. فذلك سيكون قمة النذالة إن ذهبت وتخليت عنهم بعد أن اقترضت

الأموال من الناس هنا، وناشدتهم أن يبيعوا محاصيلهم بأسعار زهيدة ... الخ". لقد كان غوردون سجيناً للشرف والكرامة وليس أسيراً عند المهدي. وقال في رده إلى بيرنغ: "لكنني أشعر أنك مهما أحسست على الصعيد الدبلوماسي فإنك إلى جانبي - وهذا ما يتوقعه المرء من أي رجل يحس بقرارة نفسه أنه رجل بكل ما في الكلمة من معنى"(19).

ثم أرسل رسالة صغيرة يشير فيها أنه قد عين الزبير نائباً للحاكم العام للسودان. وتدخل بيرنغ فأرسل الزبير إلى قبرص حرصاً على سلامته. وأدرك الآن غوردون أنه لا يتوقع أي عون من أحد، وأعد نفسه لحصار طويل الأمد. كانت المؤن لديه لا بأس بها لكن الأموال تنضب، فأمر بطباعة عملة مؤقتة. وقضى معظم شهر نيسان/أبريل وهو يوقع على الأوراق النقدية أو ينظم دفاعاته ويرد على نيران قناصة المهدي بين وقت وآخر من سطح القصر، وكاد يفقد إحدى عينيه عندما ارتدت عليه خرطوشة قذيفة.

تقع الخرطوم في شبه جزيرة مثلثة الشكل يشكل النيل الأبيض والنيل الأزرق ضلعي المثلث، أما قاعدته فكانت خندقاً بعمق ثمانية أقدام واستحكامات حفرها حلمي باشا تمتد لأربعة أميال بين النهرين. وخارج تلك الحدود يوجد موقعان حصينان متقدمان، أم درمان على الضفة الغربية للنيل الأبيض، والحصن الشمالي North Fort على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، يتصل هذان الحصنان بقصر غوردون عبر خطوط البرق. وأدرك غوردون أن هذه الحصون الترابية التي بناها حلمي باشا على امتداد 15 ميلاً ولا يحميها أكثر من 9,000 جندي نظامي وغير نظامي هي النقطة الأضعف. فدعم الخندق والاستحكامات بقوة متقدمة، بحيث وضع بعد أول 100 ياردة من الأرض المكشوفة، دشماً من الحديد ثلاثية الرؤوس تعوق تقدم المهاجمين، وعلى مسافة 500 ياردة فيما بعد نثر الزجاج المكسور - قائلاً، "أنتم تعرفون أن رجال المهدي يسيرون حفاة" - ثم وضع ألغاماً بين هذه المعوقات من صنع منزلي تتكون من "علب البسكوت المعدنية التي ملأها بمسحوق البارود والمسامير والرصاص". وعندما نفد ما لديه من صواعق كهربائية، صنع صواعق من أعواد الثقاب. وفي هذا يقول فرانك باور:

"سوف يسمع السادة المتمردون أخباراً سيئة على مدى ربع ساعة"[20].

وبينما كان غوردون يهيئ دفاعاته انخفض مستوى النيل فأدرك المهدي أنه صار وحيداً. فالطرق المؤدية إلى نجاة غوردون كانت جميعاً مغلقة. في أواخر شهر نيسان/أبريل استسلمت للمهدي قبائل الشايقية في وادي النيل. وفي الثامن عشر من أيار/مايو استولى على مدينة بربر المفتاح لشمال السودان، بعد أن استولى على باخرتين و60,000 جنيه نقداً وأوسمة غوردون التي أرسلها شمالاً من أجل الحفظ والصون. كان غوردون ومنذ منتصف آذار/مارس يقول إنه محاصر ولا يستطيع النجاة، وها قد تحققت نبوءته الآن.

حين وقف غلادستون في مجلس العموم يتحدث عنه قال وسط هتافات من أنصاره في مقاعد المؤيدين: "إن الجنرال غوردون ليس مقيداً بأية قيود وليس لديه أوامر بالبقاء في السودان". وأضاف قائلاً إنه لا يعلم ما إذا كان غوردون "لا يستطيع مغادرة السودان في هذه اللحظة إذا أراد ذلك"[21].

وكان قوله هذا صحيحاً بحدود ما يعرفه غلادستون، ولكن حيث إنه لا توجد اتصالات مع الخرطوم منذ منتصف آذار/مارس فهو لم يعرف إن كان وضع غوردون قد تغير. فبعد أن قطعت خطوط البرق في 12 آذار/مارس لم تصل كلمة واحدة من غوردون إلى القاهرة منذ ثلاثة أشهر. وفي تلك الأثناء واجه غلادستون ضغطاً شعبياً متزايداً، كما واجه معارضة استخدمت قضية غوردون لتوجيه النقد لسياسة غلادستون في إيرلندا ولمخططاته للإصلاح الداخلي. لكن هذا الأخير استثمر الصمت في الخرطوم ليتحدث عن رسائل غوردون الأخيرة التي اتسمت باللامبالاة ليقول بإصرار إن الحكومة ليست بحاجة لسياسة جديدة في السودان. وهذا ما خدم مصالحه الآنية، سيما وأن حزب المحافظين (التوري Tory) وصحيفة التايمز كانتا في نظره أشد خطراً من غوردون والخرطوم، كما أنها تتوافق مع مبادئه المناهضة للاستعمار.

ففي حديث خاص لوزيره إدي هاملتون Eddy Hamilton في مطلع شهر

نيسان/أبريل أقر غلادستون قائلاً: "رأيت منذ البداية أن انتفاضة السودانيين في مصر ثورة مشرفة ولها ما يسوغها". فهذا الشخص الليبرالي المؤمن بخلاص جميع البشر في نهاية المطاف لم يفهم كيف أن "شخصاً يحمل في يده صك التحرير يمكن أن يحاصر وأن يتعرض للتهديد"[22]. وحيث إن مُثُله كانت عرضة للأخطار فقد ظل جاهلاً بمصير غوردون.

غير أن كلاً من بيرنغ وهارتنغتون وولسلي أشاروا عليه بأنه إن لم يكن غوردون قد حوصر فعلاً فهو عما قريب سيكون كذلك. وأصدر جيوزيب كوزي Giuseppe Cuzzi مندوب بيرنغ في مدينة بربر سلسلة من التحذيرات المؤلمة، قائلاً: "الوضع في الخرطوم حرج جداً ... الوضع حرج لا تتأخروا ... يبدو أن الخرطوم محاصرة ومنقطعة عن العالم ... الجميع خائفون على حياة غوردون وستيوارت والأوروبيين"[23].

في رسالة بعث بها إلى غرانفيل يوصي باتخاذ إجراء سريع وفوري قال بيرنغ: "المسألة الآن هي كيف ننقذ غوردون والعقيد ستيوارت ونخرجهما من الخرطوم"[24]. مضيفاً أن على الحكومة أن تتجاهل جماعة الضغط الخاصة بحقوق الإنسان وأن تستخدم الزبير رحمت، وعليها أيضاً مد سكة حديد بطول 200 ميل وخطوط برق بين سواكن وبربر وأن ترسل بواخر مسلحة من بربر إلى الخرطوم.

وأعاد بيرنغ تذكيره إلى غرانفيل بأن "حكومة صاحبة الجلالة قد أرسلت هؤلاء الضباط بمهام تعد الأكثر صعوبة والأشد خطراً. وأن هذه الحكومة قد رفضت سابقاً اقتراحاً بإرسال الزبير باشا إلى الخرطوم، والذي لو أرسل في حينه وتم اعتماد هذا الاقتراح منذ بضعة أسابيع لكان من شأنه، وبكل تأكيد، أن يغير الوضع تغييراً شاملاً، وأن النتائج التي كانوا يتوقعونها قد حصلت مؤخراً. لا أحد يأسف أكثر مني لضرورة إرسال قوات بريطانية أو هندية إلى السودان، ولكن بعد أن أرسل الجنرال غوردون إلى الخرطوم يبدو لي أننا ملزمون بواجباتنا بألا نتخلى عنه لأسباب إنسانية وسياسية"[25].

أجاب غرانفيل على رسالة بيرنغ قائلاً: "لقد أطلقت قذيفة مدفعية ثقيلة حين أرسلت احتجاجك الأخير". وذلك قبل أن يرفض كل توصية رفعها له. فقد خامرت غلادستون وغرانفيل معاً شكوك بأن خط حديد يمتد من سواكن إلى بربر قد يصبح قريباً رأس جسر يؤدي إلى ضم الإمبراطورية الإفريقية عند أنصار التوسع في وزارة الحربية. ثم، ألم يقم هنري شقيق غوردون بالتأكيد لوزارة الخارجية بأنه قد سبق لتشارلي أن "أنقذ نفسه من مواقف أشد خطراً من المخاطر الراهنة؟"

وأخذ غرانفيل يخطط لمعجزة من المماطلة والتسويف. وحيث إنه لا يوجد أية نية لاتخاذ إجراء ما بسبب غياب المعلومات الدقيقة ينبغي على الحكومة أن تضع استبياناً وترسله إلى غوردون بحيث يتضمن فيما يتضمنه أسئلة حول "حقيقة أحواله" و"خططه للمضي قدماً" و"رغباته بخصوص هذا الوضع الحالي"[26]. ومضى أسبوعان وما زال غلادستون يعمل على هذا الاستبيان. ولم يوجد مراسل واحد مستعد للمجازفة والذهاب في هذه الرحلة إلى الخرطوم. وذلك إلى أن جاء يوم الثامن عشر من أيار/مايو. ولم يصل هذا الاستبيان إلى غوردون لغاية 29 تموز/يوليو. وحيث إن غلادستون وغرانفيل كانا معتادين على عالم الاتصالات البرقية والقاطرات البخارية فقد نسيا أمر انقطاع الاتصال مع غوردون. وكان من شأن هذا الخطأ أن عزز رغبتهما بعدم إرسال قوات إلى مدينة بربر ومد السكك الحديدية في إفريقيا أو حتى التنازل عن المناداة بالشعارات لصالح المعارضة.

في هذه الأثناء بعث هارتنغتون برسالة إلى غرانفيل يقول فيها: "إن غوردون أحد ضباطنا فهل يجوز لنا أن نقف مكتوفي الأيدي ولا نفعل شيئاً؟"[27] وحيث إنه هو وزير الحربية وزعيم الأرستقراطيين في حزب الأحرار (الويغز Whigs) فقد كان بمقدوره أن يفعل شيئاً يجبر غلادستون على تقديم العون. لكن صمت غوردون كان بنظر هارتنغتون نذيراً بأزمة وشيكة. وقد نبهه اللورد ولسلي بأن تحضير حملة إلى الخرطوم لن تصلها قبل ثلاثة أشهر. ورغم ذلك كان هارتنغتون يلح على وجوب إنقاذ غوردون.

فقد قال في مذكرته إلى غرانفيل: "أعتقد أنه من الواضح الآن أنه يتوقع عوناً بشكل أو بآخر سواء كان له الحق في ذلك أم لا. فالشيء الأول الذي ينبغي علينا فعله هو أن نقرر ما إذا كنا سنترك غوردون يواجه مصيره أم لا، لأننا إن لم نتركه لمصيره فالأفضل أن نقوم بتحضيراتنا عاجلاً".

وقدم هارتنغتون خطة وضعها ولسلي ومستشاره الأمني السير تشارلز ولسون تقضي بإرسال بعض القوات إلى الخرطوم عبر سواكن وبربر. وأشار عليه أيضاً بأن على بريطانيا بعد أن تنقذ غوردون أن تحتفظ بنفوذ لها في السودان من خلال "حكومة مستقلة تكون بحمايتنا"[28].

لكن غلادستون رأى في هذه الخطة مؤامرة للضم وليس برنامجاً للإنقاذ. فأجاب على ذلك بقوله إن إرسال الحملة يجب أن يكون فقط في حال "الضرورة الأخيرة والمحزنة". ثم ركز في جوابه على توضيح أن هذه الضرورة لم تأت بعد. ولم يصرّ هارتنغتون على موقفه خشية أن يكون سبباً في حصول شقاق داخل مجلس الوزراء. وهذا ما أتاح لغلادستون أن يواصل لعبته لكسب الوقت. بتاريخ 21 نيسان/أبريل أوضح لمجلس العموم أن توصيف غوردون للخرطوم "كما ورد" لا يعني أن المدينة "محاصرة" بل إن "وجود جماعات من القوات المعادية" في محيط هذه المدينة يشكل "تقريباً سلسلة حولها". وبعد يومين قال إذا كانت مدينة بربر ستسقط في أيدي القبائل حولها فلن يصبح وضع الجنرال غوردون عندئذ وضعاً خطيراً[29].

لم يكن هارتنغتون هو الذي أجبر غلادستون على الدفاع عن موقفه، بل المعارضة. في الأول من أيار/مايو نشرت الحكومة مراسلات غوردون مع تحذيراته بـ "عار لا يمحى ولا يزول" وكذلك نقده لعدم تصرف غلادستون. وبدعم من المنادين بالتدخل من الليبراليين والراديكاليين طالب المحافظون بإجراء اقتراع على لوم الحكومة، مشعلين بذلك نقاشاً كان كل من غلادستون وغرانفيل يريدان اجتنابه.

وشاهد ولفريد بلانت من مقعده ـ في منصة الحضور التي تعلو النواب

الذين كانوا في حالة هياج واضطراب ـ غلادستون وهو يحاول التملص من تهمة العجز وعدم الكفاءة "مثل رجل يفعل ذلك في ناد للنقاش وليس كرجل دولة استدعي للدفاع عن تهمة مشينة"[30].

وأخذ غلادستون يدافع عن برنامج الأحرار. ماذا يعني إرسال جيش إلى السودان؟ "إنه يعني حرب احتلال ضد شعب يناضل بحق في سبيل حريته".

وتعالت الأصوات من مقاعد المعارضة صارخة "كلا! كلا!".

ورد غلادستون قائلاً: "أجل، هؤلاء شعب يناضل ليكون حراً وهو شعب يناضل من أجل حقه ليكون حراً!"

وصاح السير مايكل هيكس Sir Michael Hicks من حزب المحافظين موجهاً إصبع الاتهام إلى غلادستون: "سوف تتسبب بعار يصم الجبين إلى الأبد!"

فقال غلادستون صارخاً: "ماذا يعني بتوجيه إصبعه إلي؟ ماذا يعني بإشارته هذه؟ أيريد أن يلحق بي الخزي في نظر بلادي؟" هذا وكان غوردون قد انتقد التخلي عن أربع حاميات، فماذا عن الست الأخريات في الأماكن النائية من السودان؟ هل يريد المحافظون إرسال حملات إغاثة لها جميعاً؟ أم هل لديهم سياسة بديلة؟

وتابع غلادستون هجومه قائلاً: "ما هو جواب السيد المحترم؟" مشيراً بإصبعه إلى مقاعد المعارضة، "أعتقد أنه ليس لديه جواب ـ أو ربما هو لا يريد أن يعطيني جواباً ... فالسيد المحترم أبكم!"

وصعّد غلادستون هجومه متوجهاً إلى الجانب الأخلاقي معترفاً بأنه قد أبرم "ميثاقاً غليظاً مع الجنرال غوردون".

لكنه أقر قائلاً: "لعل واجبنا يقضي بوضع قوة بريطانية في ذلك البلد البغيض". وإذا تلقى "تأكيدات معقولة" بأن غوردون في خطر فسوف "يستخدم الموارد في هذا البلد" لحمايته. ولكن يتعين على البرلمان أن يأخذ

بنظر الاعتبار "كنوز هذه الأمة ودماء هذه الأمة وشرف هذه الأمة" قبل أن يرسل "أسلحة بريطانية ومسيحية ضد شعب مسلم يكافح من أجل حريته في السودان".

كان ذلك أداءً بارعاً يدل على ثقة أكيدة بالنفس، ولكن عندما أصر العضو الليبرالي و.إ.فورستر W.E.Forester على أن غوردون فعلاً في خطر تبين أن غلادستون لا يملك أي مخرج.

فقد قال: "أعتقد أن الجميع عدا رئيس الوزراء مقتنعون بذلك الخطر. أنا لا أدعي أنه هو نفسه على علم بهذا الخطر. وأظن تصرفه سيكون مختلفاً لو أنه اقتنع بذلك. وإنني أعزو أسباب عدم اقتناعه إلى قوته الرائعة في الإقناع. هو يستطيع أن يقنع الجميع بمعظم الأشياء، وأهم من ذلك أن يستطيع أن يقنع نفسه بأي شيء".

وهنا تدخل هارتنغتون لإنقاذ غلادستون، حيث تعهد بأن الحكومة، إذا كان لديها الدليل الكافي، "لن تضن بأي تضحية في سبيل إنقاذ حياة وشرف الجنرال غوردون". واستطاع هذا الوزير أن يهدئ من غضب الأحرار الليبراليين المنشقين ويقنعهم بالامتناع عن التصويت بلوم الحكومة(31).

وكسبت الحكومة هذه الجولة بفارق 28 صوتاً. وأرسلت أسئلة الاستبيان إلى القاهرة، وأصدر كل من غرانفيل وهارتنغتون أوامرهما إلى غوردون بالانسحاب: وعليه أن يجتنب "العمليات العدائية" وأن يتخذ "الإجراءات للنجاة بنفسه". وبهدف تهيئة الأرضية اللازمة لنجاة غوردون أو من أجل مجيء منقذيه أصدرا أمرهما بإرسال ضابط استخبارات بريطاني للتفاوض مع القبائل المتواجدة على طريق سواكن ـ بربر.

وفي اليوم التالي سقطت مدينة بربر بيد المهدي وجيوزيب كوزي Giuseppe Cuzzi سيما وأن تحذيراته قد تم تجاهلها فاختار اعتناق الإسلام على الموت.

واستغرق الاستبيان المرسل من لندن ثلاثة شهور ليصل إلى الخرطوم.

بتاريخ 13 تموز/يوليو بعث غوردون إلى بيرنغ برقية يقول فيها: "نحن جميعاً بخير ونستطيع الصمود لأربعة أشهر"[32].

في كل يوم جمعة ومساء السبت وطوال أشهر الصيف الحارة عام 1884 كانت الفرقة الموسيقية في الحامية تعزف ألحانها الشجية مرحة خارج القصر. وكان غوردون يعمل على تدريب فرق من القوات غير النظامية من المواطنين أو يتحرى عن مؤن من الحبوب مخبأة أو يتفقد الحراس ليلاً ونهاراً أو يرسل رقع الشطرنج وطاولات النرد إلى الجرحى في المستشفى ويدخن دون انقطاع، هذا إن لم يكن يشرف على المناوشات اليومية مع القناصين من أنصار المهدي. وكان يفعل كل ما يستطيع لإقناع سكان الخرطوم بعدم التخلي عنه. وعندما بدأ شهر رمضان في أواخر حزيران/يونيو أقنع رجال الدين في الخرطوم ليقولوا للناس بأنهم أحرار من الالتزام بالصوم لكون المدينة في حرب. وأمر معمل سبك المعادن في المدينة الذي ينتج حالياً نحو 40,000 قذيفة من ذخيرة رمنغتون Remington بأن تسك ميدالية تكون رمزاً لحصار الخرطوم ووزعها بكثرة على المدافعين عن المدينة. وبعث برسائل إلى السلطان العثماني والخديوي والبابا طالباً منهم إرسال أموال لإرسال قوة تركية تتولى السلطة في السودان. وأرسل رسائل أيضاً إلى أنصار المهدي المحليين مرفقة بهدايا من الصابون ولكن دون جدوى. لكن ما هو أهم من ذلك كله أنه كان دوماً يطمئن الناس بأن القوات في طريقها إليهم.

وكانت الحالة تزداد سوءاً أسبوعاً بعد أسبوع. وتزايدت القواعد المؤيدة للمهدي في البلاد جميعاً وحول الخرطوم مشكلة سلسلة مترابطة لمعسكرات وخنادق تمنع غوردون من إرسال فصائل تبحث عن علف وغذاء. وعمل أنصار المهدي على استقدام مدفعية مصرية كانوا قد غنموها وتحولت نيران القناصة إلى وابل من القذائف. أصيب العقيد ستيوارت بجراح بينما كان يطلق قذيفة من مدفع Krupps فوق سطح القصر. وبعد قيامه بسلسلة من الهجمات الناجحة على طول النيل الأزرق، وقع قائد من أقوى قادة غوردون هو محمد علي بيك في

كمين داخل إحدى الغابات وقتل هو وجميع من معه. وفي غزوة أخرى قام بها غوردون كادت مدفعية الأنصار أن تغرق إحدى البواخر. وتم إغلاق آخر طريق للنجاة إلى الجنوب من البحيرات. وواصل غوردون إرسال رسائله المتفائلة، ولكن ابتداءً من أواخر شهر تموز/يوليو لم يعد بمقدوره جمع المزيد من الطعام من خارج الخرطوم أو تأخير تضييق الحصار. وبينما كان يوزع الذرة والبسكويت ازدادت أعمال سرقة الحبوب وتخزينها ما تسبب في شح الأموال والحبوب وارتفعت معدلات التضخم حتى وصلت إلى 3,000 بالمئة.

في التاسع والعشرين من تموز/يوليو تمكن مراسل وحيد من التسلل عبر الخطوط حاملاً معه رسالة الاستبيان من غلادستون. قرأها غوردون غير مصدق وأدرك طلب غلادستون بأن يبين "نواياه"، فأجاب بازدراء "أؤكد أنني باق في الخرطوم لأن العرب أغلقوا الطرق علينا ولن يدعونا نخرج ... أخشى أن الوقت قد فات. يجب علينا أن نقاتل بكل ما لدينا من وسائل، وبعون من الله سوف ننجح، وإن لم تكن ذلك إرادته فلتكن مشيئته"[33].

وعرض غوردون هذه الرسائل على ستيوارت وباور. فقال هذا الأخير "انتهى الآن كل أمل لنا بالعون من حكومتنا. ولذلك سوف نسقط عندما نستهلك جميع مؤونتنا (التي لدينا لمدة شهرين). وليس لدينا أي فرصة تمكننا من الخروج من هنا لنشق طريقنا بين العرب بما لدينا من جنود وحشود ضخمة من النساء والأطفال ... إلخ"[34].

حين انتهى شهر رمضان في أواخر تموز/يوليو حرك المهدي الجزء الرئيسي من أنصاره باتجاه الخرطوم. وقبل أن يغادر أنصاره مدينة الأُبيض أحرقوا أكواخهم وفاءً لتعهدهم أمام المهدي بأن موطنهم التالي سيكون الخرطوم أو الجنة. ولم يحمل جنوده البالغ عددهم 60,000 محارب مع عائلاتهم أية مؤن، عازمين على تزويد أنفسهم بالطعام والماء من القرى الواقعة في طريقهم، قبل أن يدمروا الريف بكامله. فالله سوف يتكفل بهم كما وعدهم المهدي. أما الصحفي الفرنسي أوليفييه بين Olivier Pain الذي اعتنق الإسلام لينضم إلى المهدي فقد أصيب بالحمى على الطريق، فتركه المهدي ليلقى حتفه على قارعة الطريق. حين

وصلوا إلى نهر النيل عند قرية الدويم تجمهر رجال قبيلة البقارة مشدوهين على ضفاف أول نهر كبير يرونه في حياتهم. وحين لاحت على النهر سفينتان من سفن غوردون في مهمة استطلاعية قفز بعض رجال القبيلة إلى الماء في محاولة منهم لإيقافهما بأيديهم، وسرعان ما جرفتهم محركاتها.

أدرك غوردون المأزق الذي هو فيه فقرر أن يرسل ستيوارت وباور والقنصل الفرنسي هيربن Herbin عبر النيل بالباخرة "العباس" ومعهم الأوامر بأن يشقوا طريقهم بقوة ويجتازوا مدينة بربر ويبعثوا بتقاريرهم حول الوضع في الخرطوم عبر محطة البرق الكائنة في دنقلة. وفي التاسع من أيلول/سبتمبر وقف يودع ستيوارت وباور ويشاهد باخرة العباس ترافقها سفينتا "المنصورة" و"صفية" تبحر عبر النيل الأبيض يحرسها قاربان محملان برجال يونانيين مدججين بالسلاح. كانا يحملان رسالة إلى بيرنغ وأوراق غوردون ومفاتيح الشيفرة، فإما أن يكون غوردون قد قرر إرسال بعض الرسائل الأخرى أو استسلم الآن لواقع أن الخرطوم ستسقط.

سأل بيرنغ وهو يشعر بمرارة: "كم مرة كتبنا إليك طالبين تعزيزات. بينما أنت تأكل وتشرب وتنام في فراش وثير نحن وكل من معنا من جنود وخدم نكافح ونناضل للقضاء على حركة هذا المهدي الكذاب ... لقد أهملتنا وأضعت الوقت دون أن تفعل ما هو صواب ... أرسل القوات التي طلبناها دون تأخير"[35].

ووسط أزيز نيران البنادق من ضفاف النهر انطلق أسطول ستيوارت الصغير مسرعاً وبأمان مجتازاً مدينة بربر التي كانت في أيدي أنصار المهدي، وعندما وصلوا إلى الشلال الخامس أحس ستيوارت بالأمان وأمر مرافقيه بالعودة إلى الخرطوم. غير أن النيل الأبيض عند قرية أبو حمد ينشطر إلى قنالين فاختار ستيوارت القنال الخطأ. فانجرفت سفينة "العباس" نحو اليابسة بسبب ضحالة المياه. وبسبب عدم وجود أي نجدة عند هذا النهر المهجور تسلق كل من ستيوارت وباور والقنصل الفرنسي هيربن في زورق تجديف وأوشكا على المضي قدماً، وفجأة لاح على ضفة النهر رجل يرتدي بزة تدل على انه من

رجال الحكومة وطربوشاً عارضاً عليهم أن ينقلهم على الجمال عبر البر. وصحبوه إلى منزله وبينما كانوا جميعاً هناك هاجمهم جماعة من الأنصار وقتلوهم.

بتاريخ 21 تشرين الأول/أكتوبر المصادف لعيد رأس السنة الهجرية وصل المهدي إلى معسكر الأنصار قرب أم درمان. وكان بانتظاره مفاتيح شيفرة غوردون وأوراقه الخاصة. ومنها علم المهدي كل شيء. علم أن الحكومة البريطانية على استعداد للتخلي عن السودان، وأن غوردون تصرف بخلاف أوامره وأن البريطانيين قد تخلوا عنه وأنه وقع في فخ في الخرطوم مع جنوده الذين لا يمكن الاعتماد عليهم ومخزون من الحبوب آخذ بالتناقص.

وقال المهدي في نفسه يداعبه شعور بالسرور والإعجاب بنفسه: "نحن لم نفقد شيئاً من أخبارك، ولا حتى ما الذي يجول في أعماق نفسك. لقد فهمنا الآن كل شيئ"[36].

في حديث بينه وبين السير صمويل بيكر تنبأ غارنت ولسلي قائلاً: "مسكين غوردون، سوف تنفد ذخيرته سريعاً، وسوف يُقطع رأسه أو سيأسره المهدي. ولا أريد أن أشارك في مسؤولية ترك تشارلي غوردون لمصيره"[37].

كان ولسلي يذكر غوردون كل ليلة في صلواته. وظل طوال الصيف يلح على اللورد هارتنغتون أن يوجه إنذاراً إلى غلادستون وأن يعينه قائداً لحملة إغاثة. وقال منبهاً: "إن خبرتي العسكرية تنبئني بأنه في جميع هذه الأمور يكون أسوأ السبل حين يعمد المرء للتهرب من السؤال أو أن يتخيل أنه تخلص منه حين يغمض عينيه ويحاول تجاهله أو نسيانه"[38].

في الشهور الثلاثة التي أعقبت ذلك التصويت على لوم الحكومة حول غلادستون وجّه اهتمام وزرائه نحو مقترحات تتعلق بالأموال المصرية وأرجأ اتخاذ أي قرار مستنداً في ذلك إلى نقص في المعلومات، وأصر على أن غوردون لا يريد أي عون أو أنه لا يستحق العون. لكن اللورد هارتنغتون كان يعتقد أن

غوردون في خطر ويعلم جيداً أن أية حملة للإغاثة سوف تستغرق ما لا يقل عن ثلاثة شهور لتصل الخرطوم، وأنه من منطلق كونه وزيراً للحربية فهو مسؤول عن إرسال غوردون. لكنه لم يجرؤ على مواجهة غلادستون وحيداً. وفي أواخر شهر تموز/يوليو عام 1884 وجد بعض زملائه الوزراء مستعدين للمشاركة في تحمل المسؤولية، وعندما سنحت له الفرصة سمح له غلادستون بـ "خمس دقائق في البقية الباقية" من جلسة مجلس الوزراء.

فقال هارتنغتون لغرانفيل قبل أن يعطي غلادستون مهلة أسبوعين آخرين: "لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية سياسة عسكرية في مثل هذه الظروف"[39].

وفي اليوم الأخير من شهر تموز/يوليو وقبل أن تبدأ عطلة الصيف هدد هارتنغتون بالاستقالة إن لم تبدأ الحكومة بالتحضير لحملة قائلاً: "إنها مسألة كرامة المرء وحسن نواياه ولا أرى كيف يمكنني أن أستسلم لذلك"[40].

طلب غلادستون من هارتنغتون أن يتحلى بالصبر. فالحكومة تواجه حالياً "أزمة محلية من الدرجة الأولى" في موضوع قانون الإصلاح الذي تقدمت به و"أزمة خارجية من الدرجة الأولى" في مفاوضاتها مع فرنسا بخصوص إعادة هيكلة الديون المصرية. ألا يستطيع الوزراء أن يفعلوا "شيئاً لتسريع أزمة غوردون"، أو على الأقل حتى الأسبوع القادم حين ينتهي مؤتمر التمويل المصري؟[41] كان غلادستون يخطط لأزماته مسبقاً.

وتولى غرانفيل مدير حلبة الصراع في مجلس الوزراء التفاوض للوصول إلى حل وسط. وما هي إلا أيام قليلة قبل بدء عطلة الصيف حتى وافقت الحكومة على تخصيص 300,000 جنيه من أجل "حملة إغاثة غوردون". وبعد أن تأكد بأنه أرضى هارتنغتون حزم غلادستون أمتعته وما سيقرأ في الصيف ووضع غرانفيل خطته لقضاء الصيف على شاطئ البحر للتخفيف من حدة داء المفاصل.

إذن حصل هارتنغتون على ما يريد من أموال لكنه لم يستطع إرسال الحملة إلى مصر لأن غلادستون قد اشترط بأن أي قرار بهذا الشأن يجب أن

يعرض على التصويت في مجلس الوزراء وذلك لكي يطمئن الوزراء "بأنهم لن يصبحوا دون أن يدروا عبيداً لأفكار غوردون التمردية (ربما)"[42]. وحيث إن الوزراء جميعاً يقضون إجازاتهم في الريف أو على الريفييرا، لن يكون ثمة أي تصويت قبل الخريف.

ومرة أخرى أعرب هارتنغتون عن تذمره ويأسه وهدد بالاستقالة، قائلاً: "لقد يئست من محاولة تبرئة نفسي من المسؤولية التي ألقاها على عاتقي زملائي والبرلمان"[43]. وأخيراً وافق غلادستون واعداً باقتطاع بضع مئات من قوة ولسلي.

وفي التاسع من أيلول/سبتمبر حين غادر ستيوارت وباور الخرطوم على متن الباخرة "العباس" وصلت سفينة صاحبة الجلالة آيريس *Iris* إلى ميناء الإسكندرية حاملة على ظهرها اللورد غارنت ولسلي ومعه سبعة آلاف جندي. وكان بانتظاره في الميناء "الحشد المعتاد"، وكتب ولسلي في مذكراته: كان الجنرال ستيفنسون "عجوزاً حقاً" والخديوي توفيق "بمحبته ووده المعهودين"، ونوبار باشا "التركي بكل ما في الكلمة من معنى في ملامحه وماكراً كالثعلب"[44].

بعد وصول العون من لندن، أضاع ولسلي والإداريون المصريون ثلاثة أسابيع ثمينة وهم يتجادلون حول أي طريق ينبغي اتخاذها إلى الخرطوم. في البداية رفض ولسلي فكرة الطريق البري من سواكن إلى بربر وأصر على الوصول إلى بربر عبر النيل الأبيض فيستطيع استخدام فصيل من قدامى المحاربين الكنديين Voyageurs الذين شاركوه في حملته المجيدة بالنهر الأحمر. لكنه أصر فيما بعد قائلاً، مع أن فرقة متقدمة من الفرسان قد أرسلت إلى وادي حلفا وهي جاهزة للانطلاق إلى دنقلة ومع أن الزوارق المحلية قد تجمعت في دنقلة من أجل الرحلة النهرية إلا أن النيل سيكون عما قريب ضحلاً لا يمكن للزوارق المحلية أن تبحر عبره. إذن لا يمكن التحرك قدماً حتى تصل الفرقة الكندية وتصل الزوارق الأربعمئة المجهزة خصيصاً بقعر مستوٍ مع القسم الأكبر من القوة المرافقة له.

ولم يبدأ الكنديون بالوصول حتى شهر تشرين الأول/أكتوبر. وتبين أنهم لم يكونوا القوة العنيدة التي يعرفها بل هم من المرتزقة والمغامرين. وفي هذا الوقت بدأ منسوب النيل ينخفض جاعلاً الملاحة عبر الشلالات عسيرة جداً. وفي تلك الأثناء أخفق رئيس أركان ولسلي السير ردفرز بولر Sir Redvers Buller في تهيئة الفحم اللازم لبواخر توماس كوك التي ستنقل هذه الحملة إلى وادي حلفا. ولم يستطع ولسلي الوصول إلى وادي حلفا حتى تاريخ 30 أيلول/سبتمبر. وفي اليوم نفسه دخلت قوته المتقدمة بقيادة السير هربرت ستيوارت إلى مدينة دنقلة. وبدلاً من المضي سريعاً واصل ولسلي التحرك البطيء على النيل تؤخره أحياناً أخطاء لوجستية وأحياناً الأداء المخيب للآمال من أفراد قوته الكندية الذين كانوا بحاجة للآلاف من السكان الأصليين لنقلهم عبر الشلالات. وأخيراً وفي الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر وصل ولسلي إلى دنقلة وانتظر لمدة ثلاثة أسابيع أخرى وصول رجاله الكنديين عبر النهر متعثرين بما يحملونه من مؤن وتعزيزات. وقال في رسالته إلى الليدي لويزا: "المتاعب من هذا النوع هي التي تجعل الرجال يشيبون قبل الأوان"[45].

ولكن إن وضعنا جانباً الغرور والابتعاد عن الإتقان في العمل يمكن القول إن العامل الأكثر أهمية لبطء تقدم ولسلي كان تلك الصورة غير الدقيقة التي كانت لديه حول الوضع في الخرطوم. وكان في معظم ذلك مستمداً من رسائل غوردون الذي بسبب جهله للغة العربية وإحاطته بأشخاص لا يعرفون العربية التقط القليل من المعلومات من الأشخاص الفارين المنشقين عن المهدي. فاختار المادة الأكثر جاذبية وأرسلها عبر النهر إلى العقيد هربرت كتشنر في مدينة الدّبة Ed-Debba النقطة الأخيرة لخط البرق. كان كتشنر شديد الإعجاب بغوردون وولسلي. فكانت برقياته التي يرسلها من الدّبة إلى مقر ولسلي صورة طبق الأصل تحاكي رباطة جأش غوردون بينما كانت رسائله إلى الخرطوم من الدّبة تبالغ في وصف تقدم ولسلي.

بما أن غوردون كان قد أرسل مفاتيح شيفرته مع ستيوارت وباور لم يكن له من سبيل لقراءة تحذيرات ولسلي القائلة إن حملة الإغاثة وخلافاً لما جاء في

رسائل كتشنر قد تأخرت عن موعدها. وهكذا تشوه الحس الاستراتيجي عند غوردون ووقعت الأخطاء. مع حلول نهاية تشرين الأول/أكتوبر وردته تقارير خاطئة من الفارين أقنعته أن طلائع قوات بريطانية شوهدت إلى الجنوب من الدّبة وأن شمال السودان اجتاحته قوات المهدي. فأخذ يرسل رسائل متكررة إلى ولسلي يحذره فيها من وضع قواته في خط منتظم أثناء تقدمه نحو مدينة بربر في حال هجوم من المهدي على رتله، ذلك أنه يعرض للخطر أرواح مراسليه. وفي هذا يقول ولسلي "إن غوردون يمطرنا بوابل من البرقيات دون إعطائنا أية معلومات استخبارية كافية"[46].

وأحصى غوردون ما لديه من مؤن، وقال: "إن لم يأتوا إلينا قبل 30 تشرين الثاني/نوفمبر فاللعبة انتهت، واحكمي يا بريطانيا!" توقع غوردون أن يصل ولسلي إليه بناءً على ما قاله كتشنر في الخامس عشر من الشهر، أي قبل أسبوعين فقط من نفاد المؤن في الخرطوم. ومع ذلك وحيث إنه لم يشاهد أية قوات بعث ببرقية إلى ولسلي بعد أن جدد قدرته على مقاومة الحصار حتى منتصف كانون الأول/ديسمبر، يقول فيها: "نستطيع الصمود لأربعين يوماً فقط، وبعدئذ سيكون ذلك مستحيلاً"[47].

ولا زال غوردون على اعتقاده بأن قوات المهدي سوف تنهار لمجرد رؤية القوات البريطانية، فطلب إلى ولسلي أن يرسل فرقة طليعية من الموقع المتقدم للحملة في أم بكول Um Bakul إلى المتمّة حيث تلتقي بسفن غوردون ثم يجري نقلها إلى الخرطوم. وصلت هذه الرسالة إلى ولسلي بمدينة دنقلة في الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر. وحيث إن التأخيرات قد أخذت تتراكم وتتضاعف بدأ ولسلي بالاعتقاد بأنه قد يلتقي غوردون و"يشد على يديه" نحو الحادي والثلاثين من كانون الثاني/يناير[48]. لقد كان سباقاً ضد الزمن.

يقول غوردون في مذكراته: "يتقلّب المرء في فراشه وأول ما يفتح عينيه من نوم مزعج عند الثالثة صباحاً ويسمع قرع طبل ـ طب، طب، طب! يشعر وكأن

ذلك حلم. وبعد لحظات يستيقظ، ويكتشف في أعماق نفسه أنه في الخرطوم. تشرق الآمال في ذهنه ثم تختفي، كلا! تستمر وتزداد شدتها. وعلى حين غرة تخطر له فكرة: 'هل لديهم ما يكفي من ذخائر؟' "(49)

كانت الخرطوم آنذاك تحت نيران متواصلة، هي طائشة لكنها في الوقت عينه توقع في النفس الوهن والضعف. كان غوردون يخشى ثورة في المدينة أكثر من خشيته من هجوم يأتيه من الخارج. ولكي يرفع المعنويات كان يقف أثناء النهار على سطح القصر أو يذرعه جيئة وذهاباً والمنظار في يده. وفي الليل كان يجلس قرب نافذة القصر والمصباح يضيء من خلفه فيعطي صورة ظله. كان يعد من حوله بأن رتلاً من القوات البريطانية في طريقه الآن إلى الخرطوم أو يطلق بعض الألعاب النارية احتفالاً بنصر تحقق على فرقة استطلاع للمهدي جاءت مخترقة خطوطه، وكان يتجاوز تقنين الغذاء حين يحس بأن المعنويات ستنهار.

لكن مشكلته الكبرى لم تكن الذخائر، بل الطعام. ففي الوقت الذي استهلك رجال المهدي ما لديهم من ذخائر رمنغتون وبدأوا يطلقون الحجارة كان معمل سكب المعادن في الخرطوم ينتج ما يزيد عن مليوني قذيفة بندقية. مع بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام 1884 تناقصت كثيراً مؤونة الحبوب والبسكويت، ويتعين على غوردون أن يؤمن طعاماً لتسعة آلاف جندي ونحو 35,000 مواطن. ولم تصنع غنيمة غير متوقعة لـ 35 بقرة غنمها جنوده بعد أن أطلقها رجال المهدي في حقل ألغام ليفجروا درباً لهم إلا فارقاً بسيطاً. ومع قرب نفاد المؤن وتزايد الجوع انتشرت أعمال السلب والنهب. الضباط المصريون في جيش غوردون نهبوا ما لدى الجنود من حبوب، والجنود سلبوا المواد المقننة لدى النساء في الشوارع.

واكتشف غوردون أيضاً وجود الخونة في معسكره. رأى بأم عينه الصفوة من المدنيين وقاضي الإسلام وحلقته يتصلون بالمهدي فوضعهم رهن الاعتقال المنزلي. فهو يقول: "أنا أحكم على المرء بالنظر وببعض الإشارات القليلة ... إلخ، ذلك أنني لا أعرف لغتهم لكنني لا أتمالك نفسي من الاعتقاد بأن أحكامي

في معظم ما أشتبه به صحيحة وليست خاطئة. قد يرى المرء جماعة من الناس رؤوسهم قريبة جداً في غرفة رئيس الكتيبة وفجأة يلحظ الملامح قد تغيرت فلا أملك إلا أن أقول في نفسي إنكم تخططون لشر ما وأبحث عن الخدع"[50].

كان آخر رجل أوروبي برتبة عالية في الخرطوم هو القنصل النمساوي مارتن هانسل Martin Hansal وهو مدمن على المشروبات الكحولية، يعيش في منزله مع "سبع نساء يسهرن على راحته". ولجأ غوردون إلى يومياته عله يجد فيها السلوى. أصبحت هذه اليوميات المكان الذي يودع فيه تفاصيل الحصار ـ فالساعات تنقضي وهو ينظر في الأفق الشمالي عله يرى بقعة دخان صاعد من سفينة ما، أو يقوم بدورية متواصلة في صفوف جنده، أو يحصي ما لديه من مؤونة البسكويت، ويلحظ أكوام الأوساخ في الشوارع ويتزايد خوفه من انتشار الأمراض، ويرى الحشود في الشوارع تشده من يديه متسولة الطعام ـ وحيث يجد متنفساً يتحدث عن معاناته والخوف المستتر لديه والغضب اللذين بهما يقف بمواجهة الموت. في تلك الذكريات التي يدونها كان يلوم الجميع عدا نفسه لتلك الورطة التي وقع فيها والتي تخضع فيها أرواح 45,000 إنسان في الخرطوم لتفسير انتقائي لأوامره.

وكان يصر على القول "إن السبب في ذلك كله هو عجز الحكومة عن اتخاذ القرار الحاسم"، مضيفاً إلى ذلك قوله بأنه يشعر "بالتزام شرف نحو الناس" في هذه المدينة. ولم يعترف قط بأنه ملتزم نحوهم ليس فقط "بحرب مزعجة لستة شهور" بل وأيضاً بادعاءاته الكاذبة المتكررة بأن القوات البريطانية في طريقها إليهم.

فهو إن لم يبق في الخرطوم بسبب التزامه بالشرف، فقد بقي التزاماً بشرف بريطانيا وكرامتها، وهذا ما هو أكبر وأعظم من شرف حزب الأحرار. وصف غوردون نفسه في يومياته بأنه شهيد سياسة غلادستون الخارجية وبخاصة السير إيفلين بيرنغ الذي "تنازل وقال إنه سوف يدعمني" والذي تخلى عنه في الخرطوم، بحسب اعتقاد غوردون، من أجل عمله الوظيفي[51]. لكن غوردون لم يدر بتلك الجهود التي بذلها بيرنغ لصالحه.

وقد أقر بيرنغ بذلك حين قال: "أعترف أنني عصيت حكومة صاحبة الجلالة والمسؤولين فيها، فهذه طبيعتي ولا أملك أن أحيد عنها". ومع ذلك رفض قبول ذلك القول القائل إن حملة الإغاثة آتية لتنقذه هو فقط، مؤكداً "أنها جاءت لتنقذ شرفنا القومي وتخلّص الحاميات وغيرها من وضع وضعتها فيه أعمالنا في مصر. كنت أنا حملة الإغاثة الأولى، وهذه هي حملة الإغاثة الثانية ... ونحن، الحملتين الأولى والثانية، نعمل جميعاً من أجل شرف إنكلترا ... أنا لست الحمل الوديع الذي تم إنقاذه، ولن أكون"[52].

كان غوردون يعتز بنفسه وبرباطة جأشه أمام الحامية وأمام الناس، لكن هؤلاء رأوا أنه ومنذ أن جاء إلى الخرطوم ابيض شعره. ولكي يزيد المهدي من الضغط النفسي حشد عدداً من ضباط غوردون القدامى. رودولف سلاتين Rudolf Slatin الذي ترك قيادة حامية دارفور ليصبح عضواً في الحرس الشخصي للخليفة عبد الله، بعث برسالة إلى غوردون يحثه فيها على الاستسلام واعتناق الإسلام. جيوزيب كوزي Giuseppe Cuzzi القائد السابق لحامية مدينة بربر والمعروف الآن باسم محمد يوسف جاء زحفاً على يديه وركبتيه عبر حقل ألغام ليتوسل إليه.

ورفض غوردون أن يراه، فالارتداد عن الدين ليس أقل عاراً من الانتحار. وقرر أن يكون شهيداً مسيحياً، ويعرض جسده لعذاب الأسر. فقد جاء في مذكراته قوله: "أقلب في ذهني فكرة أنه في حال تم الاستيلاء على القصر أن أفجره بما فيه. وخلاف ذلك أنني إن أسرت، وبعون من الله سأحافظ على عقيدتي وديني، وإن لزم الأمر أن أتحمل الآلام في سبيل ذلك (وهذا أمر ليس بعيد الاحتمال). تفجير القصر هو أبسط الأعمال، بينما غير ذلك فمعناه طول الألم والعذاب والإذلال بكل أنواعه". ومع ذلك فقد اختار ذلك، قائلاً: "أعتقد أنني سوف أختار الأخير، ليس خوفاً من الموت بل لأن الفكرة الأولى تحمل معنى الانتحار، سيما وأن ذلك لن يفيد أحداً، وهو بطريقة أو بأخرى، انتزاع الأشياء من يد الله"[53].

كان كل شيء جاهزاً. لقد صنع غوردون مجده بنفسه. والآن واجه حشود

أنصار المهدي أمامه منتشرة في السهل أمام الخرطوم. بتاريخ 13 كانون الأول/ ديسمبر وحيث كانت قذائف المدفعية تتساقط على بعد 50 قدماً من مكتبه في الجناح الغربي من القصر، جمع يومياته وغلفها وسلمها إلى أحد المراسلين. قائلاً: "هذا التأخير لا يمكن تفسيره". ورأى أن الخرطوم لن تصمد لأسبوعين دون غذاء، فكتب ما يلي[54]:

"والآن انتبهوا لهذا. إن لم تصل القوة المرسلة، ولا أطلب أكثر من مئتي جندي خلال عشرة أيام فقط فسوف تسقط المدينة. لقد فعلت كل ما بوسعي حفاظاً على شرف بلادي. وداعاً".

بعد أن وقعها بإمضائه (C.G.Gordon) أضاف فكرة أخيرة فيها كل المرارة والألم:

"أنتم لا ترسلون لي أية معلومات مع أن لديكم الكثير من المال"[55].

في مدينة دنقلة وبتاريخ اليوم الأخير من عام 1884 تلقى غارنت ولسلي رسالة من غوردون كتبت بحروف صغيرة جداً على قطعة من الورق بحجم طابع البريد، تقول:

"الخرطوم بخير. 84/12/14. ش.ج. غوردون".

لكن هذا المراسل كان يحمل أيضاً رسالة شفهية لولسلي. الخرطوم محاصرة على ثلاث جبهات، القتال مستمر ليلاً ونهاراً، المدافعون عن المدينة يعانون الجوع في مواقعهم والمهدي مسيطر على الطرق المؤدية إلى المدينة.

وكانت رسالة غوردون: "لا تبعثر قواتك، العدو كثير. أحضر معك الكثير من القوات. نريدك أن تأتي سريعاً"[56].

وفي رسالة ثانية إلى العقيد واطسون، قال: "انتهت اللعبة. أبعث بأفضل تمنياتي إلى السيدة واطسون وإليك وإلى غراهام. قد ننتظر كارثة في المدينة قريباً وربما في غضون عشرة أيام". وبعد أن أنحى باللائمة على مجلس الوزراء

وعلى بيرنغ وكتشنر التفت غوردون إلى صديقه ولسلي، قائلاً: "لا يمكن لهذا أن يحصل (هذا إن حصل) لو أن أصدقاءنا اتخذوا احتياطات أفضل وأخبروني عن تحركاتهم، لكن ذلك لا يجدي الآن، فقد وقعت الواقعة"[57].

كانت "قوات ولسلي" الهجومية في كورتي Korti وقد كان مقرراً لها المسير في يوم عيد الميلاد، لكن هذا الموعد قد أرجئ حتى 22 كانون الثاني/يناير. أدرك الآن حالة الاستعجال في أوضاع غوردون وهو لا يزال يعمل جاهداً لتجميع قواته فقرر الاستعداد والتحضير ليتجاوز مدينة بربر ويرسل "رتلاً عبر الصحراء" على الجمال إلى موقع المتمة قوامه 1,500 رجل، ولم يكن يدري ما الذي يمكن أن يواجهه هذا الرتل في الصحراء. ثم اكتشف أنه لا يملك العدد الكافي من الجمال الذي يمكنه من الوصول إلى المتمة بتحرك واحد. وقرر أن يكون الجنرال سير هربرت ستيوارت قائداً لهذا الرتل المتجه إلى المتمة على مرحلتين. واعتمد نصيحة غوردون، حيث أخبر ستيوارت بألا يتحرك نحو الخرطوم حتى تكون القوة الرئيسية قد استولت على بربر.

وعصر يوم الثلاثين من كانون الأول/ديسمبر انطلق العقيد كتشنر وأدلاؤه العرب يقود الطليعة المتقدمة من قوات الجنرال ستيوارت من موقع كورتي إلى الصحراء القفر الخالية. غير أن نقص عدد الجمال أجبر ستيوارت على السير البطيء حاملين معهم مؤونة الرتل، ثم أقاموا معسكراً متقدماً مؤقتاً في غاكدول Gakdul وأرسل كتشنر قافلة المؤن إلى كورتي. لم تصل قوة ستيوارت المؤلفة من 1,600 رجل من فرقة الهجانة ونحو 200 رجل آخرين من فرقة سسكس الملكية Royal Sussex Regiment والكتيبة البحرية إلى غاكدول حتى اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني/يناير. لكن قافلة الجمال تلك بما تبذله من الجهود في تحركها قد نبهت المهدي إلى وجودها. وبينما كان ستيوارت يتحرك جنوباً نحو المتمّة تحرك نحو 12,000 رجل من الأنصار على طول الضفة الغربية للنيل الأبيض لتلتقيه.

كان المهدي يهدف إلى إلحاق الهزيمة بالخرطوم من خلال التجويع. وكان يرمي إلى أخذ غوردون أسيراً، يكون بيده بمثابة غنيمة يقايضها مقابل الاعتراف

بإمبراطوريته السودانية. لكن تحرك رتل الصحراء أفسد عليه خطته وأجبره على القتال، ولو أن ذلك يهدف إلى تعويق تقدم هذا الرتل. لم يسبق لرجاله أن واجهوا قوات بريطانية، وكذلك الأمر لم يسبق لستيوارت، ومثله في ذلك مثل غوردون وولسلي، أن رأى هجوماً للمهدي. في السادس عشر من كانون الثاني/ يناير عندما وصل ستيوارت إلى جرف يطل على آبار أبو كلية Abu klea على بعد نحو 20 ميلاً من المتمّة أو يزيد قليلاً، رأى "خطاً طويلاً من الرايات ترفرف ممتدة على عرض الطريق"[58].

أمر الجنرال ستيوارت قواته بالتوقف وإقامة زريبة على هضبة صخرية. وبينما كان رجال الاستطلاع من الأنصار يناوشون رجال ستيوارت من الجانبين كان رتل الصحراء يثبت مواقعه لقضاء الليل. استيقظوا قبل بزوغ الفجر وتحركوا إلى الأمام في تشكيل يشبه المربع يوقفون تقدم المغيرين، وذلك إلى أن وصلوا إلى مسافة تقل عن ميل واحد من قوة الأنصار الرئيسية. في تلك اللحظة بدأ الأنصار هجومهم في ثلاث تشكيلات كل تشكيل منها يقوده علم أسود أو أخضر. على ميسرة القوة البريطانية أطلقت المدافع الرشاشة Gardner التي كانت تعمل من الباخرة الحربية "ألكساندرا" نحو 70 قذيفة قبل أن يصيبها عطل طارئ. لكن هؤلاء البحارة قُطع عليهم الطريق وهم يفرون نحو التشكيل الرباعي. وبينما عملت القوة البريطانية على إحكام صفوفها ترجل رتل الصحراء عن الجمال لتعزيز الصفوف، لكن هذا التشكيل الرباعي لم يستطع فتح النار دون أن تصيب فرق المناوشة التي فرت أمام هجوم الأنصار. "واحد من الأفراد تخلف عن رفاقه فقبض عليه وطعن برمح"[59].

لم يصدق العقيد سير تشارلز ولسون، ضابط استخبارات ستيوارت ما يراه. كان الأنصار يتحركون بتشكيلات متماسكة نحو الخطوط البريطانية، بموجة بشرية كثيفة، حتى إن البنادق صنع مارتيني هنري السريعة الطلقات لم يبد لها أي أثر. وحين تراكم جدار ضخم من جثث القتلى أمام ذلك التشكيل الرباعي انقسم الأنصار إلى فريقين. وتحرك ما يزيد عن 5,000 مقاتل في حركة التفافية من ميمنة هذا التشكيل نحو مؤخرته.

أدرك ستيوارت ما رأى قائلاً: "يا إلهي سيدخلون التشكيل الرباعي!" ورأى "شيخاً عجوزاً على جواده" يقود الهجوم نحو المؤخرة والراية في يده وكتاب "الراتب" بيده الأخرى ينشد أدعيته بينما كان جواده يتقدم الصفوف[60]. حين نصب هذا الشيخ رايته وسط التشكيل الرباعي أطلقت عليه النار من جهة سرج حصانه وامتلأ الميدان بالجمال البريطانية التي أصابها الهلع وخيالة الأنصار وموجة عارمة من المحاربين الذين أحاطوا بالجنرال ستيوارت وحصانه. اشتبك الأنصار مع فرقة الهجانة بالأيدي، بالرماح والسكاكين وحراب البنادق. وبغية التصدي لهذا الهجوم تحرك الجنود البريطانيون في المؤخرة نحو مقدمة التشكيل ووجهت نيران بنادقها نحو تلك المعمعة في محاولة لإجبار الأنصار على التراجع، فأصابت العديد من الجنود البريطانيين. انسحب الأنصار وهلل البريطانيون. وتكومت أجساد قتلى الأنصار الذين زاد عددهم عن 1,000 واختلطت الكومة بجثث نحو 70 ضابطاً وجندياً بريطانياً. وشوهد العقيد فريدريك برنابي Cpl. Frederick Burnaby ضابط الفرسان المحبوب الذي اختاره ولسلي ليقود الهجوم من الباخرة من المتمّة إلى الخرطوم ملقى جثة هامدة في الميدان ورمح من رماح المهدي قد اخترق عنقه.

قضى الجنرال ستيوارت ليلته الباردة وسط الصحراء أرقاً لا يغمض له جفن، وضباطه يرتعشون من البرد تحت أغطية من سجاجيد الصلاة التي غنموها. وبدأ تحركه في وقت متأخر من اليوم التالي آملاً أن يصل إلى المتمّة قبل الفجر، لكن سائقي الجمال المتعبين غلب عليهم النعاس واستولى عليهم النوم وهم على ظهر الجمال، فتشتتت مطاياهم وخرجت عن المسير فبدت مثل "أشباح هزيلة في ضوء النجوم الباهت" حين عمّت الفوضى في الرتل.

وما هي إلا لحظات بعد بزوغ الفجر حتى لاح النيل في الأفق وعاد الأنصار للظهور ثانية على حين غرة. وجد ستيوارت نفسه مجبراً على أن يعيد تجميع رتله ويصمد، ولم يبق أمامهم سوى ميلين للوصول إلى المتمّة. عند الثامنة صباحاً بدأت القذائف من بنادق الأنصار "تتساقط عشوائياً داخل التشكيل". وتدافع رجال فرقة الهجانة ليربطوا مطاياهم وإقامة استحكامات لهم من سروج الجمال وصناديق

المؤن. غير أن الأنصار من مخابئهم بين الأعشاب العالية أخذوا يناوشون التشكيل من جهاته الأربع وبدأت القذائف تطلق على طول هذه الاستحكامات فتصيب الجنود المكشوفين أمامهم دون حماية. وأخيراً أصيب الجنرال ستيوارت بجروح وأصيب معاونه الرقيب ليغير هربرت برأسه، وقتل كاميرون الذي كان مختبئاً خلف الجمال حين وقف ليأخذ من خادمه صندوق السردين.

لم يسبق للعقيد سير تشارلز ولسون، الضابط الثاني في تسلسل القيادة عند ستيوارت أن شارك في حملة من هذا النوع، حين أدرك أن القوة تحت قيادته سوف تهلك إن لم يتحرك. ترك قسماً منها في الخط الدفاعي وأعاد تشكيل الباقي في تشكيل مربع تحت نيران كثيفة، حيث استلقى الجنود على الأرض ليحموا أنفسهم من النيران وأخذوا مواقعهم. ثم أصدر أوامره بالتحرك نحو النيل. "كانت وجوه الرجال تدل على عزيمة وتصميم، وكانوا يريدون أن يشربوا من ماء النيل في تلك الليلة"[(61)]. أصيب عدد منهم حين نهضوا، وكاد أحد مشاة البحرية يسقط بين ذراعي ولسون. وتقدم الجنود تاركين جرحاهم حيث سقطوا. عندما وصلوا إلى الهضبة الأخيرة المطلة على النيل توقفت نيران الأنصار وجاء المئات من الخيالة وحملة الرماح هابطين نحوهم من الهضبة. على بعد 300 ياردة صاح نافخ البوق لدى ولسون "باشروا إطلاق النار!" فتدافع حملة الرايات والخيالة نحو الأعشاب العالية على بعد 50 ياردة من التشكيل. ارتعش الأنصار واضطربوا ثم تراجعوا بعد أن فشل هجومهم.

قبيل المغيب وصل ولسون إلى "خط النباتات الخضراء" الذي يخفي وراءه نهر النيل. قُتِل نحو عُشْر قواته، وأصيب عدد لا بأس به منهم بجروح، فكان من الضروري توسيع الاستحكامات لتستوعبهم. أما الناجون منهم فلم يذوقوا طعاماً أو طعم النوم لأربعة أيام. وانتظر ولسون يومين ليستريح جنوده وليدفنوا قتلاهم قبل أن يتابع مسيره نحو المتمّة. في الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير وبينما اشتبك في بعض المناوشات مع الأنصار حول أطراف القرية رأى دخاناً يتصاعد من النهر. فقد كان ثمة أربعة زوارق يقودها الزورق بوردين *Bordein* تحمل العلم المصري وقد تعرضت للقصف.

صاح رجال ولسون وهم يهرعون نحو النهر: "هذه زوارق غوردون!"[62]

لقد انضم رتل الصحراء إلى الزوارق. لكن خطة ولسلي فسدت. قُتِل برنابي، وستيوارت يحتضر. والكتيبة البحرية التي كان مقرراً لها أن ترافقه إلى الخرطوم هلك القسم الأعظم منها عند أبو كلية وقائدها اللورد تشارلز بيرزفورد Lord Charles Beresford أتخنته الجراح حتى بات لا يستطيع الوقوف على قدميه. وكانت القوة بقيادة ولسون تعرضت لهجوم عنيف حتى باتت لا تقوى على مهاجمة المتمّة، وكانت منهكة تحتاج لنحو ثلاثة أيام لتعيد تنظيم انسحابها قبل أن تستقل الزورق بوردين.

لقد نجح تكتيك المهدي للتأخير. في الرابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير تحرك السير تشارلز ولسون بعد أن سبقه نبأ تحركه، حيث ارتدى ولسون و24 من جنوده الزي العسكري الأحمر الذي ظن ولسلي أنه سيوقع الخوف في صفوف الدراويش، وأبحر متوجهاً إلى الخرطوم.

بعد ما يزيد عن خمسة أسابيع من ذلك اليوم الذي فيه توقع غوردون صمود الخرطوم لعشرة أيام بما لديها من طعام ومؤن كانت المدينة لا تزال على صمودها. مع نهاية كانون الأول/ديسمبر ذُبحت آخر بقرة وانخفضت نسبة المواد المقننة التي تعطى للجنود يومياً إلى نحو 11 أونصة من الحبوب. لقي مواطنون كثر مصرعهم في الشوارع، وبغية اجتناب انتشار الأمراض والأوبئة أعطى غوردون وعوده بزيادة التقنين لكل من يتطوع لدفن الموتى. في السادس من كانون الثاني عام 1885 استسلم معظم السكان المدنيين للمهدي، تاركين المدينة لنحو 14,000 من السكان. وفي الثاني عشر من الشهر نفسه نفد الطعام من حصن أم درمان القريب واستسلمت الحامية وانضم رجالها إلى ميليشيا الجهادية.

قضى غوردون الساعات الطوال على سطح قصره يرقب بمنظاره دفاعاته ومعسكر المهدي والأفق الشمالي. وضع احتياطيه من الذخائر في الكنيسة

الكاثوليكية وزرع لغماً مهيئاً للانفجار إذا سقطت المدينة. وهيأ باخرة تكون جاهزة عند الرصيف قرب القصر ليتمكن أعيان البلدة من النجاة بأنفسهم. كان ينام في النهار ليتسنى له القيام بدورية في المدينة أثناء الليل. وجد الحراس ينهارون في مواقعهم بسبب الجوع. وصارت الحامية تقتات الجرذان والقطط والكلاب والحمير وجلود قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز، أما الخبز فكان حفنة من الطحين الممزوج بلب شجر النخيل. بعث الخليفة عبد الله كتاباً لغوردون يقول: "لا سبيل لك للنجاة من الموت على أيدينا ومن الموت جوعاً"[63].

وبعث له المهدي أيضاً كتاباً. فقد كان غوردون يجبره على الكتابة له في كل مرحلة. لم يرغب المهدي بقتله، بل كان يتمنى أن يأسره وأن يقايض به البريطانيين مقابل أحمد عرابي، وبذلك يقسم إمبراطورية الخديوي إلى دولتين متمردتين ويحطم سيطرة الأتراك على النيل. وها هو المهدي الآن يوجه نداءً أخيراً إلى غوردون طالباً منه الاستسلام[64]، فقد قال:

"بعد أن رأيت ما رأيت إلى متى ستظل غير مؤمن بنا؟ لقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن الدمار المحيق بكل أولئك الذين هم في الخرطوم ما عدا الذين يؤمنون ويستسلمون، فهؤلاء سوف ينجيهم الله. نحن لا نريد لك أن تهلك مع أولئك الذين حكم عليهم بالهلاك لأننا سمعنا كل ما هو خير عنك". واستشهد بآية من القرآن الكريم تحض على اجتناب القتل وتذكّر بأن الله رحيم بعباده. وتوسل إليه ألا يجبره على القيام بمعركة أخيرة لن تجديه نفعاً قائلاً: "لقد كتبنا إليك مراراً نحثك على العودة إل بلادك، حيث ستحقق لك فضائلك أعلى مراتب الشرف ... إن قبلت نصيحتنا فستكون من المباركين: ولكن إن رغبت بالعودة إلى الإنكليز فسوف نرسلك لهم دون أن نطلب مليماً واحداً ثمناً لك، السلام عليكم"[65].

لكن غوردون لم يرد على هذه الرسالة، كان لا يزال يأمل عودة السفن حاملة الفرقة المتقدمة من ولسلي. لكن آماله هذه تزايدت في العشرين من كانون الثاني/يناير، حيث لاحظ من خلال منظاره حشود نساء تندب وتبكي في معسكر

المهدي. فقد استنتج دون خطأ أن رتل الصحراء قد هزم الأنصار ولا بد أنه قد وصل إلى المتمّة.

في تلك الليلة عقد المهدي مجلس حرب. رفضت الخرطوم أن تستسلم على الرغم من حصار دام لما يزيد عن 300 يوم وأعمال حربية متواصلة على مدى شهور. والآن، ها هي القوات البريطانية على النيل متجهة من دنقلة نحو بربر. فإن لم يقتحم الأنصار مدينة الخرطوم سريعاً فعليهم أن ينسحبوا عائدين إلى كردفان، فتضيع أحلامهم بالمجد والثروة وينتهي حلم المهدي المخلص. وهنا اقترح أحد الفارين من قوات غوردون طريقة لدخول المدينة. في الطرف الغربي حيث الخندق الذي حفره حلمي باشا كان قد امتلأ بمياه النيل الأبيض، ثم جفت هذه المياه بعد أن انخفض منسوب النيل فاستوى الخندق والاستحكامات وصار مستنقعاً رطباً بعد أن جرفت منه الألغام. ولم تكن الحامية قادرة على ترميم دفاعاتها لما أصابها من ضعف ووهن.

في صباح الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير رصد غوردون تحركاً للأنصار نحو ضفة النهر فأمر الرجال جميعاً من أعمار الثامنة وحتى الثمانين بالتواجد في الدفاعات، لكن الغالبية العظمى من السكان ومن الجنود كانوا في حالة من الضعف الشديد بسبب الجوع فلم يستجيبوا له. وقضى النهار بطوله جالساً إلى مكتبه يدخن. في الساعات الأولى من المساء سمع ثلاثة أصوات تهدر بصوت عال هاتفة بالولاء للمهدي ثلاث مرات، قائلين "نقسم يمين الولاء لك حتى الموت!"

والمهدي يقول: "إن وهبكم الله النصر فلا تقتلوا غوردون".

وكرر الأنصار قسمهم: "نقسم بالله ونبيه، ونقسم بك، أننا لن نرتكب الفاحشة، ولن نعصي لك أمراً شرعياً وأننا لن نتخلى عن الجهاد".

وأشار المهدي بسيفه نحو الخرطوم، قائلاً: "الله أكبر"[66].

عند منتصف الليل وحين غلب النوم غوردون لشدة الإرهاق اقتربت الدفعة الأولى من مقاتلي الأنصار من ذلك المستنقع الرطب على أطراف الدفاعات

الجنوبية للخرطوم. وقبيل الفجر بقليل اجتاح 40,000 مقاتل كتيبة واحدة من الجنود المصريين. وعلى الطرف الآخر من الاستحكامات قضى هجوم آخر ضخم على دفاعات الخرطوم.

سيطر الأنصار الآن على المدينة وقتلوا الآلاف من الناس؛ يجرون المواطنين المنهكين من منازلهم، يطلقون النار عليهم ويضربونهم بالعصي ويطعنونهم بالرماح في الشوارع، يغتصبون النساء ويستعبدون الأطفال ويعذبون الأثرياء بحثاً عما يخبئونه من ذهب. واستيقظ غوردون على أصوات صراخ وأصوات إطلاق نار، ورأى موجة من الموت والهلاك هاجمة على قصره. بالفؤوس هدمت أبواب القصر ودخل الأنصار بجموعهم المحتشدة إلى باحة القصر تحت مكتبه.

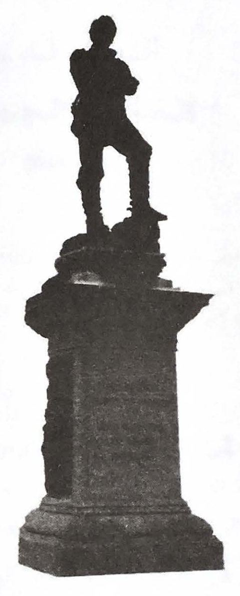
شهر مسدسه مستجمعاً حراس القصر وقاد عملية الدفاع، يطلق النار من نوافذ الطابق العلوي ومسرعاً نحو أعلى الدرج المؤدي إلى الباحة، آملاً بأن يشق طريقه نحو مستودع الذخيرة في الكنيسة إما ليحصل على المزيد منها أو ليفجرها. وهاجم الدراويش على درجات السلم لكن المدافعين ردوهم من مدى مرمى البندقية. عندما حاول إنقاذ أحد حرسه أصابه في كتفه رمح من أحد رجال المهدي، لكنه ما فتئ يطلق النار ورد هجوماً آخر على درجات السلم. حين فرغ مسدسه من الطلقات استل سيفه وهجم.

في باحة القصر أسفل منه سدد أحد المجاهدين السودانيين بندقيته وأصاب غوردون في صدره، فارتد إلى الوراء من أثر الطلقة واستند إلى الجدار. لكن غوردون سرعان ما وقف على قدميه ورد هجوماً للدراويش بسيفه أسفل الدرج، ولكن ما أن وطئت قدماه أرض الباحة حتى أصابه رمح آخر في جانبه الأيمن. وسقط أرضاً وسط جمع غفير من الدراويش ورماحهم تعكس أشعة شمس الصباح[67].

وتواصل القتل والنهب والاغتصاب طوال النهار. وحين أمر المهدي بإيقاف هذه المجزرة لم يكن رجل واحد بالغ على قيد الحياة يمكن أسره. وعمل

الأنصار على جلد من يشتبهون بأنه يخزن المواد الغذائية حتى صارت لحومهم أشلاء من أجسادهم، وحطموا جماجمهم بجدائل صنعوها من سعف النخيل. شكلوا من الرجال رتلاً بعد أن أوثقوا أصابعهم معاً بالحبال وعذبوا النساء في أعضائهن الجنسية. أما خدم القنصل هانسل فقد قتلوا سيدهم وجروا جثته إلى الشارع ووضعوا عليها التبغ المغموس بالكحول وأحرقوه قبل أن يلقوا ببقايا جثته في النهر. أعداد كبيرة من الأنصار تقدموا جميعاً ليكون لكل واحد منهم نصيب في قتل غوردون حتى صار جسده كومة من اللحم لا يعرفها أحد.

وفي معسكر المهدي بأم درمان تقدم رجل يمتطي فرساً من رودولف سلاتين. ترجل عن جواده ونشر أمامه لفافة من القماش غارقة بالدماء، إذ كان بداخلها رأس تشارلز جورج غوردون وعيناه الزرقاوان لم تغمضا.



قديس من العصر الفكتوري: تمثال غوردون للنحات سير هامو ثورنيكروفت

الفصل التاسع

الخلافة الجديدة

1889–1885

"إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم".

قرآن كريم[1]

وصلت فرقة ولسون إلى الخرطوم متأخرة يومين. عندما مرت الباخرة بوردين *Bordein* أمام جزيرة توتي Tuti Island في طريقها إلى حيث ترسو أمطرها الأنصار بوابل من رمايات البنادق ومدفعية الحكومة.

يشير ولسون في مذكراته حول تلك الحادثة، قائلاً: "بدأت رصاصات البنادق تتطاير حولنا سريعاً، ترتطم بجوانب السفينة مثل حبات البرد، بينما كانت قذائف المدفعية تنطلق فوق رؤوسنا بأزيزها المفزع أو تثير نوافير من الماء في النهر من حولنا".

ولاح لهم قصر غوردون من فوق أشجار النخيل. حاول ولسون أن يتبين علماً مصرياً أحمر اللون، لكنه لم ير سوى خراب وأطلال ينبعث الدخان منها. "بمشاعر حزينة في القلب تنذر بكارثة مريعة "سارع مقترباً من ضفة النهر، وعلى بعد 60 ميلاً من الرمال سمع "الضجيج الصاخب العالي" لقذائف Krupps قادماً من الخرطوم، فأدرك أن المدينة قد سقطت. وكان آخر مشهد رآه في الخرطوم مشهد حشد من الأنصار من رماة المدفعية بصدورهم العارية يلوحون ببنادقهم فوق رؤوسهم احتفالاً بالنصر، بينما كان رصاص البنادق

وقذائف المدفعية تجعل المياه بيضاء اللون حول السفينة بوردين *Bordein*. "وبدا لنا الخروج من هذا المكان شبه مستحيل". ولكن أثناء عودته عبر ممر ضيق يحيط به الأنصار من كل جانب أصيب بجرح في فخذه فوق الركبة، وأصيب منظاره بقذيفة نزعته من يده[(2)].

في ليل الخامس من شباط/فبراير أبرق ولسلي إلى وزارة الحربية قائلاً: "وردتنا أنباء بأن الخرطوم قد سقطت"[(3)]. ولم يستطع أن يؤكد ما إذا كان غوردون قد لقي مصرعه أم لا يزال على قيد الحياة، وطلب التعليمات.

وعلى بعد ألف وأربعمئة ميل، وبعد منتصف الليل وصل مراسل حاملاً رسالة كتبت بخط اليد ووضعت داخل مظروف غير مغلق كتب عليه كلمة "سري"، وأيقظ السير روبرت طومسون Sir Robert Thompson، وكيل وزارة الحربية الدائم. حاول طومسون أن يبقي هذه الأنباء سراً ويمنع تسربها قبل أن تقرر الحكومة موقفها. لكن ريغي بريت Reggie Brett، مدير مكتب هارتنغتون الشاب، وبعد أن أيقظ وزيره ذهب ووقف بباب أوغستا في ساوثمبتون، فكان وقوفه هذا نذير شؤم بخصوص رحلة غوردون الأخيرة إلى الخرطوم. وحاول طومسون أن يجد الحكومة، لكن البرلمان كان في إجازة.

كان غلادستون يقضي إجازته مع هارتنغتون في هولكر هول Holker Hall من بعض ممتلكات الأسرة في مقاطعة لانكشاير، حيث كان رئيس الوزراء المرهق يحاول أن يسترد عافيته ونشاطه من خلال المشي ورحلات الصيد بين حين وآخر. ذهب الاثنان بريت وطومسون وأيقظا مدير مكتب غلادستون إدي هاملتون Eddi Hamilton وأرسلا البرقيات إلى Holker Hall وإلى الملكة في قلعة أوزبورن بجزيرة مان. وعند الثالثة صباحاً وقفا يطرقان باب قصر Mayfair الخاص باللورد غرانفيل، وانتظرا لنحو نصف ساعة في قاعة القصر قبل أن يخبرهما خادم اللورد، كذباً، أن سيادته خارج المدينة. في ذلك الحين عمل المراسل الذي حمل المظروف الذي كُتب عليه كلمة "سري" على بيع محتواه، بعد أن عجز عن مقاومة إغراءات السرية. وفي صباح اليوم التالي أذاعت صحيفة "تلغراف" هذا النبأ.

كانت الملكة أول من استيقظ، حيث كتبت في مذكراتها، "أخبار غير سارة سمعتها بعد الفطور. الخرطوم سقطت، ومصير غوردون غير معروف. هذا محزن كثيراً ... مخيف جداً".

وشعرت الملكة فكتوريا أن غلادستون قد ألحق العار بها وبالأمة، مؤكدة أن "الحكومة وحدها هي المسؤولة حين رفضت إرسال الحملة قبل فوات الأوان". وتركت قواعد النحو والأمن جانباً وصبت جام غضبها على غلادستون وهارتنغتون وغرانفيل ببرقيات غير مرمزة، وتحدثت عن آرائها هذه التي كان يسمعها كل عامل برق بين جزيرة مان والمقاصد النهائية لهذه البرقيات، حيث أكدت: "هذه الأخبار من الخرطوم مؤلمة تثير الاشمئزاز، ومجرد التفكير بأن كل ذلك كان ممكناً اجتنابه وأن الكثير من الأرواح كان ممكناً إنقاذها هو الأكثر إيلاماً"[4].

في قصر Holker Hall كان اللورد هارتنغتون قد أمر خادمه بألا يوقظه قبل الظهر. وهكذا بقيت البرقية القادمة من لندن بالانتظار إلى أن نزل هارتنغتون لتناول فطوره. وحالما قرأها هرع هو وغلادستون واستقلا أول قطار إلى لندن واستلما برقية الملكة وما فيها من إهانات وهما في الطريق.

اعترف غلادستون في يومياته: "الظروف محزنة وقاسية، أقل ما فيها أنها قد تفضي إلى انتهاء هذه الحكومة"[5].

في تلك الأثناء كانت مجلة Punch قد أعدت غلافاً احتفالياً للمجلة يصور غوردون وجنوده وقد خرجوا ممتنين إلى خارج الخرطوم لاستقبال الجنود ذوي المعاطف الحمراء القادمين على السفن والترحيب بهم. وقد وضع تصميم جديد للغلاف يصور الفتاة الرمز Brittania تغطي عينيها بيدها لا تريد رؤية أعمال النهب والسلب في الخرطوم، وتقول باكية "فات الأوان!"

عمّت الصحافة موجة من الحزن والغضب ومشاعر الذنب والوطنية. وتلاقت هذه الموجة مع موجة أخرى عفوية من حزن وغضب لدى العامة. خسارة الخرطوم كانت إهانة للسلاح البريطاني الذي وقع بأيدي رجال متوحشين من

الدراويش، وكان أيضاً إرباكاً للكرامة العرقية سببه رجال من أنصاف العراة يعرفون باسم Fuzzy-Wuzzy (نسبة إلى طريقتهم في قص شعورهم)، وهزيمة كبرى لحرية التجارة وكارثة لأنصار إلغاء الرق وضربة موجعة لمكانة الإمبراطورية البريطانية.

كان غضب الملكة عظيماً وهي التي بوطنيتها واعتزازها بسياسة الاستعداد للمستقبل جسدت النزعة القومية، إذ قالت: "سوف تنهار قوتنا في الشرق. لن نستطيع أن نرفع رأسنا بعد الآن"[6]. وعلى الرغم من أن ولسلي لم يستطع أن يؤكد أن غوردون حي أو ميت، إلا أن الرأي العام قد افترض الأسوأ مما قرأه في الصحف في بادئ الأمر، ووضعت المسؤولية على الحكومة وعلى غلادستون بصفة خاصة.

حين رأى غلادستون موجة السخط والازدراء تصل إلى شارع داوننغ ستريت أدرك من فوره ضرورة أن يلتقطها قبل أن تضيع حكومته بها. في أول اجتماع لمجلس الوزراء وقف هذا المنادي العظيم المناهض للاستعمار ليقول: "إن على بريطانيا ألا تتجاهل ذاك الأثر الذي سيتركه انتصار المهدي في رعايانا المسلمين"[7]. وحيث إن وجود الهند البريطانية قد صار بخطر فقد قرر مجلس الوزراء وجوب الانتقام لغوردون. وأبلغ غارنت ولسلي أن الحكومة قد رصدت 2.75 مليون جنيه لتمويل حملة سودانية ثانية وموسعة لفصل الخريف القادم.

وبعد أن أراح ضميره التفت غلادستون إلى مسألة أكثر إلحاحاً وهي تلك المفاوضات الجارية بين القوى العظمى حول استرداد اقتصاد مصر لعافيته. غير أنه لم يحسن قراءة شدة رد فعل الشارع. ففي نظر عامة الناس هذه الحكومة الجبانة العديمة الرحمة قد تخلت عن غوردون وأسلمته للمتوحشين. في مساء الحادي عشر من الشهر حيث ذهب غلادستون وزوجته إلى مسرح Criterion Theatre - حيث تعرض مسرحية The Candidate في أفضل عرض لها[8] - انطلقت من أفواه الذاهبين إلى المسرح في تلك الليلة عبارات الاستهجان في الشوارع. وفي صباح اليوم التالي وصلت إلى لندن إشاعة تقول إن غوردون قد لقي مصرعه.

في برقيتها إلى شقيقة غوردون كتبت الملكة تقول: "ماذا سأكتب لك، وكيف لي أن أعبر عما أشعر به! إن مجرد التفكير بأن أخاك البطل الذي خدم بلاده وملكته بإخلاص شديد وبطولة نادرة مضحياً بنفسه واضعاً مثلاً أعلى للعالم أجمع لم يمكن إنقاذه، وأنه لم يتم الوفاء بوعود الدعم - التي كنت دوماً ودون كلل ألح على من أرسلوه للقيام بها ـ يسبب لي حزناً لا يمكن التعبير عنه!"[9]

ووافق البرلمان بالإجماع على صرف مبلغ 20,000 جنيه لعائلة غوردون وأعلن الحداد العام ليوم واحد. ووردت برقيات التكريم والثناء من إمبراطور الصين ومن الخديوي توفيق الذي حاول في تأبينه وبكل لباقة اجتناب الحديث عن حقيقة دوافع غوردون حيث قال: "لم يخسر غوردون شيئاً بموته بل كسب مجداً كان يرغبه ويسعى لتحقيقه بعد أن كرس له حياته كلها"[10].

وتوالى وصول رسائل مجهولة تعبر عن حقد وكراهية مرسليها إلى داوننغ ستريت، وانتشرت دعابة بين الناس قُلِبَ فيها ترتيب الحروف الأولى من اسم غلادستون G.O.M ليصبح M.O.G ـ بمعنى Murderer of Gordon (المجرم الذي قتل غوردون) -. وفي قاعة الموسيقى اشتهرت أغنية تقول إن غلادستون حين يموت "سوف يجلس على صفيح ساخن بين بيلاطس البنطي، ويوضاس الأسخريوطي"[11]. وفي الثاني عشر من شباط/فبراير لزم رئيس الوزراء فراشه ولم يغادره طوال النهار، "فالإزعاجات العديدة التي اتخذت أشكالاً مختلفة قد سببت له أخيراً اضطرابات في الأمعاء"[12].

"إذا كان ثمة شيء سيقضي على غلادستون العجوز فهذا هو ذلك الشيء".

في خيمة واقعة في مهب الريح بموقع كورتي Korti جلس غارنت ولسلي يقرأ يوميات غوردون ويكيل النقد والشتائم لرئيس الوزراء. "لا يستطيع هذا المخادع المضلل أن يتنصل من حقيقة أنه المسؤول المباشر عن سقوط الخرطوم وما خلّفه سقوطها من مذابح ومجازر. بسبب نفوذه وتأثيره لم تُتّخذ

الإجراءات الفاعلة لإغاثة غوردون في الوقت المناسب. وبينما كان غوردون يتضور جوعاً كان هذا الوزير الذي يدعي لنفسه أنه رجل دولة عظيم دون وجه حق يناقش في نفسه ما إذا كان غوردون مخدوعاً أو محاصراً، ولا أحد يستطيع أن يقنعه بأن الخرطوم محاصرة أو أن غوردون معرض للخطر. لم تكن مصائر الأمم في يوم من الأيام بيد ربان أقل كفاءة من هذا الرجل ... يا لهول تلك النهاية التي وصل إليها عملنا وجميع آمالنا المشرقة".

أحس ولسلي بالسخط إزاء الأوامر الجديدة من الحكومة. فقد كان غلادستون على أتم الاستعداد ليعرض أرواح الرجال للخطر مقابل أصوات انتخابية. "فهم يقولون، ليُشْوَ الجنود جميعاً في صيف السودان، وليمت العديد منهم ليخرجوا، فنحن لا نهتم طالما أن البلاد ستدرك أننا أخيراً قد تحركنا واعتمدنا سياسة شجاعة". لو أن التوقعات الأساسية عند الحكومة بخصوص قوة ولسلي الصغيرة كانت متفائلة، فإن هذه الأوامر الجديدة تعني الكارثة. لقد كان من شأن احتلال الخرطوم أن جعل المهدي "قوة عسكرية" كبرى، والآن سوف تتبعه جميع القبائل في السودان، وإن لم تفعل فسوف تهلك: "سوف يُنْظَر إليه بأنه الرجل الذي لا يقدر أحد على مقاومته".

ومثلما حصل لغوردون المسكين الذي قتل، أحس ولسلي ورجاله أنهم سيكونون الضحية التالية لرغبة "أولئك الأغبياء أصحاب النظريات" في حزب الأحرار. وبدا أمر توسيع حرب السودان في سبيل "أغراض داخلية" خطيئة مروعة لسياسة غلادستون الحمقاء في مصر. وابتدأت بقصف شرير لا يرحم لميناء الإسكندرية. وسيكون ذلك في حجمه وطموحاته "الحرب الأكثر خطورة التي قمنا بها منذ أعلن مجلس الوزراء الأحمق عام 1854 الحرب على روسيا" - حيث كان غلادستون وزيراً في تلك الحكومة أيضاً. أحس ولسلي في قرارة نفسه أن المهدي قادر على إلحاق الهزيمة بأي جيش، بريطانياً كان أو مصرياً، وذلك إذا انسحب إلى إفريقيا الوسطى. "وسنكون قد أنفقنا عشرات الملايين دون أن نفعل شيئاً، وعندما ننسحب سوف يطاردنا قطيع من كلاب مسعورة أو يطلقون النار عن بعد على قواتنا المنسحبة"(13).

ولم يستطع ولسلي متابعة الإصغاء للهاتف. فقد أصبحت القوة البريطانية الصغيرة واسعة الامتداد على مسافات شديدة القسوة، والأخبار سيئة من جميع الجبهات. قرب البحر الأحمر لم يستطع الجنرال غراهام أن يخترق سيطرة عثمان دِقْنَه على سواكن. وفي النيل كانت القوة الرئيسية لولسلي لا تزال غير قادرة على الخروج من وسط الشلالات عند موقع أبو حمد. وبعد أن انجرفت سفنهم نحو اليابسة برزت الحاجة إلى إنقاذ سير تشارلز ولسون ومجموعته بما تبقى من رتل الصحراء الذي عاد متعثراً إلى كورتي Korti مخلفاً وراءه عدداً من الجمال التي نفقت. وبتاريخ العاشر من شباط/فبراير قامت قوة من الأنصار قوامها 2,000 رجل بمهاجمة رتل بريطاني قرب كركبان Kirkeban. ومع أن القوة البريطانية قد هزمتها إلا أن هؤلاء الأنصار تمكنوا من قتل أفضل القادة عند ولسلي هو اللواء وليم إيرل Maj. Gen. William Earle, VC.

وبدأت حملة ولسلي بالانهيار. شجاعة سير تشارلز ولسون "خانته في تجربته هذه لحرب حقيقية"، حتى إن ولسلي لم ينتظر منه شيئاً. عندما ذهب ولسلي ليتفقد من بقي على قيد الحياة من طواقم بواخر غوردون تبين له أن فكرة رفد قواته ببعض المجندين السودانيين مجرد فكرة سخيفة. فهو لم يقتنع بأن من الممكن تدريب أولئك الأفارقة السود مثلما يتدرب الجنود البريطانيون، قائلاً: "لم أر بحياتي مثل هذا النوع من الرجال - أكثرهم من النوع الوضيع جداً - وغالبيتهم ليسوا أكثر تطوراً ذهنياً من القردة". كان يشعر بالخجل لعدم قدرته على الانتقام لغوردون، فلم ير خياراً أفضل من التوصية بوجوب الانسحاب من السودان كله وإعادة التموضع في وادي حلفا. وإن لم يتم هذا الانسحاب سريعاً فسوف يجبرهم المهدي على التراجع، وهذا وضع بالغ التعقيد له تداعيات خطيرة ومهلكة على مستقبل ولسلي المهني. "يا لهذه الحملة الملأى بقلق شديد ومربك!"[14]

في السابع والعشرين من شباط/فبراير نجا غلادستون من اقتراع جديد في مجلس العموم بلوم الحكومة. فقد عمل لثلاثة أيام متواصلة في الدفاع عن

سلوك الحكومة مقدماً الحجج المبنية على تقارير خاطئة من غارنت ولسلي. وبقيت الظروف المحيطة بسقوط الخرطوم باهتة بعيدة عن الوضوح، ولم يتأكد بعد موت غوردون. كان ولسلي قد بعث بشائعة مبكرة مفادها أن الخرطوم لم تسقط جراء الهجوم عليها، بل بسبب الخيانة. وكان ثمة شائعات أخرى تقول إن غوردون قد أخذ أسيراً. وقال غلادستون إذا كانت هذه المدينة قد سقطت بسبب الخيانة فكيف يمكن القول إن الحكومة قد أخطأت في إرسالها للقوات ورصدها للأموال؟ وإذا كان غوردون قتل فالحكومة عازمة على الانتقام له وإنقاذ السودان، وإن لم يكن ذلك في سبيل التجارة والمسيحية فهو إذن من أجل الحضارة. وتساءل بأسلوب غير مباشر هل عرفنا على وجه التأكيد أن غوردون ذلك الضابط الأفضل لدينا في السودان قد لقي مصرعه حقاً؟

فاز غلادستون بأغلبية 14 صوتاً. غير أن الضغط من الشارع والضغط السياسي خلال الأسابيع الماضية جعلاه يفكر مجدداً بالاعتزال، على الرغم من أن شفاءه من الاضطرابات الهضمية ومن التوقعات المستقبلية كان سريعاً. وفوزه للمرة الثانية في الاقتراع على لوم الحكومة بشأن السودان أقنعه بالحفاظ على حكومته "الانقسام الأخير في أفكاري قد قلب الميزان فعاد لتوازنه"[15].

لم يكن غلادستون يعرف شيئاً عن "ما وراء البحر"، لكن كان لديه خبرة طويلة في مجلس العموم. كان يعلم جيداً أن تعهده للانتقام لغوردون سوف يوضع للاختبار ثانية مقابل التزامات أخرى أشد إلحاحاً. فالمفاوضات الدولية بخصوص تسوية الأموال المصرية لم تنته بعد. وعلى الجانب الآخر من إمبراطورية بريطانيا الإسلامية المتنامية كان ثمة جبهة في أفغانستان تشتعل الحرب فيها فتشكل تهديداً للهند. والناس سوف ينسون أمر غوردون قريباً وسيجدون محوراً جديداً لذاك الهاجس الاستعماري غير الصحي. وحين يحدث ذلك ستنكمش الضمائر المرنة والموارد المالية لائتلاف غلادستون. وفي الوقت الذي كان يتحدث فيه بقوة وبصوت عال عن تعهداته بالانتقام أمام البرلمان والأمة وغارنت ولسلي، فإن ما كان يريده حقاً وأكثر من أي شيء آخر هو الانتهاء من السودان قبل موعد الانتخابات القادمة.

في حديث بينه وبين غرانفيل اعترف له قائلاً: "الأدنى في كل تلك الدوافع المؤثرة هو أننا إن لم نقتل الحرب في السودان فسوف تقتلنا، ولن تكون ميتة نظيفة"[16].

وأخذ غلادستون يبحث عن استراتيجية للخروج. لم يقبل بما اقترحه غرانفيل، لكنه قبل بعرض من ولفريد بلانت يقترح عليه أن يدرس إمكانية التفاوض مع المهدي من خلال جمال الدين الأفغاني.

في رسالة بعث بها بلانت عندما علم بسقوط الخرطوم كتب يقول: "لقد كان يوماً تجب فيه التعزية والمواساة، ولم أتمالك نفسي من الغناء في القطار طوال الطريق متسائلاً، لماذا أنا لست مؤمناً؟"

كان بلانت على ثقة أكيدة بأن غوردون قد أُسِر حياً. وقد أكد له أحد أقاربه في وزارة الخارجية الغرنون "باتون" بورك Algernon "Button" Bourk أن غلادستون على استعداد "للتعامل مع المهدي بأية شروط". وعثر بلانت على الأفغاني في فندق Hotel Wagram بباريس مسروراً بذلك الانتصار. فالنصر الذي حققه المهدي قد رفع ثمن السلام، وبالتالي رفع من احتمالات عودة عرابي إلى مصر. ومع أن عرابي كان آنذاك في سيلان لكن السلطات المصرية لم تبذل أية محاولة لمراقبة بريده أو ضيوفه. وكان عرابي قد اتفق مع الأفغاني على خطة لاقتسام الإمبراطورية المصرية بينه وبين المهدي. عاد بلانت إلى لندن يحمل اقتراح الأفغاني. وأشار إلى غلادستون أن على بريطانيا أن ترسل مفاوضاً إلى السودان[17].

وكان غلادستون في ذلك الوقت لا يزال يحسب ما إذا كانت الصحافة والرأي العام سيسمحان له بهذه الخيانة لذكرى غوردون حين يتغير موقفه في السودان على نحو مفاجئ. أما في سواكن فقد تمكن الجنرال غراهام أخيراً من إلحاق الهزيمة في صفوف المتمردين التابعين لعثمان دِقْنَه، فأمن بذلك طرق البحر الأحمر إلى قناة السويس. وفي لندن وافق المفاوضون الممثلون للقوى العظمى على مواصلة الإشراف على الأموال المصرية. وحيث إن أهم مصالح

بريطانيا الإقليمية قد تأمنت شعر غلادستون بوجود فرصة ليتخلى عن التزاماته السودانية. وفي مطلع نيسان/أبريل لعب ورقته المالية. أطلق حملته السودانية الثانية بتكلفة 11.5 مليون جنيه متضمنة مزيداً من الأموال اللازمة للتقدم نحو الخرطوم. وكان البرلمان قد وافق على تمويل حملة لتعزيز الحدود الأفغانية ضد روسيا، فوصل بذلك إلى أقصى حدود الوطنية والسخاء. وكما كان غلادستون يأمل بدأ الضغط السياسي والشعبي من أجل حملة ثانية للسودان يتضاءل. فالكارثة التي وقعت في الخرطوم باتت الآن مسرحية في الذاكرة الشعبية وليست قضية سياسية راهنة.

بتاريخ 21 نيسان/أبريل تلقى ولسلي أمراً من اللورد هارتنغتون بالانسحاب إلى وادي حلفا. فلن تكون ثمة حملة سودانية ثانية ولن يكون ثمة فرصة للثأر لغوردون وإنقاذ سمعته. سوف تحتفظ بريطانيا بمرفأ سواكن، أما ما تبقى من السودان فسيتم التنازل عنه للمهدي.

"إن هذه السياسة هي الأسوأ أو الأكثر غباءً في كل السياسات!" وارتاب ولسلي بوجود نية لدى الحكومة بأن تجعله كبش فداء للحملة الفاشلة والانسحاب. إثر ذلك فضل ولسلي اقتسام الغنائم على اقتسام اللوم والمسؤولية. واستقر به الرأي عند هدفين اثنين: غلادستون الراديكالي المرائي والسير تشارلز ولسون الذي كان برأي ولسلي سبباً في مقتل غوردون من خلال إضاعة الوقت في المتمّة.

ففي مذكراته كتب يقول: "إن السير تشارلز ولسون هو المسؤول دون شك عن كل ذلك التأخير، لكن هذا المسكين، وللأسف، فقد كل شجاعة كان يمتلكها"(18). لم يأخذ بنظر الاعتبار مساهماته هو في حدوث ذلك الإخفاق، مثل إصراره على التقدم بمحاذاة النيل الأبيض والأسابيع التي أضاعها من أجل الفرقة الكندية والزوارق التي انحرفت نحو اليابسة وذلك الحذر الذي تقدم به باتجاه مدينة بربر. ولكي يغادر السودان كان على ولسلي أن يحارب معركتين ناجحتين لقوات المؤخرة، إحداهما ضد المهدي، والثانية ضد سمعة السير تشارلز ولسون.

والآن وقد تحررت الحكومة من وعودها باتخاذ إجراء معين انحازت إلى المشاركة بالحزن العام على رحيل غوردون. أقيمت الصلوات في كنيسة وستمنستر وكاتدرائية القديس بولص حضرها جمع غفير من المشاركين في الحداد العام كان من بينهم أميرة ويلز ودوق كامبردج ورئيس أساقفة كانتربري واللورد غرانفيل. وامتلأت رفوف المكتبات بأناشيد وأشعار ومناظرات جدلية حول أنصار إلغاء الرق ودعوات استعمارية. وتفوق الشاعر وليم ماك غوناغال William McGonagall على أقرانه بقصيدة عن "الخرطوم" جعلها ترنيمة جنائزية تسوغ تلك السمعة التي جعلته أسوأ شاعر في بريطانيا.

يخيم الآن على العالم المتحضر كله، للأسف، كآبة قاتمة
حزناً على الجنرال غوردون الشجاع الذي قتل في الخرطوم
كان بطلاً مسيحياً وجندياً من جنود الصليب
ولإنكلترا كلها يشكل موته خسارة عظيمة جداً.

وكغيره من معاصريه الكثر آثر ماك غوناغال أن يعتقد بأن غوردون لم يخطئ بل كان ضحية الخيانة.

أجل، فتح الخائن ذو القلب الأسود أبواب الخرطوم
ومن خلال تلك الأبواب لقي البطل المسيحي حتفه
ذلك أنه حين فتحت الأبواب تدافع العرب بجنون نحو الداخل
وقتلوه شر قتلة وهم يضحكون ملء الأفواه[19].

وفتحت نوادي عديدة تحمل أسماء مثل "فتية غوردون" لتكون تشجيعاً للشباب البريطاني ليؤمنوا بتوجهات غوردون. وتوالت الاشتراكات العفوية لتخليد ذكرى غوردون نحتاً ورسماً. وكلفت الحكومة النحات الشهير من أصحاب مدرسة ما قبل رفائيل هو السير هامو ثورنيكروفت بإبداع تمثال من الحجر الكلسي يكون تخليداً لغوردون ويوضع في ميدان الطرف الأغر Trafalgar Square. وتطوع العديد من الرسامين بتقديم تصوراتهم للحظات الأخيرة من حياة

غوردون، حتى إن الاكاديمية الملكية أقامت معرضاً خاصاً لها. أما الرسام الميلودرامي الشديد القسوة والشهير بلوحاته الزيتية لأحداث تاريخية مثل لوحته بعنوان "الشاب نيلسون وجدته" ولوحة "وداع فلورا ماكدونالد للأمير تشارلي الوسيم" فقد أبدع لوحة شهيرة خلد فيها آخر لحظات غوردون في هذه الحياة ستصبح على مر التاريخ صورة تظهر بوضوح عصر الملكة فكتوريا سواء من حيث انعدام الدقة فيها أو بسببها.

ففي اللوحة التي حملت عنوان "وقفة الجنرال غوردون الأخيرة"، يظهر جمع من الدراويش حاملين رماحهم متجمهرين أسفل الدرج في باحة القصر مرتدين الجبب التي غُسلت مجدداً لتكوّن علامة فارقة مع وجوههم السوداء. حين انهارت الدفاعات وقف غوردون أعلى الدرج بزيه العسكري لسلاح الهندسة الملكي، ولونه الأحمر يوحي بالدماء التي سوف تسفك. ويظهر أحدهم بحجمه العملاق صاعداً الدرج وبيده رمح سوف يغرزه في جسد غوردون عن قرب. ومع أن مسدس غوردون كان جاهزاً للرمي إلا أنه قد تركه يتدلى إلى جانبه. وكانت محاولته الوحيدة للدفاع عن نفسه أن رفع ذراعه اليسرى ووضعها على قلبه مثلما فعل يسوع، قبل أن يخترق رمح جانبه الأيمن. لقد كان غوردون بنظر العامة من الناس الذين قدسوا ذكراه شهيداً مسيحياً.

غير أن غلادستون الذي نجا من السودان لم يستطع أن ينجو من تلك الأضحية التي قدمها. فالائتلاف الذي قاده لم يصمد حتى عطلة الصيف. في الثامن من حزيران/يونيو رفض البرلمان اقتراحه بإضافة بنس واحد إلى ضريبة البيرة والخمور الهادف إلى تمويل التدخل العسكري المتواصل للإمبراطورية. فاغتنم مجلس الوزراء الذي أرهقته المشاحنات الفرصة أخيراً وقدم استقالته! وهذا ما أتاح للورد سالزبوري أن يشكل حكومة أقلية من المحافظين.

أخرج غلادستون كل ما لديه من مكتبه. وفي الحجرة الخالية حيث حكم على مصير غوردون ركع يصلي، قائلاً: "إنها لحظة للركوع لأعرب عن شكري لكل الأفعال التي أنجزت والقوة الممنوحة لي، ولأصلي من أجل ذهن شبيه بذهن المسيح" [20].

في شهر شباط/فبراير عام 1885 أصدر المهدي وأذاع إعلانه القائل: "واعلموا أنني عما قريب سوف آتي إلى مصر ومعي حزب الله حيث إن المشكلة في السودان قد انتهت"[21].

وفي الخرطوم خطط المهدي لتوسيع الخلافة الجديدة. نظر إلى الشرق إلى الحبشة المسيحية وإلى الغرب إلى مراكش - حيث كتب له المعجبون من هناك عارضين الانضمام إلى ثورته ـ وأهم من ذلك، نظر إلى الشمال نحو مصر.

كتب إلى الخديوي توفيق يقول: "سنكون على أهبة الاستعداد في سبيل الدين، لنطرد أعداء الله من ديار المسلمين ونمحوهم حتى آخر رجل إن لم يستسلموا أو يعودوا إلى الله"[22]. واعتمد آلة الطباعة التي جاء بها غوردون وأرسل المئات من الدعوات إلى الريف. وبينما كان ينتظر الردود انهمك المهدي في جني ثمار النصر.

ففي الساعات التي أعقبت سقوط الخرطوم أقدم الأنصار على قتل الآلاف من سكانها والتمثيل في جثثهم وقطع رؤوسهم. واستعبدوا الآلاف الأخرى وطردوا الكثيرين جداً إلى الصحراء. وألقيت في البئر أشلاء جثة غوردون التي مثلوا بها. بعد هذه المجزرة اعتقل خلفاء المهدي الثلاثة من بقي على قيد الحياة من الإناث وجاؤوا بهن إلى معسكره في أم درمان ووزعوهن في مجموعات بحسب ألوان بشرتهن. وتركوهن تحت أشعة الشمس حيث كانت الكثيرات منهن ملطخات بدماء أزواجهن وأبنائهن المقتولين، ينتظرن قادة المهدي الذين سيأخذ كل منهم نصيبه.

وكان المهدي أول من اختار آخذاً لنفسه جميع الفتيات من سن الخامسة من أجل الخدمة في حريمه في المقبل من الأيام. بعدئذ اختار الخلفاء الثلاثة محظياتهم وتبعهم باقي الأنصار. أما النساء اللاتي لم يستعبدن فقد تركن للجوع حتى الموت. ولأسابيع تلت سقوط الخرطوم أخذت النساء العاريات بالطواف في شوارع أم درمان تستجدين الطعام[23].

وأخذ أمراء المهدي لأنفسهم أفضل وأجمل الحدائق في الخرطوم. أقام الخليفة عبد الله معسكره في باحة قصر غوردون، والخليفة شريف في البعثة الكاثوليكية، واختار الخليفة علي واد حلو منزل التاجر ألبرت ماركيت Albert Marquet الذي قُتل، وانتقل الأنصار إلى بيوت الأقباط والمصريين الأكثر فقراً. حُطِّمت المرايا والأواني الخزفية بالفؤوس وقطعت الأقمشة في أشكال مربعة ليزينوا بها جببهم، وأما الذهب والفضة فقد وضعت جميعاً في خزانة المهدي الخاصة.

حُطمت إسطبلات الجنرال هيكس ليحصل المهدي على المواد لبناء منزلين خشبيين له، واحد له والآخر لحريمه. أما أمام الناس فقد كان يحض على الاعتدال بين أتباعه أما سراً فقد كان منهمكاً في الملذات التركية. وتكوّن لديه ولع بالسجاد العجمي. صار يلبس القمصان الجميلة وقبعة حريرية مزركشة. وبعد سنوات طويلة من النوم المتقشف صار ينام على فراش وثير استولى عليه من منزل تاجر بالخرطوم. وبعدما كان يعاني الجوع صار يتناول الطعام على موائد تحوي كل ما لذ وطاب من الأطعمة. كان دوماً قوي البنية لكن هذا الرخاء والطعام الشهي جعلاه الآن بديناً.

استحوذ على العديد من السراري حتى إن الأجنحة المخصصة لهن لم تستوعبهن وكان لا بد من اللجوء إلى قصر غوردون. وكان بين وقت وآخر يخرج إلى الخرطوم "للمتعة" في قصر أعدائه، وكما كان الحال في أيام شبابه كان أكبر بناء في الخرطوم هو سراي السلطان. كان يستقبل حلقته المصغرة وهو متكئ على وسادة مذهبة بينما كانت الخادمات تهززن المراوح المصنوعة من ريش النعام، أو تدلكن قدميه ويديه وعنقه. وحين يغتسل كانت المياه القذرة توزع على أولئك الذين يسعفهم الحظ لشربها تبركاً بقواه السحرية. وقام الطواشي في قصره ببيع أكياس صغيرة تحتوي على تراب داس عليه. وحين يظهر أمام المؤمنين في المسجد كان يرتدي رداءه القديم المعروف بالجبة ماراً عبر الجماهير بينما كان خدمه الطواشية يشقون له الطريق بالكرباج، وكانت النساء يركعن على الأرض لتقبيل خطواته. ولكن حين يعود إلى كوخه كان يخلع عنه الجبة[24].

خارج كوخ المهدي نشأت في أم درمان مدينة صغيرة مبانيها من الأكواخ. وتحولت هذه الأكواخ الحقيرة إلى خلية للمرض، ذلك أن الجثث التي لم تدفن ولا زالت في شوارع الخرطوم وأم درمان تفسخت بفعل حرارة شمس أوائل الربيع، وانتشرت حمى التيفوس والزحار والجدري. في السادس عشر من حزيران/يونيو حين كان غلادستون يعد العدة لمغادرة مكتبه أصيب المهدي بالحمى، حاولت زوجاته معالجته بالدواء التقليدي، وأحضرن له اليقطين مملوءاً بزبدة سائلة وخليط من قشور الرمان. وضعن هذا الخليط في أكواب من قرون الغزال الساخنة وصفائح الحديد ووضعن بوله في عينيه وكتبن الصلوات والأدعية على بطنه ويديه وآيات من القرآن على قطعة ورق غسلنها بالماء وقدمن الماء للمهدي ليشربه، ولم ينجح شيء في شفائه.

واستدعى مساعدوه الطبيب حسن زكي، وهو طبيب مصري خدم في مشفى الخرطوم عند غوردون. ورأى هذا الطبيب أنه مصاب بحمى التيفوس التي جاءته من حشرة كانت تقتات على الجرذان التي ظهرت في أوائل الصيف. ولم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً[25].

وفي غضون أيام معدودة اجتمعت عائلته وخلفاؤه حول سريره. وخارج كوخه تجمهرت الحشود من الناس القلقين ينتظرون المعجزة التي لا بد آتية. وداخل الكوخ كانت حلقته الضيقة ترقب ساعاته الأخيرة. وبتمتمة جراء الحمى عين هذا النبي الخليفة عبد الله وريثاً له.

وقال المهدي "لا إله إلا الله محمد رسول الله" عدة مرات، ثم وضع يده على صدره ومدد أطرافه بحركة تشنجية أخيرة، وأسلم الروح. كان في الثانية والأربعين[26].

وإلى جانب جثمان المهدي ركعت الحلقة الضيقة المصغرة أمام الخليفة عبد الله معترفة به خليفة للمهدي. وبينما كان جسد المهدي يغسّل ويطيّب بالروائح ويكفّن قبل الدفن انتشرت الأخبار في أم درمان. تجمهر الأنصار حزناً عليه غير مصدقين أن نبيهم قد استسلم لمرض الموت. وكان الخليفة عبد الله

إلى جانب أسرة المهدي عند قبره الذي حفر في أرضية كوخه في حين كان الآلاف من الناس قد تجمهروا عند أسوار الكوخ ليلقوا عليه حفنة من التراب.

غادر الخليفة عبد الله ذلك الكوخ والدموع في عينيه وصعد منبراً أقيم خصيصاً له خارج منزل المهدي .

وخاطب ذلك الجمع الهائل من الناس الذين أحزنهم هذا المصاب، قائلاً: "إرادة الله لا يمكن تغييرها. لقد غادرنا المهدي ودخل الجنة حيث ينتظره السرور الأبدي. ولكن علينا نحن أن نطيع وصاياه وأن نشد أزر بعضنا بعضاً كما تتراص حجارة وأسوار البيت لتشكل البنيان .... لا تحيدوا عن السبيل الذي دلكم عليه فأنتم أصحاب المهدي وأنا خليفته. احلفوا اليمين بأن تظلوا مخلصين لي "[27].

واصطف العديد من الأنصار ليقسموا يمين الولاء له، وامتد هذا الاحتفال حتى الليل. فالآن ورث عبد الله التعايشي الذي لا يقرأ ولا يكتب إمبراطورية المهدي ليكون الخليفة الأعلى لبقعة من الأرض مساحتها أكثر من مليون ميل مربع تمتد من وادي حلفا شمالاً وحتى بحر الغزال جنوباً ومن الصحراء غرباً إلى الجبال المطلة على مياه البحر الأحمر الزرقاء. كانت معظم هذه الأراضي خراباً مدمراً. فقد دمرت ثورة المهدي اقتصاد السودان وقطعت اتصالاته وأفسدت زراعته وقتلت حكومته.

وأعلن الخليفة عبد الله "الدين منصور"[28]. ثم التفت إلى حلفائه وقال إن المهدي قد أقام تحالفاً تأسس على قطبي شخصيته النبوية وعلى حقد مشترك للتركية والأتراك. وقبل أن يحل شهر آب/أغسطس من عام 1885 وباستثناء اثنتين من الحاميات التي كانت تعاني من الجوع في جنوب السودان كان قد طهّر إمبراطوريته بكاملها من الجنود المصريين والتجار المسيحيين. ومات في لحظة نجاح الثورة حيث ستكون المرحلة التالية مرحلة بناء الدولة. ومع أنه زعيم قبيلة البقارة إلا أنه لم يملك سوى القوة العسكرية لإبقاء التحالف متماسكاً. وليس لديه أي ميزة أخرى. لم يكن لديه تأييد من القبائل المحاذية للنهر. ولم يكن من

الأشراف مثل الخليفتين الآخرين محمد شريف وعلى واد حلو. وحيث إنه كان أمياً قادماً من أقصى الغرب لم يستطع أن يدعي أنه نبي فكان أفضل ما بوسعه أن يفعله إدارة حملة دعائية فاعلة ونشطة.

قال عبد الله إن ملاكاً جاءه في المنام ليؤكد له أن الله والملاك جبريل والنبي نفسه والمهدي قد وافقوا جميعاً على أنه هو "الهدى في الأرض من مشرقها إلى مغربها". وسرت إشاعة تقول إن عبد الله ودون أن يدري قد ابتلع شعرة من رأس المهدي أثناء جنازة المهدي. وتقول الشائعة "إن القلب الذي تدخله هذه الشعرة يسلم من الرياء وهي تدخله مع النور. وأن هذه الرؤيا سببها تلك الشعرة". وقيل إن هذا الملاك جاء إلى عبد الله على شكل "نور طويل يشبه الحبل في شكله". ونقل إليه رغبة المهدي بأن يقسمه إلى أربعة أقسام. ولكي يكرس نفسه وأتباعه على أنهم الورثة المخلصون للمهدي يجب عليه أن يأكل شريحة من هذا النور ويمسح وجهه بالشريحة الثانية وبالثالثة عليه أن يصبغ رايته السوداء وينثر الرابعة على الأنصار وهم يصلون. "كل طبقة تأمرها بموقعها يجب أن يغلفها ذلك النور"[(29)].

ولكي يكمل رؤيته شبّه عبد الله نفسه بورثة النبي محمد (ﷺ)، قائلاً: "في عصره لم يفتح سوى مكة وخيبر أما باقي الفتوحات فقد كانت على أيدي خلفائه من بعده". وموت المهدي قبل فتح "مكة والقسطنطينية وغيرهما من المدن" لا يقلل من شأن رسالة المهدي، فقد انتقلت قيادة الجهاد إلى "ورثته وأصحابه"[(30)]. غير أن خصوم عبد الله تذكروا بأن ورثة النبي سرعان ما دب فيهم الشقاق ودخلوا في حروب فيما بينهم.

وهنا عالج موضوع الأشراف قبل غيره. وقام بمساعدة الخليفة علي واد حلو بتجريد الخليفة الثالث، ابن عم المهدي محمد شريف من أسلحته. وجمع شقيقه يعقوب جميع جنود محمد شريف وأسلحته ومخازنه تاركاً له حارساً شخصياً واحداً ضعيفاً وتافهاً. بعد ذلك وحين جاء إلى الخرطوم أحد أقارب المهدي محمد خليل زوغال حاكم دارفور على رأس جيش - لا أحد يعرف أن مجيئه هذا كان بقصد البيعة أو على الأغلب لمساعدة محمد شريف ـ أرسل له

عبد الله قواته ليصد قدوم الزائرين وليعتقل زوغال. وكان الحاكم الجديد لدارفور ابن عم عبد الله الصغير عثمان واد آدم. ولم يمض عام واحد حتى قام عبد الله بتغيير جميع حكام المناطق عدا اثنين، كان أحدهما في منطقة نائية عند بحر الغزال، وبسبب موقعه البعيد ليس له تأثير على الأوضاع السياسية في أم درمان، والآخر كان عثمان دِقْنَه الحليف الذي له أهميته الكبرى ولا يمكن إزعاجه سيما وأن رجال قبيلته منعوا تقدم القوات المصرية والبريطانية من سواكن وطوكر.

فيما بعد تعامل عبد الله مع تلك القبائل القليلة التي لم تعترف به حاكماً على السودان. قبائل كبابيش Kababish العربية في شمال كردفان وكذلك قبيلة الدناقلة لم تعترف بالمهدي قط، وأثقلت هذا الخطأ الديني بأن زودت حملة إغاثة غوردون بالجمال. في أوائل عام 1887 استولى عبد الله على قافلة لقبيلة الكبابيش وجدوا فيها 200 بندقية نوع رمنغتون و200 جنيه نقداً. فاتخذ ذلك ذريعة لإطلاق حملة إبادة وبعد أن قتل زعيمها الشيخ صالح قطع رأسه وعلقه على سقالة في وسط مدينة أم درمان. بعد ذلك ارتكب مجزرة ضد قبيلة جهينة Juhaina على الضفة الغربية للنيل الأزرق والتي كانت حقولها الخصبة تزود أم درمان بمعظم ما تحتاجه من حبوب. وعلق رأس زعيمها يوسف الماردي إلى جانب رأس الشيخ صالح. وبقيت الحقول دون حصاد.

في عام 1888 التفت عبد الله إلى دارفور البعيدة. فقد تسبب أسره لمحمد خليل زوغال في جعل المنطقة بأسرها تقوم بثورة مفتوحة. كان في هذه المنطقة رجل يصنع المعجزات وكان ضد المهدي اشتهر باسم أبو جميزة بسبب إلقائه لمواعظه دوماً تحت شجرة تين بري، وقد جمع حوله تحالفاً محلياً ضم أنصاراً للمهدي لم يعترفوا بغيره وانفصاليين يطالبون بانفصال دارفور. تمكن أبو جميزة من خلال حملات دامت سنتين من دحر عثمان واد آدم ابن عم عبد الله مرتين قبل أن يغدو غير قادر على قيادة أتباعه في معركة فاصلة كانت أم المعارك خارج مدينة الفاشر وذلك بسبب إصابته بالجدري. قاوم جنود عثمان واد آدم بالسيوف والرماح والخناجر فدحروا المتمردين وأخرجوهم من ميدان المعركة

وقتلوا من الرجال والنساء والأطفال ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

بعث عثمان واد آدم بتقريره إلى عبد الله قائلاً: "ولا يزال فرساننا يواصلون حملتهم ويلاحقونهم حتى أبادوا غالبيتهم العظمى. طاردوهم حتى الكهوف والغابات حيث أرادوا أن يختبئوا. لكنهم قتلوا جميعاً. حتى أولئك الذين جعلوا أنفسهم قردة وذئاباً وكلاباً وأرانب ـ ذلك أن سكان البلاد الغربية قادرون على فعل ذلك ـ فهم جميعاً قتلوا حتى آخر فرد منهم. ولا يمكن إحصاء عدد القتلى"(31).

وليكمل سيطرته على إمبراطوريته هذه خطط عبد الله لعملية واسعة شاملة لنقل السكان. دعا حليفه من قبيلة البقارة إلى أم درمان. ووضع أنصاره على طول الطريق إلى كردفان وبذلك يقطع عليه طريق هروبه عند الخرطوم. ونقل القبائل المحاذية للنهر والتي لا يمكن الوثوق بها شمالاً إلى دنقلة حيث خط الدفاع الأول ضد أي غزو يأتي من مصر. وأصدر أوامره إلى الأنصار بمغادرة القصور في الخرطوم وأمرهم بالإقامة حول معسكره في أم درمان. وباتت الخرطوم شبح متحف للحظاتها الأخيرة. في الشوارع نما العشب حول هياكل عظمية بيضاء كانت أيدي وأقدام أصحابها مكبلة ولا تزال ملقاة حيث ألقيت حين نهبت المدينة. وتفككت المباني بعد أن قام أتباع عبد الله بنزع ما فيها من مستلزمات وحطموا الآجر من أجل مشاريعهم الخاصة.

كان المهدي يحلم بإقامة كونفدرالية قبلية تخدم الله. لكن هذا الحلم بعصر ألفي جديد يتسم بالتقى والورع قد بات حكماً فردياً يتميز بجنون العظمة والارتياب بالآخرين وبالاضطهاد وسياسة الحروب وارتكاب المجازر. لقد جاءت حملات عبد الله المتواصلة للقتل ومصادرة الأموال والممتلكات وإعادة توطين السكان بعد سنوات من الفوضى التي دمرت زراعة السودان واقتصاده. فقد تقلصت صادراته إلى مجرد عمليات تهريب للعبيد والذهب. في عام 1887 حصلت أول سلسلة من فيضانات النيل فجعلت مملكة عبد الله تعاني مجاعة شديدة على نطاق واسع. في بداية الثورة كان عدد سكان السودان 8.5 ملايين نسمة. وبعد ثمان سنوات تسبب السعي إلى الجنة على الأرض بمقتل أكثر من

نصفهم بسبب الحرب والمرض والجوع. ومع أن عبد الله قد وضع في رأس سلم أولوياته مركزية السلطة في أم درمان إلا أن جنوده المحاربين كانوا بحاجة للقمح وللنهب وللمزيد من العبيد. فلم يكن أمامه خيار سوى أن يوجه طاقاتهم نحو الخارج فقد حان الوقت لاستئناف الجهاد.

خاطب مقاتليه قائلاً: "أخبرني النبي بقوله 'مسموح لك أن تغزو الأحباش في أراضيهم'"[32]. وكان بذلك يخالف التعاليم الإسلامية بعدم محاربة الحبشة المسيحية، فتوجه نحو الشرق في نيسان/أبريل 1887. وكما فعل الخديوي إسماعيل قبله في السبعينيات أخفى أطماعه بالحصول على المزيد من الأراضي بذريعة الانتقام لغارات الحبشة الحدودية. فقد كان الدراويش والأحباش وعلى مدى عامين تقريباً يشتبكون في معارك حدودية بنمط العصور الوسطى؛ يهاجمون بعضهم بعضاً بالسيوف والخناجر والرماح فينهبون ويسرقون أمتعتهم ويستعبدون أتباعهم. لكن إشارات عبد الله الداعية إلى الجهاد كانت تخفي وراءها حملة واضحة للعنف والانتهازية كما كانت الغارة التركية على بحر الغزال.

وأخيراً وفي شهر آذار/مارس عام 1889 التقى قائد جيش عبد الله واسمه الزكي تَمَل Al-Zaki Tamal بالملك يوحنا ملك الحبشة وجيشه في موقع قلابات Gallabat على الحدود السودانية الحبشية، حيث سيكون هذا اللقاء آخر معركة كبرى تجري بأسلحة بحد السيف. وقاد الملك يوحنا الهجوم بفرسانه، ولأول مرة واجه الدراويش بتكتيكاتهم موجة بشرية لا تعرف اللين. وعندما أصيب الملك يوحنا إصابة مميتة أثناء القتال أُخذ إلى خيمته فتراجعت قواته معه. وعندما انتهت المعركة وضع الأنصار جثة الملك فوق تلة نصبوها من غنائمهم. وبالطبع أرسلوا رأسه إلى أم درمان ليضمها عبد الله إلى مجموعته التي تضم جثث قتلاه. في عام 1889، الذي فيه استلم الجيش البريطاني مدافع رشاشة صنع Hiram Maxim القادرة على إطلاق 500 قذيفة في الدقيقة وصل الخليفة عبد الله إلى الحضيض التكنولوجي في معركة قلابات.

حين سمع عبد الله بهذا النصر فرح فرحاً شديداً حتى إنه وزع تقرير النصر الذي بعث به الجنرال زكي في جميع أنحاء المملكة. فهذا الخليفة الذي لا

يمكن تحديه في أرض شاسعة مترامية الأطراف قد انتصر بتدميره لرعاياه بعد غزوهم. فكانت النتيجة تفكك المجتمع. قطعت الاتصالات مع العالم الخارجي وانجرف السودان نحو الجوع والمرض وصارت الفردوس المفقود للموت.

لكن أعظم جائزة كانت بانتظاره. في مطلع صيف عام 1889 وجه عبد الله أنظاره شمالاً نحو مصر. فأمر قائده في دنقلة عبد الرحمن النجومي بالتقدم نحو وادي حلفا. وقبل أن يغادر النجومي دنقلة أحرق منزله. فقد جاءت الساعة لتحقيق نبوءة المهدي.

تحدث إيفلين بيرنغ موضحاً بعض الملابسات فقال: "لم أرسل الجنرال غوردون إلى السودان للقيام بمهمة معينة بل ليبعث لنا التقارير. وقد عجز الجنرال غوردون عن إدراك الحقائق الفعلية ذات الصلة بالسودان حين قبل بهذه المهمة. وبعد وصوله إلى الخرطوم أدركها لكنه لم يستطع أن يفرض هذا الإدراك على السيد غلادستون، حيث إن تعامي هذا الأخير عن تلك الحقائق التي كانت واضحة جلية أمام العالم أجمع قد أدى إلى وفاة الجنرال غوردون والعقيد ستيوارت وكثيرين من الأبطال غيرهما"[33].

وكما فعل غارنت ولسلي أنحى بيرنغ باللوم على رؤسائه ومرؤوسيه على السواء لفقدان الخرطوم وبرأ نفسه. ولكن على غير حال ولسلي فقد ترك إيفلين بيرنغ وحده لينظف حطاماً خلّفه العمل السياسي. فقد أجبرت بريطانيا مصر على الانسحاب من السودان، ومع ذلك ما زالت مصر تطالب به ولا يزال السلطان العثماني يطالب بكل من مصر والسودان. في آذار/مارس عام 1885 أمن غلادستون سداد مصر لديونها إلى الدائنين الأوروبيين، إنما من خلال منح بسمارك الألماني الطموح مقعداً في الهيئة المختصة بالإشراف على الديون. وقد أعطى هذا الإجراء ألمانيا حق النقض الفاعل ضد أي تصرف مستقبلي تقوم به هذه المفوضية للعبث في الإيرادات المصرية التي ربما تتضمن تمويل إعادة احتلال السودان.

فقد أشار بيرنغ في تقريره إلى لندن "إن برلين وحدها وليست القاهرة هي مركز الجذب الحقيقي للشؤون المصرية"(34).

وفي تلك الأثناء لم يكن موت المهدي المفاجئ سبباً لإجراء أي تغيير في التهديد القادم من الجنوب. في عام 1885 استطاع حبيب أنطوني سلموني، وهو مسيحي من سورية تطوع للتجسس لحساب بريطانيا، أن يتسلل إلى داخل حلقة جمال الدين الأفغاني في باريس. فذكر سلموني في تقريره أنه عندما انخفض منسوب النيل إلى أدنى مستوياته في صيف ذلك العام خطط أنصار المهدي ليسدوا مجرى النهر بسد من الصخور فيدمروا المحاصيل المصرية ويسببوا المجاعة على نطاق واسع. وكان بيرنغ ضعيفاً لا يملك وسيلة للدفاع. فبعد انسحاب ولسلي من السودان لم يبق ثمة سوى قوة رمزية من جنود مصريين تنقصهم الخبرة القتالية تقيم على الحدود عند وادي حلفا، وكان جنود وقوات عبد الرحمن النجومي قد ملؤوا الفراغ في دنقلة. وإن فكر الخليفة عبد الله بالتحرك شمالاً لن تستطيع مصر حماية نفسها دون مساعدة خارجية. وأسوأ ما في الأمر أن المساعدة الخارجية الوحيدة والمتاحة كانت من النوع الخطأ.

رحل غلادستون عن الحكم دون أن يتوصل إلى تسوية حول مستقبل مصر مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. وفي شهر آب/أغسطس عام 1885 أرسل رئيس الوزراء الجديد اللورد سالزبوري السير هنري درموند وولف Sir Henry Drummond Wolff إلى القسطنطينية للتفاوض حول تسوية مصرية. وبعد شهرين وقع السلطان معاهدة أنغلوتركية بخصوص "طبيعة الرعايا الذين سوف يبحث أمرهم"، وتحسم مسألة السلطة في مصر بأن: يتولى حكم مصر اثنان من المفوضين أحدهما بريطاني والآخر تركي، وذلك لحين خروج الضباط والمسؤولين البريطانيين.

اعتقد درموند وولف أن هذه السلطة التنفيذية ذات الرأسين ستساعد مصر في "إقامة مؤسسات ينبغي أن تتضمن عناصر شرقية وغربية معاً" حيث إنه سيكون عسيراً "لرجل بريطاني مهما كان قادراً ومتمكناً من المصالحة أن يتوصل إلى اتفاق مع أعراق عانت كثيراً بسببنا". وهذا الأمر ينطبق أيضاً على

السودان. ورأى وولف أن المسلمين والمتمردين في السودان يعترفون بالسلطان العثماني خليفة للمسلمين بصرف النظر عن المظهر الديني لثورة المهدي. من أجل ذلك تظل الدبلوماسية العثمانية أفضل وسيلة "لتهدئة السودان بأسلوب هادئ ورصين"[35].

ورد بيرنغ على ذلك قائلاً: "وهم وتضليل". فالمهدي "لم يفرق بين المسيحيين والأتراك في توجيه اللعنات لهم معاً". فالإمبراطورية العثمانية أقرب الأعداء إليه لكنها ليست العدو الوحيد.

ظل بيرنغ في موقعه بعد ثورة المهدي وبعد هزيمة غوردون وبعد خسارة السودان وبعد سقوط حكومة غلادستون. والآن تشكلت "بعض الحقائق الوهمية في أذهان الدبلوماسيين الأتراك" تهدد بعودة مصر إلى السيادة التركية والسودان أيضاً. وهذا الأمر، بالإضافة لكونه كارثة لمصر، سوف يعني نهاية حكم بيرنغ في كونه القوة المساندة لعرش الخديوي. أما البديل الذي وضعه غلادستون بأن يخفف من طموح السلطان العثماني من خلال تقاسم السلطة في مصر مع القوى الأوروبية الأخرى فقد أخفق في أزمة ثورة عرابي. فرأى بيرنغ أن التعددية و"التدويل" هما "نوع من الأنانية السياسية وعدم الاكتراث المطلق بحقوق الأعراق المحكومة، وفي حال كحال موضوع دراستنا هذه، تعني تفسخ واضمحلال القوة الأوروبية التي عليها وعلى تأثيرها الهام جداً يعتمد وصول الحضارة الحقيقية إلى مصر". فما العمل؟[36]

إن وقف المرء في شرفة فيلا القنصل ونظر حوله فلن يرى إلا بلداً واحداً قادراً على جلب "حضارة حقيقية" إلى مصر، و"تلك القوة هي بريطانيا العظمى". فالأتراك تنقصهم الكفاءة والخبرة والفرنسيون منحرفون والألمان حاقدون. بريطانيا وحدها تملك النزاهة المطلوبة. وكان بيرنغ يتوقع دوماً أن الاستثمارات البريطانية في المجالين الاقتصادي والاستراتيجي بمصر سوف تستوجب حضوراً بريطانياً دائماً بهذا البلد. وحيث إن الخديوي توفيق كان في جيبه والضباط البريطانيين في حامياتهم بدأ يخطط لانتعاش مالي لمصر من خلال احترامها لديونها عبر رفع الضرائب وعبر شفافية مالية شاملة. وقمع

بالقوة أي تحرك قومي، حتى إنه منع ولفريد بلانت من دخول البلاد ونظم عملية تدريب لجيش مصري جديد ضباطه بريطانيون، وعين قائداً عاماً جديداً له هو اللواء فرنسيس غرنفيل Francis Grenfell. غير أن هذا الحكم الاستبدادي اللطيف أعطى نتائج اقتصادية مذهلة. فمع أن المهدي كان قد حرم مصر من وارداتها السودانية غير المشروعة إلا أن اقتصاد مصر شهد نمواً سريعاً، وهذا ما أتاح لبيرنغ أن يخفض من التزامات مصر أمام حملة سنداتها وليخطط لليوم الذي تستطيع فيه مصر البريطانية أن تموّل إعادة احتلالها للسودان.

يمكن القول إن بيرنغ لم يتلق أي مساعدة من لندن. في الفترة 1885 وحتى 1887 تغيرت الحكومة أربع مرات. فاللورد سالزبوري والمحافظون ركزوا كثيراً على مشكلات غلادستون في السودان عندما كانوا في المعارضة، وحين أصبحوا في الحكم عملوا كما فعل هو في مصر. في بادئ الأمر رفض سالزبوري تشكيل حكومة أقلية وذلك حتى أقنعته الملكة فكتوريا شخصياً بأن يقوم بواجبه الوطني. ثم استقال بسبب الخلافات حول إيرلندا، واستمرت حكومته المكلفة بتصريف الأعمال لمدة عام واحد. في شباط/فبراير عام 1886 عاد غلادستون ليشكل وزارته الثالثة، لكن هذا العجوز لم يكن أفضل من سلفه. وبعد أن تحالف مع القوميين الإيرلنديين قدم غلادستون قانوناً منح إيرلندا بموجبه حكم محلياً وطنياً Home Rule. لكن هذا القانون أدى إلى حصول انشقاق في حزب الأحرار. وفي تموز/يوليو 1887 عاد سالزبوري إلى الحكم ومعه أغلبية تمكنه من النجاح.

في تلك الأثناء كانت المفاوضات بين سير هنري درموند وولف ومستشاري السلطان العثماني تسير قدماً للأمام إنما بخطى وئيدة. بتاريخ 22 من شهر أيار/مايو 1887 قدّم وولف أخيراً إلى لندن المسوّدة النهائية لمعاهدة أنغلوعثمانية. تنص المادة الخامسة منها على أن بريطانيا وتركيا قد وافقتا على قيام بريطانيا بسحب قواتها من مصر في غضون ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع السلطان على هذه المعاهدة. ولن يكون الانسحاب غير مشروط، فقد احتفظت بريطانيا لنفسها بحق إلغائها إذا لاح "أي ظهور لخطر من الداخل أو من

الخارج"[37]. وإذا انهار "النظام والأمن" داخل مصر يكون لدى كلا الفريقين حق إرسال قوات بشكل منفرد أو معاً. ومع ذلك، بدا المشهد وكأن بيرنغ سيزاح عن عرش مصر - لكن السلطان العثماني أنقذه.

لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يثق بالأجانب عموماً، وعلى وجه الخصوص بأصدقائه البريطانيين. واتخذت محاولاته لاستغلال التنافس فيما بين القوى العظمى أشكالاً غريبة لا يمكن التنبؤ بها، ذلك أنها من جهة كانت تتسرب عبر حلقة من المستشارين كان كل واحد فيها يدعم قوة عظمى أو أخرى. وبتاريخ 26 أيار/مايو 1887 أكد السلطان للسفير البريطاني في القسطنطينية السير وليم وايت William White أنه يعتزم التصديق على المعاهدة. وبعد أسبوع واحد أعرب له منجّمه أبو الهدى عن تأييده لأفكار أنصار فرنسا وروسيا، فرفض السلطان التصديق على المعاهدة.

توقع السير هنري درموند وولف حصول تغيرات في الانحيازات نحو الأقطاب، وأن هذه التغيرات ستعيد إلى ذهن عبد الحميد أن بريطانيا هي حليفه الرئيسي. وبقي وولف في القسطنطينية لمدة شهرين منتظراً السلطان ليتراجع عن موقفه وذلك إلى أن نفد صبر سالزبوري الذي استدعاه للعودة إلى لندن. وعندما أدرك السلطان عبد الحميد أنه من خلال رفضه مساعدة بريطانيا في رحيلها عن مصر يكون قد تخلى عن أفضل أمل لديه باستعادة ذلك الإقليم الغني، أمر سفيره في لندن بتجديد المفاوضات، لكن اللورد سالزبوري رفض.

وبعث اللورد سالزبوري برسالة إلى عبد الحميد الثاني يقول فيها: "طالما أن السلطان يتأثر بنفوذ مستشارين آخرين نصحوه برفض اتفاقية كان حتى وقت قريب يؤيدها فإن أي اتفاقية جديدة تبقى عرضة للمصير عينه"[38]. ومثلما فعل سابقاً في عام 1882 أضاع السلطان فرصة استعادة مصر إلى الإمبراطورية العثمانية. لقد فعلت بريطانيا كل ما تستطيع لمغادرة مصر، لكن خطأ السلطان أظهر أنه لا بديل أمام تمديد الاحتلال.

كان بيرنغ يعد العدة لذلك طوال تلك الفترة. فقد تابع هذا القنصل أعماله

لإعادة بناء مصر بافتراض أن بريطانيا باقية، وذلك برغم التغيرات البطيئة للحكومة في لندن وتلك الحفلة الراقصة بين السير هنري درموند وولف ومستشاري السلطان في القسطنطينية. في عام 1888 وللمرة الأولى منذ هبوط أسعار القطن في أواسط الستينيات سجل بيرنغ فائضاً صغيراً في حسابات مصر، فانشأ على الفور صندوق احتياط "للمصاريف غير العادية"[39].

وكان يأمل بتجميع الفوائض المسجلة في الميزانية المصرية لكي تتمكن مصر من تمويل احتلالها للسودان من مدخراتها حين تحين ساعة استعادة ذلك البلد. وبتلك الطريقة يستطيع تجاوز "التدويل"، وبخاصة مفوضية الإشراف على الدين وخطر اتخاذ ألمانيا لحق النقض "الفيتو". لكن أعضاء المفوضية أصروا على وجوب خضوع تلك الواردات للتقسيم الدولي. ووافقت حكومة سالزبوري على ذلك لأنها كانت تريد اجتناب مواجهة حول قضية افتراضية. لكن بيرنغ تابع إرسال توصياته إلى لندن بأن إعادة احتلال بريطانيا للسودان أمر حتمي من الناحية الاستراتيجية، ووافق سالزبوري على تحليله هذا. ولكن طالما أن لبريطانيا مجالاً للاختيار فقد آثرت الحكومة عدم تمويل أي حرب صعبة ومكلفة في السودان.

في تلك الأثناء كان بيرنغ يقتطع شرائح صغيرة من الميزانية المصرية لتمويل أعمال تدريب الجيش المصري، حصنه الوحيد بمواجهة "القبائل البربرية" فيما وراء وادي حلفا[40]. ولم يشهد الموقف المصري تغيراً نحو الأسوأ ولا تحسناً. وكان بيرنغ يمتلك معلومات ممتازة حول الانهيار الحتمي والمتوقع لإمبراطورية الخليفة عبد الله في السودان، حيث إن ضابط الاستخبارات الرائد ريغينالد وينغيت Reginald Wingate قد أنشأ شبكة تجسس فاعلة في ذلك البلد. وعند البحر أسس كتشنر تحالفاً من القبائل غير الموالية للخليفة وتمكن من طرد وملاحقة المهاجمين بقيادة عثمان دِقْنَه حتى الجبال. ومع ذلك لم يكف بيرنغ عن الإحساس بالقلق إزاء الحشود عند الخليفة عبد الله وضعف الدفاعات المصرية والخبرة التي لم تخضع للتجربة لدى قواته الجديدة. وليذكّر بيرنغ بأن عمله لم ينته بعث خليفة عبد الله برسائل شتائم تهدد بذبح جميع الكفار في القاهرة.

بعد هزيمة الجيش المصري في معركة التل الكبير، وبعدما حُلّ هذا الجيش في أعقاب ثورة عرابي، أعيد تنظيمه من أجل حملة قادها هيكس Hicks حيث لقي الهوان والذل جراء هروب الجنود في السودان. فأعاد بيرنغ بناءه من جديد من القاعدة للأعلى. ولم يكن في صفوفه غنائم من العبيد، ولم يكن ضباطه من الفاسدين الذين كانوا ينهبون جنودهم. وقام ضباط بريطانيون بتدريب هؤلاء المجندين الجدد الذين وضعوا بإمرة ضباط بريطانيين ومصريين معاً. فوصل عديد قوة "تخوم النيل" في صيف عام 1889 إلى عشر كتائب من المشاة المصريين وست كتائب مشاة سودانيين، وثماني كوكبات من الفرسان وثمان فصائل من فرقة الهجانة، تساندها جميعاً مدفعية فرسان، ومدفعية ميدان وبطارية من المدافع الرشاشة الجديدة ماركة مكسيم Maxim بالإضافة إلى كتائب النقل وكتائب سكة الحديد.

في شهر أيار/مايو 1889 سمع بيرنغ بتحرك الجنرال النجومي منطلقاً من دنقلة، ولديه أكثر من ستة آلاف من المحاربين يساندهم رتل من النساء والأطفال، نحو الشمال بمحاذاة النيل. وكما كان الحال في حملات المهدي السابقة لم يحمل النجومي أية مؤن، فقد كان يأمل بأن يزوده الله، أو بعض السكان المحليين على الطريق، بما يلزمهم من طعام. لكن سوء موسم المحاصيل وأولئك السكان المحليين الذين كثر لديهم اللاجئون كان سبباً لجوع هؤلاء المقاتلين في رحلتهم، وسرعان ما صار تقدم هؤلاء الدراويش يشبه تقهقراً غير منظم.

وما هي إلا أيام قليلة حتى صار هؤلاء الأنصار يأكلون بذور التمور بعد سحقها وحيوانات أحمالهم. ولكي يبتعد عن وادي حلفا والزوارق المصرية على النيل قاد النجومي قوته عبر الصحراء إلى بلاجة Balaja. ومرة أخرى لم يجد الطعام والماء في طريقه. وعندما حاول أن يشق طريقاً له بالقوة باتجاه القرى المحاذية للنهر أنزلت السفن المصرية قواتها وأجبرته على التراجع. العديد من رجاله أنهكهم العطش في الصحراء وآخرون كُثُر هجروه. وترك رتله خلفهم العديد من رجال يحتضرون وحيوانات نافقة وذخائر متروكة على قارعة الطريق.

حين أقام معسكره في بالاجة لم يبق مع النجومي سوى ثلاثة من رجال مدفعيته البالغ عددهم 35. معظم حراسه الشخصيين تخلوا عنه، حتى من يحمل له الماء تركه ورحل.

قاد اللواء غرنفيل Grenfell قوة "تخوم النيل" الجديدة جنوباً لملاقاة المهاجمين. وعندما سمع غرنفيل بالحالة التي وصل إليها النجومي عرض شروطه، قائلاً:

"سيأتي ورائي الألوف من الجنود الإنكليز والمصريين. وإنني أفكر بمحوكم عن وجه الأرض وإبادة أي آثار تخلفونها، أنتم ومن يتبعكم بسبب الأفعال البربرية التي ارتكبتها أيديكم". ونكّر النجومي بأنه لا مكان أمامه يلجأ إليه، مؤكداً: "حيثما ذهبت ستجد جيوشاً إنكليزية ومصرية درّبت أفضل تدريب ولا تحلم إلا بسفك دم أعدائها. هم ينتظرون قدومكم، ساعة بساعة، ليشربوا دماءكم وليلحقوا بكم الدمار والخراب". ثم طلب إليه أن يحقن دم أتباعه في المعسكر، قائلاً: "إن استسلمت فسوف تنقذ حياتك وحياة ضباطك وحياة كل من معك من كل شر يلحق بهم".

لكن النجومي رد على ذلك بعنف الولاء للمعتقد، قائلاً: "إن هدفنا أن ندخل إلى البلد وأن نجبر جميع أهلها على الدخول في الدين. لا تكن مخدوعاً بما لديك من جنود ومدافع وصواريخ أو بكمية ما لديك من مسحوق البارود فهذا كله بعيد جداً عن عون الله". وحذر غرنفيل بأن عليه أن ينتظر مصيراً مثل مصير "هيكس وغوردون وأشباههما" الذين لم يكن لجنودهم ولا لأسلحتهم أي قيمة. "إذا اعتنقت الإسلام وسلمت جميع أسلحتك ومدافعك فسوف تنجو ويكون لك الأمان من الله ورسوله والمهدي وخليفته"[41].

بتاريخ الثالث من آب/أغسطس عام 1889 التقى الجيشان على الضفة الغربية للنيل الأبيض قرب قرية توشكي Toski. وعندما تقدم ما يزيد عن 3,000 من أتباع النجومي سريعاً للأمام بكل ما تبقى لديهم من قوة تشكلت قوة "تخوم النيل" في صفوف وبدأت بإطلاق النار كما لو كانت في ميدان العرض

بالقاهرة. مدافع مكسيم الجديدة حصدت الأنصار الذين لم يعرفوا الخوف وجعلتهم في أكوام، وتكومت أرديتهم من الجبب البيضاء في أكداس كأنها قطن جديد. أصيب النجومي بثلاث طلقات فحمله حراسه من ميدان القتال ووضعوه على جمل ورحلوا بعيداً، لكن رشقات مدفعية من الجيش المصري قتلت الحراس والجمل وابنه البالغ من العمر خمس سنين وجنراله أيضاً.

بعد أن غاب عن المشهد أولئك الباقون على قيد الحياة من ذاك الهجوم الشرس عائدين إلى دنقلة استسلم الآلاف من الأتباع الجياع في المعسكر. تبدد هجوم الخليفة عبد الله على مصر في أول مواجهة مع الجيش المصري الجديد. غير أن ما يهم الخليفة عبد الله هو الحفاظ على سلطته في أم درمان أكثر مما يهمه تحقيق رؤية المهدي بثورة دائمة، وعندما أرسل قوة غير كافية إلى مصر، فقد توقع أن تجد هذه القوة في مواجهتها خليطاً متنافراً من المصريين الخائفين، لكنه رأى الأنصار يبادون أمام جيش جيد التدريب وأسلحة حديثة.

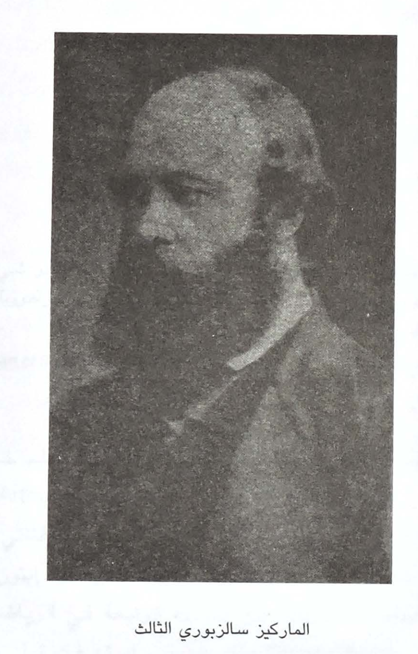
في تقرير بعث به غرنفيل إلى لندن أشار: "يدعوني واجبي أن أنقل لكم بسرور الحالة الممتازة للجيش المصري بمناسبة ذاك الهجوم في توشكي. لقد كان أداء الجنود السود قد اختبر في مناسبات سابقة، لكن أداء القوة المصرية الخالصة كان أداءً مرضياً حين كانت على تماس مباشر في تشكيل قتالي مع الأعداد الهائلة من الدراويش"[(42)].

لقد أظهرت الهزيمة التي ألحقوها بالأعداء في معركة توشكي أن الجنود حين يتلقون التدريب الملائم والجيد يستطيعون أن يقاوموا هجوم الأنصار بأسلحة رشاشة ممتازة. لكن تبين للحكومة في لندن أن العودة لاحتلال السودان ليست في الوقت الراهن أمراً مستعجلاً بعد أن رأت أن مصر يمكن أن تدافع عن نفسها بميزانية محدودة وطالما أن فائض ميزانية مصر يخضع لرقابة المفوضية المشرفة على الدين. وطالما أن بيرنغ وقائد الجيش العام يضمنان قناة السويس والطريق إلى الهند فلن يسمح سالزبوري بأية عمليات عسكرية.

وكان لدى بيرنغ أسبابه الخاصة للموافقة على ما رآه سالزبوري. توسعة

الجيش المصري سوف تؤدي إلى ارتفاع "المحصول الكلي للمصاعب المحلية والدولية" في الأموال المصرية. وإذا سمح للخديوي توفيق وحكومته أن يستعيدوا السودان دون إشراف من أحد، فإن بيرنغ يتوقع "الخطر الأشد" في العودة إلى سوء الحكم والإدارة[43]. وبدا البديل الآخر المرغوب والمطلوب وهو قوات بريطانية، بعيد المنال. وفي الوقت نفسه تضاءل كثيراً تأثير جماعات الضغط التي تنادي بإلغاء الرق في السياسة الإفريقية للحكومة بسبب تعمق التورط الاقتصادي والاستراتيجي لبريطانيا. ولم يبق سوى "شريحة صغيرة ولكن مؤثرة في الرأي العام" لا تزال على عهدها تطالب باحتلال السودان، وكان بيرنغ أكثر ذكاءً من أن يتحالف مع هكذا أقلية. في عام 1886 تبين له من حساباته أن الحكومة المصرية تحتاج لخمسة وعشرين عاماً لتصبح قادرة على تمويل احتلالها للسودان دون عون من الأموال والجنود الإنكليز[44]. وعلى السودان أن ينتظر ومعه ذكرى غوردون التي لم تنطفئ.

أما غوردون فقد وقف بتمثاله المنحوت من صخر ديربي شاير الكلسي ينظر من ارتفاع ثلاثة وعشرين قدماً إلى تلك العربات الدائرة في ميدان الطرف الأغر Trafalgar، وينظر إلى شارع وايت هول White Hall ونحو البرلمان، مرتدياً سترته الميدانية دون حزام ولا يحمل سلاحاً سوى "عصا النصر"، يحدق دون أن يرى في قلب الإمبراطورية السياسي وذراعاه مطويتان، وقدمه اليسرى على مدفع محطم، حاملاً بيده اليسرى إنجيلاً، ورافعاً يده اليمنى إلى ذقنه كما لو أنه يفكر في هدف بعيد لن يحرزه.



الماركيز سالزبوري الثالث

الفصل العاشر

بيضة غلادستون

1896–1889

"لم أجد صعوبة في العثور على مكاتب الشركة. فقد كان أكبر شيء في المدينة يعرفه جيداً كل من التقيتهم. كانوا يعتزمون إدارة إمبراطورية عبر البحار وكسب أموال لا نهاية لها من التجارة".

جوزيف كونراد، من روايته Heart of Darkness, 1899 [1]

كان طفلاً تكثر إصابته بالمرض، تلقى تعليمه على يد معلم خاص في قصر أجداده، فكبر اللورد روبرت آرثر تالبوت غاسكوين سيسيل Lord Robert Arthur Talbot Gascoyne-Cecil من طفل رقيق ومتوحد هو الطفل الثاني لأبويه ليصبح شاباً كبيراً صعب المراس لا هدف له. أخرجه والده من كلية إيتون Eton بعد أن ضربه رفاقه الطلبة، نال شهادة من الدرجة الرابعة في الرياضيات من كلية كرايست تشيرش Christ Church بأكسفورد. راودته فكرة أن يصبح أسقفاً إنجيلياً وكان يتلهى بمجموعته النباتية وأصيب بالاكتئاب. غير أن والديه اللذين آلمتهما حالة ولدهما الشاحب والمتوحد أرسلاه في جولة عبر الإمبراطورية آملين بأن الهواء النقي والصحبة الجيدة سوف تحسن وضعه الصحي والذهني.

ونجح هذا العلاج علماً أنه لم يكن كما أريد له. فقد تولد لدى سيسيل شعور بالمرح وهو وسط جماعة من المنقبين عن الذهب في جنوب إفريقيا، وملأ بنيته هذه بطعام مداري وغدا شديد الحماس للمهمة الأخلاقية والاقتصادية لبريطانيا في هذا العالم. وبدافع شده لممارسة هذه الثقة الجديدة بنفسه أغرم بجورجينا آلدرسون Georgina Alderson ابنة محام، وتزوجها بالرغم من معارضة أهله، وبدأ يكسب عيشه لإعالة أسرته بالعمل الصحفي السياسي. في

عام 1866 وبعد وفاة شقيقه الأكبر دخل البرلمان باسم الفايكونت كرانبورن Viscount Cranborne، نائباً عن حزب المحافظين (التوري Tory)، وكان ضيق الأفق له أسلوبه الخاص.

دخل كرانبورن عالم السياسة كما يدخل سباك شديد الحساسية في مصرف مسدود للمياه القذرة، وذلك بدافع من الواجب أكثر منه دافعاً بالرغبة. فأسرته عملت بالسياسة لقرون خلت في خدمة بريطانيا. فقد كان اللورد بيرغلي Lord Burghley الجد الأعلى لهذه العائلة الوزير الأول لدى الملكة أليزابيت الأولى، وكان ابنه روبرت سيسيل في هذا الموقع عينه لدى الملك جيمس الأول. وخلال القرنين التاليين عمل أفراد من عائلة سيسيل من مختلف القدرات والكفاءات الذهنية في هكذا مواقع رسمية وبداعي الإخلاص والولاء أكثر من الكفاءة والموهبة. ولد كرانبورن في نهاية عصر عرف بعصر التأهيل، وخدم في عهد الثورة الليبرالية التي لم تسفك فيها الدماء، وكان من شأن قانون الإصلاح الانتخابي أن وسع دائرة من يحق لهم التصويت. كان وزير دولة لشؤون الهند في حكومة اللورد ديربي Lord Derby، ثم استقال احتجاجاً على قانون الإصلاح الثاني لعام 1867. وبعد موت والده عام 1868 صار عضواً في مجلس اللوردات باسم الماركيز سالزبوري الثالث 3rd Marques of Salisbury. ومن المقدر له أن يكون نهاية سلسلة الامتيازات القديمة، وآخر نبيل يحق له أن يتولى منصب رئيس الوزراء دون أن يتخلى عن لقب النبالة.

كان طويل القامة عريض المنكبين يزن نحو 18 سْتُوناً [114 كلغ تقريباً] بحسب الميزان الذي يزن به أمير ويلز ضيوفه في قصر ساندرنغهام Sandringham. له عينان حزينتان تشبهان عيني الفقمة، ولحية تشبه سياجاً من الأعشاب يحيط بحديقة خاصة لسيد إنكليزي، وجمجمة ضخمة تتوجها قبة بيضاء من الصلع مثل قبة كاتدرائية، وعلى وجهه أمارات أحزان عاناها في مطلع حياته تمتزج بأحزان ذبول عصر أرستقراطي.

كان يؤمن بأن "الطبقات التي تمثل الحضارة، من حملة رأس المال والفكر، لها الحق بأن تطلب الضمانات لتحمي نفسها من أن تسحقها جحافل الذين لا

يملكون المعرفة التي ترشدهم وليس لهم مصلحة في تلك الثروة التي تحميهم"[2].

كان سالزبوري يزدري مبدأ حكم الشعب ولم يثق بالديمقراطية واحتقر الإلحاد. فهو يكن كل الاحترام والتقدير لمبادئ المحافظين والتورية العليا High Toryism والإنجيلكانية العليا، وحس العدل وإنصاف الأجزاء المتساوية للويغز (الأحرار) Whigs والإنجيلية. كانت مبادئه السياسية المحلية تقوم على ذلك الطرف المستدق بين مبادئ حرية الفكر والعمل عند حزب التوري (المحافظين) وعدم الثقة الأرستقراطية التي اتصف بها أسلافه لجهة أبيه، إذ ليس مهماً أن تتدخل الحكومة في الاقتصاد أو أن تنظم عملية وصول رعاياها للقمار وللكحول. ومع أنه شعر بالأسى لانتهاء عصر المسؤولية والتأهيل والحرية الشخصية فقد كان مجبراً بحكم كونه نبيلاً ومن منشأ أرستقراطي وبحكم الضمير الديني أن يضع أسس إصلاحات من شأنها أن تفكك العالم القديم وتجزئه. فكان سالزبوري، وليس غلادستون، الذي أسس مجالس المقاطعات الديمقراطية ووسع عملية التعليم المجاني والإلزامي لجميع الأطفال، وأجبر أرباب العمل على تعويض العمال الذين يصابون في عملهم. وقد فعل ذلك ليس من منطلق إيمانه بالديمقراطية إنما لأنه كان يؤمن بمسؤولية الآباء في العناية بالعامة.

كان يمقت المجاملات ويرتاب بمن يوجه له المديح والثناء ولا يثق بموظفي الحكومة الذين لا يهتمون بملبسهم حتى لو كانت رثة، ويشعر بسعادة في مخبره الخاص تفوق سعادة يشعر بها في حملة انتخابية، وظل منعزلاً عما كان يصفه غارنت ولسلي بـ "موجة الديمقراطية التي تشبه كومة من القذارة" أخذت تجتاح السياسة البريطانية بعد رحيل غلادستون[3].

ومع ذلك شكل الحكومة ثلاث مرات. وفي عصر اتسم باحترام رغبات الآخرين كان من شأن بُعْد سالزبورغ عن المواطن البريطاني العادي وثروته الخاصة الهائلة وإصراره على الشرف والأمانة في الحياة العامة أن رشحته ليكون زعيماً نزيهاً لجموع هائلة من الناخبين غير الموثوقين.

ومثل غيرها من أشياء كثيرة كانت تفتقد الانسجام في العصر الفكتوري كانت الإمبراطورية من صنعه هو. وقد فعل ما بوسعه ليرد الجميل. في عام 1874 عاد سالزبوري ليتولى وزارة شؤون الهند في حكومة دزرائيلي. كان في البداية يرتاب في دزرائيلي باعتباره يهودياً محدث النعمة، وملمحاً إلى رواية أوليفر تويست *Oliver Twist* للروائي ديكنز دعا دزرائيلي بـ"المحتال الساذج"[4].

لكن التوافق بينهما حول المصير الاستعماري لبريطانيا سرعان ما تغلب على كراهية سالزبوري لتحركات دزرائيلي الشعبية. في عام 1878 عندما تولى حقيبة وزارة الخارجية في حكومة دزرائيلي فاوض للتوصل إلى معاهدة برلين التي أنهت الحرب الروسية التركية لصالح بريطانيا، ووضع مسودة بريطانية لقرار حول المسألة الشرقية. وبعد ما يقرب من أربع سنوات في مجلس اللوردات في أعقاب وفاة دزرائيلي عاد سالزبوري عام 1885 الذي أصبح عمره 55 عاماً ليتنازل ويؤدي واجبه كرئيس للوزراء في حمأة مجلس العموم. ومن منطلق تحقيق التوازن بين واجباته المحلية واختصاصه الحقيقي استلم حقيبة وزارة الخارجية للمرة الثانية.

كانت سياسة سالزبوري الخارجية في سماتها العامة تقوم على فكرة وحيدة واضحة جيداً، ألا وهي ذلك المبدأ الذي سيُعرف سريعاً بتسمية أطلقها جوزيف تشامبرلين "العزلة الكبيرة" Grand Isolation[5]. ذلك أنه لكون بريطانيا تملك أكبر إمبراطورية في العالم فلا يمكن الوثوق بدوافع القوى العظمى. وتلك المشاركة البريطانية في حلف "الوفاق الأوروبي" أوجدت منافسين أقزاماً لها يتهافتون على فرصة لتقييد المارد أمامهم بمعاهدات متعددة الأطراف، لذلك ينبغي على بريطانيا أن تحل النزاعات بمعاهدات ثنائية لكي تفرّق وتسود وتنجح. هذا وكان من شأن تراجع قوتها التنافسية أن جعل هذا المبدأ يكتسب صفة الاستعجال أكثر من أي وقت مضى.

مع حلول عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر شعرت بريطانيا بقرب فقدان تفوقها الصناعي. فقد أتاحت الصادرات التكنولوجية البريطانية الفرصة

لمنافسيها الأوروبيين لإنشاء وتطوير قواعد صناعية قوية وبخاصة فرنسا وألمانيا. وأدرك المنافسون أن المفاتيح لقوة بريطانيا تكمن في إمبراطوريتها التي هي مصدر المواد الأولية والأسواق الخاضعة لها وأسطولها البحري الذي يسيطر على الطرق البحرية. ففي ألمانيا اعتمد بسمارك مبدأ الحمائية بصبغة الشوفينية الوطنية، ومثل ليوبولد الثاني ملك بلجيكا خرج يبحث عن مستعمرات في إفريقيا. وكان رد الفرنسيين كذلك.

يقول جول فيري Jules Ferry مهندس اتساع إمبراطورية فرنسا: "المستعمرات هي من أجل البلدان الغنية واحدة من الأساليب المربحة لاستثمار رأس المال. وفرنسا التي أتخمتها رؤوس الأموال والتي صدرت كميات كبيرة لها مصلحة بأن تنظر إلى هذا الجانب من مسألة المستعمرات"(6).

أثار هذا القول حماس إيطاليا التي كانت ترغب من حيث كونها دولة جديدة بالحصول على امتيازات دولة لها تاريخها، وأثارت حماس البرتغال أيضاً الدولة القديمة التي لها إمبراطورية هاجعة. فإفريقيا بما فيها من مواد أولية لا حصر لها وبسكانها الذين لا يملكون أسلحة حديثة ومجالات نفوذ غير معروفة أصبحت هدف التهافت الأوروبي للحصول على المستعمرات، أو لما بات يعرف الآن بـ"الاستعمار".

في عام 1884 عقد حلف الوفاق الأوروبي جلسة كانت آخر أداء له، وكان ذلك مؤتمر برلين وتحت أسماء المسيحية والتجارة والحضارة التي أُسيئ استخدامها، قسمت تلك القوى الأوروبية القارة الإفريقية إلى مناطق مصالح. وبعد بضعة أشهر من مفاوضات ومساومات وصفقات متبادلة صدر في 26 شباط/ فبراير عام 1885 "صك إعلان برلين" General Act of Berlin الذي رسم الخطوط الأولى لما صار يعرف بـ "التهافت على إفريقيا" The Scramble for Africa، أو السباق للوصول إلى وسط القارة من تلك الرقعة المختلطة الألوان للمرافئ والمستعمرات التي تشكل الآن سواحل تلك القارة.

ادعت بريطانيا لنفسها حق امتلاك حوض نهر النيل، وطالبت فرنسا

بحوض نهر تشاد في الغرب. أما ألمانيا فطالبت بمستعمرات على الساحل الشرقي والساحل الغربي للقارة تطل على الطريق البريطاني للهند عبر رأس الرجاء الصالح. واعترفت بريطانيا وألمانيا بفاعلية الدبلوماسية البلجيكية العظيمة - التي لم تكن لفرنسا - ومنحتا الملك ليوبولد الثاني مليون ميل مربع في الكونغو. وذهبت شرائح أخرى أصغر حجماً من تلك الكعكة إلى البرتغال التي كانت أول من وصل إلى إفريقيا وإلى إيطاليا التي كانت آخر من وصل.

هذا المؤتمر الذي نظم ذلك "التهافت" وبخاصة غلادستون وبسمارك، كان يهدف إلى منع ذاك الخليط المتقلب للأطماع والأوضاع من الانفجار داخل أوروبا. وفي هذا الأمر نجح المؤتمر إنما على حساب تكلفة تحمّلها الأفارقة الذين لم يُدْع أي ممثل لهم لحضور مؤتمر برلين. وهكذا كان من شأن آخر مشاركة كبرى لغلادستون في الشؤون الدولية أن مهدت الطريق لأكبر عملية مصادرات استعمارية للملكية في التاريخ المعروف.

في هذا الإطار نبه اللورد سالزبوري الليبرالي الشاب الذي أسهم في سياسة "الهجوم" قائلاً: "لقد بدأت القوى الأخرى عملية التوسع الاستعماري. ونحن لم نكن في السابق نُتعب أنفسنا في الشأن الدولي كثيراً بالمسائل الاستعمارية، ذلك أننا كنا نحتكر هذه المستعمرات. وها قد ولى هذا الاحتكار الآن "[7].

وخلافاً لما هو حال برامج الإمبراطوريات الجديدة، كانت بريطانيا تملك فعلاً إمبراطورية عالمية مترامية، وكان معظم ذلك بطريق المصادفة. فقد أسست بريطانيا إقطاعيات يملكها البيض في جنوب إفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا ودون معارضة من القوى الأوروبية الأخرى. وحتى عام 1857 حين حصل التمرد الهندي، كانت لندن توكل أمر إدارة الهند لشركة الهند الشرقية التي أدارت تلك البلاد كما لو أنها من صميم أعمالها التجارية. لكن ذلك التمرد أجبر بريطانيا على أن تنظم حكمها للهند، أما في الأماكن الأخرى فقد واصلت العمل وفق تفضيلها للنفوذ غير الرسمي وللقوة الإقناعية عند سلاح بحريتها الملكي. فإدارة المستعمرات أمر مكلف. وفي ظل نظام سلمي لحرية التجارة يكون امتلاك

المستعمرات قليل الفائدة إذا قيس بتلك الطريقة غير المباشرة وذات التكلفة القليلة والمتمثلة بإقامة "محمية" يشرف عليها حاكم محلي مستبد يكون عوناً لها.

لكن أكبر استثنائين لما تقدم ذكره كانا على طرفي القارة الإفريقية. مستعمرة الكاب في الجنوب ومصر في الشمال تطلان على أفضل الطرق البحرية إلى الهند. ومع ذلك، حتى في مصر، كان دزرائيلي وغلادستون وسالزبوري جميعاً يفضلون السيطرة غير الرسمية عوضاً عن ضم أهم إقليم في الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك كان من شأن نشوء إمبراطوريات منافسة أن أجبر بريطانيا، ذلك القائد الذي لا يدري بدوره، على مشاركة منافسيها في التهافت على إفريقيا.

لم تكن القارة الإفريقية تظهر في حسابات السياسة عندما ترك سالزبوري وزارة الخارجية عام 1880. وعند عودته إليها في عام 1886 كانت هذه القارة السمراء قد غدت مسرحاً لصراع أوروبي على المصادر وعلى المنزلة الرفيعة. وكما كان الحال عند غلادستون قبله كانت الأولوية الأولى عند سالزبوري حفظ السلام في أوروبا إنما دون الاستسلام للفرنسيين. وفي عام 1887، كان لا يزال على عهده قليل الثقة بمصر التي وصفها بأنها مزيج "غير مناسب" لتنافسات أوروبية وحماس وطني.

ذات مرة أقر في حديثه إلى بعض الأصدقاء: "أتمنى من كل قلبي لو أننا لم ندخل مصر. لو أننا لم ندخل لاستطعنا اليوم أن ننظر إلى العالم كله بازدراء. لكن المشاعر القومية ومشاعر الاستحواذ قد أثيرت، وتذوقت طعم اللحم ولن تدعها تمضي". وبخصوص السودان فقد اعترض على أولئك الذين وصفهم بـ "المجانين" الذين يؤمنون بأن "مجرد حركة سحرية من عصا الدبلوماسية يمكن جعل السودان هنداً ثانية"، فالضم وحده بغرض الضم، أو لغرض الثأر لموت غوردون فهذا عمل شوفيني، والشوفينية هي "الشقيق غير الشرعي" للوطنية[8].

ولكن حين شكلت أعمال الاحتيال والمخادعة التي قام بها السلطان

العثماني تهديداً لطريق الهند، أو عندما أصبحت مصر ذات أهمية كبرى لكرامة بريطانيا في أوروبا فلا يمكن التراجع. وقد تأكد هذا القول بظهور المطالب الاستراتيجية المتعاظمة لدول التهافت على إفريقيا. فأصبحت مصر حجر الزاوية في استراتيجية سالزبوري الإفريقية. وكان من الراديكالية ما يكفي أن أجبر على التصريح بها على نحو غير مباشر - فالأغلبية البرلمانية التي لديه كانت قائمة على دعم الليبراليين المتمردين، وأي تصريح علني سيؤدي إلى معاداة القوى الأوروبية. فاتبع واحدة من أدنى التقاليد البريطانية في إفريقيا، وعوّم فكرته هذه بالصحف.

في صيف عام 1888 وجه سالزبوري دعوة لزيارة وزارة الخارجية إلى هاري جونستون Harry Johnston القنصل بالإنابة في محمية ساحل النيجر التابعة لبريطانيا والبالغ من العمر ثلاثين عاماً، وكان مثالاً أولياً لجيل الاستعماريين البريطانيين. وبعد أن اختبره سالزبوري في موضوع سياسته في دلتا النيجر وجه له دعوة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مقر عائلة سيسيل، Hatfield House. وبعد تجوالهما في أملاك العائلة بعد حضورهما قداس الأحد الصباحي تطرق سالزبوري لمسألة تقسيم إفريقيا الوشيك.

قال متأملاً وناظراً للحظة في وجه جونستون: "المؤسف أن أحداً لم يضع المسألة الإفريقية بكل تفاصيلها وبشفافية أمام الرأي العام". ثم توقف قليلاً بعد أن أشاح بنظره قائلاً: "أعني في مقال صحفي"[9].

لكن جونستون أدرك سريعاً ما يرمي إليه، فزوده بمسودات عديدة لمقالة تنشر بالصحيفة. وفي صباح اليوم الثاني والعشرين من آب/أغسطس عام 1888 صدرت صحيفة التايمز تحمل العنوان: "سياسة بريطانيا العظمى في إفريقيا" بقلم "مستكشف إفريقي".

فقد صرح جونستون قائلاً: "لقد أجبرتنا الطموحات الألمانية والفرنسية والبرتغالية على أن نمد نفوذنا السياسي المباشر إلى جزء كبير من القارة الإفريقية". وما تملكه إفريقيا من غلال ومحاصيل وثروات يجعلها العالم الجديد

الثاني المهيأ "لأن تستثمره الأعراق البيضاء"، لكن بريطانيا تجازف بفقدان حصتها من السوق، فعرض جونستون خيارين استراتيجيين يستندان إلى سيطرة بريطانيا على مصر.

كان الخيار الأول بعنوان "من النيجر إلى النيل" ويصل مصر بالمناطق البريطانية المتوسعة في غرب إفريقيا. ومع أن هذا الطريق هو أقصر الطرق وبمقدوره أن يحقق امتداداً متواصلاً إذا وافقت فرنسا على أن تقايض مستعمراتها الإفريقية في داهومي وساحل العاج مقابل غامبيا البريطانية، وهو أمر بعيد الاحتمال. أما الخيار الثاني فقد كان أكبر وأعظم شأناً إنما كان عملياً، وهو تحقيق اتصال بين المناطق الهامة في مصر مع جنوب إفريقيا وذلك من خلال بسط السيطرة على حزام بطول 3,000 ميل بينهما. فتستطيع بريطانيا أن تتقدم شمالاً من جنوب إفريقيا نحو داخل منطقة لم يطالب بها أحد تعرف باسم زامبيزيا "Zambezia" وأن تفاوض للحصول على ممر عبر إفريقيا الشرقية التابعة لألمانيا وحتى بحيرة فكتوريا ومنابع النيل، وبذلك تربط مع تحرك ثان عبر وادي النيل باتجاه إفريقيا الاستوائية. وقد أطلق جونستون على هذا المشروع اسم "من مدينة الكاب حتى القاهرة". وقد أصبح هذا المشروع بصورة غير رسمية المسودة الاستراتيجية لإمبراطورية بريطانيا الإفريقية[10].

هذا وقد أعلن سالزبوري في دار البلدية بقاعة Guildhall عام 1889: "إن إفريقيا هي الموضوع الذي يشغل وزارة الخارجية أكثر من أي موضوع آخر"[11].

وفي ذلك العام أزال من جدران جناحه في وزارة الخارجية خرائط وسط آسيا والبلقان اللتين تشكلان الستارة الخلفية للمسألة الشرقية المعروفة. وعلق بدلاً منها خرائط جديدة لإفريقيا، وبدأ يعد العدة لملء فراغاتها.

على الضفة الأخرى للنهر ومقابل أطلال الخرطوم كبرت أم درمان واتسعت وصارت عاصمة جديدة بعد أن كانت مجرد مخيم عسكري، وامتدت مجموعة

الأكواخ العشوائية وأزقتها لمسافة ستة أميال على الضفة الغربية للنيل الأبيض.

كانت طرقها الرئيسية الثلاث تنطلق من عتبة باب المسجد، حيث يتجه الأول نحو الغرب والأطراف الصحراوية للمدينة، حيث كان الأنصار يتجمعون لأداء صلاة الجمعة ولعرض طقسي احتفالاً بالثورة. وكان الطريق الثاني يتجه جنوباً نحو منطقة النزول إلى اليابسة وحيث تنطلق الفرق العسكرية الغازية لصيد المحاصيل والعبيد في الجنوب والغرب. أما الطريق الثالث الذي دعي "درب الشهداء" فاتجه شمالاً عبر الصحراء باتجاه مصر. وأما نواة مؤسسات دولة المهدي فكانت تجتمع حول المسجد ومنطقتين بجواره هما ضريح المهدي ومنزل الخليفة حيث كانت ترسانة الأسلحة وسوق النخاسة والخزينة والسجن. أما الخرطوم فقد بقيت خالية مدمرة، ولم يبق بحالة عمل سوى حوض بناء السفن بسبب موقعه الذي يستحيل اكتشافه. وتركزت الحياة في السودان كلها في أم درمان، وتركزت الحياة في أم درمان كلها في الخليفة عبد الله.

فهو يقول دوماً: "المهدي هو الذي يمثل النبي محمداً (ﷺ) وأنا خليفته. فمن في العالم بأسره وصل إلى الموقع السامي الذي وصلت إليه؟"[12]

بلغ عبد الله هذا الخمسين من عمره فصار بطيئاً في مشيته، وجليلاً في سلوكه وتصرفاته. استبدل الصندل في قدميه بجوارب من الجلد اللين وحذاء أصفر اللون، وجبته القديمة بجبة جديدة تخلو من الرقع ومن القطن الأبيض الناصع وأهداب ملونة. وعلى رأسه كان يضع قلنسوة ضيقة من الحرير جاء بها من مكة. وكان يقوم على خدمته نحو 20 من الطواشية وأكثر من عشرة من الصبيان العبيد. وكان يفضل أن يكون خدمه المقربون من المسيحيين الأحباش أو الأطفال، لأنه كان يعتقد أن هؤلاء لا يفكرون بالتآمر عليه. وعندما يصل القائمون على خدمته إلى سن البلوغ يرسلون إلى الجيش ويتم انتقاء البدائل. كانت الأخطاء تعاقب بالجلد أو بالربط بالسلاسل حتى الموت جوعاً. وكان حوله حريم يضم مئات النساء "من السمراء ذات البشرة القاتمة وحتى السوداء"[13]، ويتم اختيارهن من جميع قبائل السودان، وكان منهن من ذوات اللون الشاحب من الأجنبيات الغاليات الثمن. عندما أجبر شقيقة سلطان دارفور المتوفى لأن

تكون واحدة من حريمه ألقت بنفسها في النيل. وحيث إن المرء لا يجوز له أن يتزوج أكثر من أربع نساء بموجب الشريعة الإسلامية فقد كان يُطلّق من يضجر منهن ويتزوج من يشتهيها. أما الجواهر من الذهب والفضة التي حظر المهدي التزين بها وكدسها في خزانته لتمويل الجهاد في مصر فقد بدأت تظهر بشكل تدريجي في أعناق أقارب عبد الله والأثيرات لديه. وتطورت لديه متعة التلذذ بالأطباق التركية والمصرية التي تطهوها زوجاته الجديدات اللاتي تحن لأوطانها، فغدا بديناً حتى صار وجهه المستطيل يغيب بين طيات الشحوم المتدلية تحت عينيه.

أخذ يخطط لأن تحكم سلالته من بعده، فهيأ ابنه عثمان ليرثه. وحين تزوج عثمان خفف والده عبد الله من ذاك الحظر الذي فرضه المهدي بخصوص الاحتفالات الباذخة، واستمرت الحفلات والمآدب لثمانية أيام دعي إليها سكان أم درمان جميعاً. أراد أن يزود عثمان بالتعليم الذي حُرم منه، لكن عثمان كان يمقت المدرسة مؤثراً "حفلات الفسق والفجور ليلاً في منزله"[14]. وتابع عبد الله حكمه للبلاد دون عون من ولده معتمداً على أخويه يعقوب والسنوسي أحمد، وعلى شبكة واسعة من الجواسيس. كان أمياً جاهلاً لا يعرف القراءة ولا الكتابة فكان يستعين باثنين من الأمناء لقراءة رسائله وتدوين إجاباته. وعندما كان يجتمع مع الرؤساء من أعوانه كانت أوامره تصدر بصيغة تلاوة قرآنية. كان يستقبل المبتهلين إليه وهو جالس على أريكة مرتفعة ومستنداً بارتياح إلى وسادة من جلد الخروف. فكانوا يدنون منه وعيونهم نحو الأرض وأيديهم مكتوفة بخضوع إلى صدورهم، ولا يجلسون حتى يأمرهم بالجلوس. وحين يجلسون يتخذون جلسة من يصلي واضعين جباههم على أرضية ترابية لقصر الخليفة في الطابق الأول من بناء مكوّن من طابقين بمدينة أم درمان.

لا يحب عبد الله أن ينظر إليه أحد. وعندما جاء رجل سوري يرى بعين واحدة فقط رفع عينه العمياء دون أن يدري في وجه عبد الله فطلب إليه ألا يدنو منه ثانية. كان المهدي يقود تجمعاً ثورياً عند صلاة الجمعة، لكن عبد الله كان يختبئ من رعاياه وينتدب أخويه لذلك الجمع. ولم يغامر بالخروج تحت

حراسة مشددة إلا أربع مرات في العام وذلك من أجل احتفالات دينية، فكانت إحدى يديه تحمل سيفاً والأخرى رمحاً من رماح قبيلة الهدندوة كان يستعين به في المشي. وحيث إنه كان يخاف من رعاياه ومن حلفائه فقد حكم بطريقة تجعلهم يخافونه.

كان المهدي عالماً فقيهاً ومؤسساً نبوياً لائتلاف واسع، أما عبد الله فلم يكن كذلك. بعد أن ورث حلم المهدي حين كان في أوجه، وفيما بين انفعالات الفتوحات وتأسيس خلافة تسود فيها عدالة الشريعة الإسلامية كان يحاول جاهداً بسط سيطرته على إمبراطوريته المترامية الأطراف. في غضون ثلاث سنوات أعاد السودان أربعة قرون للوراء. وعملت ثورته على تدمير البنية التحتية التي أقامها الأتراك تدمير تدميراً كما دمروا حامياتهم. فلم يكن للسودان خطوط برق ولا خدمات زوارق ولا خدمة بريدية. هرب موظفو الحكومة أو قُتلوا، وهدمت تجارة هذا البلد كما هدمت الزراعة وطرق الحج. وتلك السلطنات التي كانت تتقاسم الأراضي فيما بينها فتجعلها مناطق صغيرة تسهل إدارتها قد انضمت معاً لتصبح إمبراطورية واسعة تصعب إدارتها. ورث عبد الله فوضى بأوصاف القرون الوسطى.

واستجاب لذلك كله بجواب فيه صفات القرون الوسطى. جعل السودان كله سلطنة عملاقة دكتاتورية قبلية تمولها الحرب. ومع أن البريطانيين الموجودين في القاهرة وسواكن قد سمحوا بالتجارة بين السودان والخارج إلا أن هذه التجارة ظلت في حالة التقلص والانكماش، ولم يدخل البلاد سوى القليل النادر من أموال جديدة. كانت تجارة الصادرات تمر عبر بيت المال، لكن المصدر الرئيسي لها من العاج والصمغ العربي وريش النعام والسنا المكي كان في المناطق الغربية التي دمرتها الحروب والمجاعة والمرض وحيث المؤن نادرة. والغنائم التي كُسبت من الخرطوم تسربت من بيت المال وسلبها محسوبو عبد الله، أو هربها أمناء الخزينة إلى مصر. تدهورت قيمة عملة السودان، كان دولار المهدي في عام 1885 سبعة أجزاء من الفضة وجزء واحد من النحاس وفي عام 1895 أصبح الدولار في عهد الخليفة عبد الله جزأين من الفضة وخمسة أجزاء من النحاس.

لم يعد للدولة وجود على ذاك الامتداد لدكتاتورية قبلية، سيما وأن جهاد المهدي قد صار استعماراً عربياً إفريقياً. ولم تختلف حملات الإبادة التي كان يشنها الخليفة عبد الله ضد القبائل السودانية المنشقة أو حملات النهب التي كان يشنها على الحبشة في شيء عن دوافع أو نتائج الغزوات التي كان الأتراك يقومون بها.

عمل جند الله على إفراغ الريف من السكان، وعاملوا المزارعين كأنهم مصدر طعام مجاني وقوة عمل جديدة. كان سكان أم درمان البالغ عددهم 150,000 نسمه يحصلون على الجزء الأكبر من الحبوب من الجنوب. ومع حلول عام 1888 لم يكن ثمة احتياطي من الحبوب في أم درمان، ذلك أن الجنرال زكي تَمَل، أحد قادة الخليفة عبد الله، قد ذبح المزارعين ليستولي على أراضيهم. وعندما شحت الأمطار في عام 1888 عانت القبائل في سائر أنحاء السودان من المجاعة، وفي الليل كانت قطعان بنات آوى تهاجم القرى وتجر المرضى من فراشهم. أصدر الخليفة عبد الله أوامره بخصوص مركزية الحبوب في أم درمان. أما السكان في وادي النيل كله جنوب مدينة بربر فقد هلكوا وماتوا في منازلهم أو رحلوا متعثرين في طريقهم إلى العاصمة.

إن كتبت لهم الحياة وأتموا رحلتهم وجدوا أن عبد الله يستعمل الطعام سلاحاً سياسياً. غير أن أصحابه من أفراد قبيلة البقارة لهم أسبقية الحصول على أي حبوب يريدونها بأسعار مخفضة. وبينما كان ثمة أسواق متضخمة بغنائم الحبوب في أم درمان أيام المجاعة لم يكن ثمة طعام متاح للقبائل المحاذية للنهر. وقام السكان بنزع جلود الجمال المجففة عن أسطحة أكواخهم الحقيرة وشووها على النار، وصنعوا أيضاً نوعاً من الخبز من عظام الحيوانات بعد سحقها، وكانوا يموتون في الأسواق وهم يبحثون عن بقايا يمكن أن يقتاتوا بها.

وفي توصيف للحالة العامة آنذاك كتب الأب جوزيف أوهرفالدر Father Joseph Ohrwalder أحد أفراد الإرسالية النمساوية في أم درمان يقول: "إذا سار المرء في الشارع قد يعد خمسين جثة ملقاة هنا وهناك. وذلك باستثناء أولئك الذين يموتون في منازلهم. وفي الأسواق كان الباعة يقفون مع بضاعتهم

وبأيديهم عصا غليظة يضربون بها الهياكل العظمية ذات العيون الغائرة التي تسير على غير هدى. "في بعض الأحيان قد ينضم عشرون أو ثلاثون من هؤلاء البؤساء الجياع معاً ليهاجموا الباعة غير آبهين بتلك الضربات التي كانت تنهال عليهم فتغطي أجسادهم بجروح وكدمات، فيمسكون بجنون أي شيء يضعون أيديهم عليه ويلتهمونه في الحال، برغم ما به من غبار وتراب وربما يكون ملوثاً بدمائهم هم".

أما أولئك الذين يسعدهم الحظ ويشترون طعاماً فكانوا يستخدمون السلاح ليدافعوا عن أنفسهم في طريق عودتهم حين يمرون بعصابات من المشردين الجياع. انتشر أكلة لحوم البشر. وحين يقتحم الجنود منزل امرأة تكاد تموت من الجوع كانوا يجدون أنها قد أكلت ابنها الطفل كله "ما عدا أذنه وقطعة من ساقه". كان ثمة أعداد كبيرة من الموتى حتى إن الخليفة عبد الله أمر بأن تلقى الجثث في النيل أو في الصحراء شمال المدينة حيث الرياح والعواصف الرملية تصقل العظام فتجعلها كالزجاج. لكن الموسم التالي كان أفضل سوى أنه قد جلب معه الجراد، فكانت أسراب الجراد الموسمية في السنوات الأربع التالية تلتهم كل شيء في طريقها[15].

وكلما ازداد حب عبد الله وإيثاره لأفراد قبيلة البقارة ازدادت عداوة الأشراف والقبائل النهرية له. عائلة المهدي لم تقبل أن يكون عبد الله زعيماً لها. وأثناء المجاعة عانت أرامل المهدي كثيراً كما كانت تعاني القبائل الأخرى والفلاحون في الأرياف. فقد جعل عبد الله الأشراف شركاء أدنى مرتبة في ذاك الاتحاد من السلالات، وجعل ابنته تتزوج محمداً ابن المهدي. ولكن عندما حاول محمد هذا أن يقوي قاعدة قوته من خلال زواجه من إحدى قريباته الأشراف منع عبد الله هذا الزواج.

في عام 1891 دبر الأشراف مؤامرة للإطاحة بعبد الله. وعندما سمع بها اشتبك أتباعه المجاهدون بمعركة بالأسلحة النارية في شوارع أم درمان مع أتباع الأشراف. وقبض على قادة الثورة وأرسلوا بباخرة تركية عبر النهر إلى مدينة فاشودة حيث جلدوا حتى الموت بهراوات وفؤوس من رجال زكي تمل وجنوده.

واحتجز عبد الله الخليفة محمد شريف في السجن عله يحتاج إليه مستقبلاً في تعبئة عسكرية للقبائل النهرية. بعد عملية التطهير هذه لم يشكل الأشراف مصدر إزعاج لعبد الله، لكن المؤامرة بحد ذاتها أكدت له نزعة الارتياب بالآخرين لديه وبأنه قد يواجه تمرداً في أي لحظة.

وازداد ابتعاد عبد الله عن رعاياه. أمر ببناء سور عال حول منزله وحول منازل أشقائه وحراسه الشخصيين. وتحولت دعايته السابقة عن تدخل الملائكة وعن جهاد لا نهاية له إلى تيار جارف غريب لأوامر استبدادية. نهى عن الحج إلى مكة، فالحج الوحيد المقبول هذه الأيام هو الحج إلى ضريح المهدي. وعلق القسم الأعظم من التدريس الديني، عدد قليل جداً فقط من الصبية يتعلمون ويتدربون ليصبحوا مستقبلاً جباة ضرائب ومحاسبين بالخزينة. أعلن أن قبيلة الشايقية Shaygia خارجة عن القانون، وأطلق رجال قبيلة البقارة ليقوموا بعمليات نهب وتخريب وقتل لأربعة أيام. أمر رعاياه جميعاً بأن يصلوا في مسجد أم درمان المركزي، ولم يكن أمره هذا بداعي التقى والورع بل كان نابعاً من رغبة شديدة بتحطيم ما دعاه "الحياة الاجتماعية"[16] التي هي مجرد اجتماعات خاصة قد يتآمر أعداؤه فيها على حياته. وحيث إن قوة العمل قد انخفضت بسبب المجاعة فقد منع تصدير العبيد. ولم يكن أحد يجرؤ على مخالفة هذا الأمر سوى حليفه في الشرق عثمان دِقْنَه الذي كانت حروب العصابات الطويلة التي قادها ضد مرافئ البحر الأحمر لا تهدف إلا لإعادة فتح طريق العبيد إلى جدة.

وازداد ابتعاده عن أتباعه وناسه، وملأت أذنيه الأقاويل وتقارير التجسس فاستسلم للخوف ولجنون العظمة. ادعى أن تلك القبة على ضريح المهدي التي صممها مهندس معماري يعمل لدى الحكومة وقد أسر في الخرطوم والتي بنيت من مواد أعيد تدويرها أخذت من بعض القصور الفخمة كانت من صنع يديه. وكان عندما يخرج خارج إطار منزله في أحيان نادرة يركب في عربة جلبت من الخرطوم. وإن أراد أن يمتطي حصاناً كان لديه عبد عملاق القامة واجبه الوحيد أن يحمله ويضعه على ظهر الجواد أو يحمله لينزله أرضاً.

أما المشانق التي أمر المهدي بمنعها باعتبارها رمزاً غير إسلامي من رموز أدخلها الحكم التركي فقد عادت لتحث الناس على الطاعة والولاء. عندما انقلبت ضده قبيلة البتاهين Batahin أمر عبد الله أحد قادته وهو زكي تمل بجلب أكبر عدد ممكن منهم إلى أم درمان. وبعد أن لقي العشرات منهم مصرعهم في الأسر جلب الباقين وعددهم سبعون للإعدام شنقاً أمام الناس. بعد أن أرسلت الدفعة الأولى منهم وعددهم 18 وتكوموا قرب المشنقة انقطع حبل المشنقة. فنفذ عبد الله الإعدام بنحو ما يزيد عن العشرين بقطع الرأس، وطلب مجيء الجزارين في المدينة وأمرهم بقطع أيدي وأرجل الباقين وعددهم 27. "وسرعان ما تكونت أكوام من دماء نازفة جراء بتر تلك الأعضاء بينما بقيت جثث القتلى من قبيلة البتاهين تتلوى على الأرض وقطرات الألم تتصبب من جباههم". نزفت دماء الكثيرين منهم حتى ماتوا حيث هم بالرغم من أن قليلاً منهم لم يمت وعاش ليتجول متسولاً في أسواق أم درمان[17].

ذات يوم من أيام عام 1890 قال اللورد سالزبوري للسير إيفلين بيرنغ: "لن أكون مسروراً كثيراً بما يقوله لك جنودك حول الأهمية الاستراتيجية لتلك المناطق فهذا أسلوبهم وإن أتيح لهم بُعْد كامل للنظر قد يصرون على أهمية نصب حاميات على القمر ليحمونا من المريخ"[18].

لكن بيرنغ لم يطلب التقدم نحو أعالي النيل، طلب فقط توسيع موقع بريطانيا على ساحل البحر الأحمر لمسافة 50 ميلاً وتأمين مدينة طوكر. ومنحه سالزبوري طلبه وأتاح له هذه المغامرة ولكن بتهافت أو بدون تهافت، لم ير أية حاجة ملحة للمزيد من الحملات على السودان. برأي سالزبوري استحوذت بريطانيا على إمبراطوريتها هذه لأن حكوماتها وجدت نفسها مجبرة على دعم تجارها وإرسالياتها بالجنود. وكان عديم الثقة بأولئك الاختصاصيين في وزارة الحربية، وما لديهم من قناعات بأن التجارة والبعثات التبشيرية هما الأبوان اللذان أنجبا وسوف ينجبان الحروب.

وحذر بيرنغ قائلاً: "عندما تسمح مرة بتقدم عسكري للأمام فإن مدى هذا التقدم العسكري قلما يبقى في إطار قدرتنا على التصرف والاختيار. وخطوة بخطوة يقودك ابتزاز الضرورة العسكرية إلى الصحراء".

لكن سالزبوري على استعداد لأن يستمع إلى هذا الابتزاز إذا كان يؤدي إلى مواد خام وإلى زبائن جدد أو إن أبعدته عن السيطرة الخارجية. فسياسته تقوم على الاستباقية، ولغاية الآن ليس أمامه ما يدعوه ليقوم بعمل استباقي. وقد كافأ بيرنغ في تلك الأثناء على صبره بمنحه امتياز النبالة وأعطاه لقب اللورد كرومر Lord Cromer.

ولم ير سالزبوري أية فائدة لبلده في حملة يرسلها إلى وادي النيل. ربما يترك استحواذ مناطق واسعة من الصحراء أثراً لدى الرأي العام، لكن سالزبوري وحزبه لا يزالان يشعران بالألم إزاء تزامن ارتباط هجوم غوردون على الخرطوم وحكم غلادستون. وأفصح عن مشاعره تلك للورد كرومر قائلاً: "لقد تأثروا كثيراً ومن الأعماق بتلك الكوارث التي وقعت منذ ستة أعوام. ويبدو أن الضرورة التي لا ترحم والتي دفعتهم إلى مواقف كانت فيها الكوارث أمراً لا بد منه قد جعلتهم يحجمون تلقائياً وفطرياً عن أي اقتراح يدعو للتقدم داخل الصحراء المصرية"[19].

وكان أمام الحكومة في ذلك الوقت حروب ينبغي تمويلها. في أوائل عقد التسعينيات من ذلك القرن واجهت الإمبراطورية البريطانية المتوسعة اضطرابات على الحدود امتدت من أفغانستان وحتى نيجيريا. وكان سالزبوري يجد المسوغ لتلك الحروب الصغيرة التوسعية بقوله: "إنها تلك الأمواج المتكسرة على الشاطئ إيذاناً بالموجات القادمة للحضارة". لكنه لم يحارب إلا إذا كانت الحرب إلزامية. وطالما أنه لم ير "توازناً واضحاً لفائدة أكيدة" في تحويل القوات والأموال باتجاه السودان فلينعم الدراويش بسلام في فردوسهم القاسي الذي لا يرحم"[20]. وعندما وصف ولفريد بلانت هذه السياسة "بالميكيافيلية" فهو لم يقصد بها أن تكون من قبيل المجاملة[21].

ومع ذلك فقد أوشكت سياسة سالزبوري أن تحقق نجاحاً. من خلال مقايضة أوراقه ذات القيمة المتدنية استطاع أن يلعب ورقته الرابحة بعنوان من "مدينة الكاب في الجنوب إلى القاهرة في الشمال". ووافقت كل من البرتغال وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا واحدة تلو الأخرى على مطلبه بأن بريطانيا قد ورثت حقوق تركيا بوادي النيل، مقابل حصولها على اعتراف بريطانيا بما تطالب به. وأرضى بسمارك بإعطائه جزيرة هليغولاند Heligoland في بحر البلطيق مقابل التخلي عن مطالبه بالكونغو. وأبعد البرتغال التي وصفها بأنها "القوة الصغيرة المشاكسة" عن المطالبة بأراض في شرق إفريقيا من خلال إصدار تعليماته للأسطوال بالتزود بالفحم والإعداد للحرب[22].

وكانت مفاوضاته مع إيطاليا أكثر صعوبة، وتقتضي الدقة والحذر سيما وأن تحالف بريطانيا وإيطاليا يشكل دعامة قوية لسياسة سالزبوري في البحر الأبيض المتوسط. ففي شهر شباط/فبراير عام 1885 وبعد أن انسحبت الحامية المصرية من ميناء مصوع على البحر الأحمر أحبط غلادستون محاولة فرنسية مشبوهة لضم هذا الميناء من خلال دعوته إيطاليا للاستيلاء عليه لحين تستعيده مصر. وشيئاً فشيئاً أخذت إيطاليا بالتمدد والتوسع انطلاقاً من الساحل، ودخلت في حرب مع الملك يوحنا ملك الحبشة لتؤسس أول مستعمرة إفريقية لها في أرتيريا.

في شهر أيار/مايو عام 1889 وإثر مصرع الملك يوحنا على أيدي أنصار المهدي في معركة قلابات وقعت إيطاليا معاهدة مع خصمه الملك منليك Menelik من قبيلة شوا Shoa معترفة به إمبراطوراً على الحبشة. وقدم منليك لإيطاليا قسماً من مرتفعات الحبشة، وقدم له الطليان مقابل ذلك 5,000 بندقية ومليوني قذيفة و 80,000 جنيه نقداً. ثم اتخذ كريسبي Crispi رئيس الوزراء الإيطالي ذريعة له من ميثاق برلين Berlin Act وأعلن أن إيطاليا قد جعلت نفسها حامي الحبشة. أشار منليك إلى الفقرة ذات الصلة بهذا الموضوع في معاهداته التي وقعها مع إيطاليا ورأى أن ترجمة تلك الفقرة إلى اللغة الأمهرية تختلف كثيراً عن النص الأصلي باللغة الإيطالية. لكن ذلك لم ينفعه.

قرع السير إيفلين بيرنغ ناقوس الخطر حالما بدأت إيطاليا تحركها شمالاً بمحاذاة الساحل باتجاه سواكن وبالداخل باتجاه مدينة كسلا الهامة. يبدو أن كريسبي لم يقتنع بالحصول على موقع مؤقت على الساحل. فأخذ يهدد طريق سواكن ـ بربر، وإذا تمكن من الاستيلاء على كسلا فسوف يسيطر على منابع نهر عطبرة الذي يشكل الرافد الرئيسي للنيل. وعندما اجتمع بيرنغ مع كريسبي في نابولي رفض هذا الأخير من موقعه كرئيس لوزراء إيطاليا حق بريطانيا بالمطالبة بوادي النيل.

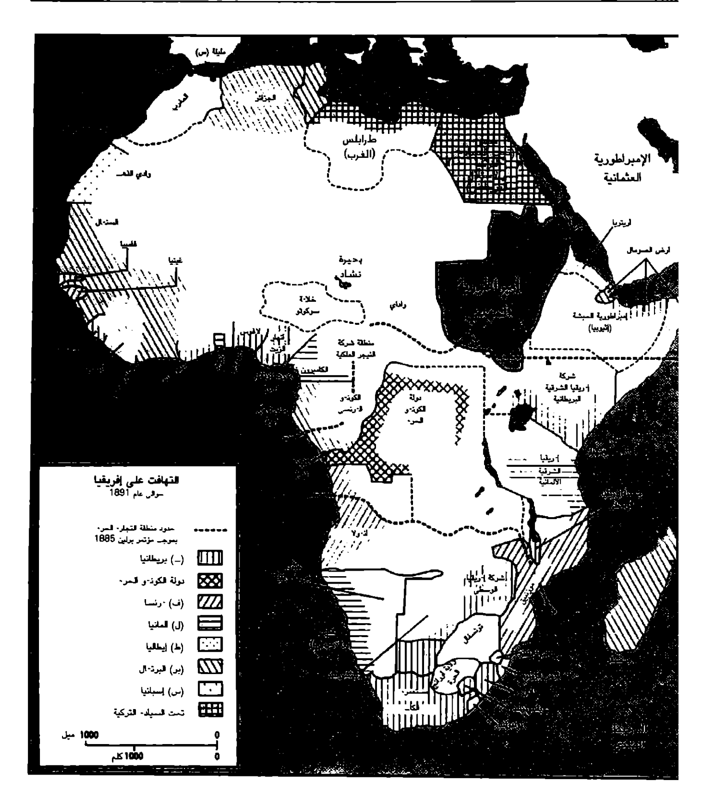
ولهذا السبب سمح سالزبوري بأن يرسل بيرنغ قوات مصرية لاحتلال طوكر، وهذا يعني أنه إن لم تصل بريطانيا أولاً إلى تلك المنطقة فسوف تسبقها إيطاليا. ومن حسن طالع سالزبوري أنه بحلول شهر شباط/فبراير عام 1891 سقطت حكومة كريسبي بسبب سياسته الاستعمارية المغامرة والتي كانت تكاليفها باهظة. فتراجع خلفه المركيز دي روديني Marquis di Rudini عن تلك المغامرات. وفي صيف ذلك العام اتفقت بريطانيا وإيطاليا بأن منطقة طوكر مصرية، وأن القوات المصرية سوف تتعاون مع القوات الإيطالية للقضاء على عثمان دِقْنَة، وأن إيطاليا سوف تبقى في منطقة كسلا طالما أن الحرب ضد الدراويش تقتضي ذلك.

لقد كان من شأن دبلوماسية سالزبوري أن جعلت ذلك التهافت الأوروبي عملية منظمة للسيطرة والاستيلاء. لكن رئيس الوزراء هذا الذي تخصص بالسياسة الخارجية لم يكن لديه ذاك الحماس نفسه للشؤون الداخلية. خسر سالزبوري انتخابات عام 1892، وكان السبب محاولاته لتفادي ذاك الوعد الذي قطعه غلادستون بإصدار قانون ثان للإصلاح، بالإضافة إلى تهم وجهت له بالتخلي عن مبدأ حرية التجارة واعتماد مبدأ الحمائية. ومع أن المحافظين قد كسبوا غالبية الأصوات وغالبية المقاعد الإنكليزية إلا أنهم لم يفوزوا بغالبية الأصوات في مجلس العموم. وتحالف النواب الإيرلنديون القوميون الذين وثقوا بوعود غلادستون مع حزب الأحرار للقيام بمحاولة أخرى من أجل الحكم المحلي وشكلوا حكومة ائتلافية.

كان غلادستون في الثانية والثمانين من عمره عندما عاد ليشكل حكومته الرابعة، وحالته البدنية والعقلية في تراجع. كف بصره في عينه اليمنى، وأثناء حملته الانتخابية في مدينة تشستر Chester رشقته "امرأة نحيلة الجسم ومتوسطة العمر بقطعة بالغة الصلابة من خبز الزنجبيل" في عينه السليمة عن بعد ياردتين فقط[23].

ولم يتعافَ بصره تماماً بعد ذلك. بعد عام واحد من الانتخابات اضطرب وغم بصره فلم يعد قادراً على القراءة والكتابة. وبدلاً من فعل أي شيء لتغيير سياسة سالزبوري الخارجية ركز جهوده على الحفاظ على تلك الأغلبية الضئيلة وعلى تمرير قانون الحكم المحلي الذي رأى فيه تتويجاً لعمله السياسي. ولم يجازف في التصدي لوزير خارجيته اللورد روزبري Lord Rosebery، الذي كان "استعمارياً ليبرالياً" مؤيداً لسياسة "الهجوم" في مصر عام 1882، وواصل الآن السير قدماً بسياسة سالزبوري الإفريقية كما لو أن حكومة سالزبوري لم تتغير.

عندما كان روزبري شاباً كان لديه ثلاثة طموحات: أن يتزوج بسيدة ترث ميراثاً ضخماً، وأن يمتلك حصاناً يكسب سباق ديربي Derby، وأن يصبح رئيس وزراء. وهو مثل غلادستون وسالزبوري خريج كلية إيتون Eton وكلية Christ Church، وترك جامعة أكسفورد دون شهادة جامعية بعد أن خيِّر بين دراسته وامتلاكه لحصان سباق. وهو مثل سالزبوري جعلته أسفاره المبكرة ورحلاته إلى المستعمرات البريطانية استعمارياً مؤمناً بالاستعمار. في مطلع العقد الثالث من عمره تزوج هنه روتشيلد Hannah Rothschild ودخل ميدان السياسة وتعاون مع غلادستون في حملته الانتخابية Midlothian الأسكتلندية. في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وحين ظهر فشل سياسة غلادستون الخارجية أصبح روزبري زعيماً محتملاً لحزب الأحرار، فهو في حزب الويغز Whigs، أرستقراطي بحكم المولد واستعماري لأنه اختار ذلك. وكان واحداً من القلائل في حزب الأحرار الذين كانت الملكة فكتوريا تقبل بهم.



وكان إلى جانب ذلك فظاً في حديثه وفي سلوكه، عصبي المزاج تنتابه
راً موجات من الغضب، وقيل عنه إنه ثنائي الجنس، وكان موضع همس كثير
الماركيز كوينزبري Marquess Queensbery، الصياد في روايات أوسكار
د Oscar Wilde. أما غلادستون فقد كان يرى فيه رجلاً من أقدر الرجال
ن التفاهم، وواحداً من أكثرهم صدقاً ونزاهة، إلا أنه يفتقد الحكم السليم على

ولم تكن له خبرة دبلوماسية. ففي إفريقيا كان روزبري يندفع بقوة حيث كان سالزبوري يسير بتؤدة. فقد قارب سالزبوري مسألة النيل من البحر الأبيض المتوسط، لكن روزبري آثر المقاربة هذه من الطرف الآخر للنهر، من بحيرة فكتوريا، حيث منابع نهر النيل الأبيض. وهذا بدوره يقتضي الوصول إلى هذه البحيرة من سواحل كينيا. وعندما رأى الفرنسيين والبلجيك يتوسعون في الكونغو، وجد روزبري أن عليه أن يتحرك سريعاً وفوراً لكي يؤمن منابع النيل. فخطط، ودون أن يستشير غلادستون، لضم أوغندا فوراً وتمديد خط سكة حديد يصل أوغندا بالساحل الشرقي لإفريقيا وبسط النفوذ البريطاني على السودان.

رأى غلادستون في خطة روزبري "فقساً للبيضة الإفريقية" التي طالما حذر منها، كما رأى التحول الكبير في حزبه. فكان رد فعله مريراً، قائلاً: "ظننت ذلك توسلاً من جمعية تبشيرية أو من شركة، أو لعلي ظننت ذلك، لولا ذاك التاريخ المثبت على ما جاءني من وزارة الخارجية"[(24)].

وشاركه في ذلك النقد السير وليم هاركورت Sir William Harcourt حليف غلادستون الدائم، واصفاً ذلك بأنه "شوفينية مع انتقام"، قائلاً إنه يفضل "أن يموت ألف ميتة على أن يرى أن له صلة بذلك"[(25)]. واستثمر سالزبوري ذلك الانقسام بين الأحرار القدامى والمعاصرين فتدخل قائلاً بإصرار إنه كان ينوي ضم أوغندا حين يرى الوقت ملائماً للضم.

هدد غلادستون بوضع الفيتو على خطة روزبري. لكن روزبري عرض أن يقدم استقالته من الحكومة، فتراجع غلادستون عن تهديده إنقاذاً لحكومته ولمشروع القانون الذي تقدم به بخصوص الحكم المحلي. وفي شهر أيلول/ سبتمبر عام 1892 اقترح حلاً وسطاً، فقد عرض أن تقدم الحكومة وبصورة مؤقتة مساعدة مالية لتمويل عمليات شركة إفريقيا الشرقية East African Company في أوغندا، وفي الوقت نفسه ترسل مندوباً مفوضاً إلى هناك لتقييم الوضع وذلك قبل اتخاذ قرار نهائي بهذا الشأن. قبل روزبري بذلك، وحاول، مثلما حاول غلادستون، أن يوجد حالة في تلك البلاد تجبر خصمه على الاستسلام لرأيه. وكسب روزبري الرهان، ولم يكن ذلك بسبب التحول الطارئ

على التوجه السياسي العام وكذلك الرأي العام تأييداً للاستعمار فحسب. وفي الوقت الذي دعا فيه غلادستون السفير الفرنسي لمحادثات حول انسحاب بريطاني من مصر أصدر اللورد كرومر صرخته من الطرف الآخر للنيل طالباً النجدة.

في صيف ذاك العام توفي الخديوي توفيق بصورة مفاجئة. ولم تكن وفاته ناجمة عن مرض بل عن عدم كفاءة أطبائه. وقد توقع كرومر أن يكون عباس الثاني متمتعاً بالمرونة ذاتها التي كان يتميز بها والده الخديوي توفيق. لكن عباساً البالغ من العمر 18 عاماً والمتخرج لتوه من المدرسة العسكرية النمساوية لم تعجبه محاولة اللورد كرومر أن يوثقه بذاك المقود القصير للخديوي. فتصرف هذا الخديوي الجديد بصلف وعدم اكتراث به وعين وزراءه من القوميين. فكان هذا التعيين بنظر كرومر يحمل نكهة عرابي الفوضوية فطلب تعزيزات فورية للحامية البريطانية.

رد غلادستون على هذا الطلب بقوله إنه يؤثر أن يضع "شعلة ملتهبة في كنيسة وستمنستر على أن يرسل المزيد من القوات إلى مصر"[26]. غير أن مشروعه لإصدار قانون الحكم المحلي قد مر في مجلس العموم، ولا يستطيع في هذه اللحظة أن يخسر روزبري، فأعطى كرومر ما طلبه من قوات وأعطى روزبري حق مراقبة سياسة الحكومة في مصر.

لكن مأساة غلادستون المصرية التي وقعت عام 1882 تكررت بهيئة مسرحية هزلية عام 1892. فمع أن رئيس الوزراء العجوز لم يستطع أن يضع لنفسه سياسة معينة فقد واصل أعمال التسويف والمماطلة لمخططات روزبري لعام آخر، حتى بعد أن أعلنت الصحافة مغادرة الحملة بلاد الغال Gallic Expedition إلى أواسط إفريقيا. ومرة أخرى عمل الجدال الدائر حول الحكم المحلي على كسر ذاك الجمود، ومرة أخرى طغت الانقسامات الداخلية بآثارها القوية على السياسة الخارجية.

في التاسع من أيلول/سبتمبر عام 1893 رفض مجلس اللوردات مشروع

قانون الحكم المحلي الذي تقدم به غلادستون. وتمسك به غلادستون لمدة ستة أشهر أخرى. أخذ إجازة من العمل لمدة شهر واحد ليقضيها في بياريتز Biarritz ومنع حكومته من الانعقاد أثناء مدة غيابه. لكنه في الثالث من آذار/ مارس وحين شعر بإرهاق شديد وبصمم جزئي وبأنه يكاد يكون كفيف البصر واجه إخفاقه الأخير. فاستقال، وصار عضواً في مجلس اللوردات.

كانت رغبة غلادستون أن يخلفه في رئاسة الحكومة السير وليم هاركورت، لكن الملكة فكتوريا أصرت على أن يكون روزبري هو الرئيس. ولم يمض على رئاسته لهذه الحكومة سوى يومين فقط حتى تحرك في إفريقيا.

في هذا السياق خاطب اللورد كرومر مؤكداً على ذلك بقوله: "لقد جاء الوقت الذي يحتم علينا تحديد سياسة بريطانيا [بخصوص] البحيرات العظمى التي تشكل منابع النيل"[27].

وحيث إن مخططات بريطانيا وفرنسا وألمانيا تلتقي جميعاً حول وسط إفريقيا فقد حاول أصغر المنافسين لهؤلاء الكبار، أي بلجيكا، أن يستثمر ذلك التوتر الناشيء. وبالرغم من أن الملك ليوبولد الثاني كان حاكماً لمقاطعة أوروبية صغيرة اشتهرت بكمأة الشوكولا أكثر من شهرتها كقوة عسكرية، إلا أنه أقام في الكونغو مستعمرة ضخمة كبيرة الحجم تعدل بحجمها حجم السودان. استعان بالخدمات الإنسانية غطاءً للاستغلال، وأنشأ نظاماً لإزالة الغابات لأغراض صناعية واسترقاق منظم يطبق نظام الإعانات الأوروبية من خلال قطع أيدي أي شخص كونغولي يعارض. وكسب ليوبولد الآن رافعة أخرى من خلال عرضه لدعم بلجيكي لكل من بريطانيا وفرنسا اللتين حاولت كل منهما تأخير تقدم الأخرى نحو أواسط إفريقيا. حصل على موافقة بريطانيا أولاً، ففي شهر أيار/ مايو عام 1894 وافق روزبري على أن يؤجر الضفة اليسرى لنهر النيل الأبيض ابتداءً من بحيرة ألبرت وحتى فاشودة للملك ليوبولد ولما تبقى له من عمر في هذه الحياة.

وفي ذلك الشهر أيضاً حقق روزبري طموحه الثاني حين فاز حصانه

لاداس الثاني Ladas II بسباق ديربي. وكرر قصة نجاحه تلك في عام 1895 بحصانه سيرفيستو Sir Visto الذي فاز في السباق دون جهد يذكر بنتيجة 9-1. لكن مغامرات روزبري بإفريقيا لم تكن على هذا القدر من النجاح والكسب. فالفرنسيون لم يسمحوا لذاك البلد الصغير المعروف باسم بلجيكا أن يحول بينهم وبين الوصول إلى البحيرات وإلى النيل. في تموز/يوليو عام 1894 أجبر المفاوضون الفرنسيون نظراءهم البلجيكيين على الاستسلام "والسكين في أعناقهم" [28]. وقع الملك ليوبولد معاهدة مع فرنسا تخلى بها عما استحوذه مجدداً واحتفظ لنفسه بشريحة صغيرة مستطيلة الشكل في الزاوية اليسارية العليا لبحيرة فكتوريا.

كان من شأن هذه المعاهدة أن أفسدت على روزبري سياسته الإفريقية. لقد قفز إلى داخل إفريقيا الوسطى آملاً في سباق جديد لامتلاك المزيد من الأراضي، وعادى القوى العظمى الأخرى وتساهل مع بلجيكا، لكنه لم يحصل مقابل ذلك على منابع النيل. أما الملك ليوبولد فيستطيع أن يجعل تلك الشريحة الصغيرة من الأرض منطلقاً يصل الفرنسيون منه إلى منابع النيل، بدلاً من أن يقف حجر عثرة أمام تقدم الفرنسيين كما كان روزبري يطمح. لقد كانت بريطانيا وفرنسا على وشك صدام مباشر بينهما في إفريقيا. وبالطبع وضع روزبري اللوم كله على الملك ليوبولد.

في حديثه مع الملكة فكتوريا أشار روزبري إلى ملك بلجيكا قائلاً: "إنه يحاول الجمع بين قوة أوروبية من الدرجة الثانية مع قوة من الطراز الأول في إفريقيا" [29].

في شهر آذار/مارس عام 1895 سمع روزبري إشاعة تقول إن الفرنسيين يعدون العدة لحملة جديدة تهدف إلى رفع العلم الثلاثي الألوان في أعالي النيل. فطلب بإلحاح من وزير خارجيته السير إدوارد غري Sir Edward Grey أن يذيع بياناً عاماً يؤكد فيه - أن بريطانيا تعتبر نهر النيل بأجمعه وبكل روافده كلها ضمن دائرة نفوذها - وأن يهدد فرنسا بعواقب لم يحددها إن هي تدخلت.

هذا وقد أبلغ اللورد غري مجلس العموم قائلاً: "إن تقدم الحملة الفرنسية بموجب تعليمات سرية ابتداءً من الجانب الآخر لإفريقيا وإلى داخل أراض معروف حقنا فيها منذ القدم لن يكون مجرد عمل غير منطقي وغير متوقع، بل لا بد وأن يعرف الفرنسيون حق المعرفة بأن ما يقومون به يعد عملاً غير ودي "(30).

وجد الدبلوماسيون في الكي دورسي Quai d'Orsay (مقر وزارة الخارجية الفرنسية) صعوبة بالغة لإيجاد مرادف باللغة الفرنسية لكلمة "غير ودي Unfriendly"، ومع ذلك فهموا ما تعنيه الكلمة. فقد كانت بريطانيا على أتم الاستعداد للحرب في سبيل أعالي النيل.

في شهر حزيران/يونيو عام 1895، وبعد مضي أسابيع معدودة على فوز حصانه Sir Visto في سباق ديربي، استقال روزبري. كان سياسياً ترك وراءه مستقبلاً مشرقاً، لكن أعصابه انهارت جراء الضغط. وجاء سالزبوري إلى الحكم للمرة الثالثة وقرر إعادة بناء سياسته الإفريقية كما يفعل كيماوي بمخبره بعد أن يسترده من تلميذ واعد لكنه لم ينضج بعد. وكان أسوأ ما في الأمر أن شائعة الحملة الفرنسية كانت صحيحة ولم تكن مجرد إشاعة.

وفي هذا السياق نفسه صرح الكولونيالست فرانسوا ديلونكل Colonialiste Franscois Deloncle قائلاً: "سوف نرد على الحلم الإنكليزي المتمثل بالشعار 'من مدينة الكاب جنوباً إلى القاهرة شمالاً' بالحلم الفرنسي المتمثل بالشعار 'من الأطلسي وحتى البحر الأحمر'"(31).

وإذا تركنا الاقتصاد جانباً فإن ما تحتاجه فرنسا هو الإمبراطورية. فقد هُزموا أمام الألمان عام 1871، وأخرجتهم بريطانيا من مصر عام 1881، وداخلياً مزقتها مشكلة دريفوس Dreyfus Affair عام 1894 ولم تعد الآن تقبل بهزيمة في عملية "التهافت على إفريقيا". فالمسألة مسألة اعتبار واحترام كما هي مسألة استراتيجية. لكنها في أواخر عام 1895 كانت مسألة ملحة أيضاً. ففي

نظر الفرنسيين ليس لبريطانيا حق قانوني في الاستئثار بملكية النيل. ولم تستطع في الوقت نفسه أن تتجاهل المعاهدات الدولية وتجعل مصر شبه مستعمرة.

في عام 1882 لم تقبل فرنسا باحتلال بريطانيا لمصر إلا على أساس أنه إجراء مؤقت. ولأكثر من عقد من الزمان الآن حاول الدبلوماسيون البريطانيون إقناع نظرائهم الفرنسيين بحسن نوايا بريطانيا، فأمنوا لأنفسهم دعماً فرنسياً لتسوية مالية في مصر عام 1885، وكذلك الأمر في مفاوضات دراموند وولف Drummond Wolff عام 1887. ومع أن الاقتصاد المصري قد شهد انتعاشاً إلا أن البريطانيين شددوا قبضتهم على مصر ودربوا الجنود المصريين وطالبوا بحقوقهم بوادي النيل. فجعل اللورد كرومر من مصر مملكة خاصة له. وكما قال المواطنون الفرنسيون المقيمون في القاهرة ليس مجدياً أن يكون الحق إلى جانبك إن لم يكن اللورد كرومر إلى جانبك أيضاً. لقد نكث البريطانيون بوعودهم ونبذوا الفرنسيين، وها هم الآن يريدون النيل أيضاً من البحر الأبيض المتوسط وحتى أواسط اللامكان.

وبدلاً من أن يخطط اللورد كرومر لرحيله بدأ الآن يخطط لبناء سد عند أسوان في أعالي النيل، وعلى الرغم من أولويته الأولى التي كان وضعها بخصوص تدفق مستقر للمياه طوال العام وحتى الدلتا، ظهر الأمن الآن في حساباته أيضاً.

وقد أشار إلى ذلك السير صمويل بيكر بقوله: "إذا أقمنا عند منابع النيل نسيطر على مصر وبقصف مدفعي كثيف من ارتفاع منخفض من المنطقة التي عندها يمر النيل عبر ممر صخري ضيق بعرض ليس أكثر من 80 ياردة لدى خروجه من بحيرة ألبرت نيانزا يمكن رفع منسوب الخزان العظيم للنيل خمسين قدماً، وبالتالي تتم السيطرة الكاملة على مورد المياه لمصر"[(32)].

تلقى كرومر في عام 1885 تقريراً استخبارياً من حبيب أنطوني سلموني من باريس يقول إن المهدي يفكر بوضع الصخور الضخمة في مجرى النيل

ليقطع جريان الماء. وفي عام 1889 فكر بالمستقبل وقال إذا فكر خصومنا الأوروبيون بالاقتراب من النيل حاملين أكثر من قطع صخرية كبيرة فعندئذ يتعين على بريطانيا أن تتدخل لحماية مصر. وفي عام 1893 عاد هذا الشبح المخيف للظهور.

فقد صرح الرئيس الفرنسي ماري فرنسوا كارنو Marie - Francois Carnot قائلاً: "أرغب في إعادة فتح المسألة المصرية".

بعد عودة سالزبوري للحكم أطلقت فرنسا سياستها الخفية للاستيلاء على النيل الأبيض فوق الخرطوم. فالتهديد بقطع مجرى المياه لمصر سوف يجبر بريطانيا على الخروج من مصر. هذا وقد نقل الجانب الفني من المخطط الفرنسي إلى كرومر أحد موظفيه. ففي شهر كانون الثاني/يناير عام 1893 ألقى فكتور برومبت Victor Prompt الخبير الفرنسي بعلوم المياه والموظف في الحكومة المصرية محاضرة أمام المعهد المصري في باريس بعنوان Soudan Nilotique، اقترح فيها أن يكون ذلك الموقع التركي المهجور في فاشودة موقعاً لبناء السد، سيما وأن إغلاق البوابات الخاصة بالتحكم بتدفق المياه في فصل الصيف سيجعل نصف المحاصيل الزراعية في الدلتا تذبل وتموت. وإن فتحت تلك البوابات على نحو مفاجئ فالفيضان الناتج سيقضي على كل شيء في مجراه.

في شهر أيار/مايو 1893 استدعى الرئيس الفرنسي كارنو إلى قصر الأليزيه وكيل وزارة الخارجية لشؤون المستعمرات تيوفيل ديلكاسيه Theophile Delcasse والمهندس فيكتور برومبت والعقيد بارفيه لويس مونتيه Parfait-Louis Monteil العسكري المحب للاكتشافات والعائد مؤخراً من بحيرة تشاد. أعطى كارنو نسخة من محاضرة برومبت إلى مونتيه قائلاً له إن فرنسا بحاجة إلى موطئ قدم على النيل.

وقال كارنو: "يجب أن تحتل فاشودة"[33].

وظل مونتيه ينتظر دون طائل لعام طويل. في بادئ الأمر أخر قيامه بالمهمة محاولات فرنسية للتفاوض في سبيل الحصول على ممر إلى النيل عبر

المستشارين في بروكسل. وفيما بعد تأخر بسبب رئيس ديلكاسيه الحذر غابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux. وعندما شعر ديلكاسيه بالإحباط اتجه إلى سُبُل أخرى لتنفيذ هذا التوسع.

تعاقد ديلكاسيه مع أحد المرتزقة الأميركيين بصفة استشاري اسمه تشارلز شيليه لونغ Charles Chaille-Long، وقد سبق له أن خدم في بعثة غوردون بالمديرية الاستوائية وألف كتاباً بعنوان "إفريقيا الوسطى: حقائق عارية عن شعب من العراة"، *Central Africa: Naked Truths About Naked People*. وهو لا يختلف كثيراً عن اللورد كرومر، حيث رأى أن المناطق الداخلية فيما وراء المرافئ على البحر الأحمر هي المفتاح للوصول إلى أعالي النيل. وكانت في ذلك الحين تحت سيطرة منليك Menelik الملقب بـ "أسد الحبشة".

قدم الفرنسيون إلى منليك الأموال والأسلحة وتعهدوا له بأن الضفة الشرقية للنيل ستكون له إن هو ساعد فرنسا في الاستيلاء على الضفة الغربية للنهر. وفي الحال ألغى معاهدته مع إيطاليا وسمح لفرنسا بتمديد خط حديدي من مدينة أوبوك Obock إلى أديس أبابا عاصمة الحبشة، ومن هذه العاصمة إلى نقطة التقاء النيل الأبيض ببحر الغزال عند سوباط Sobat. وبعدئذ أشار كل من لونغ ومونتيه بوجوب الضغط على منليك لغزو السودان وبحيث يكون لونغ نفسه مستشاره العسكري غير الرسمي.

وكان على الاستعماريين الفرنسيين الآن أن يختاروا بين أن يتقدموا من الكونغو ويتحالفوا مع أنصار المهدي عند بحر الغزال، أو أن يتقدموا من الحبشة ويحاربوا أنصار المهدي في شرق السودان. وقدم الجواب لهم اللورد روزبري. فالاتفاقية الأنغلوكونغولية تهدد باستبعاد فرنسا عن الحوض الغربي للنيل. فتحول اهتمام فرنسا من الحبشة ونحو بحر الغزال. في بادئ الأمر عملت فرنسا على إضعاف المعاهدة الأنغلوكونغولية عبر إجبار بلجيكا على العودة إلى الحديث عن المطالبة بحقوقها وأن تعيد فتح مساحة فارغة على خارطة بحر الغزال. ثم أعدوا العدة لحملة ثانية بإشراف النقيب جان باتيست مارشان Jean-Baptiste Marchand.

كان مارشان رجلاً نحيلاً قوياً لوحته شمس إفريقيا الغربية، له أنف حاد وفك طويل، وعنده هاجسه الخاص بحق فرنسا في النيل. في صيف عام 1895 تمكن من الحصول على مقابلة مع هانوتو Hanotaux المتشكك، حيث قال إن عاجلاً أو آجلاً سوف يعقد مؤتمر دولي ليحسم أمر تقسيم حوض النيل. وبعد أن حصل على 200 رجل و600 فرنك تعهد بعبور الأراضي من غرب إفريقيا الفرنسية إلى بحر الغزال، ويحدد معالم المطالب الفرنسية التي ستؤمن لها مقعداً على طاولة المؤتمر، وبحيث تكون تنقلات جماعته هذه بصورة مستترة تحت أسماء مستعارة ولن ترفع العلم الفرنسي الثلاثي الألوان إلا إذا اصطدمت بجماعة أوروبية معادية كانت تعمل أيضاً على انتهاك حقوق الخديوي والسلطان العثماني.

ومع أن الخليفة عبد الله قد سبق له وأن طارد حملة بلجيكية وأخرجها من منطقة بحر الغزال إلا أن مارشان لم يصدق بأن أتباع المهدي يشكلون أية عقبة أمامه. ومثل غيره من الاستعماريين الفرنسيين قاده انعدام ثقته ببريطانيا إلى نظريات المؤامرة. وقد سبق لفرانسوا ديلونكل أن تحدث أمام البرلمان الفرنسي في وقت سابق من ذلك العام مؤكداً أن خطر المهدي من فعل "مؤامرة بريطانية، أوجدت ودعمت وحصنت" المهدي وأنصاره لغرض استبعاد فرنسا عن الإرث الإفريقي[34].

ومارشان أيضاً لم يأت على ذكر النيل الأبيض، إنما ذكر فاشودة التي وصفها بأنها هدف الاستعماريين وكانت أيضاً مقصده النهائي، لكنه في هذه اللحظة تمالك نفسه. فقد قال إن هدفه يتمثل في "الإجبار عبر الوسائل الهادئة" على انعقاد مؤتمر دولي يمكن فيه تأمين "استعمار فرنسا لإفريقيا الذي يتعرض حالياً لتهديدات الأطماع الإنكليزية".

وتساءل مارشان قائلاً: "أليس مسموحاً لنا أن نأمل بأن الجلاء عن مصر سوف يأتي تلقائياً وبصورة طبيعية بعد الجلاء عن السودان المصرية، وأن ذلك سوف يفرض نفسه بصفة استعجال جديدة على مداولات المؤتمر؟"[35]

لكن رغبة هانوتو بتفادي أي صراع مع بريطانيا قد أبقت تكهنات مارشان

في دائرة الفرضيات وذلك إلى أن تغيرت الحكومة في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1895 ولم يعد هانوتو وزيراً فيها رافضاً أن يكون عضواً في نظام راديكالي تضمنت مشروعاته اعتماد ضريبة على الدخل. خلفه في الوزارة مارسلان بيرتيلو Marcelin Berthelot الذي كان كيميائياً شهيراً ومؤرخاً في علوم الكيمياء ولم يكن خبيراً بمصر. وبتوجيه وإرشاد من الوطنيين المتزمتين بوزارة الخارجية (الكي دورسيه Quai d'Orsay) أعطى بيرتيلو موافقته على "بعثة مارشان Le Mission Marchand" في شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1895.

من جهة أخرى رأى اللورد كرومر: "من الواضح أن أية قوة متحضرة تسيطر على مياه أعالي النيل قد تصبح في نهاية المطاف في موقف تمارس فيه نفوذاً مسيطراً على مستقبل مصر. لذلك فإنني لا أملك إلا أن أقول إنه من غير الممكن أو المرغوب فيه أن نحتفظ بعد الآن بهذا الوضع السلبي".

أما رأي القاهرة فقد كان يقضي بأنه إن لم تتحرك بريطانيا نحو أعالي النهر سوف تتعرض لأخطار دفعها إلى البحر الأبيض المتوسط. "والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه إن صدق هذا الرأي هو متى وكيف ينبغي أن تتقدم إلى الأمام؟"

وأسلم كرومر نفسه للنتائج المحتملة، قائلاً: "يجب علينا إما أن نستسلم للفرنسيين ونحاول الحصول منهم على أفضل شروط نقدر عليها والتي بحسب ما نراه حولنا قد تكون بحكم الضرورة شروطاً سيئة جداً لنا أو إذا اتخذنا أية خطوة حاسمة على حسابنا، فسوف نخوض صراعاً خطيراً مع فرنسا ... إن قوة الظروف، وأكثر من أخطاء أي وزارة أو أي فرد، قد تدفعنا إلى حالة تجعل الحرب حلاً ليس بعيد الاحتمال لكل هذه الفوضى"[36].

وعوضاً عن أن يرصد الأموال لتمويل حرب في السودان أراد كرومر أن يستخدم المدخرات المصرية لبناء سد في أسوان يكون وسيلة يتحرر بها الفلاحون من عشوائية فيضان النيل. وأوصى بأن تعمل بريطانيا على تأمين وادي النيل بصورة غير مباشرة من خلال توسيع سيطرتها على المناطق

الداخلية وراء مرافئ البحر الأحمر. وأما بالنسبة لمنابع النيل فقد حصل سالزبوري لتوه على منحة من البرلمان تقدر بـ 20,000 جنيه لبناء خط حديد أوغندا. واتفق سالزبوري وبيرنغ معاً على أن التقدم نحو أعالي النيل والدخول في حرب مع الخليفة عبد الله ليست الطريقة الأفضل لحماية المصالح البريطانية. ومع ذلك صارت هذه الاتفاقية سياستهما في مطلع عام 1896.

بعد خمسة أيام فقط من تلقي مارشان أوامره بالانطلاق في مهمته استخدم منليك ملك الحبشة البنادق الفرنسية الجديدة التي أعطيت له للقضاء على جيش إيطالي في الجبال المطلة على مدينة العدوة Adowa. فقتل رجال القبائل ما يزيد عن 6,000 رجل من أفراد كتيبة إيطالية عديدها عشرة آلاف مقاتل، وأخصوا الكثيرين من الأسرى ومثلوا بأجساد ميليشيا أسكاري Askari بأن بتروا أيديهم اليمنى وأقدامهم اليسرى.

الجدير ذكره أن منليك هذا قد تحالف مع جميع الأطراف المشاركة في ذاك "التهافت على إفريقيا". أخذ بنادق جديدة وحديثة من إيطاليا ومن فرنسا ومن روسيا. وحصل على أراض ضمها لملكه من بلاد الصومال البريطانية من خلال تقديمه العون لبريطانيا في حربها ضد الخليفة عبد الله. وحصل على أراض من بلاد الصومال الفرنسية عبر إعطائه موافقته السرية لفرنسا لمد خط حديدي يربط الحبشة بأعالي النيل. حتى إن نقضه لاتفاق مع إيطاليا كان مؤقتاً.

كان للمذبحة التي ارتكبها منليك ضد جيش أوروبي حديث ثلاث تبعات. كان أولها انهيار الحكومة في إيطاليا، والثانية تشجيع الخليفة عبد الله على محاصرة الإيطاليين الذين تقطعت بهم السبل في حصنهم بمدينة كسلا. أما الثالثة فكانت إشارة لبريطانيا لدخول السودان.

فإيطاليا اليائسة المدفوعة لاجتناب المزيد من الإهانات الاستعمارية طلبت إلى بريطانيا أن تستخدم حامياتها المصرية لتخفيف الضغط عن كسلا. ووافقت بريطانيا التي كانت راغبة بإسداء خدمة إلى حليفتها.

فبعث سالزبوري برسالة إلى كرومر يقول فيها: "لقد ألح السفير الإيطالي عليّ كثيراً لأتخذ بضع خطوات ضد الدراويش لصالح كسلا. وبعد التشاور مع السلطات العسكرية رأت حكومة صاحبة الجلالة أن احتلال دنقلة سيكون الإشارة الأقوى أثراً، وأن المسألة ستكون إلى درجة كبيرة في صالح مصر، وهو أيضاً تكليف قد يطلب إليها أن تتحمله. كما أن من شأنه أيضاً أن يكون رادعاً لأي تصرف يؤدي لمهاجمة مصر والتي يمكن أن يكون للانتصارات الأخرى التي حققها الأفارقة على الأوروبيين شأن في حدوثها لدى الدراويش، وبالطبع إن ذلك يعني الاحتفاظ بدنقلة"[37].

وهكذا، بلمسة واحدة وضع سالزبوري نهاية للمأزق الذي وصلت إليه السياسة المصرية، وأكمل ذلك الخسوف بأن جعل الواقعية تحل محل المثالية. لقد كان مثل غلادستون وروزبري مستعداً لأن يترك شعب السودان يعاني الجوع والحرمان إلى أن يرضى. ويبدو أن الوقت قد حان الآن، فكان الطلب الإيطالي أفضل ذريعة. ففي رسالة خاصة بعث بها في اليوم التالي كشف الغطاء عما كان يدور بخلده. فقد قال "نريد صيد عصفورين بحجر واحد، وأن نستخدم هذا المجهود العسكري نفسه لنزرع موطئ قدم لمصر بدلاً من التقدم أكثر نحو أعالي النيل"[38].

لكن سالزبوري لم يكن يريد إزعاج الفرنسيين. في رسالة بعث بها إلى باريس، عتّم على دوافعه وأشار إلى أنه لن يكون ثمة مزيد من التقدم، قائلاً:

"لقد طلبت إلينا الحكومة المصرية الموافقة على القيام بعمل عسكري ضد الدراويش ولصالح كسلا. ولذلك وافقنا على تحرك القوات المصرية حتى حدود دنقلة"[39].

وخشي كرومر أن تسقط كسلا بيد أنصار المهدي، لكن ذلك لم يكن يعني أنه يريد أن يقاتل 8,000 رجل من الدراويش في دنقلة. وتستطيع بريطانيا بسهولة أن تدعم إيطاليا بالتحرك من سواكن وحتى طريق مدينة بربر. فهذا الخيار أقل تكلفة ومن شأنه أن يقدم "عوناً أكثر فاعلية للإيطاليين". كما أن

الاستيلاء على دنقلة لن يجعل مصر أكثر أماناً: كما حذر غوردون سابقاً قبل عشر سنين تقريباً، فالذي يجعل مصر أكثر أماناً هو "سحق" أنصار المهدي. وهذا الحل باهظ الثمن كثيراً. و"السودان تساوي الكثير لمصر، لكنها غير جديرة بأن تفلس مصر لأجلها وتفرض الضرائب الباهظة"[(40)].

وهكذا، بعد أن عرض رأيه في غير صالح هذه الحملة أشار كرومر إلى المكان الذي منه يمكن تأمين مبلغ 500,000 جنيه، اللازم لهذه الحملة، ألا وهو حساب "مصاريف غير عادية" حيث تودع الأموال الفائضة عن الديون المصرية عند المفوضية. وحصل سالزبوري على موافقة حكومات إيطاليا والنمسا وألمانيا على هذه المكاسب من الخزينة المصرية. لكن الفرنسيين عارضوا ذلك، من وجهة نظر استراتيجية وليس من قبيل الأمانة والاستقامة على الإطلاق، وتمكنوا من الحصول على تأييد روسيا.

عملت فرنسا وروسيا معاً للضغط على السلطان عبد الحميد الثاني لأن يرسل واحدة من شكاويه الدورية المنتظمة بخصوص الانتهاكات الأوروبية لحقوقه في مصر. لكن كرومر وبمهارته المعهودة تمكن من إقناع الخديوي عباس بأن يوجه كتاباً إلى القسطنطينية يتعهد فيه بأن بريطانيا تعتزم استرجاع أراض مفقودة كانت تابعة للخديوي، ولذلك فهي تتصرف بنية حسنة ضمن حقوقها وفق المعاهدة. وشعر كرومر بالرضا بهذا التصرف من الخديوي الجديد الذي بدأ حكمه بمواقف فيها شيء من التمرد، فعاد الآن إلى الموقع الطبيعي.

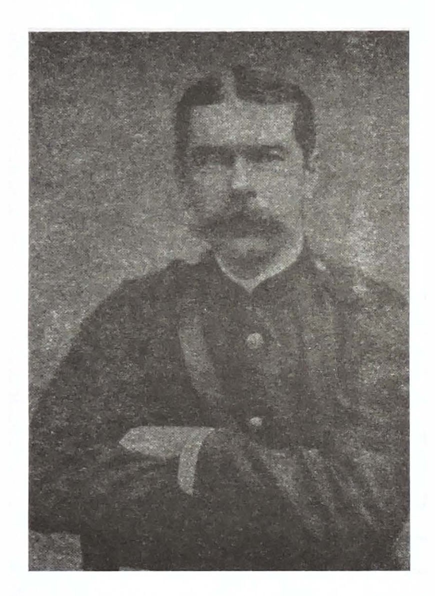
فقال في رسالة بعث بها إلى سالزبوري: "سلوكه الآن مُرْضٍ إلى حد ما وأعتقد أننا ببيان واضح جداً مفاده أننا نضمنه ضد أي تصرف من جانب السلطان قد يجعله مستقيماً وأهلاً للثقة في الوقت الراهن"[(41)].

في مساء اليوم الثاني عشر من شهر آذار/مارس عام 1896، وبعد أن أجرى مشاوراته مع مجلس الوزراء واللورد ولسلي، بعث سالزبوري ببرقية إلى وزارة الحربية المصرية في القاهرة آمراً بالتحرك نحو دنقلة. وصلت البرقية بعد

منتصف الليل إلى نادي Turf Club حيث فك رموزها اللورد أثلومني Lord Athlumney من قوة Coldstream Guards وجيمي وطسون Jimmy Watson من كتيبة المشاة الستين 60th Rifles، الذي كان معاوناً للقائد العام الجديد للجيش سير هربرت كتشنر Sirdar Sir Herbert Kitchener، وكان هذا القائد العام قد شوهد آخر مرة وهو متوجه للقيام ببعض المهام الاجتماعية. كانت الساعة الثالثة صباحاً حين تتبعه وطسون حتى وجده في مقر إقامته الرسمي.

استيقظ كتشنر على طرق الحصيات على نافذة غرفة نومه. وعندما فتح النافذة رأى الحارس الليلي وإلى جانبه النقيب وطسون يلوح بيده بقطعة من الورق. نزل إلى الباب الخارجي وهو لا يزال مرتدياً البيجاما وقرأ البرقية على ضوء المصباح الذي كان يحمله الحارس الليلي. حين وصل أثلومني وجد كتشنر والورقة بيده والمصباح بيده الأخرى يرقص رقصة سريعة مفعمة بالحيوية[42].

لقد انتهت الآن سنوات الانتظار.



القائد العام للجيش العميد سير هربرت هوراشيو كتشنر

الفصل الحادي عشر

دار الحرب

1896 ـ 1899

ظن "الدم" أنه يعرف الذهن الفطري،
فقال يجب أن تكون حازماً، ولطيفاً.
فحصل التمرد.
ولن أنسى ما حييت تلك الطريقة
التي بها وقف "الدم" في ذلك اليوم اللعين،
فحفظنا جميعاً من الموت.
لقد وقف على تلك الهضبة الصغيرة،
وجال بعينيه الناعستين في الأنحاء،
وقال بصوت هامس يكاد لا يسمع:
مهما يحدث فقد حصلنا على
مدفع مكسيم، وهم لم يحصلوا عليه.

هيلار بيلوك من "الرحالة الحديث"، 1898

Hilaire Belloc, The Modern Traveller, 1898

كان السير هوراشيو كتشنر رجلاً منتصب القامة إن وقف، وقور الهيئة إن مشى، طوله يزيد عن ستة أقدام، وإن نظر إلى الجمع ينظر من فوق رؤوس كل من يقف أمامه. في عينه اليسرى حَوَل خفيف، يخفيه بنظرة عابسة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي أدنى الجانب الأيمن لوجهه يوجد ندب من أثر رصاصة أصابته أثناء حربه ضد المهدي، فأعطت هيئة عدوانية حتى لألطف نظراته. وقد استثمر هذه الأحداث بنتائجها وبهدف الغطاء، مثل ذلك الشارب المتدلي بارتخاء فوق فمه العريض فيخفي صرامة القسوة في شفته العليا. كان قائد الجيش هذا يحب

علاقاته جميعاً البعيدة منها والإيجابية. وكان يسعى للكمال، كما لو أن كل أمر منه كان يصدر عن آلية لا تعرف الخطأ داخل ذهنه الفكتوري الطابع.

وقد شدا بصفاته جورج ستيفنز George Steevens مراسل الديلي ميل الذي التحق بمعسكره مؤخراً فقال بلحن شجي: "ليس له عمر سوى ريعان الشباب، وليس له جسد سوى ذاك الجسد الذي يحمل عقله، وليس له وجه سوى ذلك الوجه الذي يخفي وراءه دماغه. ذهنه وإرادته هما الجوهر وهما كل هذا الرجل، دماغ وإرادة هما الكمال في صنعتهما، وعند أكثر المصاعب شدة لا يعرفان ما هي المتاعب، وإزاءهما يشعر المشاهد أنه أمام رجل كامل، هو نسيج وحده، ينبغي أن يعرض بكل اعتزاز وفخر في معرض باريس الدولي. وفي جناح الإمبراطورية البريطانية، الرقم 1، الآلة السودانية"[1].

هو الابن الخجول لضابط برتبة مقدم في الجيش الهندي أحيل إلى التقاعد ليقضي بقية أيام عمره في ضيعة إيرلندية خربة. وكان كتشنر في الرابعة عشرة عندما فقد والدته المصابة بالسل. وما هي إلا أسابيع بعد ذلك حتى دخل المدرسة العسكرية لسلاح الهندسة الملكي في وولويتش Woolwich. فكان من شأن أقنعة الانضباط العسكري والشجاعة المسيحية أن أخفت سريعاً ذاك الخجل الفطري، وغدت سلاحه الوحيد في تلك الحرب الحدودية ضد عواطفه ومشاعره. في صيف عام 1869 التقى الطالب الرقيب كتشنر بغوردون "الصيني" بطل مدرسته هذه. وكان حينئذ شقيق غوردون، هنري، الأقل شهرة منه أعلى الضباط مرتبة في سلاح المدفعية، وكان بصورة دورية يستضيف ضباط المدرسة ومن يرافقهم من الطلبة، ومع أن غوردون لم يتذكر لقاءهما السابق إلا أن كتشنر الشاب أعرب عن عظيم تقديره لتلك الذكرى، فقد كان شديد الإعجاب بغوردون "إعجاباً ليس له حدود"[2].

واتبع كتشنر مسار غوردون حرفياً. عند الرابعة والعشرين من عمره، وبعد أن أخفق في "ذبح الزنوج بالعشرات" مع السير غارنت ولسلي في غرب إفريقيا الجميلة أُوفد إلى الأراضي المقدسة. فكان ذلك العلم الحديث الذي يدور حول آثار المواقع الدينية بحاجة لخرائط حديثة، لذلك تعاقد صندوق الاستكشاف الفلسطيني مع سلاح الهندسة لهذه الغاية.

ذات يوم كتب كتشنر رسالة إلى شقيقته ميلي Millie يقول: "ما أجمل هذه البلاد! حين ينظر المرء إليها بمنظار الخيال يرى أولئك الفرسان القدامى أشداء في الحروب لطفاء في عقيدتهم الدينية"[3].

وكما كانت لغة كتشنر العربية الطلقة تستند على العبرية التوراتية التي تعلمها في مدرسة وولويتش على يدي صديق إنجيلي كان فهمه لمصير بريطانيا الاستعماري قائماً على عقيدته المسيحية. في عام 1876 عندما عاد إلى لندن لقضاء إجازة قصيرة من فلسطين انضم إلى نقابة الراية المقدسة Guild of the Holy Standard، وهي أخوية في الجيش عاهدت نفسها على الحفاظ على العقيدة الدينية وصونها من الدنس والتجديف السائدين آنذاك في ثكنات الجيش، وضد إغراءات تعيينات خارج البلاد، وأقسم كتشنر على أن يمتنع عن المسكرات، وأن يكون مستقيماً وعفيفاً، وعلى اجتناب الكتب اللاأخلاقية، وعلى الصلاة بانتظام، وأن يتناول العشاء الرباني ثلاث مرات في العام، وعلى نشر الرفاه الديني والاجتماعي عند الأعضاء وأسرهم[4].

وعندما تفجرت ثورة عرابي في صيف عام 1882 كان كتشنر واحداً من الضباط القلائل في الجيش الذين يتحدثون العربية بطلاقة. وكان في ذلك الحين في قبرص في حملة ثانية لمسح الأراضي ورغم ضعف ألم به جراء الملاريا إلا أنه لم يتوان عن الذهاب إلى الإسكندرية بلباس مدني ليقدم خدماته، وبعد أن شاهد قصف الإسكندرية من سفينة الأدميرال سيمور الحربية المعروفة باسم *Invincible* قفل عائداً إلى قبرص بعد أن عجز عن تأمين وظيفة دائمة له. وعندما جاءت الأنباء عن اختفاء حملة هيكس باشا Hicks Pasha في كردفان كان كتشنر في صحراء سيناء يقوم بدراسة مسحية للأراضي. في ذلك الحين تخفى بزي موظف مصري مسؤول واتخذ لنفسه اسم عبد الله بيك وغادر سيناء إلى القاهرة على ظهر جمل حمله لمسافة 200 ميل، وحصل على وظيفة برتبة رائد في الجيش المصري. وكرس نفسه لخدمة مصر البريطانية لخمسة عشر عاماً تالية إلى أن خلف غوردون في منصبه ليكون رمزاً للأخلاق الاستعمارية.

كان عمله العسكري في الجيش شغفه الكبير، والمسرح كان مصر. حتى

تماسه المباشر والوثيق مع الزواج حصل في إطار ذلك الميدان الضيق للجمعية البريطانية في القاهرة. في مطلع الثمانينيات من ذلك القرن عاش قصة حب عفيف طاهر مع هرميون بيكر Hermione Baker ابنة فالنتاين بيكر باشا Valentine Baker Pasha المشرف على قوات الجندرما المصرية التي أستُحدثت مؤخراً، وابنة شقيق السير صمويل بيكر. وبدلاً من أن تنتهي هذه القصة بزواج كتشنر وفق الآلية البريطانية المعتمدة في مصر انتهت بمأساة تتسم بصفات العصر الفكتوري. ففي شهر كانون الثاني/يناير عام 1885 وفي الوقت الذي كان فيه كتشنر بعيداً في الصحراء عند موقع الدبة ed-Debba ينتظر التعليمات من غوردون أصيبت هرميون بالتيفوئيد وقضت نحبها. قدم له والدها فالنتاين بيكر باشا علبة صغيرة من الذهب الخالص تحمل صورتها وضعها كتشنر قلادة له وخبأها تحت قميصه كما يخفي مشاعره وعواطفه كلها. ولم ينقطع عن حضور الحفلات الراقصة ومآدب العشاء التي كانت تشكل النشاط الاجتماعي للمغتربين في القاهرة، ولم يمتنع عن مراقصة الأمهات الطامحات وبناتهن غير المتزوجات لكنه لم يفتح قلبه قط للحب الذي وصفه بأنه أكبر القتلة.

وكان يؤثر المجتمع الذكوري لملتقى الطعام الخاص بالضباط، والمحفل الماسوني والبعثة العسكرية. وتحت اسم الفاعلية كان يفرض على جميع الضباط الجدد أن يتعهدوا بعدم الزواج، أو حتى الخطوبة في السنتين الأوليين من خدمتهم العسكرية، فهو لا يجب أن يرى ضعفاً أو من يسخر. تقول السيدة مارغوت تينانت Margot Tennant وهي امرأة أرستقراطية جاءت إلى القاهرة في جولة سياحية والتقته: "مع أنه كان وضيع المنشأ، إلا أنه لم يكن فظاً، وبرغم كونه متغطرساً متعجرفاً لم يكن يحب الزهو والخيلاء، لكنه على أية حال إما غبي جداً أو ذكي جداً ولا يفشي ما بداخله قط"[5].

ومن وجهة نظر كتشنر كان موت البطل غوردون وموت "صديقه العزيز"[6] العقيد ستيوارت عاراً على الوطن وإساءة شخصية له. فقد كان طوال مدة الحصار على الخرطوم في قاعدته وسط الصحراء عند موقع الدبة، حيث جاء تعيينه مفوضاً خاصاً للعرب، وكان قد جمع قوة من أفراد قبيلة العبابدة

الموالية لمصر، والتي لولاها لقطعت جميع وسائل الاتصال في وادي النيل. كان يعيش كالأعراب ويرتدي زيهم في الصحراء وأقسم يمين أخوة الدم كما في القبيلة. ومثل غوردون قبله كان من شأن العزلة والإخاء والصلوات في تلك الصحراء أن زادت إحساسه بالعزلة والمصير. وفي الوقت عينه كان يداخله إحساس عميق بأنه لاعب محبط ومشاهد لا معين له وليس بيده حيلة أمام ذاك الاستشهاد البطيء لغوردون.

لقد كان كتشنر نقطة الاتصال الأولى والأخيرة لغوردون، وكان الحلقة التي تربط بين الخرطوم والقاهرة لكنه لم يكن يملك القوة للنجدة. ومع أنه قد سبق وحذر قائلاً: "إن أصاب ستيوارت أي ضرر فسوف أقتل فرداً مقابل كل شعرة في رأسه"[7]، لم يكن قادراً على تقديم أي عون لستيوارت للخروج من الخرطوم، وكان عاجزاً عن أن يأمر القوات المصرية بالتقدم للأمام وعاجزاً عن إقناع القاهرة بضرورة الاستعجال في هذه الحالة.

وبعد أن عجز عن إنقاذ ستيوارت من الموت انهار حين سمع الخبر "الرهيب" عن موت غوردون. في رسالة بعث بها إلى والده بعد ستة أسابيع قال: "لم أصدق ما سمعت. لقد انتزع موت غوردون القلب والروح" من الحملة وأسهم في كيّ قلب كتشنر ليصونه من غدر العواطف ومن إلحاحية سوء التقدير[8].

ومن سخرية الأقدار أن تأتيه مرحلة عذاب أخير حين طُلب إليه أن يرفع تقريراً رسمياً حول موت غوردون. فأجرى مقابلات مع شهود عيان ومن خلال ما سمعه تمكن من إعادة بناء قصة آخر معركة يائسة خاضها بطله على درجات القصر. وكان بداخله يرعى وينمي لهيب الانتقام، وقد استمد من هذه المأساة دروساً وعبراً مهنية قاسية. ورأى أن موت غوردون لم يكن ناجماً عن تخلي الساسة المدنيين عنه، بل لأن جنوده وزملاءه قد خذلوه. فقد أفشل ولسلي حملة الإغاثة بسبب "سوء الإدارة وأخطاء ارتكبها"[9]. فعاد مجدداً للصراع ضد شرين توأمين هما العاطفة ورقة الشعور من جهة وسوء الإمداد والأمور اللوجستية من جهة أخرى. وهكذا ارتبط ارتقاء كتشنر في الرتب خلال السنوات العشر القادمة بمشروع الانتقام لغوردون.

في الفترة بين عامي 1886 و 1888 حين كان الحاكم العام لإقليم سواكن Suakin تمكن من طرد أفراد قبيلة عثمان دِقْنَه من سواحل البحر الأحمر. وفي إحدى المعارك الصغيرة أصابته رصاصة في وجهه، وحيث إن مبضع الجراح لم تصل إليها سقطت في حلقه وغارت في معدته. واعتباراً من عام 1889 عُيِّن معاوناً للجنرال في القاهرة فتولى الإشراف على تدريب الفلاحين المصريين والسودانيين في الجيش الجديد الذي أنشأه الخديوي. في معركة توشكي التي حقق فيها هذا الجيش أول انتصار حقيقي له على أنصار المهدي كان كتشنر قائداً لسلاح الفرسان المصري.

وأسس فريقاً من الضباط كان أفراده من القادة المهرة والبارعين والمفعمين بالحماس والولاء. كان منهم العقيد ريجينالد وينغيت Col. Reginald Wingate ضابط الاستخبارات الذكي اللامع والذي كانت قصصه الشعبية الهامشية عن ثورة المهدي سبباً في إبقاء جذوة غضب أنصار حقوق الإنسان البريطانيين على درجة منخفضة من الاشتعال البطيء. وكان منهم اللواء أرشيبولد هنتر Maj. Gen. Archibald Hunter الاسكتلندي المتحمس للحرب، والذي له عشيقة حبشية تقيم في فندق شبرد. ومنهم أيضاً ابن شقيق غوردون، المقدم وليم غوردون "القرد" William "Monkey" Gordon الذي يحمل صفات وخصائص العائلة في زرقة عينيه اللامعتين وولعه باللعب بالمتفجرات. وقد عينه كتشنر "مديراً للمستودعات".

في عام 1890 بلغ كتشنر الأربعين من عمره فأصبح برتبة عميد وقائداً عاماً للجيش. غير أن ارتقاءه هذا في سلم الرتب كان انعكاساً لنضاله وحماسه للعمل ولم يكن قط لجماله وسحره. فاللورد غارنت ولسلي، الذي يدرك الطموح ويعرفه لحظة أن يشم رائحته كان معجباً بكفاءه كتشنر بقدر ما كان يمقت إصراره. وأما الملكة فكتوريا التي كانت أعظم استعماري يجلس على العرش فقد استسلمت لسحره المفتقر إلى اللباقة والمهارة الاجتماعية التي تعكس هوس صاحبها "للخدمة". وأعجب اللورد سالزبوري باستقامته وصراحته العسكرية وصوابية قيادته الكنسية وأمارات الخدمة والوثوقية في وجهه. واللورد كرومر

الذي يثمن عالياً حسن توازن الميزانية بقدر ما كان يخشى رقة الاقتصاد المصري كان يحترم أسلوب كتشنر المقتر في الإنفاق العسكري وفي الوقت نفسه كان يمقت إصراره الدائم على خوض الصراع ضد الدراويش. وعندما توجهت الاهتمامات البريطانية نحو وادي النيل بدلاً من قناة السويس عمل كتشنر على تسخير هذا التوجه في السياسة نحو حملته، وظل ينتظر عودة اللورد سالزبوري للحكم.

في ذلك اليوم من شهر آذار عام 1896 أيقظه طرق الحصى على نافذة غرفة نومه ليجد حلمه قد تحقق. سوف يعود إلى السودان وعلى كاهله جيش لا بأس به. وجلس هو وكرومر حتى ساعات الفجر يكتبان الأوامر، وكانا منشغلين كثيراً حتى أنهما نسيا أن يطلبا الإذن من الخديوي بغزو السودان. كان عباس الثاني نائماً نوم الدمية في قصر عابدين حين أيقظ كتشنر جيشه. وفي غضون ثلاثة أيام غادر إلى دنقلة، وبعد أربعة أيام أقام معسكره المتقدم في موقع عكاشة Akasha التي تبعد نحو 100 ميل إلى الشمال من الحدود السودانية. وبعد شهرين اثنين حشد نحو 10,000 جندي إلى الجنوب من وادي حلفا مسلحين بالمدفعية والمدافع الرشاشة يرتدون اللباس الكاكي المموه الجديد الذي كانت تمقته الملكة فكتوريا.

في الأسبوع الأول من حزيران حصل أول تماس لقوات كتشنر مع الدراويش عند قرية تدعى فركة Farkah. قسم كتشنر قواته إلى رتلين. وعند المسير الليلي اقترب أحد الرتلين من جهة الشمال بينما قام الرتل الثاني بالتفاف من الجنوب. وعند فجر السابع من حزيران هاجم الرتلان تلك القرية النائمة في وقت واحد. قتلوا 800 من الدراويش وفر الكثيرون يسبحون عراة في النيل. وفتح أمامهم الطريق إلى دنقلة لنحو 200 ميل جنوباً. أشار كل من هنتر ووينغيت بإرسال رتل سريع الحركة إلى دنقلة قبل أن يتجمع الدراويش ثانية، لكن كتشنر رأى التوقف قليلاً. وسحب زوارقه الحربية متجاوزاً الشلال الثاني وكدس مؤنه في كوشة Kosheh وأخذ ينظر في الخرائط أمامه ويخطط لتقدمه.

كان الرحالة المعاصر يستقل القطار حين يسافر. أخفقت حملة ولسلي سابقاً لأنها كانت تستخدم وسيلة النقل الخطأ. ولأنها كانت تسافر عبر النهر كانت تضيّع الوقت عند الشلالات، وفي البحث عن الزوارق والبحارة، وتضع استراتيجيتها كلها تحت رحمة مستوى منسوب المياه في النهر. وعند التنقل براً، حيث كانت تستخدم طرق القوافل القديمة التي تسير عشوائياً بمحاذاة النيل كانت تنقصه الجمال. أما كتشنر وبرغم التزامه استخدام النهر عند الضرورة وإن رأى الفرصة مناسبة له، إلا أنه آثر عدم الاعتماد على النهر.

فالتنقل بواسطة سكة الحديد يتجاوز جميع هذه المشكلات. وكما كان الحال في الهند أو في الغرب الأميركي فإن كل عارضة توضع تدعيماً لخط سكة الحديد تشكل خطوة للأمام في تأسيس البنية التحتية الجديدة للرقابة والسيطرة لتجر البلدان والشعوب الجديدة بقوة نحو حداثة مشتركة في السرعة والمواصلات، وبدلاً من بذل الجهود المضنية في سفر يمتد لـِ 900 ميل هي مدى انعطاف نهر النيل ما بين وادي حلفا ومدينة بربر ونقل القوات لتجتاز ثلاث شلالات من ست شلالات بين مصر والخرطوم، فقد رأى كتشنر أنه من الأفضل مد خط حديدي بطول 400 ميل، يكون 230 ميلاً منه عبر صحراء النوبة الخالية من المياه وحتى قرية أبو حمد إلى الشمال من مدينة بربر.

تجاهل آراء الخبراء الذين قالوا له إن "خط سكة الحديد العسكري السوداني" كان مستحيلاً من الناحية الفنية وأخذ برأي بيرسي جيروار Percy Girouard المهندس العسكري الكندي الفرنسي الذي كان يعمل في سلاح الهندسة الملكي والذي تضمنت خبرته السابقة تمديد خط حديد الباسيفيك الكندي Canadian Pacific Railway. وحيث إنه كان مقيداً بميزانية وضعها كرومر فقد أصلح جزءاً من خط سكة الحديد الذي أسسه أصلاً الخديوي إسماعيل من خلال بحثه ومتابعته لاستعادة المسروقات من أجزاء الخط والعوارض، سيما وأن السكان المحليين قد استخدموا الأجزاء العرضانية التي توضع بين قضبان السكة لصنع أطر أكواخهم أو أسطح الثكنات في وادي حلفا وحتى في نصب أعواد

المشانق. وعمل تحت شمس الصيف الحارقة يحض الجنود السودانيين بأوامر يلقيها عليهم باللغة العربية، ويشرف شخصياً على كل مرحلة من مراحل العمل، ويحسب دوماً ما أنفق وما ادخر من أموال ـ وكان يزهو بنفسه أنه أعاد بناء أول عشرة أميال من الخط مجاناً دون أية تكلفة ـ ويبدو أنه كان محصناً ومنيعاً أمام الزحار والكوليرا التي اجتاحت المعسكر في أعقاب الريح الجنوبية الحارقة فقتلت من الرجال عشرة أضعاف من قتلوا منهم على أيدي الدراويش.

أنجز تمديد سكة الحديد حتى مدينة كوشة في شهر آب/أغسطس 1896 واستخدمت لجلب قوة بريطانية من فرقة ستافوردشاير Staffordshire Regiment. ولأجل الإفادة من ارتفاع منسوب المياه في النيل كان ثمة أربعة زوارق حربية وثلاث بواخر نقل قد ربطت بمحاذاة المعسكر. أحد هذه الزوارق، واسمه زاكير *Zakir* صنع في لندن وفق مواصفات حددها كتشنر نفسه، وقد سُحب على أجزاء أعيد تجميعها على ضفاف النيل. وعندما بدأ منسوب المياه بالانخفاض في مطلع أيلول/سبتمبر كان كتشنر مجبراً على التقدم للأمام. قطع نحو 100 ميل واجتاز الشلال الثالث وهنا اكتشف فريق استطلاعه عند قرية تدعى الكرمة Karma قوة متقدمة قوامها 3,000 مقاتل بقيادة أمير من أمراء الخليفة عبد الله في دنقلة اسمه محمد بشارة.

وفي اليوم التاسع عشر من أيلول/سبتمبر تحرك كتشنر نحو هذه القرية ليجد أن تلك القوة التي يقودها بشارة قد عبرت نهر النيل ليلاً وأقامت موقعها على الضفة المقابلة. فأحضر كتشنر زوارقه الحربية، وفي المعركة التي دارت بينهما حينئذ أصيب بشارة بجروح، لكن اثنين من زوارق كتشنر أصيبا بضرر كبير قد تؤدي مواصلة القتال إلى فقدانهما. ولم ينقذ كتشنر من التقهقر إلا خدعة بسيطة اقترحها الملازم ديفيد بيتي David Beatty الضابط الثاني في الزورق زاكير. عندما "استدار الزورق زاكير جنوباً نحو دنقلة التي تبعد نحو 35 ميلاً ظن بشارة أن هذه القوة البريطانية سوف تطوقه وتعزله. فانسحب هؤلاء الدراويش تحت غطاء الليل.

بعد ثلاثة أيام فقط التقى جيش كتشنر بكامل عديده مع الدراويش في ذلك

السهل خارج مدينة دنقلة، وحيث إنه كان غير واثق من جنوده ذوي الأصول المحلية فقد عمل على تقوية وسط التشكيل بجنود من فرقة ستافوردشاير بعد أن أمرهم بخلع لباسهم الكاكي وارتداء المعاطف الحمر، وذلك ليشعر العدو بأن القادمين هم من جاء للثأر لغوردون. وما أن فتحت النيران من الزوارق الحربية عند النهر واتخذ جنود كتشنر التشكيل اللازم حتى استدار جناح من جيش الدراويش على نحو مفاجئ وفر من ميدان القتال. ظن كتشنر وضباطه أن في الأمر خدعة، لكن تلك القوة من الدراويش سرعان ما اختفت في الصحراء. أما أمراء الجند بقيادة بشارة الذين أضنتهم وأضعفتهم المجاعة فقد رفضوا أمره بالهجوم على مدفعية الجيش المصري. وسرعان ما لحق بهم من بقي من جنود الدراويش. لقد كان فرارهم في حال من الاضطراب والجموح الشديدين حتى إن كتيبة الفرسان التابعة لكتشنر وجدت في الصحراء أطفالاً صغاراً تركهم أهلوهم في الطريق، وعاد هؤلاء الفرسان أدراجهم "يحملون أطفالاً صغاراً جداً لونهم أسود أو بني"[10].

في أعقاب هذا الانهيار الذي لحق بقوات المهدي واجه كتشنر عقبتين كبيرتين: الأولى ما يزيد عن 200 ميل في صحراء شديدة الحرارة، والثانية جماعة من الرؤساء الذين لا يرغبون بإنفاق أموال بريطانية في سبيل فتح السودان. لقد أفسدت فرنسا وروسيا محاولات كرومر لتمويل الحرب من المدخرات المصرية، فلم يجد مفراً من التوقف عند دنقلة لنحو ثلاث سنين لكي يجد التمويل الكافي. أما في لندن فلم يوافق وزير المالية السير مايكل هيكس بيتش Sir Michael Hicks Beach على أن يعوض هذا الفرق في التمويل. فذهب كتشنر إلى لندن ليعمل على انتزاع مبلغ نصف مليون جنيه من هيكس بيتش وسالزبوري، وقد أحكم ضبط توقيت هجمته هذه على وزارة المالية خلال ساعات العصر القصيرة ما بين غداء على مائدة الملكة في قصر وندسور Windsor وموعد مغادرة القطار.

أخبر سالزبوري كرومر بهذه المناسبة: "كانت حملته تلك على وزير المالية واحدة من انتصاراته العديدة. لكن استراتيجيته كلها كانت فريدة في نوعها. وقد

نفذ ما أراد بهجوم عسكري مميز ومباغت"[11].

والحق يقال إن بعض الأنباء عن مسيرة أخرى قد أثارت حماس ودوافع مجلس الوزراء. فقد انطلق النقيب مارشان يصحبه عشرة أفراد من ضباطه الفرنسيين ونحو 200 من الحمالين السنغاليين من العاصمة دكار Dakar على الساحل الغربي لإفريقيا متجهين نحو فاشودة ومنطقة النيل الأبيض.

تبين لكتشنر أن عبور الصحراء بقطار سكة الحديد أكثر صعوبة من إقناع وزير المالية. فخط سكة الحديد العسكري ليس حوله آبار، فتذكر كتشنر أن واحداً من مهندسيه العسكريين الشباب واسمه إدوارد كاتور Edward Cator كان يعرف كيف يكتشف المياه. فأرسل في طلبه بعد أن حدد على الخارطة موقعين مناسبين وبعث به ومعه عصاه التي يكتشف بها الماء إلى الصحراء. دهش كاتور عندما وجد الماء في كلا هذين الموقعين. غير أن "حسن طالع كتشنر هذا" لم يمتد ليصل إلى كاتور الذي أصيب بالتيفوئيد أثناء هذه المغامرة وتوفي.

وبعد بضعة أيام وبينما كان كتشنر يمد يده ليتناول الويسكي والصودا تجرع شيئاً من ماء مالح قليلاً استخرج من عمق 72 قدماً تحت سطح الصحراء. وحيث إنه عثر على الماء من أجل العمال عرف أنه يستطيع العمل على تمديد خط سكة الحديد. ولم يكلفه العمل شيئاً، فقد استخدم جنوده والسجناء في هذا العمل. وبغية توفير المال عمل بيرسي جيروار على استعارة قاطرات بخارية من جنوب إفريقيا. وبدأ كتشنر بمد القضبان لخط يمتد من "مدينة الكاب إلى القاهرة" إنما ليس نحو الحدود المصرية بل باتجاه جنوب إفريقيا.

وابتداءً من ضرب أول معول في وادي حلفا في يوم رأس السنة الجديدة عام 1897 أشرف كتشنر شخصياً على كل شيء. يرهق نفسه كثيراً، ويكتفي بأربع ساعات نوم في الليل، يصحو عند الفجر ليقوم بزيارة إلى الخط وهو في رداء النوم. إن رأى قاطرة متوقفة يقودها بنفسه. وإن تفقد عملية تجميع لزورق

ما يمسك بالمطرقة ويطرق المسامير. لكن معدل الحوادث كان يرتفع كلما تقدم العمل جنوباً. وكان كتشنر يلوم مرؤوسيه عن حوادث الوفيات. كان معدل الإنجاز في العمل ميلاً واحداً ونصف الميل باليوم، ومع حلول منتصف تموز/ يوليو 1897 أنجز من الخط ما يعادل نصف المسافة إلى موقع أبو حمد. وكان كتشنر ينظر للأمام، وبينما كان خط سكة الحديد يمتد قدماً نحو الأمام عبر الصحراء كان يخطط للوصول إلى نهايته.

في صيف ذاك العام انقلب الكثيرون من قبيلة الجعليين Jaalayin النهرية ضد الخليفة عبد الله. فعمل محمود أحمد، ابن شقيق الخليفة والجنرال العبقري، على قمع التمرد في مدينة المتمّة بأن قتل جميع سكان المدينة عدا البنات الصغار اللائي أخذهن بقصد الاستعباد. ومن بقي على قيد الحياة من هؤلاء السكان فروا بقيادة الشيخ إبراهيم محمد فرح وذهبوا إلى كتشنر في دنقلة حيث انضموا إلى جنده بصفة جنود غير نظاميين ووصفهم كتشنر بأنهم "غير معادين" "Friendlies".

أصدر كتشنر أوامره إلى فرح بالهجوم والاستيلاء على مدينة بربر قبل أن يعمل الخليفة عبد الله على تحصينها. لكن فرحاً ماطل وسوّف، مدعياً أن النجوم لا تبشر بالخير، منتظراً أن يخبره كتشنر متى تكون النجوم مبشرة باليُمْن. وعندما قاد فرح جنوده هؤلاء غير النظاميين و"غير المعادين" عبر الصحراء متجهين إلى مدينة بربر كان ثمة رتل مصري يقوده "آرشي" هنتر "Archie" Hunter متجهاً إلى أبو حمد. كانوا يسيرون ليلاً ويستريحون نهاراً دون خيمة أو ظل، فقطعوا مسافة 132 ميلاً في ثمانية أيام فقط قبل أن يجتاحوا موقع أبو حمد عند الفجر. وفي الأسبوع الأول من أيلول/سبتمبر هجم هنتر على مدينة بربر وأعاد فتح طريق سواكن - بربر.

لم يستطع كتشنر أن يتوقف، فخط سكة الحديد العسكري يجب أن يكتمل. وفي أي لحظة قد ينفد ما لديه من أموال. وقد يرسل الخليفة عبد الله جيش الأنصار بكامل عديده إلى الجنوب فيقطع خطوط إمداد كتشنر. وقد تفلت أعصاب الحكومة وتمنعه من الوصول إلى الخرطوم. فقد سبق لها أن أجبرته على إرسال

رجاله لإنقاذ الإيطاليين في مدينة كسلا. ولم يكن ثمة أحد غير اللورد ولسلي ووزارة الحربية ليدعم محاولات وإصرار كتشنر للحصول على لواء من القوات البريطانية. وقد رد كتشنر على واحد فقط من طلبات القاهرة بخصوص تخفيض إنفاقه فأبرق باستقالته. لكن كرومر تجاهل أمر هذه الاستقالة وأحالها إلى سالزبوري، واصفاً إياها بأنها من "إنتاج رجل مريض فقد أعصابه"[12].

غير أن ما يبدو عليه كتشنر من مظهر وهيئة لا تعرف التعب قد انهار أخيراً بفعل حرارة الصحراء. في حديث مع صديق له اسمه كلنتون دوكنز Clinton Dawkins يعمل في الحكومة بالقاهرة اعترف وقال: "لا تدري كم عانيت من القلق والتعب والأرق طوال هذا العمل. ولا أظن أن بمقدوري أن أتحمل المزيد. أشعر بأنني مرهق جداً لا أقوى على الاستمرار، وأتمنى لو أموت. لا بد لي من إجازة قبل أن يبدأ عمل السنة القادمة في الميدان، وإلا فسوف أنهار"[13].

في يوم من الأيام شاهد جورج ستيفنز George W. Steevens مراسل الديلي ميل وهو جالس على صندوق خشبي مليء بعلب لحم البقر والويسكي "جماعة من الأعراب" ينقلون الرمل بمعاولهم ليبنوا سداً من الرمال. وخلفه كان ثمة قطار تموين متوقفاً على سكة الحديد. وعلى بعد خمسين ياردة أمامه رأى ذاك السد ينتهي في كثيب رملي لم تحركه ريح، وكان ثمة أيضاً ما يشبه "شكل رجل أبيض وبيده ميزان البنائين"[14]. وعلى بعد سبعين ميلاً، ووراء الأفق المتلألئ تقع مدينة بربر ومعسكر كتشنر المتقدم. في مكان ما وراء ذلك كله كان جيش الدراويش.

كان ستيفنز طوال تسعينيات ذلك القرن يبعث بتقاريره الصحفية ليحولها بعدئذ إلى كتب كانت الأكثر مبيعاً، وتحمل عناوين مثيرة مثل "مع تركي فاتح: اعترافات باشبزق" و"مأساة دريفوس". وبعد أن قام بزيارة قصيرة إلى شيكاغو ألف كتابه بعنوان "بلاد الدولار". والآن يريد متابعة قصة السودان الكبرى.

في بادئ الأمر حاول كتشنر أن يمنع الصحفيين من الوصول إلى الجبهة - فهم يشغلون مكاناً يمكن استخدامه من أجل المؤن - لكنه لم يستطع مقاومة الضغط من لندن ليخفف هذا المنع. وبينما كان يشعر بالانهيار في الصحراء كانت بريطانيا تحتفي باليوبيل الماسي للملكة فكتوريا. وكما كان الحال إبان المعرض الكبير لعام 1851 سبّب هذا الاحتفال اليوبيلي وما رافقه من عروض واسترجاع لذكريات الماضي وأحداثه تزايداً كبيراً في "الأنا" القومية. وإن أراد الصحفيون أن يتتبعوا أفعال كتشنر فما كان ذلك إلا لأن الرأي العام كان يتلهف لقراءة كل شيء عنه. ولم يكن كتشنر بطبعه شعبياً إلا أنه أدرك شيئاً فشيئاً أن الصحفيين يمكن أن يكونوا حلفاءه في حملته التي يطالب بها بالمزيد من المال والرجال فسمح لهم بدخول معسكره، لكنه منعهم من الانضمام إلى فرق الاستطلاع أو من الاقتراب منه مباشرة. وأمر أيضاً بألا يقفوا أمام خطوط النار في المعارك، إلا أنه لم يصر على ذلك.

حين كان في القاهرة ابتاع ستيفنز لنفسه "زوجاً من الخيول وولدين زنجيين - أحدهما للعناية بالجوادين والآخر للاعتناء بي". ثم سافر جنوباً لينضم إلى كتيبة من الصحفيين كانت آخذة بالتنامي لترافق كتشنر، "ذلك الرجل الذي انتزع قلبه من جسده وجعل نفسه آلة لاستعادة الخرطوم". ووجد في مدينة بربر أن أحد معاقل أنصار المهدي قد تحول إلى مدينة تحيط بثكنة عسكرية بريطانية. وعاد التجار اليونان للظهور ثانية قادمين من مصر يبيعون شراب ماستيك التركي والوسكي الاسكتلندي. وصار الهليون والمحار جزءاً من طعام الضباط البريطانيين، وازدانت موائدهم بالقماش المزخرف، يستمعون لأنغام "الأوركسترا العسكرية وهي تعزف Swanee Ribber". وأخذ التجار اليونان يتذمرون قائلين إن كتشنر قد اشترى كل الجمال في الإقليم وطرد أحد الموفدين الذي جاء للاحتجاج على هذا التعدي على سلسلة التموين لديهم[15].

غير أن كتشنر لم يستسلم للراحة في تلك المدينة من الخيام إلى الجنوب من بربر. في الأيام الأولى من عام 1897 جاءته أخبار بأن محمود أحمد وعثمان دِقْنَه قد حشدا نحو 20,000 رجل من الأنصار جنوب بربر عند نهر عطبرة.

ذعر كتشنر وطلب كتيبة بريطانية من القاهرة. ودهش عندما جاءته هذه الكتيبة مرفقة بوعود بإرسال كتيبة أخرى. وصل هؤلاء الجنود قبل أن يكتمل بناء سكة الحديد وكانوا من فرق Warwicks وLincolns وCameron Highlanders يسيرون مشياً على الأقدام حتى اهترأت نعالهم إلى أن وصلوا إلى مدينة بربر. وبعد أن أمن كتشنر لهم الأحذية الجديدة انطلق بهذه القوة الموسعة نحو أعالي النيل.

وجد عدوه في مطلع شهر آذار/مارس. كان محمود أحمد قد خالف رأي عثمان دِقْنَه القاضي بالالتفاف حول كتشنر فسار بجنوده شمالاً بمحاذاة النهر ليلتقي بالجيش الغازي مباشرة. وحين بدأت الزوارق الحربية التابعة لكتشنر بإطلاق قذائفها على قواته أدرك محمود أن رأي عثمان دِقْنَه كان صائباً. فاستدار نحو الصحراء حتى وصل إلى نهر عطبرة الذي جفت مياهه على بعد 40 ميلاً إلى الشمال من نقطة التقائه بالنيل. وحين وجد بحيرة ماء في مجرى النهر أقام خيامه قربها متجاهلاً أوامر عثمان دِقْنَه بالانسحاب نحو أعالي النهر. وهنا عثرت عليهم كتيبة فرسان كتشنر وهم يحفرون خنادقهم خلف زريبة بعرض 1,000 ياردة ويقيمون متاريسهم من الطين المجفف حيث ينصبون مدفعيتهم.

أمضى كتشنر نحو ثلاثة أسابيع لا يدري ماذا يفعل، سيما وأن محمود أحمد قد عكس نمط هجوم الدراويش على الزريبة المصرية. ولم ير ضباط كتشنر فائدة في هجوم مباشر. إن سار كتشنر بجيشه مسافة 40 ميلاً في الصحراء فسوف يحاربون وهم متعبون، وإن لم يكسبوا المعركة فسوف يبيدهم الأعداء عن بكرة أبيهم وهم ينسحبون. وأرهقت حرارة الصحراء جنوده، وفي تردده هذا استشار كرومر، الذي بعث بهذا السؤال إلى لندن. لكن اللورد ولسلي أعاد الكرة بمعضلتها هذه إلى وادي النيل.

وأخيراً حسم كتشنر أمره في السابع من نيسان/أبريل وقرر الهجوم في اليوم التالي وكان يوم الجمعة العظيمة. تضمنت أوامره للمعركة تحذيره إلى جنوده بأن الدراويش يفضلون الموت على الاستسلام.

"كان القائد العام واثقاً كل الثقة بأن كل ضابط وجندي سيقوم بواجبه خير قيام. ومع ذلك كان يريد أن يؤكد لهم كلمتين فقط، هما 'اذكروا غوردون' والعدو أمامهم هو من قتل غوردون"[16].

أما الجنرال غاتاكر Gen. Gatacre، آمر الكتيبة البريطانية في قوات كتشنر فقد أمر جنوده بأن يبردوا بالمبرد أطراف ذخائرهم ليضعوا فيها رصاص دمدم dum-dum bullets.

أوى الجنود إلى نومهم تحت قمر الصحراء الذي اكتمل وصار بدراً منيراً. وعند الواحدة بعد منتصف الليل، حين غاب القمر استيقظ الجنود عبر همسات تناقلوها فيما بينهم. وبصمت رهيب دون إحداث أي ضجة، مستعينين بالرمال لإخفاء ضجيج خطاهم انطلقوا إلى الأمام. وعند الرابعة صباحاً توقفوا، بعضهم لا يزال ناعساً وبعضهم الآخر يمشي جيئة وإياباً عله يشعر بالدفء، ويفكرون جميعاً كيف يتسلقون زريبة يقال إن ارتفاعها يبلغ 20 قدماً.

أما محمود الذي كان نائماً في خندق تحت الأرض داخل الزريبة فقد استيقظ ليرى صفاً من الجند على بعد أقل من نصف ميل من دفاعاته. وعندما أحس عثمان دِقْنَه بكارثة متوقعة انسل هارباً فوراً مع حراسه الشخصيين. عند الساعة السادسة و16 دقيقة أطلقت مدفعية كتشنر وابلاً من القذائف لخمسة وأربعين دقيقة أصابت دفاعات محمود أحمد، وصواريخها تئز منطلقة من راجماتها بينما كانت مدافع مكسيم الرشاشة تدك الزريبة. وكان المشاة ينتظرون "صفاً طويلاً من رجال يرتدون اللباس الكاكي والتارتان الداكن الممزوج بالأرجواني. وحرابهم مشرعة عند المنحدر ووجوههم ملتحية بلحية عمرها شهران"[17]. وعند السابعة صباحاً أعلن النفير بدء الهجوم وانطلق الجنود.

وعندما عاد الأنصار إلى استحكاماتهم وأطلقوا وابلاً مضطرباً من نيران بنادق رمنغتون وبنادق صيد الفيلة كانت الكتائب الاثنتا عشرة تسير للأمام بنظام تام. توقفت بعد 300 ياردة وردوا على النيران برشقات محكمة الإصابة. وأخذ الجيشان يتبادلان النيران لما يزيد عن عشر دقائق. كان جنود كتيبة Cameron

Highlanders يتلقون أكبر قدر من نيران الأنصار، قبل أن يصدر كتشنر أمره أخيراً بمواصلة التقدم. وكان الجنود البريطانيون يتقدمون على أنغام موسيقى القِرَب بينما هجم الجنود المصريون والسودانيون على الزريبة.

عند الجناح الأيسر للجيش تمكن الجنود المصريون من دحر المدافعين وطردهم حتى مجرى النهر حيث أبيدوا. وعلى الجانب الأيمن كان الجنود السودانيون، ومعظمهم من أبناء رجال الحاميات الذين طردهم المهدي وأنصاره من السودان عازمين على الثأر. وفي الوسط كان الجنرال غاتاكر Gatacre الذي يقود الكتيبة البريطانية أول الواصلين إلى تلك الزريبة. وبينما كان يجر نفسه من متراس مليء بالأشواك برز رجل طويل القامة من الدراويش من خندقه وبيده رمح.

صاح غاتاكر للجندي كروس قائلاً "أعطه إياها يا صديقي!" فأطلق النار على هذا الرجل العدو وأرداه قتيلاً وطعنه بحربته حيث وقع أرضاً[18].

كان جنود كتيبة Highlanders يصرخون "تذكروا غوردون" وهم يشقون طريقهم عبر الأشواك ليجدوا أمامهم متاهة من الخنادق ومرابض المدفعية والأكواخ. وكان يقود هذا الهجوم النقيب فندلي Captain Findlay الذي تزوج منذ شهر واحد. وقد قتل بسيفه اثنين من الدراويش قبل أن يصاب بطلقة نارية من مدى قريب. رصاصة واحدة كشطت وجنة العقيد فيرنر من كتيبة لنكولنز ورصاصة أخرى اقتلعت شفته العليا. وتحت رصاصات تتطاير من جميع الجهات كان جنود الهايلاندرز Highlanders يتقدمون بكل جرأة وإقدام ببنادقهم وحرابهم يقتلون كل من يجدونه في طريقهم حتى لو كانوا من الأنصار الذين يلوحون بسعف النخيل مستسلمين. وكان عدد كبير جداً من الأنصار قد ربطوا إلى الأعمدة كي لا يفروا. ولما يزيد عن الساعة واصل المهاجمون تقدمهم يطعنون ويقتلون من في طريقهم داخل معسكر محمود إلى أن وصلوا إلى مجرى النهر الذي وجدوه مليئاً بأكوام الدراويش الفارين والذين قتلهم الجنود السودانيون.

دعا كتشنر ذلك اليوم "يوم جمعة عظيمة جداً"[19] لقد فقد من الجند 93

وبلغ عدد الجرحى 493، وأحصى مساعده جيمي وطسون نحو 2,000 من الأنصار القتلى داخل الزريبة وحدها قبل أن يشعر بالغثيان فتوقف عن العد. وعندما مر بينيت بيرلي Bennette Burleigh مراسل جريدة التلغراف أمام جثة أحد الدراويش وكانت ملتصقة بجذع شجرة بفعل صاروخ رأى أيضاً جثث نساء وأطفال في هذه المذبحة، وحين رأى جورج ستيفنز تلك المعركة التي صنعها كتشنر فوصفها بأنها "معركة جيدة المفاصل وجيدة التزييت، هادئة الدوران تشبه رائعة صنعت بدقة عمل الساعة"، أحس بالاشمئزاز وقال: "رأيت أرجلاً تستدق كالمغزل تنثني للأعلى لتلاقي وجوهاً سوداء ثقبت بمخارز بدرجة الاحمرار، وحمراً قطعت رؤوسها وأرجلها، أو غربالاً من الشظايا، جمالاً طويت أعناقها للوراء بسنامها، تتعفن جميعاً في برك من الدماء ومياه صفراوية، رؤوساً بلا وجوه، ووجوهاً ليس فيها شيء، أذرعاً وأقداماً تشبه شبكة العنكبوت، وجلوداً سوداء شويت حتى تقددت على نار أشعلت من سعف النخيل"[20].

هذا وقد وجد فصيل من الكتيبة السودانية العاشرة محمود أحمد مختبئاً في كوخه. وبعد أن طعنه الجند بحربة بندقية في فخذه جاؤوا به إلى القائد العام.

سأله كتشنر "هل أنت الرجل محمود؟"

ونظر محمود الذي يبلغ طوله طول كتشنر إلى وجه هذا الكافر الواقف أمامه وقال: "أجل أنا محمود، وأنا مثلك".

"ولماذا جئت إلى هنا لتحارب؟"

"لقد جئت لأنني أمرت بذلك ... مثلك أنت"[21].

وطاف به كتشنر يعرضه في شوارع مدينة بربر وهو موثوق اليدين.

بعد أن قضت فصل الصيف في معسكر يخلو من أي ظل، قامت تلك السلحفاة العسكرية بالزحف نحو الخرطوم. ولحق بها الصحفيون والضباط المتأنقون

والملحقون الأجانب في السفارات. وبعد أن دعم الجيش بلواء بريطاني جديد صار عديده تحت قيادة كتشنر زهاء 20,000 جندي؛ ثمانية آلاف منهم بريطانيون.

ولم يكن جميع هؤلاء الجنود من المرحب بهم. فقد حاول كتشنر بطرق شتى أن يرفض طلب أمير ويلز للانضمام إلى هذه القوة، لكنه أجبر على قبول حفيد الملكة فكتوريا الأمير كريستيان فكتور Prince Christian Victor وصهرها النمساوي الأمير فرانسيس تيك Prince Francis of Teck. وحصل أيضاً على فصيل مختلط الألوان مؤلف من خمسة عشر صحفياً، كان منهم ج.آ. هنتي G.A. Henty الملقب بـ "أمير رواة القصص" الذي كان مراسلاً لمجلة ستاندرد *Standard*. تخصص هنتي بالروايات التاريخية التي كانت بين الحين والآخر تحكي قصة اثنين من المراهقين الإنكليز يتعرفان على شخصيات تاريخية ودروساً بالشجاعة والبطولة المسيحية وفي مواقع وأماكن مختلفة منها هولندا القرن السادس عشر (مثل رواية *By Pike and Dyke*) والهند في القرن الثامن عشر (مثل رواية *The Tiger of Mysore*) والحرب الأهلية الأميركية (رواية *With Lee in Virginia*). وكذلك روايات مأساوية وروايات ذات نتائج مربحة مثل روايته التي صدرت عام 1885 بعنوان *Dash for Khartoum*.

قد يقبل كتشنر ويحتمل أشخاصاً من ذوي الخيال الوطني من أمثال هنتي Henty لكنه وضع خطأً أحمر على ونستون سبنسر تشرشل Winston Spencer Churchill. مع أن هذا الضابط كان لا يزال في الثالثة والعشرين من العمر وبرتبة ملازم ثان إلا أنه كان رديء السمعة في الجيش. بعد أن شارك في حملة هندية قامت بأعمال قمع استعماري تابعة للفرقة الرابعة المعروفة باسم Hussars عمل على استغلال خبرته تلك بقصد الربح في كتاب شعبي حمل العنوان *The Malakand Field Force*. وهو عسكري برتبة ملازم دائم النقد في الصحافة لمن هم أعلى منه رتبة، ويبدو كمن يستغل الجيش لينطلق منه نحو البرلمان، ولا يتوقع أن يقبل به كتشنر. فهو رجل تنطبق عليه أوصاف هو نفسه ابتدعها مثل "صياد الأوسمة" و"كثير الإعلان عن نفسه". وكان كثير الطموح

وشديد "الرغبة في المشاركة" في ذلك الصدام المتوقع والوشيك بين هذا القائد العام والخليفة عبد الله[22]. من بانغالور في الهند قدم طلباً للانتساب إلى الكتيبة 21 Lancers المشكلة مؤخراً في سلاح الفرسان. وعلى الرغم من موافقة وزارة الحربية على تعيين تشرشل فقد رفضه كتشنر.

كان ونستون ابن راندولف تشرشل العضو المتمرد في حزب المحافظين "التوري Tory". استغل معارفه جميعاً ليحبط رفض كتشنر. وقد ساعدته في ذلك والدته الليدي راندولف سبنسر تشرشل، واسمها قبل الزواج جيني جيروم بروكلين Jenny Jerome of Brooklyn، حيث قامت بحملة تدعو فيها السياسيين من ذوي النفوذ إلى "مآدب غداء أو عشاء". واستطاعت أن تؤمن له مقابلة مع اللورد سالزبوري الذي أهدى إليه كتابه *The Malakand Field Force* حيث ألح عليه أن يتصل شخصياً بكتشنر. ومع ذلك رفض هذا الأخير مدعياً بأن لديه ما يكفي من الضباط. وهنا استعانت والدته الليدي تشرشل بالمدفعية الثقيلة. بعد حديث ودي على مأدبة عشاء بين صديقتها الليدي هيليير Lady Helier والسير إيفلين وود Sir Evelyn Wood معاون الجنرال سحبت وزارة الحربية الرتب وردت على كتشنر. وبعد يومين تلقى تشرشل أوامره بالذهاب إلى ثكنة العباسية في القاهرة.

وأبلغته وزارة الحربية ما يلي: "من المعلوم أنك ستذهب إلى هناك على نفقتك الخاصة. وفي حال حصول مكروه لك، إن قتلت أو جرحت أثناء العمليات المتوقعة أو لأي سبب آخر، فإن أموال الجيش البريطاني لا تتحمل أي عبء أو نفقة جراء ذلك"[23].

لكن تشرشل اتخذ ترتيباته الخاصة المعتادة. من خلال صديق له من عمره نفسه كان ابن صاحب جريدة تمكن من الحصول على مهمة ثانية، وهي مهمة مراسل صحفي لجريدة مورننغ بوست *Morning Post* مقابل 15 جنيهاً للمقالة الواحدة. وفي الليلة التي سبقت سفره حصل على مهمة ثالثة. فقد طلب إليه رئيس جمعية البحوث النفسية أن يتعهد بأن "يتصل به ويبلغه" من الجانب الآخر إن حصل له أي مكروه. وفي صباح اليوم التالي استقل تشرشل القطار الذي أوصله إلى مرسيليا. وبعد ستة أيام كان في القاهرة.

وكان مما دونه تشرشل قوله: "إن انتقال الفرقة مسافة 1400 ميل نحو أواسط إفريقيا قد أُنجز بالسرعة والسهولة والدقة الزمنية التي كانت جميعاً سمة من سمات ترتيبات كتشنر كافة. لقد كانت الرحلة ممتعة"[24].

قضى أسبوعين في رحلة بالزوارق والقطار أتبعهما بعشرة أيام من المسير لمسافة 200 ميل بمحاذاة النيل لكي ينضم إلى رتل كتشنر. كان تشرشل في الطليعة وحين التفت إلى الوراء رأى الجيش وقد صغر حجمه بعيداً في الصحراء، حتى صار خطاً رفيعاً من اللون الكاكي سرعان ما تحول إلى سراب. ففي هذا "العالم الرقيق الشفاف لزجاج كريستالي غير مستوٍ"[25] تبدو الخيوط الطويلة لمياه تتلألأ تمر عبر أجساد الجنود السائرين ثم تختفي على حين غرة كما تختفي سريعاً أشكال فرسان الخليفة عبد الله الذين يعبرون ذاك الأفق الذي يلوح وميضاً سريع الظهور والغياب.

خشي بعض ضباط كتشنر أن يتراجع الخليفة إلى الوراء باتجاه خط الاستواء وبذلك ينهك الجيش الذي يتبعه. لكن كتشنر رأى أن الخليفة لن يترك عاصمته وضريح معلمه. ولم يدر أن أحد الأسباب التي تدعوه للبقاء في موقعه هو ذاك الوعد بدعم أوروبي. فقد أرسلت الحكومة الفرنسية له عبر منليك ملك الحبشة علماً يرفعه عند الضرورة[26]. ففي شهر نيسان/أبريل عام 1898 جاء وفد حبشي لزيارة أم درمان عارضاً الحماية الفرنسية والسلاح الفرنسي. وتكريماً لضيوفه قدم لهم الخليفة عبد الله المشروبات الكحولية وأقام الألعاب النارية في سماء المدينة. ومع ذلك لم تمتد هذه المخالفة لتعاليم الدين إلى مسائل فنية، حيث كان يقلد دوماً تزمت معلمه المهدي ويأبى أن يحوز شيئاً من أسلحة الكفار.

عند حلول اليوم الأخير من شهر آب/أغسطس عام 1898 كانت أم درمان تبعد عن الجيش المتقدم نحو ثمانية عشر ميلاً. فبعد أن أنجز مد خط حديدي مسافة 760 ميلاً وزهاء 2,000 ميل من خطوط البرق وبعد أن تمكن من جر ثمانية زوارق حربية، وصل عشرون ألف جندي نظامي وجيش كبير من السودانيين غير المنتظمين بالجيش الرسمي يقودهم كتشنر إلى سهل بني اللون متماوج السطح يفصلهم عن أطلال الخرطوم.

في صباح اليوم التالي لاحظت دورية من جنود كتيبة Lancers كانت تقوم بجولة استطلاعية على بعد ستة أميال إلى الشمال من أم درمان "تغيراً لونياً قاتماً في الأفق"[27]. ظنوا في بادئ الأمر أن ذلك غابة من شجيرات شوكية لكن هذا التلون آخذ بالتحرك. لقد كان أنصار الخليفة عبد الله يتجهون نحو تلك القوات المتقدمة. عندئذ تلقى تشرشل أمراً من قائده بالذهاب إلى كتشنر.

وجد تشرشل القائد العام ممتطياً جواده ومعه ضباطه فأبلغه بالنبأ، وقدر بأن الخليفة وقواته يبعدون عنهم نحو ساعة من الزمن أو أكثر قليلاً. رد عليه كتشنر بإيماءة خفيفة من رأسه تكفي للقول بأنه استلم الرسالة ولم يتقبل حاملها.

ذات يوم دعا أحد ضباط الاستخبارات تشرشل للقيام بنزهة معهم قائلاً: "تعال معنا وتناول بعض الغداء". وبينما جلس تشرشل يأكل اللحم المعلب والمخلل ويشرب من "زجاجات جميلة المنظر" حاول أن يتخيل المعركة المقبلة، حيث وصف فيها: هجوم الدراويش وأصواتهم التي تشبه العواء وصوت مدافع مكسيم التي تشبه طرق المطرقة ورماحاً تشبه الأزاميل وأجساداً ممزقة"، وبدا الموت "عنصر مغامرة في لعبة جميلة جداً". وبدا له أن احتمال حصول مواجهة يوماً ما بين الجنود الإنكليز وعدو يكون مجهزاً أيضاً بـ "فولاذ المدفعية والمدفعية الرشاشة" هو احتمال بعيد جداً"[28]. وما أن انتهى الغداء حتى فتحت الزوارق الحربية نيرانها تصب أول وابل من 300 قذيفة على المدنيين الذين لا يملكون وسائل الدفاع في أم درمان وتحطم القبة البيضوية الشكل التي تعلو ضريح المهدي.

لكن الخليفة عبد الله توقف لحاجته للاتصال. كانت مسافة ثلاثة أميال تفصل بين الجيشين المتحاربين، وكل جيش منهما متحصن في زريبته. توقع كتشنر أن يبدأ عبد الله هجومه عند الليل، كما توقع الخسارة. فأصدر أوامره بأنه إذا اخترق الدراويش صفوف الجيش البريطاني فينبغي ردهم بالرماح

والسيوف فقط، أما الاستخدام العشوائي لنيران البنادق فقد يسهم في حصول البلبلة. وبهدف إرباك عبد الله بعث بالجواسيس ينقلون أخباراً بأن البريطانيين يخططون لهجوم ليلي. وقد صدق عبد الله ذلك. وهكذا قضى الجيشان ليلهما في أرق دون نوم، كل واحد منهما ينتظر هجوم الآخر.

جلس الخليفة عبد الله مع أمرائه وسط غبار الصحراء وترأس مجلساً حربياً اتسم بمرارة الألم. وكان هو وعثمان دِقْنَه وإبراهيم الخليل قائد الحرس الشخصي المعروف باسم الملازمين من المنادين والمطالبين بشن هجوم ليلي.

وفي هذا الاجتماع قال دِقْنة: "والله، هؤلاء الإنكليز. لقد خبرتهم على مدى خمس عشرة سنة، لا يمكن التغلب عليهم إلا بالخداع".

وهنا تدخل عثمان شيخ الدين ابن الخليفة عبد الله قائلاً: "فلنهاجمهم في الصباح بعد صلاة الفجر، ودعونا لا نكون مثل الفئران والثعالب يدخلون جحورهم في النهار ويخرجون في الليل". كان جيش شيخ الدين الذي يرفع الراية الخضراء الداكنة أكبر الجيوش في تحالف المهدي. وهو يضم صفوة مقاتلي قبيلة البقارة والمجندين السودانيين الذين التحقوا بالجهادية. وسوف تسهم بنادقهم من نوع رمنغتون بفضل فاعليتها في معركة تجري في النهار فيحقق الانتصار.

وتطور الأخذ والرد إلى أن غدا مباراة في الصراخ، فحسم الخليفة عبد الله الأمر بقوله: "السبيل الأفضل هو ما يختاره الله. نقاتل في الصباح بعد الصلاة".

وردد إبراهيم الخليل قوله هذا قائلاً: "السبيل الأفضل هو ما يختاره الله". وانتصب قائماً نافضاً الغبار عن كاهله وأردف قائلاً: "ولكن لن يكون ثمة نصر"[29].

عاد الخليفة عبد الله إلى حجرته ليخطط لهجومه. أقام كتشنر معسكره وظهره للنيل وأم درمان على يساره. واتخذ جنوده تشكيل نصف الدائرة. وقرر الخليفة عبد الله أن يقلد هذا التشكيل فنشر جيوشه على هيئة قوس ضخم. كان ثمة ثلاث تلال تفصل ما بين الصحراء والنيل، وإلى جهة اليمين من عبد الله

يوجد جبل سرغام Sergham وإلى يساره هضبتان تعرفان باسم كرري Karari. فقرر أن يكون موقع معظم قواته هناك ويناور بها من وراء هاتين الهضبتين مع تطور القتال في المعركة. وفي الوقت نفسه ينتظر الخليفة ورجاله الذي يقدرون باثني عشر ألفاً يحملون الراية السوداء خلف جبل سرغام. أما مقاتلو علي واد حلو الأربعة آلاف حاملين الراية الخضراء وكذلك مقاتلو شيخ الدين وعددهم عشرة آلاف برايتهم الخضراء الداكنة فسوف يتقدمون عبر السهل باتجاه تلتي كرري.

اختار الخليفة عبد الله أن يكون الحرس الصفوة الأربعة آلاف بقيادة إبراهيم الخليل ومقاتلو عثمان أزرق الاثنا عشر ألفاً هم الموجة الأولى في القتال. كانت القوات البريطانية تبعد مسافة تقل عن ميلين عن سفوح جبل سرغام. وعندما تتكسر الموجة الأولى في يسار ووسط الزريبة البريطانية يشن علي واد حلو وشيخ الدين هجومهما من الجهة اليمنى. وحينئذ تخرج القوات ذات الراية السوداء من خلف جبل سرغام وتضرب ما يتبقى من وسط قوة كتشنر.

كان الخليفة عبد الله يأخذ قسطاً من الراحة داخل خيمة كان قد غنمها من الملك يوحنا عاهل الحبشة في معركة قلابات، وقد استبدلت الصلبان التي تزينها بآيات من القرآن الكريم. وكان من شأن حركة الأنوار الكاشفة من الزوارق الحربية عند النهر أن أبقته مستيقظاً طوال الليل.

وفي الزريبة الأخرى المقابلة لم يستطع الملازم تشرشل أن يخلد للنوم. فخرج يتمشى على ضفة النيل. وإذا به يسمع ترحيباً من ضابطين يرتديان زياً عسكرياً أبيض اللون في الزورق الحربي. كان أحدهما ديفيد بيتي David Beatty الذي أنقذ كتشنر في حملة دنقلة بسبب سرعة بديهته وتفكيره المثير، وحين سمع أن الجنود لن يستطيعوا أن يستعملوا بنادقهم داخل الزريبة عرض على تشرشل مكاناً له في الزورق الحربي إن ساءت الأمور كثيراً. ثم ألقى بزجاجة شمبانيا كبيرة سقطت عند المياه الضحلة، حيث غاص تشرشل حتى ركبتيه في المياه ليلتقطها. وشرب هو وبعض رفاقه تلك الشمبانيا تحت سماء الصحراء

المعتمة. بعد سبعة عشر عاماً من ذلك التاريخ، وحين كان تشرشل اللورد الأول بالأميرالية إبان الحرب العالمية الأولى عين بيتي قائداً عاماً لسلاح البحرية.

ولم ينم كتشنر في تلك الليلة أيضاً. عند الرابعة والنصف صباحاً وحين كان القمر بدراً في السماء صاحت أصوات النفير والناي لتوقظ الجنود من نومهم. وعند الفجر كان الجيش كله على أهبة الاستعداد للتحرك. وكان رجال من كتيبة Lancers يقومون باستطلاعاتهم بين المعسكرين.

شعر تشرشل بالرهبة حين رأى العدو يظهر للعيان مع شروق الشمس، حيث لاح في بادئ الأمر شيء من الوميض بين التلال ثم اتخذ هيئة سلسلة حركات ضبابية تتلألأ، كل حلقة منها تضم آلافاً من المحاربين. "وبدا وكأن جانب التل كله يتحرك، والشمس حين يومض انعكاس أشعتها يدل على الكثير من نصال الرماح تنشر سحابة متلألئة"[30]. فكانت القيم اللونية تتغير مع ضوء النهار، وسرعان ما اتضح أن الأنصار بهيئة عصابة بيضاء اللون بعرض 4 أميال وعديدها نحو 40,000 رجل تظهر عليها بقع باللون الأحمر والأخضر والأسود والأبيض، هي ألوان الرايات التي تعيد إلى ذهن الرائي مشهد "الصليبيين في لوحة نسيجية من بايو Bayeaux"[31]. وحين عادت دورية الاستطلاع من جنود Lancers مسرعة إلى الزريبة البريطانية بدت التلال تصدر هدير الطبول وصرخة الحرب الإسلامية بقولهم "لا إله إلا الله، محمد رسول الله!"

قاد إبراهيم الخليل رجاله وهم يصعدون آخر جرف يفصلهم عن كتشنر وأم درمان في أرتال منظمة بعمق عشرة رجال، وحين وصلوا إلى ذروة الجرف رأوا الزريبة البريطانية عن يمينهم، وعن يسارهم كان رجال عثمان أزرق على هيئة جماعة كثيفة بعرض ميلين. وعندئذ بدا العالم وكأنه سينفجر.

من النهر فتحت الزوارق الحربية نيرانها فكانت قذائفها تثير تراباً أحمر وشظايا وتفتح ثقوباً في الصفوف. ومن قوة القذائف أطيح بإبراهيم الخليل عن صهوة حصانه وحيث بدا الحصان فاقد الرأس بفعل شظية. وما أن رأى مطية

أخرى له حتى أمر جنوده برص صفوفهم. وحين بدأت مدافع مكسيم تطلق طلقاتها أمامهم بدأ هجومه.

كان خطأ مميتاً. كانت مدافع مكسيم تطلق سبع رصاصات كل ثانية، وهي تروح وتغدو عبر صفوف الدراويش. أصيب الخليل برأسه وصدره فتمزقت الصفوف بفعل النيران. وحين شارك حرس Grenadier في القتال مستخدمين بنادقهم القصيرة السريعة الطلقات بدت منحدرات جبل سرغام مفروشة كالسجاد بأجساد القتلى.

في وسط ميدان القتال رفع عثمان أزرق بندقيته وأطلق رصاصة واحدة آمراً جنده بالهجوم. قاد 50 من الفرسان ونحو 100 من المشاة وجرى سريعاً نحو مربض لستة مدافع مكسيم. وتبعه ثمانية آلاف مقاتل وعائلات بكاملها وقبائل تقاتل بوحدات مستقلة، وعند هجومهم جميعاً اندمجوا ببعضهم ليصبحوا هدفاً يصغر ويصغر.

وأمر كتشنر بإحضار مزيد من الرشاشات ومدافع مكسيم. فكانت قذيفة مدفع تسقط كل ثانية على المقاتلين المهاجمين، فتحدث ثغرات واسعة في تلك الموجة من البشر. كانت مدافع مكسيم لا تكف عن اختراق الصفوف تقتل الرجال والخيول وتصيب من يتجرأ على النهوض ليتقدم للأمام، وحملة الرايات الذين ينقلبون أرضاً بفعل زخم الموت الزؤام. وعندما اقترب الدراويش أكثر وصاروا على بعد 800 ياردة من الجيش البريطاني فتحت الكتيبة السودانية نيرانها فاختفى ميدان المعركة تحت سحب من دخان المسحوق الأسود. وسقط عثمان الأزرق على بعد 400 ياردة من الخط البريطاني بعد أن تلقى رصاصة بفخذه، وبينما حاول النهوض قطعت جسده نيران البنادق الرشاشة. وتمزقت الأشلاء الأخيرة من هجومه على بعد 200 ياردة من المدفعية البريطانية.

صاح كتشنر "أوقفوا النار! أوقفوا النار رجاءً! إن هذا هدر لما لدينا من ذخيرة!" (32)

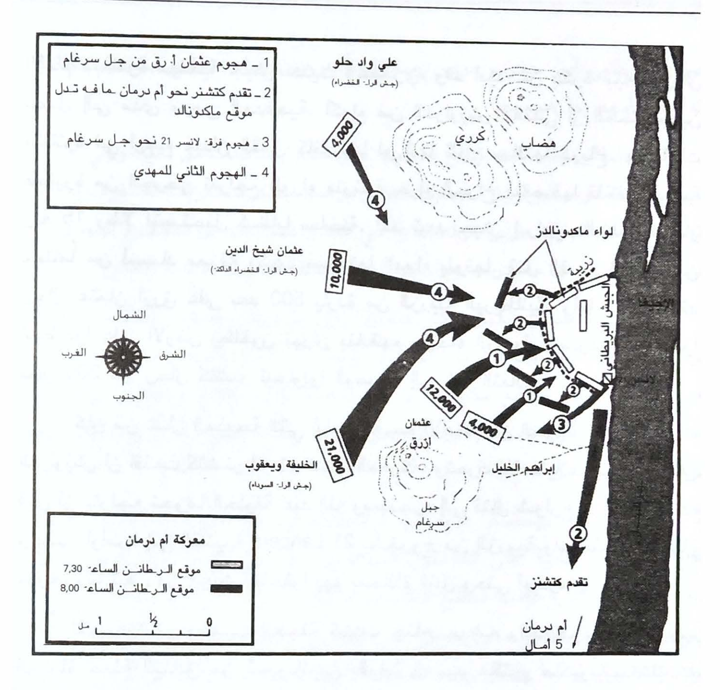
كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً قليلاً. وحين تلاشى الدخان أزيح الستار عن مشهد لمجزرة بشعة. جيش من جيوش العصور الوسيطة هاجم من

الأمام مباشرة مدفعية جيش حديث وعصري، وقد أبيد عن بكرة أبيه قبل أن يصل إلى مدى مرمى المدفعية. أكوام من الدراويش القتلى أو المحتضرين متناثرة في أرجاء ميدان القتال كافة كما لو أنها ثلوج ساقتها الرياح. وجماعات صغيرة من الجرحى تتراجع للوراء مترنحة جراء الجراح فتقصفها قذائف مدفعية زنة 15 رطلاً لتستحيل شظايا ساخنة. لقد تبدد جيش إبراهيم الخليل فصار حطاماً من أجساد ممزقة وثياب صبغتها الدماء بلونها. قتل القسم الأعظم من رجال عثمان أزرق على بعد 500 ياردة من الزريبة البريطانية. وأما الباقون فقد انبطحوا على الأرض يطلقون نيران بنادقهم باتجاه الزريبة. وسرعان ما قتلوا نحو 200 من رجال كتشنر ليحاولوا الوصول إلى كفة التعادل.

كان من شأن المذبحة التي أبادت القسم الأعظم من الموجة الأولى لهؤلاء الدراويش أن أقنعت كتشنر أنه قد كسب المعركة. وتحرك للاستيلاء على أم درمان قبل أن يتراجع نحوها الخليفة عبد الله ويستجره إلى قتال شوارع من بيت لبيت، وأصدر أوامره إلى الكتيبة 21 Lancers بالخروج من الزريبة واستطلاع السهل خارجاً وما تبقى من الجيش ليلحقوا بهم بمحاذاة النيل وحتى أم درمان.

لكن كتشنر وبسبب العجلة كشف جناح جيشه والمؤخرة أيضاً وهم، المشاة حملة البنادق من السودانيين بقيادة العميد هكتور ماكدونالد Hector Macdonald، أمام هجوم جيشين من قوات المهدي.

عند التاسعة صباحاً قاد العقيد مارتن Martin الكتيبة 21 Lancers نحو جبل سرغام. وخلفه تحركت قوة كتشنر كلها من وراء الزريبة باتجاه أم درمان. مع أن الأوامر قد صدرت إلى مارتن بالاستطلاع فقط في هذا السهل إلا أنه أراد أن يكسب شرف المعركة لفرقته الجديدة. عندما شاهد قوة قوامها 30 من فرسان الدراويش، "أشكالاً قلنسوية المظهر مثل رهبان يمتطون الخيول"[33]، ونحو 200 من الجنود المشاة مختبئين وراء جرف صغير في الأرض أمر سراياه الأربعة بسحب سيوفهم وتشريع رماحهم والاستعداد للهجوم. لقد كانت هذه



العودة إلى أسلوب الحروب ما قبل الحديثة آخر هجوم يقوم به سلاح الفرسان في تاريخ الجيش البريطاني.

قال ونستون تشرشل في نفسه وهو يرى هؤلاء الفرسان يتخذون تشكيلهم الهجومي: "بالطبع سيكون ثمة هجوم، فهذه هي الفكرة الوحيدة التي كانت في أذهان الجميع منذ جئنا من القاهرة"[34].

وعن بعد 300 ياردة سمع تشرشل نداء بالنفير يقول "Trot (المسير خبباً)". وانطلقت الخيول الثلاثمئة وعشرون تجلجل وتصلصل وتقرقع وهي تزيد من سرعة عدوها، والدخان الأبيض بنفثاته يشير إلى نيران انطلقت من بنادق في صف طويل لرجال مشاة جاثمين في منخفض من الأرض، وبينما هم

يستديرون ليشكلوا خطاً هجومياً انطلق صوت "هجوم" فهجموا جميعاً إلى الأمام بأصوات تهدر كالرعد.

كان تشرشل يشعر بألم في كتفه، فحسم أمره قائلاً إن وصل الأمر إلى اشتباك بالسلاح الأبيض فسوف يستخدم مسدسه بدلاً من السيف، سيما وأنه اشترى من لندن مسدس ماوزر Mauser جديد. شارك في الهجوم وأثناء وثبته باتجاه العدو عمل جاهداً ليعيد السيف إلى غمده ويشهر مسدسه. وما أن نظر إلى الأعلى حتى رأى جماعة منهم على بعد 50 ياردة فقط.

"وبدا المشهد وكأنه قد تغير فجأة"[35].

ووراء صف الدراويش المهاجم كان ثمة أكثر من 2,000 مقاتل هم خليط من رجال عثمان دِقْنَه والناجين من الموجة الأولى التي شنها الأنصار. وما كان يبدو للمشاهد أنه جرف صغير قليل العمق تبين أنه واد جاف عميق شديد الانحدار.

"ولاحت الرايات الزاهية الألوان كما لو أن عصا ساحر رفعتها، ورأيت أمراء يأتون من اللامكان يمتطون خيولهم وسط وحول كتلة ضخمة من الأعداء. وتبين أن هؤلاء الدراويش في أرتال عمق الرتل الواحد منها حين تشتد كثافته عشرة رجال أو اثنا عشر رجلاً، كتلة كبيرة رمادية اللون من فولاذ يلمع تحت أشعة الشمس"[36].

واندفع جنود كتيبة Lancers بكامل عديدهم البالغ 320 وسيوفهم ورماحهم مشرعة. كان اندفاعهم مباشراً وبسرعة كبيرة في هذا الوادي. وبدت الأرض تنشق تحت حصان تشرشل حين انزلق مسافة خمسة أقدام وسط الرماحين. وبدا كل شيء في صمت رهيب، وأخذت الصور تضطرب، فتومض وتختفي في ذهنه "مثل صورة سينمائية"[37]، وظهر أمامه فجأة رجلان من المشاة. سدد وجهته نحو الثغرة بينهما بينما كانت رصاصات البنادق تمر متجاوزة رأسه. فصعد بحصانه من الطرف الأخير وعدا سريعاً نحو الصحراء.

وعلى حين غرة لاح أمامه رجل يسقط على الأرض ويستل سيفاً له

انحناءة جاهزاً ليغمد في حصان تشرشل فيقعده عن المسير. فانزاح بحصانه جانباً وأطلق النار على الرجل عن بعد ثلاث ياردات ثم وثب أمامه رجل آخر فأطلق تشرشل النار عليه وأصابه في صدره، وكان شديد القرب منه حتى إن مسدسه قد لامس سيف الرجل. وأطلق النار ثانية على عربي آخر كان على جواده يرتدي رداءً قصيراً براقاً ودرع زردٍ لكنه أخطأه. واستدار هذا الفارس وهرب، وعاد تشرشل ليلتحق بوحدته.

وعلى بعد خمسين ياردة كان جنود كتيبة Lancers يشتبكون في قتال متلاحم مع الدراويش في الوادي. كان تشرشل في الجناح الأيمن حيث صفوف الدراويش كانت أقل كثافة. وفي وسط التشكيل كانت السرية الثانية من كتيبة Lancers بقيادة صديق تشرشل الملازم روبرت غرنفيل Robert Grenfell، وقد التحمت مع مجموعة كثيفة جداً من حملة الرماح ما جعل هجومها يتعثر. فقد سحب الرجال من فوق خيولهم وقطعو إرباً إرباً. وعندما التقى النقيب فير Fair مع أحد الدراويش بسيفيهما كسر نصل سيفه فألقى المقبض في وجه عدوه. وقع غرنفيل ميتاً على الأرض وجمجمته منشطرة إلى نصفين بفعل ضربة سيف حين كان مندفعاً نحو هذا الوادي.

وأخذت تقطر شيئاً فشيئاً مرتدة وسط هذا العراك الصاخب "أشكال أشباح تأتي تباعاً، وخيول يتدفق الدم منها وهي تمشي متثاقلة على ثلاثة أرجل أو رجال يتعثرون مترنحين في مشيتهم، رجال ينزف الدم من جراحهم الفظيعة، رماح مغروسة فيها، وجوه وأذرع قطعت، أمعاء خارجة من الأجساد، رجال يصرخون من الألم وينهارون أرضاً يلفظون أنفاسهم الأخيرة"[38]. الملازم نشام Nesham أصيب بجراح بالغة في كتفه وساقه اليمنى خرج من هذه الأشلاء ويده اليمنى مدلاة بعد أن بترتها ضربة سيف، وزمام حصانه قد التف حول ساعده. الرقيب فريمان Freeman حاول جاهداً أن يلملم بقايا السرية الثانية. "كان وجهه مثخناً بالجراح وهو يصرخ داعياً الجنود للتجمع حوله، أنفه، وجنتاه، شفتاه تتحركان وسط فقاعات حمراء"[39]. وبطريقة ما سار العقيد مارتن ممتطياً جواده وسط هذا الصخب الشديد دون أن يستل سيفه ودون خدش. ففي غضون

دقيقتين فقط قُتِل أو جُرِح ثلث من معه من جنود. وفي تلك اللحظة عينها تذكر العقيد أن رجاله الفرسان المتميزين بفروسيتهم وشهامتهم يحملون بنادق صغيرة.

بعد ذلك الضجيج الصاخب ارتد إلى تشرشل سمعه حين وصلت أذنيه أصوات أزيز رصاص بنادق المارتيني هنري Martini-Henry fire. وما هي إلا عشرون دقيقة حتى خلا الوادي وأفرغ من الجنود الدراويش.

بينما كانت الألوية في المقدمة تتسابق لنيل شرف كونها أول من يدخل أم درمان كان العميد هكتور ماكدونالد واللواء المصري الأول لا يزالون متخلفين عنهم بنحو ميل واحد. في تلك اللحظة ذاتها خرج جيش الخليفة عبد الله برايته السوداء من وراء جبل سرغام، والتقى الجيشان برايتيهما الخضراوين عند مؤخرة جيش ماكدونالد. هو ابن مزارع صغير في اسكتلندا وارتقى في الرتب العسكرية من خلال الحملات الاستعمارية، يدعوه الآخرون بـ "ماك العجوز"، وكان يدور بين صفوف الجند ممتطياً جواده ويصرخ في الجنود المصريين حين تضطرب صفوفهم. مراسل يمتطي جواداً جاء مسرعاً يبحث عن كتشنر طالباً التعزيزات.

لكن كتشنر لم يكن يفكر إلا بذاك المجد الذي سيحققه، فقال متذمراً لمن جاء بالنبأ: "ألا يرى أننا في طريقنا إلى أم درمان؟ أخبره أن يلحق بنا"[40].

ثم فكر ثانية، وإذا به يحول وجهته نحو الغرب مبتعداً عن النهر وأسرع ليصل في الوقت المناسب ويحمي الجناح الأيسر لماكدونالد من هجوم يشنه 12,000 مقاتل يحملون الراية السوداء.

في تلك الأثناء كان بينيت بيرلي Bennett Burleigh مراسل التلغراف يراقب هذا المشهد من الجانب الشرقي لجبل سرغام وقال في نفسه: "إن ماكدونالد مُقْدم على لحظة عصيبة جداً. فهل يا ترى يخرج أحد منها سليماً وحياً"[41].

لم يهتم ماكدونالد بأوامر اللواء آرشي هنتر بالانسحاب. فقد كان يعلم جيداً أنه إن فعل فسوف ينهار وجنوده في وجه هجوم من أنصار المهدي، وسيعرض رجاله لمذبحة فظيعة. كان هذا الاسكتلندي قد درب شخصياً أربع كتائب مشاة سودانيين. عندما وصل المهاجمون برايتهم السوداء من وراء جبل سرغام صمد هؤلاء المشاة في مواقعهم بينما كان المصريون يواصلون رشقاتهم، والسودانيون يطلقون النار من بنادقهم كيفما يشاؤون. وعلى هذا النحو كسبوا الوقت قبل أن تصل التعزيزات التي انضمت إلى الجناح الأيسر لقوة ماكدونالد. وعندما فتحت نيران المدفعية ومدافع مكسيم أمكن صد هجوم الخليفة. فتداعى الهجوم وانهار على بعد 200 ياردة من مواقع المشاة رماة النيران في جيش ماكدونالد. وانحسرت موجة المقاتلين الذين جاؤوا يصرخون في فوضى واضطراب.

وبينما كان هؤلاء يفرون شن الجيش ذو الراية الخضراء هجومه من الشمال فغير ماكدونالد وجهة الكتيبة السودانية الحادية عشرة في الوقت المناسب لتصد الهجوم القادم إليها مباشرة. وتدافع الدراويش أمام الكتيبة الحادية عشرة وعبروا الخط الذي يفصل بينها وبين الكتيبة التاسعة. وللحظة واحدة فقط بدا وكأن الطريق مفتوح أمامهم ليطوقوا لواء ماكدونالد، لكن الكتيبة المصرية الثانية هرعت مسرعة برتل ثنائي وحطمت هجوم الدراويش على مدى قريب.

لقد أنقذت شجاعة ماكدونالد ورجاله جيش كتشنر. أحبطوا هجوم جيش الخليفة عبد الله. قتلوا نحو خمسة عشر ألفاً، هم زهرة جيش المهدي الجهادي، جثثهم متناثرة في كل مكان حول صفوف جنده، وفر الخليفة عبد الله إلى كردفان.

في تلك الأثناء قال كتشنر وهو يغلق منظاره العسكري: "عمل جيد لإزالة الغبار!"[(42)]. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ظهراً. في أربع ساعات فقط انهار حلم المهدي تحت تأثير القوة الماحقة للآلة العسكرية البريطانية. وتحت راية جيش الخليفة عبد الله السوداء قاد كتشنر لواءه من الجنود السودانيين إلى أم درمان.

كانت الروائح الكريهة تنبعث من هذه المدينة، التي استخدمها جيش الخليفة عبد الله مرحاضاً كبيراً لهم. كما أدى قصف كتشنر للمدينة بالقنابل إلى قتل الكثيرين، فامتلأت شوارع المدينة المهدمة بجثث الحمير والرجال والنساء والأطفال. اتجه كتشنر ممتطياً جواده إلى ساحة المدينة خارج مسجدها حيث تناثرت نسخ من القرآن الكريم، ثم إلى قبر المهدي وضريحه الذي تناثرت فيه أنقاض القبة التي قصفتها القنابل. وفي منزل الخليفة عبد الله وجد منظار غوردون، وفي السجن وجد السجناء الأوروبيين الذين سجنهم الخليفة عبد الله. ثم عاد إلى خيمته عند الغروب، واتكأ على سريره الميداني وأملى بعض البرقيات على العقيد وينغيت على ضوء أعواد الثقاب من أحد الصحفيين، فدوّن وينغيت الكلمات وهو ممدد على الأرض. وخارج الخيمة كان أحد صناع الدروع ينشر بمنشاره السلاسل التي كانت تقيد السجناء الأوروبيين. وفي تأمله قبل أن يخلد للنوم تلك الليلة قال: "أشكر رب الجميع أن منحنا النصر بأقل كلفة من الرجال القتلى أو الجرحى"[43].

في اليوم التالي ذهب كتشنر ليزور أطلال الخرطوم. دخل يستكشف ما تبقى من قصر غوردون فتوقف قليلاً عند الدرج حيث لقي غوردون مصرعه. ثم أمضى بقية النهار يضع مسوّدة قداس تذكاري. وفي صباح اليوم التالي نقلت زوارقه العسكرية بعض السرايا من كل فرقة وأوصلتها إلى موضع رسو السفن قرب القصر.

رُفعت ساريتان للعلم وسط الأطلال وعندما رفع كتشنر يده للأعلى رُفع العلم البريطاني، ومن الباخرة مليك *Melik* أطلقت فرقة غوردون "القرد" بضع طلقات بالذخيرة الحية تحية لذكرى "العم تشارلي Uncle Charley". ورفع كتشنر يده ثانية فرُفع العلم المصري الأصغر حجماً وانطلقت القذائف بتحيتها لتحط جنوباً في المياه وعزفت الموسيقى نشيد الخديوي. أمر كتشنر الجميع بأن يهتفوا ثلاثاً تحية للملكة، وثلاثاً تحية للخديوي. ثم أعطى الجنرال ووشوب Wauchope قائد الفرقة البريطانية أمره بالهتاف ثلاثاً تحية لكتشنر.

بعدئذ رتّل قس الكنيسة الإنجيلية المزمور الخامس عشر: "يا رب، من ينزل في سكنك؟ من يسكن في جبل قدسك؟ السالك بالكمال، والعامل الحق والمتكلم بصدق في قلبه".

ومع قرع الطبول الخافت عزفت موسيقى القِرَب لحناً جنائزياً تحية لغوردون، وتبعتها الفرقة الموسيقية للكتيبة السودانية الحادية عشرة فعزفت ترنيمته المفضلة "كن معي Abide With Me". وما أن انتهى القداس حتى بكى معظم الضباط البريطانيين. كانت الدموع تنهمر ثم تسيل على الوجوه وبخاصة على وجنتي كتشنر اللتين لوحتهما الشمس، لم يقدر أن يتكلم لحزنه فأشار بيده إلى آرشي هنتر Archie Hunter ليعلن انتهاء العرض.

وكتب ونستون تشرشل رسالة إلى موطنه يقول فيها: "اطلبوا من أحد النقاشين على الحجارة لينقش على تمثال غوردون في ميدان الطرف الأغر بلندن كلمة بالغة الأهمية برغم كونها غير واعدة وغير كافية، وتعني 'أُخذ بثأره!'"(44)

ومع ذلك فقد أزعج حجم هذا الانتقام الجميع حتى تشرشل نفسه. ففي مذبحة فقدت كل توازن وتناسب قُتل ما يزيد عن عشرة آلاف رجل من الدراويش تحت إشراف كتشنر. وقُتل مئات آخرون في أم درمان في الليلة التي أعقبت المعركة، حين أخذ السودانيون أنفسهم بثأرهم من أتباع المهدي. وتُرك الآلاف من الجرحى ليلقوا مصرعهم في ذلك السهل الذي تلفحه حرارة الشمس القاسية خارج المدينة. بعد ثلاثة أيام من المعركة ذهب تشرشل على حصانه إلى ميدان القتال ورأى البقية الباقية من "محاربين أشداء يقاتلون دفاعاً عن إيمان موهوم وهيمنة منهارة"(45).

كل ما رآه "فساد فاحش". جثة قتيل من الدراويش كل ثلاث ياردات، مقطعة الأوصال ومشوهة، انتفخت حتى صارت ضعف حجمها الطبيعي. وفي بعض الأماكن كانت الجثث مكدسة فوق بعضها مثل قطع الخشب. والريح الساخنة لا تحمل إلا روائح الجثث العفنة. بعد انتهاء المعركة حاول الكثيرون من

الجرحى متابعة القتال حتى الرمق الأخير. كان بعضهم ينهض ليطعن برمح أو خنجر موظفي الإسعاف الطبي وصيادي الأشياء التذكارية، وكان الآخرون يتشبثون بالحياة فيزحفون ويجرون أنفسهم جراً إلى النيل من أجل شربة ماء. ورأى تشرشل أحد المحاربين وقد بترت ساقه في القتال وقد سار ميلاً في ثلاثة أيام، وما زال أمامه ميلين ليصل إلى الماء. ورأى آخر وقد فقد كلتا ساقيه فأخذ يجر نفسه قاعداً. ورأى كثيرين آخرين وقد وصلوا إلى المياه الضحلة ثم ماتوا ووجوههم في المياه. وشعر تشرشل في قرارة نفسه أنه كان ينبغي على كتشنر لو أنه أرسل "وعاءً كبيراً من الماء البارد النظيف إلى أولئك الجرحى"، أو لو أنه "أرسل رجلاً لا اسم له حاملاً مسدساً وكيساً كبيراً مليئاً بالرصاص"[46].

كان من نتائج موقف كتشنر هذا بالتخلي عن مساعدة أولئك الجرحى أن تداول الناس قصة تقول إنه هو نفسه قد أمر بقتلهم. وقد استثمر المعارضون الليبراليون (الأحرار) في لندن هذه الشائعة وضخموها إلى أن اتخذت أبعاد قصة أسطورية شعبية. لكن كتشنر رد على ذلك بإصرار يقول إن أولويته الأولى كانت العناية بالجرحى من جنوده، وأنه قد أمر الطبيب العجوز الذي عمل مع المهدي واسمه حسن الزكي بإحداث مستشفى للعناية بالجرحى من الدراويش الذين بلغ عددهم نحو 16,000 جريح. لكن وصمة العار تلك لصقت به ولم تُمْحَ، وما انفك الناس يقولون إن أسلوبه كان وحشياً. حتى الاستعماريون في لندن صاروا يتساءلون فيما بينهم عما إذا كان كتشنر من خلال شنه حرب إبادة على أولئك البدائيين قد غدا هو نفسه رجلاً بربرياً همجياً.

لكن حملته تلك لم تنته. فقد أعطي كتشنر قبل أن يغادر لندن مجموعة سرية من الأوامر كتبها سالزبوري بخط يده وخيطت بالإبرة والخيط في باطن سترته. وفتح هذه المجموعة الآن. تضمنت أمراً بأن يذهب عبر النيل إلى أماكن نائية في الجنوب، ليتم فتح أعالي النيل عبر إجبار المتطفلين الفرنسيين على الخروج من فاشودة دون حرب.

وطلب إليه سالزبوري بخط يده "لا أريد جثثاً"[47].

بتاريخ العاشر من تموز/يوليو عام 1898 وبينما كان كتشنر يعد العدة لهجومه الأخير على أم درمان، وصل فريق النقيب مارشان Marchand إلى مدينة فاشودة بعد رحلة طويلة وشاقة عبر الغابات والمستنقعات امتدت لسنتين. بدّل اسم المدينة وجعله حصن سان لويس Fort San Louis، ورفع العلم الفرنسي الثلاثي الألوان، وأقام الاستحكامات من الطين الجاف وزرع حديقة خضار. يبدو أن أتباع المهدي في تلك المنطقة لم يعرفوا بوجود مخطط فرنسي كبير لإقامة تحالف مناهض لبريطانيا في مناطق النيل. هاجموا الحصن الذي أقامه مارشان، ومع أنه قد ردهم على أعقابهم إلا أنه كان يعلم بأنهم سيعودون. في السابع عشر من أيلول/سبتمبر تناهى إلى سمعه أن جيشاً من أتباع المهدي كان في الطريق إليه ومعه خمس زوارق حربية. فلجأ الفرنسيون إلى استحكاماتهم واستعدوا للقتال حتى الموت.

ولاح أمامهم أول زورق حربي في صباح اليوم التالي. وتبين لهم بكل تأكيد أن الرجال في ذلك الزورق يرتدون زي الجيش المصري الكاكي والطربوش الأحمر. نزل من الزورق رجلان سودانيان وبعد أن قدّما التحية بأسلوب كتشنر سلّما النقيب مارشان رسالة من قائدهم.

قرأ مارشان الرسالة، وعرف أن كتشنر بعد أن استعاد الخرطوم قادم ليستعيد القسم المتبقي من إمبراطورية الخديوي. ثم جاء الجنرال الإنكليزي في وقت لاحق ذاك الصباح، حيث ظهر الزورق الحربي "دال *Dal*" عند انعطاف النهر ووراءه ثلاثة زوارق أخرى. رست تلك الزوارق عند الساحل ووجه رجال كتشنر بنادقهم نحو الحامية الفرنسية.

لكن مارشان استقل قارباً حاملاً العلم الفرنسي وذهب به إلى الزورق الحربي "دال" للتفاوض مع كتشنر. لم يكن أي من الرجلين يريد الحرب، ولم يكن أي منهما على استعداد للتراجع عن موقفه. فاتفق الرجلان على أنهما لا يستطيعان أن يحلا بشرف النزاع بين بلديهما في مستنقع في الطرف الخطأ من

النيل، وعلى أن هذا النزاع يجب أن يحال إلى السياسيين. لم يكن كتشنر مصراً على إنزال العلم الفرنسي من ذلك الحصن، لكن مارشان سمح لكتشنر برفع العلم البريطاني فوق شجرة قريبة منه. وكان السخاء والكرم أكثر من ذلك حين عمل مارشان على ملاطفة كتشنر وداعبه بلغة فرنسية بسيطة ووافق على شرب نخب لقائهما هذا بمشروب بريطاني مؤلف من الويسكي الدافئ مع الصودا. ثم قدمت الشمبانيا فيما بعد إلى جانب الخضار الطازجة من حديقة مارشان.

عاد كتشنر أدراجه في اليوم التالي، بعد أن ترك حامية مكونة من 600 جندي سوداني بجوار الحصن الفرنسي، حيث رفع علمين آخرين هما علم بريطاني وعلم مصري عند منابع النيل في بحيرة فيكتوريا. وهكذا نفذت الخديعة الفرنسية. ولم يكن أمام حكومة مارشان من سبيل لإرسال تعزيزات إلى موقعه، بل إن موقعه هذا كان يتداعى. فاكتشف مارشان مما روته الصحف عما تركه فريق كتشنر وراءه في فاشودة أن مشكلة دريفوس Dreyfus Aair قد وصلت إلى درجة الأزمة. وحين استوعب مارشان وضباطه ما جاء في أقوال الصحف أخذوا يندبون حظهم بصمت بجوار النيل. وبدأت الحكومة الفرنسية تهدد وتتوعد، ولكن حين هدد سالزبوري بإرسال الأسطول هدأت وتراجعت وانخفضت نبرتها.

بتاريخ الرابع من كانون الأول/ديسمبر عام 1898 تلقى مارشان الأوامر بالانسحاب. رفض عرض كتشنر الذي قدم له ممراً حراً عبر النيل، وأعد العدة ليكمل عبور القارة الإفريقية، مفضلاً التوجه إلى البحر الأحمر عبر الحبشة. لقد كانت الحملة الفرنسية كثيرة الطموح لكنها انتهت إلى فشل ذريع. حين أُنزل العلم الفرنسي سأل أحد الجنود الأفارقة طبيب هذه الحملة عن سبب عودتهم السريعة بعد أن قطعوا كل تلك المسافة الطويلة، أجاب الدكتور إميلي Dr Emily، بقوله: "الرجل الأبيض لا يعلم شيئاً"[48].

"أصبح السير هربرت كتشنر، القائد العام للجيش المصري وقائد قوة حملة السودان، بطل الساعة!" هذا ما جاء في مجلة سكيتش *Sketch* التي وصفت

بطل النصر في معركة أم درمان بأنه "مثال آخر لذاك التمازج الناجح للشعب السكسوني Saxon [القادم من ألمانيا] مع الشعب السلتي Celt [الذي جاء في قديم الزمان من أوروبا الغربية وأقام في اسكتلندا وإيرلندا وويلز][(49)].

وعاد كتشنر إلى موطنه ليحظى بالمجد ويُستقبل استقبال الأبطال وليكون في الوقت عينه موضع الجدال والنقاش. رشحته الملكة فكتوريا لرتبة النبلاء وأصحاب الألقاب النبيلة. وحشد الجماهير الذي رحب باللورد كتشنر محقق النصر في الخرطوم وهو ينزل من الباخرة في ميناء دوفر Dover كان أكبر حشد تشهده هذه المدينة الساحلية في تاريخها. لكن فضيحة أخرى نكدت عليه انتصاره هذا، حيث تناقل الناس أخباراً تقول إن كتشنر بعد أيام قليلة من دخوله لأم درمان فقد أعصابه وضبطه لنفسه وأرخى الزمام لمشاعر الانتقام لديه.

بعد أربعة أيام على انتهاء المعركة وضع غوردون "القرد" بعض الحشوات القطنية المتفجرة حول ضريح المهدي وفجر ذلك المقر الأخير لراحة نفس قاتل عمه. ادعى كتشنر أن هذا البناء قد دمر أثناء قصف الخرطوم وأنه كان أصلاً ضعيف البنيان. لكن الدافع الحقيقي في نفسه كان يهدف إلى الحيلولة دون أن يصبح هذا البناء الأكبر في أم درمان ضريحاً مقدساً ومزاراً لأتباع المهدي.

ولم يكن لديه عذر يبرر به ما حدث لمحتويات هذا الضريح. فالفريق الذي عمل مع غوردون القرد على هدم البناء ألقى عظام المهدي في النيل عند حلول الظلام، وقد انتزع أحد أفراد هذا الفريق جمجمة المهدي التي كانت حسنة الشكل واحتفظ بها. وعندما عاد كتشنر من فاشودة قدم له معاونوه هذه الجمجمة تنكاراً لانتصاره.

لم يدر هذا القائد العام ماذا يفعل بها. لعله يستعملها محبرة توضع على طاولته، كما اقترح أصحاب الدعابات؟ أو لعله يستعملها بمثابة مصباح يعلق على الجدار؟ وإلى أن يقرر كتشنر ماذا يصنع بها وضعها في صفيحة مليئة بالكيروسين.

عندما تسربت هذه القصة للناس أثارت مشاعر اشمئزاز واسعة، ليس فقط في صفوف منافسي وخصوم سالزبوري في البرلمان. وقال عنها تشرشل "عمل شرير ينبغي لكل مسيحي مخلص، وكل فيلسوف، أن يعبر عن استنكار لها واشمئزاز منها"[50]. وتعهدت حكومة سالزبوري بأنها ستقدم كتاباً أبيض تستفسر فيه عن الطريقة التي حصل بها مثل هذا العمل الشنيع.

حين كتبت الملكة فكتوريا إلى كتشنر معربة عن استيائها من "إهلاك جسد رجل مسكين كان أولاً وأخيراً له أهمية معينة، بالرغم من رداءته وقسوته"، أنبته ببرود شديد، قائلة: "إن من صفات العصور الوسيطة ألا تسمح بدفن بقايا جثمانه سراً في بقعة من الأرض لا يمكن أن تكون بذات أهمية سياسية، أو لأن تكون محور خرافة ما. إن قبور شعبنا محترمة وقبور أعداء شعبنا، برأيي، يجب أن تحترم أيضاً"[51].

وقال كتشنر في معرض رده على هذا التأنيب: "عندما عدت من فاشودة قدمت لي جمجمة المهدي في صندوق ولم أدر ماذا أفعل بها"[52].

وتساءل عما إذا كانت الكلية الملكية للجراحين التي توجد بحوزتها بعض الأجزاء من أمعاء نابليون، قد يكون لها اهتمام بها. وفي ذلك الحين وصلت جمجمة المهدي إلى القاهرة، وكانت واحدة من عدد كبير من التذكارات التي خبأها كتشنر في مستودع القاهرة. اقترح كتشنر دفنها في مقبرة عسكرية بمدينة القاهرة، لكن اللورد كرومر عجل بإرسالها بأسرع ما يمكن إلى وادي حلفا، حيث انتهى بها الأمر بأن دفنت سراً في قبر لا يحمل أي علامة في مقبرة إسلامية على أطراف الصحراء.

وجاء الكتاب الأبيض وكان مبرئاً لكتشنر من كل ذنب، وخفت الضجيج وانتقلت الصحف لتتحدث عن أشياء جديدة تثير الغضب والاهتياج في مناطق بعيدة في الإمبراطورية. ففي جنوب إفريقيا اشتعلت حرب جديدة ضد البوير Boers.

وفي هذا كتب ونستون تشرشل معرباً عن دهشته قائلاً: "ما أغرب، وما

أشد تنوع التحولات عند شعب إمبراطوري. إن ذلك يشبه مشهداً من مسرحية إيمائية (Pantomime) تقدم على مسرح دروري لين Drury Lane. نرى هذه الأشكال الأجنبية غير المألوفة، التي لكل واحد منها مجموعته الكاملة من الجرائم ومن العادات الفظيعة و'الخصوصيات الصغرى' تقطر واحداً فواحداً من تلك الأجنحة المعتمة للأعمال البربرية لتصبح تحت الأضواء الساطعة للحضارة"[53].

ولكن أياً كانت دوافع اشمئزاز تشرشل من كتشنر وأساليبه إلا أنه كان يعتقد أن ذلك الصراع وتلك المذابح كان لا بد منها. ففي مقبرة جديدة في ضواحي أم درمان كانت أكوام في غير اتساق لحجارة حمراء وصلبان بيضاء تشكل علامات لمثوى جنود "دفعوا ثمن كل ذلك المجد والهزل". لكنها ليست النصب التنكاري الوحيد لتلك الحملة التي قام بها غوردون ولفتوحات كتشنر.

فقد كتب تشرشل في بعض مذكراته يقول: "إن تدمير حالة مجتمع كان لوقت طويل مفارقة تاريخية - يشكل إهانة للحضارة، مثلما هو خطر عليها، وتحرير ممر مائي عظيم، وربما وضع أسس لهند إفريقية، وبالتأكيد تسوية لحساب قديم. فهذه كلها قبور جوفاء، وتكريم لأشخاص مدافنهم غير معروفة، ربما تثير حماس ودهشة أجيال قادمة ليست ناكرة للجميل"[54].

لقد تحقق ذلك النصر العظيم في أم درمان بثمن بخس، حتى إن قصة جمجمة المهدي تبدو لوثة صغيرة جداً على تاج كتشنر. لقد أبيدت عقيدة المهدي، التي كانت شبحاً يهدد أمن وسلامة الإمبراطورية البريطانية، وكانت إبادتها بكلفة زهيدة الثمن. وكما تباهى كتشنر بقوله، فقد فتح السودان بتكلفة لم تزد عن 2,345,000 جنيه، أي ما يعادل ثلث ما أُنفق على حملة ولسلي الإغاثية الفاشلة. وبفضل أسلوب اللورد كرومر في وضع ميزانية الحسابات المصرية لن يطلب من دافع الضرائب البريطاني أن يغطي أكثر من 800,000 جنيه من قيمة تلك الفاتورة. لقد كسبت بريطانيا ما يزيد عن مليون ميل مربع في إفريقيا وأكثر من مليوني مسلم بصفقة رابحة لم تزد عن جنيهين وستة شلنات وستة بنسات لكل ميل مربع واحد ومبلغ جنيه واحد وثلاثة شلنات وثلاثة بنسات للرأس الواحد. وهكذا وبسعر اقتصادي زهيد فرض سالزبوري على رعاياه "حكماً مشتركاً إنغلو مصرياً".

ولأول مرة في التاريخ أصبح النيل نهراً مفتوحاً ابتداءً من منابعه وحتى الدلتا، ومن الإسكندرية إلى بحيرة فكتوريا أصبح النهر العظيم والقديم والملايين من الناس الذين يعتمدون عليه من الممتلكات البريطانية. والحرب التي بدأت عند بداية قرن إسلامي جديد انتهت عند ابتداء قرن مسيحي جديد. لكن ما قدمه هذا القرن من طرق وأساليب كتشنر وتكنولوجيته سيجعله الشخص المثير للاهتمام بقدر ما أثار الاهتمام آخر هجوم شنته الكتيبة الحادية والعشرون من فرقة Lancers. ففي أم درمان وحدها قتلت مدفعية كتشنر ما يزيد عن عشرة آلاف مقاتل من الدراويش في صبيحة يوم واحد. وفي شهر تموز/يوليو من عام 1916 سيموت أكثر من 19,000 جندي بريطاني في اليوم الأول من معركة عرفت باسم معركة سوم Battle of Somme [في شمال فرنسا].

في اليوم الأخير من القرن التاسع عشر جلس ولفريد بلانت إلى طاولة مكتبه في منزله خارج الإسكندرية وكتب مرثاة تنقش على قبر هذا القرن، جاء فيها:

"أقول وداعاً لقرن يمضي، فليرقد بسلام وهدوء بعد أن عاش في حروب طويلة. وللقرن الجديد لا أبشر بأي شيء سوى أنه سيشهد أفول شمس الإمبراطورية البريطانية، وربما تظهر محلها إمبراطوريات أخرى أكثر سوءاً منها. لكنني لن أعيش لأرى ذلك اليوم. فهذا كله سيبدو مسألة بالغة الصغر هنا في مصر حيث الأهرامات تشاهدنا، مثلما شاهدت يوسف، حين كان شاباً قبل نحو أربعة آلاف سنة، وربما في هذه الحديقة ذاتها، يتجول ثم ينظر إلى الشمس عند مغيبها وراء هذه الأهرامات، ويتساءل حول المستقبل، كما أفعل الآن في هذا المساء.

وعلى هذا، أقول وداعاً أيها القرن التاسع عشر، وداعاً لكل ما حملته من شرور!!" (55)

القاهرة

1899

جربنا حظنا في هضاب خيبر،
وسخر منا البوير عن بعد ميل واحد،
قدم لنا رجل بورمي طعاماً بالفلفل الحار،
هو طعام شائع في تلك البلاد وعلى ضفاف نهر الإيروادي،
احتالت علينا جماعة من الزولو حسب عاداتهم،
غير أن كل ما استطعنا نيله من هذا كله، أو نالوه هم،
كان تلك الطلقات التي أمطرنا بها هؤلاء "الفزي".
واحتفظنا بما لدينا، كما تقول الصحف،
ولكن في صراع رجل لرجل هزمنا "الفزي وزي" جميعاً.
إذن، هذه لك، أيها "الفزي وزي" والسيدة والطفل،
الأوامر لدينا تقضي بأن نحطمكم، وبالطبع ذهبنا وفعلنا
وأمطرناكم بقذائف من بنادق المارتيني، ولم يكن ذلك عدلاً،
إنما وحيث إن الرياح كانت على عكس ما تشتهون، فأنتم
أيها "الفزي وزي" خالفتم ما هو عدل.

رديارد كيبلنغ *Rudyard Kipling*
يقصد بـ (فزي وزي Fuzzy-Wuzzy القوة السودانية في الحملة)، 1890[1]

بعد طرده من مصر ذهب **الخديوي إسماعيل** ليقضي ما تبقى له من أيام في هذه الحياة بمدينة نابولي الإيطالية، لكنه غادر هذه المدينة مستاءً ومشمئزاً بعد أن هربت إحدى زوجاته مع حلاق في المدينة. رفض قائد شرطة المدينة أن يعيدها له لتنضم إلى حريمه. ثم أخذ إسماعيل يدور من عاصمة أوروبية إلى

أخرى وينتقل من فندق ومنتجع إلى فندق ومنتجع آخر عله يجد من يدعمه ليعود إلى مصر أو ليجد علاجاً يشفيه من آلام حادة في كبده. في عام 1887، وعلى عكس ما نصحه به أصدقاؤه، قبل عرضاً من السلطان عبد الحميد الثاني للإقامة في قصر خصصه له في مدينة القسطنطينية.

كان في ذلك القصر ضيفاً وأسيراً في آن معاً، فانضم إلى تلك الجماعة من أشخاص عثمانيين خسروا قضيتهم. ابتعد عن المجتمع، وكان يتوق للذهاب إلى منتجع في كارلسباد Carlsbad كان دوماً يرى في مياهه الدواء الشافي لآلامه. وكان يخشى أن يغتاله مضيفوه، فعاش بقية أيامه في قفص مذهب مطل على مضيق البوسفور. توفي في اليوم الثاني من آذار/مارس عام 1895، وبموته انتهى حلمه بإمبراطورية تمتد حتى خط الاستواء كان قد شجعه عليه حلفاؤه الفرنسيون القدامى. وعاد إلى مصر أخيراً في نعش ليدفن فيها. وفي هذا الإطار قال أحد أصدقائه القدامى كان في حاشيته بمصر: "لقد تبين أن تصفية قرية صغيرة مسألة بالغة التعقيد"[2]. كان هذا الأمير صاحب رؤية وكان في الوقت نفسه واسع الحيلة، هو ذاك الأمير الذي أسماه اللورد كرومر "الحبر الأعظم لبلاد الشام"[3]. وكان أول وأعظم حاكم مختلس في تاريخ إفريقيا الحديث.

وكما طرد هو وذهب ليعيش في المنفى، كذلك انطلق أعوانه الثلاثة ليعيشوا في المنفى. بعد أن قدم **شريف باشا** استقالته من منصبه احتجاجاً على مخططات غلادستون لإجبار مصر على التخلي عن السودان، لم يعد لهذا المنصب مجدداً، وتوفي في مدينة غراز Graz بالنمسا عام 1887. في عام 1893، اتفق اللورد كرومر والخديوي عباس الثاني على تكليف **رياض باشا** لتشكيل حكومة توافقية، لكنه اعتزل السياسة في السنة التالية بسبب سوء حالته الصحية، وتوفي عام 1911. أما **نوبار باشا** فقد أحيل إلى التقاعد في عام 1895 بعد خدمة امتدت لنحو خمسين عاماً في مصر في خدمة القوى الأجنبية، وخدمة جيبه أيضاً. وأخيراً توفي هذا المفاوض الذي شارك في مناقشات قناة السويس وتولى رئاسة الحكومة ثلاث مرات عام 1898 في مدينة باريس.

أما **الخديوي عباس الثاني** فقد أعلن دعمه الكامل للسيادة الأنغلو

مصرية المشتركة على السودان. وحيث إنه كان الشريك الأصغر فقد كسب الشيء الكثير من البرنامج البريطاني لأنظمة العدالة، والتربية والري والتخفيف من الضرائب. وفي الوقت نفسه استأنف نضاله المهذب ضد اللورد كرومر، فانضم إلى القوميين بأمل أن يستعيد استقلاله. كان شغوفاً في تربيته للخيول والماشية، وكان له العديد من الأولاد، لكن أحداً منهم لم يرثه على عرش مصر. في عام 1914 دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر. فأكملت حكومة الأحرار برئاسة هربرت أسكويث Herbert Asquith ما بدأه غلادستون وأعلنت مصر محمية بريطانية وأزاحت عباس الثاني عن حكم مصر. اعتزل السياسة وذهب للإقامة في سويسرا. وهناك كتب نسخته الخاصة لأحداث "التسوية الأنغلو مصرية The Anglo-Egyptian Settlement". وفي عام 1944 توفي آخر خديوي لمصر، وحيداً ومحايداً وثرياً كما كان في حياته.

عاد **أحمد عرابي** إلى مصر عام 1903 بعد نفي دام لعشرين عاماً في جزيرة سيلان. ولدى استقباله في محطة القاهرة تجمع حشد صغير من الناس بعضهم ليهتف له وبعضهم الآخر ليعربوا عن استيائهم منه. وبعد ثمان سنوات توفي بسبب السرطان، بعد أن تجاهلته مصر تحت حكم اللورد كرومر وبعد أن شاخ وخرف. أما **طلبة باشا** الذي قاد قوة الدفاع عن الإسكندرية ضد الأميرال سير بوشامب سيمور فقد قضى حياته مريضاً ومنفياً في جزيرة سيلان، وقد أعاده سجانوه إلى القاهرة عام 1899 للتخفيف ما أمكن من رد الفعل الشعبي لوفاته. كما سمح البريطانيون **لمحمود سامي البارودي**، أستاذ عربي ومعلمه، بالعودة إلى موطنه الأصلي حين لم تظهر أي ردة فعل.

وتوفي **جمال الدين الأفغاني** عام 1907 إثر إصابته بسرطان في فكه حين كان بضيافة السلطان عبد الحميد الثاني. وقد زعم بعض أنصاره القلائل أن طبيب السلطان قد حقن السم في ذقنه. ومع أن وفاته لم يدر بها أحد في حينها إلا أن أتباعه المتدينين وجماعة المناهضين للغرب جعلوه المؤسس العقائدي للحركة الإسلامية المعاصرة. ثم كان رشيد رضا، ربيب الأفغاني، من أوحى

لحسن البنا بأن يؤسس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وقد ضمت هذه الجماعة في صفوفها صاحب النظريات الإسلامية سيد قطب.

لكن الشخص الوحيد من ثوار عام 1881 والذي حقق نجاحاً هو **الشيخ محمد عبده**. بعد أن أخفقت رؤية الأفغاني الثورية التفت محمد عبده نحو الإصلاح. عينه اللورد كرومر المفتي الأكبر للديار المصرية، أو كما قيل السلطة الإسلامية الرئيسية لاحتلالٍ مسيحي. فعمل هو وجاره **ولفريد سكاوين بلانت** - حيث إن حديقتي منزليهما متلاصقتان من جهة الخلف - على كتابة مذكرات حول ثورة عرابي الفاشلة وعن آمال محبطة لحركة إصلاح إسلامية. وتوفي الشيخ محمد عبده بتاريخ 11 تموز/يوليو عام 1905 يوم الذكرى السنوية لقصف الإسكندرية. أما بلانت فقد أكمل الكتاب الذي عمل عليه بالتعاون معه، وكان بعنوان "التاريخ السري لاحتلال مصر" *Secret History of the Occupation of Egypt*، فكان رواية صريحة ومسلية وغير موثوقة في مواضع عديدة لثورة عرابي.

ومع أن بلانت لم يهدأ ولم يكل في نشاطه السياسي الراديكالي المعادي للاستعمار إلا أنه في مرحلة معينة تخلى عن أوهامه الشاعرية بخصوص الإسلام. في عام 1897 قام برحلة إلى الصحراء الغربية لمصر، وهناك تعرض له جماعة من قبيلة السنوسي وأوسعوه ضرباً ونهباً، وأسروه. وعندئذ اقتنع بأن المراجعة الصفائية للإسلام الرامية إلى الحرص على صفاء اللغة سوف تنتهي "بجنون أكيد" وليس بالأصالة والصحة والوثوقية.

فقال معترفاً بذلك: "لقد ابتدعت لنفسي قصة وهمية حول هؤلاء المصلحين لكنها قصة ليس لها أساس وتبين لي أنه كلما قلّ الدين في هذا العالم لربما كان ذلك أفضل"[4]. وبرغم ذلك كان هو وزوجته الليدي آن Lady Anne قد ابتاعا من مصر ستة أمهار عربية أصيلة عام 1878 فأصبحت هذه الأمهار أساس سلالة Crabbet Stud الأكثر نجاحاً بين سلالات الخيول الأوروبية والأميركية الشهيرة بسباق الخيول.

وتوفي **وليم غلادستون** في سريره في التاسع عشر من شهر أيار/مايو عام 1898، ولم ير مشهد انتصار كتشنر في الخرطوم. أما **اللورد غرانفيل فقد** اعتزل السياسة بعد وفاة غوردون وتنحي غلادستون عن الحكم، وتوفي عام 1891. وخسر **السير تشارلز ديلكه** Sir Charles Dilke مقعده البرلماني إثر فضيحة انتهت بطلاقه من زوجته. أما **اللورد هارتنغتون** فقد ترك حزبه وانضم إلى حزب المحافظين ليدعم حكومة اللورد سالزبوري المحافظة من المقاعد الخلفية في مجلس العموم. في عام 1902 ترأس **إيفلين بيرنغ** الذي أصبح يعرف باسم **اللورد كرومر** احتفالاً رسمياً لتدشين سد في أسوان. وبذلك وضع حداً لمعاناة سكان الدلتا ومزارعيها جراء اعتمادهم المزمن على فيضان النيل. ثم اعتزل العمل السياسي بعد أربع سنوات، وخلفه في منصبه سير إلدون غورست Sir Eldon Gorst حاكماً افتراضياً لمصر. ترك **اللورد سالزبوري** الحكم عام 1902 بعد أن أنهك وتفطر قلبه لوفاة زوجته.

في عام 1895 أزاح **الفايكونت غارنت ولسلي** ذلك "المنطاد الألماني الكبير" وحل محل دوق كمبردج في منصبه قائداً عاماً للجيش البريطاني، وعند وفاته عام 1913 ورثت ابنته فرانسيس Frances لقبه الفايكونت. أما **ريغي بريت** Reggie Brett المعجب بغوردون والذي صار فيما بعد الفايكونت إيشر الثاني Esher فقد أصبح سياسياً له نفوذ واسع في حزب الأحرار وحاكم قلعة وندسور Windsor Castle ومؤرخاً حقق نجاحاً عظيماً. في عام 1912 تابع الصحفي **و.ت. ستيد** W.T. Stead الذي كان واحداً من أعظم صحفيي العصر الفكتوري، القصة الكبرى حتى نهايتها ثم غرق حين غرقت باخرة تايتانيك Titanic. وفي السنة التالية انتحر **اللواء هكتور ماكدونالد** بأن أطلق النار على نفسه في أحد فنادق باريس بعد أن اتهم بأنه ناشط في الشذوذ الجنسي. ثم تبين فيما بعد أن له زوجة وولداً كان قد أخفاهما عن عيون الناس. أما كتشنر فقد كان لديه ميل دائم لترقية الضباط غير المتزوجين دون غيرهم.

غير أن نجاح كتشنر في احتلال السودان جعل حلم الاستعماريين

المعروف بـ " من مدينة الكاب في الجنوب وحتى القاهرة في الشمال" قريب التحقق، ولم يكن أمام تحقيقه أي عقبة يمكن أن توصف بالعقبة الكأداء، سوى أولئك المزارعين البوير وميليشياتهم الذين عارضوا بقوة توسع جنوب إفريقيا البريطانية نحو الشمال. ولكن ما أن انقضى عام واحد على فتح السودان والقضاء على حركة المهدي في أم درمان حتى دخل الجيش البريطاني في حرب ثانية. كان العدو في هذه المرة جماعة من رجال حرب عصابات من البيض مسلحين ببنادق ماوزر Mauser ألمانية الصنع. وكان من ضحايا هذه الحرب **ج. و. ستيفنز** الذي جعل من كتابه الذي يحكي تجاربه في السودان وبعنوان *With Kitchener to Khartoum* رائعة من روائع الكتب الأكثر مبيعاً حيث توفي إثر إصابته بالحمى التيفية لدى محاصرة مدينة ليدي سميث Ladysmith بجنوب إفريقيا.

فإن كان نصر كتشنر قد نفخ ذاك الغرور الاستعماري حتى أقصاه فقد جاءت حرب البوير لتقطف ثمار هذا الوهم. ففي بريطانيا وضع اللوم لتلك النجاحات التي حققها البوير وأذلت بريطانيا على **الجنرال سير ردفيرز بولر** Sir Redvers Buller VC الذي كان من شأن سوء إدارته للتموين أن عوق حملة إغاثة غوردون. فتولى أمر هذه الحملة اللورد كتشنر، فأجبر البوير على القبول بشروطه بعد أن شن حرباً شاملة ضد عائلاتهم ومزارعهم، حيث تضمنت رسائله سجن المدنيين في "معسكرات اعتقال".

في عام 1904 اتفقت بريطانيا وفرنسا على إبرام "اتفاق ودي Entente Cordiale" كان من شأنه أن أنهى عداوة مستحكمة بين البلدين استمرت لقرون طويلة. وبعد عشر سنين تحالف الخصمان اللدودان حول منطقة فاشودة Fashoda ضد ألمانيا، وإمبراطورية النمسا والمجر وتركيا. وصار الجيل الناشئ عام 1898 هو الجيل المنتصر عام 1914 في "الحرب الكبرى من أجل الحضارة".

وأصبح الملازم **ديفيد بيتي** David Beatty نائب الأميرال وقائد الصدام البحري العظيم في تلك الحرب عند معركة جوتلاند Jutland. أما **كتشنر** الذي

مُنح رتبة إيرل Earl فقد أصبح وزير دولة لشؤون الحرب. وخالف رأي مجلس الوزراء حين قال إن هذه الحرب الأوروبية التي طال انتظارها ستستمر لثلاث سنين، وستقتضي حشوداً هائلة وتفرض خسائر ضخمة في الأرواح. وأصبحت الملصقات التي انتشرت في الشوارع تحث الشبان على التطوع في الجيش والتي تبدو فيها عيناه تنظران في عيني الرائي بلهيب من نار واحدة من أشهر صور القرن العشرين على الإطلاق. أما المذبحة التي تعرض لها جيشه من هؤلاء المجندين فقد باتت موضع السخرية لأنموذج الحرب العقيمة. في عام 1916، وحين كان في طريقه إلى روسيا بمهمة دبلوماسية غرق كتشنر وكل من كان معه حينما ارتطمت الباخرة التي كانت تقله بلغم بحري ألماني شمال اسكتلندا.

وكما توقع كتشنر، استخدم **ونستون تشرشل** مهنته في الجيش وفي الصحافة لينطلق منهما إلى البرلمان. فقد ارتقى ذلك الملازم الثاني المغرور حتى وصل إلى مرتبة اللورد الأول للأميرالية First Lord of Admiralty. وفي عام 1915 حاول أن يهزم تركيا العثمانية في الحرب حين قام بإنزال برمائي في مدينة غاليبولي Gallipoli، لكن هذه العمليات أخفقت وقُتل الآلاف من الجنود البريطانيين، فاستقال تشرشل لكنه صار مرضياً عليه بعد الحرب وأسهم في رسم خارطة الشرق الأوسط الجديد. كان شديد الحماس للإمبراطورية البريطانية، وكان يحدوه الأمل بأن تخرج بريطانيا من الحرب العالمية الثانية محتفظة بقوتها وسلطانها الإمبراطوري. لكنه هو نفسه صار الحانوتي الذي بيديه دفن الإمبراطورية في عقد الخمسينيات من القرن العشرين. توفي عام 1965، فكان موته رمزاً لنهاية حقبة من الزمن.

غير أن رؤية ولفريد بلانت بظهور دول عربية تكون بإشراف أنغلو ـ فرنسي قد تحققت، ولو أنها لم تكن، بحسب رؤيته، تدور في فلك خلافة عربية، بل تحققت من خلال استعمار كان يبغضه. انهارت الإمبراطورية العثمانية عام 1917، وفي أعقاب الحرب العظمى اقتسم البريطانيون والفرنسيون تلك الأراضي العربية

وجعلوها دولاً حديثة في طور التشكل. في عام 1924 وضع حاكم تركيا القومي والعلماني كمال أتاتورك نهاية للخلافة، وظل حلم استعادة الخلافة الإسلامية طموحاً إسلامياً هاماً.

بعد الحرب العالمية الأولى استولت بريطانيا على المستعمرات الألمانية في إفريقية، وكان ذلك بمثابة حصتها من السلام. لكن القيود الاقتصادية جعلت ذلك الحلم المتمثل بشعار "من مدينة الكاب جنوباً حتى القاهرة شمالاً" خطاً رسم على الخارطة فقط دون تنفيذ. وكان على بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية أن تناضل وتكافح ليس فقط ضد موقفها الاقتصادي الآخذ بالتراجع بل وأيضاً ضد قوميات عربية وإفريقية. في عام 1952 عاد شبح أحمد عرابي إلى مصر. ومرة أخرى قامت جماعة من ضباط الجيش الراديكاليين بثورة قومية ضد بريطانيا وفرنسا والحكام المصريين الذين كانوا ألعوبة بأيديهم.

ونجحت هذه الثورة. فقد قامت حركة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر بالإطاحة بالملك فاروق الألعوبة بيد بريطانيا. وفي عام 1956 أعلن جمال عبد الناصر عن عزمه على تأميم قناة السويس ـ وذلك لكي يمول سد أسوان الجديد كما ادعى. وتآمرت بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل على ضمان سلامة القناة ودحر هؤلاء الثوار. لكن الضغط الأميركي أجبر هذه الجيوش الثلاثة على الخروج من مصر. بعد أربعة وسبعين عاماً من ذاك الوعد الذي أطلقه غلادستون بالانسحاب البريطاني من مصر تحقق هذا الوعد أخيراً. لقد انتهى عصر القوى الاستعمارية ليحل محله عصر القوى العظمى. وفي مدينة بورسعيد حطمت الجماهير تمثال فرديناند دو ليسبس الضخم بالمتفجرات.

قاد جمال عبد الناصر بلاده مصر إلى طريق مسدود وسط ذلك النضال العربي العام برعاية سوفياتية. وبعد هذه الثورة لم يعد المرء يرى أشخاصاً من جنسيات مختلفة يتجولون في حدائق الأزبكية. انهار كل أثر لمدينة القاهرة الجديدة الشجاعة التي بناها الخديوي إسماعيل. وفي عام 1971 احترقت دار الأوبرا فأخذت بلهيبها كل أثر من آثار الأزياء الفاخرة والمناظر الجميلة وأنغام أوبرا عايدة لفيردي. أصبح قصر عابدين متحفاً، وباتت حدائق إسماعيل في

الجيزة حديقة حيوانات عامة، وتحول منزله الذي خصصه لرحلات الصيد في الجيزة فندقاً حمل اسم ميناهاوس، حيث أجريت أول محادثات إسرائيلية مصرية للسلام. وفي عام 1999 قام المطورون العقاريون بهدم مبنى ماتاتياس، ومقهاه حيث جلس جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده يحلمان بالثورة.

لقد صعد نجم **الجنرال غوردون** مع صعود الإمبراطورية التي أحبها ثم كرهها وهوى بها. في أعقاب عام 1918 وجد أولئك المشككون بدوافع قادة بريطانيا أصدق تعبير لتشككهم في كتاب صدر مؤخراً بعنوان "فكتوريون مشهورون" *Eminent Victorians* بقلم ليتون ستراتشي Lytton Strachy، حيث كان غوردون أحد رموز الكتاب، وقد وصفه ستراتشي بأنه سكير فاقد لتوازنه. بعد انتهاء تلك الإمبراطورية، نُقل تمثال غوردون من ميدان الطرف الأغر Trafalgar ووضع في حديقة عامة محاذية لنهر التيمز.

من جهة أخرى واصلت القوات البريطانية تعقبها **للخليفة عبد الله** وفلول أتباعه في الغابات التي تبعد عن الخرطوم نحو 200 ميل جنوباً. وبعد أن وجدوا أنفسهم محاصرين وفي وضع لا مناص منه مدوا سجاجيدهم، وألقوا أسلحتهم، على الأرض وجلسوا ينتظرون وابل الرصاص من مدافع مكسيم Maxim. أصيب الخليفة عبد الله بثلاث طلقات في صدره، اخترقت واحدة منها قلبه. ونجا **عثمان دِقْنَه** ثانية من الموت بعد أن فر عند اللحظة الأخيرة حتى وصل إلى ساحل البحر الأحمر، لكن قُبض عليه وأخذ أسيراً قبل أن يستقل السفينة التي ستوصله إلى شبه الجزيرة العربية. وهكذا أسر البريطانيون من بقي على قيد الحياة من أمراء الخليفة عبد الله، حيث أودعوا السجن في مدينة رشيد في دلتا النيل شمال مصر. وفي السجن توفي معظمهم، حيث تقول الروايات إن موتهم كان نتيجة الإهمال. وكان من بين الموتى **محمود أحمد** الذي تصدى لكتشنر في معركة عطبرة.

بعد هذه المعركة عاد ابن أخي المهدي **محمد شريف باشا** إلى جزيرة

أبا. وعندما ترامت إلى أسماع البريطانيين إشاعة تقول إنه يعد العدة لثورة جديدة حاصرت القوات منزله وأردته قتيلاً. وفي السنة نفسها سمح البريطانيون لكبير تجار الرقيق والباشا السابق **الزبير رحمت** بالعودة إلى السودان. في عام 1913 قام الزبير بإملاء مذكراته وقصة حياته على الموظف المدني البريطاني جاكسون H.C. Jackson الذي روى حكاية "رجل عربي عجوز مفتون بزوجته لدرجة الخضوع لها ولا يقوى على الوقوف ثابتاً،" وأنه كان مولعاً "بالملذات والحياة العبثية بالقاهرة". وفيما عدا ذلك، فهو "رجل جليل لطيف، دمث الأخلاق"[(5)]. توفي الزبير على فراشه عام 1913. وتخليداً لذكراه أُطلق اسمه على شارع رئيسي في مدينة الخرطوم الحديثة تكريماً لرجل كان يتصيد أبناء بلده السودانيين، وكان بمقدوره أن ينقذ غوردون من القتل لولا وقوف جماعة الضغط من أجل حقوق الإنسان في لندن ضده.

بعد أن فتحت بريطانيا السودان بآلية الحرب الحديثة الوحشية حكمته لمدة 57 عاماً بأنانية مستنيرة. وخلافاً للمنطق الاستعماري كان السودان يستوعب من الموارد أكثر مما ينتج. لقد سببت الحرب الجهادية التي أطلقها المهدي موت الملايين من الناس جراء الحرب والجوع والمرض. أفرغت مناطق عديدة من السودان من سكانها. أما القبائل التي ظلت على قيد الحياة فقد عانت الانقسام بعد موت المهدي مثلما توحدت أثناء حكمه.

بنت بريطانيا عاصمة جديدة في الخرطوم، كانت شوارعها كما خططها اللورد كتشنر. ولتجعل السودان مستقلاً عن مصر أنشأ الإداريون البريطانيون منفذاً جديداً للسودان على البحر الأحمر، أطلقوا عليه تسمية بورسودان، أما مرفأ سواكن المصري المجاور فقد تضاءلت أهميته وضعف وذوى. وأحدث البريطانيون أيضاً نظماً جديدة للقانون والنقل والمواصلات. ارتفعت إيرادات السودان عام 1911 إلى نحو 17 ضعفاً عما كانت عليه، ومع حلول عشرينيات القرن العشرين وجراء الدوريات الشرطية القوية على الحدود الغربية والجنوبية

للسودان توقفت لأول مرة في تاريخ السودان تجارة العبيد التي التهمت الملايين من أبناء هذا الشعب.

ومع ذلك بقيت تلك الانقسامات القبلية والدينية السائدة في ذاك البلد: المسلمون العرب في الشمال ضد المسيحيين أو الوثنيين الأفارقة في الجنوب، والقبائل النهرية المستقرة ضد بدو الصحراء، ولم تستطع السياسة البريطانية البراغماتية التي نصبت ورثة المهدي وكلاء لها أن تضع حداً لتلك الانقسامات. فقد تحالفت أسرة المهدي بقيادة ابنه سعيد عبد الرحمن الذي أبصر النور بعد وفاة أبيه مع البريطانيين وغدت السلالة السياسية الرائدة في السودان. غير أن الأحوال السياسية في مصر ما برحت تؤثر في السودان. في عام 1924 تمكن القوميون المصريون من اغتيال السير لي ستاك Sir Lee Stack الحاكم العام للسودان في أحد شوارع القاهرة.

وفي عام 1956 عندما تحقق الجلاء عن مصر بخروج القوات البريطانية، رحل البريطانيون من السودان أيضاً. وقامت الحكومة السودانية الجديدة بإرسال تمثالي غوردون وكتشنر إلى إنكلترا، فوضع تمثال غوردون في مدرسة غوردون للبنين في ووكنغ Woking بمقاطعة سري Surry. أما **منزل الخليفة عبد الله** في أم درمان فقد أصبح نصباً تذكارياً وطنياً تكثر فيه العربات. أما **ضريح المهدي** فقد أعيد بناؤه، وأصلحت القبة التي تعلوه وكسيت بالفضة. كان موضع تقدير الجميع وصارت محج المحبين. وخارج أم درمان أحيط النصب التذكاري الذي أقيم تكريماً للضحايا من الكتيبة 21 من قوة Lancers في معركة Wadi القريب من جبل سرغام Sarghum بسياج يحميه من حجارة أخذ الوطنيون من سكان البلاد بإلقائها عليه.

بعد عامين اثنين من انسحاب القوات البريطانية شهد السودان أحداث عنف شديدة قبلية ودينية. ففي أعقاب انقلاب عسكري عام 1958 انتقلت السلطة إلى القبائل العربية في الشمال. وحين نكث هؤلاء بوعودهم بمنح الحقوق الفدرالية للقبائل الجنوبية أشعل الجنوبيون حرباً أهلية باتت تعرف بأنها أطول حرب أهلية في العالم. وأصبح السودان تابعاً للسوفيات وباتت أجزاء واسعة من المناطق

المحيطة بأم درمان والتي كانت مسرح المعارك سابقاً قاعدة عسكرية كدست فيها أجهزة الرادار الروسية. ومع حلول أواخر عقد الستينيات من القرن العشرين ومن خلال الاستعانة بأسلحة سوفياتية جاءتها من مصر عبد الناصر تمكنت جيوش الشمال من قتل ما يزيد عن نصف مليون من المدنيين في الجنوب وتهجير مئات الألوف منهم. في عام 1983 أعلن الرئيس جعفر النميري فرض العقوبات الإسلامية التقليدية وجعل السودان أول دولة تطبق سنة الشريعة الإسلامية. وفي عام 1985 نفذ النميري حكم الإعدام بتهمة الارتداد عن الدين بشخصية لها أهميتها كانت تنادي بإصلاح إسلامي اسمه محمود محمد طه. وفي وقت لاحق من ذلك العام أطاح حفيد المهدي واسمه الصادق المهدي بجعفر النميري. لكن هذا الحفيد نفسه أطاحت به الجبهة الإسلامية الوطنية عام 1986 بقيادة عمر حسن البشير وحسن الترابي.

غير أن السودان شهد انهياراً عام 1989 بعد سحب المعونة السوفياتية وصار دولة ضعيفة. اعتبرته وزارة الخارجية الأميركية دولة راعية للإرهاب، فكانت صادراته الوحيدة من اللاجئين والرقيق والإسلام المتطرف، وكانت وارداته الوحيدة الحبوب من الولايات المتحدة والأمم المتحدة وذلك بغية وقاية السكان من المجاعة. في مطلع تسعينيات القرن المنصرم جاء أسامة بن لادن إلى السودان وحل ضيفاً على الحكومة، في هذا السياق زعمت الحكومة المصرية أنه جاء بالمئات من المجاهدين من أفغانستان، وأخذ يحيك المؤامرات مع جماعة الإخوان المسلمين المصرية المحظورة.

أما بن لادن نفسه فقد أصر في حديثه إلى روبرت فيسك من صحيفة الإندبندنت *Independent* اللندنية أن ذلك كله "هراء من الإعلام ومن السفارات، فأنا مجرد مهندس إنشائي ومهندس زراعي"[(6)].

ولكي يبرهن على صحة قوله هذا أشار إلى طريق جديد أنشأه يمتد من الخرطوم وحتى بورسودان على البحر الأحمر. أما مقالة روبرت فيسك التي نشرت في الصحيفة فقد حملت العنوان: "محارب قاوم السوفيات يضع جيشه على طريق السلام. *Anti-Soviet Warrior puts his army on the road to peace*.

لكن الرئيس عمر حسن البشير الذي كان يهدف إلى أن ترفع أميركا عقوباتها المفروضة على بلاده طرد بن لادن وأتباعه من السودان عام 1998. وكان من ضمن المهندسين والمهندسين الزراعيين الذين غادروا معه إلى أفغانستان أيمن الظواهري المشتبه به بأنه الرأس المدبر لهجوم 9/11 في أميركا، ووديع الحاج الذي سجن فيما بعد مدى الحياة لدوره في قصف السفارتين الأميركيتين عام 1998 في تنزانيا وكينيا.

وقد ردت إدارة الرئيس كلنتون على حادثتي تفجير السفارتين باللجوء إلى دبلوماسية الزوارق الحربية، حيث أطلقت صواريخ توماهوك Tomahawk على مواقع مشبوهة للإرهابيين في أفغانستان والسودان. وزعمت هذه الإدارة أن هدفها الوحيد في السودان هو مصنع الشفاء الكيميائي في الخرطوم. وقد استخدم لإنتاج المادة الأساسية لغاز VX. لكن نظام الرئيس محمد البشير ادعى خلاف ذلك.

في عام 2000 أصاب السودان قحط شديد عم أرجاءه كافة فجاءت ثانية أفواج عمال الإغاثة الأجانب، وفي ذلك العام أيضاً أسقطت المقاتلات العسكرية الحكومية قنابل غاز الخردل على المتمردين المسيحيين في الجنوب. غير أن الرئيس البشير الذي كان يعتمد على المساعدات الخارجية وافق على خطة للسلام. واعتماداً على مقترحات غوردون عام 1884 عرضت خطة السلام هذه منح الحكم الذاتي لجنوب السودان، وحيث إنه تم اكتشاف حقول للنفط مؤخراً في الجنوب لم يصدّق أحد خطة البشير.

لكن وبالرغم من أن المفاوضات كانت تشهد بعض التقدم فقد واصلت الجبهة الإسلامية الوطنية حربها ضد رعاياها. وقد تضمنت الأسلحة المستخدمة في هذه الحرب غاز الخردل، وإجبار الناس على اعتناق مذهبهم، وأعمال القتل المنظم والاغتصاب والاسترقاق. في إقليم دارفور غرب السودان أطلقت ميليشيا الجانجويد Janjaweed المدعومة سراً من الحكومة حملة للتطهير العرقي والقتل العشوائي. وعلى الحدود الجنوبية قدّم السودان الدعم لجيش الرب المقاوم Lord's Resistance Army، الذي هو مجرد ميليشيا أوغندية تستعبد الأطفال وتجعلهم جنوداً في صفوفها.

في شهر أيار/مايو عام 2004 أعيد انتخاب السودان عضواً في لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة. وبعد أسبوعين اثنين صدر قرار عن مجلس الأمن الدولي بقيادة أميركية يدين الحكومة السودانية في قضية أزمة دارفور. وفي شهر تموز/يوليو من العام نفسه وافق الكونغرس الأميركي على اعتبار حرب دارفور حرب إبادة. في أيلول/سبتمبر عام 2004 أعلن وزير الخارجية الأميركي كولن باول تأييده لهذا التحليل. وقد لعبت جماعات حقوق الإنسان، التي تعد الوريث الشرعي الحديث لجماعات الإصلاح الاجتماعي في القرن التاسع عشر، دوراً بالغ الأهمية في تعبئة حكوماتها.

أما الرئيس عمر حسن البشير الذي كان يهدف إلى تخفيف الضغط عليه فقد وقع اتفاقاً لوقف إطلاق النار. لم يكن أحد يتوقع له ذلك، وشرع في التفاوض على اقتسام السلطة مع المتمردين في دارفور، ووافق على قدوم قوة لحفظ السلام من الاتحاد الإفريقي. وكان من شأن هذه الإشارات أن رفعت الحظر عن مساعدات مالية تقدر بنحو ربع مليار دولار. وأسهم حلف الناتو بنقل المؤن جواً إلى دارفور وكذلك في نقل قوات الاتحاد الإفريقي. لقد بدأ تورط غربي جديد في السودان. وكما كان الحال في القرن التاسع عشر كانت البداية دوافع إنسانية.

هذا وقد وعد مجلس الأمن الدولي باتخاذ إجراءاته إذا نكث نظام الرئيس البشير عن تعهداته. في تلك الأثناء قام تجمع دولي يضم عدداً من الدول بتطوير حقول النفط في السودان. فكانت الصين المستثمر الرئيسي، وقد حذرت بأنها سوف تستخدم حقها في الفيتو لمنع صدور قرار عقابي من مجلس الأمن.

هوامش الفصول

معاني المختصرات المستخدمة في الدلالة على المصادر:

:Add. MS	مخطوطات إضافية
:BL	المكتبة البريطانية
:BM	المتحف البريطاني
:FO	وثائق وزارة الخارجية، PRO
:NRO	ديوان السجل الوطني بالقاهرة.
:PRO	ديوان السجل العام بلندن.
:SAD	الأرشيف الخاص بالسودان بجامعة درهام
:SNR	رسائل وسجلات السودان
:SOAR	معهد الدراسات الإفريقية والمشرقية بجامعة لندن.

كلمة تمهيدية ـ بورسعيد

(1) Morris, 196.

(2) J.A. Hobson, *Richard Cobden: The International Man* (London: Fisher & Unwin, 1919), 246.

(3) Hobsbawm, 50.

(4) R. Kubicek, 'British Expansion, Empire and Technological Change', in Porter (ed.), 247-69; 251.

(5) Z. Karabell, *Parting the Desert: The Creation of the Suez Canal* (London: John Murray, 2003), 252-5.

(6) H.P. Measor, *A Tour in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land in the Years 1841-2* (London: Rivington, 1844), 119; see K. Fahmy, *All the Pasha's Men: Mehmed Ali, his Army and the Making of Modern Egypt* (Cairo: American Uniiversity in Cairo, 2002), 4-8.

(7) British Consul Charles Murray to Lord Palmerston, No. 30, 6 July 1848 (FO78/757).

(8) *Flaubert in Egypt: A Sensibility on Tour*, trans. & ed.F. Steegmuller (Boston: Little, Brown, 1972), 82 (15 January 1850), 65 (22 December 1849).

(9) Malortie, 69, n. 310.

(10) Palmerston to the Commons, 23 August 1860, *Hansard's Parliamentary Debates* (IIIrd Series; London: Cornelius Buck, 1860), Vol. 160, 1724.

(11) Palmerston to Cowley, Ambassador at Paris, 25 November 1859, E. Ashley, *The Life and Correspondence of Henry John Temple, Viscount Palmerston* (2 vols.; London; Bentley & Son, 1879), II, 124.

(12) Palmerston, minute on de Redcliffe to Clarendon, 22 February 1855 (FO78/1156).

(13) Jeal, 163.

1 - حلم إسماعيل 1869 - 1873

(1) London: Chapman & Hall, 1837, I, ii, 38.

(2) McCoan, 91.

(3) Elbert E. Farman (US Consul at Cairo 1876-81, later the American representative on the mixed Courts), *Egypt and its Betrayal* (New York: Grafton, 1908), 9; see also [Edwin] de leon (american Consul-General at Alexandria, 1855-61), 97.

(4) McCoan, 20, 91; de Leon, 100, 188.

(5) McCoan, 18, Dicey supplies a subsequently popular alternative version, in which an English train-driver drove off the tracks on to the barges at high speed. Nubar Pasha's account matches that of McCoan.

(6) Malortie, 71, n.326.

(7) McCoan, 22-3.

(8) Landes, 240.

(9) يقول القنصل رياض Reade لستانلي Stanley في الإسكندرية بتاريخ 9/8/1876 (FO141/63) ما يلي: "إن فلاحي مصر الذين كسبوا اموالاً بصورة غير اعتيادية وعلى نحو مفاجئ ثمناً لاقطانهم اثناء الحرب الأهلية الاميركية انفقوا جزءاً من هذه الارباح في شراء العبيد ليساعدوهم في فلاحة أراضيهم. وأن جميع العبيد تقريباً الذين تقدموا بطلبات للعتق من العبودية في المنصورة كانوا عبيداً زراعيين ولم يكونوا عبيداً منزليين".

(10) De Leon, 33.

(11) McCoan, 48. The *Levant Herald* was printed at Constantinople.

(12) M. Bell, *Khedive's and Pashas: Sketches of Contemporary Egyptian Rulers & Statesmen, by One Who Knows Them Well* (London: Sampson & Low, 1884), 71.

(13) G. Douin, *Histoire du Règne du Khédive Ismail* (3 vols.; Rome: Stampata, 1933-8), 1, 241-7, 250-7.

(14) C.W. Hallberg, *The Suez Canal: Its History & Diplomatic Importance* (New York:

Columbia University Press, 1931), 375.

(15) The Civil Tribunal of the Seine ruled in the case of Nubar Pasha versus the Canal Company on 28 February 1864.

(16) See R.C. Stevenson, 'Old Khartoum, 1821-85', in SNR, XLVII (1966), 1-38

(17) الأرقام التقريبية لامتلاك العبيد كانت 40% عند قبيلة البقارة، و25% لدى القبائل النهرية المشتغلة بالزراعة، و 20% في المدن. وهذه الأرقام بحسب "P.F.M. McLoughlin" بعنوان "التنمية الاقتصادية وتراث الاسترقاق في جمهورية السودان" *in Africa* XXXII (1962) 355 - 89.

(18) Jean-Louis Burckhardt, *Travels in Nubia* (London: John Murray, 1819), 343-4.

(19) Sir H.H. Johnston, *Pioneers in West Africa* (London: Blackie & Son, 1912), 90.

(20) Burckhardt, op.cit., 329-30.

(21) McCoan, 324، ويقدر Burckhardt ان "خمس او ست سنين تكفي لهلاك جيل من العبيد" (op. cit., 341-2).

(22) Henry Salt (re Sudanese conscripts in Upper Egypt, 1822-3) to the Foreign Office, 8 February 1824 (FO78/126).

(23) ترك Andrea Debono عند وفاته عام 1871 مبلغ 12,150 جنيهاً. وقد بدا Alexandre Vaudey عمله سكرتيراً خاصاً لدى Clot Bey في الاعوام 1837 – 1839. وبعد أن عاد إلى أوروبا اعتمد نائباً لقنصل سردينيا، ثم رجع إلى الخرطوم مع ابني شقيقته Ambroise و Jules Poncet. وتلقى اموالاً من شركة Joyce Thurburn & Co. وبجهود من السفير الساردينى بلندن تلقى كتاب اعتماد من اللورد بالمرستون. وقد جاء Bruno Rollet في عام 1831 ليكون في خدمة تاجر العبيد الفرنسي ثم أطلق مشروعه الخاص عام 1839، وكان ايضاً بتمويل من شركة Joyce Thurburn & Co. (للمزيد من التفاصيل حول التمويل من Vaudey and Rollet انظر مراسلات Thurburn إلى Murray تاريخ 15/4/1841 – FO141/19). وقد قام محمد علي بإرسال John Petherick إلى كردفان لتقصي الحقائق حول ما اشيع عن مناجم الذهب في ذلك الإقليم وتجارة الصمغ العربي. وفي عام 1850 أصبح نائب القنصل البريطاني في الخرطوم ويحمل إذناً يخوله السفر لثلاثة شهور في العام بقصد التجارة. في منتصف عام 1851، عمل بتجارة العاج، وفي عام 1856 جاء إلى منطقة بحر الغزال مع Bruno Rollet بعد أن امتدت تجارة العبيد إلى تلك المنطقة. وقد منح سلطات قنصلية كاملة عام 1859، لكن هذه القنصلية ألغيت عام 1864.

(24) Petherick to Bruce, 12 May 1856 (FO141/320); Joyce to the Egyptian Trading Co., 10 November 1864 (FO84/1246).

(25) Joyce to the Egyptian Trading Co., 10 November 1864 (FO84/1246).

(26) Colquhoun to Russell, 4 June 1865; Petherick to Colquhoun, 17 March 1865 (FO78/2253); Green to Malmesbury, 31 December 1858 (FO84/1060).

(27) M.F. Shukry, *Khedive Ismail and Slavery in the Sudan* (Cairo: Libraire de la Renaissance d'Egypte, 1938), 95, 99, 118.

(28) يصف Petherick رحلته الاستكشافية عام 1856 مع Rollet لمنطقة بحر الغزال في رسالة بعث بها إلى Bruce بتاريخ 5/12/1860 (FO141/30). وكان قد سبقهما إلى ذلك في عام 1854 شخص "مصري" مقيم في الخرطوم يدعى "الحبشي" (نسبة إلى بلاد الحبشة). والجدير بالذكر أن هذه النسبة كثيراً ما يسمى بها السيد المصري والعبد الحبشي.

(29) Petherick to Russell, 5 May 1860 (FO78/1542).

(30) Report of Dr Josef Natterer, Austrian Consular Agent at Khartoum, to his Consul-General at Cairo, 5 April 1860; enclosed in Colquhoun to Russell, 29 May 1860 (FO84/

1120).

(31) Russell's drafts 1 and 2, 2 April 1861, and letter of 16 April 1861, enclosed in Petherick to Russell, 29 March 1861 (FO78/1612).

(32) J.H. Speke, *Journal of the Discovery of the Source of the Nile* (New York: Harper & Bros., 1868), 202.

(33) Sir S. Baker, *The Albert Nyanza, Great Basin of the Nile* (2 vols.; Philadelphia: Lippincott & Co., 1866), 308.

(34) Malortie, 134, 140-1.

(35) List of slaves freed by Consul Reade, 26 June 1866-19 June 1868 (FO84/1290); *fellahin* slave purchases described in Reade to Stanley, 9 August 1876 (FO141/63); Rogers to Clarendon, 24 November 1869 (FO84/1305).

(36) Stanton to Clarendon, 9 May 1866 (FO84/1260).

(37) فرمان إسماعيل الصادر في أيار/مايو 1869 قد أرخ بتاريخ سابق هو الأول من نيسان/أبريل ذلك أن بيكر أراد أن تدفع له الأموال اعتباراً من تاريخ قبوله للمهمة، T.D. Murray and A.S. White, *Sir Samuel Baker; A Memoir* (London: Macmillan & co., 1895), 149.

(38) Baker, *Ismailia* (2 vols., London: Macmillan, 1874), II, 513.

(39) Ibid., 482.

(40) Baker to the Mayor and Corporation of Brighton at a banquet given in his honour, January 1874; cit. M. Brander, *The Perfect Victorian Hero: Samuel White Baker* (Edinburgh: Mainstream, 1982), 175.

2 ـ المهندس 1873 ـ 1879

(1) Gordon to Augusta, Le Havre, 18 May 1881, Gordon, *Letters to his Sister*, 222.

(2) Arthur Stannard, 'Gordon at Gravesend: A Personal Reminiscence', in *The Nineteenth Century* (XVII), April 1885, 714.

(3) Gordon to Augusta, Gravesend, 19 October 1866, *Letters to his Sister*, 7.

(4) Trench, 17, 19.

(5) Gordon to E.A. Maund, as recounted in January 1884 on the day he left for Khartoum, in Maund to Augusta, 30 January 1888, *Letters to his Sister*, 302.

(6) Gordon to the Revd R.H. Barnes, Jaffa, 26 September 1883, Barnes MSS, Boston (MA) Public Library, f.2r.

(7) Gordon to Barnes, op.cit.

(8) Gordon to Augusta, Gravesend, 31 July 1867, *Letters to his Sister*, 18.

(9) Trench, 58.

(10) O. Freese, *More About Gordon, by One Who knew Him Well* (London: Ricahard Bentley, 1894), 37.

(11) Trench, 62

(12) Gordon to Augusta, Mauritius, 18 February 1882, *Letters to his Sister*, 253.

(13) من دراسة رائدة ومتميزة للشذوذ الجنسي عند اليونان القدماء وفائدة "اشتهاء المماثل" للثقافة الامبريالية، تأليف J.A.Symons عام 1873 ونشرت سراً عام 1883.

(14) هي لفظة دخلت اللغة الإنكليزية عام 1892 عن طريق ترجمة قدمها C.B. Chaddock لكتاب *Psycopathia Sexualis* من تأليف Krafft-Ebbing. لكن اقدم استعمال لها يعود تاريخه إلى عام 1869، وذلك في كتيب ألماني الفه Karl Maria Kertbeny هاجم فيه القوانين المتعلقة باللواط، ولا يعرف من نشره.

(15) Jeremiah XIV:21: Gordon to Augusta, Kokstadt (the Cape), 2 July 1882, *Letters to his Sister*, 269.

(16) Gordon to Barnes, Jaffa, 26 September 1883, Barnes MSS, Boston (MA) Public Library, MSS Eng. 450 (21).

(17) Gordon to Barnes, Jaffa, 13 October 1883, ibid., MSS Eng. 450(33).

(18) Gordon to Augusta, from a series of tracts from 1870-1, *Letters to his Sister*, 66.

(19) Gordon to Augusta, Gravesend, 12 June 1866, *Letters to his Sister*, 3.

(20) Jeal, 356.

(21) Ismail's instructions to Gordon, 16 February 1874, in Gordon, *Central Africa*, xxxii; see also BM Add. MS 51296, f.272, undated; and Stanton to Granville, 21 February 1874 (FO78/2342).

(22) Gordon to Augusta, Cairo, 14 February 1874, Central Africa, 2.

(23) Gordon to Augusta, Suakin, 26 February 1874, ibid, 4.

(24) Gordon to Augusta, Cairo, 14 February 1874, ibid., 1.

(25) Gordon to Augusta, Cairo, 18 February 1874, ibid., 3.

(26) Gordon to Augusta, Tultcha, 17 November 1874, *Letters to his Sister*, 91.

(27) Landes, 20.

(28) Gordon to the Rev. Horace Waller, Cairo, 14 February 1874, Allen, 13.

(29) Gordon to Augusta, Suakin, 26 February 1874, *Central Africa*, 2.

(30) Dr G. Schweinfurt, *The heart of Africa: Three Years' Travels & Adventures in the Unexplored Regions of Central Africa, from 1868 to 1871 (2 vols., London: Sampson, Low, 1873), I, 383; II, 325. His full name waa Zubair Rahmatallah Mansur.*

(31) Stanton to Derby, 18 December 1875 (FO78/2404).

(32) Ismail, in Stanton to Derby, 29 December 1875 (FO78/2404).

(33) Malortie, 134.

(34) From the 1873 budget, enclosed in Rogers to Vivian, 5 October 1873 (FO141/82).

(35) Marlowe, 174.

(36) Marlowe, 173.

(37) L.D. Gordon, *Letters from Egypt, 1863-65* (London: R.B. Johnson, 1875), 208-9.

(38) Between Sobat and Lado, 29 January 1875, *Central Africa*, 67.

(39) Gordon to Augusta, Fatiko, 3 January 1876, *Letters to his Sister*, 116.

(40) South of Bedden, 15 July 1875, *Central Africa*, 93.

(41) بين Lado و Sobat، من رسالة بتاريخ 26/1/1875 وذلك بعد أن لدغه عقرب مرتين كان مختبئاً في ثنايا الناموسية (ibid, 66).

(42) Dufilé, 17 October 1875, ibid., 133.

(43) Lado, 25 June 1875, ibid., 84.

(44) Mugi, 9 September 1875, ibid., 119.

(45) Bedden, 15 July 1875, ibid., 92.

(46) Near Bedden, 15 July 1875, ibid., 93.

(47) Dufilé, 17 October 1875, ibid., 131.

(48) Dufilé, 10 Februay 1876, ibid., 155.

(49) South of Bedden, 15 July 1875, ibid., 93.

(50) Rageef, 10 April 1875, ibid., 80.

(51) Dufilé, 16 February 1876, ibid., 156.

(52) Gordon to Augusta, Fatiko, 3 January 1876, *Letters to his Sister*, 119

(53) Palmerston, rejecting the chance to annex Abyssinia, in a Minute on Plowden to the Foreign Office, 28 August 1847 (FO1/4).

(54) At Crystal Palace, June 1872; Sir E. Clarke, *Benjamin Disraeli: The Romance of a Great Career, 1804-1881* (London: John Murray, 1926), 207-8.

(55) Morris, 385.

(56) Stanton to Lord Derby, 4 January 1876 (FO78/2404).

(57) McCoan, 402.

(58) Derby to Vivian, 12 December 1876 (FO78/2499).

(59) *Moniteur Egyptien*, 15 November 1876, de Leon, 111.

(60) Gordon to Augusta, Esneh, south of Thebes, 29 November 1876, *Central Africa*, 200.

(61) McCoan, 198.

3 - دبلوماسية إلهية 1879 - 1881

(1) كتاب الأفغاني بعنوان "حقيقة الطائفة النيتشرية وشرح عن النيتشريين" (1880 – 1881) ترجمة Keddie (ص 132). وكما يقول الأفغاني (في المصدر نفسه ص 133) يمكن تعريف كلمة النيتشري بأنها مرادفة لكلمة طبيعي naturaliste الفرنسية وكلمة مادي materialist الإنكليزية (التي تعني أحد اتباع مذهب المادية القائل إن المادة هي الحقيقة الوحيدة وبأن الوجود ومظاهره وعملياته يمكن تفسيرها كمظاهر أو نتائج للمادة).

(2) Salim Rufa'il Jirjis al-Anhuri, *Sihr Harut (Harut's Magic*, Damascus, 1885), 179, 185; in Kedourie, 18.

(3) Keddie, 5-7. معظم ما لدينا من معلومات عن الأفغاني في صباه وشبابه مصدره تحقيقات اجرتها وزارة الخارجية عن نشاته (FO60/594) .

(4) Rasid Rida, *Tarikh*, I, 72, in Kedourie, 8.

(5) Muhammad al-Makhzumi, *Khatirat Jamal al-Din al-Afghani (Reminiscences of Jamal al-Din al-Afghani*, Beirut, 1931), 110-11, in Kedourie, 9.

(6) Kedourie, 12; 15, n.44.

(7) Abdu to Afghanı from Beirut, early 1880s, in Kedourie, 10.

(8) Rogers to Vivian, 5 October 1873 (FO141/82).

(9) *Sharubim, al-kafi* (1898-1900), IV, 258-9, in Cole, 125.

(10) Cromer, *Modern Egypt*, I, 38.

(11) Salisbury to Consul Vivian, 17 July 1878 (FO78/1951).

(12) Blunt, *Secret History*, App. I, 489.

(13) Vivian to Derby, No. 7, 20 October 1876 (FO141/100).

(14) Vivian to Derby, No. 100, 19 April 1877 (FO141/106).

(15) Vivian to Derby, No. 186, 21 June 1877 (FO 141/106).

وقد ترجم هذه البرقية (FO 141/111) "نائب القنصل بالإنابة" Raphael Borg وهو من مالطة ويحمل الجنسية البريطانية وله دوره البارز في محفل "نجمة الشرق" الذي انتخب الأفغاني زعيماً له.

(16) Gordon to Augusta, Shaka, 17 September 1877, *Letters to his Sister*, 150.

(17) Ismail to Gordon, in Allen, 108.

(18) Gordon to Augusta, 11 February 1877, reporting the events of the previous day, *Central Africa*, 210.

(19) Ismail to Gordon, 17 February 1877, in Sir H.W. Gordon, *Events in the Life of Charles George Gordon* (London: Kegan, Paul & Trench, 1886), 106-7.

(20) Gordon to Augusta, Khartoum, 4 May 1877, *Central Africa*, 225, 229; Gordon to Augusta, Shaka, 20 April 1879, ibid., 351.

(21) Gordon to Augusta, Khartoum, 9 January 1879, ibid., 334.

(22) Gordon to Augusta, Khartoum, 4 May 1877, ibid., 230.

(23) Gordon to Augusta, Khartoum, 4 May 1877, ibid., 230.

(24) Gordon to Augusta, Khartoum, 18 May 1877, ibid., 231.

(25) Gordon to Augusta, Umchanga, 15 June 1877, ibid., 236.

(26) Gordon to Augusta, Dara, 31 August 1877, ibid., 270-1.

(27) Ibid., 314.

(28) Gordon to Augusta, Keren, 25 March 1877, ibid., 218.

(29) Gordon to Augusta, Khartoum, 8 August 1878, ibid., 319.

(30) Gordon to Augusta, Khartoum, 4 May 1877, ibid., 225.

(31) Gordon to Augusta, Massowa, 5 January 1878, *Letters to his Sister*, 176.

(32) Gordon to Augusta, Khartoum, 24 January 1879, *Central Africa*, 335.

(33) Gordon's memo at Shaka, 24 April 1879, ibid., App. B, 438-9.

(34) Gordon to Augusta, Lado, 27 June 1875, *Letters to his Sister*, 100.

(35) Between Umchanga and Toaschia, 16 June 1879, *Central Africa*, 366.

(36) Khartoum, 8 August 1878, ibid., 319.

(37) Edowa, 31 March 1879, ibid., 347.

(38) Khartoum, 15 November 1878, ibid., 324.

(39) Gordon to Augusta, Red Sea, 6 September 1879, *Letters to his Sister*, 202.

(40) E Kedourie, *Politics in the Middle East* (New York: Oxford University Press, 1992), 274.

(41) Blunt, *Secret History*, App. 1, 489.

(42) Mustafa Abd al-Raziq, *Muhammad Abduh* (Cairo, 1946), 74-5, in Kedourie *Afghani and Abdu: An Essay on Religious Unbelief of Political Activism in Modern Islam* (1996; London: Frank Class, 1997), 14-15.

(43) Blunt, *Secret History*, App. I, 482.

(44) Shaka, 25 April 1877, *Central Africa*, 352.

(45) Vivian to Salisbury, No. 57, 20 February 1879 (FO141/125).

(46) Ibid.

(47) Ibid.
(48) Crabitès, *Ismail*, 278.
(49) Salisbury to Lascelles, 25 April 1879 (FO141/123).
(50) Blunt, *Secret History*, 65; Salisbury to Lascelles, 19 June 1879, in Cromer, *Modern Egypt*, I, 135.
(51) Ibid., 140.

4 ـ المخلّص 1881 ـ 1882

(1) M.O. Beshir, "Abdel Rahman ibn Hussein el-Jabri and his Book, *History of the Mahdi*", SNR, XL (1963), 136-9.
(2) اصدر محمد علي اوامره إلى حافظ إبراهيم أفندي بالامتناع عن استخدام طبيب الحامية لبتر أقدام وآذان المجرمين والاستعاضة عن هذا البتر بالضرب بالفلقة. انظر Hill, *Egypt in the Sudan*, 36, 41, 44.
(3) Beshir, op.cit., 136-9.
(4) Bermann, 116-17.
(5) 9 October 1880, in Abu-Salim, I, p.67.
(6) Holt, *Mahdist State*, 48; Slatin, 125.
(7) Holt, op. cit., 63-7. يمين الولاء للمهدي كان على النحو التالي: "نعاهد الله ورسوله ونعاهدك على أن نؤمن بالله الواحد والا نشرك به شيئاً. واننا لن نسرق ولن نزني ولن نفتري على أحد ولا نعصي لك أمراً ونعاهدك على أن نفعل ما هو خير ومشرف وأن نعتزل الدنيا ونرضى بما هو من عند الله وفي الآخرة وبألا نتخلف عن الجهاد". From M. Mahmoud, "Sufism and Islamism in the Sudan", In *African Islam and Islam in Africa*, eds. D. Westerlund & E.E. Rosander (London: Hurst, 1997), 162-92, 175.
(8) Between 5 October and 4 November 1880, in Abu-Salim, I, 67, trans. Nicoll, 54.
(9) n the second instalment of the French socialist Ernest Vauquelin's series *Souvenirs de la Révolution d'Egypte*, published in *L'Intransigeant*, 3 August 1882: Kedourie, 29-30.
(10) *The Pyramids*, 28 August 1879, in M. Subaih, *Muhammad Abduh* (Cairo, 1944), 55-7, trans. Kedourie, 31.
(11) William Dye, *Moslem Egypt and Christian Abyssinia, or, Military Service under the Khedive, in his Provinces and Beyond their Borders, as Experienced by the American Staff* (New York: Atkin & Prout, 1880), 483.
(12) Blunt, *Secret History*, 136.
(13) Urabi, *Kashf al-Sitar* (Cairo, 1953), 157, in Schölch, 140.
(14) Shaked, 57; Nicoll, 60.
(15) Abdullahi to Slatin, in Slatin, 126-30.
(16) 12 May 1883, in Abu-Salim, I, 334-9, trans, Nicoll, 65.
(17) Mhadi to Mohammed Rauf Pasha, in Abu-Salim, I, 94-5, trans. Nicoll, 71-2.
(18) Blunt, *Secret History*, 1, 7.
(19) Ibid., 7, 28.
(20) Blunt, *Gordon at Kbartoum*, ix, x; *Secret History*, 21.

(21) Blunt, *Secret History*, 83, 89.
(22) Ibid., 87, 89.
(23) Ibid., 100, 105-6.
(24) Ibid., 121-2.
(25) *Further Account by Sheikh Mohammed Abdu*, in Blunt, *Secret* History, App. I, 493.
(26) At a meeting on 8 September 1881, in Schölch, 160-1.
(27) Blunt, *Secret History*, 150.
(28) Sharif to Blunt, ibid., 196.
(29) Currie to Blunt, mid-November 1881, ibid., 158.
(30) Urabi to Blunt, 6 December 1881, ibid., 170-1.
(31) Ibid., 173.

(32) *The Programme of the National Party of Egypt, Forwarded by Mr Blunt to Mr Gladstone, December 20th, 1881* is n Blunt, Secret History, App. V, 556-9. بتاريخ 18/ 12/ 1881 عمل بلانت "بالتعاون مع الشيخ محمد عبده وغيره من الزعماء المدنيين" على وضع "بيان رسمي يحدد الأهداف والغايات" وكان الصابونجي هو الكاتب الذي كتب ذلك البيان، وقد كسب محمد عبده "ولاء" محمود سامي البارودي وزير الحربية و "موافقة" عرابي أمام بلانت و "بمعرفة ماليت" ثم بعث به إلى غلادستون بتاريخ 20/ 12 (ibid, 173) .
(33) Granville to Gladstone, 9 September 1881, *Political Correspondence*, I, 290, it. 527.

5 - مصر للمصريين! 1882

(1) Matthew, 257; M.R.D. Foot, Introduction to Gladstone, *Midlothian Speeches*, 11.
(2) Gladstone to the Political Economy Club in 1876, at a dinner marking the centenary of Adam Smith's *Wealth of Nations*, in Matthew, 272.
(3) Gladstone, 3rd Midlothian Speech, in *Midlothian Speeches*, 128.
(4) 29 December 1876, Gladstone, *Diaries*, IX, 181.
(5) Bulgarian Horrors, *The Fortnightly Review*, 5 September 1876.
(6) George Russell, nephew of Lord Russell (the Foreign Secretary who gave John Petherick hi guns, later Whig Prime Minister), Granville to Gladstone, 20 February 1880, in *Political Correspondence*, I, 114, it. 175 and n.3 (BM Add. MS 44172,f.16).
(7) 1st Midlothian Speech, *Midlothian Speeches*, 35. 2nd Midlothian Speech, ibid., 92-3; Glasgow speech, ibid., 196-7.
(8) 2nd Midlothian Speech, ibid., 94.
(9) 3rd Midlothian Speech, ibid., 128, 115-16.
(10) 'Aggression on Egypt', *in The Nineteenth Century* (August 1877), II, 149.
(11) Ibid.
(12) Matthew, 287; figures taken from the *Approximate Annual Sketch of Property* compiled by Gladstone every December.
(13) 5 December 1881, *Political Correspondence*, I, 320, it. 588 (BM Add. MS 44173, f.249); Blunt, *Secret History*, 78.

(14) Gladstone to Granville, 13 September 1881, *Political Correspondence*, I, 291, it. 529 (PRO 30/29/124).

(15) Gambetta's foreign minister Jules Barthélemy de St Hilaire to Granville, shortly after the September 1881 mutiny, in Cromer, *Modern Egypt*, I, 214.

(16) 5 December 1881, *Political Correspondence*, I, 320, it. 588 (BM Add. MS 44173, f. 249).

(17) Gladstone to Granville, 4 January 1882, ibid., 326-7, it. 599 (PRO 30/29/125).

(18) Ibid.

(19) Granville to Malet, quoting Gladstone, No. 8, 11 January 1881 (FO78/3446).

(20) Blunt, *Secret History*, 188.

(21) Ibid., 189.

(22) Schölch, 203.

(23) Ibid., 196.

(24) Blunt, *Secret History*, 190.

(25) Schölch, 352, n. 98.

(26) March 1882, in Blunt, *Secret History*, 255.

(27) 20 April 1882, in Cromer, *Modern Egypt*, I, 255.

(28) Gladstone to Granville, 5 April 1882, *Political Correspondence*, I, 354, it. 665 (PRO 30/29/125).

(29) Sir Garnet Wolseley to Lady Louisa Wolseley, 17 August 1882, in Wolseley, *Letters*, 72.

(30) في 31/5/1882 وبعد تطمينات من إدي هاملتون، حيث قال - "لقد وعدني بأنه لن يكون ثمة إنزال للقوات أو أي تدخل" - وذلك كما ورد في كتاب *"Secret History"* Blunt ص 296.

(31) Sheikh Assad's report to the Sultan, in Documents Pertaining to the Yildiz Collection of the Bas banlik Ars ivi, in P.M. Holt (ed.), *Political & Social Change in Modern Egypt* (Curzon: London, 1986), 55.

(32) 15 June 1882.

(33) Blunt, *Secret History*, 306.

(34) Dufferin to Granville, 10 July 1882, in D. Gillard (ed.), *British Documents on Foreign Affairs: Reports & Papers from the Foreign Office Confidential Print, Part I: From the mid-Nineteenth Century to the First World War, Series B: The Near & Middle East, 1856-1914*, Vol. IX (London: HMSO, 1984-5), 62, Doc. 50.

(35) Kedourie, 35. Malet, 346ff, describes the Powers attempt to exile Urabi.

(36) Broadley, 176.

(37) Granville to Gladstone, 4p.m. 30 May 1882, *Political Correspondence*, I, 376, it. 720, n.5 (PRO 30/29/125).

(38) Gladstone to Granville, 2 June 1882, ibid., 378, it. 723 (PRO 30/29/125).

(39) 1 June 1882, Blunt, *Secret History*, 296.

(40) 23 August 1881.

(41) Slatin, 135.

(42) Giegler, 177.

(43) Abu-Salim, I, 288-9, trans. Nicoll, 88-9.

(44) *Ratib al-Imam al-Mahdi (The Mahdi's Ratib)*, Sudan Archive at Durham University, it. 97/1, f.9; trans. Nicoll, 86.

(45) Shaked, 87, 90.

(46) Kramer, *Holy City*, 145-8.

(47) Ibid., 145, 147, 148.

(48) M.I. Abu-Salim and K. Vikor, 'The Man who Believed in the Mahdi', in Sudanic Africa, 2 (1991), 29-52.

(49) 17 December 1881, Shibeika, *Independent Sudan*, 59; M. Safon, in Cookson to Malet, No. 149, 13 December 1881, enclosed in Philip to Cookson, 6 December 1881 (FO141/149); Malet to Granville, No. 350, 17 November 1881 (FO141/144), and No. 377, 12 December 1881.

(50) Slatin, 143.

(51) Mahdi to al-Shallali, in Abu-Salim, I, 121-8; trans. Holt, *Mahdist State*, 78-88.

(52) التقط شوستر Schuster اول صورة لخسوف المذنب بتاريخ 1882/5/17 وكان ذلك في مدينة سوهاج التي تبعد عن أسيوط مسافة 60 ميلاً إلى الجنوب. وهو يهودي من ألمانيا، وتراس حملة ارسلتها الجمعية الملكية لرصد الخسوف الكلي للمذنب في سيام (تايلاند حالياً). كان أستاذاً للرياضيات التطبيقية في جامعة مانشستر عام 1882، ثم أستاذاً للفيزياء بدءاً من العام 1888. وقد منح رتبة الفارس عام 1920.

(53) تصريح من السيد جون نينت John Ninet (وهو سويسري مؤيد لعرابي) كما جاء في كتاب Blunt بعنوان *Secret History* (App. II, 533). فقد كانت سكين الجبنة معلقة بالطاولة بخيط طويل. حيث يقول "لقد حصلت على هذه التفاصيل الدقيقة في اليوم التالي من شرطي مسيحي كان موجوداً".

(54) Royle, 44-55.

(55) Royle, 59.

(56) Hartington to Granville, 19 June 1882 (PRO 30/29/132).

(57) J. Chamberlain, *A Political Memoir, 1880-1892* (ed. C.D. Howard; London: Batchworth, 1953), 71.

(58) Hobsbawm, 58; C. Newbury, 'Great Britain & the Partition of Africa, 1870-1914', in Porter (ed.), *Oxford History of the British Empire*, III, 626-7.

(59) Zubair Pasha to Blunt, over breakfast on 22 December 1888, Blunt, *Secret History*, 320n.

(60) الغرنون بورك Algernon 'Button' Bourke احد اقارب بلانت، وكان آنذاك يعمل في صحيفة "تايمز"، اخبره بتاريخ 1882/6/13 أن "عائلة روتشيلد" عرضت على عرابي مبلغ 4,000 جنيه في العام ولمدى الحياة إن هو غادر مصر. لكن عرابي في حديث إلى بلانت أنكر ذلك، وذكر فقط عرضاً فرنسياً مشروطاً بذهابه إلى المنفى في باريس (*Secret History, 334n.*).

(61) 2 July 1882, in Blunt, *Secret History*, 371-2. The letter was translated and forwarded to Blunt by Jean Sabunji; on 17 July (ibid., 374) Blunt sent it on to Gladstone and the Prince of Wales-against the advice of Lord de la Warr (ibid., 370).

(62) Cromer, *Modern Egypt*, I, 288-9.

(63) Gladstone to Granville, 4 July 1882, *Political Correspondence*, I, 385, it. 739 (PRO 30/29/29A).

(64) 5 July 1882, after long debates on the Irish Crimes & Arrears Bill and an 'Anxious Cabinet behind the [Speaker's] chair' : *Diaries*, X, 292.

(65) Gladstone to Granville, 5 July 1882, *Political Correspondence*, I, 386, it. 741 (PRO 30/29/29A).

(66) Israel Harding, interviewed for 'Sailor VC's', *Strand Magazine*, 12 October 1896.

(67) Royle, 60-85.

(68) المصدر نفسه، ص 98 - 106. منحت الهيئة الدولية للتعويضات مبلغ 4,341,011 جنيهاً (FF 106,820,236) تعويضاً عن المنازل والمفروشات والبضائع المفقودة. وقد استبعد هذا الرقم المطالبات المتعلقة بالنقد أو المجوهرات أو الأعمال الفنية (ibid., 102n) .

(69) Gladstone to Granville, 13 July 1882, *Political Correspondence*, I, 394, it. 757 (PRO 30/29/126).

(70) Cabinet Minuters, 31 July 1882, in Matthew, 374.

6 - الريح والإعصار 1883

(1) Wolseley to Lady Louisa, 28 September 1882, Wolseley, *Letters*, 82-3.

(2) Wolseley to Lady Louisa, 2 August 1882, ibid., 69-70.

(3) Wolseley, *Story*, I, 8.

(4) Title of *Spy's* 1874 cartoon.

(5) W.S.Gilbert, *The Pirates of Penzance* (1879), Act I, No. xiii.

(6) Wolseley, in Pakenham, 87.

(7) Wolseley, *In Relief of Gordon*, xvi.

(8) Wolseley to Lady Louisa, 7 September 1882, *Letters*, 75.

(9) سورة التوبة، الآية 111.

(10) The question *(istifham)* to the al-Azhar clerics that led their *fatwa* against Tawfik, in Broadley, 175.

(11) Schölch, 263-4.

(12) Schölch, 262, 270-1.

(13) يقدم هذا الكتاب شرحاً وافياً حول "سلوك المجتمع الإسلامي تجاه الرعايا من غير المسلمين، وبخاصة أولئك الذين يحتلون أراض إسلامية، ومبررات ذلك طبقاً للشريعة الإسلامية".
(M.I. Waley, 'Islamic Manuscripts in the Beitish Royal Collection: A Concise Catalogue' in *Manuscripts of the Middle East*, VI (Leiden: Brill, 1994), 8).

(14) Blunt, *Secret History*, 395.

(15) بعد أن ورث ثمانية فدادين ونصف من والده اشترى عرابي 560 فداناً آخر بعد أن صار له نفوذ في الدولة (Blunt, *Secret History*, App. I. 481) ثم استحوذ على 810 فدادين في تموز/يوليو 1882 (Schölch, 282)

(16) Wolseley to Lady Louisa, 10 September 1882, *Letters*, 76.

(17) 20 August 1882, in Blunt, *Secret History*, 398.

(18) Royle, 143.

(19) A.-M. Omar, *The Soudan Question Based on British Documents* (Cairo: Misr, 1952), 3;

Blunt, *Secret History*, App. II, 503.

(20) Urabi to the Khedive, 18 June 1882, in Shibeika, *Independent Sudan*, 60.

(21) Giegler, 208.

(22) J.J. Leverson, *Insurrection of the False Prophet, 1881-83* (4 vols., Cairo: War Office, 1883-4), I, 8.

(23) Hilmi to Tawfik, 12 July 1882, in Shibeika, 61.

(24) *Message on the Mahdi* was by Sheikh Shakir al-Ghazzi, *mufti* of the Khartoum Court of Appeal. *General Advice...* was by Sheikh Ahmad al-Azhari, *mufti* of western Sudan. A third text, *Guide for Him who Seeks Guidanxe on the Mahdi and the false Mahdi*, was by Sheikh Mohammed al-Darir, whose appointment had been personally endorsed by the Sultan.

(25) Holt, *Mahdist State*, 108-9.

(26) Yusif Mikhail, *Mazkarat Yusif Mikhail* (London: Dar al-Nusairi, 1998), 45-6, trans. Hotl, 117-19.

(27) 7 September 1882, *Letters*, 75.

(28) Wolseley to Lady Louisa, 14 September 1882, ibid., 78.

(29) Night of 12/13 September 1882, in Sir H. McCalmont, *Memoirs of Major-General Sir Hugh McCalmont* (ed. Major-General Sir C.E. Callwell; London: Hutchinson, 1924), 218-19.

(30) Sir W. Butler, *An Autobiography* (ed. E. Butler; London: Constable, 1911), 232, 237.

(31) Wolseley to Lady Louisa, 15 September 1882, *Letters*, 79.

(32) Wolseley to Lady Louisa, 15 September 1882, ibid., 80.

(33) Malet to Granville, 1 October 1882 (PRO 30/29/160).

(34) Wolseley to Lady Louisa, 14 September 1882, *Letters*, 78.

(35) Wolseley to Lady Louisa, 15 September 1882, Wolseley Papers (Hove), WP11/17i/2.

(36) Gladstone's Diary, 15 September 1882, *Diaries*, X, 331.

(37) 16 September 1882.

(38) Royle, 191n.

(39) Lady Louisa to Mrs (later Viscountess) Goschen, in Arthur & Maurice, 162.

(40) Granville to Gladstone, 2 October 1882, *Political Correspondence*, I, 439, it. 855 (BM Add. MS 44174).

(41) Gladstone to Granville, 3 Otober 1882, *Political Correspondence*, I, 440, it. 857 (PRO 30/29/126).

(42) Wolseley to Lady Louisa, 14 September 1882, *Letters*, 79.

(43) Gladstone's Diary, 15 November 1883, *Diaries*, XI, 59.

(44) Gladstone, 'Aggression on Egypt', in *The Nineteenth Century* (August 1877), II, 161.

(45) A.J.P. Taylor, *The Struggle for Mastery in Europe, 1848-1918* (New York: Oxford University Press, 1954; 1971), 90.

(46) Cromer, *Modern Egypt*, I, 340.

(47) J.C. Hurewitz, *The Middle East & North Africa in World Politics* (New Haven: Yale, 1975-9; 2nd edn), I, 191-4; Karsh, 66.

(48) Beamon to Blunt, *Secret History*, 459.

(49) Royle, 200.

(50) Blunt, *Secret History*, 459.

(51) Royle, 202.

(52) Malet to Granville, No. 58, 27 December 1882 (FO78/3455).

(53) Matthew, 389 n. كانت أسهم غلادستون في إصدار 1871 تساوي 17,100 جنيه قبل غزو مصر وبلغت 24,600 جنيه بعد الغزو (ibid, 387).

(54) Ohrwalder, 52-3.

(55) Ibid., 55.

(56) Ibid., 56-9; Leverson, I, 14.

(57) Abu-Salim, V, 458, trans. Holt, *Mahdist State*, 112.

(58) "To all his beloved, the believers", in Wingate, 92-3.

(59) Gladstone's Diary, 2 November 1882, *Diaries*, X, 360.

(60) Enclosed in Malet to Granville, No. 659, 2 October 1882 (FO78/3442).

(61) Dufferin to Granville, No. 6, 18 November 1882 (FO78/3454).

(62) Malet to Granville, No. 788, 4 November 1882 (FO78/3443).

(63) H. Keown-Boyd, *A Good Dusting: A Centenary Review of the Sudan Campaigns, 1883-99* (London: Secker & Warburg, 1986), 10.

(64) Hicks to Sophia Hicks, *Road to Shaykan*, 5, 11, 12, 25.

(65) Colborne, 81; Hicks, 30-1.

(66) Hicks, 30-1.

(67) Ibid., 22, 37, 45, 78.

(68) Ibid., 21-2.

(69) Giegler, 216.

(70) National Record Office, Cairo, CAIRINT (Intelligence Dept., Anglo-Egyptian Interior Ministry), 3/9/197, ff.4-9, *Ms of Muhammad Nur Barudi* (Hicks' assistant cook), in Nicoll, 152.

(71) Slatin, 242.

(72) Muhammad Bey's slave boy, SAD, 643/4. This Account paraphrased in Royle, 247-9. See Abbas Bey, "The Diary of Abbas Bey", in *SNR*, XXIII (1952), 179-96

(73) Major Arthur Herlth, in Ohrwalder, 86.

(74) Holt, *Mahdist State*, 141.

(75) Muhammed Bey, SAD, 643/4. See also Sheikh A. Gulla, "The Defeat of Hicks Pasha", in *SNR*, VIII (1925), 119-24.

(76) 9 November 1883, in Allen, 183.

7 ـ نشر الصحف 1884

(1) Cromer, *Modern Egypt*, I, 393n.

(2) Ibid., I, 11, 388n.

(3) Schölch, 303-4.

(4) Baring to Granville, 22 November 1883 (PRO 30/29/161).

(5) Baring to Granville, No. 547, 24 November 1883 (FO78/3559).

(6) Gladstone to Granville, 23 November 1883, *Political Correspondence*, II, 114, it. 1148 (PRO 30/29/127).

(7) Baring to Granville, No. 43, 28 September 1883 (FO78/3557).

(8) Granville to Gladstone, 27 November 1883, *Political Correspondence*, II, 117, it. 1153 (BM Add. MS 44176, f.10).

(9) Baring to Granville, No. 559, 26 November 1883 (FO78/3559).

(10) Enclosed in Hartington to Gladstone, 23 November 1883 (PRO 30/29/133).

(11) Granville to Baring. 7 December 1883 (PRO 30/29/199).

(12) Colborne, 287.

(13) 17 December 1883, reported by Frank Power in *The Times*, 18 December 1883.

(14) Baring to Granville, 10 December 1883, in Cromer, *Modern Egypt*, I, 379; Baring to Granville, No. 567, 12 December 1883 (FO 78/ 3560)

"الطريقة الوحيدة لإنقاذ ما تبقى تقضي بالقيام بمحاولة للانسحاب العام حتى مدينة بربر. هذا هو واقع الحال هنا، وأرجوك أن تنقل ذلك إلى سمو الخديوي": العقيد de Coetlegon وهو ضابط آخر من ضباط Hicks ظل على قيد الحياة بعد أن نقل إلى الخرطوم بداعي المرض، وذلك في رسالة بعث بها إلى Wood بتاريخ 25/11/1883، وارفقت بكتاب من بيرنغ إلى غرانفيل رقم 560 تاريخ 26/11/1883 (FO 78/3559).

(15) Baring to Granville, 22 November 1883 (PRO 30/29/161).

(16) Granville to Baring, 13 December 1883 (PRO 30/29/199).

(17) Baring to Granville, 17 December 1883 (PRO 30/29/161; Baring to Granville, No. 615, 16 December 1883 (FO78/3560).

(18) Sharif Pasha, *Standard*, 11 January 1884.

(19) Baring to Granville, 8 January 1882 (PRO 30/29/162).

(20) Enclosed in Baring to Granville, No. 79, 19 January 1884 (FO78/3665).

(21) Baring to Granville, No. 44, 16 January 1884 (FO78/3665).

(22) Sir Harry Verney to Graville, 17 November 1882 (PRO 30/29/168).

(23) Col. Bevan Edwards to Granville, in S.Childers, *The Life & Correspondence of the Rt. Hon. Hugh C.E. Childers, 1827-96* (2 vols; London: John Murray, 1901), I, 176.

(24) Sir Andrew Clarke to Granville, ibid.

(25) Granville to Gladstone, 27 November 1883, *Political Correspondence*, II, 116, it. 1152 (BM Add. MS 44176, f.8).

(26) Gladstone to Granville, 29 November 1883, ibid., II, 117, it. 1156 (BM Add. MS 44547, f.3).

(27) Gordon to Augusta, Lausanne, 18 March 1880, *Letters to his Sister*, 206.

(28) Caption to Ape cartoon 'The Ever-Victorious Army', *Vanity Fair*, 19 February 1881.

(29) Gordon to Augusta, Bombay, 19 June 1880, *Letters to his Sister*, 208.

(30) Gordon to Augusta, Port Louis (Mauritius), 24 June 1881, ibid., 227.

(31) Twywell, 24 June 1881, ibid., 213.

(32) Trench, 171-2.

(33) Gordon to Augusta, SS *Quetta*, 5 January 1883, *letters to his Sister*, 285.

(34) Jerusalem, 28 February 1883, ibid., 304.

(35) Gordon to Miss Felkin, December 1883 (Gordon Boy's School MSS, Woking), in Trench, 196.

(36) Gordon to Augusta, Jerusalem, 28 February 1883, *Letters ti his Sister*, 304.

(37) According to his nephew Colonel Louis Gordon, in Allen, 167-8.

(38) Gordon to the Anti-Slavery Society, 5 January 1884, ibid., 212.

(39) Wolseley to Gordon, 4 January 1884 (BM Add. MS 52388), in Nutting, 226.

(40) *Pall Mall Gazette*, 9 January 1885.

(41) Ibid.

(42) *Morning Advertiser*, 11 January 1885.

(43) Gladstone to Granville, Hawarden, 6 January 1884, *Political Correspondence*, II, 145, it. 1208; Gladstone to Granville, Hawarden, 11 January 1884, ibid., II, 147, it, 1211; Gladstone to Granville, Hawarden, 7 January 1884, ibid., II, 145, it. 1209.

(44) Arthur and Maurice, 173-4.

(45) Granville to Gladstone, Foreign Office, 14 January, 1884, *Political Correspondence*, II, 149, it. 1214..

(46) Gladstone to Granville, Hawarden, 16 January, 1884, ibid., II, 150, it. 1216.

(47) Holland, I, 417. يفترض Allen (228) أن ذلك كان مجرد تفكير عند غوردون بخصوص تجربته حين كان معاوناً. لكن Holland، وعلى نحو لا يدعو للدهشة يقصد ضمناً النية بخداع الوزراء .

(48) Gordon at the War Office, 18 January 1885, from Gordon to Revd R.H. Barnes, 22 January 1885 (BM Add. MS 51298), in R.H. barnes and C.E. Brown, *C.G. Gordon, A Sketch with Facsimile Letters* (London: Macmillan, 1885), 102-3, which uses 'orders' for 'ideas'.

(49) Northbrook to Baring, evening of 18 January 1885, in Cromer, *Modern Egypt*, I, 429. Dilke's account: L.S. Gwynn and G.M. Tuckwell, *Life of Sir Charles Dilke* (2 vols.; London: Macmillan, 1917), II, 29.

(50) Granville to Baring, War Office, 18 January 1885 (FO78/3696).

(51) Hartington to Gladstone, 18 and 19 January 1885 (PRO30/29/128); Granville to Gladstone, Foreign Office, 18 January 1884, *Political Correspondence*, II, 151, it. 1217.

(52) Gladstone's *Diaries*, XI, 102.

(53) Gordon to Granville, 19 January 1884 (FO78/3696).

(54) *Pall Mall Gazette*, 19 January 1885.

(55) Trench, 207.

(56) Gladstone's *Diaries*, XI, 103.

(57) Gordon's memo to Baring, SS *Tanjore*, 22 January 1884 (FO78/3696).

(58) Lt-Gen. Sir G. Graham, *Last Words with Gordon* (London: Chapman & Hall, 1887), 4.

(59) Baring to Granville, 19 January 1884 (PRO 30/29/162).

(60) Baring to Granville. 28 January 1884 (PRO 30/29/162).

(61) Baring to Gordon, enclosed in Baring to Granville, 25 January 1884 (FO78/3666); see also Cromer, *Modern Egypt*, I, 444-6.

(62) Wingate MSS, SAD 245/3.

(63) Ibid.

(64) *The Times*, 1 December 1883.

(65) Granville's minute on a memo from the British & Foreign Anti-Slavery Society, 4 December 1883 (FO78/4194).

(66) Gordon to Augusta, 28 January 1884, *Letters to his Sister*, 374.

(67) Revd A.H. Sayce, *Reminiscences* (London: Macmillan), 229-30.

(68) Baring to Granville, 9 March 1884 (FO78/3665).

(69) Graham, op.cit., 28.

(70) Baring to Granville, 4 February 1884 (PRO30/29/162).

(71) Stewart's diary, enclosed in Baring to Granville, 11 February 1884 (FO78/3667, No. 171).

(72) Gordon to Baring, No, 225, 8 February, enclosed in Baring to Granville, 25 February 1884 (FO78/3667).

(73) 11 February 1884, in Abu-Salim, II, 244-5.

(74) Stewart's diary, enclosed in Baring to Granville, No. 171, 11 February 1884 (FO78/ 3667).

(75) Stewart's diary, enclosed in Baring to Granville, No. 296, 11 March 1884 (FO78/3668).

(76) Ibid.

(77) Enclosed in Baring to Granville, No. 237, 27 February 1884 (FO78/3667).

(78) Gordon to Baring, 3 March 1884, enclosed in Baring to Granville, No. 254, 3 March 1884 (FO78/3667)

(79) Gordon to baring, 26 February 1884, enclosed in Baring to Granville, No. 240, 28 February 1884 (FO78/3667).

(80) Granville to Gladstone, 6 February 1884, *Political Correspondence, II, 154, it. 1226, n.1.*

(81) .Kimberley to Granville, 9 February 1884 (PRO 30/29/136)
وقد أجاب غرانفيل بقوله: "لا أعرف كيف يمكننا أن نعزز سيطرتنا الحالية".

(82) Victoria to Gladstone, 9 February 1884, Buckle (ed.) III, 477.

(83) Gladstone to Granville, 10 February 1884, *Political Correspondence*, II, 156, it. 1231 (BM Add. MS 44176, f.134).

(84) Gladstone, 12 February 1884, *Hansard's Parliamentary Debates* (IIIrd series; London: Cornelius Buck, 1884), Vol. 284, Cols. 724, 726-7.

(85) C.H. Allen to Granville, 10 March 1884 (FO78/4194).

(86) William Forster to the Commons, 10 March 1884, *Hansard*, op.cit., Vol. 285, Col. 1973.

(87) Granville's note on Gladstone to Granville, 27 February 1884 (PRO 30/29/144).

(88) Granville to Baring, No. 109, 23 February 1884 (FO78/4194).

(89) 7 March 1884.

(90) Khartoum, 11 March 1884, *Letters to his Sister*, 381.

8 ـ جند الله 1885

(1) *Ballads & Barrack Room Ballads* (London: Macmillan, 1899), 3-11.

(2) *The Indissoluble Bond: Al-Urwah al-Wutka,* in French *Le Lien Indissoluble.* Afghani, 'The Neicheri [Materialists] in India' (1881), pub. In *The Indissoluble Bond,* 28 August 1884; trans. Keddie, *Islamic Response,* 133.

(3) Afghani to Rochefort, in H. Rochefort, *Les Aventures de ma vie* (4 vols., Paris: Paul Dupont, 1896), IV, 345, 346.

(4) Blunt, *Gordon,* 208.

(5) Answer of Jamal ed-Din to Ernest Renan, *Journal des Débats,* 18 May 1883, trans. Keddie, *Islamic Response,* 182.

(6) 1884/3/27، بلانت *Gordon* ص 208 – 209. ولأسباب عدة محتملة، بما في ذلك عدم رغبته بأن يقحم اسم جمال الدين الأفغاني في طائفة دينية حديثة ومعاصرة وسخيفة اجتنب بلانت ذكر اسم "السيدة الروسية" التي عرفت بأنها المدام بلافاتسكي. فقد كان من رفاقها العقيد الكوت H.S. Alcot مؤسس جمعية الثيوصوفية Theosophy واثنان من الهندوس البنغاليين المتوجهين لدراسة القانون والمحاماة في لندن. فقد جاءت بلافاتسكي والكوت إلى أوروبا للقاء محفلي لندن وباريس ولمحاولة التأثير على وزارة الخارجية البريطانية بخصوص الحقوق الدينية للهندوس في سيلان .

(7) Ibid., 208.

(8) Rochefort, IV, 347.

(9) 30 March 1884, Blunt, *Gordon,* 211;23 April 1884, ibid., 223; Blunt to Gladstone, 23 April 1884, ibid., 583-4.

(10) 24 April 1884.

(11) 18 and 29 April 1884, Blunt, *Gordon,* 221, 231.

(12) 15 March 1884, in Nutting, 254.

(13) Ohrwalder, 98; Abu-Salim, II, 254.

(14) Allen, 320.

(15) Wingate, *Mahdiism,* 115.

(16) Gordon to Baring, 31 March 1884, in Allen, 321.

(17) Gordon to Baring, received 9 April 1884, in Cromer, *Modern Egypt,* I, 549.

(18) Gordon to Baker, 18 April 1884, in Nutting, 255.

(19) Gordon to Baring, 18 April 1884 (FO78/3761).

(20) Frank Power, 2 January 1884, *Letters from Khartoum,* 70.

(21) 3 April 1884, *Hansard's Parliamentary Debates* (IIIrd Series; London: Cornelius Buckle, 1884), Vol. 282, Col. 1151.

(22) Gladstone to Hamilton, 9 April 1884, Hamilton, II, 566; Gladstone, memo by Hamilton (BM Add. MS 56452).

(23) Allen, 321.

(24) Baring to Granville, No. 350, 24 March 1884 (FO78/3669).

(25) Baring to Granville, No. 362, 26 March 1884 (FO78/3669).

(26) Granville to Baring, No. 191, 28 March 1884 (PRO 30/29/200).

(27) Hartington to Granville, 6 February 1884 (PRO 30/29/134).

(28) Hartington to Granville, 16 April 1884 (PRO 30/29/134); Wolseley to Granville, 22 March 1884; Wilson memo, 28 March 1884 (both PRO 30/29/170).

(29) Gladstone to Hartington, 13 April 1884 (BM Add. MS 44547); Gladstone to the Commons, 21 April 1884, *Hansard* (III), op.cit., Vol. 283, Col.138; Gladstone to the Commons, 23 April 1884, ibid., Col. 476.

(30) 13 May 1884, Blunt, *Gordon*, 240.

(31) The Vote of Censure debate, 12 May 1884, *Hansard* (III), op.cit., Vol. 288, Cols. 55, 65, 70, 71, 73, 216, 235.

(32) Gordon to Baring, 13 July 1884 (received at Cairo 28 August 1884), Cromer, *Modern Egypt*, I, 578.

(33) Gordon to Baring, in ibid., and Allen, 360. The questionnaire, dispatched from London on 23 April 1884, reached Khartoum on 29 July; Gordon's reply reached Cairo on 18 September.

(34) Power to Moberley Bell, 31 July 1884, *Letters from Khartoum*, 111.

(35) Gordon to Baring, 9 September 1884, in Trench, 262, and Nutting, 271. This did not reach Cairo until November.

(36) Mahdi to Gordon, 22 October 1884, in Gordon, *Journals at Khartoum*, 522-30.

(37) Wolseley to Baker, 26 July 1884, in Sir R. Wingate, "Sir Samuel Baker's Papers", in *Quarterly Review*, CCCV (1967), 295-308, 303.

(38) Wolseley to Hartington, 23 July 1884, in Holland, I, 468.

(39) Gladstone to Hartington, 19 August 1884 (BM Add. MS 44147); Hartington, memo to Granville, 15 July 1884 (BM Add. MS 44147, f.87)

(40) Hartington to Granville, 31 July 1884 (BM Add. MS 44147, f.91).

(41) Gladstone to Granville, 1 August 1884, *Political Correspondence*, II (BM Add. MS 44177, f.6).

(42) Gladstone to Hartington, 19 August 1884 (BM Add. MS 44147).

(43) Hartington to Gladstone, 22 August 1884 (BM Add. MS 44147).

(44) Wolseley's diary, 9 and 10 September 1884, *In Relief of Gordon*, 11, 13, 14.

(45) Wolseley to Lady Louisa, 25 November 1884, *Letters*, 132.

(46) 19 September 1884, *In Relief of Gordon*, 18.

(47) 23 October 1884, *Journals*, 212.

(48) Wolseley to Lady Louisa, 13 September 1884, *Letters*, 119.

(49) Gordon, 12 November 1884, *Journals*, 292.

(50) 5 October 1884, ibid., 144.

(51) 5 October 1884, ibid., 139; 19 September 1884, ibid., 50.

(52) Ibid., 54; 24 September, ibid., 86-7.

(53) 14 September 1884, ibid., 28-9.

(54) 13 December 1884, ibid., 364.

(55) 14 December 1884, ibid., 365.

(56) Gordon to Wolseley, 14 December 1884, in Wolseley to Baring, 31 December 1884, enclosed in Baring to Granville, No. 1, 1 January 1885 (FO78/3799).

(57) Gordon to Watson, 14 December 1884, enclosed in Baring to Granville, No. 182, 25 February 1885 (FO78/3801).

(58) Wilson, 19-20.

(59) Ibid., 27-8.

(60) Ibid., 28.

(61) Ibid., 71.

(62) Allen, 418.

(63) Abdullahi to Gordon, 7 or 8 December 1884, *Journals*, App. AB, 476.

(64) Slatin, 344.

(65) The Mahdi (via Abdel Rahman al-Mahdi) to Gordon, 12 January 1885, in A. al-Mahdi, 'Correspondence (inc. Arabic text & trans.) on the Mahdi's last letter to Gordon', in *SNR*, XXIV (1941), 229-32.

(66) B. Bedri, *Memoirs of Babikr Bedri* (2 vols., ed. & trans. Y. Bedrii and P. Hogg, London: Ithaca Press, 1969, 1980), 28-9.

(67) ظلت الظروف المحيطة بمصرع غوردون مثار جدل كبير. لكن أول تقرير مطبوع، وكان بقلم Bordeni Bey، الذي لم يكن شاهد عيان، يعتبر الاقل وثوقية، غير أن الصورة التي ترسخت في أذهان العامة والتي كانت بوحي من لوحة بريشة الفنان William Joy حملت عنوان "الوقفة الأخيرة للجنرال غوردون" قد اكدتها عبارات وردت في كتاب بعنوان "المهدي والسودان المصري *Mahdiism & the Egyptian Sudan* بقلم F.R.Wingate's (London: Frank Cass, 1891), 163-72. ولكن تشير روايتان اخريان بأن غوردون وبحسب طبيعته ونواياه تابع القتال ولعله كان في طريقه إلى مستودع الذخيرة. غير أن تحقيقات كتشنر عام 1885 أوصلته إلى شاهد وحيد هو خادم في القصر قال إن غوردون قد قتل بينما كان يقود جماعة من المقاتلين وهو ذاهب باتجاه منزل القنصل النمساوي مارتن هانسال الذي كان قريباً من مستودع الذخيرة. لكن خليل آغا أورفلي، الحارس الشخصي لغوردون والذي أنقذه غوردون عند درج القصر قال بأنه كان قريباً منه وكانا معاً يقاتلان وهما في طريقهما إلى باحة القصر (SAD 439/637/2) وانظر Trench 290-1 وJ.A. Reid بعنوان "The Death of Gordon: An Eyewitness Account" في *SNR*, XX (1937) 172 - 3.

9 ـ الخلافة الجديدة 1885 ـ 1889

(1) سورة المائدة، الآية 31.

(2) Wilson, 170, 174, 175, 179.

(3) Wolseley to Hartington, No. 44, 4 February 1885 (PRO WO/33/34/II/224).

(4) 5 February 1885, Buckle (ed.) III, 597; Victoria to Gladstone, 5 February 1885, ibid., 598.

(5) 5 February 1885, *Diaries*, XI, 289.

(6) Queen Victoria to Sir Henry Ponsonby, 5 February 1885, Buckle (ed.), III, 598.

(7) Gladstone to Eddy Hamilton, 7 February 1885, Hamilton, II, 790.

(8) Gladstone, 10 February 1885, *Diaries*, XI, 293.

(9) 11 February 1885, in Blunt, *Gordon*, 204-5.

(10) Tawfik to Sir Henry Gordon, in Nutting, 314.

(11) B. Farwell, *Prisoners of the Mahdi* (London: Longmans, 1967), 100.

(12) Gladstone, 12 February 1885, *Diaries*, XI, 295.

(13) 4 February 1885, Wolseley, *In Relief of Gordon*, 135; 6 February 1885, ibid., 138; 4 February 1885, ibid., 135; 24 February 1885, ibid., 153.

(14) 11, 14 February 1885, ibid., 141, 145; 1 March 1885, ibid., 159.

(15) Gladstone, 27 February 1885, *Diaries*, XI, 301.

(16) Gladstone to Granville, 1 April 1885, in *Political Correspondence*, II, p. 354, it. 1616 (PRO 30/29/129).

(17) Blunt, *Gordon*, 373, 384.

(18) 11 March 1885, Wolseley, *In Relief of Gordon*, 164.

(19) 'General Gordon, the Hero of Khartoum', in *Poetic Gems from the Works of William McGonagall* (1890; London: Duckworth, 1954), 167-9.

(20) Gladstone, 25 June 1885, *Diaries*, XI, 368.

(21) Mahdi to the people of Fez, 8 May 1885, in Abu-Salim, IV, 481-8.

(22) Trans. P.M. Holt, 'The Sudanese *Mahdia* and the Outside World: 1881-9', in *Bulletin of SOAS*, XXI (1958), 1, 281.

(23) Ohrwalder, 164-5.

(24) Ibid., 181-3.

(25) Bermann, 290-1.

(26) Slatin, 370.

(27) Ibid., 371-2.

(28) Ohrwalder, 187.

(29) 'Manshur al-Sha'ra' ('The Proclamation of the Hair'), in MS *Abd al-Rahman al-Nujumi* (SOAS, London: photographed material from Sudanese State Archives, Box 9, File 11), ff.96-8; trans. Holt, *Mahdist State*, 123-4.

(30) Abdullahi, trans. Nicoll, 233.

(31) February 1889, in Wingate, *Mahdiism*, 457.

(32) Abdullahi, in a vision puplished 6 January 1888, trans. Holt, *Mahdist State*, 133.

(33) Cromer, *Modern Egypt*, II, 369.

(34) Baring to Rosebery, No. 48, 9 February 1886 (FO633/6).

(35) Cromer, *Modern Egypt*, II, 61, 373-4.

(36) Ibid., 374, 442.

(37) Ibid., 376-7.

(38) Ibid., 380.

(39) Ibid., 449.

(40) Baring to Salisbury, No. 318, 9 October 1888 (FO78/4147).

(41) Trans. Holt, *Mahdist State*, 161, 162.

(42) Grenfell to GOC Egypt, enclosed in Clarke to Salisbury, No. 331, 26 August 1889 (FO78/4242).

(43) Baring to Salisbury, No. 101, 11 December 1889 (FO78/4243).

(44) Cromer, *Modern Egypt*, II, 80, 81.

10 ـ بيضة غلادستون 1889 – 1896

(1) London: Everyman, 1993, 12.

(2) *Bentley's Quartely Review*, 1869, in Roberts, 295.

(3) Wolseley to Lady Louisa, Dongola, 24 November 1884, *In Relief of Gordon*, 31.

(4) Title of a Salisbury article in the *Saturday Review*, Roberts, 199.

(5) Joseph Chamberlain, quoted by *The Times*, 22 January 1896.

(6) W.L. Langer, *The Diplomacy of Imperialism, 1890-1902* (New York: Knopf, 1935), I, 74.

(7) Ibid.

(8) Salisbury to the Earl of Lytton, December 1888, in Roberts, 530; ibid., 518; Salisbury to Scott, 4 May 1887, in Lady G. Cecil, *Life of Robert, Marquis of Salisbury* (London: Hodder & Stoughton, 1924), IV, 43.

(9) Sir H. Johnston, *The Story of My Life* (London: Chatto & Windus, 1923), 221.

(10) *The Times*, 22 August 1888.

(11) Lady G. Cecil, *Salisbury*, op.cit., II, 254.

(12) Slatin, 516.

(13) Ibid., 521.

(14) Ibid., 520.

(15) Ohrwalder, 308-9, 312, 313.

(16) Slatin, 526.

(17) Ohrwalder, 335-7.

(18) Cromer, *Modern Egypt*, II, 75.

(19) 28 March 1890, ibid., 75-6n.

(20) Salisbury at the Mansion House, November 1888, in W.S. Churchill, *The Story of the Malakand Field Force* (London: Longmans, Green, 1901), title page.

(21) Blunt, *Gordon*, 505.

(22) Salisbury to Lord Harrowby, 1889, in Roberts, 520.

(23) Gladstone, 25 June 1892, *Diaries*, XI, 36.

(24) 17 September 1892, in R.R. James, *Rosebery: A Biography of Archibald Philip, 5th Earl of Rosebery* (London: Weidenfield & Nicolson, 1963), 262.

(25) Sir William Harcourt to Rosebery, 23 September 1892, in A.G. Gardiner, *Life of Sir William Harcourt* (London: Constable, 1923), II, 193-5.

(26) James, *Rosebery*, op.cit., 279-80.

(27) Rosebery to J.R. Rodd, ex-consul at Zanzibar, later Cromer's assistant at Cairo, 5 March 1894 (FO10/625).

(28) E.C.H. Phipps to Lord Kimberley, No. 24, 9 August 1894 (FO10/618).

(29) 15 August 1894, Buckle (ed.), II, 420.

(30) *Hansard's Parliamentary Debates* (IVth Series, London: Eyre & Sporttiswoode, 1894), Vol. 32, Cols. 405-6.

(31) C. Michel, *Mission de Bonchamps: Vers Fachoda à la Rencontre de la Mission Marchand* (Paris: Plon, 1905), 5.

(32) May 1893, Langer, *Diplomacy*, op.cit., I, 127.

(33) Carnot to Monteil, *Souvenirs Vécus: Quelques Feuillets de l'Histoire Coloniale* (Paris: Société d'Editions Géographiques; Maritimes et coloniale, 1924), 65-8; V. Prompt, 'Soudan Nilotique', in *Bulletin de l'Institut Egyptien*, III, iv (1893), 71-116.

(34) 28 February 1895, in Sanderson, 272n.

(35) 10 November 1895, *Documents Diplomatiques Français*, 1871-1914 (1st Series; Paris: Alfred Costes, 1951), Vol. XII, No. 192, 280 *(Note du Capitaine Marchand)*.

(36) Cromer to Rosebery, April 1895, in H. Temperley and L.M. Penson, *Foundations of British Foreign Policy from Pitt to Salisbury, or, Documents Old & New* (Cambridge: Cambridge University Press, 1938), 504-5.

(37) 12 March 1896 (FO78/4863).

(38) Salisbury to Cromer, 13 March 1896, in Marquess of Zetland, *Lord Cromer: Being the Authorised Life of Evelyn Baring* (London: Hodder & Stroughton, 1932), 223.

(39) Salisbury to Dufferin, No. 130, 12 March 1896 (FO78/4893).

(40) Cromer to Salisbury, No. 1, 13 January 1896 (FO78/4986); Temperley and Penson, *Foundations*, op.cit.

(41) 28 March 1896 (FO78/4863).

(42) Arthur, I, 187.

11 - دار الحرب 1896 - 1899

(1) Steevens, 45-6.

(2) Kitchener to Augusta Gordon, 16 October 1885 (BM Add. MS 51300, f.156).

(3) 3 December 1873 (Parker Papers, private collection), Pollock, 29; 7 March 1875 (Parker Papers), ibid., 34.

(4) Undated article (c.1910) by Revd F. Penny, from the Archives of the Guild of St Helena, ibid., 37.

(5) Margot Asquith, *More Memories* (London: Cassel, 1933), 122.

(6) Kitchener to his father, 14 May 1884 (Parker Papers), Pollock, 87.

(7) Arthur, I, 88.

(8) 17 March 1885, ibid., I, 105.

(9) Kitchener to E.A. Floyer, 17 March 1885, Royal Engineers Archives, Chatham, file 5001.4/3 (ES41).

(10) 'An Officer' [H.L. Pritchard], *The Sudan Campaign, 1886-1899* (London: Chapman & Hall, 1899), 70.

(11) 27 November 1896, Salisbury Papers (Hatfield House), 109, Magnus, 107.

(12) Salisbury Papers (Hatfield House), 110, ibid., 114.

(13) 6 October 1897, Arthur, I, 217.

(14) Steevens, 30, 31.

(15) Ibid., 32, 52, 86.

(16) C. Repington, *Vestigia* (London: Constable, 1919), 33.

(17) Steevens, 145.
(18) Burleigh, *Sirdar*, 235.
(19) Repington, *Vestigia*, op.cit., 166.
(20) Steevens, 151.
(21) Ibid., 153.
(22) Churchill, *My Early Life*, 176, 177.
(23) Ibid., 182.
(24) Ibid., 183.
(25) Ibid., 186.
(26) Holt, *Mahdist State*, 209.
(27) Churchill, *My Early Life*, 189.
(28) Ibid., 192-3, 195.
(29) Zulfo, 152.
(30) Churchill, *The River War*, II, 87.
(31) Dispatch of 6 September 1898, Churchill, *Young Winston's Wars*, 105.
(32) E.W.C. Sandes, *The Royal Engineers in Egypt & the Sudan* (Chatham: Institute of Royal Engineers), 264.
(33) Churchill, *My Early Life*, 201.
(34) Ibid., 203.
(35) Ibid., 205.
(36) Ibid.
(37) Churchill, *The River War*, II, 142.
(38) Churchill, *My Early Life*, 208.
(39) Dispatch of 6 September 1898, Churchill, *Young Winston's Wars*, 111.
(40) Sandes, 268.
(41) Burleigh, *Khartoum Campaign*, 285.
(42) Churchill, *The River War*, II, 162.
(43) Magnus 133.
(44) Dispatch of 9 September 1898, Churchill, *Young Winston's Wars*, 123.
(45) Dispatch of 10 September 1898, ibid., 128.
(46) Dispatch of 10 September 1898, ibid., 127.
(47) Salisbury to Kitchener, D. Bates, *The Fashoda Incident of 1898: Encounter on the Nile* (Oxford: Oxford University Press, 1984), 140.
(48) Emily, 226.
(49) 7 September 1898.
(50) Churchill, *The River War*, II, 214.
(51) 24 March 1899, Buckle (ed.), III, 353-4.
(52) Ibid., 352-3.
(53) Dispatch of 12 September 1898, Churchill, *Young Winston's Wars*, 139, 140.
(54) Ibid., 122.
(55) W.S.Blunt, *My Diaries:1888-1914* (2 vols., New York: Alfred A. Knopf, 1921), I, 380.

الخاتمة ـ القاهرة 1899

(1) نشرت في صحيفة *Scots Observer* بتاريخ 15/3/1890 ضمن مجموعة شعرية بعنوان *Departmental Ditties, Barrack Roon Ballads & Other Verse* (New York: US Book Co., 1890), 63 - 6. وقد أطلق الجنود البريطانيون تسمية فزي وزي Fuzzy Wuzzies على أفراد قبيلة الهدندوة في الجبال المطلة على البحر الأحمر بسبب أسلوبهم في قص شعورهم.

(2) Dicey, 225.

(3) Cromer, *Modern Egypt*, II, 443.

(4) Blunt, *My Diaries*, I, p. 340.

(5) *Black Ivory, or, The Story of Zubeir Pasha, Slaver & Sultan, as Told by Himself* (trans. And ed. H.C. Jackson; Khartoum: Sudan Press, 1913), 1.

(6) 6 December 1996.

المصادر والمراجع

Abdu, Cheikh M., *Rissalat al-Tawhid: Exposé de la Religion Musulmane* (trans. B. Michel and M.A. Razik; Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1925)

Abu-Salim, M.I., (ed.), *Kitab sa'adat al-mustahdi bi-sirat al-Imam al-Mahdi* (6 vols.; Oxford: Oxford University Press, 1972)

Adams, C.C., *Islam & Modernism in Egypt: A Study of the Modern Reform Movement Inaugurated by Muhammad Abduh* (London: Oxford University Press, 1933; reprinted as *Orientalism: Early Sources: Vol. X*, London: Routledge, 2000)

Ahmed, J.M., *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism* (London: Oxford University Press Middle Eastern Monographs, 1960)

Al-Afghani, J. ed-D., *Documents Concernant Seyyed Jamal-al-Din Afghani* (ed. I. Afshar, I. and A. Mahdavi, Teheran: Teheran University Publication No. 841, 1963)

Ali, A.I.M., *The British, the Slave Trade & Slavery in the Sudan, 1820–1881* (Khartoum: Khartoum University Press, 1972)

Allen, B.M., *Gordon & the Sudan* (London: Macmillan, 1931)

Anti-Slavery Jubilee: Meeting of the British & Foreign Anti-Slavery Society in the Guildhall of the City of London, Under the Presidency of HRH the Prince of Wales (pamphlet reprinted from *The Anti-Slavery Reporter*, 1884; British Library BL 8156.cc.6/3)

Arthur, Sir G., and Maurice, Maj.-Gen. Sir F., *The Life of Lord Wolseley* (London: William Heinemann, 1924)

Arthur, Sir G., *The Life of Lord Kitchener* (3 vols.; New York: Macmillan, 1920)

Baker, F., *Morning Star: Florence Baker's Diary of the Expedition to Put Down the Slave Trade on the Nile, 1870–73* (ed. A. Baker, London: William Kimber, 1972)

Baker, Sir S., 'The Soudan & its Future', *The Contemporary Review*, XLV (Jan. 1884), 64–80

Berlioux, E.F., *The Slave Trade in Africa in 1872, Principally Carried on for the Supply of Turkey, Egypt, Persia and Zanzibar* (London: Edward Marsh, 1872)

Bermann, R., *The Mahdi of Allah: The Story of the Dervish Mohammed Ahmed* (New York: Macmillan, 1932)
Blunt, W.S., *Secret History of the British Occupation of Egypt: Being a Personal Narrative of Events* (London: Unwin, 1907)
Blunt, W.S., *Gordon at Khartoum: Being a Personal Narrative of Events in Continuation of 'A Secret History'* (London: Stephen Swift, 1911)
Broadley, A.M., *How We Defended Arabi & His Friends: A Story of Egypt & the Egyptians* (London: Chapman & Hall, 1884)
Buckle, G. (ed.), *The Letters of Queen Victoria* (3 vols.; London: John Murray, 1928)
Burleigh, B., *Sirdar & Khalifa, or, The Reconquest of the Sudan* (London: Chapman & Hall, 1898)
Burleigh, B., *Khartoum Campaign* (London: Chapman & Hall, 1899)
Cave, S., 'The Financial Condition of Egypt' ['The Cave Report'], in *Parliamentary Papers*, LXXXIII (London: HMSO, 1876)
Chaillé-Long, C., *The Three Prophets: Chinese Gordon, Mohammed-Ahmed (El Maahdi), Arabi Pasha* (New York: Appleton & Co., 1884)
Churchill, W.S., *The River War: An Historical Account of the Reconquest of the Sudan*, (2 vols., ed. Col. F. Rhodes, DSO, London, New York & Bombay: Longmans, Green & Co., 1899)
Churchill, W.S., *My Early Life: A Roving Commission* (London: Thornton Butterworth, 1930)
Churchill, W.S., *Young Winston's Wars: The Original Dispatches of Winston S. Churchill, War Correspondent, 1897–1900* (ed. F. Woods; London: Leo Cooper, 1972)
Colborne, Col. J., *With Hicks Pasha in the Soudan: Being an Account of the Senaar Campaign in 1882* (London: Smith, Elder & Co., 1884)
Cole, J.R.I., *Colonialism & Revolution in the Middle East: Social & Cultural Origins of Egypt's Urabi Movement* (Princeton: Princeton University Press, 1993)
Cole, J.R.I., 'New Perspectives on Sayyid Jamal al-Din al-Afghani in Egypt', in *Iran and Beyond: Essays in Middle Eastern History in Honor of Nikki R. Keddie* (eds. R. Mathee and B. Baron; Costa Meza: Mazda, 2000), 13–35
Colomb, Captain, RN, *Slave-Catching in the Indian Ocean: A Record of Naval Experiences* (London: Longmans, Green & Co., 1873)
Colvin, Sir A., *The Making of Modern Egypt* (London: Seeley, 1906)

Cooper, J., *The Lost Continent, or Slavery and the Slave Trade in Africa* (London: Longmans, 1875)
Crabitès, P., *Ismail: The Maligned Khedive* (London: Routledge, 1933)
Crabitès, P., *Gordon, the Sudan and Slavery* (London: Routledge, 1933)
Cromer, Earl of (Sir Evelyn Baring), *Modern Egypt* (2 vols., London: Macmillan, 1908)
Cromer, Earl of (Sir Evelyn Baring), *Abbas II* (London: Macmillan, 1915)
Curtin, Philip D., *The Image of Africa, Vol. I: British Ideas and Action, 1780–1850* (Wisconsin: University of Wisconsin Press, 1964, 1973)
Daly, M.W., *Empire on the Nile: The Anglo-Egyptian Sudan, 1898–1934* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991)
Daly, M.W., *Imperial Sudan: The Anglo-Egyptian Condominium, 1934–56* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991)
Dicey, E., *The Story of the Khediviate* (London: Rivingtons, 1902)
Dujarric, G., *L'Etat Mahdiste du Soudan* (Paris: Librairie Orientale et Americaine, 1901)
Elton, G., *General Gordon* (London: Collins, 1954)
Emily, Dr J., *Mission Marchand: Journal de Route du Dr J. Emily* (Paris: Librarie Hachette, 1913)
Ewald, J., *Soldiers, Traders & Slaves: State Formation & Economic Transformation in the Greater Nile Valley, 1700–1885* (Wisconsin: Wisconsin University Press, 1990)
Farwell, B., *Queen Victoria's Little Wars* (London: Allen Lane, 1973)
Ganem, H., 'Europe's Stake in the Soudan', in *The Fortnightly Review*, CCIX (May 1884), 645–54.
Gessi, R., *Seven Years in the Soudan: Being a Record of Explorations, Adventures & Campaigns Against the Arab Slave Hunters* (trans. L. Wolffsohn and B. Woodward; London: Sampson, Low, Marston & Co., 1892)
Giegler, C.C., *The Sudan Memoirs of Carl Christian Giegler Pasha, 1873–83* (ed. R. Hill; Oxford: Oxford University Press, 1984)
Giffin, M.B., *Fashoda: The Incident and its Diplomatic Setting* (Chicago: University of Chicago Press, 1930)
Gladstone, W.E., *The Gladstone Diaries with Cabinet Minutes & Personal Correspondence, Vols. IX: January 1875–December 1880; X: January 1881–June 1883; XI: July 1883–December 1886* (ed. H.C.G. Matthew; Oxford: Clarendon, 1986, 1986, 1990)

Gladstone, W.E., *Midlothian Speeches, 1879* (ed. M.R.D. Foot; New York: Leicester University Press, 1971)

Gladstone, W.E., *Political Correspondence of Mr Gladstone & Lord Granville, 1876–1886, Vol. I: 1876–82; Vol. II: 1883–6* (ed. A. Ramm; Oxford, Oxford University Press: 1962)

Gleichen, Lt-Col. Count (ed.), *The Anglo-Egyptian Sudan, a Compendium Prepared by Officers of the Sudan Government, Vol. I* (London: HMSO, Harrison & Sons, 1905)

Gordon, C.G., *Colonel Gordon in Central Africa, 1874–1879* (ed. G.B. Hill; London: Thomas de la Rue, 1881)

Gordon, C.G., *Letters to his Sister* (London: Macmillan, 1888)

Gordon, C.G., *The Journals of Major-General C.G. Gordon at Khartoum* (ed. E. Hake; Boston: Houghton, Mifflin & Co., 1885)

Gray, R., *History of the Southern Sudan, 1839–1899* (London: Oxford University Press, 1961)

Hamilton, Sir E., *The Diaries of Sir Edward Hamilton* (2 vols.; Oxford: Oxford University Press, 1972)

Harrington, P., and Sharf, F. (eds.), *Omdurman 1898: The Eye-Witnesses Speak* (London: Greenhill, 1998)

Harrison, R.T., *Gladstone's Imperialism in Egypt: Techniques of Domination* (Westport: Greenwood, 1995)

Hasan, Y.F., *The Arabs & the Sudan from the 7th Century to the Early 16th Century* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1967)

Hicks Pasha, Gen. Sir W., *The Road to Shaykan: Letters of General Sir William Hicks Pasha, Written During the Sennar & Kordofan Campaigns, 1883* (ed. M.W. Daly; Durham: Durham University Centre for Middle Eastern & Islamic Studies, 1983)

Hill, R. L., *A Biographical Dictionary of the Sudan* (2nd edn, London: 1957)

Hill, R., *Egypt in the Sudan, 1820–1881* (London: Oxford University Press, 1959)

Hobsbawm, E., *The Age of Capital* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1975, 1995)

Holland, B.H., *The Life of Spencer Cavendish, 8th Duke of Devonshire* (2 vols.; London: Longmans, Green, 1911)

Holt, P.M., *The Mahdist State in the Sudan, 1881–1898: A Study of its Origins, Development and Overthrow* (Oxford: Clarendon Press, 1958)

Holt, P.M., 'The Place in History of the Sudanese Mahdia', *SNR*, XL (1959), 107–112

Hunter, F., *Egypt under the Khedives, 1805–1879: From Household Government to Bureaucracy* (Pittsburgh: Pittsburgh University Press, 1984)

Jackson, H.C., *Osman Digna* (London: Methuen, 1926)

Jeal, T., *Livingstone* (London: Heinemann, 1973)

Karrar, A.S., *The Sufi Brotherhoods in the Sudan* (London: Hurst, 1992)

Karsh, E., and Karsh, I., *Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789–1923* (Cambridge: Harvard University Press, 1999)

Keddie, N.R., *An Islamic Response to Imperialism: Political & Religious Writings of Sayyid Jamal ad-Din al-Afghani* (Berkeley: University of California Press, 1968, 1983)

Keddie, N.R., *Sayyid Jamal ad-Din al-Afghani: A Political Biography* (Berkeley: University of California Press, 1972)

Kedourie, E., *Afghani and Abdu: An Essay on Religious Unbelief & Political Activism in Modern Islam* (1966; London: Frank Cass, 1997)

Kramer, M., 'Pen and Purse: Sabunji and Blunt', in *The Islamic World From Classical to Modern Times: Essays in Honor of Bernard Lewis*, eds. C.E. Bosworth, et al. (Princeton: Darwin, 1989), 771–80

Kramer, R.S., *Holy City on the Nile: Omdurman, 1885–1898* (unpublished PhD dissertation; Northwestern University, Evanston, Illinois, 1991)

Laffin, J., *The Arabs as Master Slavers* (Englewood: SBS, 1982)

Landes, D., *Bankers & Pashas: International Finance & Economic Imperialism in Egypt* (London: Heinemann, 1957)

Leon, E. de, *Egypt Under its Khedives: Or, The Old House of Bondage Under New Masters* (London: Sampson, Low, 1881)

Lewis, B., *Race & Slavery in the Middle East: An Historical Enquiry* (Oxford: Oxford University Press, 1990)

Lewis, D.L., *The Race to Fashoda: European Colonialism & African Resistance in the Scramble for Africa* (London: Bloomsbury, 1998)

Madden, R.R., *Egypt & Mohammed Ali: Illustrative of the Condition of his Slaves and Subjects* (London: Hamilton, Adams & Co., 1841)

Magnus, P., *Kitchener: Portrait of an Imperialist* (London: John Murray, 1958; Arrow, 1961)

Malet, Sir E., *Egypt 1879–83* (London: John Murray, 1909)

Malortie, Baron de, *Egypt: Native Rulers & Foreign Interference* (London: William Ridgway, 1882)

Marlowe, J., *Spoiling the Egyptians* (London: Andre Deutsch, 1974)
Matthew, H.C.G., *Gladstone, 1809–1898* (2 vols., 1986 & 1995; single-volume edition Oxford: Oxford University Press, 1997)
McCoan, J.C., *Egypt Under Ismail* (London: Chapman & Hall, 1889)
Mengin, F. *Histoire Sommaire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly* (2 vols., Paris, 1839)
Meredith, J. (ed.), *Omdurman Diaries, 1898: Eyewitness Accounts of the Legendary Campaign* (London: Leo Cooper, 1998)
Michel, C., *Vers Fachoda: À la Rencontre de la Mission Marchand* (Paris: Librairie Plon, 1900)
Mofawi, Reda, *Slavery, Slave Trade & Abolition Attempts in Egypt & the Sudan, 1820–1882* (Lund: Studies in International History, 1982)
Moorehead, Alan, *The White Nile* (London: Hamish Hamilton, 1960)
Moorehead, Alan, *The Blue Nile* (London: Hamish Hamilton, 1962)
Morris, J., *Heaven's Command: An Imperial Progress* (London: Faber & Faber, 1973)
Neufeld, C., *A Prisoner of the Khaleefa: Twelve Years' Captivity at Omdurman* (London: Chapman & Hall, 1899)
Nicoll, F., *The Sword of the Prophet: The Mahdi of Sudan & the Death of General Gordon* (Stroud: Sutton, 2004)
Nutting, Anthony, *Gordon: Martyr and Misfit* (London: Constable, 1966)
O'Fahey, R.S., 'Sufism in Suspense: The Mahdi and the Sufis', in *Islamic Mysticism Contested* (ed. F. de Jong and Berndt Radtke; Leiden: Brill, 1999), 267–82
Ohrwalder, Fr J., *Ten Years' Captivity in the Mahdi's Camp, 1882–92, from the Original Manuscripts of Father Joseph Ohrwalder, late Priest of the Austrian Mission Station at Delen in Kordofan, by Major F.R. Wingate* (London: Sampson Low, Marston & Co., 1892)
Pakenham, Thomas, *The Scramble for Africa, 1876–1912* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1991)
Pollock, J.C., *Kitchener, comprising The Road to Omdurman & The Saviour of the Nation* (London: Constable, 2001)
Porter, A. (ed.), *The Oxford History of the British Empire, Volume III: The 19th Century* (Oxford: Oxford University Press, 1998)
Power, F., *Letters from Khartoum: Written During the Siege* (London: Sampson, Low, 1885)
Ratib al-Imam al-Mahdi (The Mahdi's Ratib), SAD 97/1
Roberts, A., *Salisbury: Victorian Titan* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1999)

Robinson, R., and Gallagher, J., *Africa & the Victorians: The Official Mind of Imperialism* (London: Macmillan, 1961)
Robson, B., *Fuzzy Wuzzy: The Campaigns in the Eastern Sudan, 1884–85* (Tunbridge Wells: Spellmount, 1993)
Royle, C., *The Egyptian Campaigns, 1882–1885* (London: Hurst & Blackett, 1900)
Royle, T., *The Kitchener Enigma* (London: Michael Joseph, 1985)
Russell., H., and Gattie, W., *The Ruin of the Soudan: Cause, Effect, and Remedy* (London: Low, Marston, 1892)
Sanderson, G.N., *England, Europe & the Upper Nile, 1882–1899* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1965)
Sanderson, G.N., 'Conflict & Co-operation between Ethiopia & the Mahdist State, 1884–98', *Sudan Notes & Records*, L (1969), 84–90
Schölch, A., *Egypt for the Egyptians!: The Socio-political Crisis in Egypt, 1878–82* (London: Ithaca, 1981)
Schölch, A., 'The "Men on the Spot" and the English Occupation of Egypt in 1882', in *Historical Journal*, XIX (1976), 773–85
Segal, Ronald, *Islam's Black Slaves: The History of Africa's Other Black Diaspora* (London: Atlantic, 2001)
Shaked, H., *The Life of the Sudanese Mahdi: A Historical Study of Kitab sa'adat al-mustahdi bi-sirat al-Imam al-Mahdi by Ismail din Abd-al-Gadir* (New Jersey: Transaction, 1978)
Shibeika, M., *British Policy in the Sudan, 1882–1902* (London: Oxford University Press, 1952)
Shibeika, M. *The Independent Sudan* (New York: Peller & Sons, 1959)
Shukry, M.F., *Equatoria under Egyptian Rule: The Unpublished Correspondence of C.G. Gordon with Khedive Ismail during the years 1874–1876* (Cairo, 1953)
Slatin, R.C., *Fire & Sword in the Sudan: A Personal Narrative of Fighting & Serving the Dervishes, 1879–95* (London: Edward Arnold, 1892, 1896)
Spiers, E. (ed.), *Sudan: The Reconquest Reappraised* (London: Frank Cass, 1998)
Stanley, Henry M., *Address Before the Anti-Slavery Society at Manchester, October 23rd, 1884* (BL 10097.m.12/1)
Steevens, G.W., *With Kitchener to Khartoum* (London: Blackwood, 1898)
Stevenson, R.C., 'Old Khartoum, 1821–85', in *SNR*, XLVII (1966), 1–38
Strage, Mark, *Cape to Cairo* (London: Jonathan Cape, 1973)

Taylor, B., *A Journey to Central Africa* (New York: Sampson, Low, 1854)

Theobald, A.B., *The Mahdiya: A History of the Anglo-Egyptian Sudan, 1881–1899* (London: Longman, Green & Co., 1951)

Trench, C.C., *The Road to Khartoum: A Life of General Charles Gordon* (New York: Norton, 1979)

Trimingham, J.S., *Islam in the Sudan* (London, Frank Cass, 1965)

Warburg, G., *Islam, Sectarianism & Politics in Sudan since the Mahdiya* (London: Hurst, 2003)

Wilkinson-Latham, R., *The Sudan Campaigns, 1881–98* (London: Osprey, 1976)

Wilson, Col. Sir C.W., *From Korti to Khartoum: A Journal of the Desert March from Korti to Gubat, and of the Ascent of the Nile in General Gordon's Steamers* (London: Blackwood, 1886)

Wingate, Maj. F.R., *Mahdiism and the Egyptian Sudan: Being an Account of the Rise & Progress of Mahdiism & of the Subsequent Events in the Sudan to the Present Time* (London: Macmillan, 1891)

Wingate, Col. F.R., 'Note on the Dervish Wounded at Omdurman', in *Parliamentary Blue Books: Egypt*, I (London: HMSO, 1899)

Wingate, R., *Wingate of the Sudan: The Life & Times of General Sir Reginald Wingate, Maker of the Anglo-Egyptian Sudan* (London: John Murray, 1955)

Wolseley, Field-Marshal Viscount G., *The Story of a Soldier's Life* (2 vols., London: Ernest Russell, 1903)

Wolseley, Field-Marshal Viscount G., and Wolseley, Lady Louisa Erskine, *The Letters of Lord & Lady Wolseley, 1870–1911* (ed. Sir G. Arthur; London: William Heinemann, 1922)

Wolseley, Field-Marshal Viscount G., *In Relief of Gordon: Lord Wolseley's Campaign Journal of the Khartoum Relief Expedition, 1884–85* (ed. A. Preston; London: Hutchinson, 1967)

Ziegler, P., *Omdurman* (London: Frederick Warne, 1980)

Zilfu, I.H., *Karari: The Sudanese Account of the Battle of Omdurman* (London: Frederick Warne, 1980)

Zubair Pasha, R., *Black Ivory, or, The Story of Zubair Pasha, Slaver & Sultan, as Told by Himself* (ed. H.C. Jackson; Khartoum: Sudan Press, 1913)

ولد المؤلف **دومينيك غرين** في لندن وتلقى علومه العليا في جامعة أكسفورد حيث حاز على شهادة الماجستير بالأدب الإنكليزي، ثم تابع دراسته في جامعة هارفارد ونال شهادة الماجستير في الدراسات اليهودية. له كتاب The Double Life of Dr Lopez الذي حظي بترحيب واسع من النقاد. وهو أيضاً عازف غيتار، حيث شارك العديد من الفنانين في العزف وتسجيل المقطوعات الموسيقية نذكر منهم بيرت بشاراش وإلفيس كوستيلو وديون ورويك. أما حالياً فهو زميل في جمعية التاريخ المقارن بجامعة برانديز Brandeis. يقطن حالياً في مدينة نيوتن بولاية ماساتشوستس، وهو متزوج وله بنتان.

صور الغلاف

الصورة في الغلاف الأمامي لوحة بعنوان "الجواد وفارسه" من مكتبة Mary Evans Picture Library، والمنظر في خلفية الصورة "الخليفة في معركة أم درمان" من Walker Art Gallery, National Museums Liverpool / The Bridgeman Art Library. في الغلاف الأخير لوحة بعنوان "معركة أم درمان 2/9/1898، هجوم الكتيبة 21 من فرقة Lancers" ومصدرها The Art Archive / Parker Gallery London / Eileen Tweedy.

يروي هذا الكتاب قصة ما يحدث عادة عندما يجد رئيس وزراء ذو ذهن ليبرالي منفتح نفسه أمام جماعتين متعارضتين من الأصوليين هما الأصوليون الإسلاميون والأصوليون المسيحيون. ولعل هذه القصة قد تكون حكاية من عصرنا الراهن، لكنها في واقع الأمر هي قصة الإسلام وتلك الإمبراطورية التي نشأت في حوض النيل عام 1869 تقريباً.

في أواخر القرن التاسع عشر كان نهر النيل مسرح أول مواجهة وقعت بين الغرب والإسلام في العصر الحديث. في خضم أول صدام استثنائي بين الأوروبيين والعرب والأفارقة نشأت ثلاث إمبراطوريات في فترة لا تتجاوز ثلاثين عاماً. أما شخصيات هذه الإمبراطوريات فكانوا رجالاً استثنائيين وأسطوريين، هم: وليم غلادستون، والجنرال غوردون، وونستون تشرشل، والجنرال كتشنر. وبرغم ذلك، فهي قصة يرويها لنا أشخاص من غير ذوي العلاقة بهذا الصدام، هم: مبشر مسيحي، وتاجر رقيق، وموظف في القصر، وجندي.

إنها قصة لعصر باتت فيه النوايا الحسنة موضع مساومة، وبالتالي تفسح الطريق أمام سياسة الواقع التي لا تولي اهتماماً للأخلاق، ثم تتحدث عن كيفية صعود وسقوط الإمبراطوريات جراء هكذا تغيرات في المواقف.

وصفت صحيفة الغارديان هذا الكتاب بقولها: "إنه كتاب رائع بأسلوب جميل".

وقالت الإيكونوميست: "يكتب غرين بأسلوب جذاب ويرسم بكلماته لوحات رائعة الجمال".

أما بوسطن غلوب فوصفته بقولها: "زاخر بالعلم والمعرفة، وساخر وممتع إلى حد يعجز عنه الوصف".